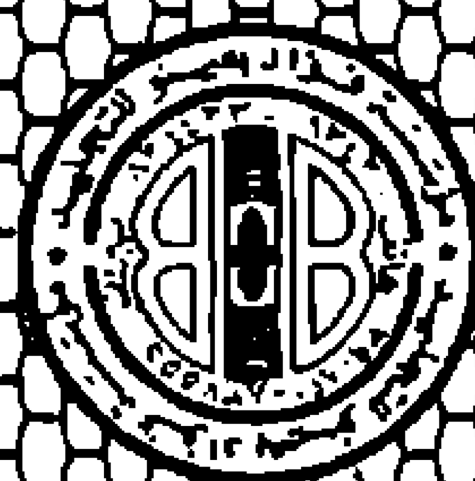
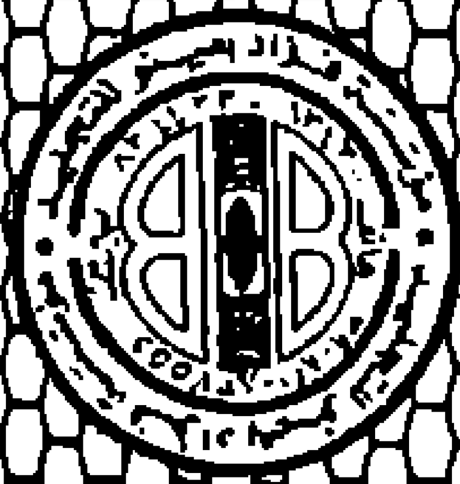
الدكتور يحيى بوعزيز

أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة

الجزء الأول







أعلام الفكر والثقافة

في الجزائر المحروسة

الدكتور يحيى بوعزيز

أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة

الجزء الأول



الطبعة الأولى

1995

© دار الغرب الإسلامي
ص . ب . 5787-113 بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمـة

قصة هذا الكتاب طريفة وتستوجب الوقوف عندها، وقد أعددناه في جزئين اثنين لكل منهما قصته وحكايته.

الجزء الأول: أعددناه في الأصل ليكون الجزء الأول من الجزئين اللذين خصصناهما لدراسة الثورة المسلحة في الولاية الثالثة من الولايات الست للثورة الجزائرية 1954 ـ 1962. ولكن ما أفرزته ديمقراطية اكتوبر 1988 من الدعوة للائكية الدولة، وأمازيغية اللغة والثقافة، دفعنا لنجعله كتاباً مستقلاً بذاته ليكون أحسن رد وجواب مفحم للذين يريدون الشر للإسلام واللغة والثقافة العربية الإسلامية في هذه البلاد التي أنجبت، وما تزال تنجب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أبطالاً، وعظماء، ومفكرين مبدعين، في جميع التخصصات تجاوزت سمعتهم ومكانتهم وتأثيراتهم رقعة الجزائر وبلدان المغرب والأندلس، إلى بلدان الشرق العربي الإسلامي وآسيا الوسطى، ومجاهل إفريقيا، وجنوب أوروبا. وتركوا بصماتهم على كل جوانب الحياة الحضارية، وعمل الكثير منهم بصمت ورحلوا عن هذه الدنيا بصمت وكانوا بحق جنود الخفاء.

وهذا ما دعانا إلى تخصيص هذا السفر لاستعراض تراجم وسير بعضهم في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة التي نشأت عليها الدولة الحمادية بشرق الجزائر من القرن التاسع إلى نهاية القرن العشرين الحالي، ما دام من الصعب الترجمة لجميعهم، وعلى المستوى الوطني لأن ذلك يتطلب جهوداً جماعية.

ومجلدات عدة، وإمكانات مادية معتبرة غير متاحة لنا. وما لا يعمل كله لا يهمل بعضه كما يقول المثل السائر.

وليس هذا العمل بالأمر الغريب، فقد سبقنا إلى مثله بعض العلماء فيما مضى، فأرخ أحمد الغبريني لعلماء بجاية في كتابه: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية[1]، وأرخ ابن مريم لعلماء تلمسان في كتابه: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان[2]، وأرخ محمد الحفناوي لكثير من العلماء والصلحاء في كتابه: تعريف الخلف برجال السلف[3]، كما أرخ قبلهم ابن صعد التلمساني لكثير من العلماء والصلحاء. في كتابه: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، وكتابه: روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين الذي استخرجه من الأول[4]، وأرخ آخرون غيرهم لا مجال لذكرهم هنا.

وقد بذلنا جهوداً مضنية في جمع مادة هذا الجزء خاصة بالنسبة لسير العلماء المحدثين والمعاصرين، فاعتمدنا على المراسلات، والاتصالات المباشرة، والمعرفة الشخصية. فكتب لنا البعض سيرهم وتراجمهم بأقلامهم، وأمدنا البعض بسير من يعرفونهم شخصياً أو لديهم معلومات موثوق بها. وترجمنا نحن لمن نعرفهم شخصياً وغادروا هذه الدنيا واستعنا بمن نعرفهم كذلك ليكون العمل كاملاً أو قريباً من الكمال. أما الذين لا نملك عنهم معلومات كافية فقد اكتفينا بإيراد أسمائهم، ومواطنهم في انتظار استيفاء

---

(1) حقق هذا الكتاب ونشره ابن أبي شنب بالجزائر عام 1910 وأعاد نشره المرحوم رابح بونار عام 1971 م.

(2) حقق هذا الكتاب ونشره ابن أبي شنب عام 1908 وأعاد سحبه ديوان المطبوعات الجامعيز عام 1986م.

(3) نشر هذا الكتاب بالجزائر عام 1906 وأعادت سحبه مؤسسة الرسالة والمكتبة العتقة بتونس عام 1982م.

(4) كتاب النجم الثاقب ما يزال مخطوطاً في المكتبات العامة والخاصة، وروضة النسرين حققناه نحن وقدمناه للطبع والنشر لدى مؤسسة: دار الغرب الإسلامي لصاحبها الفاضل الحبيب اللمسي.

المعلومات المطلوبة مستقبلاً إن شاء الله، ولشحذ الهمم الأخرى لتبحث عنها وتدرس حياتها الفكرية والثقافية.

وخلال هذا استعرضنا المؤسسات العلمية والتربوية في المنطقة مثل الزوايا والمدارس، والمعاهد، والمساجد، والمعمرات، التي كان لها دور رائد وأساسي في تكوين هذا الحشد من العلماء، والمفكرين، والمثقفين، خاصة في الفترة الاستعمارية الأروبية التي امتدت من 1830 إلى 1962 وتعتبر من أحلك وأظلم فترات تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر.

الجزء الثاني: أعددناه منذ مطلع الثمانينات واستعرضنا فيه سير عدد من العلماء الكبار في مدن تلمسان ووهران وتلمسان الذين أنجبتهم عائلات علمية ذات باع في الفكر والثقافة، على مستوى العالم العربي الإسلامي كله غربه وشرقه. وتعثر طبعه في المؤسسة الوطنية للكتاب لأسباب بيروقراطية نأسف لها. وجاءت المناسبة ليضم إلى هذا السفر، ونكون بذلك قد جمعنا بين عمل الغبريني وابن مريم. وابن صعد، والحفناوي وآخرين.

إن التاريخ الفكري والثقافي لأية أمة، هو المقياس الأساسي والأداة الفعالة لوزن وقياس مدى نهضتها، ورقيها، وتقدمها، ومدى مشاركتها في تشييد الحضارة الإنسانية المحلية والعالمية. وما قدمناه نحن في هذين الجزئين من أعلام الجزائر يؤكد أصالة وعراقة حضارة الجزائر، ويثبت المشاركة الفعالة للعشب الجزائري المؤمن والمسلم، والمجاهد، في إثراء وإخصاب الحضارة العربية الإسلامية مشرقاً ومغرباً.

وهو ما يجب على الأجيال الصاعدة أن تعرفه، وتطلع عليه لترى ما أنجزه الأجداد، وما بذلوه من جهود جبارة عبر التاريخ وفي كل مجالات الحياة لتعيش هي اليوم حرة مكرمة ومستقلة وفخورة بماضيها، وحاضرها، ومستقبلها.

فباسم الله وعونه نقدم للمكتبة التاريخية هذا الجهد المتواضع من سير الأجداد تحت عنوان: «أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة» بجزئيه عن شرق البلاد وغربها آملين أن يجد صداه ومكانته المطلوبة.

ونقدم شكرنا وتقديرنا للأخ الفاضل: السيد الحبيب اللمسي، وداره العامرة دار الغرب الإسلامي التي تولت طبعه ونشره.

والله يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح والفلاح

الجمعة [وهران ـ حي جمال الدين
18 ذو القعدة 1414 هـ
29 ابريل 1994 م]

د. يحيى بو عزيز
معهد التاريخ
جامعة وهران
(الجزائر)

تمهيـــد

أوضاع شبه جزيرة المغرب قبل الإسلام

كان إقليم شمال إفريقيا الغربي، أو شبه جزيرة المغرب، قبيل الفتح الإسـلامـي، يعـانـي، ويعيـش اضطـرابـات خطيـرة: سيـاسيـة، واقتصـاديـة، واجتمـاعيـة، وثقـافيـة، عـرضتـه للتمـزق، والتشتت، والتحطيـم، لأنـه بلـي بالاستعمار الروماني الشرس، ذي الطابع العسكري، الذي كان همه الوحيد، وهدفه الأساسي، تسخير واستغلال إمكانياته الاقتصادية والبشرية، لصالح روما وإيطاليا.

وهذا ما فعله الوندال، والبيزنطيون، بعده، فعانى شعب هذا الإقليم أعباء مرهقة، وشاقة، وقاسى مالا يتصور من الأتعاب، والكوارث الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والدينية، والثقافية، ولم يجد وسيلة للتخلص سوى التمرد، والثورة. ومد زعماؤه أيديهم إلى حلفاء جدد خارج الإقليم تمثلوا في العرب المسلمين القادمين من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، حاملين معهم العقيدة الإسلامية الجديدة بقيمها السماوية، ومثلها العليا السامية.

وكان مما ساعد على فك عرى الارتباط بين شعوب شمال إفريقيا الغربي، والإدارة البيزنطية، انعدام الانسجام بينهما رغم القرون الطويلة التي قضاها الغزاة الرومان، والبيزنطيون في هذه البلاد.

وهذا يذكرنا أيضاً بالعهد الاستعماري الفرنسي حديثاً الذي قضى في هذه البلاد، قرناً وثلث القرن، ولكنه لم ينجح في إحكام ولو مجرد صلة عادية

وبسيطة مع شعب هذه البلاد، رغم كونه سلك نفس السياسة، وطبق نفس الأساليب، ورحل مخذولاً ومطروداً كسابقيه.

ما قدمه الإسلام لشعب هذا الإقليم

وقد استطاع العرب المسلمون، بيسر وسهولة، وفي وقت قصير جداً، أن يفرضوا سيطرتهم السياسية على هذه البلاد، ويندمجوا مع سكانها الأمازيغ، ويؤثروا فيهم، بفضل المبادىء السمحة للدين الإسلامي الجديد الذي جاؤوا به ومن أجله، إلى هذه البلاد، وأعاد هذا الاندماج السريع بين المسلمين الوافدين الجدد، وبين سكان هذه البلاد الأصليين، الوحدة الوطنية والقومية للإقليم، وأزال ذلك التشتت، والتمزق، اللذين خلفهما العهد البيزنطي السابق، والروماني قبله، وبذلك انسجمت الوحدة الجغرافية والتاريخية للإقليم، مع الوحدة السياسية، والدينية، واللغوية الجديدة.

وربط الإقليم بالخلافة الإسلامية في المدينة المنورة أولاً، ودمشق ثانياً، وبغداد ثالثاً، وبقي على هذه الحال حتى عهد هارون الرشيد، ثم حدثت تطورات جديدة فرضتها الأحداث الجارية، وبرزت زعامات محلية إقليمية جديدة، سعت لتحقيق استقلالها وانفصالها عن الخلافة بالمشرق، ولكن في إطار الإسلام دائماً، وهو أمر له أهمية خاصة، في بقاء شعب الإقليم مسلماً حتى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قيام المراكز الحضارية ببلدان المغرب

وكان أهم شيء قدمه الإسلام الجديد الوافد لهذا الإقليم وشعبه، هو وحدة اللغة والعقيدة، التي دعمت وحدته العرقية، والجغرافية، والتاريخية، وهو أمر جد هام لم يستطع الرومان، ولا مسيحية روما وبيرنطية، أن تقدمه وتوفره لهما.

وبفضل وحدة اللغة والعقيدة هذه، وفي إطار الإسلام، انكب شعب الإقليم على البناء والإبداع الحضاري في أوسع مجالاتهما، وفي جو من الحرية السياسية، والبحبحة الاقتصادية، وقامت بالإقليم مراكز حضارية هامة لا تقل مكانة ورقياً عن مراكز الشرق الإسلامي. مثل: القيروان، وفاس، وتيهرت، والمسيلة، وأشير، وقلعة بني حماد، وبجاية، ومراكش، وتلمسان، وقسنطينة، إلى جانب حواضر الأندلس الكبرى، وصقلية الإسلامية، التي تعتبر جزءاً من هذا الإقليم المغاربي، ومن صنعه وإبداعه.

وقد أخصب فيها الفكر، ونفقت التجارة، وتطور العمران واتسع، وازدهرت الفلاحة والصناعة، والحياة الاقتصادية بصفة عامة، وتطورت الحياة الاجتماعية وازدهرت، ونما السكان وكثروا، وأبدعوا في كل مجالات الحضارة.

وأنجب الإقليم أبطالاً من عظماء الرجال، وذوي المكانة العالمية، أمثال طارق بن زياد، وأسد بن الفرات، وجوهر العقلي، وجعفر بن فلاح، وجعفر بن علي، وزيري بن مناد، وبلكين بن زيري وحماد بن بلكين، والناصر بن علناس، وعبد المؤمن بن علي، وياغمراسن الزياني، امتد تأثيرهم إلى خارج الإقليم، وكان من نتيجة أعمالهم فتح الأندلس، وصقلية، ونشر الإسلام بهما، وتأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر بمصر، وغرناطة بالأندلس.

كما أنجب الإقليم فطاحل العلماء، والأدباء، والشعراء، والفقهاء، والكتاب، والمفكرين، والفلاسفة، والمؤرخين أمثال: ابن رشيق المسيلي، وسحنون القيرواني، وابن عرفة التونسي، والقاضي عياض السبتي، والشريف السبتي الإدريسي، وابن مرزوق الخطيب، والحفيد، وحفيد الحفيد، وإبراهيم الآبلي، وأحمد المقري، وسعيد العقباني، التلمسانيون، وأحمد الغبريني، وأحمد بن إدريس البجائي، وعبد الرحمان الوغليسي، وابن معطى النحوي، والشيخ ابن مروان العنابي، وعبد الرحمن الثعالبي، وعبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحيى، وعبد الكريم الفقون، ويحيى العيدلي، والحسين الورتلاني،

وغيرهم، شاركوا كلهم في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية، وإثرائها، تلك الحضارة التي ستكون أهم رافد لنهضة أوروبا ويقظتها[1].

مركز بجاية الحضاري:

ونظراً للدور الهام الذي قامت به بجاية في الميدان الحضاري، خاصة الجوانب الفكرية والثقافية، التي ستنعكس على منطقة جبال البيبان، والبابور، وحوض الصومام، والحضنة، فلا بد من كلمة حولها، وحول هذا الدور كقاعدة لعمل الأجيال المتلاحقة بعد ذلك.

لقد تم تأسيس مدينة بجاية في بداية النصف الثاني من القرنين: الخامس الهجري (460 هـ) والحادي عشر الميلادي (1067 م)، على أيدي الأمير الناصر بن علناس الحمادي، كصنوة، لقلعة بني حماد التي هي صنوة لمدينة أشير.

وكانت في الأصل ميناء بحرياً قديماً يدعى: صلداي، يرد عليه البحارة منذ عهد الفينيقيين، وعندما أسسها الناصر سماها: الناصرية، ولكن الناس غلبوا عليها اسم: أَبْقَايَتْ، البربري، الذي كان اسماً لإحدى القبائل الأمازيغية القاطنة هناك حسب رواية ابن خلدون، وما تزال هذه التسمية الأمازيغية حتى اليوم مستعملة من طرف سكان المنطقة ذوي الأصول الأمازيغية، وهي التي صحفت بالعربية، وأصبحت هكذا: بجاية. في المصادر العربية، والنطق العربي.

وقد أسست هذه المدينة: بجاية، على السفح الشرقي للجبل الذي يشرف على البحر إلى جوار مصب وادي الصومام الكبير غرباً، وعندما انتقل الناصر بن علناس الحمادي إليها عام 461 هـ، أسس بها ورشتين، لبناء السفن، والمراكب

---

(1) يحيى بوعزيز: جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، **الأصالة**. عدد 19 (مارس ـ ابريل 1974) ص 287 ـ 301.

البحرية: الحربية، والتجارية وقصرا لزوجته بلارة، بنت تميم بن المعز أمير المهدية الصنهاجي.

وتوسع عمرانها، بعد ذلك، حتى أصبح بها إحدى وعشرون حياً، واثنان وسبعون مسجداً، ومائة وخمسون ألف ساكن، وقصور، وحمامات، ودكاكين، وتكايا، ووكالات، وكتاتيب، وورش لصناعة الخشب، والأدوات الطينية، والنحاسية، والحديدية، والحلي الفضية، والذهبية.

وجلب إليها الماء عبر السواقي، والقنوات العلوية، واهتم الفلاحون حولها، وفي فحصها، بفلاحة الحبوب، وغراسة الأشجار المثمرة، وتربية المواشي، وتوفير المؤن والأغذية، والحبوب، والخضر، والفواكه، واللحوم، ونشطت بها صناعة الأسلحة، والذخائر، والعتاد الحربي، كالنبال، وصناعة الشموع ـ والأدوات الخشبية، والطينية، والطرز، والنسيج، ونسخ الكتب، وصناعة الورق، والجلود.

ومن أبرز قصورها: قصر اللؤلؤة، وقصر أميمون، بجوار ضريح سيدي التواتي، وقصر الكوكب، وقصر بلارة، وقصر الرياض البديع، الغربي، وقصر الرياض الرفيع الشرقي.

وقد وصف صاحب الاستبصار قصر اللؤلؤة فقال: «وفي بجاية موقع يعرف باللؤلؤة، وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة، لم ير الراؤون أحسن منها بناء، ولا أنزه موضعاً، فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد، والأبواب المخرمة المنحنية، والمجالس المقرضة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض، من أعلاها إلى أسفلها، قد نقشت أحسن نقش، وأنزلت بالذهب والأزورد، وقد كتبت عليها الكتابات المحسنة، وأنزلت بالذهب، وصورت فيها، الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور منزهاً وجمالاً»[1].

---

(1) الاستبصار. ط. فينا (1852) ص 21.

وكان الشريف الإدريسي أبلغ في إبراز ما وصلت إليه بجاية من رقي وتطور حضاري هائل في منتصف القرن السادس الهجري (12 م) حيث قال: «بجاية في وقتنا هذا (548 هـ) مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها براً وبحراً مجلوبة، والبضائع نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجارب المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق، وبها تحل الشذوذ، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بَوَادٍ، ومزارع، والحنطة، والشعير، بها موجودان كثيران، والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل، والمراكب، والحرابي، لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود، ويجلب إليها من أقليمها الزفت البالغ الجودة، والقطران، وبها معادن الحديد الطيب، موجودة وممكنة، وبها الصناعات كل غريبة، ولطيفة، وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة، وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب وكلما بعد البحر كان ماؤه قليلاً. ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد، وهي قد عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد»[1].

وقد وطد الحماديون في أول عهدهم صلاتهم الودية بروما، والجمهوريات الإيطالية الأخرى، وأبرم الناصر معاهدة مع بيزا، وخول لتجارها حق المتاجرة مع بلاده، وتراسل مع البابا ڤريڤوري السابع، الذي أجابه برسالة أبلغه فيها سروره على قبوله تعيين أسقف مسيحي في كنيسة عنابة، وعلى إطلاقه سراح أسرى مسيحيين، وتعهده بإطلاق سراح كل من يقع في الأسر بمملكته، وجدد الموحدون هذه المعاهدة مع بيزا، وجنوة، والبندقية، ومرسيليا، وقطالونيا، وبروفانس، وكثر تردد تجار هذه المدن الأوروبية إلى بجاية للتجارة، والاستفادة من العلوم والمعارف الإسلامية المزدهرة[2].

---

(1) الشريف الأدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (الجزائر ـ 1957) ص 63.

(2) دائرة المعارف الإسلامية. جـ 3. ص 253.

رواد الفكر والثقافة في مركز بجاية الحضاري

شهدت بجاية نهضة علمية وفكرية وثقافية هائلة خلال العصر الحمادي، والعصور التي تلته إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

وقامت بها مدارس ومعاهد، علمية ذات شهرة، ومساجد جامعة، وزوايا صوفية عريقة، ونبغ بها علماء أجلاء كان لهم رأي في الشريعة الإسلامية، وشعراء فحول، وحكماء متضلعون في الفلسفة والحكمة، وعلم التوحيد، والمنطق، ولغويون مبرزون، ومحدثون أمناء، ومدققون ومحققون في الرواية والسند، ومتصوفون في القمة، ورياضيون مبتكرون، وطلاب علم ومعرفة من أنحاء العالم الإسلامي شرقه وغربه، من الأندلس إلى بلاد فارس، ومن بلاد أوروبا خاصة إيطاليا، وفرنسا، واليونان.

وحسب رواية أبي حامد الصغير المسيلي، فإن بجاية وحدها كان بها تسعون مفتياً أواخر القرنين السادس الهجري، والثاني عشر الميلادي[1] كما كان بها أطباء، ورياضيون. وذكر ياقوت الحموي بأنه حتى العوام، والعُمْيُ، في بجاية كانوا يحفظون عن ظهر قلب كتب البخاري، والمدونة، والموطأ، والتلقين، ويشرحونها للناس من ذاكراتهم[2]. وهي شهادة لها مغزاها ومدلولها.

ومن أبرز الأعلام التي يمكن الإشارة إليها في هذا المقام:

الفقيه الفضل بن سلمة البجائي (ت. 319 هـ ـ 931 م)، والرحالة المقرئي أبو القاسم يوسف البسكري (403 ـ 465 هـ ـ 1012 ـ 1072 م) والفقيه الفيلسوف محمد بن علي ابن الرمامة (478 ـ 567 هـ ـ 1085 ـ 1171 م)، والفقيه المحدث أبو عبد الملك مروان البوني (ت 439 هـ ـ 1047 م) واللغوي النحوي الحسن بن علي التيهرتي (ت. 501 هـ. 1108 م)، والعلامة يوسف الورجلاني (500. 570 هـ ـ 1106. 1174 م)

(1) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج 1. (الجزائر. 1982) ص 320 ـ 321.
(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 3 (بيروت. 1957) ص 113.

والفقيه الفيلسوف أبو حامد الصغير (ت 580 هـ 1185 م)، والحجة الحافظ أبو عمران الأشيري (ت 589 هـ/ 1193 م)، والقاضي الفيلسوف محمد بن إبراهيم الأصولي (ت. 1216/612 م)، والأديب المؤرخ محمد بن حمد الصنهاجي (ت. 628 هـ/ 1230 م)، والفقيه المقرئي أبو محمد عبد السلام الزواوي (681.589 هـ/ 1282.1193 م)، والنحوي اللغوي يحيى بن معطى الزواوي (628 هـ. 1231 م) والأديب محمد بن الحسن القلعي (ت 673 هـ/ 1274 م)، والفقيه المقرئي والمؤرخ أبو زيان ناصر بن مزني البسكري (ت 823 هـ/ 1420 م)، والعالم إبراهيم بن فائد الزواوي (ت 857 هـ/ 1453 م) والأديب الشاعر محمد بن عمر المليكشي (ت 740 هـ/ 1339 م)، والعلامة أحمد الغبريني. (ت 644هـ / 704 م)، والصوفي أحمد بن إدريس، والفقيه المجتهد عبد الرحمن الوغليسي، ومحمد المشدالي (ت 864 هـ/ 1466 م) وعبد الرحمن الثعالبي، (ت 875 هـ/ 1470 م)، والقطب الصوفي أبو مدين شعيب بن الحسين (ت 595 هـ)، وغيرهم ممن يطول ذكرهم.

وقد ترجم أحمد الغبريني في كتابه: «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية»، لأكثر من مائة وعشرة من العلماء، والفقهاء والأدباء، والشعراء، والأطباء، والحكماء، والرياضيين، والفلكيين، والمتصوفة، والفلاسفة، والمحدثين، والمناطقة، واللغويين، وغيرهم ممن أنجبتهم بجاية، أو جاؤوا إليها من الأصقاع البعيدة، ليستقروا بها، ويتعلموا، ويكتبوا، ويؤلفوا الكتب، وينسخوا المخطوطات، ويقرئوا القرآن، ويعظوا ويرشدوا، ويفتوا، ويؤموا الناس، أو مروا بها، وأقاموا مدة ثم رحلوا إلى المشرق أو المغرب. مثل ابن خلدون، والشيخ الهواري الوهراني، وأبي مدين شعيب.

وهذا الحشد من العلماء والمفكرين، في هذ المركز الثقافي والحضاري البجائي برقعته الواسعة التي تشمل حوض وادي الصومام، وجبال البيبان وجبال جرجرة، وحوض الحضنة وجبالها، أثروا الحضارة العربية الإسلامية إثراء واسعاً، في مختلف مجالاتها: الفكرية، والمادية، والروحية، والأدبية، وفي

كل أصقاع المغرب والأندلس وبلدان المشرق، وشاركوا في نهضتها وتطورها، ورقيها وتوسيع مجالاتها، ومفاهيمها، علماً، ودراية، واستيعاباً وتأليفاً، وإبداعاً، وكانوا في المستوى المطلوب، وعبدوا الطريق لمن جاء بعدهم من الأبناء والأحفاد، في سائر الجزائر كلها، وفي هذه المناطق الجبلية الشماء من الولاية الثالثة بجبال البيبان، والحضنة وجرجرة، وحوض الصومام.

إن هذا الماضي المشرق: الفكري والثقافي، والسياسي، والعسكري، والديني، هو الذي يبرز أهمية هذه المنطقة، وحيوية شعبها، والدور الذي سيلعبه في الثورة المسلحة المباركة، ثورة التحرير الكبرى التي انطلقت يوم أول نوفمبر 1954 م، ودامت سبع سنوات ونصفاً لغاية 19 مارس 1962 م.

الولاية الثالثة
ومناطقها الأربعة



عمل بوعزيز

الولاية الثالثة أو بلاد القبائل

الموقع والحدود خلال الثورة:

تقع الولاية الثالثة في شرق الجزائر، وتتألف من جبال جرجرة، وحوض واد الصومام، وجبال البيبان، والجزء الغربي من جبال البابور، وقسم من السهول العليا السطيفية، وقسم من الهضاب العليا الشرقية، جنوب وغرب جبال الحضنة.

وتمثل شكل إجاصة مقلوبة قاعدتها العريضة إلى الشمال على ساحل البحر وقمتها الحادة إلى الجنوب عند مدينة بوسعادة، ويحدها من الشمال البحر المتوسط من سوق الاثنين شرق أوقاس، وبجاية، إلى زموري حالياً (كوربي مارين سابقاً) شرق عين الطاية غرباً.

ومن الشرق الولاية الثانية من سوق الاثنين على البحر، إلى سطيف عبر خراطة، على طريق الجزائر، قسنطينة، والولاية الأولى من سطيف إلى بوسعادة عبر برج بوعريج، والمسيلة.

ومن الغرب الولاية الرابعة من زموري على البحر شمالاً إلى بوسعادة جنوباً عبر الأخضرية والبويرة، وسيدي عيسى، وعين الحجل.

ومدينة سطيف في الشرق تابعة لها، ولكن طلب من مناضليها أن يقدموا المساعدة للولايتين: الأولى، والثانية.

ومدينة بوسعادة في الجنوب تابعة للولاية السادسة، ولكن طلب من مناضليها أن يمدوا يد المساعدة للولايتين: الأولى، والثالثة.

السطح والتضاريس والمناخ والنباتات

يتألف سطح الولاية الثالثة من تضاريس متنوعة جبلية ومنبسطة:

فهناك جبال البيبان، والبابور، وجرجرة في الشمال وهناك حوض واد الصومام الطويل بين جبال البيبان وجرجرة، وهناك السهول والهضاب العليا في الجنوب.

فجبال البيبان تمتد ما بين مدينة سور الغزلان غرباً، وسطيف شرقاً، وبرج بوعريريج جنوباً، وخراطة وڤرڤور شمالاً، ويفصلها وادي الصومام عن جبال جرجرة في الغرب، وتشتهر بمضايقها، وخوانقها العميقة والضيقة، وأبوابها، وبحدة قممها، وشدة انحدارها، وفقر تربتها ذات الطابع الرملي الهش، ومن أشهر خوانقها أبواب الحديد.

ويكسوها غطاء نباتي وشجري متنوع، دائم الخضرة، متوسط الكثافة من أنواعه: الحلفاء، والصنوبر، والبلوط، والعرعار، والسنديان، والصفصاف، والضرو، والدفلة، والدوم، والزيتون، والتين وتتخللها بعض الأحواض والسهول التي يمارس فيها السكان العمل الفلاحي الزراعي، ويربون حيوانات: الأغنام، والأبقاء، والحمير، والمعز، والخيول، ويصنعون الأدوات التقليدية من نبات الحلفاء. والأخشاب، والطين.

وتنالها نسبة لا بأس بها من الرطوبة في فصل الشتاء البارد، ويشتد الجفاف فيها صيفاً، وتنتشر القرى العمرانية في أحواضها وسفوحها، وقممها.

وتمثل هذه الجبال صلة الوصل بين الشرق القسنطيني والجزائر العاصمة، والمعبر الأساسي، رغم تعقد تضاريسها وصعوبتها وكثرة خوانقها وعمقها، وصعوبة المواصلات عبرها.

وجبال جرجرة تحتل رقعة استراتيجية مهمة وواسعة كذلك، وتمتد من واد يسر غرباً على مشارف سهول متيجة الشرقية، إلى وادي الصومام شرقاً على

مشارق جبال البابور والبيبان، ومن البحر شمالاً إلى سور الغزلان جنوباً في الهضاب العليا.

وهي جبال شديدة الانحدار، حادة القمم، كثيرة الخوانق، تزحف بسفوحها إلى شاطىء البحر شمالاً ولا تترك أي سهل أو منبسط، كثيفة الغطاء النباتي، والشجري، دائمة الخضرة متنوعة الأشجار، متوسطة العلو، وغلظ الجذوع، ومن أنواعها: الصنوبر، والعرعار، والبلوط، والخروب، والأرز، والزان، والسنديان، والصفصاف، والزيتون، والتين، والدفلة، وغيرها.

تنالها نسبة كبيرة من الرطوبة لإشرافها على البحر المتوسط، وتغطي الثلوج قممها العالية في فصل الشتاء الطويل، وتكثر بها الينابيع والجداول، المائية العذبة المتدفقة، وحقول الخضروات في أحواض الأودية، وسفوح الجبال، وتزدهر بها أشجار التين والزيتون التي باركها الله سبحانه وتعالى وأقسم بها في قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، والرمان، والإيجاص، والخوخ، وعين البقرة، والكروم، والكرز، والعناب، وغيرها.

وكثافة السكان فيها عالية جداً لظروف تاريخية. وجبال البابور تقع إلى شمال شرق جبال البيبان، وتشتهر بغابات السنديان ذات المردود الاقتصادي للسكان، ويمثل حوض الصومام منطقة نموذجية للفلاحة البستانية لخصوبة تربته، وكثرة مياهه، كما يمثل الشريان الرئيسي للمواصلات بين الشمال والجنوب.

الإمكانيات والنشاطات الاقتصادية

وتتخلل هذه الجبال في أحواض الأودية، والسفوح، والمنخفضات، والبساتين، والحدائق، التي تخصب بها غراسة الأشجار المثمرة، كالتين، والزيتون، والكروم، والتفاح، والإيجاص، والرمان، والخوخ، والمشمش، والكرز، وعين البقرة، والبرتقال، والعناب، والتوت والزعرور، كما تخصب بها فلاحة كل أنواع الخضر، والحبوب، لتوفر الينابيع المائية المتدفقة، والأودية

الجارية، وتخصب بها أشجار التين والزيتون بصورة خاصة.

ويمارس الفلاحون فيها العمل الفلاحي بالوسائل التقليدية اليدوية، والحيوانية لتعقد تضاريسها، وصعوبة استعمال الآلات الحديثة بها. ولشدة انحدار هذه الجبال يطبق السكان أسلوب فلاحة المدرجات، لحماية التربة من الانجراف، وتوفير أماكن العمل الفلاحي لغراسة الأشجار المثمرة.

أما السهول العليا في الجنوب فتخصب فيها فلاحة الحبوب، بأنواعها المختلفة خاصة القمح والشعير، وتربية قطعان المواشي كالأغنام، والأبقار والجمال، والخيول، والأحمرة، والمعز. وتزدهر صناعة الأدوات الخشبية والحديدية والطينية.

عناصر السكان

وكثافة السكان عالية جداً في هذه الجبال، وقراها كثيرة، ومتقاربة من بعضها على قمم الجبال، والربى، والسفوح الملاصقة لها، لتوفير الدفاع الذاتي لها، وللحفاظ على الأراضي الزراعية للاستغلال الزراعي، وينتمون كلهم إلى العنصر البربري الأمازيغي ـ وعربهم الإسلام حتى أصبحت جبالهم قلاعاً للإسلام والحضارة العربية الإسلامية، بما أنجبته من علماء، وأدباء، وفقهاء، ومحدثين، وفلاسفة، ومؤرخين، ومقرئين، ولغويين، ورحالة، وقضاة، ومفتين، وقادة كباراً، على مستوى العالم الإسلامي كله شرقاً، وغرباً، تجاوزت شهرتهم الجزائر وبلدان المغرب، إلى الأندلس غرباً، والعالم العربي الإسلامي شرقاً، وتركوا بصماتهم على كل جوانب الفكر والثقافة، والحياة العلمية والأدبية، والدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها، للحضارة الإسلامية في عصورها المختلفة حتى اليوم.

دور الإسلام في نشر اللغة والثقافة العربية بهذه المنطقة

فلقد آمن شعب هذا الإقليم العريق بالدين الإسلامي الحنيف، وصدق به، وبمبادئه ومثله العليا عن اقتناع ومن أعماق القلب منذ أن وصل إليه في بلاده عن طريق الفاتحين المسلمين الأوائل، وتمسك به غاية التمسك، وحارب في

سبيله حتى خارج البلاد، وبذل النفس والنفيس لصالحه، وشارك مع غيره في إرضاء قواعده في كل أصقاع القارة الإفريقية، شرقاً وغرباً، وفي أعماق الصحراء الكبرى وما وراءها جنوباً، وفي بلاد الأندلس، وصقلية، وجنوب إيطاليا بأوروبا، خلال عصر الفتوحات، كما شارك في إثراء الحضارة العربية الإسلامية، مشاركة فعالة، وبصورة مكثفة، في مختلف جوانبها الفكرية، والعلمية، الدينية، والأدبية، على امتداد التاريخ الإسلامي حتى اليوم.

ويتضح ذلك، ويتجسم في كثرة المؤسسات العلمية، والدينية، والتعليمية، التي لا تخلو منها قرية أو عرش، تقريباً في هذه المنطقة وهذا الإقليم، وفي كثرة العلماء، والمفكرين، والمبدعين، الذين أنجبهم شعب هذه المنطقة على مر العصور، خاصة العصر الإسلامي المشرق حتى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومنهم الفقهاء، والأصوليون، والمحدثون، والبلغاء، والكتاب، والفلاسفة، والقضاة والعدول، والأئمة، وحفاظ القرآن الكريم، وكتاب السير، والأدباء، والشعراء، وغيرهم. وبالتأكيد فإن لقلعة بني حماد، وبجاية، دوراً هاماً في تطور العلوم والمعارف، وازدهار الدراسات الإسلامية الدينية والأدبية، في هذه المنطقة، ابتداء من مطلع القرن الخامس الهجري (11 م)، باعتبارهما عاصمتين بصفة متوالية للدولة الحمادية، ولعمال الدول الإسلامية الأخرى بعدها: الموحدية، والزيانية، والحفصية، استقطبتا رجال الفكر والثقافة، وقادة السياسة من الأقاصي البعيدة: تلمسان، وفاس، ومراكش، وقرطبة، وقسنطينة، وبسكرة، وورفلة، والقيروان، والقاهرة، ودمشق، وبغداد، ومكة والمدينة، وغيرها، فزاروهما، وأقاموا بهما، وأخذوا عن علمائهما، ومفكريهما، وتزودوا من علومهم ومعارفهم، ومن تجاربهم في الحياة، ومعظمهم كما سنعرف من جبال البيبان، والبابور، وجرجرة، والحضنة، وحوض الصومام، إلى جانب المناطق الأخرى.

لقد خدم علماء هذه المنطقة الفكر، والثقافة العربية الإسلامية خدمة

جليلة، وعظيمة جداً، تفوق حد التصور في مختلف مجالات المعرفة، دراية، وحفظاً، واستيعاباً، وتأليفاً، ومنها: الفقه، وأصول الدين، وعلم الحديث، والسير، والتفسير، ونظم الشعر، وفنونه، والأدب، والتوحيد، والمنطق، والحساب، والفلك، وعلم الهيئة، والطب العلاجي، وطب الأعشاب أو الصيدلة، والتصوف، والتاريخ، وعلم الأنساب، وجغرافية الأرض، وعلوم القراآت، وغيرها.

ولكي تتضح الصورة، وتبرز بجلاء، لا بد من استعراض قائمة المؤسسات العلمية، والتعليمية، وسير عدد من أعلام الفكر والثقافة، الذين أنجبتهم المنطقة، أو جاؤوا إليها، وأثروا الفكر والحضارة العربية الإسلامية بأبحاثهم ودراساتهم، ومؤلفاتهم، وكوّنوا أجيالاً من العلماء، والفقهاء، والبلغاء، والفلاسفة، والشعراء، والكتاب، والمحدثين، وغيرهم، ساروا على دربهم كذلك، وحملوا الأمانة، وكانوا خير خلف لخير سلف، حتى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن القوائم التي سنوردها فيما يلي لمؤسسات التعليم، وللعلماء والكتاب، والمفكرين والمعلمين، والأساتذة، والشيوخ، وحفاظ القرآن الكريم، ورجال التربية والتعليم، خير دليل، على الدور الكبير، والناصع، والمشرق، الذي بذله شعب هذه المنطقة لنشر التعليم، وغرس الأخلاق والآداب الإسلامية الفاضلة، ورفع المستوى الحضاري المادي والأدبي، للسكان، وحماية الوجه العربي الإسلامي لهذه البلاد، خاصة خلال الحقبة الاستعمارية الأوروبية البغيضة.

لقد بذل شعب هذه المنطقة ما لم يبذله غيره في هذا الميدان، رغم كل الصعوبات، والعراقيل، المادية، الطبيعية، والسياسية، والعسكرية، وليس ذلك بغريب لأنه يدخل في إطار الدفاع عن الذات، والوجود، والكيان، والاستمرارية الحضارية في إطار الإسلام وآدابه وثقافته العربية الإسلامية الراقية، والخالدة، وكانت كل مساجد القرى ومدارسها بمثابة معاهد علمية خرجت أجيالاً من العلماء، والمثقفين، وطلبة العلم، وحفاظ القرآن الكريم، على مر

العصور من صدر الإسلام حتى اليوم، وكانوا بمثابة النحل في خلاياها، يكدون ويجتهدون في مقاومة الجهل، ونشر العلم وغرس الأخلاق الفاضلة.

الجذور الثقافية لمنطقة جبال البيبان وحوض الصومام، والحضنة وجرجرة

إن منطقة بني ورثلان وبني يعلى، وبني عيدل، والجعافرة، وبني لعلام، وزمورة، وتفرق، وبني عباس، والقلة، وقرى حوض الصومام، وحوض الحضنة وجرجرة، اشتهرت عبر مراحل التاريخ الإسلامي، بازدهار الفكر والثقافة، والتعليم، وكثرة المؤسسات العلمية والتعليمية، ونبوغ عدد كبير، قد لا يحصى، من العلماء، والمفكرين، على اختلاف تخصصاتهم وتنوعها.

وبما أنه ليس من السهل، وقد يكون من غير الممكن، حصرهم وحصر المؤسسات الثقافية، فإننا سنستعرض ما أمكن من ذلك حسب الظروف التي يسمح بها الموضوع وحجم الكتاب، وسوف نركز على الذين تجاوز تأثيرهم، رقعة الجزائر وبلدان المغرب إلى غيرها من أصقاع العالم الإسلامي ومشرقه، ومغربه، وكان لهم دور رائد في إثراء الفكر والثقافة، والحضارة العربية الإسلامية، وفي تربية الأجيال وتكوين الإطارات لهذه البلاد الجزائرية المؤمنة، والمسلمة، والمجاهدة، والصبورة، والصمودة، وفي قيادة الأمم كذلك من الناحية السياسية.

النماذج السياسية

ولنبدأ بالمجال السياسي مع الملاحظة أننا لم نتقيد بالزمن هنا بقدر ما تقيدنا بالرقعة الجغرافية لإبراز دور المنطقة الحضاري سواء قبل قيام الدولة الحمادية أو خلالها وبعدها، لأن الدولة الحمادية لم تخلق من العدم، ولم تنزل من السماء، وإنما كان لها سوابق، ولواحق، ومقدمات، ومؤخرات.

1 ـ ابن الأندلسية: أبو علي جعفر بن علي بن حمدون،* تولى إمارة المسيلة وإقليم الزاب، بعد وفاة والده حمدون خلال المواجهة العسكرية مع أيوب بن أبي يزيد الخارجي عام 334 هـ (945 ـ 946 م) وأنجز أعمالاً

حضارية مهمة مما جعل ابن حماد يقول: إن مدينة المسيلة وصلت إلى الغاية القصوى، والأمد الأقصى في عهد علي بن حمدون وابنيه: جعفر، ويحيى، وأشاد أبو عبدالله البكري بأسواقها، وحماماتها، وبساتينها، ومزروعاتها ومنها القطن، وبلحومها الوافرة والرخيصة.

وبسبب التنافس السياسي بين جعفر بن علي، وزيري بن مناد حاكم أشير، حول الحصول على رضا الخليفة الفاطمي المعز بن المنصور، وفوز الأخير بذلك، فضل جعفر الالتحاق بزناتة مع قومه بني برزال المسيلة عام 360 هـ (970 م)، ونشبت حروب بينهما انتهت بمقتل زيري، فحز رأسه وأرسله مع وفد مغربي قاده أخوه يحيى إلى الخليفة الأموي المستنصر بالأندلس ليتقرب منه، وينال الحظوة، ثم لحق هو نفسه به بعد أن اشتدت الحروب بينه وبين بلكين بن زيري وعجز عن المواجهة.

وهناك بالأندلس استعان بهما وببني برزال، المنصور بن أبي عامر على خصومه، وتمكن بفضلهم من تحقيق الانتصار، ولكنه مع ذلك أقدم على قتل جعفر بن علي، ونكب به مخافة أن ينقلب عليه، وذلك عام 364 هـ (974 ـ 975 م)، ففر أخوه يحيى إلى القاهرة ونزل عند العزيز بن المعز الفاطمي حتى توفي.

وكان الشاعر الأندلسي الكبير أبو القاسم محمد بن هاني، قد مدح جعفر بقصيدة رائعة يوم زاره بمدينة المسيلة ومما جاء فيها:

المدنفان من البرية كلها ... جسمي، وطرف بابلي أحور
والمشرقات النيرات ثلاثة ... الشمس والقمر المنير وجعفر
أبني العوالي السمهرية والموا ... ضي المشرقية والغدير الأكثر
من منكم الملك المطاع كأنه ... تحت السوابغ تبع في حمير

وقال في قصيدة أخرى:

ألا أيها الوادي المقدس بالندى ... وأهل الندى قلبي إليك مشوق
ويا أيها القصر المنيف قبابه ... على الزاب لا يسدد إليك طريق

ويا ملك الزاب الرفيع عماده   بقيت لجمع المجد وهو نزيق
على ملك الزاب السلاح مرددا   وريحـان مسـك بـالسـلاح فتيـق

2 ـ بنو برزال المسيلة: وقد عبروا إلى الأندلس بعد أن مهد لهم جعفر بن علي، وأخوه يحيى، لدى الخليفة الحكم المستنصر، وحظوا هناك بالتجلة والاحترام، وعين زعيمهم أبو عبدالله محمد بن عبدالله البرزالـي حاجباً له، ثم حاكماً على مدينة قرمونة في أواخر الدولة العامرية، وأظهر مقدرة وكفاءة كبيرين، ووسع رقعة إمارته الجغرافية حتى أصبحت ثاني إمارة بعد غرناطة واستمر في الحكم ثلاثين عاماً، وتلاه بعد ذلك أبناؤه وأحفاده، والفضل في ذلك لأبناء هذه الرقعة الحمادية، ولجبال الحضنة، والبيبان، والبابور، وحوض وادي الصومام.

3 ـ جعفر بن فلاح الكتامي: وقد مثل دوراً سياسياً وعسكرياً في مصر والشام، مثلما فعل جعفر بن علي وأخوه يحيى، وبنو برزال بالأندلس.

فقدْ كلفه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي، بمصاحبة القائد جوهر الصقلي لفتح مصر، وبناء مدينة القاهرة، والجامع الأزهر، بها، فأنجزا المهمة ثم قاد جيشاً لفتح بلاد الشام، وضمها إلى الدولة الفاطمية كمرحلة ثانية في المشروع الفاطمي الكبير الذي استهدف القضاء على الخلافة العباسية ببغداد، والقضاء على المذهب السني المعارِض للشيعة. وانتزاع الخلافة من بني العباس، ففتح الرملة، بفلسطين، وطبرية، ثم تقدم إلى دمشق ودخلها عامي 358 ـ 359 هـ (969 ـ 970 م). وقضى على حكومة ابن طغج.

ورغم أنه قتل على أيدي القرامطة عام 360 هـ (971 م) الذين هاجموه بظاهر دمشق، إلا أن أولاده الثلاثة: سليمان، وعلي، وإبراهيم، توارثوا حكم دمشق الشام من بعده باسم الدولة الفاطمية.

وكما مدح ابن هاني الأندلسي جعفر بن علي، مدحه هو كذلك، وقال:

كانت مساءلة الركبان تخبرني   عن جعفر بن فلاح أطيب الأثر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت   أذني بإحسن مما قدر أي بصري،

هكذا يتضح أن هذه الرقعة الجغرافية التي نؤرخ لأحداثها المعاصرة، أنجبت قادة خدموا الدولة الإسلامية في رقعتها الواسعة شرقاً وغرباً وبذلوا جهوداً كبيرة، سياسية، وعسكرية كان لها أبلغ الأثر في الرقي الحضاري، وكانوا خير خلف، لخير سلف، كما كانوا خير مثل للنضج والوعي والإقدام والشهامة، والشجاعة وحصافة الرأي.

النماذج الفكرية وأعلام الفكر والثقافة في العصر الوسيط

إن أعلام الفكر والثقافة لهذه الرقعة والمنطقة كثيرون، وأدوا دوراً رائداً في إثراء مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، بمفهومها الواسع، وقدموا مجهودات متنوعة في الأدب، واللغة، والدين، والتشريع، والأصول، وغيرها، استيعاباً، وتدريساً، وتأليفاً، ولبعضهم دور خارج الجزائر في الأندلس، والمشرق، حتى إلى نيسابور في بلاد فارس.

1 ـ ابن أبي شحمة أبو الوليد مروان المسيلي: (ت 240 هـ ـ 854 ـ 855 م):

كان معاصراً للقاضي المجتهد سحنون بن سعد القيرواني، وفي مستواه علماً وثقافة، ومكانة، قام بجهد مشكور في هذه المنطقة، وعندما رمي بالتشبيه، دافع عنه سحنون وقال: إن مروان لا يقول إلا بما يرى، ولما سأله الأمير الأغلبي الذي استدعاه إلى القيروان، عن حقيقة هذه الوشاية، اكتفى بتلاوة سورة الإخلاص، فتأكد الأمير من كذب الوشاية، وبالغ في إكرامه.

2 ـ محمد بن حسين الطبني: ولد بطبنة عاصمة الزاب عام 303 هـ (915 ـ 916 م)، وكان أديباً وشاعراً مفلقاً، وصفه ابن بشكوال، بسعة العلم، والتبحر في الآداب، وقال عنه إنه لم يصل إلى الأندلس أشعر منه، ومما يدل على صحة هذا الرأي، أن المظفر عبد الملك، ابن أبي عامر، ورجال دولته، ساروا كلهم في جنازته لما توفي هناك في ذي الحجة عام 394 هـ (1004 م) وصلى عليه ابن فطيس.

3 ـ أبو علي الحسن بن رشيق: وهو أشهر من أن يعرف لأنه كان أحد أعلام اللغة والأدب ـ على مستوى كل البلدان الإسلامية التي كانت اللغة العربية

لغتها، ولد بمدينة المسيلة عام 385 هـ (995 ـ 996 م)، ودرس بها حتى نبغ في العلوم العربية، خاصة نظم الشعر ونقده، ثم رحل إلى مدينة القيروان عاصمة الدولة الأغلبية عام 406 هـ (1015 ـ 1016 م). وشهر بها، ولقب بالقيرواني، فاعتكف على الدراسة والتحصيل لنفسه، وعلى التدريس لغيره فذاعت شهرته، واختاره الأمير المعز، الأغلبي لبلاطه، واصطفاه وقربه، وكذلك فعل ابنه تميم بعده، وبقي على هذه الحظوة والمكانة حتى حصلت هجرة عرب بني هلال، وبني سليم، وأثبج، إلى إفريقيا، فرحل إلى صقلية، واستقر ببلدة مازرة حتى توفي بها عام 463 هـ (1070 ـ 1071 م)، وخلف لنا من ورائه تراثاً أدبياً رفيع المستوى وغزيراً، ومن ضمنه كتاب العمدة في صناعة الشعر وفنونه، ونقد عيوبه. ذلك الكتاب الذي قال عنه ابن خلدون إنه انفرد به في هذه الصناعة وأعطاها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده، وهي شهادة لها مكانتها. لأنها صدرت من رجل مدقق، ومحقق، يزن ما يكتب ولا يورد الكلام جزافاً، وليس من السهل أن يطري أحداً.

ومن كتب الحسن بن رشيق الأخرى:

- قراضة الذهب في نشر أشعار العرب.
- ميزان العقل في تاريخ الدول.
- الشذوذ في اللغة.
- أنموذج الزمان في شعراء القيروان.
- تاريخ القيروان.
- الروضة الموشية في شعراء المهدية.
- رسالة نجح الطلب.
- رسالة قطع الأنفاس.
- رسالة وضع الأشكال.
- المساوىء في السرقات الشعرية.
- شرح على موطأ مالك.
- ديوان شعر.

- رسائل عديدة ومتنوعة.

وقد اطلع الصلاح الصفهدي على كل هذه الكتب، وتأكد من تبحره في الشعر والأدب، وقيل إنه ابتكر 37 نوعاً من أنواع فن البديع.

4 - أبو العباس أحمد الباغائي: ولد بمدينة باغاية عام 345 هـ (956 - 957 م). وكان علماً من أعلام الفكر والثقافة خاصة علوم القرآن، حتى قال عنه ياقوت الحمودي بأنه لا نظير له على مذهب مالك، وقد رحل إلى قرطبة عام 376 هـ (986 - 987 م)، وتصدى للإقراء في جامعها الكبير، وتدرج حتى تولى خطة الشورى، ثم رحل إلى المشرق وتوفي هناك في مطلع القرن الخامس الهجري (11 م).

5 - الشيخ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي: أصله من مدينة المسيلة، ومن مواليدها وقيل من مواليد واحة ليانة بأعمال بسكرة حيث يوجد له مسجد ومقبرة يحملان اسمه. وقف ضد الشيعة الفاطميين وكفر كل من يدعو لهم على المنابر، وترجم له كل من ابن فرحون في الديباج، والشريف العلمي في نوازله، وعياض في ترتيب المدارك، رحل إلى طرابلس وأقام بها مدة، ثم عاد وقصد إلى تلمسان فراراً من الشيعة، وبها توفي عام 402 هـ (1011 م).

ومن كتبه الأخرى التي خلفها:

- النامي، وهو شرح لكتاب موطأ الإمام مالك في الفقه والحديث.

- النصيحة، وهو شرح لكتاب صحيح البخاري في الحديث.

- كتاب تفسير القرآن الكريم الذي استفاد منه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره: جواهر الحسان.

- الواعي في الفقه.

- الإيضاح في الرد على القدرية.

- الأصول.

- الأموال.

وهي كلها تراث فكري جيد ورفيع المستوى، زاد في إثراء الحضارة العربية الإسلامية بهذه البلاد.

6 ـ الشيخ أبو القاسم يوسف البسكري: ولد بمدينة بسكرة عام 403 هـ (1012 ـ 1013 م) ودرس بها مبادىء العلوم والمعارف، ثم شد عصا الترحال غرباً وشرقاً، لطلب العلم والمعرفة، والتفقه في علوم الدين، حتى وصل إلى بغداد، وأصفهان، ونيسابور، واهتم بدراسة علوم اللغة والآداب العربية، وخاصة علم القراآت، حتى قال عنه ابن الجوزي: إنه لا يعلم أن أحداً من هذه الأمة رحل في طلب علم القراآت، رحلته، ولاقى من لقي من الشيوخ، ثم بعد ذلك تفرغ لتدريس هذا العلم، وكون لنفسه ترجيحات وتفسيرات وآراء، واختيارات خاصة فيها، وأصبح أستاذه أبو القاسم القشيري، يراجعه في مسائل وإشكالات كثيرة، في النحو والقراآت.

وبسبب طول باعه في هذه العلوم، وذيوع صيته، استدعاه الوزير السلجوقي نظام الملك، إلى نيسابور عام 458 هـ (1066 م) وعينه أستاذاً في مدرستها المشهورة، وبقي يدرس بها حتى توفي عام 465 هـ (1072 ـ 1073 م).

ومن تآليفه المشهورة:

كتاب الكامل في القراآت الذي ضمنه خمسين قراءة في ألفين ومائتين وتسعين (2290) ومما ذكره بصدد تأليف هذا الكتاب قوله: «خرجت من بسكرة وهي وسط المغرب، حتى وصلت إلى أوش (بنواحي فرغانة) وهي وسط المشرق، مع مازرت ودخلت من البلدان، يميناً وشمالاً، وسهلاً وجبلاً، ولم استنكف أن أقرأ على أحد صغير، ذكراً أو أنثى، أقتبس منهم، ثلاثاً وأربعين سنة في السفر مع الجوع والفقر، ليلاً، ونهاراً، وأقل ما قرأت في بلد على خمسة أو على ستة، بل على عشرين أو أكثر مع جمعهم لي في كل ختمة، روايات، وطرقاً حتى جمعت هذا الكتاب. . . . فجملة من لقيت في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستين شيخاً من آخر المغرب إلى باب فرغانة ـ يميناً، وشمالاً، جبلاً وبحراً، ولو علمت أحداً تقدم علي في هذه الطريقة في جميع

بلاد الإسلام لقصدته. . . ألفت هذا الكتاب فجعلته جامعاً للطرق المتلوة، والقراآت المعروفة، ونسخت منه مصنفاتي، كالوجيز والهادي.

وعندما اطلع ابن الجوزي على هذا الكلام وقرأه قال: كذا ترى همم السادات في الطلب.

7 ـ **أبو محمد عبدالله الأشيري التطراوي**: كان إماماً في الفقه والحديث، والأدب، غادر الجزائر إلى المشرق في وقت مبكر، واستقر بحلب الشام، وتصدى للتدريس، وتفوق في مختلف فروع المعرفة، حتى قال فيه ياقوت الحموي: إنه إمام الحديث، والفقه، والأدب بحلب، وبلاد عامة، يتسابق الناس إلى حلقات دروسه، والانتساب إليه، ويتفاخر الوزراء، والأمراء، والملوك، والأعيان، بمجالسته، والأخذ بعلومه، وفنونه، ومعارفه وآرائه.

وبفضل هذه الشهرة طلبه الوزير المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة، إلى بغداد ورغب من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، أن يأذن له، ويشخصه إليه، فوافق، وأرسله إليه مكرماً، مبجلاً، وتصدى هناك للإقراء، والتدريس من كتاب الوزير ابن المظفر نفسه، وهو الإيضاح عن شرح معاني الصحاح، ثم سافر إلى مكة، قبل أن يعود إلى الشام حيث توفي ببقاع بعلبك عام 561 هـ (1165 م).

8 ـ **العلامة أبو عبدالله محمد بن علي ابن الرمامة**: ولد بقلعة بني حماد في شهر رجب 478 هـ (1085 ـ 1086 م)، وعاش بها في صدر شبابه، وتنقل بينها، وبين بجاية، والجزائر، للدراسة والتحصيل، ثم رحل إلى الأندلس لطلب العلم، وممارسة التجارة، والتقى بالفيلسوف الأندلسي الكبير أبي الوليد ابن رشد، وابن عتاب، وأبي بحر، وابن طريف، وأخذ عليهم جميعاً ثم عاد إلى فاس ليتولى خطة القضاء عام 356 هـ (1141 ـ 1142 م)، وألف عدة كتب منها:

ـ تسهيل المطلب في تحصيل المذهب.

ـ التفصي في فوائد التقصي.

- التبيين في شرح التلقين.

وقام بتحقيق كتاب البسيط للغزالي، وجمع نكته ومباحثه.

9 - أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي: الذي لقب بأبي حامد الصغير، تشبيهاً له بأبي حامد الغزالي، عاش في صغره بالمسيلة والقلعة، ثم رحل إلى بجاية، ودرس، وتعلم حتى تضلع، وأصبح علماً يشار إليه بالبنان، فأسندت إليه خطة القضاء، وشهد غزو يحيى ابن غانية المرابطي، للمدينة، وأرغم مع غيره على مبايعته، وتكونت بينه وبين القاضي عبد الحق الأشبيلي، والفقيه محمد بن عمر القرشي، صحبة متينة، فدأبوا على اللقاء باستمرار، في متجر خاص بطرف حارة المقدسي المقابل للطالع إلى الحارة، وذلك للحوار والمناقشة، في المسائل الفكرية والأدبية.

ومن أهم تآليفه:

- التفكير وهو دراسة في القرآن الكريم.
- التذكير في علم أصول الدين.
- النبراس في الرد على منكري القياس.

وقد توفي عام 580 هـ أو 584 هـ (1184 - 1185 م).

10 - العلامة محمد بن حماد القلعي (ت. 628 هـ - 1230 م): أصله من برج حمزة (البويرة حالياً)، وبها توفي، درس بقلعة بني حماد حتى تضلع في علوم التاريخ والسير، والآداب، ثم رحل إلى بجاية ودرس على أبي مدين شعيب بن الحسين، وأبي علي المسيلي، وابن جبارة، وبعد ذلك انتقل إلى مدينة الجزائر، وتلمسان، طلباً للعلم، والمعرفة، وظل يتنقل بين عواصم المغرب الإسلامي العلمية، يدرس ويروي الكتب والمؤلفات، حتى بلغ ما رواه مائتين واثنين وعشرين كتاباً من مروياته.

تضلع في التاريخ، واللغة، والآداب، والفقه، والحديث وتولى منصب القضاء في سلا بالمغرب الأقصى، وفي الجزيرة الخضراء بالأندلس.

ومن مؤلفاته:

ـ الديباجة في أخبار صنهاجة، الذي اعتمد عليه ابن خلدون، في كتابه تاريخ صنهاجة، واستفاد منه عدد من المستشرقين الغربيين، كليفي بروفانسال، الذي نشر نبذة منه في كتابه عن أخبار البربر عام 1933 م، وعمارى الصقلي في كتابه: المكتبة الصقلية، وشربونو في المجلة الآسيوية خلال أعوام 1852 ـ 1855 م.

ـ عجالة المودع في علامة المشيع، في الأدب والشعر.

ـ كتاب لخص فيه تاريخ ابن جرير الطبري، وشرح مقصورة ابن دريد، وكتاب الإعلام بفوائد الأحكام لعبد الحق الإشبيلي، وشرح الأربعين حديثاً النبوية وغيرها،

وبما أنه عاش وشهد سقوط الدولة الحمادية، وخراب القلعة وقصورها، فقد نظم شعراً مؤثراً في رثائها، ومما قاله:

أن العروسين لا رسم ولا طلل	فانظر ترى ليس إلا السهل والجبل
وقصر بلارة أودى الزمان به	فأين ما شاد منها السادة الأول
قصر الخلافة أين القصر من خرب	عين اللجين وفي أرجائها زحل
وليس يبهجني شيء أسر به	من بعد أن نهجت بالمنهج السبل
وماروى الكوكب العلوي معتصم	وقد عرى الكوكب التغيير والبَدل
وقد عفا قصر حماد فليس له	رسم ولا أثر باق ولا طلل
ومجلس القوم قد هب الزمان به	بحادث قل فيه الحادث الجلل
وإن في القصر قصر الملك معتبرا	لمن تغرره الأيام والدول
وما رسوم المنار الآن ماثلة	لكنها خبر يجري بها المثل
حتى المصلى بلت آياتها وعفت	إلا جداراً وما طلت به الطلل
كرجعك الطرف كانت كل آبرة	فما تراه كذاك العمر والأجل

وكان قد نظم شعراً في مدح المنار قبل ذلك وأشاد به فقال:

وأنظر طيقان المنار مطلة	على الوجنات الزاهرات الخمائل
كأن القباب المشرقات بأفقه	نجوم تبدت في سعود المنازل

وقال أيضاً:

وقـد قـام المنـار علـى ذراهـا كمـا قـام العـروس أو الأميـر
بنـاء يـزدري إيـوان كسـرى لـديـه والخـورنـق والسـديـر

11 ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالله المعافري القلعي: وكان حجة في النحو، واللغة، والقراآت، درس على أبيه في حدود عقد التسعينات من القرن السادس الهجري (1194 ـ 1204) ثم رحل إلى بجاية واعتكف على الدراسة والتحصيل قبل أن يتفرغ للتدريس، ويصبح شيخ المشايخ في الجامع الأعظم.

ومن الأعمال التي قام بها اختصار كتاب التفسير لأبي عمر الداني، وقد توفي ببجاية.

12 ـ أبو محمد عبدالله بن محمد بن عمر القلعي: كان فقيهاً، ومحدثاً ومؤرخاً، درس في القلعة وكان حجة في فقه المذهب المالكي يجلس إليه القضاة ليسمعوا منه في مجلس القضاء، وعين عضواً، ومستشاراً، ونصوحاً في مجلس الديوان مدة، ثم عزف عن ذلك، وتخلى بإرادته، ورحل إلى بجاية، وتصدى للتدريس والإقراء، ووقع أسيراً مع بعض الفقهاء، لدى بعض البحارة الأوروبيين، فلم يتخل عن التدريس، وعندما تمكن من الخلاص والإفلات، عاد إلى التدريس وكان من ضمن تلاميذه: أحمد الغبريني صاحب كتاب: عنوان الدراية، وتوفي عام 699 هـ (1299 ـ 1300 م).

13 ـ أبو محمد عبدالله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعي: كان محدثاً ومؤرخاً، وعضواً في مجلس القضاء، ومستشاراً في مجلس الديوان بالقلعة، رحل إلى بجاية ودرس بها ودرّس، ومن تلاميذه أحمد الغبريني كذلك، وكانت له حظوة ومكانة لدى أمراء بجاية الذين كانوا لا يقطعون في أمر إلا بعد العودة إليه مما يدل على مكانته توفي عام 669 هـ (1270 ـ 1271 م).

14 ـ أبو عبدالله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون القلعي: (ت. 673 ـ 1274 م) كان نحوياً، ولغوياً وأديباً، ومؤرخاً، ورث العلم عن أبيه ميمون الذي كان قاضياً بقلعة بني حماد انتقل إلى بجاية ودرس على علمائها

حتى تضلع في الفنون السابقة، وفي مادة الصرف حتى أصبح مثل ابن جنى، وفي مستواه فكثر حوله الطلاب والدراسون ومنهم العلامة الغبريني.

- ومن مؤلفاته:

- الموضع في علم النحو.
- حدق العيون في تنقيح القانون.
- نشر الخفي في مشكلات أبي علي، على الإيضاح.

وكان يقول الشعر في الزهد، ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك قوله في مطلع إحدى قصائده:

أمن أجل أن بانوا فؤادك مغرم   وقلبك خفاق ودمعك مسجم

وتبادل الشعر مع أبي عبدالله محمد الأريسي، وسلك فيه أسلوب وطريقة أبي تمام حبيب ابن أوس الطائي، بينما سلك صديقه رئيس الديوان، طريق أبي الطيب المتنبي.

ومع أن شعره لم يدون إلا أنه كان منتشراً عند المثقفين كثيراً على عهد أحمد الغبريني، الذي أشار إلى ذلك وقال بأنه لو جمع لكان في عدة مجلدات.

15 ـ ابن الخراط أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد المعافري القلعي: نشأ بقلعة بني حماد ودرس بها على عدد من علمائها الأجلاء الأفاضل أمثال: الفقيه ابن الإمام، والنحوي ابن عفراء ثم انتقل إلى بجاية، وتصدى للتدريس والتعليم في جامع القصبة، والخطابة والإمامة فيه، وفي الجامع الأعظم، وانتفع به خلق كثير، ومنهم الولاة والأمراء، والوزراء، والأعيان.

16 ـ ابن يبكي أبو محمد عبد الكريم بن عبد المالك بن عبدالله بن طيب الأزدي القعلي: الذي انتقل هو الآخر إلى بجاية وأصبح من الأعيان والوجهاء لها، في العلم، والدين والمكانة الاجتماعية، وبلغ إلى مستوى عبد الحق الإشبيلي، وكانت له حظوة ومكانة لدى خلفاء بني المؤمن، ودفن في رابطة تحمل اسمه رابطة ابن يبكي، داخل باب أميسون في أعلى بجاية.

17 ـ ابن صمغان أبو عبدالله محمد القلعي: ولد وعاش بقلعة بني حماد، واشتغل في بداية أمره بالجندية، ثم تحول إلى دراسة العلوم والمعارف، ورحل إلى بجاية، وتوطن بها، ودرس على القاضي عبد الحق الإشبيلي، وتضلع في مختلف العلوم خاصة علم الحديث، نقلاً، ورواية، وسنداً، وتولى خطة القضاء في عدة مدن مغربية كما تولى نيابة قاضي الأنكحة أبي عبدالله الأصولي في بجاية، واتخذ سقيفة داره مكان للتدريس لطلبته.

18 ـ ابن المنصور أبو عبدالله محمد بن أبي بكر القلعي: كان فقيهاً، وفرضياً ورياضياً، تصدى لتدريس مادة الحساب، والفرائض في بجاية، وكذلك الفقه، والتوثيق، حتى توفي عام 670 هـ (1271 ـ 1272 م).

19 ـ الشيخ عمر بن عبد المحسن الصواف الوجهاني: عالم وفقيه، درس في بجاية، ثم رحل إلى المشرق في حدود عشرية الستينات من القرن السابع الهجري (660 هـ) (1262 م)، وحج واعتمر، وزار واتصل بالعلماء والفقهاء، ثم عاد إلى مصر ودرس بالأزهر حتى تفوق، ثم تفرغ للتدريس، وتفوق في الفتوى بصورة خاصة وأصبح رأيه راجحاً، ورغب الملوك في زيارته، أو تزاوره، ولكنه عزف عن ذلك، وحج مع الركب المصري وهو من بني وجهان شرق وادي الصومام.

وتوفي في عشرية التسعين من نفس القرن (690 هـ / 1291 م).

20 ـ الشيخ عيسى بن أحمد الهنديسي ابن الشاط البجائي:

عالم، وفقيه، متضلع في علوم الشريعة، وأديب، وأصولي، من قرية هنديس إحدى قرى بني عباس، على حافة واد الساحل، كانت له اليد الطولى حفظاً ودراية في هذه العلوم مما أهله أن يتولى الإفتاء، والإقراء والخطابة في جامع بجاية، وقد تحدث عنه السخاوي في الضوء اللامع، وقال إنه كان ما يزال حياً عام 890 هـ (1485 م) وتحدث عنه الشيخ زروق، وذكر أنه له تعاليق على كتاب مسلم في الحديث.

وقد حصلت بينه وبين شيخه محمد بن بلقاسم المشدالي مشادة، ومناقشة

حول مسألة فقهية فاحتكما إلى مفتي تلمسان قاسم العقباني وراسلاه، فأجابهما، ونقل المازوني ذلك في فتاواه.

وإلى هذه القرية ينتمي الشيخ أحمد بن يوسف شيخ زاوية هنديس الذي له صلة بزاوية الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة، ويعتبر مقدماً له، وسيأتي الحديث عنه وعن الزاوية فيما بعد.

وهنديس هذه قرية من قرى جبال قلعة بني عباس، في جبال البيبان، وينطق السكان بها حالياً بحرف الحاء في أولها هكذا: حنديس، وليس بالهاء كما كتبها الرحالة الورثلاني في رحلته.

نماذج من العصر الحديث والفترة المعاصرة

لقد كانت النماذج السابقة لرجال الفكر، والثقافة، والسياسة، تخص العصر الحمادي في القلعة، وبجاية، وتواصل هذا الدور بعد ذلك، ولا يمكن تتبعه، لأن ذلك سيخرج الدراسة عن موضوعها، ويضخم حجمها.

ولذلك ننتقل بسرعة إلى العصر الحديث، والفترة المعاصرة، لنستعرض مؤسسات التعليم، وبعض النماذج من رجال الفكر، والتربية، والثقافة، والتعليم، الذين أدوا دوراً رائداً للإسلام، واللغة والثقافة العربية الإسلامية، رغم الصعوبات، والعراقيل الطبيعية والبشرية، خاصة خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية الأوروبية البغيضة، ويعتبرون جنود الخفاء بحق في هذا الميدان الفكري والثقافي، والديني، والحضاري بصفة عامة.

وهذه القاعدة الثقافية المتينة هي التي توضح لماذا استمات شعب هذه المنطقة في الدفاع والمقاومة عن مقدساته الدينية، والثقافية، وعن استقلاله السياسي، وحريته التاريخية، والحضارية.

إن كل مساجد القرى في هذه المنطقة، كانت بمثابة معاهد، ومدارس، للتعليم والتربية، والتكوين، وثكنات لتدريب المجاهدين، ومصادر إلهام للمناضلين، ومراكز إشعاع للأجيال الصاعدة عبر التاريخ، ولعل قائمة المعاهد

والمدارس، والعلماء، والمـدرسين، والأساتذة، خير دليل على هذا الدور الرائد والمشرق الذي كان أساساً للكفاح الوطني المتأجج على مدى قرن وثلث القرن، وهو ما نوضحه فيما يلي:

المؤسسات العلمية في جبال البيبان والسهول العليا

1 ـ معمرة وزاوية يحيى العيـدلي بثاموقرة في بني عيدل.
2 ـ معمرة وزاوية أمالو، وتدعى بمعمرة سيدي أحمد أُويَحْيَ ـ بواد الصومام.
3 ـ معمرة فريحة قرب بني ورثلان.
4 ـ معمرة وزاوية الشيخ الحداد بصدوق أُوفَلَّةْ (العليا).
5 ـ معمرة وزاوية الشيخ أبو بَلْقَاسَمْ في بوجليل ببني منصور.
6 ـ معمرة سيدي أحمد الشريف الحسني ببني عشاش قرب بني ورثلان.
7 ـ معمرة زرعة بأولاد حَالَّةْ.
8 ـ معمرة ثَالْمَاتْ، قرب بني ورثلان.
9 ـ معمرة وزاوية أَنُو ببني ورثلان، لجد الحسين الورثلاني صاحب الرحلة.
10 ـ معمرة أَقْلِيمْ بإيث جَمَاتِي قرب بني ورثلان.
11 ـ معمرة وزاوية الجعافرة ببني عيدل.
12 ـ معمرة وزاوية الشيخ عبد الرحمن بأَمَزْرَاقْ.
13 ـ معمرة ثَاوْرِيرْتْ أَنْتَفْرِقْ بجبال ثفرق.
14 ـ زاوية ومعمرة سيدي أحمد أُوسْعِيدْ ببني يَمَّلْ (إِيثْ يَمَّلْ) في بني ورثلان.
15 ـ زاوية سيدي الولهِي بجبل ثَاقَرْبُوسْتْ في المعاضيد، شمال شرق المسيلة.
16 ـ زاوية شرفة الهامل ببو سعادة.
17 ـ معمرة سيدي مخلوف بمزيتة.
18 ـ معمرة الشيخ أُوبُودَاوَدْ بحوض الصومام.
19 ـ مدرسة قلعة بني عباس لجمعية العلماء (فتحت عام 1934 م).
20 ـ مدرسة ابن خلدون في بونده الكبيرة، لجمعية العلماء.
21 ـ مدرسة ابن باديس في أوشانن الكبيرة لجمعية العلماء.
22 ـ مدرسة أولاد سيدي يذير لجمعية العلماء.

23 ـ مدرسة برج بوعريرج لجمعية العلماء.

24 ـ مدرسة بني ورثلان لجمعية العلماء.

25 ـ مدرسة ثَازَايَرْث ببني عباس.

26 ـ مدرسة أَقَمُونْ بني خيار لجمعية العلماء.

27 ـ مدرسة الجابية حرة.

28 ـ مدرسة بوحمزة. حرة.

29 ـ مدرسة سيدي إبراهيم. حرة.

30 ـ مدرسة المنصورة. حرة.

31 ـ مدرسة إِغِيلْ عَلي. حرة.

32 ـ مدرسة قِينْدُوزْ. حرة.

33 ـ مدرسة ثنية الخميس.

34 ـ مدرسة برباشه. التي كان يعلم بها الشيخ عبد الحفيظ أمقران ويديرها، تابعة لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية.

35 ـ مدرسة أُومَغْرَاطْ بجوار برباشة.

36 ـ مدرسة خليل إيفسار، بنفس الجهة.

37 ـ مدرسة إِيثْخَاطَبْ (بني خاطب) بنفس الجهة.

38 ـ مدرسة بُوقَاعَةْ في قَرقور.

39 ـ مدرسة عين الروَّةَ قرب سطيف.

40 ـ مدرسة خراطة.

41 ـ مدرسة قريبسة قرب سطيف.

42 ـ مدرسة كمدونة.

43 ـ مدرسة الفتح بمدينة سطيف. ولها فروع في المدينة نفسها (لجمعية العلماء).

44 ـ مدرسة قنزات ببني يَعْلَي (جمعية العلماء).

45 ـ مدرسة بجاية (جمعية العلماء).

46 ـ مدرسة بني عشاش.

47 ـ مدرسة ثِيطَسْتْ ببني يعلي.

48 ـ مدرس ثِيغِيلْتْ أُومَيَّالْ (ببني عباس).

49 ـ مدرسة بوشقفة (ببني عباس).

50 ـ زاوية سيد محمد بن يوسف قرب قرية حنديس (ببني عباس).

51 ـ زاوية ثَاقْرَّابْثْ ببني عباس، وكانت منافسة لزاوية حنديس.

52 ـ مدرسة البويرة (برْج حمزة) لجمعية العلماء.

53 ـ مدرسة الشيخ الفضيل الورثلاني بزمورة. لجمعية العلماء.

54 ـ مدرسة أُلْمُوثَنْ. ببني ورثلان. لجمعية العلماء.

55 ـ مدرسة عراصة. ببني ورثلان. لجمعية العلماء.

56 ـ مدرسة الشريعة ببني يعلي. لجمعية العلماء.

57 ـ وكل مساجد القرى بالمنطقة معاهد، ومدارس، وكتاتيب قرآنية كان لها دور عظيم في نشر العلم والفكر والثقافة. والتمسك باللغة العربية لغة العلم والحضارة لهذه البلاد وكل البلدان التي انتشر فيها الإسلام والقرآن.

أعلام الفكر والثقافة

الشيخ يحيى العيدلي

من مواليد قرية تَامُقْرَةْ ببني عيدل خلال القرن التاسع الهجري (15 م) حفظ القرآن الكريم ودرس العلوم الدينية واللغوية، وتضلع في علوم الشريعة والتصوف، وأسس لنفسه زاوية بمسقط رأسه ما تزال قائمة حتى اليوم. ودرس عليه كثيرون من جهات كثيرة، ومنهم الشيخ أحمد بن عبد الرحمن دفين قرية قلعة بني عباس، وجد عائلة أولاد مقران أمراء الإمارة المقرانية هناك، وابنه هو مؤسس قلعة بني عباس، والشيخ الولي الصالح يحيى بن موسى جد عائلة الشيخ يحيى حمودي، وقد تغيب الشيخ يحيى العيدلي حوالي عشر سنين، ثم عاد وتفرغ للتدريس.

كان الشيخ يحيى العيدلي معاصراً للشيخ عبد الرحمان الثعالبي، بالجزائر، والشيخ سيدي التواتي ببجاية، والشيخ أحمد زروق البرنوسي الفاسي الذي زاره وتتلمذ عليه.

وقد راسل الشيخ يحيى العيدلي، زميله الثعالبي وسأله ثلاثة أشياء: لمن يزوج ابنته: ومن يجعله وصياً على أولاده، وتأليف كتاب لأصحابه، فأجابه بقوله: زوج بنتك لفلان، وكن أنت وصياً على أولادك، وقد ألفت ما فيه الكفاية، وكبرت ولم يبق لي ما يسمح بذلك.

وراسله الشيخ التواتي معاتباً عليه عندما سمع أنه ذكره بسوء، فأجابه بأنه ما ذكره إلا بخير، وأنه أثنى عليه واعترف بفضله عليه وعلى العلم، وشهد بفضله الشيخ عبد الرحمن الصباغ شارح المنظومة الوغليسية في الفقه للشيخ عبد

الرحمن الوغليسي، والبردة للبصيري، ورثاه بقصيدة كبيرة وعظيمة بعد موته.

وقيل إن فتاواه في الفقه لا ترد ولا تعارض ما بين بجاية وتوزر، وعندما زاره الشيخ زروق البرنوسي الفاسي إلى زاويته بثاموقرة مكث عنده مدة، وألف هناك بعض تآليفه، وأخذ عنه علمي الظاهر والباطن، ثم رحل إلى المشرق وتوفي زليطـن قرب طرابلس الغرب.

وقد بقيت زاويته بعده عامرة، بتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، وتعليم العلوم الدينية، والأدبية للكبار، ولم تتوقف عن هذا الدور إطلاقاً خاصة وأنها لها أوقاف كثيرة في الجهة، عقارية ومنقولة.

وقبيل الحرب العالمية الثانية قيض الله لها عالماً فاضلاً أحيا ما اندثر واندرس من أعمال السلف الصالح هو الشيخ الفاضل والعالم المتواضع محمد الطاهر أيت علجت بن الشيخ مقران المقراوي فتجند للتعليم، وأقبل عليه طلبة العلم من كل جهة، وكون جيلاً من العلماء والفضلاء التحق كثير منهم بجامع الزيتونة لمتابعة الدراسة، والتحق آخرون بالقرى المختلفة للتعليم والتدريس، وأحدثوا نهضة كبرى علمية وثقافية، كانت ثورة بحق في ميدان التعليم، وعندما اندلعت الثورة كانوا في طليعة المجندين في صفوف جيش وجبهة التحرير الوطني، واستشهد الكثير منهم في ميدان الشرف.

والفضل كل الفضل للشيخ الطاهر، وجهوده، ولمؤسس الزاوية الشيخ يحيى العيدلي.

الولي الصالح يحيى بن موسى

من أهل القرن 9 هـ (15 م) ـ وتلميذ للشيخ يحيى العيدلي، ومن أولاده: الشيخ يحيى بن حمودي الذي أنجب كذلك: الشيخ أبا القاسم، والشيخ أحمد حمودي.

الشيخ محمد الصالح الورتلاني

من مواليد قرية أقلميم، بعرش ايَتْ جْمَاتِي (بني جماتي)، من أعراش بني ورثلان، وهو من أهل القرن 11 هـ (17 م) حفظ القرآن الكريم في صغره، وانكب على الدراسة والتحصيل لمختلف العلوم العربية العقلية، والدينية، والأدبية، وسخر نفسه بعد ذلك للتعليم والتدريس سنوات طويلة، وانتقل من قرية يبكن إلى قرية يتن، في بني عيدل، واستقر بها، ووجدهم لا يعملون بالشرع الإسلامي في الميراث، فنهاهم، ولم يرعووا، وعزم على هجرهم فمنعوه، واغتنم فرصة غيابهم عن القرية ليغادرها فتفطنوا له، وتجمعوا ليمنعوه، واشترط عليهم لبقائه بينهم، أن يعودوا للعمل بالشرع الإسلامي، ويتخلوا عما هو مخالف له، فقبلوا وأقسموا له بذلك فعدل عن السفر، وبقي بينهم.

ومن رفاقه الشيخ علي الصوفي جد الشيخ يحيى حمودي بقرية أولاد سيدي علي بأيث إبراهيم (بني براهم).

ومن أولاده الشيخ محمد الصالح، الشيخ سيدي عبدالله.

ومن أحفاده: الشيخ عبد الرحمن، والشيخ أحمد، والشيخ عبد الوهاب، والشيخ علي، وكلهم علماء فضلاء.

الشيخ الحسين الورتلاني

(1713 ـ 1780)

هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف نجل الشيخ الولي سيدي علي البكَّايْ البجائي الذي أصله من مدينة تافيلالت بالمغرب الأقصى.

ولد عام 1125 هـ (1713 م) بقرية أَنُو بجوار قرية بني ورثلان، وحفظ القرآن الكريم في زاوية جده ووالده بنفس القرية على الشيخ يوسف بن بشران، ثم تفرغ لدراسة علوم الفقه، والحديث، والنحو والصرف، والعروض، على

والده، وشيوخ القرية، والزاوية، الآخرين، أمثال: الشيخ علي بن أحمد بن عبدالله، والشيخ يحيى اليعلاوي، والشيخ أحمد زروق بن الشيخ العنابي صاحب المؤلفات العديدة، وتضلع في علوم الفقه، والتوحيد، والصرف، والنحو، والبلاغة، والأدب، وحفظ الشعر ونظمه.

وبعد أن أستنفذ ما عند شيوخ القرية من العلوم والمعارف شد الرحال إلى غيرها داخل الجزائر وخارجها، لطلب العلم والمعرفة كذلك، فزار بجاية، والجزائر العاصمة، وتلمسان، ومليانة، والبليدة، ودللس، وجبال زواوة، والمسيلة، وبسكرة، وسيدي عقبة، وسيدي خالد، وتبسة، وقسنطينة، وعنابة، للتبرك بالأولياء والصالحين، وللاستزادة ما أمكن من العلوم والمعارف.

وزار تونس، على أمل الذهاب إلى الحج، ولكن لم يوفق، فاغتنم الفرصة وتعرف على عدد من العلماء، ودرس على البعض منهم، ثم قام بثلاث رحلات إلى البلاد المقدسة لأداء فريضة الحج، والاتصال بالعلماء، والفقهاء، والمتصوفة، فيما بين 1153 هـ و1179 هـ.

الحجة الأولى عام 1153 هـ (1740 ـ 1741 م).
الحجة الثانية عام 1168 هـ (1754 ـ 1755 م).
الحجة الثالثة عام 1179 هـ (1765 ـ 1766 م).

وقد أتاحت له هذه الرحلات أن يوسع ثقافته، ومداركه، وتجاربه ويحصل على زاد ثقافي واسع، نفع به أبناء جيله، وتصدى للتدريس والتعليم في قرية أنو مسقط رأسه ببني ورثلان، وفي مدينة بجاية التي يقيم بها خلال شهر رمضان من كل سنة.

ومن أبرز تلاميذه الذي تخرجوا عليه، ولازموه، ورافقوه حتى في سفراته إلى الشرق: الشيخ محمد بن الفقيه، والشيخ محمد السكلاوي، ويحيى بن حمزة، ومحمد بن عبدالله، من زمورة، ومحمد الجوادي، ومحمد بن أخروف، وأبو القاسم بن مدور من قرية ثفرق الذي تولى وظيفة القضاء ببجاية، وابن عمه الشيخ محمد الصالح.

كما درس الورثلاني بتونس، وأخذ عنه عدد من الطلبة، وفي صفاقس، وقابس، وتحاور مع العلماء والفقهاء، والطلبة.

وقد كتب الورثلاني وألف في عدد من الأغراض والمظان، وشرح وعلق على مؤلفات غيره في الفقه والحديث، والتصوف، والبلاغة، والنحو، ضاع أكثرها للأسف، أشهرها: رحلته التي سماها: «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» المعروفة بالرحلة الورثلانية.

وشرح على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري في التصوف.

وشرح على الصغرى للشيخ السنوسي التلمساني.

وحاشية على حاشية الكتاني على شرح السنوسي.

وشرح على وظيفة الشيخ يحيى العيدلي، وبعض كراماته.

وكراس في وصف برقة الليبية ومنازلها، ومياهها، ومراحلها. ضاع منه قرب قرية الزعفران في يوم شديد العواصف.

ورسالة في شرح قول: وقفت بساحل وقفت الأنبياء دونه لأحد الأولياء وذلك رداً على أسئلة طلبة وعلماء تدلس.

ورسالة في شرح لغز صوفي للشيخ أحمد بن يوسف الملياني بعث به إلى سلطان فاس بعد أن عجز علماؤها عن فهمه والرد عليه.

ورسالة حول اختلاف العلماء والفقهاء بالأزهر في تفسير أو شرح الخرشي لخطبة الشيخ خليل عند قوله: وحمد المؤلف العام والخاص فكان الخلاف في هل الخاص أفضل أم العام.

وشرح كتاب: الصلاة.

وشرح على وسطى السنوسي في التوحيد.

وشرح على محصل المقاصد لأحمد بن زكري التلمساني.

وحاشية على صغير الخرشي. على هوامش الشرح.

وحاشية على كتاب المرادي.

وقصيدة في مدح الرسول في 500 بيتاً.
وأهم هذه المؤلفات كلها كتاب الرحلة.

وقد بدأ في كتابتها قبل الشروع في الرحلة أو الحجة الثالثة، وأتم تدوينها بعد عودته بمدة يسيرة، وشرع التلاميذ والطلبة في نسخها ابتداء من عام 1181 هـ (1768 م) أي بعد عام من عودته من الحجة الثالثة والأخيرة، وتحوي أخباراً كثيرة: ثقافية، وتاريخية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وعسكرية، وسير العلماء والفقهاء، وطلبة العلم.

وقام العالم الجزائري محمد بن أبي شنب بتحقيق هذه الرحلة ونشرها عام 1908 لأول مرة.

وتوفي الشيخ الحسين الورتلاني عام 1193 أو 1194 هـ (1779 ـ 1780 م) بمسقط رأسه أنو، ودفن في مقبرتها وما يزال قبره قائماً يزوره الناس باستمرار ويتبركون به، ويتذكرون من خلاله ماضي هذه البلاد المشرق. وقمت أنا شخصياً بزيارته خلال الاحتفال بالذكرى الثلاثين لوفاة حفيده الشيخ العالم الفضيل الورتلاني في شهر مارس عام 1989. وكان معنا الشيخ الطاهر آيت علجت المقراوي وآخرون من المثقفين.

علماء أسرة أولاد بوعزيز
ودورهم في حركة التعليم العربي الإسلامي
خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

من الدعائم الأساسية للاستعمار الفرنسي في الجزائر، التفقير والتجهيل، وما أنجز عنهما من التقتيل، والتشريد، والأمراض والأوبئة المعدية، والمتوطنة. فقد طبق هذه السياسة بكل قسوة، وغلو، وشراسة لا نظير لها وصادر من الأهالي الجزائريين كل أراضيهم الزراعية الخصبة المقدرة بثلاثة ملايين هكتار، وقراهم العمرانية المهمة، وقطعان مواشيهم ومراعيها السهبية. وملكها كلها لمائات الآلاف من الأوروبيين الذين هجرهم من فرنسا وأوروبا إلى الجزائر ليحلوا محلهم. ودمر كل مؤسسات التعليم العربي، وخربها واستولى على الباقي، وحولها إلى مؤسسات إدارية، ومهنية، بل وحتى إلى اصطبلات لتربية الخنازير، وليس حتى للأحمرة والخيول[1] واستولى على أملاك الأوقاف الإسلامية، التي كانت تمون هذه المؤسسات وطارد رجال التعليم العربي، وشردهم وقتل الكثير منهم، ونفى آخرين إلى خارج البلاد. وضيق على الباقي منهم ومنعهم من ممارسة مهنهم، وحال دون فتح المدارس العربية. وفرض وصاية على نشاطهم المهني التربوي. وعانى الشعب الجزائري ما لم يعانه شعب آخر، فحرم من نور العلم والمعرفة، وأفقر بشكل تام مرعب ومخيف،

(1) كما حصل لمدرسة خنق النطاح بمدينة وهران التي أسسها الباي محمد بن عثمان الكبير أواخر القرن 18 م: إذ سلمتها سلطات المدينة الاستعمارية إلى معمر اسباني لتربية الخنازير وبقيت في يده حتى أوائل عقد الخمسينات من هذا القرن العشرين.

وأصبح الفقر والجهل من السمات الأساسية له خاصة في البوادي والأرياف واعترف الكثير من الفرنسيين المنصفين بهذا. وأكدوا أن 90% من الجزائريين أصبحوا أميين نتيجة لهذه السياسة، واعتبروا ذلك كارثة على الشعب الجزائري.

فقال أوجان كومب عضو مجلس الشيوخ الفرنسي: «أنّ مما لا شك فيه أن التعليم في الجزائر كان عام 1830 أكثر انتشاراً، وأحسن حالاً مما هو عليه الآن... فقد كان هناك أكثر من ألفي مدرسة ابتدائية، وثانوية، وعالية، يتولى التدريس بها نخبة من الأساتذة الأكفاء، وكان الطلاب من الشباب متعطشين للعلم. هذا فضلاً عن مئات المساجد التي تعلم اللغة العربية»[1].

وقال بولارد في كتابه: تعليم الأهالي في الجزائر: «كانت الجزائر فيما مضى تضم معاهد علمية عظيمة الشأن، فالفلسفة، والآداب، والعلوم، والطب، وقواعد اللغة، والقانون الإسلامي، وعلم الفلك، يقوم بتدريسها أساتذة كبار من الجزائريين أنفسهم. كما كانت هناك مدارس عديدة متخصصة في تعليم القضاء الشرعي والعلمي.. ولقد أحدث وجود الفرنسيين اضطراباً بالغاً بين هؤلاء المفكرين الأدباء واضطر معظم العلماء والفقهاء إلى ترك وظائفهم التي كانوا يشغلونها كما تشتت شمل التلاميذ الذين اضطروا إلى السعي وراء العلم في السر بدلاً من العلانية والحرية. وأسندت السلطات الغاشمة إدارة المساجد إلى أيدي غير آمنة بددت القسم الأكبر من الأموال. ومنذ ذلك الحين أهمل أمر هذه المساجد التي كانت بمثابة دور ومدارس للتعليم»[2]. ولكن الشعب الجزائري لم يستكن، ولم يستسلم بل قاوم هذه السياسة الاستعمارية بكل ما لديه من إمكانيات خاصة في الأرياف والمناطق الجبلية البعيدة عن مناطق التوطن الأوروبي الاستعماري، ورد على التحدي الأوروبي المسيحي النصراني بمثله. وتصدى أجيال من حفاظ القرآن الكريم، والمعلمين والفقهاء والعلماء، للتعليم والتفقه ونشر نور العلم والمعرفة، ووجدوا تشجيعاً كبيراً وواسعاً من المجتمع الجزائري المتمسك بعروبته وإسلامه، والرافض لسياسة الفرنسة والتنصير،

(1) حزب الشعب الجزائري: التعليم في الجزائر (القاهرة ـ 1951) ص جـ.
(2) نفس المصدر. ص جـ و هـ.

والتغريب والتجهيل خاصة في الأرياف والبوادي الواسعة والشاسعة.

ونظراً للفروق الاقتصادية والثقافية التي كانت قائمة بين المناطق الريفية والجبلية فقد حاول السكان أن يحققوا نوعاً من التوازن فيما بينها، وتبادلوا المنافع والمصالح بكيفية منطقية ومعقولة، ومفيدة.

فالمناطق الغنية اقتصادياً تتزود بالثقافة والتعليم من المناطق الغنية ثقافياً، والعكس. وللتوضيح نجد مثلاً مناطق الهضاب العليا الشرقية والشمال القسنطيني والأوراس غنية فلاحياً. ومناطق جبال القبائل الصغرى والكبرى غنية ثقافياً، ولذلك يتجه مثقفوها ومعلموا القرآن الكريم بها إلى تلك المناطق للتعليم مقابل مبالغ مالية معتبرة نقدية وعينية، خاصة الحبوب.

وينفق الموسرون بسخاء على الثقافة والتعليم خاصة تحفيظ القرآن الكريم لأولادهم وتلقين العلوم العربية الدينية واللغوية. ويبرمون اتفاقات مع معلمي وعلماء وفقهاء منطقة القبائل للقدوم إليهم وممارسة التعليم والتفقه في فصول معينة كل عام. ولا يتخلفون عنها. لأن كل طرف محتاج للآخر.

ومعلوم أن منطقة القبائل التي تشمل جبال البيبان، وجرجرة، وحوض الصومام، تكثر بها الزوايا، والكتاتيب القرآنية. والمعمرات. والمدارس التي تعد بالمآت. ويقبل السكان عليها بكثرة، وبصورة جماعية لحفظ القرآن الكريم، وتعلم العلوم الدينية واللغوية والأدبية بل وحتى العلمية. وتخرج كل عام أجيالاً من المعلمين والمثقفين، وحفاظ القرآن الكريم فيغادرونها للبحث عن أماكن للتعليم في كل قرى المنطقة، وخارجها. ويتجه جمع منهم إلى قرى جبال الأوراس، والهضاب العليا الشرقية، والشمال القسنطيني، والنمامشة، للتعليم والتدريس كذلك. ومن هذه القرى: قالمة، والنبايل، وبوشقوف، وعزابة، وعنابة، وتاورة، وعين عبيد، وسوق اهراس، وعين الفكرون، وعين رقادة، وواد الزناتي، وتبسة والوانزة، وبوخضرة والشمّرة، وخنشلة، وعين البيضاء، والحراكتة، ومقاوس، وعين أزال، وعين ارنات، وراس الواد، وعين

تاغروط، وزمورة، وأولاد عمار، وأولاد سعدالله، ومجانة وعين السلطان وعين الرّوى، وغيرها.

فيتجهون إلى هذه المناطق في بداية فصل الخريف ويعودون في فصل الصيف إلى ديارهم بعد الحصاد والدرس، محملين بالحبوب، والبضائع المختلفة، والأمتعة والألبسة وقطع القماش، والنقود.

وكلما كان الموسم الفلاحي خصباً، كان إيرادهم من أجورهم مرتفعاً. وقد تكونت رابطة مهمة ومتينة بين سكان هذه المناطق وهؤلاء المعلمين والطلبة، وتوطدت كثيراً. وأصبحت كل جماعة منهم مرتبطة بناحية معينة. وكثيراً ما يحتفظ البعض منهم بأماكنهم طيلة حياتهم حتى يموتوا.

واشتهرت عائلات كثيرة في جبال القبائل بالعلم والثقافة، وتوارثت العلم والتعليم عشرات السنين. وتصدى مثقفوها ومعلموها وطلابها لمهنة تحفيظ القرآن الكريم للأجيال الصاعدة وتعليم العلوم العربية الدينية واللغوية، والأدبية سنوات طويلة في المنطق المشار إليها، حتى أصبحت شهرتهم كنار على علم في طول الجزائر وعرضها.

عائلة البعازيز ودورها في حركة التعليم العربي الإسلامي

وسنتخذ من عائلة البعازيز نموذجاً لهذه العائلات العلمية التي توارثت العلم والثقافة ومهنة التعليم أباً عن جد لعدة قرون، وسخر مثقفوها أنفسهم لمهنة التعليم والتدريس، وتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، سنوات طويلة بل وعقود، وكتابة العقود والوثائق والصلح بين الناس وتوزيع المواريث، لأننا عثرنا على مجموعة من الوثائق تعود إلى القرن الماضي، والبعض منها إلى القرن السادس عشر، سمحت لنا بالكشف عن قضايا كثيرة، ومكنتنا من الوصول إلى نتائج جد مقنعة، ويمكن إبراز محتوياتها في الأمور الأساسية التالية:

1 ـ البحث عن الكتب، وأسعارها، وكيفية الحصول عليها، واقتنائها

وتبادلها فيما بين المثقفين، والتعرف على المواطن التي توجد بها خاصة قسنطينة وتونس.

2 ـ الاستفسار عن حالات المواسم الفلاحية من خصوبة وقحط، لارتباط ذلك بأجورهم ومستحقاتهم مقابل مهنهم التربوية.

3 ـ الحديث عن بعض القضايا الاجتماعية المتصلة بهم وبمن يتعاونون معهم حتى ولو كانت ذات آثار سيئة.

أن الكشف والتعرف على هذه القضايا في هذه الوثائق يخدم توجهات المدرسة التاريخية الجزائرية والمغاربية الحديثة، التي تعتبر الوثيقة أساساً لكل بحث أو دراسة وقاعدة لها لا غنى عنها.

وأن عدداً كبيراً من مثقفي، هذه العائلة مارسوا مهنة التعليم طوال حياتهم في معظم قرى بلاد القبائل، وفي منطقة قالمة شمال قسنطينة، وفي جبال الأوراس والنمامشة وفي الهضاب العليا الشرقية ومنطقة سطيف.

وهناك أكثر من ثلاثة شيوخ توفوا في النبايل وأحوازها بمنطقة قالمة حيث كانوا يعلمون، وفارقوا الحياة غرباء عن الأهل والولد، منهم عمنا الشيخ محمد بوعزيز، وابن عمنا الشيخ الحسين بن العربي، وعمنا الشقيق الشيخ يحيى، أخو الوالد. الذي تزوج واستقر هناك حتى توفي وخلف وراءه ابناً وبنتاً، وعليه سميت أنا.

وقد علم جدي الشقيق الشيخ الحسن بوعزيز، والد أبي، خمسة وثلاثين عاماً في قرية الجعافرة، وانتهى به الأمر في قرية القُلَّة بعرش القُلَّة التي توفي بها في مطلع هذا القرن.

وعلم جدي الشقيق لأمي الشيخ الهادي بوعزيز، سنوات طويلة في عدة قرى حتى توفي بالجعافرة خلال عقد الثلاثينات من هذا القرن. وغلم والدي الشيخ الحاج عبد الرحمن بوعزيز سنوات طويلة بقرية الجعافرة التي علم بها والده الشيخ الحسن. وبها تزوج زواجه الأول والثاني، والثالث وأنجب كل أولاده ومنهم أنا (يحيى) هناك ما عدا الأخ الصغير الهادي، ومن الجعافرة عاد

إلى مسقط رأسه أمزرراق ليواصل مهنة التعليم بها حتى توفي عام 1955 م.

وهاجر عدد من فروع هذه العائلة إلى قرى أخرى للتعليم وتوطنوا بها بصفة نهائية، فانتقل جدنا العربي بوعزيز، إلى قرية عشابو العليا، واستقر بها هو وأولاده وأولاد أولاده، وتوارثوا مهنة التعليم بها حتى اندلعت ثورة أول نوفمبر 1954 م.

وانتقل جدنا الشيخ الصالح بن الصالح بوعزيز إلى قرية أولاد سيدي المسعود قرب ثنية الخميس واستقر بها هو وأولاده وأولاد أولاده وتوارثوا مهنة التعليم بها حتى ثورة أول نوفمبر 1954 م.

وكان عمنا الشيخ مُحَنْدْ، صاحب ثقافة عالية، وعلم في الجعافرة وغيرها وأتقن علوم القرآن اتقاناً جيداً، وحذق الروايات السبع، وزار تونس وجلس إلى حلقات دروس علماء الزيتونة وحاور البعض منهم، وظهر تفوقه عليهم كما حكى لي ذلك الوالد. الذي أدركه وعاش معه طويلاً.

وكذلك الأمر بالنسبة لجدي الشيخ الحسن، الذي تفصح الرسائل والعقود والتعليقات التي خلفها، ووصلت إلينا، على المستوى الثقافي الرفيع الذي كان يتمتع به لغة، وفقهاً، وتشريعاً، وقانوناً، وأدباً، وعلى الاهتمامات المتنوعة التي كانت تشغل باله وبال أمثاله من المثقفين.

فمن خلال العقود التي كتبها لبيع وشراء العقارات، نلاحظ الدقة في الألفاظ والعبارات والشروط المطلوبة لصحة العقد، فيما يخص العقار، وأوصافه وحدوده والبائع والمشتري والثمن والتاريخ، والشهود، والاستلام، وبراءة الذمة. مما يدل عى تضلعه في فهم أحكام الفقه والشريعة الإسلامية، ومن خلال الرسائل نلاحظ اهتمامه بالكتب، والبحث عن أسعارها وأماكن وجودها. وأنواعها. والأهم منها على غيرها. وإرشاد الراغبين فيها إليها في مواطنها. كما نلاحظ حرصه على التعرف على الأوضاع الاقتصادية والسنوية، التي ينتظرها هو وأمثاله بفارغ الصبر حتى يعرفوا مقدار الدخل الذي سيحصلون عليه مقابل عملهم التربوي في أماكن ومواطن عملهم. وخلال هذا وذاك نلاحظ

أيضاً الاهتمام ببعض القضايا الاجتماعية الصرفة الحلوة منها والمرة.

موطن عائلة البعازيز، وموجز تاريخها

تنحدر عائلة البعازيز أو آيت بوعزيز، (وكلمة آيت معناها أولاد) من الولي الصالح والفقيه العالم الشيخ سيدي أبي عبدالله محمد بن عبدالله (ويدعوه أهل القرية جدّي أَمْحَنْدْ أَو عَبْدْ اللَّهْ) دفين قرية أمزرراق بعرش إلماين. في منطقة بني عيدل، أو يعدل، بجبال البيبان في القبائل الصغرى شرق وادي الصومام.

وحسب رواية والدي الشيخ الحاج عبد الرحمن (1884 ـ 1955 م). فإن الشيخ أبا عبدالله محمد بن عبدالله، هذا، أصله من الساقية الحمراء، وهاجر من هناك صحبة أخوين له أحدهما استقر في قرية خليل إيفسار، بأعراش بني ورتلان، والثاني استقر بإحدى قرى زواوة في جبال جرجرة، بينما نزل هو بحمام باينان على ضفاف واد مهاجر قرب أولاد حالة الحالية ثم انتقل إلى قرية أمزرراق الجبلية واستقر بها بصفة نهائية حتى توفي ودفن بها وبنيت على قبره قبة وضريح.

واستناداً إلى رواية الوالد كذلك فإن الشيخ أبا عبدالله محمد بن عبدالله، شريف ومرابط ينتهي نسبه الحسني إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام. وقد رأى بنفسه شجرة نسبه مكتوبة على جلد حيوان لدى الشيخ الربيع بن بلقاسم أحد شيوخ القرية الذي كان يتولى وظيفة قايد على عرش مقدّم. ويتولى معه العم أبْعَازِيّ الشريف وظيفة خوجة لديه. وقد لحقت أنا بالشيخ الربيع ولم يتوفّ إلا أواخر الحرب العالمية الثانية أو بعدها بقليل عن عمر طويل.

وتشاء الصدف في مطلع شهر سبتمبر 1990 م أن تقع بيدي هذه الشجرة، إذ سلمها لي ابن العم الصالح بوعزيز، بن الشيخ المدني بن الشيخ الصالح في مدينة برج بوعريريج مع عدد من العقود والرسائل والتسجيلات أغلبها لجدي الشقيق الشيخ الحسن بن بلقاسم بوعزيز والد أبي، وكانت محفوظة ضمن كتب

ووثائق والده بأولاد سيدي المسعود أين توفي، ودفن خلال الحرب العالمية الثانية. ورغم أن هذه الشجرة تعرضت لبعض التلف في حاشيتها اليسرى والعلوية، وفي بعض أجزائها الداخلية، ولكن ذلك لم ينل من اللب المقصود منها. وكان مما اكتشفته فيها بعد قراءتها أن سيدي موسى الذي دفن على بعد خمسمائة متر منه إلى الغرب وبنيت عليه قبة وضريح كذلك هو أخوه. وتنص هذه الوثيقة هكذا قائلة: «أما بعد فإن شهداءه الموضوعة أسماؤهم فيه عقب تاريخه يعرفون الفقيه المعظم التقي الزكي العالم الأفضل الأكمل أبا عمران موسى، وشقيقه الأحسب الأنسب المعظم الأجل التالي لكتاب الله عز وجل أبا عبدالله محمد، ابني الفقيه العالم، العلم المدرس المنعم المرحوم أبا عبدالله محمد القاضي بن[1] ومحمد بن عبدالله الزّدوني معرفة كاملة معتبرة شرعاً. يشهدون بها بأن الشقيقين المذكورين حازا الشرف الصميم، والحسب الكريم، من والدتهما المبرورة المعظمة أم السعد. وأن أم السعد حازن ذلك من أمها[2] وأن[3] حازت ذلك من أمها الشريفة المعظمة المرحومة المنعمة عائشة بنت الشيخ الأفضل المبرور أبي عثمان سعيد بن حجاج الشريف المزودي. وأنهما قد حصل لهما بهذا النسب النبوي، والانتماء إلى الجانب (كذا) الكريم الحسني من البر والاعتناء، والرعي (كذا) والاحتفاء ما انسحب على أمثالهما من السادة الشرفاء».

وقد شهد على صحة هذه الشجرة، وهذا النسب عشرة أشخاص من قرى المنطقة، وصادق عليها قاضي الجماعة بمحروسة الجزائر السيد محمد، بمجلس قضائه، في نفس تاريخ كتابتها وهو: أواخر جمادي الأولى عام 986 هـ. وهو ما يوافق أوائل شهر أوت عام 1578 م. وسنورد نص هذه الشهادة والشجرة ضمن ملاحق هذه الدراسة في الأخير.

ومن أحفاذ هذا الولي الصالح محمد بن عبدالله:

---

(1) هناك إتلاف لثلاث كلمات.
(2) هناك إتلاف لكلمة.
(3) هناك محو لاسمها، وصعوبة قراءته.

الحاج محمد أُو عَبْدْ العزيز، الذي أنجب الشيخ الولي الصالح: الحسين أُوبَعْزِيزْ (1765 ـ 1857 م) الذي ما يزال ضريحه قائماً حتى اليوم في منزلنا بقرية أمزرراق، وهو عالم حافظ للقرآن الكريم، وفقيه، وأنجب أربعة أبناء كلهم علماء وهم: الشيخ بلقاسم، والشيخ العربي، والشيخ الصالح، والشيخ محند، وكلثوم.

1 ـ الشيخ بلقاسم أو بعزيز: أنجب: الحسن، والهادي.

ـ الهادي ترك رزقية، وفطوم (أمي)، وكلثوم، وهو جدّي من أمي.

ـ الحسن: ترك عبد الرحمن (والدي) ويحيى، عمي، ومات له ابن اسمه عبد العزيز وهو أكبرهم ولد عام 1871 خلال ثورة المقراني والحداد.

2 ـ الشيخ العربي: خلف: عمرو، والحسين، والمختار، وعبد القادر، وفاطمة.

ـ عمرو ترك: العربي، والمختار، وبلقاسم، وفطة، ومنانة، وعدودة، وخدوجة، وحليمة.

ـ الحسين، ترك: الشريف، وفاطمة، وعائشة.

ـ المختار: ترك محمد السعيد، والزهرة، التي تزوجت الشيخ مُحَمَّد أُو يَحْيَى بقرية أولاد سيدي علي بعرش آيت ابراهم (بني براهم).

3 ـ الشيخ الصالح: ترك: الصالح، وبلقاسم.

ـ بلقاسم: ترك: جميلة التي تزوجت الطاهر، ولد فطومة بنت حالة شقيقة إدريس بن حالة، وقد لحقت بفطوم هذه وشقيقها إدريس. وزرتها في منزلهما بقرية أولاد حالة.

ـ الصالح: ترك فاطمة، والمدني، والحسن، وأمهم فاطمة بنت الشيخ العربي، وقد توفي الصالح هذا ودفن في زاوية ابن الربيعي بأولاد خلوف.

ـ المدني، ترك: الصالح، وجعفر، والصالح هو الذي سلم لي وثائق هذه الدراسة مشكوراً خلال شهر سبتمبر 1990 بمدينة برج بوعريريج.

4 ـ الشيخ محند: ترك جعفر، والزينة.

5 ـ كلثوم: تزوجت الشيخ العالم محمد أمزيان أُو بَتْقَهْ من قرية إلماين وأنجبت

أربعة أبناءهم: محمد الطيب، ومحمد أُوعَبْدْ القادر، ومحمد أرزقي، والحسن، وكان محمد الطيب عالماً كبيراً وفقيهاً أنجب هو الآخر أربعة أبناء اثنان منهم علماء وهما:

محمد أمزيان ـ ولحلو. وقد لحقت أنا بالشيخ محمد الطيب. وزرته مع والدي في قريته المدعوة لَمْطَرْض. المجاورة لقرية إلماين مقر الدوار والبلدية.

الشيخ الحاج عبد الرحمن بوعزيز (أُوبَغزِيزْ)

1301 ـ 1374 هـ

1884 ـ 1955 م

هو الشيخ الوالد عبد الرحمن بن الحسن بن بلقاسم، بن الحسين، بن الحاج أو عَبْدْ العَزِيزْ، وله شقيق أكبر منه اسمه عبد العزيز ولد عام وفاة الباشاغا المقراني زعيم ثورة 1871، وتوفي قبله، وشقيق آخر يدعى يحيى، حفظ القرآن الكريم، وذهب إلى منطقة النبايل بجهة قالمة لتعليم القرآن الكريم واستقر هناك حتى توفي وخلف وراءه إبناً وبنتاً، لا نعلم عنهما شيئاً حتى اليوم وقد رفضت أمهما تسليمهما إلى الوالد عندما ذهب لاستقدامهما إليه، وذكر الوالد بأنه سافر ليحضرهما ووجدهما قد أفسدت أمهما وجهيهما وأيديهما بالوشم، فعزف عن مصاحبتهما خاصة البنت التي يصعب أن تتزوج بسبب ذلك الوشم.

وتعلم هو (الوالد) القرآن الكريم، على والده، بقرية أمزرراق وحفظه حفظاً جيداً. وأتقن تجويده على الروايات، السبع، والعشر، وشغف بتعلم علوم القواعد العربية كالنحو والصرف، ومادة الفقه، والحديث، ومال إلى حياة التصوف وأكثر من مطالعة سير شيوخ القوم، من مختلف المصادر، خاصة عنوان الدراية، والبستان، كما شغف بمطالعة كتب الفقه والحديث، وعندما كبر تفرغ لتعليم القرآن في عدة قرى منها: أمزرراق مسقط رأسه وبومسعدة، وثاورميث، وكان يذهب إلى قرية أورير الجعافرة لتجويد القرآن على الروايات

السبع والعشر على العالمين: الشيوخ على أوقَاسِمي، والشيخ الصالح أوقَاسِي، ودرس علوم الفقه على الشيوخ. الطيب أُوصَالَحْ، ومحند أرزقي أوصَـالَحْ ، من قرية مذواس، بجبال ثفرق.

وأثناء تعليمه بقرية ثاورميث بالجعافرة، تزوج السيدة مباركة بنت العمرى بن لخضر بن بلعمار الزياني الزيتوني، فأنجبت له الزروق الأول، والنذير، والحسن، وخديجة، وبعد وفاتها تزوج بالسيدة يمينة طالبي بنت بلقاسم من قرية أولاد سيدي يذيـر فأنجبت له أحمد الزروق، وصفية، والحسين، ثم تزوج أمي، وبنت عمه فطوم بنت الهادي، بن بلقاسم، وأنجبت له يحيى (مؤلف هذا الكتاب) وكلثوم، وزينب، والهادي الأول، والهادي الثاني.

وخلال الحرب العالمية الأولى ذهب إلى وادي الصومام وتتلمذ على شيخ صوفي هناك قرب بجاية يدعى الشيخ مزيان، وأخذ عنه «وِرْدَ» طريقته، ولكنه لم يقنع ولم ينل ما كان يصبو إليه رغم أنه فرض عليه أن يصوم الدهر كله.

وعندما ظهرت الطريقة العلوية بمدينة مستغانم اتصل بشيخها أحمد بن عليوة وحكى له سيرته مع الشيخ مزيان ببجاية، فقال له إن عملـك هذا كله يضاعف لك إن شاء الله لأنك قصدت به وجه رب العالمين، ولكن صيـام الدهر كله، وأكل خبز الشعير فقط مع شرب الماء فيه مشقة، وقد لا يوصل إلى المرغوب. ويحسن هنا أن نورد جواب الشيخ الوالد عن سؤال طرحه عليه الشيخ محمد ابن عبد الباري التونسي ونشره في كتابه: «الشهائد والفتاوى. فيما صح لدى العلماء من أمر الشيخ العلاوي» الذي طبع بتونس عام 1344 هـ (1925 م). لأنه فيه معلومات مهمة عن كيفية اتصاله بالشيخ مزيان في بجاية، وتحوله بعد ذلك إلى الشيخ ابن عليوة، وفيه أيضاً معلومات عن نشاطه في هذه الفترة. قال الشيخ محمد بن محمد بن عبد الباري الحسني التونسي ما نصه في صفحات 120 إلى 124 بما فيه من التعليقات التي وضعها المؤلف:

الشهادة العاشرة:

فيما أجاب به المرشد الجليل والصوفي النبيل البركة الشيخ السيد[1] عبد الرحمن بوعزيز الجعفري عن سؤال ورد عليه هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

في 20 جمادي الثاني سنة 1342[2]

ذو الفيض الرباني والمدد الرحماني الشيخ السيد عبد الرحمن بوعزيز عليكم وعلى من اجتمع بكم من المريدين أطيب السلام وأجمل الاحترام هذا أيها الشيخ قد بلغني عنكم أنكم كنتم منتسبين للطريقة الخلوتية وقد حصلتم على الإذن فيها وبعد هذا بلغني انتقالكم لصحبة الشيخ أحمد بن عليوه المستغانمي وأنكم الآن من أخص أتباعه وبما أن بعض الناس استشكلوا ما بلغهم من المنكرين ظهر لنا الرجوع إليكم في تحقيق النوازل ولعلمنا أنكم لا تكتمون الشهادة التي حرم الله كتمانها فما هي شهادتكم في هذا الرجل أخبرونا بارك الله فيكم بلا عصبية قاصدين في ذلك وجه الله نصيحة في ذات الله وحسابكم على الله أن أخبرتمونا عن شيء أنتم فيه على غير بصيرة وحاشاكم من ذلك إنما ذكرنا هذا توفية للمقام والسلام والجواب ينتظر مع حامله والسلام من خديم النسبة الإلاهية محمد بن عبد الباري الشريف التونسي.

---

(1) أقول إن فضيلة المشار إليه من أجله المشايخ بأرض القبائل ذو زاوية عظيمة بعرش الجعافرة عمالة قسنطينة أما فضيلته فقد ظهرت عليه بركة النسبة ظهوراً بيناً بمجرد التعلق بها والعمل بمقتضاها والإذن له في الإرشاد فقد انتشر ذكره وطار صيته وأقبل عليه الناس أفواجاً للاشتغال بالذكر والانفراد في الخلوة حسبما أذن له بذلك وقد بلغنا أن الخلوة كانت عنده لا تخلو من نحو خمسين أو ستين رجلاً منقطعين للذكر إلى أن بلغ عدد المتخرجين منها على يده ما يقرب من ستة آلاف أما أهل التبرك فلا يحصون لكثرتهم وهذا من فضل الله عليه وعلى الناس أما الرجل فلا يرى فيما ظهر عليه إلا متواضعاً حسبما كان يرى بين الفقراء كأحدهم لا يمتاز عن اللفيف إلا بما لا بد منه وبالجملة أن تأثير هذه النسبة في تابعيها لا ينكر وجوده إلا مكابر براء أو جاهل بطريق القوم.

(2) الموافق 28 جانفي 1924 م.

الجــواب

بسم الله الرحمن الرحيم
في 7 رجب سنة 1342(1)

حمداً لمن جعل الذكر مفتاحاً لباب حضرته وأجلى سحاب الوهم عن بصائر أحبابه وأزال آثار الشك والارتياب عن قلوب أوليائه وصلاة وسلاماً على أشرف مظاهر الوجود وعلى آله أولي الكرم والجود هذا وأنه وصلنا مكتوب من طرف أخينا وصفينا في الله ولي الله الشيخ سيدي محمد بن عبد الباري عليكم منا جميل السلام ومن جهة ما أردتم منا أن نؤديه لكم من الشهادة فيما علمناه من أحوال الشيخ سيدي أحمد بن عليوه المتسغانمي فإن غاية ما يكون عليه الجواب في هاته النازلة أن نبسط لكم شيئاً من أطوار حياتي باختصار ومنه يتضح لكم من أمر المسؤول عنه ما يكون فيه الكفاية إن شاء الله.

كنت منذ الصغر أتشوق لأخبار الصالحين ولم يسمعني عنهم حتى ألهمني الله أن نبحث عمن انتهت إليه أسرار التربية من أهل عصرنا وكان من حسن التوفق أن لا تتقيد(2) بطريق إذا لم يكن صاحبها يملك من السر شيئاً أو ملك ولم يستطع أن يملكه غيره لأني كنت لا أميز بين طريق وأخرى بل كل من يوجد لديه هذا الفن فهو بيت القصيد وقد درجت على هذه الحالة حتى ذات يوم ذكر لي عن بعض المشائخ بمدينة بجاية فقصدته وأخذت عليه بعد ما اشترط علي جملة وافية من الأوراد اليومية فالتزمت بذكرها وبعد مدة زمانية أمرني بصيام الدهر وأكل خبز الشعير بالماء فقط فبقيت أيضاً على ذلك إلى أن لقنني الأسماء السبعة المعروفة في الطريقة الخلوتية وبعد أيام قلائل أمرني بالتصدر(3) للإرشاد وما

---

(1) الموافق 13 فيفري 1924 م.

(2) وهذا لمن يروم الغاية من طريق القوم العارف بما وضعت الطريق من أجله أما المتقيد بالألقاب فلا يحسن في نظره ذلك ولربما براه من الخرق وهو حقيق بأمثاله بما أنه حمل الطريق على محملها ودخل البيوت من غير أبوابها ألهمنا الله والمسلمين آمين.

(3) وهذا من الأغاليط الفادحة التي يرتكبها بعض المشائخ ظناً منه أن من سلك ذلك السبيل بعد الأسماء وما هو من ذلك القبيل حصل على نصيبه من طريق القوم حتى كأن الطريق=

سمعت منه ذلك حتى ارتعدت فرائصي لعلمي أن مقصودي ليس هو هذا وما بلغت منه سوى إشارات منامية لا علم لنا بتأويلها ولما ذكرت له ذلك انتهرني أن لا نعود نذكر مثل هذا أمامه أو أمام الأتباع لئلا يشوش عليهم ذلك وعندما سمعت منه هذا علمت في نفسي يقيناً أن المتبوع ليس من رجال الشأن الذي اتبعناه عليه وحينئذ فارقت هذا الشيخ وصرت نبحث عمن هو بالصحبة أحرى إلى أن من الله علينا بملاقاة هذا الأستاذ الأعظم مولانا أبي العباس الشيخ سيدي أحمد بن مصطفى العلاوة المستغانمي في أواخر عام 1337 بشهر ذي الحجة[1] بواسطة تلميذ من أخص تلاميذه يسمى السيد محمد[2] الشريف الزواوي بعدما ناولني كتاب الأستاذ المسمى بالمنح القدسية ولما نزل الأستاذ رضي الله عنه

= عندهم لا تبنى إلاّ على شبه ذلك ولم يعلم أن جميع الأذكار وما يشاكلها إنما هي مجرد قربات ووسائل أما المقصود فمن وراء ذلك.

(1) الموافق سبتمبر 1919 م.

(2) ابن الحسن الجعفري ولنذكر نبذة من ترجمة هذا الرجل بما له من المزايا فإني قد رأيت من اللازم التنويه بشأنه ليعلم القارىء ما عليه أفراد هاته النسبة وقبل ذلك أقول أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده كان فضيلة المشاء إليه قبل قدومه على الأستاذ من أرض القبائل عريقاً في الأمية لا يعرف شيئاً أكثر من العمل البدني مع بعض سور قرآنية كان حصل عليها في صغره فاستأذن الأستاذ في المكث عنده بالزاوية بقصد التجريد فأذن له فقام بسقي الماء للفقراء نهاراً والاشتغال بذكر الاسم الأعظم ليلاً منفرداً إلى أن أخذت مرآة باطنه في الصفاء وكان من أحسن الفقراء معاشرة غير أنه يرى أبعد من أن يتصدر مثله للإرشاد وبعدما مرت عليه الأعوام بالزاوية أخبر الأستاذ ذات يوم أنه رأى في المنام كأنه وجد صندوقاً وعندما فتحه خرج منه إنسان وإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت إليه قائلاً فضحتني فضحك الله بالنور الذي لا يطفأ وبعد ما قصها على الأستاذ أحدثت فيه تأثيراً وعند ذلك قال له اذهب لوطنك وارشد الناس بما تعلم أنه صواب وبما علمك الله وإني ما أراك إلاّ مؤيداً منصوراً فيما تدعو إليه فخرج في ذلك الحين من الزاوية وكان كلما مر على قبيلة من القبائل ودعا أهلها للانتساب والرجوع إلى الله إلاّ وانقادوا إلى الله ذكراناً وأناثاً وهو السبب الوحيد في نشر النسبة العلاوية في أرض القبائل وقد عمل بإرشاده علماء أجلة وإني رأيتهم إلى الآن يعترفون بالجميل ومنهم فضيلة الكاتب المشار إليه ومن خصال هذا ارجل التي هي أحرى بالذكر أنه السبب الوحيد في فتح زاوية بمدينة باريس مع رفيق له يدعى السيد الأخضر بن عمروش وهذا ما تأتي لي ذكره من ترجمة هذا الرجل الجليل.

بعرشنا جددنا عليه العهد بعدما سألني عن حالي فأخبرته بجميع ما كنت عليه فقال لي أن عملك هذا كله يضاعف لك إن شاء الله لأنك قصدت به وجه رب العالمين وبعد ذلك لقتني الذكر الخاص بكيفيته المعروفة عند أهله وأجاز لي أن أذكره أينما تيسر لي خلوة أو جلوة ومكث ببلدنا ثلاثة عشر يوماً فدخل على يده في طريقه نحو ألفين بين رجال ونساء وشبان وبعدما رجع لبلده رضي الله عنه قصدته فأمرني أن أدخل الخلوة فمكثت فيها ستة أيام وكان منها ما كنت أترجاه من قبل من جهة التشرف على ما كان عليه أكابر القوم رضوان الله عليهم فحمدت الله على هذه النعمة وهكذا حصل عليها الجم الغفير من أهل قطرنا الزواوي مما يزيد على الستة[1] آلاف نسمة زيادة على من بقي مقتصراً على عهد التبرك ولم يطلب الزيادة لله وإلى الآن لا زال الناس يدخلون هاته الطريقة أفواجاً أفواجاً وعدد المتصدرين للإرشاد من أخواننا لا يحصى[2] كثرة ومذهب الشيخ أن لا يتصدر أحد بعد تصفية باطنه وتنوير بصيرته وإلا فلا يأذن له الأستاذ في ذلك (وهنا التفت فضيلة الكاتب إلى جماعة المغرضين ونصحهم أن لا يتمادوا على ما كانوا توهموه في هاته الطائفة حيث اتضح لديهم أنها على خلاف ذلك أورث الله الناصحين خيراً والمنصوحين عملاً ثم قال) والسلام من صديقكم عبد الرحمن بن الحسن أبي عزيز الجعفري كان الله له آمين.

وأصبح الوالد من كبار مقاديم الطريقة العليوية وأسس لنفسه زاوية بالجعافرة، ورتب فيها الطلبة لحفظ القرآن الكريم وتعلم العلوم العربية الدينية والأدبية، ومن بين الشيوخ الذين رتبهم لتعليم العلوم العربية: الشيخ علي

(1) يعني بذلك من حقق ما أسست الطريقة من أجله ولا شيء أكثر من معرفة الله على طريق الخصوص مع اكتساب الأخلاق الكريمة والسجايا السليمة والعمل بالسنن المأثورة. وكفى بها نعمة يشعر بها من حصل ولو على الأقل منها ولهذا ترى أفراد هاته الطائفة يبالغون في الاعتراف بفضلها عليهم أما من لا خبرة له بما حصلوا عليه فيها فلا يرى ذلك منهم في الغالب إلاّ من طريق التهافت على غير طائل.

(2) لانتشارهم في الأقطار النائية والقريبة وقل أن تجد قرية أو دشرة خالية من أفراد هاته النسبة ونعني بهم المرشدين المتصدرين ولولا خشية الإطالة لذكرت من أسمائهم ما يفوق حد الكثرة ممن عرفناه وأحرى من لم نعرفه منهم.

البوديلمي المسيلي، ولتعليم القرآن: الشيخ رمضان المعضادي، والشيخ محمد أُويَحْيى من آيت براهم، والشيخ الزين بلحداد من بوفنزار، والشيخ أحمد الورثراني، والشيخ لحلو المزيتي. والشيخ عمر بو حفص.

وقد كان عدد الطلبة المرتبين يقرب من الخمسين يأكلون ويشربون طول العام وكان الوالد رحمه الله يذهب خلال فصل الحصاد إلى دواوير الأعراش، وبلاد المعاضيد ليجمع أعشار الزكاة حتى يضمن مؤونة هؤلاء التلاميذ والطلبة، ويوفر احتياجاتهم السنوية من الأغذية والمعاش.

وإلى جانب هذا كان الوالد الحاج عبد الرحمن بوعزيز يتولى وظيفة الإفتاء والفصل في مشاكل الناس نظراً لتضلعه في مادة الفقه الإسلامي، ومادة الفرائض، يحضرون إليه من سائر القرى والأعراش ليحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، ويريحهم من الالتجاء للمحاكم الفرنسية التي تكلفهم ضياع أوقاتهم، وأموالهم، وأعراضهم. وطيلة حياة الوالد منذ أن أصبحت أُدرك، لم يخل أسبوع واحد من حضور وفد أو مجموعة وفود ليفصل فيما بينهم في القضايا والمشاكل القائمة، والطارئة، فيبدأ بعرض الصلح أولاً ثم إن رفضوا يقدم لهم حكم الله حسب القرآن، والسنة، وأحكام الشريعة الإسلامية. وفي معظم الأحيان والأوقات ينجح في الفصل بين المتخاصمين ويعودون لبلدانهم فرحين مسرورين. وفي بعض الأحيان يأخذونه إلى عين المكان للفصل، ونظراً لهذا النجاح في هذا الميدان كان قائد الدوار السيد زين العابدين بن حالة يحيل عليه الكثير من المتخاصمين ويحثهم على الأخذ بحكم الشرع، وعدم الالتجاء إلى المحاكم الفرنسية.

كان الوالد الحاج عبد الرحمن، رحمه الله، يكثر من قراءة القرآن الكريم، ويحفظه عن ظهر قلب، بالروايات السبع والعشر، وعنه حفظته أنا وختمت فيه أربع سلكات، الأخيرة منها بالروايات السبع مما سهل علي تجويده في جامع الزيتونة بتونس، حتى حصلت على السنة السادسة منه، وبقيت لي سنة واحدة لأحصل على شهادة التحصيل في القراءات.

وقد تصدى لتعليم القرآن والعلوم العربية في مسقط الرأس: أمزرراق، سنوات طويلة منذ عام 1939 إلى وفاته عام 1955 م. وكل سكان القرية ذكوراً وإناثاً درسوا عليه، ويعتبرون تلاميذ له الكبار والصغار، وكان ينام بعد صلاة العشاء ويقوم مبكراً في الثلث الأخير من الليل ليصلي النافلة، ويقرأ القرآن الكريم، وكنت أنا معه في غرفته التي هي بمثابة جامع وزاوية، ويوقظني معه لأحفظ اللوحة، وأمحيها وأكتبها ولا تلو ما لا يقل عن خمسة عشر حزباً قبل صلا الصبح. وبعد الصلاة يشرب القهوة ويعود للنوم قليلاً، أو يذهب إلى المسجد لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم، وكنت أساعده أنا وأخي الكبير النذير، في تعليم الأطفال، وغالباً ما يتكل علينا بعد أن أتقنا حفظه أنا وأخي بالتناوب أحياناً وبالتعاون أحياناً أخرى عندما نعود إلى القرية أنا من عنّابة أو تونس حيث كنت أدرس، وأخي من وهران حيث يمارس التجارة.

وإلى جانب الجهد العلمي هذا يتولى الوالد رعاية البستان الذي نملكه في القرية فيشرف على خدمته، من تقليب الأرض، وغرس الخضر، والأشجار المثمرة، وجمع الغلال والثمار، وتقليم الأشجار، والريِّ طبعاً، بمساعدة عامل أجير في معظم الأحيان، ومساعدتنا نحن الأبناء، وهذا البستان مجاور للقرية، والمنزل ولا يبعد عنه إلا بضعة أمتار ويقع تحت الماء ويعتمد على الري والسقي، ومعظم أشجاره من التين والكروم والرمان والخوخ، والإجاص، والمشمش، وفي شهر رمضان يصلي بالناس التراويح، وأساعده أنا وعندما ختمته أصبحت أنا الذي أصلي بالناس التراويح ويصلي إلى جانبي ليساعدني فيما إذا عثرت، وهو أمر نادراً ما يحدث، لأني كنت أحفظه عن ظهر قلب وأعرف بالتفصيل رسمه وسوره، وآياته.

وقد استفاد كثيراً من الكتب العلمية والأدبية والدينية التي كنت أقتنيها وأحضرها من تونس، فكان يقرأها كلها، بشغف ومن ضمنها كتب الرافعي، والعقاد، والمنفلوطي وينبسط كثيراً عندما يطالع مجلة الأزهر التي تزخر بالدراسات الإسلامية والتاريخية وهو الأمر الذي جعله يشجعني على مواصلة

الدراسة ومتابعتها رغم الضائقة الاقتصادية التي كانت تعانيها العائلة، إذ ليس لنا أرض أو مورد آخر ما عدا الأجرة السنوية التي يتقاضاها الوالد عن التعليم في القرية، والمداخل الهزيلة التي يحصل عليها الأخ النذير من تجارته في وهران.

وإلى جانب القرآن الكريم الذي حفظته عليه، حفظني كذلك عدداً من المتون مثل: ابن عاشر، والأجرومية، وألفية ابن مالك، والشاطبية، وأتقنت عليه دراسة شرح ابن عاشر في الفقه، وشرح الأجرومية في النحو، ومبادىء من قطر الندى قبل أن ألتحق بعنابة وتونس للدراسة، كما أتقنت عليه الروايات السبع في تجويد القرآن، والمتون المتعلقة بضبط رسم القرآن الكريم.

الطلبة الذين تخرجوا على يديه

ومن جملة الطلبة الذين درسوا عليه، وأصبحوا شيوخاً في عدد من قرى ومداشر المنطقة:

الشيخ عبدالله أوشَرْعَ اللَّهْ من قرية ثاوريريث نتيزى عيذل.

الشيخ الشريف حموده عديس، من قرية إغيل أورير.

الشيخ علي أُوحَالَّهْ من قرية أولاد حالة.

الشيخ جعفر أُو الطَّيْبْ، وأخوه الشيخ عباس أُو الطَّيْبْ من أولاد سيدي يذير.

الشيخ يحيى أُولَفْقِي من ثاوريرث نتيزى عيدل.

الشيخ محمد أكلي أو حموده زبوري من بوفنزار بالجعافرة.

الشيخ لحلو أو يحيى من أمزرراق.

الشيخ رابح بسعى من أورير الجعافرة.

الشيخ محمد الحاج عمارة من أولاد عياض.

الشيخ الطيب بومياسة من أمزرراق، وهو ضرير حفظ عليه القرآن حفظاً جيداً وما يزال حتى اليوم يؤذن ويصلي في مسجد القرية.

الشيخ أحمد الورثلاني الذي عاش لديه سنوات طويلة، وحفظ القرآن وأصبح يعلم غيره في زاويته، ولم يغادره إلا مع بداية الحرب العالمية الثانية.

الشيخ الطيب أو عشاش من قرية أقلقال.

الشيخ المختار بن عمرو أوبعزيز من أعشابو، وهو ابن العم.
الشيخ الطاهر وعَمْرَوْ من أمزرراق.
الشيخ جعفر أُوبعزيز من أمزرراق، وهو ابن العم الشيخ محند.
الشيخ الحسن دُوعُو، من أولاد سيدي يذير وآخرون كثيرون.

موقف السلطات الاستعمارية من الشيخ الوالد عبد الرحمن بوعزيز

ونظراً لجهود الشيخ الوالد المكثفة، والمتواصلة، في ميادين التربية والتعْليم، والتثقيف، والتوعية الدينية، والإصلاح الاجتماعي بين مختلف شرائح سكان المنطقة. شددت السلطات الاستعمارية، المراقبة عليه، وعلى زواره المترددين عليه من الإخوان، ومن المريدين، وطلبة العلم. وحفاظ القرآن الكريم، وأصحاب القضايا الذين يرجون منه الفصل فيها، دون اللجوء إلى المحاكم الفرنسية التي كانت تنهكهم مادياً، وتطيل أجل الفصل فيها عن قصد.

وقد بدأت هذه المراقبة تشتد ضده منذ نهاية الحرب العالمية الأولى كما توضح ذلك الرسالة التالية التي وجهها عامل عمالة قسنطينة الفرنسي إلى المقيم العام الفرنسي بتونس يوم 11 جوان 1921 م. وحدثه فيها عن نشاط الشيخ الوالد. وزميله الشيخ الصديق بو فليج في بلدية البيبان المختلطة وأكد له أن هذا النشاط ديني وسياسي ضدّ الفرنسيين.

ولهذا قصة لا بد من إيرادها قبل إيراد نص الرسالة نفسها. ففي عام 1993 أرسل إلينا الأستاذ التونسي الشاب والباحث التليلي العجيلي مقالاً حول نشاط أتباع الطريقة العليوية بتونس، نشره في مجلة إبلا. وعندما قرأته وجدته يذكر اسم والدي الحاج عبد الرحمن بوعزيز ضمن هؤلاء من خلال رسائل اطلع عليها بأرشيف الوزارة الأولى بتونس. فراسلته طالباً منه التفضل بتزويدي بنسخ من تلك الرسائل وأجاب الرغبة شاكراً. ومما جاء في رسالة العامل: أن المقدمين المحليين: بن بعزيز عبد الرحمان، وبوفليح الصديق، في بلدية البيبان

المختلطة يقومان بنشاط ديني وسياسي ضد الفرنسيين، وعبّر عن لقب والدي ببن بعزيز وهو خطأ من المخبرين الذين قدموا المعلومات للمعامل.

ولأهمية الرسالة في توضيح بعض جوانب القضية نورد الترجمة الكاملة لها بعد إيراد نص رسالة الباحث التونسي الذي نشكره غاية الشكر لأنه لولاه ما أمكن لنا الاطلاع على هذه الرسالة، واكتشاف هذه المعلومات.

رسالة الأستاذ التليلي العجيلي

تونس في 10/9/1993.

حضرة الأستاذ الجليل الدكتور يحيى بوعزيز إليك مني تحية ملؤها الإكبار والتقدير على سعة إطلاعك ودقة بحثك، أما بعد فقد أسرتني ملاحظاتك كثيراً خاصة وأني ساهمت، دون شعور مني، في الإتيان على ذكر والدك دون علم مني، فسررت بذلك خاصة وأن المرحوم الشيخ بوعزيز عبد الرحمن، هو والد من أكنّ له كل التقدير والاحترام لما بذله ويبذله من مجهود معترف به، ومشهود له على المستويين العربي والدولي، وتعبيراً مني على غبطتي تجاه هذا الاكتشاف الذي ما كنت لأتفطن إليه لولا ما آمنت به من تبادل بحثي ومعرفي مع من تيقنت من جديتهم وإسهامهم في إضاءة جوانب عديدة ومتعددة من تاريخ شعوبنا وبلداننا. ها أنا أبادر وبكل سرور، إلى مدك بكل الوثائق التي طلبتها مني والمتوفرة في أرشيفنا الوطني في سلسلة من فيهم «Les Gens Suspects» والمتعلقة بدعاة الطريقة العليوية.

إن هذا الاكتشاف الذي جاء كنتيجة توجت تبادلنا المعرفي المحتشم تدعونني بكل أسرار إلى مواصلة الاستفادة منك كما سبق أن أكدت لك كذلك المرار العديدة ذلك أني أنوي، بإذن الله خلال هذه السنة، أن أمدك ببعض المعطيات والإشكاليات التي لها علاقة وطيدة بموضوع أطروحتي حول المغرب العربي راجياً منك أن تمدني في حدود ما تسمح به الظروف، بكل ما يساعدني على التقدم في البحث وإنجازه وفق الشكل والمضمون. الذي يكفل له أهميته

على مستوى البلدان الثلاثة حتى أكون قد أسهمت من جانبي في دعم كتابة التاريخ المشترك لمغربنا للحد نسبياً من تكريسي القطرية الغالبة على الدراسات التاريخية المعاصرة لذلك، فإن أعدك بأن أراسلك هذه السنة بانتظام أكثر ليقيني بأني استفدت إلى أبعد حدّ من جل ما كتبته وبالتالي فإني مدين إليك في تكويني حول تاريخ الجزائر الذي أدرسه منذ 6 سنوات لطلبة السنة الثانية تاريخ.

فحتى نلتقي ثانية، أرجو إليك أطيب الأوقات ودوام الصحة والعافية والسلام.

أخوك العجيلي

رسالة عامل عمالة قسنطينة

إلى المقيم العالم الفرنسي بتونس

عمالة قسنطينة — الجمهورية الفرنسية

مكتب الشؤون الأهلية[1]

رقم 15737

الموضوع: قضية المسمى بغدادي من الطريقة الرحمانية ـ الشاذلية.

خاص، سري، يوم 11 جوان 1921.

عامل عمالة قسنطينة إلى السيد المقيم العام الفرنسي بتونس.

لـي الشرف أن أنهي إلى عملكم بأن مركز نشاط ديني إسلامي قوي ظهر في عمالتي، داخل بلدية البيبان المختلطة. وهذه الدعاية الدينية يقودها المقدمان المحليان. بن بعزيز عبد الرحمن، وبوفليح الصديق. وكلاهما من البلديـة المذكورة. وهما يخضعان لأوامر الشيخ بن عليوة بمستغانم. هذا الشيخ (بن عليوة) الذي يتبع للطريقة الشاذلية ولكنه تجاوزها في الحقيقة ليؤسس لنفسه طريقة خاصة به مستقلة عن الأولى. وهيأ لنفسه عونين آخرين للدعاية لهما تأثير كبير، وهما الأخوان: بغدادي الصالح بن عبد العزيز، وبغدادي مولاي

(1) Les Archives Natiionales de Tunisie. E550-30/ 15-2494.

الحسن بن عبد العزيز، وكلاهما من أصل تلمساني.

ـ الأول منهما رجل ذو ثقافة ومعرفة عالمية، وبهذا الوصف لعب دوراً كبيراً وتأثيراً قوياً على زملائه في الطريقة.

أما مولاي الحسن، فهو طالب، وليس له وصف آخر، يسكن بمدينة مستغانم، ومنذ شهرين غادرها، وإبلغ إليّ خبر مروره حوالي آخر الشهر الماضي، بمنطقة برج بوعريريج والبيبان، أين حدث التشويش، ثم اختفى من جديد، وحسب المعلومات التي وصلت إليّ، فإنه توجه إلى تونس، والهدف من رحلته هذه، هو الاتفاق مع صاحب مطبعة في تلك المدينة لطبع الكتب الدينية لشيخه (ابن عليوة).

وأيضاً الهدف من هذا التبشير الديني من طرف الشخصيات التي سميتها أعلى، ليس إلا تجنيد المريدين، والأتباع، وغرس الطريقة الرحمانية والشاذلية فقط حتى هذه الساعة في مسابقة المنطقة.

حالياً ثبت بالتأكيد، أن التشويش الذي حدث في منطقة البيبان من طرف ابن بعزيز عبد الرحمن، وبوفليح الصديق، له مظهر واضح، سياسي، وضد الفرنسيين.

من جهة أخرى رحلة بغدادي مولاي الحسن نحو تونس بصفة سرية لسنا مرتاحين لها، ويظهر لي في هذه الحالة، أنه لا بد من اتخاذ الاحتياطات والاحتراس من طرف السلطات العامة، واليقظة التامة.

لهذه الأغراض، سيدي المقيم العام، التي أطلعتكم عليها بالنسبة لهذه الشخصيات، الدينية، يرجى منكم وجوب القيام ببحث من أجل العثور على أثر للمسمى بغدادي مولاي حسن، وجمع المعلومات الكاملة، والممكنة حول هدف سفره إلى تونس، وذهابه وإيابه ولقاءاته، واهتمامه وأخيراً إذا قفل راجعاً إلى أين اتجاهه.

العامل

(إمضاء غير واضح)

وللتوضيح أكثر فإن الشيخ الصديق بوفليح عالم، وفقيه، فاضل، من قرية اقلقال بدوار إلماين في بني عيدل، زاول التعليم والتدريس في عدة زوايا المنطقة، مثل زاوية أمالو، وزاوية مزيتة، وفي عدة مساجد قرى المنطقة قبل أن يتحول إلى العمل الفلاحي، حيث اشترى أرضاً ببلدة المشرع التابعة لبلدية البيبان المختلطة قرب مجانة. وهو صديق حميم للشيخ الوالد. أدركته وكان يزورنا مرة على مرة إلى منزلنا بالجعافرة، ثم في برج بو عريريج عندما انتقلنا إليها قبيل الحرب العالمية، الثانية، وقد توفي في بداية هذه الحرب وخلف وراءه أربعة أولاد. منهم محمد السعيد الذي زوجت لابنه سالم بوفليح ابنتي الطبيبة زكية بوعزيز في صيف عام 1993، وهو محامي في مدينة برج بوعريريج وأستاذ للقانون الجنائي في جامعة سطيف.

ـ أما المقدمان، أو العونان التلمسانيان: فهما الشيخ الحاج الصالح بن عبد العزيز، مقدم الطريقة العليوية بمدينة وهران، وهو رجل عالم وفاضل بما في الكلمة من معنى، مظهراً ومخبراً، تربطه بالوالد صداقة متينة ويتزاوران دائماً، وكان كثير التجوال والسياحة، له أخلاق عالية جداً. وورع إلى أبعد حدّ، وقد ضيفني بمنزله في وهران، عدة مرات، ويبدو على محياه الوقار وعندما كنت أدرس بتونس كان يحضر إلى هناك وألتقي به خلال عقد الخمسينات وقد توفي خلال عقد السبعينات بوهران، وحضرنا جنازته، وابنه شقيقه بغدادي مولاي الحسن بكلمة مؤثرة وبليغة كانت في مستوى عظمة الرجل، ومكانته، وماضيه.

وهذا الشقيق بغدادي مولاي الحسن تولى الكتابة للشيخ بن عليوة فس مستغانم عدة سنوات، ولربما حتى توفي عام 1934، وافترقت الجماعة فيما بينها إلى فريقين: فهاجر إلى الشام واستوطن دمشق ولم يعد إلى الوطن إلا بعد استعادة الاستقلال الوطني عام 1962 فوظفته وزارة الشؤون الدينية إماماً وخطيباً في مسجد بعين الطاية قرب مدينة الجزائر، والتقيت به في ملتقى الفكر الإسلامي بمدينة تلمسان خلال صيف 1975، وحدثني عن علاقاته الطيبة والحسنة بوالدي وزياراته له في الجعافرة خلال عقد الثلاثينات، وهو خطيب

مصقع، وذو ثقافة متينة وله لحن جميل عندما يؤذن، ويتلو القرآن الكريم، ويغني بأشعار المتصوفين توفي في عقد الثمانينات بالجزائر العاصمة.

والمراقبة التي بدأتها الإدارة الاستعمارية على الشيخ الوالد منذ نهاية الحرب العالمية الأولى لم تنته، بل تواصلت ضده. فقد فرضت عليه أن يقدم نفسه لمكتب المتصرف المدني الفرنسي في مجانة مقر البلدية المختلطة كل عشرين يوماً، ليسأل ويستفسر، ويجيب عن أسئلة روتينية، ومرة على مرة تداهم الشرطة ورجال الدرك منزلنا للتفتيش، ويسألون حتى عن السبورة إذا كنا نستعملها في أنشطتنا الثقافية التعليمية، وشهدت هذا بنفسي في حدود عام 1939 يوم أن كنا نسكن في مدينة برج بوعريريج لفترة قليلة، حيث داهمت الشرطة منزلنا وسألت عن السبورة التي أخفيناها قبل حضورهم. وكان الوالد خارج المنزل بالمدينة فجاء مسرعاً وعلم أن هناك من وشى بنا.

وعندما التحقت أنا بتونس للدراسة أصبح يسأل عن نشاطي، وعندما أعود إلى المنزل في عطلة الصيف، أدعى للاستجواب وتوضع أمامي عراقيل ضد الرجوع. وللتاريخ أذكر أن السيد زين العابدين بن حالة قائد الدوار، كان يتدخل ليذلل لي العقبات لأنه كان يقدر الوالد ويحترمه كثيراً، وكان رجلاً مثقفاً كذلك، يقدر الثقافة ورجالها، وعندما نشرت مقالاً في جريدة المنار عام 1951، في إطار الاستفتاء الذي طرحته الحركة الوطنية حول إمكانية توحيد التيارات السياسية لمواجهة الاستعمار، تم استدعاء الوالد للاستفسار والاستجواب وطلب مني السيد زين العابدين إحضار نسخة من المنار ليطلع على الموضوع فأرسلته له. ومع أن الوالد يعرف اشتراكي في حزب حركة الانتصار لكنه لم يعارض ولم يقل لي في يوم من الأيام لماذا بل شجعني، وكان يتوق ليوم تتحرر فيه البلاد، وأذكر يوماً خطبت فيه صباح العيد على جمهور سكان القرية بعد صلاة العيد. وخطب معي زميل آخر كان يدرس معي بتونس، هو الأخ محمد بن بلقاسم، وكنت فصيحاً، ففرح واغتبط. كما فرح كل سكان القرية الذين لم يعتادوا على مثل تلك المهرجانات، والخطب وتأكد الوالد من نجاحي وتفوقي في الدراسة وعندما عدنا إلى المنزل وأراد أخي الكبير أن

يعاتبني على اتباع سبيل الحركة الوطنية، ردّ عليه الوالد قائلاً: دعه فهذا عصره، ولا يمكن أن نقاوم رياح التاريخ إنه يقرأ بتونس، ويتصل بالناس، ويقرأ الكتب والمجلات، ويعرف التيارات السياسية، ويدرك الصالح من الطالح، ولا بد من أن يخوض مع الخائضين.

وكم كنت مسروراً بهذا الجواب، وهذا الموقف، لأن والدي صوفي النزعة والمشرب، وكنت أتحذر من إبداء انتمائي السياسي أمامه، وجاء هذا الموقف مناسبة لأخرج من الصمت، وأصارحه بانتمائي لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وعضويتي في جمعية الطلبة الجزائريين التابعة لها بتونس فرحب، وفرح، ولم يشر علي حتى بفكرة، الاعتدال والتحذر من السياسية ما عدا مرة واحدة أو اثنتين في إحدى رسائله إلي بتونس فيما بعد عندما اندلعت انتفاضة تونس، وقام الطلبة الزيتونيون بإضرابهم العام المشهور.

وبكل تأكيد فإن الكتب، والنشرات والمطبوعات، التي كنت أحضرها معي من عنابة، وتونس، أو أرسلها إليه، ويقرؤها جميعاً وبكل شغف، كانت إحدى العوامل التي أخرجته من الدائرة الضيقة للطرقيين، وجعلته يتفتح ويتطلع إلى هذه المجالات السياسية ويميل إليها، ويعطف عليها، ويتفهم موقفي كذلك، وأتذكر أن كل جرائد تونس لعام 1947 وما بعدها التي عايشت قضية فلسطين أحضرتها له وقرأها وعلى رأسها: الأسبوع، والزهرة، والنهضة، ومكنه ذلك من أن يكون على دراية تامة بأوضاع المشرق العربي، والقضية الفلسطينية، وقد أنجرّ على هذا تشدّد السلطات الفرنسية في مراقبة تنقلاتي وسفراتي بين الجزائر وتونس خاصة في نقط الحدود، وعلى الخصوص نقطة الببوش بعين دراهم عبر الحافلة حيث أستنطق وتفتش حقائبي وكتبي وأوراقي، وكثيراً ما هددت بالعقاب عندما لا أجيب عن الأسئلة بصفة مباشرة، وأتذكر مرة أن أحد حراس الحدود سألني عن قريتي، فقدمت له اسم الدوار بدلها، وبطاقة تعريفي بيده، فاغتاظ وهددني بالإيقاف، ولكن حارساً آخر تدخل وقال له بأنه لم يفهم مقصودك.

كان الوالد رحمه الله متشدداً في إقامة الصلاة في وقتها مهما تكن الظروف

فحيثما وجده الوقت يتوقف ليؤديها ماشياً، أو راكباً، مقيماً أو مسافراً، حتى أصبح مضرب المثل في كل المنطقة، وأتذكر مرة أننا كنا مسافرين في قطار، ففرش زربية وصلى داخل عربة القطار وهو يجري، ومرة أخرى كنا ننتظر القطار في مدينة سطيف وحضر وقت العصر فخرج إلى الساحة المجاورة وصلى قبل أن يركب.

ويحرص دائماً أن يؤدي الصلاة بالوضوء، ولا يستعمل التيمم على الحجر أو التراب إلاّ نادراً، ولم أره طول حياتي التجأ إلى التيمم إلاّ مرة واحدة.

ذهب إلى الحج براً عن طريق الحافلة عام 1953، بواسطة مؤسسة تابعة لأحد المهاجرين بفرنسا كان هو وأبوه صديقين له، ومن أبناء المنطقة في قرية أولاد سيدي يدير يدعى: علي أُوبَعْزِيزْ، عاشر فرنسا سنوات طويلة، وتزوج أوروبية ولكنه رجل متدين للغاية مظهراً ومخبراً، وبقي في هذه الرحلة أكثر من شهرين وفي فصل الصيف فأثرت فيه الحرارة، والمياه المثلجة، فعاد مريضاً ولم يتخل عنه المرض حتى أخذه إلى ربه يوم 9 فيفري 1955 (16 جمادى الثاني 1374 هـ)، ودفن بضريح جدنا الشيخ الحسين، وإلى جانبه في منزلنا بالقرية وحضر جنازه جم غفير من سكان الأعراش ضاقت بهم القرية، ولم أكن حاضراً لأني كنت بتونس، وحضرت بعد وفاته بحوالي عشرين يوماً وكانت بوادر الثورة بدأت تصل إلى المنطقة ورجا مني سكان القرية أن أصلي التراويح بهم فلبيت وحضرت من تونس بعد أن عدت إليها وقضينا شهراً ممتعاً أحكما خلاله تنظيم خلايا الثورة، وتدعيم الاتصالات مع المسؤولين لأن الأمور بدأت تتضح أكثر، وكانت إذاعة طانجة في هذه الفترة تذيع أحداث الثورة بالتفصيل على الساعة العاشرة والنصف ليلاً فنتابعها باستمرار. وأشرح للمصلين ما غمض عليهم ولم يفهموه. ويشاركنا في هذا النشاط عدد من سكان القرى المجاورة للتمتع بالجو الديني والسياسي الحيوي الجديد.

المدخل إلى الوثائق

يشتمل هذا الموضوع على الوثائق التسعة عشر التالية:

أولاً: شهادة شرعية تثبت شرف نسب الأخوين الشقيقين العالمين والفقيهين: أبي عمران موسى، وأبي عبدالله محمد بن عبدالله، وقد كتبت هذه الشهادة على جلد حيوان، طوله حوالي أربعون صانتيماً وعرضه حوالي ثلاثون صانتيماً. وشهد على صحة هذا النسب عشر أشخاص من المنطقة. وثناهم بعد ذلك وصادق عليها قاضي الجماعة بمحروسة الجزائر، وشهد على صحتها وثبوتها، وذلك عن طريق أمهم أم السعد وجدتهما عائشة بنت الشيخ أبي عثمان سعيد بن حجاج الشريف المزودي، وينتهي نسبها إلى الرسول محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام. وتاريخ هذه الشهادة أواخر جمادى الأولى عام 986 هـ الموافق لشهر أوت 1578م[1]. وهذان الشيخان الشقيقان مدفونان في قرية أمزرراق بعرش إلماين في بني عيد أَوْيَغْدَلْ. وكل واحد منهما بنيت عليه قبة وهي قريتنا ومسقط رأس آبائنا وأجدادنا. وتدعى: أَمَزْرَرَاقْ.

ومن العالم الفاضل أبي عبدالله محمد بن عبدالله أحد الشقيقين ينحدر معظم سكان قرية أمزرراق ومنهم فرقة البعازيز، التي تنحدر منها عائلة أولاد بوعزيز التي اتخذناها نموذجاً في هذه الدراسة لتبيان دور العائلات المثقفة في نشر الثقافة والتعليم بالأرياف الجزائرية في القرن الماضي والحالي.

---

(1) تسلمت هذه الشجرة وكذلك رسائل وعقود هذه الدراسة من ابن العم بوعزيز الصالح بن المدني في مدينة برج بوعريريج أوائل شهر سبتمبر 1990 م خلال زيارتي لها.

ثانياً: عقد شراء بحيرة ثاله عياط من بني عامر لصالح أجدادنا الأربعة بلقاسم، والعربي، والصالح، ومحمد، بجوار قرية أمزرراق مسقط الرأس.

ثالثاً: وثيقة الجد الشيخ الحسن بوعزيز، وفيهما قسمان:

القسم الأعلى: وهو عبارة عن نص منقول من كتاب المسالك للبكري حول وجود مدينتين إحداهما بالمشرق، والأخرى بالمغرب، مساحة كل منهما إثنا عشر ألف فرسخ. وأبواب كل منهما عشرة آلاف، يحرس كل باب في كل ليلة عشرة آلاف رجل، عمر كل واحد منهم ستة آلاف فما دون ولا يلحق دور أحد منهم إلى يوم القيامة.

ومر جبريل برسول الله عليهما فآمن سكانهما به. ودعاهم إلى الله فأجابوه، وفي نهاية هذا القسم وردت العبارة التالية: من خط عمنا العربي بن مصباح نقله من كنوز الأسرار. اهـ.

القسم السفلي: سجل فيه الجد بخط يده ميلاد ابن له، وميلاد ابن لعمه العربي بن عبد العزيز. أما ابنه هو فسماه عبد العزيز، وذكر أنه ولد «عام 1288 ثمانية وثمانين ومائتين وألف وهو عام الجهاد ومات فيه الأمير باش آغة» ويعني به الباشاغا محمد المقراني زعيم ثورة 1871 الذي استشهد يوم 5 ماي 1871 م. وأما ابن عمه فذكر أنه سماه عبد القادر، وولد عام 1293 هـ وهو ما يوافق عام 1877 م وسجل في آخر الوثيقة قوله: «كاتبه، كاتب الأعلى تاب الله عنه آمين» وقد ذكر اسمه في التسجيل عندما قال: «ولد ولـد لكاتبه الحسن بن بلقاسم بن عبد العزيز اسمه عبد العزيز».

رابعاً: عقد بيع وشراء لعقار بقرية أمزرراق يحمل اسم: أحريق أَوَّاذًا كتبه الجد الشيخ الحسن بوعزيز بين المشتري أَعْرَابْ الزَّوَاوِي، والبائعين وهم الأخوة: «سي الطيب بن يحيى وشيقه (كذا)، سي مقران، وسي الشريف، مسكنهم جميعاً في القرية المذكورة». وقد تمت كتابة هذا العقد بتاريخ محرم الحرام عام 1313 الموافق لشهر جوان وجويلية 1895. وشهد على هذا العقد كل من بعازّى أرزقي بن الصديق، وبن بلقاسم الطيب بن العربي وبن بلقاسم

مولود بن السعيد، والكاتب بوعزيز الحسن بن بلقاسم. وحدد فيه سعر الشراء، وقال: (ومبلغ ثمن المبيع ستمائة فرنكاً وخمسون من النعت).

خامساً: عقد بيع وشراء لعقار كذلك هو ملك لوالد محرر العقد وعمه في نفس القرية أمزرراق يحمل اسم: تارقه يَغْرَاساً. كتبه الجد الشيخ الحسن بوعزيز بين المشترين لخضر بن بلقاسم بن السعيد، والبائعين «سي بلقاسم بن عبد العزيز، وشقيقه سي الصالح المزرراقيين نسباً ودياراً». وسعر البيع أربعمائة فرنك وأربعون من النعت. وتم تحرير هذا العقد بتاريخ 15 جمادي الأولى عام 1313 هـ الموافق ليوم 3 نوفمبر 1895 م. وشهد عليه كل من أعراب الزواوي، ومحمد بن مياسة، ومحمد أرزقي بن عبد العزيز، والصالح بن موسى، والكاتب الحسن ابن عبد العزيز. ومعلوم أن البائعين للعقار هما والد الكاتب (الجد) بلقاسم، وعمه الصالح.

سادساً: رسالة الجد الشيخ الحسن بوعزيز إلى الشيخ السعيد بن محمد البشير بن أحمد الزين، حدد له في أعلاها أسعار خمسة كتب على شكل قائمة: ثم أخبره بأنه اتصل فعلاً برسالتيه: الأولى بتاريخ 2 جمادي الثانية، والثانية بتاريخ 7 من جمادي الثانية كذلك لعام 1314 هـ، وفرح بهما وبما جاء فيهما، ومضمونهما الرغبة في معرفة أسعار بعض الكتب. وقد أجابه عن البعض وحدد أسعارها في أعلى الرسالة. واعتذر عن الباقي حتى يصله الخبر عن أسعارها وأوضح له أن سعر كتاب ابن حجر ثمنه 10،50 فرنك، وجلبه يتطلب عشرة صوردى، ومع ذلك لوجهه سيحْضره له. وأن كتاب الدسوقي علي خليل لا يعرف سعره. وكتاب الدرة البيضاء لا يوجد بتونس ولكنه رآه مراراً في قسنطينة وصاحبه يطلب فيه ستة فرنكات، وسوف يكاتبه ليخفض فيه بعض الشيء وسيبلغه النتيجة، وذكر له في الرسالة بأن سبب تأخير الرد هو موت ولد بن حاله. وحدد له سوق الخميس مكاناً للقاء، وطلب منه أن يبحث عمن يشتري نسخة من كتاب الخرشي، بسعر 25، ونسخة من متن خليل بسعر 4. وتاريخ هذه الرسالة 11 جمادي الثانية 1314 وهو ما يوافق 17 نوفمبر 1896 م.

سابعاً: رسالة السيد المسعود بن الربيع إلى الجد الشيخ الحسن بوعزيز جواباً له على رسالة سابقة إليه استفسر فيها عن حالة الموسم الفلاحي. فأجابه بقوله: «فترا (كذا) في بعض المواضع (كذا) لا يحصدونها، وبعضها فيها شيء. وهو لا يغني في راية البصر. نعم وأنت الناس قد عرفت أحوالها فالذي يقوم بقدرك، والذي لا يقوم وما كان يعرفك به سي الحسين بن الشيخ العربي. وإذا تعين لك القدوم أخبرني». وطلب منه إذا حضر أن يشتري له الكتب التالية: الشيخ المصري على السنوسية، وفتح الأقفال شرح تحفة الأطفال. ومصحف صغير، وابن الواضح. وطلب منه أن يبلغ السلام إلى الشيخ الهادي عمه (الجد) وأمه (الهادي) صافية، ومحمد بن بلقاسم، والشيخ الصديق بن بلقاسم وطلب منه، ومن هؤلاء جميعاً الدعاء الصالح. واستدرك في الأخير قوله: «ويا سيدي لحسن تخبر سي البشير بن موسى إذا قدم إلى هذه البلاد فلا يقدم إلى جهة أولاد الشيخ فتراهم حالفين فيهما يمين كبير إذا حكموا أحدهما يقدموا به إلى أصحاب الحكم منكر فيهما لأن الدار قد رابت (كذا) لهما الغرابة السفلى وصلحوها (بمبلغ) 12 دورو، والغرابة العلي (كذا) كذلك والسلام». تاريخ الرسالة 16 محرم 1317 وهو ما يوافق 17 ماي 1899 م.

ثامناً: نبذة عن حياة الشيخ المدني بوعزيز بن الصالح بقلم ابنه الصالح التاجر حالياً بمدينة برج بوعريريج.

تاسعاً: نسخة من ورقة الاستدعاء من طرف الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى الشيخ المدني بوعزيز عضو جمعية العلماء يدعوه فيها للمشاركة في اجتماع الجمعية السنوي بنادي الترقي يوم 16 جويلية 1934 م.

عاشراً: قصيدة الشيخ المدني بوعزيز التي نظمها في شهر ذي الحجة عام 1360، الموافق لشهر ديسمبر 1941. وموضوعها التنديد بأعمال الاستعمار الفرنسي. والتشهير بها، والاستنكار ضد نفي صديقيه: الحواس بن شناف، والجمعي بلحداد، إلى عين الصفراء وسجنهما هناك، بسبب احتجاجهما على المتصرف المدني لحوز مجانة والبيبان الذي صادر الأراضي من أصحابها،

وملكها للباشاغا شيبان بالشرفة قرب تازمالت، وأقبو بحوض واد الصومام. وهذه القصيدة تقع في 51 بتاً. وهي مجرد نظم وليست شعر وتأتي أهميتها فقط في الأحداث التي تشير إليها.

وإلى جانب هذا هناك تسعة رسائل أخرى تم تبادلها بين الشيخ الوالد، وبيني أنا المؤلف والمحقق يحيى بوعزيز في تونس، وبينه وبين الأخ الأكبر النذير بوعزيز بوهران.

ولهذه الرسائل التسعة قصة لا بد من ذكرها هنا.

فقد احتفظت بها والدتي السيدة فطوم بوعزيز بنت الشيخ الهادي بوعزيز، بعد وفاة الوالد الشيخ عبد الرحمن بوعزيز خلال شهر فيفري 1955 م. ثم لما دمر الجيش الفرنسي منزلنا بالطيران عام 1956، ودمر باقي منازل القرية أمزرراق، وبقيت النار تشتعل في مكتبتنا شهراً كاملاً بشهادة الوالدة، اضطرت الوالدة وأفراد الأسرة إلى الالتجاء إلى منزل صهرنا الحاج المختار طالبي بأولاد سيدي يذير، وأخذت معها هذه الرسائل مع أوراق أخرى وصور، وتم إنخفاؤها في سقف إحدى الغرف تحت القرميد حتى لا يطلع عليها الجنود الفرنسيون الذين يقتحمون المنازل دون إذن، وفي كل الأوقات من الليل والنهار، وتنوسيت هناك مدة ربع قرن تقريباً، إلى أن قام أحد أفراد تلك العائلة ويدعى الطيب طالبي بإصلاح قرميد تلك الغرفة عام 1981، فعثر عليها، واكتشفها، وأخرجها. وكانت معها صورة لي، وأخرى للشيخ الوالد، ورخصة سياقة السيارات للأخ النذير بوعزيز، وتم إرسالها إلينا بوهران، فتصفحتها ووجدت فيها معلومات كثيرة تستحق التسجيل والنشر، سواء بالنسبة لتاريخ الأسرة والعائلة، أو للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي تتشابه فيها كل الأسر الجزائرية. وفيما يلي تعريفات مختصرة لها، قبل إيراد نصوصها كاملة في الأخير.

حادي عشر: رسالة الشيخ الوالد من المدينة المنورة إلى أبنائه بمسقط الرأس بتاريخ 25 ذو الحجة 1372 هـ. الموافق 3 سبتمبر 1953، أعلمهم فيها

بأنه وصل إلى المدينة المنورة منذ 22 ذو الحجة قادماً من مكة وأنه سيعود إلى الوطن ومسقط الرأس في منتصف شهر محرم الحرام عام 1373 هـ.

ثاني عشر: رسالة الشيخ الوالد إلى ابنه النذير بوهران بتاريخ 24 شوال 1373 هـ. الموافق 25 جوان 1954 م، حدثه فيها عن صحتي المتدهورة أنا الذي أدرس بتونس، وأقترح عليه أن يدخلني إلى المستشفى للعلاج وإجراء عملية جراحية إن لزم الأمر فيما إذا لم أسافر إلى تونس للإمتحان، الذي كان قد علق في شهر جوان بسبب إضراب الطلبة، هذا إلى جانب معلومات أخرى عن العائلة اقتصادية واجتماعية.

ثالث عشر: رسالة الشيخ الوالد إليَّ بتونس بتاريخ 4 ربيع الثاني 1374 هـ. الموافق 29 نوفمبر 1954 م، حدثني فيها عن شؤون العائلة، وطلب مني أن ألتزم الحياد بالنسبة للمشاكل السياسية التي تمر بها البلاد التونسية، لأنه كان حريصاً جداً على إتمام دراستي، وأخبرني باشتداد المرض عليه، وكثرة الآلام التي كان يحس بها.

رابع عشر: رسالة الشيخ الوالد إليَّ بتونس بتاريخ 11 ربيع الثاني 1374 هـ. الموافق 6 ديسمبر 1954، أخبرني فيها بأنه اتصل برسالتي إليه، وطلب مني أن أبعث إليه ببرنامج الدراسة، والمواد التي ندرسها، ولم ينس أن يذكرني بأنه ما زال يعاني المزيد من الآلام والمرض.

خامس عشر: رسالة مني إليه من تونس بتاريخ 27 ربيع الثاني 1374 هـ. الموافق 23 ديسمبر 1954، حدثته فيها عن البرنامج والمواد التي ندرسها كما طلب مني، وعددها عشرون مادة، ومع الرسالة قصيدة شعرية نظمتها في موضوع مرضه، وآلامه كتسلية له، وسرّ بها كثيراً لأني شبهته بالنبي أيوب عليه السلام.

سادس عشر: القصيدة الشعرية التي نظمتها في موضوع مرضه، وبها 32 بيتاً وتاريخها 24 ربيع الثاني 1374 هـ. الموافق 20 ديسمبر 1954 م.

سابع عشر: رسالة الشيخ الوالد إلى ابنه النذير بوهران بتاريخ جمادي

الأولى 1374 هـ. 2 جانفي 1955 م حدثه فيها عن مشاكل العائلة، ومنها مرض الأخت جميلة الذي استعصى علاجه، وأرسل إليه مع الرسالة القصيدة الشعرية التي أرسلتها إليه من تونس. وقال له عندما تقرؤها أعدها إلي، وأعادها إليه فعلاً.

ثامن عشر: رسالة الشيخ الوالد إليَّ بتونس بتاريخ 5 جمادي الأول 1374 هـ. 2 جانفي 1955 م، وهو نفس التاريخ الذي أرسل فيه الرسالة السابقة إلى الأخ النذير بوهران، وقد حدثني فيها عن شؤون العائلة ومشاكلها، ومرض الأخت جميلة، كما حدثني على الأخ النذير بوهران، وهي آخر رسالة منه إليَّ لأنه سرعان ما اشتد عليه المرض، وأدخل إلى المستشفى بمدينة برج بوعريريج في شهر فيفري 1955، وتوفي يوم 9 من نفس الشهر على الساعة الرابعة صباحاً بحمام ابن سالم، بعد إخراجه من المستشفى بطلب منه.

تاسع عشر: رسالة الشيخ الوالد إلى ابنه النذير بوهران بتاريخ 22 جمادي الأول 1374 هـ. 15 جانفي 1955، أخبره فيها بأن الدواء الذي أرسله إليه وصله، وعاد للحديث عن مرض الأخت جميلة، وطلب منه أن يرسل إليه كمية من الشاي الأحمر والأخضر، وهي آخر رسالة إليه كذلك قبل أن يلتحق بربه يوم 9 فيفري 1955 عن عمر ثلاثة وسبعين عاماً قضى منها قرابة ستين عاماً في التربية والتعليم، والوعظ والإرشاد، والإفتاء، والإقراء.

نصـوص الوثــائق

أولاً ـ نص عقد شهادة شرعية بشرف نسب الشيخين الشقيقين أبي عمران موسى وأبي عبدالله محمد المزرراقيين

الحمد لله الذي خلع على ذرية نبينا محمد ﷺ، خلع الشرف[1] على سنن التقوى والاستقامة وخصهم بين الأمة بمراتب الرفعة ومزايا الأثرة والإمامة. وجبلهم على مكارم الأخلاق[2] الأعراق أوضح علامة. وبين ما لهم من التعظيم والترفيع (كذا) والتكريم، والتشريف، والتشفيع. فأحكم نظامه ورفع قدرهم وحتم برهم وإكرامهم على الخليقة كلهم وأقامة، وجعل حبهم براءة من النفاق، وولايتهم أمناً من العذاب، ودليلاً على صحة الإسلام والسلامة فقال من أحب حسناً وحسيناً وأمهما كان معي في دربي (كذا) حتى يوم القيامة. أحمد[3] محمد رسوله والقرآن إمامه. وأشكره شكر من اتخذ حب آل نبيه محمد أوثق عروة وأرفع دعامة. وأصلي على نبيه الذي أنزل عليه كتابه[4] وعلمه ما لم يكن

---

(1) هناك نقص ثلث سطر، وكلمة من بداية السطر الذي يليه لأن عقد الجلد أصابهُ تلف في عدة أماكن.

(2) هناك نقص كلمتين في نهاية السطر.

(3) هناك نقص حوالي أربع كلمات.

(4) هناك نقص ثلاث كلمات.

يعلم، وجمع[1] حكمه البالغة وأحكامه وبين له فيما أنزل عليه حلاله المبين، وحرامه، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن العوج إلى الاستقامة ولم[2] عليه أجراً ولم[3] عليه غرامة، إلاّ المودة في قرباه وحب نسله الطاهر الطيب واحترامه، فمن أحبهم ووالاهم وأكرم نزلهم ومثواهم[4] له الكرامة، ومن باعدهم، وقلاهم، ونبذهم، ولم يتولاهم، وجبت عليه الملامة، ومن أعرض عن حبهم وقصر في حقهم، ولو ملامة، فكيف يستحق شفاعة جدهم عليه السلام في عرصات يوم القيامة، جعلنا الله ممن قام بحقهم الأكيد[5] في حقهم وتعظيمهم سئامه (كذا)[6] وتلقاهم بالقبول والبشرى ولم يرهم من وجهه جهامه. وصلى ثم سلم عليه وعليهم واحتسب عند الله سبحانه صلاته وسلامه صلى الله وسلم سلاماً[7] أطاله وطابه وأدامه ما والا (كذا) المزن انسجامه، وجلا عن الجو قتامه وحط عن محياه لثامه.

أما بعد فإن شهداءه الموضوعة أسماؤهم فيه عقب تاريخه، يعرفون الفقيه المعظم التقي الزكي العالم الأفضل الأكمل أبا عمران موسى. وشقيقه الأحسب الأنسب المعظم الأجل التالي لكتاب الله عز وجل أبا عبدالله محمد ابني الفقيه العالم العلم المدرس المنعم المرحوم أبا عبدالله محمد القاضي بن[8] ومحمد بن عبدالله الزدوني معرفة كاملة معتبرة شرعاً، يشهدون بهاء بأن الشقيقين المذكورين حازا الشرف الصميم والحسب الكريم من والدتهما المبرورة المعظمة أم السعد، وأن أم السعد حازت ذلك من أمها[9]

(1) هناك نقص كلمة.
(2) نقص كلمة.
(3) هناك نقص كلمة.
(4) هناك نقص كلمة.
(5) هناك نقص ثلاث كلمات.
(6) هناك نقص كلمة.
(7) نقص كلمة.
(8) هناك نقص حوالي ثلاثة أسماء.
(9) هناك نقص اسم واحد.

وأن[1] حازت ذلك من أمها الشريفة المعظمة المرحومة المنعمة عايشة بنت الشيخ الأفضل المبرور أبي عثمان سعيد بن حجاج الشريف المزودي. وأنهما قد حصل لهما بهذا النسب النبوي والانتماء إلى الجانب (كذا) الكريم الحسني، من البر والاعتناء والرعي (كذا) والاحتفاء ما انسحب على أمثالهما من السادة الشرفاء منتظمين[2] هذا الانتساب في سلك ذوي المفاخر والأحساب، من غير قادح يقدح فيهما ولا هادم لشيء من مبانيهما ولم يزالا[3] على كاهل المبرة والإكرام والرعي الوافر والاحترام إكراماً لهما ورعياً لنسبهما ولا يعلم شهوده أن أحداً عارضهم في هذا الانتساب لكمال أصلهم الثابت واشتهارهم في القديم والحادث (كذا) فمن علم ذلك وتحققه كما ذكر قيدت شهادته هنا مسؤولة منه بتاريخ أواخر جمادي الأولى عام ستة وثمانين وتسعمائة[4].

المكرم الزكي الخير موسى بن امعوش اليعدلي[5].
والمرابط الخير أبو الحسن علي بن أحمد الشريف المسروري.
والمرابط الخير الفقير واذفل بن عيسى اليعدلي ثم الجعفري.
والمكرم الزكي أبي علي بن برقة الجعفري ثم اليعدلي.
والمكرم أبو سعيد بن محمد السالمي.
والمكرم الزكي الخير إبراهيم بن مخلوف اليعدلي.
والمكرم الزكي الخير مسعود بن العزيز اليعدلي.
والتالي لكتاب الله المرضي أبو سليمان بن رحال اليعدلي.
والولي الصالح أبي عبدالله محمد بن صالح المزيتي.
والفقيه المكرم الزكي أبو عثمان ابن عبدالله اليعدلي.

الحمد لله أشهد الشيخ الفقيه الأجل الأفضل الأكمل قاضي الجماعة

---

(1) هناك نقص اسم.
(2) هناك نقص كلمة.
(3) هناك نقص كلمتين.
(4) يوم الجمعة 27 جمادى الأولى 986 هـ يوافقه 1 أوت عام 1578 م.
(5) يقصد باليعدلي عرش بني عيدل أويَعْدَلْ في جبال البيبان.

بمحروسة الجزائر وعملها وقت تاريخية المسمى نفسه بطرته العليا حفظه الله تعالى وأدام توفيقه وأنهج إلى كل صالحة طريقهُ أنه اكتفى لديه الرسم المقيد أعلاه اكتفاء تاماً على الواجب فيه مسؤولاً ذلك منه شهد عليه أعزه الله بما فيه عنه وهو على أكمل حال المشهدين (كذا) وتمامه وبمجلس قضائه والبلد المذكور نافذ الحكم به بتاريخ أعلاه محمد (الإمضاء معقد وغير واضح)[1] وكرر شهادته لأجل ما وقع فيها من المحو في التاريخ محمد (الإمضاء معقد وغير واضح).

ثانياً: عقد شراء بحيرة: تاله عياط بقرية أمزرراق من طرف أجدادنا

الحمد لله وحده[2] وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

حضرنا، ومن سيذكر آخر الرسم، وأن أمة الله سبحانه النخلة (كذا) ابنة أحمد بن عامر الملقب بغيدة قد وقفت (كذا) ابن عمها حم (كذا) نجل عمر بن عامر، على بيع البحيرة المبيعة للحملات (كذا) أولاد الفاضل المرحوم بكرم الله الحي القيوم الوالي (كذا) الصالح الفاقية (كذا) الناصح السيد الحسين بن عبد العزيز منهم: سيدي أبو القاسم، وسيدي الصالح، وسيدي العرب (كذا) وسيدي محمد. وأنها رضيت ووفقا (كذا) ولد عمها المزبور أعلاه. وطوعته

---

(1) البايلر باي حاكم الجزائر التركي الذي حررت في عهده هذه الشهادة هو الباشا حسن فنزيانو الذي تولى الحكم بين ربيع الثاني 985 ورجب 988 هـ الموافق جوان 1577 ـ أوت 1580 م.

أما قاضي جماعة محروسة الجزائر الذي سمي نفسه في الوثيقة: محمد، فلا نعرف عنه حالياً شيئاً يذكر. واستعنا بالشيخ عبد الرحمن الجيلالي فلم تتوفر لديه المعلومات عنه كذلك.

(2) تسلمت نسخة من هذا العقد من ابن العم الصالح بوعزيز يوم الخميس7 نوفمبر 1991 بمدينة برج بوعريريج. وكنت قد تسلمت منه رسائل وعقوداً أخرى عام 1990. كانت محفوظة عنده.

(كذا) في حال يصح منها ذلك شرعاً من طيب نفس. وعدم إكراه لها، ولا مطالبه لها طال الزمن أو قصر في البحيرة المسمة (كذا) بتال عياط[1]. والشهود الحاضرين (كذا) كلهم منهم: المسن في الإسلام سيدي أمحمّد بن يحيى، وولده سيدي محمد، وسيدي أحمد بن بلقاسم، وسيدي الحسين منه، وسيدي السعيد منهما، وسيدي الطيب بن عبد العزيز، وعمر أزواوي القاطن في قرية مزرراق، وسيدي أحمد بن الهاشم (كذا) الجعفاري. والسلام. وقع ذلك في شهر الله شعبان بعد ما خلت منه خمسة أيام عام 1061[2]. كاتبه المبروك نجل محمد بن الحداد لطف الله بن آمين. آمين. آمين.

ثالثاً: وثيقة الجد الشيخ الحسن بوعزيز
سجل فيها تاريخ ميلاد ابنه عبد العزيز
وميلاد ابن آخر لابن عمه

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد.

قال البكري في المسالك: أن في المشرق مدينة تسمى جابرقة، وبالمغرب أخرى تسمى جابر ساطر وكل واحدة اثنا (كذا) عشر ألف فرسخ ولكل مدينة عشرة عشرة آلاف باباً (كذا) يحرس كل باب كل ليلة عشرة آلاف رجل لا تلحقهم النوبة إلى يوم القيامة الرجل منهم يعمر ستة آلاف سنة إلى ما دونها. وهم يأكلون ويشربون وفيها حكم كثيرة والمدينتان خارجتان من الدنيا لا يرون

---

(1) تاله معناها عين. وهذه البحيرة تقع على بعد نصف كلم غرب قرية مزرراق مسقط رأس الأجداد. واشتراها أجدادنا الأربعة ومنهم بلقاسم جد والدي عبد الرحمن.

(2) هذا التاريخ فيه نظر، لأنه يوافق 25 جويلية 1651. والأخو الأربعة الذين اشتروا هذه البحيرة عاشوا في القرن 19 م. والصغير منهم وهو محمد الأخ الرابع كان حياً في مطلع القرن 20 م. والأقرب أن يكون ذلك في حدود عام 1261 هـ، الذي يوافق 10 أوت 1845 م. وحتى الشهود كانوا أحياء في القرن التاسع عشر ميلادي كذلك. ويبدو أن محرر العقد أخطأ فكتب تاريخ 1061 بدل 1261 هـ.

شمساً ولا قمراً قال رسول الله ﷺ ولا يعرفون آدم ولا إبليس. يعبدون الله تعالى ولهم كوثر يسعون فيه من غير شمس ولا قمر قال رسول الله ﷺ: مرّ بي جبريل عليهم فآمنوا بي فدعوتهم إلى الله فأجابوني محسنهم مع محسنكم ومسيئهم مع مسيئكم إهـ. من خط عمنا العربي بن مصباح نقله من كنوز الأسرار. إهـ.

ولد ولد لكاتبه الحسن بن بلقاسم بن عبد العزيز اسمه عبد العزيز جعله الله من الوارثين العلم والعمل وأنبته نباتاً حسناً وكان مولده سنة 1288 ثمان وثمانين ومائتين وألف وهو عام الجهاد ومات فيه الأمير باش آغة[1].

ولد ولد للسيد العربي بن عبد العزيز اسمه عبد القادر أنبته الله نباتاً حسناً وأورث له الكتب (كذا) والسنة والعمل بجاه النبي وآله عام 1293 ثلاثة وتسعين ومائتين وألف[2]ووقانا شره وشر ما بعده بجاه النبي وآله. كاتبه كاتب الأعلى[3] تاب الله عنه آمين.

رابعاً: عقد بيع كتبه جدنا الشيخ الحسن بوعزيز

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله.

بوعوينة أعراب بن أعمر عدد 3087.

اشترى على بركة الله وحسن عونه حامله أعراب الزواوي الساكن بقرية أمزرراق إحدى قرى إلماين، الموضع المسمى: أحريق أَوَّادًا[4] المشجر بالزيتون بأحواز أملاك القرية المذكورة من المالكين أمر أنفسهم، وهم سي الطيب بن

---

(1) الباشاغا محمد المقراني استشهد يوم 5 ماي 1871 وثورته بدأت يوم 16 مارس 1871 وانتهت يوم 20 جانفي ١٩٧٢ م.

(2) الموافق عام 1877.

(3) يقصد أن كاتب تاريخ ميلاد الطفل الأول هو كاتب تاريخ ميلاد الطفل الثاني وهو جدنا الشقيق الشيخ الحسن بوعزيز. وهذا التسجيل كما يلاحظ أسفل النص الذي نقل عن البكرى حول مدينتين إحداهما بالمشرق وأخرى بالمغرب، من طرف العربي بن مصباح.

(4) يقصد الملكية السفلى وهو اسم المكان.

يحيى، وشقيقيه سي مقران وسي الشريف، مسكنهم القرية، المذكورة بحدوده المعلومة ومرافقه الداخلة والخارجة قديماً وحديثاً ومبلغ ثمن المبيع ستمائة فرنكاً وخمسون من النعت. وقبض البائعون المذكورون جميع الثمن المذكور قدره أعلاه وحصل في يدهم وحوزهم في مكان العقد بالتمام والكمال فبذلك برئت ذمة المشتري المذكور بإقرار البائعين المذكورين إقراراً شرعياً بإكمال الأوصاف المعتبرة شرعاً بيعاً صحيحاً لازماً بتابتلا (كذا) خالياً من جميع المفاسد والقوادح بأسرها وخلى البائعون بين المبيع والمشتري، التخلية الشرعية الموجبة للتسليم شرعاً بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعية لتاريخ شهر الله المعظم محرم الحرام عام 1313[1] ثلاثة عشر وثلاثمائة وألف وحضر ذلك فلان وفلان إلى آخر.

بعازّى آرزقي بن الصديق عدد 835.

بن بلقاسم الطيب بن العربي عدد 1718.

بن بلقاسم مولود بن السعيد عدد 1707.

والكاتب بوعزيز الحسن بن بلقاسم عدد 3144.

خامساً: عقد بيع حرره
الجد الشيخ الحسن بوعزيز

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله وآله

اشترى على بركة الله وحسن عونه بمنه وكرمه وتوفيقه حامله الشاب الأكمل لخضر بن بلقاسم بن السعيد ابن النافع(؟) المزررقي نسباً ودياراً حرفته القراءة(؟) الموضع المدعو بلغة أهل القرية ثَارْقَهْ يَغْرَاساً. المشجر بالزيتون بأحواز أملاك قرية مزرراق قدر مساحته ثلاثة أيام تميالا بالجابذة[2] بحدوده

(1) الموافق 24 جوان ـ 23 جويلية 1895.

(2) يقصد أن هذه المساحة يحرثها زوج من الثيران في مدة ثلاثة أيام.

المعروفة ومرافقه الداخلية والخارجية قديماً وحديثاً. من سي بلقاسم بن عبد العزيز وشقيقيه سي الصالح المزررقيين نسباً ودياراً حرفتهما القراءة، ومبلغ ثمن المشتري أربعمائة فرنك وأربعون من النعت. وقبض البائعان المذكوران جميع الثمن المذكور قدره أعلاه بإقباض المشتري ذلك إياهما وحصل في يدهما وحوزهما في مكان العقد بالتمام والكمال قبضاً وإقباضاً معتداً بهما شرعاً بحيث برئت ذمة المشتري المذكور بإقرار البائعين المذكورين إقراراً شرعياً بإكمال الأوصاف المعتبرة شرعاً من البلوغ، والرشد، والاختيار، بيعاً صحيحاً لازماً بتابتلا خالياً من جميع المفاسد والقوادح بأسرها. وخلي البائعان المذكوران بين المبيع والمشتري، التخلية الشرعية الموحية للتسليم شرعاً بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعية. حرر في شهر الله المعظم جمادى الأولى بعد أن خلت منه خمسة عشر يوماً في عام 1313 هـ ثلاثة عشر وثلاثمائة وألف هجرية(1) وحضر ذلك الأشيب أعراب الزواوي. ونظيره العدل المرضي محمد بن مياسه. والكهل الفاضل ابن عمناسي محمد أرزقي بن عبد العزيز. والشاب الأكمل سي الصالح بن موسى، حرفة الجميع الفلاحة، كلهم من قرية مزرراق نسباً ودياراً وكذلك الكاتب الحسن ابن عبد العزيز أيده الله آمين مصلياً ومسلماً على سيد الأنام.

سادساً: رسالة الجد الشيخ الحسن بوعزيز
إلى الشيخ السعيد بن محمد البشير بن أحمد الزين

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله

18 ـ الدسقي علي خليل براني.

02 ـ ابن حجر على الهزيمة.

04 ـ كتاب الرحمة. مطبعة غاية ليست كالأولى.

---

(1) الموافق يوم الأحد 3 نوفمبر 1895. والبائعان لهذه الملكية هم ابنا عم جدنا الشقيق الشيخ الحسن بوعزيز وأخيه الشيخ الهادي. والجد الشيخ الحسن هو الذي حرر هذا العقد.

50 = 01 أبو النجاء.

02 ـ نور الأبصار.

حضرة المكرم الأستاذ الكامل العالم الجليل أوحد الفضلاء قطب المعارف المحي بتدريسه للعلوم جعله الله أحسن خلف عن أشرف سلف السيد السعيد نجل البركة السيد محمد البشير بن السيد أحمد الزين، زين الله أحوال الجميع عليك أتم السلام وسوابغ التحية والأكرام ما يعمك ويعم من انتمى إليك من أهل الود والقرابة. أما بعد فقد وصلني منك سابقاً كتاب طرزت بلطائف البلاغة حلله، ودللت على عوارف الفصاحة سبله. مؤرخ في 2 جمادى الثانية فبادرنا لقبوله، وابتهجنا بحصوله. ثم منّ الله علينا بجواب ثانياً مؤرخ في 7 من جمادى الثاني. فلما أمعنت النظر فيهما علمت مضمنهما. والآن أيها المحب أما الكتب الموضحة أعلاه فها هي أسعارها مشروحة عندك. وأما الموضوعة أسفله حتى يأتينا الخبر عن أسعارها. وكتاب ابن حجر قيمته بتونس 10،50 وعشرة صوارد عليه مصروفاً ولكن في خاطرك نأتي به. وغيرك فوالله لم نأت به إلا بمائة فرنكاً. والدسقي علي خليل المطبوع بالبولاقية فلم يكن لي عنه علم في هذه الساعة.

وقد تراخينا عنك في رد الجواب لعذر نزل بنا من موت ولد بن حاله. وأدركنا الانشغال من أمره. والآن أن رزقنا الله بالصحة تكون ملاقتنا في سوق الخميس إن شاء الله وتفحص لنا على من يشتري نسخة الخرشي بسعر 25، ومتن السيد خليل مطبعة جيدة بسعر 4. وعليكم ألف سلام من فقيركم وحقيركم الحسن ابن عبد العزيز أيده الله آمين.

في 11 جمادى الثانية عام 1314 هـ[1].

وأما درة البيضاء التي ذكرتها لنا لعله لم توجد بتونس، فقد رأيتها مراراً بقسنطينة وصاحبها يطلب منها ستة فرنكاً (كذا) فإني سأخبره بجواب إن وضع

(1) الموافق يوم الثلاثاء 17 نوفمبر 1896 م. وولد بن حالة المتوفي هو الشيخ الشريف بن الحسن بن حالة. كما حدثني بذلك السيد محمد السعيد بن حالة.

لنا بشيء من ثمنها نخبرك عنها والسلام من كاتب الأصل.

شريعة الإسلام.

متن السيد خليل. بولاق.

درة البيضاء.

سابعاً: رسالة السيد المسعود بن الربيع إلى جدنا الشيخ الحسن بوعزيز

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله في 16 محرم (1317) (1899)[1]. حضرة الولي الصالح والقطب الواضح أعني بذلك أعني بذلك (كذا) شيخنا ومحبنا وعوضٍ أبونا (كذا) الشيخ السيد لحسن السلام عليك وعلى من شملته حضرتك العالية كالسيد عبد الرحمن والسيد يحيى[2] مع دوام الرحمة والبراكة (كذا) إذا كنتم بخير من الله وعافيته فلله الحمد. وإذا سألت عنّا ترانا مما يحْبّه الله ويرضيه (كذا) لنا. وبعد: يا سيدي فإنك قد ذكرت في جوابك السابق نخبرك على سعر البلاد هنا إذا كانت متنعمة أم لا؟ نعم إني قد بقيت من ذلك التاريخ وأنا منتظر في هذا الأمر. والآن حين ظهرت علامات الإصلاح وعدمها أخبرتك فتراً (كذا) في بعض المواضع (كذا) لا يحصدونها. وبعضها فيها شيء وهو لا يغني في راية البصر نعم وأنت الناس قد عرفت أحوالها فالذي يقوم بقدرك، والذي لا يقوم. وما كان يعرفك به سي الحسين بن الشيخ العربي[3] وإذا تعين لك القدوم أخبرني. ويا سيدي إنا نطلب منك الدعاء الصالح سيما دعاء الإجابة بالغدوّ والآصال.

والسلام من ابنك المسعود بن الخضر بن الربيع.

---

(1) الموافق يوم الأحد 28 ماي 1899 م.

(2) عبد الرحمن هو والدي أنا. ويحيى أخوه وعليه سمّيت أنا.

(3) الشيخ العربي هو عم جدي الشقيق الشيخ الحسن الذي وجهت إليه هذه الرسالة.

نعم إذا كنت قادماً تشتري لي: الشيخ المصري على السنوسية، وفتح الأقفال شرح تحفة الأطفال. ومصحف صغير، وابن القاصح. وبلغ سلامي على سيدي الهادي[1] وأمه صافية. وعلى الأشيب السيد محمد الزين، والأشيب محمد بن بلقاسم، والشيخ الصديق بن بلقاسم. نطلب منك ومن هذه الجماعة الدعاء الصالح والسلام من المسعود بن لخضر بن الربيع.

ويا سيدي لحسن تخبر سي البشير بن موسى إذا قدم إلى هذه البلاد فلا يقدم إلى جهة أولاد الشيخ فتراهم حالفين فيهما يمين كبير. إذا حكموا أحدهما يقدموا به إلى أصحاب الحكم منكر فيهما لأن الدار قد رابت (كذا) لهما الغرابة السفلى وصلحوها (بمبلغ) 12 دورو، والغرابة[2] العلي (كذا) كذلك والسلام.

ثامناً: نبذة عن حياة الشيخ المدني بوعزيز بن الشيخ الصالح عضو جمعية العلماء

الشيخ المدني بوعزيز ابن الشيخ الصالح ابن الشيخ الصالح بن الشيخ الحسين المزرراقي، ولدا ونشأة، ولد حوالي عام 1900 أو قبل ذلك بقليل. وحفظ القرآن على والده الشيخ الصلح. وتفقه عليه كذلك عندما كان يعلم في قرية قلعة بني عباس، وفي زاوية الشيخ ابن الربيعي في أولاد خلوف. وتتلمذ كذلك على الشيخ عاشور ابن محمد مؤلف كتاب: منار الأشراف، وفي حدود عام 1920 زار تونس ووثقف صلاته بالشاعر التونسي أبي القاسم الشابي ثم زار الشيخ عاشور الذي استقر في الجريد التونسي.

وبعد وفاة والديه عاد إلى مسقط رأسه قرية مزرراق وتفرع للتعليم القرآني

(1) الشيخ الهادي هو والد أمي فطوم. وصافية هي أمه من عائلة أولاد يحيى. وقد لحقت عليها أمي التي ما تزال حية حتى هذه الساعة (1995). وكثيراً ما تحدثني عنها، وتوفيت بقرية عشابو عند عمنا الشيخ عمرو بن الشيخ العربي بوعزيز.

(2) يقصد بالغرابة: الجدار، وهي كلمة دارجة.

في القرى وربط صلات جيدة مع الشيخ الفضيل الورتلاني، والشيخ المولود بن الصديق السحابي الحافظي، والشيخ البشير الإبراهيمي، وعندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عين عضواً فيها. ودعي عام 1934 للاشتراك في اجتماعها السنوي بنادي الترقي في العاصمة. وتفرغ للدعاية لها في مدن تلمسان، وعنابة، وقسنطينة، وأوكل أمر أولاده وعائلته إلى أخيه الشيخ الحسن بن الصالح.

وعندما أقدم الحاكم الفرنسي بحوز مجانة، على انتزاع الأراضي الفلاحية من الأهالي ليملكها للباشاغا شيبان، استنكر ذلك، واشترك مع الحواس بن شناف والجمعي بلحداد، في الاحتجاج أوائل الحرب العالمية الثانية وقامت السلطات باعتقال ابن شناف، وبلحداد، ونفتهما إلى سجن عين الصفراء بالجنوب الغربي، ففر هو إلى عرش النبايل بين قالمة وبوشقوف، ومكث هناك مدة، ونظم قصيدة في شأن نفي زميليه: ابن شناف وبلحداد. ولم يعد إلى مسقط رأسه إلاّ عندما أطلق سراحهما. وبكى عندما بلغه خبر وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، والتحق هو بربه يوم 17 أبريل عام 1942 بأولاد سيدي المسعود جنوب جبال القلة، وشمال قرية مجانة. وقد ولد عام 1899 حسب عقد ازدياده، وعام 1906 حسب عقد وفاته. ويؤكد ابنه السيد الصالح التاريخ الأخير لأنه حسب رأيه مات صغيراً لم يتجاوز 36 عاماً. كما نص على ذلك عقد الوفاة.

تاسعاً: بطاقة استدعاء

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ورقة استدعاء

للاجتماع العام الذي يقع بنادي الترقي بالعاصمة صبيحة الإثنين الأولى من ربيع الثاني 1353 هـ ـ 16 جوليت 1934 م.

أيها الأخ الكريم السيد بوعزيز المدني.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فالمجلس الإداري للجمعية يدعوكم للحضور للاجتماع العام في الزمان والمكان المذكورين أعلاه ويؤكد عليكم في الدعوة، ويرجو منكم إذا لم يمكنكم الحضور أن تكتبوا أو تبرقوا بالاعتذار قبل التاريخ المذكور بثلاثة أيام إلى هذا العنوان:

CHEIKH ZOUAOUI ABOUYAALA (CERCLE DU PROGRIS) 9 PLACE DU GOUVERNEMENT. 9. ALGER

والسلام من أخيكم رئيس الجمعية

عبد الحميد بن باديس

استصحب هاته الورقة معك عند الاجتماع العمومي.

المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة.

عاشراً: قصيدة الشيخ بوعزيز المدني حول نفي زميليه الحواس بن شناف، والجمعي بلحداد

حديقة الأدب اليوم وقبل اليوم، تنبيهاً لنا ولأخلافنا وذكراً لأسلافنا.

يـــا ربنـــا يـــا ربنـــا	يـــا قهـــار خـــذ أعـــدانـــا
بحـــال خيـــر الـــورى	سيـــد المـــرسلينـــا
وألـــــه وصحبـــــه	ورجـــا التـــابعينـــا
يـــا شعبنـــا الجـــزائـــر	سجـــل مـــا صـــار بنـــا
قـــل لنشـــىء يخبـــر نشئـــا	ليشهـــدوا تـــاريخنـــا
الاستعمـــار قـــد تسيطـــر	بـــاستغـــلال أراضينـــا
الاستعمـــار قـــد حكـــم	بـــإقبـــار حقـــوقنـــا
الاستعمـــار قـــد حكـــم	بـــإبعـــاد قـــادتنـــا

الاستعمـــار قـــد حكــم بـــاعتقـــال علمـــائنـــا
الاستعمـــار قـــد حكــم بـــاغتيـــال مغـــرورنـــا
الاستعمـــار قـــد حكــم بسجـــن زعمـــائنـــا
يـــا نـــاطقـــاً بـــالصـــواب تـــلاق الإبعـــاد حينـــاً
بـــلا بحـــث يـــا نـــاطقـــاً مـــا هـــذا الظلـــم علينـــا
يـــا ربنـــا يـــا رافـــع فـــارفـــع القهـــر عنـــا
أبعـــده عـــن بغيـــه وإثمـــه للعـــالمينـــا
يـــا مبعـــد يـــا زعيـــم يـــا حـــواس يـــا أخـــامـــا
كـــن شكـــوراً وآسيـــا بـــاخـــوانـــك الأولينـــا
مـــا ذنبـــك إلا نطقـــك عـــن ضعفـــاء حـــوزنـــا
دفـــاعـــك أذاقـــك فـــراقـــك لمجّـــانـــا
فـــاشتهـــرت يـــا مجـــانـــا بـــإبعـــاد غيـــورنـــا
إكـــرامـــك أهـــل النفـــاق أنـــزل الـــذل علينـــا
ألـــم تعلـــم أنهـــم يخـــادعـــون ربنـــا
كـــن عـــازمـــاً وحـــازمـــاً فـــلا تخـــش مـــن العنـــا
آبـــاؤنـــا أمـــامـــك وخلفـــك إخـــواننـــا
يـــا أيهـــا الغيـــورونـــا دافعـــوا المسيئينـــا
ثـــم الـــدفـــاع واجـــب علـــى كـــل شخـــص منـــا
وجـــزاء سيئـــة سيئـــة قـــول ربنـــا
عجبـــت مـــن أنـــاس يعـــدون إخـــواننـــا
دأبهـــم ألاّ تجسيسيـــا وآلـــة لغيـــرنـــا
دأبهـــم ألاّ تجسيسيـــا ومضـــرة علينـــا
يحلفـــون علـــى الكـــذب إنهـــم لبـــارئـــونـــا
وفيهـــم قـــال الله : أنهـــم لكـــاذبـــونـــا
يجـــازيهـــم ربهـــم بـــأسفـــل الســـافلينـــا
أنـــا لا أخـــاف منكـــم يـــا معشـــر المـــذنبينـــا

قــــال الله لا تخــــف		لـــومـــة الـــلائمينـــا
يـــا حكـــام العـــدالـــة		فـــأمعنـــوا المبعـــدينـــا
فـــافحصـــوا أمـــرهـــم		كمـــا هـــي المـــاهـــرينـــا
فـــاصبـــروا صبـــراً جميـــلاً		يـــا أهـــالـــي المبعـــدينـــا
لا بـــد لنـــا مـــن يـــوم		سيـــرجعـــا لحـــولنـــا
نحـــن مـــن أمـــة طـــه		والصبـــر ديـــدنـــا
بكـــاؤنـــا بكـــاؤنـــا		عنـــك يـــا سهـــل مجّـــانـــا
قـــد بعـــد زاعيمـــك (كـــذا)		فـــي أيـــام ســـرورنـــا
أوائـــل ذي الحجـــة		هـــو آخـــر الستينـــا
فـــي قـــرن رابـــع عشـــر		بعـــد ألـــف والمـــائينـــا[1]
والنـــاشـــد المـــدنـــي		ليلـــة الأضحـــى أحيينـــا
بـــن الصـــالـــح ابـــن الصـــالـــح		وفيهـــا ابتهلنـــا
مـــا أنـــا إلا غيـــور		والقلـــم سيفنـــا
بـــلا خجـــل ووجـــل		ســـوى عـــن رب مـــولانـــا
يـــا ربنـــا يـــا مجيـــب		فـــأجـــب دعـــاءنـــا
بـــالإفـــراج يـــا فـــراج		عـــن جميـــع المـــؤمنينـــا
تـــم عـــدد الأبيـــات		بـــالـــواحـــد والخمسينـــا

تنبيه:

أما مطلع القصيدة: يا ناطقاً بالصواب. وأنا أطلب من إخواننا المطلعين إن وجدتم الزحاف فأصلحوه ولا يخفاكم أن الشاعر في تغزله مجنون ولا سيما نحن معشر الجزائريين الذين هم مثلي لا غير. حاشاهم لأني لست من الشعراء وإنما حملتني غيرة الدين والوطن.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

بوعزيز المدني بن الصالح

---

(1) ليلة عبد الأضحى لشهر ذي الحجة عام 1360 هـ يوافقها يوم الأحد 28 ديسمبر 1941 م. وقد توفي هو يوم 17 أبريل 1942 بعد ثلاثة أشهر ونصف من نظمه لها.

بعض مراسلات الشيخ عبد الرحمن بوعزيز
مع بعض أبنائه في مسقط الرأس أمزرراق

حادي عشر: رسالة الوالد الشيخ عبد الرحمن بوعزيز
من المدينة المنورة إلى أبناءه بمسقط الرأس

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

من صلى في مسجدي هذا أربعين صلاة كتب له براء من النار، وبراءة من العذاب، وبراءة من النفاق (حديث شريف).

من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه. (حديث شريف).

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(1) النص العلوي لهذه الرسالة معد من صاحب المطبعة الذي أعد الأوراق. وتبدأ صياغة الوالد من تاريخ الرسالة. وقد حج الوالد براً على حافلة خاصة يملكها صديق الوالد السيد على أُوبَعْزِيزْ المهاجر في فرنسا، والمتزوج من أوروبية. وهو رجل متدين، ومحب للوالد، وهو الذي اقترح عليه أن يحج في قافلته، وقد بقي في البقاع المقدسة شهرين كاملين، وأثرت عليه الحرارة فعاد متعباً ولم يفارقه المرض حتى توفي يوم 9 فيفري 1955 م. أما صاحب الحافلة فقد توفي هنا بالجزائر خلال عقد الثمانينات، وهو من قرية أولاد سيدي يذير ببني عيدل، وتابعة لبلدية إلماين حالياً، وهي نفس بلدية قريتنا أمزرراق كذلك.

من المدينة المنورة في يوم الجمعة 25 ذو الحجة سنة 1372 الموافق 3 سبتمبر 1953 م.

حضرة محترم المقام ابننا بوعزيز السيد النذير وكافة الأولاد كافة.

والأسرة الموقرين السلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد: بمنه تعالى وصلت المدينة المنورة يوم الثلاثاء الموافق 22 ذو الحجة سالماً شاكراً وذلك ببركة دعائكم الصالح، وإني لقائم لكم بالدعاء في الروضة المطهرة والآثار الشريفة بأن الله سبحانه يبلغكم المقصود، ويرزقكم زيارة مدينة المصطفى على ساكنها أفضل الصلاة، وأكمل التحية في عام قادم أنه سميع مجيب الدعوات. هذا مع تبليغ سلامنا إلى كل حضرات أبنائنا وبناتنا، وعائلتنا كافة: السيد الحسن، ويحيى، والحسين، وأحمد الزروق، وعبد المجيد[1]، والهادي، والمذكور آنفاً السيد النذير، وجميلة وخديجة، ورزقية وزينب، وكلتوم وحليمة وامباركة والزهرة، والصغيرة.

أما بعد: إن أنتم على أحسن حال فنحن كذلك، والسؤال الكثير على أهل قريتنا كلهم كبيراً، وصغيراً، كل واحد باسمه، وإننا دعونا الله لكم في كل مقام مستجاب الدعوة، نرجو إن شاء الله قبولها، وسنصل إليكم إن شاء الله في منتصف شهر محرم بحول الله وقوته. وأننا كنا على أحسن حال. ويسأل عليكم طالبي الحاج المختار[2] والسلام عليكم من الكاتب عبد الرحمن بوعزيز.

والسلام التام علي بن حالة السيد زين العابدين وكافة إخوته[3] ويسأل عليكم إلمان الحاج المولود، وكافة الجماعة، وأنهم على أحسن حال والسلام.

وهذا سؤال من عند المختار طالبي، وسلام عليك وكافة سي الزروق وسي الحسين وكافة العائلة والسلام.

---

(1) كل الذين ذكرهم أبناؤه وبناته ما عدا: عبد المجيد، ومباركة. فهما ابنا ابنه الحسن. وما عدا حليمة، فهي بنت ابنه أحمد الزروق. والزهرة، بنت ابنه النذير.

(2) طالبي الحاج المختار صهره شقيق زوجته يمينه وزوج بنته خديجة، حج معه، وأتعبه.

(3) السيد زين العابدين بن حالة، هو قائد الدوائر، وكان يحترم الوالد ويقدره كثيراً. وإلمان الحاج المولود، هو ابن عم زين العابدين، وحج مع الوالد كذلك.

ثاني عشر: رسالة الحاج عبد الرحمن
إلى ابنه النذير بوعزيز بوهران

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم

في 24 شوال 1373 هـ ـ في 25 جوان 1954 م.

فضيلة الابن الصالح السيد النذير سلاماً واحتراماً يعم كافة إخواننا والفقراء والأحباب من غير تخصيص. أما بعد فالذي نعلمك به أن كافة العائلة على أحسن حال. أما الحسن من حين خرج بعد العيد إلى ناحية البرج لم أعلم أين ذهب. ترك ابنته بين الحياة والممات، لا هي ماتت فاستراحت ولا هي عاشت فاستراحت[1]. أما نحن هنا نعلمك أن أخاك يحيى في هذا اليوم قدم إلى إِلْمَايَنْ ليجعل تيليفوناً إلى تونس هل انفتح المسجد للامتحان أم لا زال معطلاً، وإن جاوبوه بوجود الامتحان لا بد منك أن أعلمك بتلغراف أبعث له مصروف الركوب ذهاباً وإياباً تلزمه سبعة آلاف. ستة آلاف حق الركوب وألف فرنك مصروف[2]. أما نحن هنا نعلمك أننا جعلنا الخدامين، جمعنا الحجر الذي في البحيرة كله أخرجناه على الحمار. استغرقنا ثمانية أيام بالخدامين، وإنني الآن مطلوب بثمانية آلاف حق الخدام، يحيى عيسى، أربعة آلاف، والخدامين نحو خمسة آلاف[3].

---

(1) الحسن هو ابنه ولم يكن راضياً عليه لأنه لا يمتثل رأيه، ولذلك أخرجه من المنزل وأرغمه على الاستقلال بأسرته، وبنته المريضة هي امباركه. ولم يتم إعادته إلى المنزل إلا بعد وفاة الوالد ببضعة أسابيع.

(2) يتحدث الوالد هنا عن إضراب الطلبة الزيتونيين بزعامة هيئتهم، «صوت الطالب الزيتوني». وكنت أدرس هناك في السنة الخامسة، ويحرص الوالد على ألا تفوتني فرصة الامتحان.

(3) كان لنا وما يزال، بستان بقريتنا: أمزرراق، لا يبعد عن المنزل إلاّ بحوالي 200 متراً وبه بعض الأحجار، وحرص الوالد على تنقيته منها، وهو ما تحدث عنه، والبستان مسقي=

أما اتفاق المسجد بقي منه ثلاثون ألفاً، امتنعوا من الخلاص حتى فاتح ربيع الأول انتهاء العام إن شاء الله[1]. ونعلمك أن أخاكم يحيى انحلت ذاته، وذهبت له قوته كلها، ولم يقدر على شيء أصلاً، لا حليب، ولا عسل، ولا زيت، ولا فلفل حار أو حلو، ولا شحمة، ولا لحم، ولا بر، إلاّ الشعير والماء. أن رأيت أن تدخله إلى المستشفى على يدك يخلص لاكومين[2]. إن لزم أن يشقه الطبيب أو يعالجه من غير شق أعلمنا يأتيك حيناً إن لم يقدم إلى الامتحان. وأن سفر إلى الامتحان بعد رجوعه يأتيك. أما إن تركناه على هذا الحال فهو على وشك السفر إلى الآخرة[3].

والسلام من بوعزيز عبد الرحمن.

كما عالجت أولاد الناس عالج أخاك قبل كل شيء، ولا تتركه على هذه الحال أبداً، أبداً، أبداً[4].

وكما نريد منك تكاتب أحمد الزروق برسالة عزما أن قدر يلحق زوجة أخيه وأمه، يقدم عزما إليهما، وإن لم يقدر يبعث لنا الحسين يقوم مقامه كما كان أولاً، نستريح من خدمة أولاد الناس، كذب علينا كثير لم تظهر منه الإعانة

= ومشجر بالتين والمشمش، والإجاص، والرمان، والخوخ، والعنب، وغيرها، ومساحته حوالي ثلاث هكتارات، وكنت أشارك الوالد في خدمته عندما أعود من تونس أو عنابة في الصيف.

(1) كان الوالد إماماً ومعلماً للقرآن الكريم بالقرية منذ 1939 إلى وفاته عام 1955 م ويطلق على هذا العمل عرفاً بالمنطقة اسم: «اتفاق» من كلمة الاتفاق، ويجدد كل عام، بمبلغ معين. وبه كان الوالد يساعد في إعالة العائلة، وليس لنا دخل آخر ما عدا عمل الأخ في متجره بوهران.

(2) يقصد البلدية من الكلمة الفرنسية: La commune.

(3) كنت مصاباً بمرض العصمة منذ عام 1947 ـ 1948. ولازمني حتى عام 1981 م حيث أجريت عملية جراحية على البواسر، فعوفيت والحمد لله. وذلك بمدينة وهران على يدي الطبيبين: محمودي وحاجيات.

(4) كان الأخ النذير قد ساعد كل مرضى القرية من القرع أو الصلع، فسفرهم إلى وهران وأشرف على علاجهم حتى شفوا ومن هؤلاء: ابن العم بعازي مقران. وبن بلقاسم محمد الشهيد، وموسى بن اعراب، وما يزالان أحياء وآخرين.

أصلاً. إن دام الأمر على هذه الحال ها أنّي نسافر فاراً بنفسي إلى حيث أراد الله لا قوة لي على هذه الأمور الذي لا يحمد عقباه إلا الفضائح والسلام. أهـ.[1].



الشيخ عبد الرحمن بوعزيز على اليسار وابنه الحسن بوعزيز على اليمين
أخذت لهما بمدينة وهران
في حدود 1947 ـ 1948

---

(1) كان الأخ أحمد الزروق يعمل بمدينة الجزائر خياطاً في حي القصبة. ودبر لنفسه سكناً متواضعاً في حي العناصر، وسفر زوجته وبناته، وأخاه الحسين إلى هناك، ليكون في حراسة المنزل، والعائلة، وخلف وراءه أمه، وزوجة أخيه الحسين. وطلب الوالد من ابنه النذير بوهران أن يكاتبه ليسفر أيضاً أمه وزوجة أخيه ليخفف عليه شيئاً من عبء النفقة، وإذا لم يقدر عليه أن يعيد أخاه الحسين إلى القرية ليحل محل العامل الأجير في خدمة واجبات العائلة خاصة: سقي الماء، وجلب الحطب، والحشيش للحيوانات الحلوبة.

ثالث عشر: رسالة الشيخ الوالد عبد الرحمن بوعزيز
إلى ابنه يحيى بتونس

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم
في 4 ربيع الثاني 1374 هـ[1].
جناب العلامة الأرفع ابننا السيد يحيى السلام التام يعم كافة الأحباب.

أما بعد فالذي نحيطك به علماً أنني رجعت من الجزائر يوم 3 ربيع الثاني، 28 نوفمبر[2] بعدما مكثت عند العائلة تسعة عشر يوماً كنت أعلمتك برسالة حين نزولي بالجزائر انتظرنا رجوعها من عندك إلى الجزائر لم تجاوبنا عليها[3] وبعد رجوعي وجدت رسالتك التي بعثتها بعد سفري أعلمتنا إلى تلك المدة لم تشرعوا في التدريس جعل الله المانع خيراً ووجدت جواباً من أخيك النذير يذكر لنا فيه أنه بعث لك خمسة آلاف وخمسمائة من عند بيبي عمر، جزاهما الله بأحسن الجزاء. فالمرغوب منك تبعث لنا رسالة على أحوالك وعلى الصفاء والتعليم. على أني أوصيتك وأؤكد عليك أن تسلك سبيل الحياد عن كل ما يعود عليك وعلينا بالضرر. ونعلمك أن العائلة هنا عندنا، وبالجزائر، كبيرهم وصغيرهم كلهم على أحسن حال يرفعون إليك جميل السلام.

---

(1) الموافق 29 نوفمبر 1954.

(2) 3 ربيع الثاني 1374 هـ ـ 28 نوفمبر 1954 م.

(3) كان الأخ أحمد الزروق قد رحل بعائلته وأمه وأخيه الحسين إلى الجزائر العاصمة وسكن بالحي المعروف آنذاك بالمنابع: Les sources فذهب الوالد ليزوره ويرى أحواله، وقد رأيناه في رسالة سابقة يطلب من ابنه النذير بوهران أن يكاتبه، ويطلب منه أن يستقدم زوجة أخيه الحسين وأمه، وهو ما تم. ولكن حالة الأخ أحمد الزروق لم تكن مرضية مادياً، ولذلك أوصى الوالد قبل وفاته بإعادته إلى القرية، وهو ما تم مباشرة بعد وفاته في مطلع عام 1955 م. وقد استشهد هذا الأخ عام 1956، حيث اختطفه الجنود الفرنسيون في قرية ثيزى الجمعة بصدوق، وأعدموه وكان يحاول الهرب إلى وهران. وخلف وراءه ابناً وبنتين كلهم أحياء ومتزوجون.

أما أنا في حد ذاتي إلى الآن أكابد الألم. الأسقام والأمراض، نسأله سبحانه وتعالى اللطف على أني لم نجد ما نعالج به نفسي عند الأطباء.

والسلام من أبيك عبد الرحمن.

رابع عشر: رسالة الشيخ الوالد عبد الرحمن بوعزيز إليّ بتونس

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم.

في 11 ربيع الثاني 1374 هـ في 6 ديسمبر 1954 م.

جناب العلامة الشيخ السيد بوعزيز يحيى عليك وعلى كل من تنتمي إليهم من الأحباب جميل السلام، أما بعد أن رسالتك التي بعثت توصلنا بها. وهذه مثلها جواباً عما سألتنا عنه عما نحن فيه. أما العائلة فهم كلهم على أحسن حال. يبلغون إليك السلام وهم كل وقت يدعون الله لك بالسلامة والعافية حتى تتم ما أنت بصدده إن شاء الله. أما أنا في حد ذاتي كما تركتني في العام الماضي لا أنا مع الحياة أعيش ولا أنا مع الأموات فأستريح من عناء الدنيا وشقائها. فاستقبل حياة جديدة أسعد مع السعداء أو.... لما أصابني من الآلام والأسقام نسأله سبحانه وتعالى اللطف بنا وبجميع عباده آمين. أما العائلة التي بالجزائر من جهة الصحة البدنية على أحسن حال، وأما من جهة الدنيا ضعفاء جداً حتى استغرقوا في الديون على وجه السلف. أما أخوك النذير كاتبته ليلاقيني نتفاهم معه في بعض الأمور، كاتبني بأنه لم تساعده الظروف. أشار علي بالرجوع إلى إِلْمَايَنْ. وعلى أني حملت معي نصيب رمان، وتين إليه بالخصوص أمرني أن نتركه للعائلة. وبما أن العائلة حملت لهم معي نصيب غير نصيبه. امتثلت أمره، ورجعت. وعلى كل حال لا تهتم بنا كثيراً ولا تشغل قلبك بمثل هذه الأمور فتنسيك ما أنت مشغول به، وما أعلمناك بهذا إلاّ جواباً عن سؤالك.

والسلام من أبيك عبد الرحمن.

فلا بأس إن كاتبتنا توضح لنا برنامج العلوم التي تقرؤونها في هذا العام، وعن الهدوء، والصفاء، والسلام.

خامس عشر: نص رسالة وجهتها إلى الوالد الشيخ عبد الرحمن من تونس مع نظم هو أول وآخر محاولة في الشعر

بسم الله الرحمن الرحيم[1] وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

تونس ـ ليلة الخميس 27 ربيع الثاني 1374 هـ ـ 23 ديسمبر 1954.

جناب الورع الأفخم، التقي الأكرم، الوفي الأحزم، درة الزمان، ودعامة المكان، ومن هو رحمة لمن أحاط به من الأهل والولدان، والأصحاب والخلان، وَالِدِي الأستاذ الشيخ عبد الرحمن، إليكم أهدي سلامي، وعليكم أتلو تحياتي، وإلى حضرتكم أرفع تشكراتي من صميم القلب، وفي أعماق الضمير، راجياً من الله أن يجدكم جوابي هذا على أحسن حال. وفي غاية من حسن الصحة وتمام العافية مع اطمئنان في القلب وراحة جسمية واستقرار عقلي، تكونون من ورائها مستكملين لما يسمونه بالاستجمام العقلي والراحة الفكرية.

وبعد فلقد وردت علي رسالتكم الأخيرة، ورود الماء للظمآن والنسيم البارد للهفان، إذ أحاطتني بأخباركم وأحاطتني علماً بما أنتم عليه، غير أنها تركت في قلبي حزازة، وفي نفسي أسفاً واضطراباً، من جراء ما أنتم عليه من الألم الممضّ، والسقم المنهك لفؤادكم مما جعلكم تألمون وتحسون كثيراً رغم ما رزقتموه من الصبر الجميل على غرار يعقوب أو أيوب عليهما السلام. ويعلم

(1) يلاحظ في هذه الرسالة محاولة التفصح والتكلف وتكرار الجمل والعبارات، وهو أسلوب ذلك العصر مع الصغر، وقصر الباع في الإنشاء العربي.

الله يا والدي العزيز ما أحسه من جانبكم وكيف أتألم لذلك حتى أني يعوزني الصبر تارة ولا أجد ما أتأسى به سوى الالتفات إلى الله جل وعز متضرعاً إليه بمجامع قلبي أن يرزقكم السلامة، ويمن عليكم بالشفاء، ويتكرم بالعافية الأبدية، على أني لا أكتم عليكم يا أبي بأني كثيراً ما أتذكر قصة النبي أيوب عليه السلام وما جرى له في حياته مما أنتم على علم منه. فأجعل أضعكم في مكانه. ثم اذهب لخاتمة أيوب فأراه قد خرج منها موفور الصحة كثير المال في بحبوحة من العيش وسط أهله وفي داخل بيته، فأقول حينئذ: إن من فعل هذا لأَيُّوبْ لقادر على أن يصنع لكم مثل هذا وأكثر منه بأضعاف مضاعفة، وهو ليس بغريب، وما ذلك على الله بعزيز. تلك هي أمنيتي يا والدي، وذاك ما أتأسى به وأرجو الله أن يحققه. وهو نفسه أي المعنى الذي حملني على نسج هذا القصيد الذي ستقرؤونه على الصفحة المقابلة، ورغبتي فيكم كاملة في أن تغضوا الطرف مقتصرين على سردها فحسب لركاكة ألفاظها، وتشتت معاني جزئياتها، نظراً لضعفي من جهة، ولكوني إنما أردت أن أسليكم شيئاً، ولو ربع ساعة.

هذا وإن الفنون التي ندرسها هي: الأصول، والتاودي، والنحو، والبلاغة، وآداب البحث (رسالة الآداب العربية)، والحديث النبوي، وتفسير القرآن الكريم، والفرائض، في قسم العمل، والتوحيد، والتوثيق، والجبر، والكيمياء، والطبيعة، والصرف، وتاريخ الإسلام (الدولة الأموية في محاضرات الخضري)، وتاريخ أوروبا الحديث، والأدب، والإنشاء، والنصوص، والمنطق. فالجملة(20) عشرون. وهي مجموعة ينوء بها كاهل الطالب لولا لطف الله. ويقال إننا سنزاول في العام المقبل التعليم في الجامعة الزيتونية الجديدة إن شاء الله وهم بصدد البناء بها. وفيما يخص الهدوء فإن الحالة هادئة منتظرة الاستقلال الداخلي. على أحر من الجمر، والناس فرحون، والتعليم سائر والحمد لله، ورجاؤنا في الله الفتح المبين والنجاح الكامل مستزيدين منه فضله وكرمه حتى يتيح لنا أن نتغلب على جميع الوسائل في سبيل طلب العلم. وأملنا فيكم لا يخيب في أن تدعو لنا بالصلاح والفتوح وحسن السلوك. والتعفف والتزود بالتقوى مراعاة لجناب الله سبحانه وتعالى إذ هو أحسن مراقب لعبده.

وفي الختام أحيطكم علماً بأن الأخ بالجزائر (أحمد الزروق) كاتبني أخيراً وجاوبته كما أن الأخ بوهران (الشيخ النذير) راسلته ودبجته بقصيد ثاني طالباً شيئاً من الميرة[1]، ولم يسعني الوقت كي أنقله لكم. وبلغوا سلامي إلى جميع الأخوان والعائلة وعامة الأحباب والسلام من ابنكم البار يحيى بوعزيز نهج القصر عدد 12، تونس.

تونس ـ ليلة الثلاثاء 24 ربيع الثاني 1374 هـ ـ 20 ديسمبر 1954 م.

سادس عشر: إليك يا دهر: أنصت

مـــا للطـــوارىء تقســـو ... وفـــي القلـــوب سقـــام
مـــا للطبيعـــة تجفـــو ... وفـــي النفـــوس مـــلام
مـــا للظـــواهـــر تغلـــي ... وفـــي الجنـــان مســـامّ
لا تجنـــي يـــا دهـــر عنـــي ... إن الحفيظـــــة تنمـــــو
فكيـــف يحلـــو المقـــام ... وفـــي البعـــاد إيـــلام
ومـــــا التغـــــرب إلاّ ... وهـــو العـــذاب الأليـــم
مـــا البيـــن إلاّ سجـــلا ... تخـــــط فـــيـــه الآلام
يعـــدهـــا الكـــون عفـــواً ... ومـــا للمـــرء كـــلام
إليـــك يـــا دهـــر أنصـــت ... عمـــا يقـــول الأنـــام
أتـــانـــي فـــي الغـــرب وصـــل ... وزفّنيـــه الكـــريـــم
كـــريـــم نفـــس وروح ... زكـــيّ أصـــل يـــدوم
يقـــول فيـــه: عليـــل ... تـــوزعتـــه الهمـــوم

(1) لا أثر لهذا القصيد ضمن هذه الأوراق. ويبدو أن الأخ النذير احتفظ به عنده وضاع مع باقي الأوراق والرسائل. وقد حاولت نظم الشعر، فلم أفلح وتوقفت عنه، وأتذكر أني نظمت قصيداً في المشاعر الحرام بمناسبة رحلة الوالد إلى الحج. ولكن ضاع ولم يبق إلا القصيد التالي.

فـــالـــروح منـــه سليـــم	والجســـم قـــال : كليـــم
ومـــا شكـــاتـــه إلاّ	مـــن ضـــرّ أيـــوب ينمـــو
ظـــاهـــره علـــى جسمـــه	ومـــا للنفـــس سقـــام
وذاك مـــن فضـــل ربـــي	حيـــن أن كـــان الحميـــم
خيـــر نبـــي مصـــاب	ومـــع ذاك حليـــم
فـــلا غـــرابـــة بعـــد	أن عـــوضـــه ذا الكـــريـــم
بخيـــر أهلـــه ثـــم	ومثلهـــم معهـــم
رحمـــة منـــه إليـــه	وذكـــرى لا تنفصـــم
أن تـــرزق الشفـــا منـــه	ويستجـــاب المـــرام
إذ المثيـــل لـــلأصـــل	فمهمـــا كـــان عظيـــم
مقـــامـــه عنـــد ربـــي	دائمـــاً يـــزكـــو ويسمـــو
فيـــا لهـــا مـــن بشـــارة	سيـــروا إليهـــا وقـــومـــوا
بشـــرى لكـــم فيمـــا عـــزمتم	وأيـــم الله عظيـــم
وإنـــي عنـــد الختـــام	ومـــا بهـــذا كتـــوم
أقـــول : دمتـــم بخيـــر	وســـوف تمحـــى الغيـــوم
والله نســـأل دومـــاً	وفـــي الجـــوانـــح كلـــم
أن تخـــرجـــوا بـــرآء	عليكـــم منـــي الســـلام
ثـــم الصـــلاة دومـــاً	يتلـــوهـــا تـــوا ســـلام
علـــى خيـــر النـــاس طـــرا	مـــا صلـــى نـــاس وصـــامـــوا
وعلـــى أهلـــه بعـــد	بمـــا فـــي ذاك الأنـــام

تونس 24 ربيع 2 عام 1374 هـ

بوعزيز يحيى
الجزائري

الإهـــداء:

يقول بعض الشعراء في معرض الحديث عن الأصدقاء: أن القرين إلى المقارن ينسب. وهذا القصيد في معنى هذا العجز من البيت. ذلك أني عوض أن أتحدث عنكم أو إليكم عدلت عن هذا وذهبت أبحث عن قرين لكم، فلم أجد أنسب، إليكم من النبي أيوب عليه السلام، ذلك الرسول الذي قاسى ما ينوء به الدهر من الأسقام والآلام، وأخيراً خرج بسلام. فإليكم وإليه أهدي هذا القصيد بالتمام.



المؤلف: يحيى بوعزيز على اليسار.

والشهيد: محمد بن بلقاسم على اليمين في حي باب السويقة بمدينة تونس عام 1955.

سابع عشر: رسالة الشيخ الوالد عبد الرحمن بوعزيز
إلى ابنه الشيخ النذير بوهران

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم.

في جمادى الأولى 1374 هـ في 2 جانفي 1955.

حضرة الابن الصالح السيد النذير السلام عليك التام يعم كافة من معك في المحل[1] والفقراء، والأحباب، من غير تخصيص، أما بعد أن العائلة في أحسن حال يبلغون إليك السلام وأن رسالتك الأخيرة وصلتنا وكذلك ما بعثته مع بن شيحة البومسعداوي[2] عشرة آلاف، وقفة مخيطة في داخلها سباط[3] وقدر زوج كيلوطامسو[4]، وتفاح كذلك. وحلاوات، كلهم وصلوا، كن هنيئاً (كذا)، إلا أنني لم نجتمع معه من سوء الحظ اليوم الذي قدم عندنا وهو يوم الأربعاء الماضية وجدني سفرت إلى برج بوعريريج من أجل بعثولي كارطة[5]، من عند الجوج[6]، في شأن قسمة أقطار[7] الزاوية، توقفت المسألة علي حتى نحضر، وجدته ترك كل ما بعثته في الدار. ورجع في حال سبيله.

أما مسألة أختكم جميلة فلا تتعب نفسك في شيء عليها فلا مطمع في حياتها لأنه مرض لم يتبيّن منه شيء مما هو في باطنها. كل ما تأكله تتقيؤه. ولم يثبت في باطنها شيء. وهي الآن رجعت مثل عود يابس صرفنا عليها أنا وزوجها

---

(1) يقصد المحل التجاري في شارع قسنطينة رقم 20 وما يزال حتى اليوم في أيدي أبناء الأخ وكان يمارس فيه عمل الخياطة. أما اليوم فيبيع فيه الأبناء الأحذية.

(2) يقصد السيد عمر بن شيحة من قرية بو مسعدة. وما يزال الرجل حياً بوهران، ويعمل خياطاً.

(3) يقصد حذاء والكلمة مستعملة كثيراً في الجزائر، وهي على ما يبدو من أصل اسباني.

(4) يقصد 2 كيلو برتقال من نوع الطامسو، وهو أجود الأنواع عندنا بالجزائر وفي الخارج.

(5) يقصد بطاقة استدعاء من الكلمة الفرنسية: Convocation.

(6) يقصد القاضي، من الكلمة الفرنسية: Le Juge.

(7) يقصد هكتار.

البشير أونَاصَـرْ مصروف كبير. كل ما ذكروه (كذا) لنا الناس، ولم يفد في ذلك شيء، والعلم لله في المستقبل[1].

أما ما بعثت من المصروف دفعت منهم ثلاثة آلاف وأربعمائة إلى عبدالله الوصيف، وخمسمائة فرنك وألف فرنك اشتريت بهم تبن (كذا) للحمار، وألفين فرنك قهوة، وسكر وغاز، وصابون، وألف فرنك صرفته في طريقي إلى البرج، رجعته إلى صاحبه، وهذا ما يجب به الإعلام أعلمتك تماماً لتكون على علم من أمورنا كلها.

وأما أخوكم يحيى ها هي رسالته بعثتها إليك صحبة هاته الرسالة لتراها ثم ترجعها لما أنها منظومة لا ينبغي التفريط فيها[2].

والسلام من بوعزيز عبد الرحمن.

ثامن عشر: رسالة الشيخ الوالد عبد الرحمن بوعزيز إلَيّ بتونس

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم

في 5 جمادى الأولى 1374 هـ في 2 جانفي 1955 م.

جناب العلامة الشهير والعارف الكبير بوعزيز السيد الشيخ يحيى، السلام عليك ورحمة الله وبركاته تشمل كافة من تنتمي إليهم من الأساتذة والتلاميذ، والأحباب، والفقراء، من غير تخصيص. أما بعد نعلمك أن كافة العائلة كبيرهم وصغيرهم على أحسن حال وأنهم يبلغون إليك سؤالهم ويدعون الله لك بكل خير، وكذلك كافة ذوي القربى وغيرهم من أهل القرية يرفعون إليك تحيتهم من

---

(1) البشير أونَاصَرْ هو زوج الشقيقة المرحومة جميلة التي يتحدث الوالد عن مرضها. وهو من قرية إِلْمَايَنْ، المجاورة لقريتنا مزرراق. وكان رجلاً محترماً ولكنه كانت له متاعب مع شقيقه الذي كان يسكن معه.

(2) يشير إلى رسالة 27 ربيع الثاني 1374 هـ ـ 23 ديسمبر 1954 م المصحوبة بالقصيدة الشعرية التي سماها بالمنظومة وهو أصدق تعبير عليها لأنها نظم وليست شعراً. ولذلك توقفت عن قول الشعر كما ذكرت سابقاً.

صميم القلب حسبما أكدوا علينا تبليغها إليك. وإن رسالتك الأخيرة التي بعثتها معها، منظومة، تشير لمقام نبي الله ورسوله سيدنا أيوب عليه السلام[1]، بارك الله فيك أحسنت، أحسن الله إليك وجزاك بأحسن ما يجزي به أحبابه، بما أن التفاؤل حسن حيث قرنتني بنبي كريم القائل في حقه عليه السلام «نعم العبد أنه أواب». نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبله منك ويجازينا بشيء منه بفضله وجوده، وكرمه، أنه كريم منان.

ونعلمك أن أختك جميلة أصابها الله بمرض كبير لها مدة شهرين أو أزيد هي عندنا نعالجها بما نعرفه وبما يخبرونا (كذا) به المجربون من جميع الأدوية ولم يفد ذلك في شيء ولا أظن أنها تعيش بما أنها رجعت كعود يابس والعلم لله في المستقبل. وصرفنا عليها مصاريف باهظة أنا وزوجها محمد البشير، وقف بها وقفة الرجل الصادق الحق يقال[2] ونعلمك أيضاً أن أخاك الحسن ذكر لنا أنه بعث لك أربعة آلاف فرنك (4000) أصحيح ذلك أم مجرد سفسطة، وزور، وكذب، اجتمعت به في هذه الأيام ببرج أبي عريريج أخبرني بذلك. وإني سررت سروراً عظيماً بما أنت فيه من مزاولة الدروس في نحو عشرين فناً حيث أن الله سبحانه وتعالى لم يخيب آمالنا فيك، ويسر علينا وعليك فالحمد لله.

هذا وأن أخاك النذير بعث إلينا بالمنظومة التي أثنيت عليه بها[3] وذكر أنه

---

(1) هي المنظومة السابقة التي تحمل تاريخ 24 ربيع الثاني 1374 هـ الموافق 20 ديسمبر 1954 م. والمرفوقة بالرسالة التي تحمل تاريخ 27 ربيع الثاني 1374 هـ الموافق 24 ديسمبر 1954 م. وأرسلتها إليه من تونس، وأرسلها هو إلى الأخ النذير بوهران ليطلع عليها. ثم يعيدهما إليه.

(2) وفعلاً ماتت هذه الأخت من جراء ذلك المرض الذي اتضح أنه بوصفير كما سنعرف في رسالة تالية.

(3) للأسف هذه المنظومة مفقودة في هذه الأوراق التي لها قصة طريفة، فقد جمعتها الوالدة بعد وفاة الوالد مع صورة لي، وأوراق أخرى للأخ النذير، وعندما تم تهجير العائلة من القرية أمزرراق من طرف جيش الاحتلال. التحقت بقرية أولاد سيدي يذير لدى صهرنا الحاج المختار طالبي. وهناك أخفت الوالدة هذه الرسالة وباقي الأوراق والصور بين قرمودتين على سطح غرفة علوية وذلك منذ عام 1957 إلى 1981 حيث قام أحد أفراد عائلة طالبي بإصلاح قرمود الغرفة وعثر على هذا الملف فأرسله مشكور إلينا بوهران، =

بعث إليك خمسة آلاف مصروف مع ما تيسر من الكسوة، بارك الله فيه وأعانه على خدمته وأجزل ثوابه في الدارين، آمين، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمع شمله مع أهله عن قريب[1] أنه سميع مجيب والسلام من أبيك عبد الرحمن بوعزيز، ويسأل عنك الهادي، وزينب وكلثوم، وعبد المجيد، وامباركة، ومحمد الطاهر[2] والسلام.

ولا تطل علينا ببعث الرسائل لنكون على بـال من أحوالك والسلام.

تاسع عشر: رسالة الشيخ الوالد عبد الرحمن بوعزيز إلى ابنه الشيخ النذير بوهران

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم.

في 22 جمادى الأولى 1374 هـ في 15 جانفي 1955 م.

حضرة ابننا السيد النذير عليك السلام التام يعم كافة الأحباب، والفقراء من غير تخصيص، أما بعد نعلمك أن ما بعثته من الدواء والثمن، عشرة آلاف فرنك ها أني قبضتهم جميعاً كن هنيئاً (كذا) نرجو الله أن يرزقنا الشفاء بسبب هذا

= وكان ذلك رحمة وبركة ومزية كبرى أتاحت لنا تسجيل المزيد من المعلومات عن حياة الوالد، والعائلة والمشاكل التي كان الوالد يواجهها.

(1) كان الأخ الشيخ النذير، يعمل في متجره بوهران، وهو الذي كان يصرف على العائلة، وعليّ أنا بتونس عندما كنت أدرس. وهو أكبرنا جميعاً، ويحترم الوالد ويطيعه ولا يخالف رأيه كما أن الوالد يقدره كثيراً، وبما أن الغربة طالت عليه فكان يلح عليه دائماً أن يؤجر مسكناً له في مكان عمله، ويأخذ أسرته إليه. ولكن الأخ كان يرفض ذلك دائماً، ويقول له لا يمكن لي أن أسكن المدينة بدونك، وأتركك ورائي. وبقي على هذا الرأي حتى وفاته. وبعد أن هجرت العائلة من القرية، وهدم جيش الاستعمار منزلنا وأغلب منازل القرية استقدم الأخ النذير العائلة كلها إلى وهران عام 1958 وكافح عليها حتى عدت من الغربة عام 1962 م فقاسمته العبء حتى توفي رحمه الله عام 1980 م.

(2) الهادي، وزينب، وكلثوم إخوتي الأشقاء من أمي وأبي. والثلاثة الآخرون أبناء أخي الحسن وما يزال ابنه عبد المجيد، وبنته امباركة، أما محمد الطاهر فقد توفي. وله أيضاً أبناء آخرون هم: مصطفى، وبلقاسم، وربيعة، وحياة. أما هو فتوفي عام 1993.

الدواء إن شاء الله إلا أنك لم تعلمني عما نجانبه من الأكل وما يناسبني، وكما نعلمك أن البنت الزهرة، هي والبنت جميلة أصابهما المرض الذي يسمونه الصَّفّاير، أصفرت ألوانهما، وها أنا نعالج بكل دواء جربوه (كذا) الناس، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعجل لهما الشفاء. أما البنت جميلة هذه الساعة لم يظهر لنا شيء من مرضها، وهي دئماً في نقصان الله يلطف بعبده يرزق من يشاء بما شاء. ﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين﴾. وكما نرغب منك أن تيسر لك أن تسأل الطبيب عن مرض الصفاير، وتبعث لنا دواءه إن أمكنك ذلك، وإلا فلا بأس عليك. وكذلك إن وجدت مع من تبعث لي شيئاً من الأتاي[1] الأحمر كالذي يشربه المشارقة، وشيئاً من الأتاي[1] الأخضر كالذي يبيعه الأولاد في الزقاق بقربكم مع الطريق الذي فوق الحمام تمر إلى جامع الشريفية[2] فهو أحسن.

وأما هذا الذي بعثت لي. أولاً: طعمه لم يوافق، قليله يضر وكثيره كذلك، وإنني بعت القش[3] الذي بعثت إلى يحيى عيسى[4] بثلاثة آلاف فرنك، وزدت عليهم ألف وخمسمائة، كيّلت ثلاثين يطره[5] زيت سوم[6] ثمانية وعشرين دوريات[7].

والسلام من بوعزيز عبد الرحمن.

---

(1) يقصد الشاي، ولكن العامة عندنا تعبر عنه بالأتاي.

(2) يقع متجر الأخ النذير بحي المدينة الجديدة، ويقابله حمام كبير ومشهور يملكه أخ ميزابي وعلى يمين المتجر شارع كبير يمتد من الغرب إلى الشرق ويعتبر سوقاً رئيسياً للمدينة الجديدة، ويعمر يومياً، ويزدحم بالباعة والمشترين ومن بينهم باعة الشاي على الأرصفة. وفي نهايته الشرقية يقع المسجد الذي يحمل اسم جامع الشريفية، وبجواره محكمة القاضي، وهو ما يشير إليه الوالد، وما يزال هذا السوق حتى اليوم ويعرفه الوالد لأنه مرة على مرة يزور الأخ النذير بوهران.

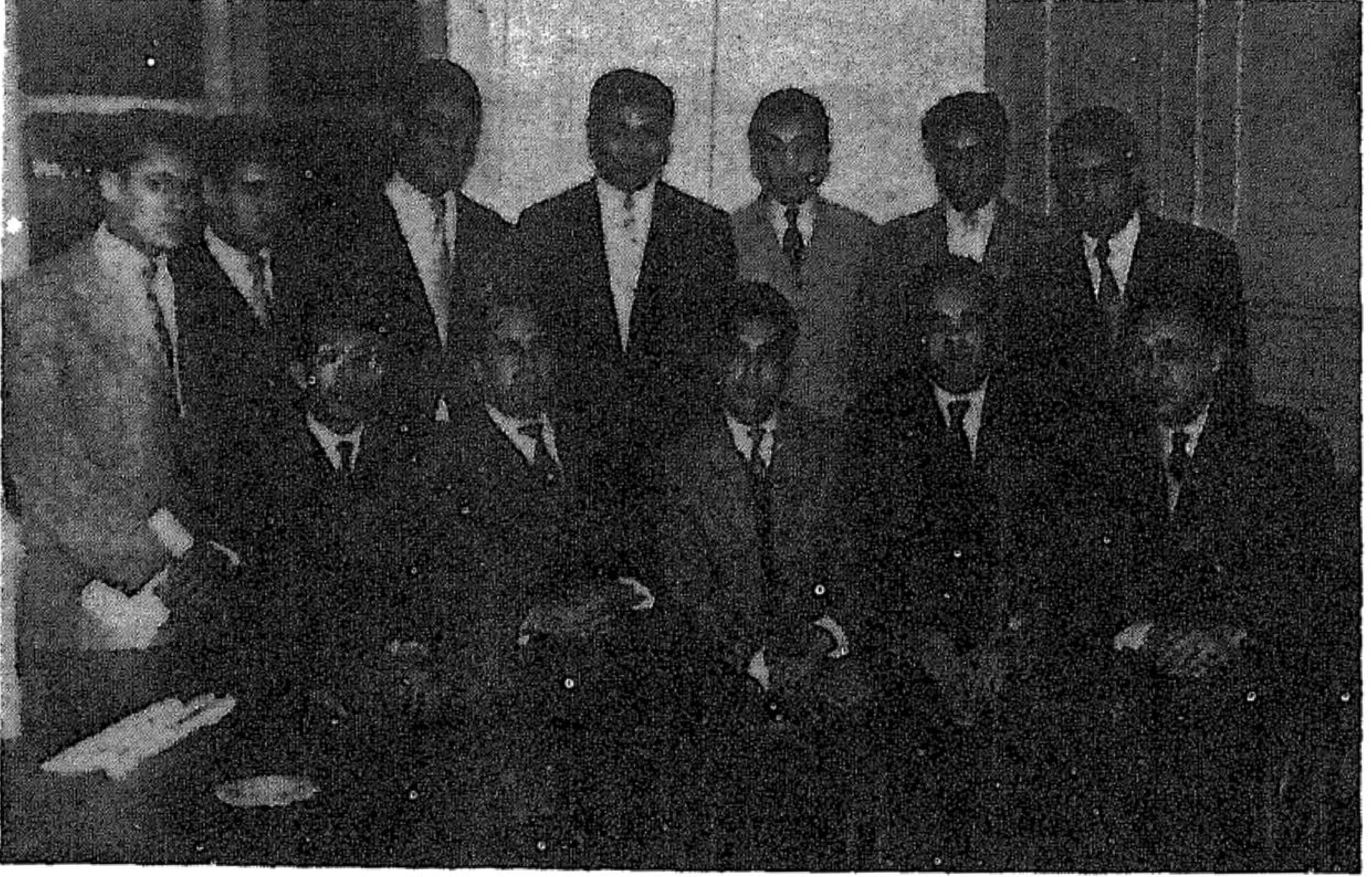
(3) يقصد الملابس. وهو تعبير شعبي متداول في الجزائر وبلدان المغرب.

(4) هذا الشخص شقيق زوجة الأخ الحسين، ويعمل عند الوالد بالمشاهرة. يسقي الماء، ويحتطب، ويسرح الماعز عندما يحضر دور العائلة، ويساعد الوالد في خدمة البستان.

(5) يقصد: ليتر، وهو تعبير شعبي.

(6) يقصد: سعر، وهو تعبير شعبي.

(7) جمع دور، وهو خمسة صنتيمات، وما تزال تستعمل حتى اليوم.



هذه الصورة أخذت يوم الخمس 1959/12/10 بنادي الطلبة العرب 6 شارع بنك مصر بالقاهرة أثناء حفلة تكريم أقامها الاتحاد للطلبة العسكريين الذين حضروا إلى القاهرة. وتمثل من اليمين إلى اليسار الواقفون: محمد بلعيد، وعبود عليوش وعلي مفتاحي، وأحمد فرڤاف، ومحمد خبشي، ومحمد طالب، وسعدالله بلقاسم. والجالسون: الأول على اليمين لا أتذكر اسمه وبعده: نوار المشرف العسكري على الطلبة العسكريين، ثم عيسى بوضياف ثم كريم بلقاسم وزير الدفاع، ثم يحيى بوعزيز (المؤلف).

نبذة عن حياة المؤلف يحيى بوعزيز

ولد الدكتور يحيى بوعزيز يوم 27 ماي 1929 بقرية الجعافرة، في دائرة الجعافرة، من ولاية برج بوعريريج، حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادىء اللغة العربية، على والده: الحاج عبد الرحمن، وفي عام 1947 التحق بمدينة عنابة وزاول تعليمه الابتدائي هناك في مدرسة خاصة، وفي أواخر عام 1949 التحق بمعهد الزيتونة في تونس، حيث حصل على شهادة الأهلية بامتياز وجائزة عام 1953 وكان الأول في سائر المملكة التونسية آنذاك، وعلى شهادة التحصيل في أواخر عام 1956.

وفي خريف عام 1957 التحق بجامعة القاهرة في مصر، واختص في دراسة التاريخ، وحصل على شهادة الليسانس في مطلع عام 1962 م.

وعندما عاد إلى الوطن حصل على شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة الجزائر في أكتوبر 1976 م.

اشتغل خلال وجوده بتونس، في ميدان الصحافة، في إطار نشاط جبهة التحرير الوطني الجزائرية، ونشر عشرات المقالات في الصحف والمجلات الفرنسية، ونشر كتاباً عن كفاح الأمير عبد القادر. وكان عضواً في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، ورئيس اللجنة الثقافية في تونس، وفي القاهرة.

وفي القاهرة شارك في إذاعة حصص من إذاعة صوت العرب عن كفاح الشعب الجزائري، وترأس اللجنة الثقافية، وتحرير مجلة الطالب الجزائري، التي كان يصدرها الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (فرع القاهرة).

وعندما عاد إلى الوطن بعد الاستقلال عام 1962 م اشتغل في مهنة التدريس وعين عضواً في لجنة التأليف المدرسي الوزارية في صيف عام 1963 م بالعاصمة، وكلف عام 1969 م بوضع كتاب مدرسي في التاريخ الحديث للسنة الأولى من التعليم الثانوي مع زميلين آخرين، وأنجزه.

وألف كتاب: الموجز في تاريخ الجزائر، ونشر عدداً كبيراً من المقالات والبحوث الوثائقية التاريخية عن تاريخ وحضارة الجزائر خاصة عن الكفاح التحريري في القرنين: التاسع عشر، والعشرين، وبعد ذلك نشر 24 كتاباً و80 مقالاً تاريخياً عن تاريخ وحضارة الجزائر.

وهو الآن أستاذ للتاريخ الحديث والمعاصر في معهد التاريخ بجامعة وهران، وعضو في مجلس البحث العلمي بنفس المؤسسة، وعضو في اتحاد الكتاب الجزائريين وفي رابطة المؤرخين الجزائريين، وشارك في معظم ملتقيات الفكر الإسلامي التي تعقد سنوياً بمدن الجزائر، وفي ملتقيات علمية خارج الجزائر منها مؤتمر المستشرقين الألمان الواحد والعشرين ببرلين الغربية في أواخر شهر مارس 1980، والملتقى الدولي الثاني لتاريخ المغرب وحضارته بتونس في آخر نوفمبر 1980 وملتقى رد فعل تونس من الاحتلال الفرنسي لها عام 1881 في آخر شهر ماي 1981، وملتقى تاريخ التجارة عبر الصحراء بمدينة طرابلس الليبية فيما بين 1 و4 اكتوبر 1979 م، وملتقى صيانة جزيرة جربة بنفس الجزيرة فيما بين 7 و11 أبريل 1982 م، وملتقى تاريخ العلاقات العربية التركية بطرابلس الغرب فيما بين 13 و18 ديسمبر 1982 م، وملتقى التراث والمعاصرة بالجزائر في جويلية 1984 م. والملتقى الدولي عن صدى الثورة الجزائرية بالخارج في أواخر شهر نوفمبر 1984، وملتقى الحركة الوطنية وحروب التحرير 1850 ـ 1950 بالجزائر في أوائل ديسمبر 1984. والملتقى الدولي الرابع لتاريخ المغرب وحضارته بتونس عام 1986 م. وملتقى تجاوب الثورات الشعبية بالمغرب العربي في تونس خلال فيفري 1992 وملتقى دور المرأة العربية في حركة الإصلاح بمدينين في جنوب تونس خلال ماي 1992، وغيرها.

من إنتاج المؤلف يحيى بو عزيز

I ـ الكتب المطبوعة:

1 ـ الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري ـ ط 3 (تونس 1983) 336 ص.
2 ـ الموجز في تاريخ الجزائر 1 (الجزائر ـ المطبوعات الوطنية 1965) 220 ص.
3 ـ تاريخ العالم الحديث من فجر الصناعة إلى الحرب العالمية الثانية بالاشتراك مع الزميلين: أحمد بن الطاهر وبلعديس بلحاج (الجزائر 1969) 345 ص.
4 ـ ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني والحداد) الجزائر ـ 1978 ـ 471 ص.
5 ـ ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (الجزائر ـ قسنطينة ـ 1980) 550 ص.
6 ـ مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلة (الجزائر، قسنطينة ـ 1982) 120 ص. (ط 2 ـ 1986).
7 ـ علاقات الجزائر الخارجية 1500 ـ 1830 (الجزائر ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ 1985) 206 ص.
8 ـ التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1930 ـ 1954 (الجزائر ـ 1985) 159 ص.
9 ـ وهران عبر التاريخ (الجزائر ـ 1985 م) ـ 189 ص.
10 ـ تلمسان عاصمة المغرب الأوسط (الجزائر ـ 1985 م) 92 ص.
11 ـ الأيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية (1920 ـ 1954 م) (الجزائر ـ 1985) 178 ص.
12 ـ كفاح الجزائر من خلال الوثائق (الجزائر ـ 1986) 338 ص.
13 ـ الاستعمار الحديث في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات (الجزائر. د.م.ج. ـ 1988) 135 ص.
14 ـ مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية. (الجزائر. د.م.ج. 1991) 422 ص.
15 ـ فريدة منيسة أو تاريخ قسنطينة (الجزائر د.م.ج. 1991).
16 ـ وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز. (الجزائر ـ م.و.ك ـ 1989).

17 ـ طلوع سعيد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود. (بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ـ 1990) 2 أجزاء.

18 ـ الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية (الجزائر ـ د.م.ج ـ 1991) 142 ص.

19 ـ المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780 ـ 1798) (الجزائر. د.م.ج. 1993) 253 ص.

20 ـ مواقف العائلات الأوروستقراطية من الباشاغا المقراني وثورته 1871 (الجزائر. م.و.ك 1994) 162 ص.

21 ـ أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة (بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ـ 1995) 2 أجزاء.

22 ـ روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين لابن معد. (تحقيق). (بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ـ 1995 م).

23 ـ سيرة الأمير عبد القادر وجهاده لمصطفى من التهامي (تحقيق). (بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ـ 1995 م).

24 ـ السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري.

II ـ كتب مخطوطة:

1 ـ الثورة في الولاية الثالثة.

2 ـ من أحداث ثورة أول نوفمبر الكبرى. خيبات الوزير المقيم لاكوست.

3 ـ في بيوت أذن الله أن ترفع.

4 ـ المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح المنسوية العربية.

III ـ البحوث والمقالات المنشورة:

1 ـ ثورة محمد المقراني والشيخ ابن الحداد، مجلة الأصالة، عدد 2، (الجزائر، ماي 1871) ص 22 ـ 29.

2 ـ الحقيقة عن دور زاوية صديق والأخوان الرحمانيين في ثورة 1971. الأصالة، عدد 14/15 (ماي، جوان، جويلية، أوت 1973) ص 161 ـ 172.

3 ـ واقع ومستقبل التعريب في الجزائر. الأصالة، عدد 17 و18 (نوفمبر 1973 جانفي 1974) ص 123 ـ 129.

4 ـ من كفاح الجزائر في القرن التاسع عشر، أربعة أحداث في ثلاثة وثائق، الثقافة، عدد 45 (الجزائر، يوليو 1978) ص 9 ـ 24. والمجلة التاريخية المغربية، عدد 2 (تونس ـ جويلية 1974) ص 94 ـ 102.

5 ـ جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، الأصالة، عدد 19 (مارس أبريل 1974) ص 287 ـ 301.

6 ـ مكانة ثورة أول نوفمبر 1943 بين الثورات العالمية ودورها في تحرير الجزائر وإفريقيا. الأصالة، عدد 22 (نوفمبر، ديسمبر 1974) ص 138 ـ 150.

7 ـ موقف بايات تونس من ثورة الأمير عبد القادر. الأصالة، عدد 23. (جانفي ـ فيفري 1975). ص 23 ـ 34.

8 ـ الأمير عبد القادر ومشروع قناة قابس والبحر الإفريقي. الأصالة، عدد 25 (ماي جوان 1975) ص 97 ـ 118.

9 ـ المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية، الأصالة عدد 26 (جويلية. أوت 1975) ص 3 ـ 19.

10 ـ أوضاع الجزائر السياسية في القرن الماضي، مجلة الثقافة عدد 29 (الجزائر ـ اكتوبر، نوفمبر 1975) ص 9 ـ 27.

11 ـ حقيقة مطالب المغرب التاريخية حول الساقية الحمراء وادي الذهب، الأصالة، عدد 28 (نوفمبر ـ ديسمبر 1975) ص 61 ـ 69.

12 ـ موقف الجزائريين من تجنيس اليهود الجماعي. الثقافة، عدد 30 (ديسمبر 1875 جانفي 1976) ص 39 ـ 63.

13 ـ موقف وجهاء الأيالة الوهرانية من ثورة القراني والحداد عام 1971، الأصالة عدد 29 (30 جانفي، فيفري 1976) ص 43 ـ 48 والمجلة التاريخية المغربية، عدد 5 (تونس، جانفي 1976) ص 48 ـ 51.

14 ـ حول الملتقى التاسع للفكر الإسلامي بتلمسان، ملاحظات واقتراحات

الأصالة، عدد 29 ـ 30 (جانفي فيفري 1976) ص 176 ـ 185.

15 ـ وثائق جديدة عن ثورة بن ناصر بن شهرة (1851 ـ 1875). الثقافة، عدد 31 (فيفري ـ مارس 1976) ص 39 ـ 48.

16 ـ مكانة عبد الحميد بن باديس بين مصلحي الشرق العربي الإسلامي، مجلة أول نوفمبر، عدد 15 (الجزائر. أفريل 1976) ص 1 ـ 4.

17 ـ حقائق عن نظام المغرب العربي الأقصى، مجلة أول نوفمبر، عدد 15 (الجزائر ـ أبريل 1979).

18 ـ المجاعة بالجزائر أواخر الستينات من القرن 19 ومواقف وآراء الجزائريين من ادعاءات الفرنسيين حول أسبابها. الأصالة، عدد 33 (ماي 1976) ص 7 ـ 29.

19 ـ أضواء على انتفاضة سكان واجه الزعاطشة والشيخ بوزيان عام 1849، الثقافة عدد 32 (أبريل ـ ماي 1976) ص 39 ـ 50.

20 ـ وثيقتان جديدتان عن كفاح الشريف محمد بن عبدالله (1841 ـ 1895). الثقافة، عدد 33 (يونيو ـ يوليو 1976) ص 11 ـ 28.

21 ـ عنابة عبر التاريخ، الأصالة، عدد 34 ـ 35 (يونيو ـ يوليو 1976) ص 17 ـ 25.

22 ـ بعض عبر وأبعاد يوم 5 جويلية، ويوم 20 أوت، مجلة أول نوفمبر، عدد 17 (أوت 1976) ص 21 ـ 26.

23 ـ أضواء على كفاح الشريف بوشوشة، الثقافة، عدد 34 (أغسطس ـ سبتمبر 1976) ص 85 ـ 99.

24 ـ وثائق جديدة عن دور محيي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 وعن موقف أبيه والسلطات التونسية منه، الأصالة، عدد 38 (أكتوبر 1976) ص 25 ـ 62.

25 ـ من وحي الملتقى العاشر تجربة الجزائر الرائدة، عدد 38 (أكتوبر 1977) ص 117 ـ 137.

26 ـ الأوضاع السياسية قبيل اندلاع الثورة، مجلة أول نوفمبر، عدد 19 (نوفمبر

1976) ص 117 ـ 137. ولماذا لا يستفيد العرب من تجارب تاريخهم، مجلة أول نوفمبر، عدد 18 (الجزائر ـ نوفمبر 1976).

27 ـ دور الشيخ الجعدي في ثورة 1871 من خلال الوثائق، الثقافة عدد 35 (أكتوبر ـ نوفمبر 1976) ص 11 ـ 25.

28 ـ ملامح عن قلعة بني حماد والدولة الحمادية وبجاية، الثقافة، عدد 36 (ديسمبر 1976، جانفي 1977) ص 11 ـ 25.

29 ـ نماذج من مقاومة سكان الواحات، الأصالة، عدد 41 (جانفي 1977) ص 117 ـ 134.

30 ـ معابر الحركة الوطنية في القرن العشرين. مجلة أول نوفمبر، عدد 20 (الجزائر، فيفري 1977).

31 ـ دور الأخوان الرحمانيين في ثورة 1871 بمنطقة باتنة وأثر المقراني والحداد فيها. الثقافة عدد 38 (أبريل، ماي 1977) ص 11 ـ 27.

32 ـ وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871، الثقافة عدد 39 (يونيو، يوليو 1977) ص 11 ـ 24.

33 ـ حول ملاحظات وانطباعات الشيخ سليمان داود بن يوسف عن ثورة 1781. الأصالة، عدد 46 ـ 47 (الجزائر. جوان ـ جويلية 1977) ص 105 ـ 117.

34 ـ ثورات سكان الزواغة وفرجيوة والبابور ضد الاستعمار الفرنسي وقضية الحاج بن عز الدين، الثقافة، عدد 40 (الجزائر أغسطس، سبتمبر 1977) ص 11 ـ 21.

35 ـ جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية، الأصالة، عدد 48 (أوت 1977) ص 2 ـ 42.

36 ـ أوضاع المنفيين بعد ثورة 1871 من خلال رسائلهم، الثقافة، عدد 42 (الجزائر، ديسمبر 1978 جانفي 1979) ص 9 ـ 20.

37 ـ المجهولون من زعماء المقاومة في الشرق الجزائري، الأصالة، عدد

54 ـ 55 (فيفري ـ مارس 1978) ص 31 ـ 58.

38 ـ ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها (عنابة الملتقى العاشر للتعرف على الفكر الإسلامي جويلية 1976) 38 ص، الأصالة عدد 75 ـ 76 ـ 77 ـ 78 (نوفمبر، ديسمبر 1979، جانفي، فيفري 1980) ص 113 ـ 144، الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، (الجزائر، مطبعة دار البعث 1980) ص 223 ـ 226.

39 ـ علاقات الجزائر مع دول وممالك أوروبا فيما بين القرن السادس عشر، ومطلع القرن التاسع عشر (باتنة، الملتقى الثاني عشر للتعرف على الفكر الإسلامي، سبتمبر 1978) 27 ص، مجلة الثقافة، عدد 48 (الجزائر، ديسمبر 1978) 17 ـ 34.

40 ـ مواقف الرستمين التونسيين من الصباحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871، الأصالة، عدد 60 ـ 61 (الجزائر، أوت، سبتمبر 1978) ص 57 ـ 202.

41 ـ انتفاضة سكان الأوراس عام 1879، الأصالة، عدد 60 ـ 61 (الجزائر سبتمبر 1978) ص 223 ـ 233.

42 ـ أربعة أحداث في ثلاثة وثائق، الثقافة، عدد 45 (الجزائر، يونيو، يوليو 1978) ص 9 ـ 24.

43 ـ أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864 ـ 1873) مجلة الثقافة عدد 46 (الجزائر، أوت، سبتمبر 1978) ص 11 ـ 32، وعدد 51 (ماي، جوان 1979) ص 31 ـ 64.

44 ـ مواقف العائلات الأروستقراطية من محمد المقراني وثورته وأحداث أخرى من خلال الوثائق عن ثورة 1871، الأصالة، عدد 65 ـ 66 (الجزائر، جانفي، فيفري 1979) ص 76 ـ 95.

45 ـ تدخل الأمير عبد القادر لدى سلطات تونس لصالح الثائرين الكلبوتي وبن شهرة. مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران (الجزائر 1977 ـ 1978).

46 ـ مشاكل البحث العلمي بالجزائر، الأصالة، عدد 67 (الجزائر مارس 1979) ص 18 ـ 30.

47 ـ سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر من خلال أقواله ورسائله 1852 ـ 1870. الثقافة عدد 50 (الجزائر. مارس، أبريل 1979) ص 13 ـ 33.

48 ـ اهتمامات الفرنسيين بالتوارق ومنطقة الهقار من خلال ما كتبوه، الأصالة، عدد 72 (أوت 1979) ص 51 ـ 68.

49 ـ اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي (تامنراست أوت، سبتمبر 1979) ص 35. الثقافة، عدد 57 (مايو، يونيو 1980) ص 15 ـ 28 وعدد 58 (يوليو، أوت 1980) ص 45 ـ 60.

50 ـ طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن 19. ملتقى تاريخ التجارة عبر الصحراء (مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، طرابلس ليبيا، أكتوبر 1979) ص 15. الثقافة عدد 69 (ديسمبر، أكتوبر 1980) ص 13 ـ 30.

51 ـ ماضي مدينة وهران وأمجادها التاريخية. الثقافة، عدد 52 (الجزائر، يوليو، أغسطس 1979) ص 29 ـ 57.

52 ـ ملامح عن ثورة أول نوفمبر الجزائرية ومواقف دوقول تجاهها لغاية مظاهرات ديسمبر 1960. الأصالة عدد 73 ـ 74 (الجزائر، سبتمبر، أكتوبر 1979) ص 23 ـ 40.

53 ـ أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرون، (المؤتمر الواحد والعشرون للمستشرقين الألمان برلين 24 ـ 30 أبريل 1980) 24ص، الثقافة عدد 63 (مايو ـ يونيو 1981) ص 11 ـ 28.

54 ـ دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة عام 1871، الثقافة، عدد 54 (الجزائر، نوفمبر، ديسمبر 1979) ص 27 ـ 38.

55 ـ مظاهر المقاومة وروادها في الشرق القسنطيني ضد الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر، الثقافة، عدد 55 (يناير، فبراير 1980) ص

11 ـ 25، الأصالة عدد 79 ـ 80 ـ 81 ـ 82 (الجزائر مارس، أبريل، ماي، جوان 1980) ص 88 ـ 90.

56 ـ المقاومة في جبال الونشريس وحوض الشلف وجبال الظهر ضد الاستعمار الفرنسي 1840 ـ 1864، الأصالة، عدد 83 ـ 84 (الجزائر، جويلية، أوت 1980) ص 182.

57 ـ دور تونس في دعم حركات التحرير الوطنية الجزائرية وموقف الجزائريين من احتلالها عام 1881 (تونس، ملتقى رد فعل تونس من الاحتلال الفرنسي لها عام 1881 ـ 29 ـ 31 ماي 1981) ص 107 ـ 122. الثقافة عدد 70 (يوليو، أغسطس 1982) ص 45 ـ 57.

58 ـ ماذا قدم المغرب الإسلامي للحضارة الأوروبية، مجلة الكويت، عدد 8 (الكويت، ماي 1981) ص 100 ـ 109.

59 ـ الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلة. الثقافة عدد 64 (يوليو)، أغسطس 1981. ص 13 ـ 24 وعدد 65 (ديسمبر، أكتوبر 1981) ص 15 ـ 31.

60 ـ أضواء على ثورة الشيخ بوعمامة (1881 ـ 1908) الثقافة، عدد 68 (مارس، أبريل 1982) ص 11 ـ 27.

61 ـ اللقاء التاريخي بين الأمير عبد القادر وحاكم مليلة الإسباني، مجلة الثقافة، عدد 75 (ماي ـ جوان 1983) ص 109 ـ 121.

62 ـ ما كتب عن ثورة أول نوفمبر 1954. الثقافة، عدد 83 (الجزائر ـ أوت، سبتمبر 1984) ص 123 ـ 242.

63 ـ دور الطلبة الجزائريين في ثورة التحرير الوطني. الثقافة عدد 83 (الجزائر ـ أوت، سبتمبر 1984) ص 264 ـ 300.

64 ـ الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري في القرن التاسع عشر. الثقافة، عدد 80 (الجزائر ـ مارس، أبريل 1984) ص 159 ـ 186.

65 ـ وثيقة لمسؤولين ميصاليين يدينون الحركة الوطنية، مجلة التاريخ. عدد

خاص (الجزائر. النصف الثاني من سنة 1984) ص 45 ـ 53.

66 ـ مفاوضات الصلح بين الجزائر وإسبانيا من خلال مراسلات الداي محمد عثمان باشا (1780 ـ 1787 م) عدد 18. ص 125 ـ 152.

67 ـ معارك الحاج أحمد باي في جبال أولاد سلطان من خلال ثلاثة وثائق جزائرية. مجلة الثقافة عدد 90 (الجزائر ـ نوفمبر ـ ديسمبر 1985) ص 123 ـ 142.

68 ـ عودة إلى مراسلات الأمير عبد القادر ومواقفه من رفاق السلاح بالجزائر. مجلة التاريخ. عدد 20 (الجزائر ـ النصف الأول من سنة 1985) ص 101 ـ 123. المجلة التاريخية المغربية. عدد 4 ـ 42 (تونس ـ جوان 1986) ص 135 ـ 144.

69 ـ انتفاضة التوارق بأزجر والهقار 1916 ـ 1919. مجلة الثقافة. عدد 93 (ماي، جوان 1986) ص 177 ـ 189.

70 ـ عودة إلى نهاية حياة الشيخ عزيز بن الحداد بالمنفى. الثقافة. عدد 96 (نوفمبر ـ ديسمبر 1986) ص 117 ـ 137.

71 ـ الحج بين الماضي والحاضر. مجلة الحرس الوطني. عدد 58 (الرياض ـ أوت 1987) ص 10 ـ 15.

72 ـ الاستعمار الحديث في إفريقيا. مجلة المؤرخ العربي. عدد 31. السنة 12 (1407 ـ 1987) ص 21 ـ 36.

73 ـ انتفاضة سكان عين التركي، ومليانة في أبريل 1901. مجلة التاريخ. النصف الأول لعام 1986. عدد 21 (الجزائر ـ 1986) ص 115 ـ 127.

74 ـ حروب المقاومة كما صورتها الكتابات الفرنسية.

مجلة البحوث التاريخية. عدد 2 (طرابلس ـ يوليو 1983) ص 277 ـ 286.

75 ـ إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس.

المجلة التاريخية المغربية. عدد 49 ـ 50. (تونس ـ جوان 1988) ص 23 ـ 29.

76 ـ وثائق جديدة حول محاربة الأمير عبد القادر للشيخ التيجاني بعين ماضي، ولقبائل المخزن بوهران، وقضايا أخرى. المجلة التاريخية المغربية. عدد 55 ـ 56 (تونس ـ ديسمبر 1989) ص 224 ـ 243.

77 ـ الإنتاج الفكري والأدبي للشيخ أبي رأس الناصر المعسكري. المجلة التاريخية المغربية. عدد 53 ـ 54. (تونس ـ جويلية 1989) ص 245 ـ 253.

78 ـ وثيقة حزب الشعب الجزائري إلى الأمم المتحدة احتجاجاً على إقحام الجزائر في الحلف الأطلسي. المجلة التاريخية المغاربية. عدد 63 ـ 64. (تونس ـ جويلية 1991) ص 367 ـ 379.

79 ـ العلاقات الجزائرية الإسبانية من خلال مراسلات ساسة البلدين في أرشيف التاريخ الوطني بمدريد. وبعض المواقف الحاسمة للجزائر. (1780 ـ 1798). المجلة التاريخية المغاربية عدد 65 ـ 66 (تونس ـ أوت 1992) ص 229 ـ 247.

80 ـ مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية، وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا. مجلة الحضارة الإسلامية. العدد الأول. (وهران ـ 1414 هـ/ 1993 م).

الشيخ الصديق بوفليح أويَخيا

الشيخ الصديق بوفليح بن محمد أو جمعة، من مواليد قرية أقلقال قرب قرية الماين في بني عيدل، ولد في أواخر القرن الماضي، وحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه، ثم التحق بزاوية سيدي أحمد أويحي، بأمالو قرب مدينة أقبو، على الضفة اليمنى لواد الصومام، وتفرغ هناك للدراسة والتعلم، فأكمل حفظ القرآن الكريم وتلاوته، ودرس مختلف العلوم العربية الدينية واللغوية، وحصل على درجة عالية ونبغ في كثير من العلوم، وحفظ عن ظهر قلب ثلاثاً وثلاثين متناً منها مختصر خليل في الفقه المالكي، وابن عاصم في أحكام القضاء والرحبية في الفرائض، وابن عاشر، والجوهرة للقاني، والسنوسية في علم الكلام، والدرة البيضاء في علم الحساب، والموارث للشيخ الأخضري دفين قرية أورلال في صحراء الجزائر، والنوازل الفاسية (بل العمالات الفاسية)، في القضاء، والشاطبية في علم التجويد والقراآت، والأجرومية، وألفية ابن مالك في النحو، ولامية الأفعال لابن مالك أيضاً، والجوهر المكنون في علم البلاغة، للأخضري، والسلم في المنطق للأخضري كذلك، هذا فضلاً عن اتقانه تجويد القرآن، ومعرفته لقراآت السبع والعشر، للقرآن الكريم مثل، قراآت، ورش، وقالون.

ومن جملة شيوخه في زاوية أمالو، الشيخ ألحسن أوخالد، الذي كان يتولى شؤون الزاوية، والشيخ السعيد اليجري الزواوي وقد تعلم تجويد روايات السبع للقرآن الكريم في قرية أورير الجعافرة، على الشيخ علي أوقاسي من قرية بني عباس (القلعة).

كما أخذ أبوك (والدي الحاج عبد الرحمن أُوبَعْزِيزْ) القراآت على هذا الشيخ أيام كان يعلم في مسجد ثاورميث، كما كان إماماً هناك.

وقد علم الشيخ الصديق بوفليح أعواماً في زاوية أمالو، وعلم في غيرها وهو من أقطاب الطريقة العلوية، شريف النسب من فرع البوزيدي وينتهي إلى المولى إدريس الأكبر، انتقل إلى جهات مجانة واستقر هناك وامتلك ضيعة ومزرعة متوسطة المساحة في بلدة المشرع، واشتغل بالفلاحة، وتعليم القرآن الكريم، والعلوم العربية لبعض الأفاضل، ومنهم أولاد سيدي يحيى بلجودي[1].

وبين الشيخ الصديق بوفليح ووالدي الحاج عبد الرحمن صداقة متينة جداً، ويتبادلان الزيارة باستمرار، وتعرفت عليه أنا شخصياً قبل الحرب العالمية الثانية بقليل بمدينة برج بوعريريج، له لحية كثة مخضبة بالشيب، وحواجب كثة وغليظة كذلك، وتوفي خلال الحرب العالمية الثانية، وخلف وراءه عدة أبناء بينهم أمحند أسعيد، والحسن، أعرفهما كذلك، وعاش الأول إلى ما بعد انتهاء ثورة التحرير أما الثاني فقد قتل خلال الثورة المسلحة، وله ولد آخر اسمه عثمان ما يزال حياً، وهناك ابن رابع كذلك.

وشاءت الظروف عام 1992 أن أزوج ابنتي الطبيبة زكية بوعزيز إلى حفيده سالم بوفليح بن أمحند سعيد، وزفت إليه في شهر جويلية 1993، وهو محامي في مدينة برج بوعريريج. وأستاذ القانون الجنائي في جامعة سطيف. وقد أنجبا بنتاً تم تسميتها أشواق على بركة الله في شهر إبريل 1994 م.

وفيما يلي الترجمة التي كتبها الشيخ الصديق بنفسه عندما أجاب عن سؤال للسيد محمد عبد الباري التونسي نشره في كتابه الشهائد والفتاوي عام 1924 ص 177 ـ 120 م ثم الترجمة التي كتبها لنا حفيده الأستاذ والمفتش محمد أعـراب بو فليح بن محمد السعَيد بمدينة برج بوعريريج.

---

(1) أفادني بهذه المعلومات الشيخ عبدالله شرع الله في رسالة له بتاريخ 13 ماي 1989 م.

الشهادة التاسعة

فيما أجاب به فضيلة العالم النحرير والمدرس الشهير الشيخ السيد محمد[1] الصديق بن يحيى عن سؤال ورد عليه هذا نصه:

الحمد لله وصلى الله على النبي وآله

في 19 جمادى الثانية سنة 1342[2]

أسعد الله بمنه وكرمه جلاله العالم العامل المدرس الفاضل الجهبذة الشيخ السيد محمد الصديق بن يحيى المايني مسكناً سلام الله عليكم وعلى من حولكم من الطلبة وغيرهم هذا أيها المحترم قد كان أصابنا ما ألزمنا بالالتجاء لأمثالكم في شأن ما أنبهم عن البعض من إخواننا المشارقة من أمر الشيخ السيد أحمد بن عليوه المستغانمي من حيث الاطلاع على مدعاه فلهذا اعتمدناكم في الالتجاء إليكم طالبين منكم أن تخبرونا عما بلغنا من أن أكثر القبائل انقادت لدعوته فهل حصلوا بسبب صحبته على أثر يذكر أم مجرد نسبة كما تكون في الغالب مع غيره وعليه فإنا استفتيناكم لله أن تفتونا فيما صح عندكم وحسابكم على الله أن ابهمتم علينا شيئاً فيما أنتم على خبرة منه في شأن هذا الرجل ولا تلومونا فيما ألزمناكم به لأن الضرورة ألجأتنا لمثله والجواب ينتظر مع حامله والسلام من خادم الحقيقة محبكم محمد بن عبد الباري الشريف التونسي.

وعندما اتصلت من فضيلة المشار إليه بالجواب وجدته شبه كناشة كان جمعها في بيان ما أفاض الله عليه وعلى قومه من المنن الإلاهية بعد تعلقهم

---

(1) أقول أن فضيلة المشار إليه من أعيان الفقهاء بأرض القبائل عرش الماين عمالة قسنطينة وقد كان اشتهر فضيلته بدروس مختلفة حسبما ذكره في شهادته وجمع من الطلبة ما شاء الله وقد كان لا يمشي في الغالب إلاّ وجماعة من خلفه وإذا دخل السوق يجتمع الجم الغفير عليه حسبما أخبرنا من له معرفة بأحواله كل ذلك لما كان حائزاً من الحظوة وبعد الصيت بين أهله وعشيرته ومع ذلك لم تمنعه نخوة العلم ولا شهرة أمره من أن يلقي القياد للأستاذ عند الاجتماع به وما ذلك إلاّ لما أدركه من حسن عبارته وتأثير إشارته وإلاّ فمثله أبعد من أن ينقاد لمجرد الأوهام وهكذا صار من ذلك الحين يلهج بذكره ويعترف بخصوصيته ولم يزل على ذلك عاملاً جزاه الله وجزى المنصفين خيراً.

(2) الموافق 27 جانفي 1924 م.

بالنسبة العلاوية فاقتصرت على الصدر منها لما فيه ما يلائم الغرض وصورته.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الحقير محمد الصديق بن يحيى المائني الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين ورحمة الخلق أجمعين وآله وأصحابه وتابعيهم قولاً وفعلاً المقول في حقهم ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ وبعد فإنه لما جاد علينا ذو الفضل العظيم باجتماعنا بالأستاذ الكريم أبي العباس الشيخ السيد أحمد بن عليوة المستغانمي وجب أن نعترف بحياتنا الطيبة وحالتنا المرضية التي كانت لنا على يده وقبل ذلك ننوه بالحالة التي كنا عليها قبل تعلقنا بطريقته رضي الله عنه نعم إنا كنا على علوم نافعة ودروس شامخة وكانت بدايتنا بقراءة القرآن ثم بقراءة العلم نحو العشر سنين بزاوية سيدي أحمد بن يحيى بناحية أقبو ببلد القبائل وكانت قراءتنا للقرآن أولاً برواية قالون وورش مفردين ثم بالجمع بينهما ثم قرأت بالبدور السبعة المسماة بالقراءات السبع وهي قراءة نافع والمكي والبصري والشامي وعاصم وحمزة والكسائي مع رواتهم أخذت ذلك عن شيخنا المرحوم السيد علي بن قاسه وكان بحراً في العلوم الظاهرة معتكفاً على طاعة الله حتى توفي رضي الله عنه وحفظت من المتون ما يزيد على الثلاثين متناً[1] كالأجرومية وألفية ابن مالك وإيساغوجي والسلم في المنطق والسمرقندية والجوهر المكنون في البلاغة ومتن خليل في الفقه والرحبية في الفرائض ولامية الأفعال في الصرف ومتن الشاطبية في القراآت ومورد الظمآن في رسم القرآن للخراز والتبصرة للفاسي والدرر اللوامع على قرارة نافع ومتن السوسي في الفلك وغير ذلك وهذا مقام شريف

(1) وما كان عده لهذه المتون إلا ليبني عليه غيره وهو قوله ومع هذا كله لم أنل ولم استفد ما استفدته في أيام قليلة جداً مع هذا الأستاذ العظيم من الأسرار العجيبة إلخ قلت وإنما يستبعد القارىء تصور هاته الفائدة التي تفوق ما ذكر بما أنه لم يعتبر كونها راجعة للعلم بالله على طريق المشاهدة وإلا لزال الالتباس وقد يزول أيضاً باستحضار قوله عليه الصلاة والسلام: «العلم علمان فعلم في القلب فذلك العلم النافع وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم» اهـ من الجامع الصغير.

ومنصب منيف والحمد لله على ذلك تعلمت الجميع وعلمت فيما ذكر ما يزيد على عشر ختمات وأما النحو فهو يزيد على خمسين ختمة ومع هذا كله لم أنل ولم استفد ما استفدته في أيام قليلة جداً مع هذا الأستاذ العظيم من الأسرار العجيبة والفوائد الغريبة والفتوحات القريبة مما لم يحسن[1] التصريح به للعموم أما الأستاذ في حد نفسه رضي الله عنه فإن شمائله لا تحصى وفضائله لا تستقصى فالفتح على يده قريب ومريده منيب ولو لم يكن دليلاً على مكانته ورسوخه إلاَّ سير ذكره[2] في الأنام وانتشار كتبه في العالم زيادة على انتفاع الناس بسره القويم وطريقه المستقيم لكان ذلك كافياً لذوي البصائر النيرة إن لم نقل هذا يصح أن يكون أدل دليل على أنه الوارث لرسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً في هذا الزمان لما نرى من النتائج الحاصلة لأغلب إخواننا ببلد القبائل حتى صارت بيوتهم تلقب ببيوت أهل الله بعدما كانوا بعكس ذلك والحاصل مما نرى أن الخصال العشرة المذكورة في سورة الأحزاب قامت الآن بالفقراء العلاويين وهي قوله تعالى أن المسلمين والمسلمين إلى قوله تعالى والذاكرين الله كثيراً والذاكرات الآية. ومما نعتبره في نفسي أعظم كرامة لهذا الأستاذ ولا أظن غيري أيضاً يعتبر خلاف ذلك مهما كان على إطلاع هو ما نراه من انجذاب القلوب وإحيائها لدين الله على يديه وفتح باب الإحسان وامتزاج اسم الله بالعروق والعظام وجريه على ألسنتنا كلنا[3] كبيراً وصغيراً ذكراناً وإناثاً وقطع القبائح من أفواه أتباعه مطلقاً أما إذا لاحظنا ما حدث وانبث بسبب هذا السيد الكريم من

(1) لما ورد عن علي كرم الله وجهه حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله، وقيل إنه حديث.

(2) قلت فمعتمد استدلاله هذا ينبىء عما قيل:

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ... إن لـم يـروا فيـه آثـار إحسـان

(3) قلت ولو لم يكن إلا مجرد هذا الانتقال الصريح الذي ظهر في أرض القبائل حسبما ذكره فضيلة الكاتب وذكره أيضاً الشيخ السيد محمد وعلي وبذكره غيرهما أيضاً لكان كافياً في إثبات الخصوصية لهاته النسبة العلاوية وقد كانت صرحت جريدة النجاح بما يشبه هذا بعدما ذكرت عدة خصائل قالت: (على أن الشيخ له فضيلة أخرى وهي إنقاذه لمئات الألوف من شرك جماعة الأب الأبيض بالقبائل والحمامات) إلخ.

نحو الحنانة والشفقة وأنواع التكريمات بين الأفراد فذلك شيء آخر يستحق هذا الرجل الذكر من أجله وبالجملة أن أغلب شباننا ونسائنا وبناتنا كانوا قبل الطريق لا يعرفون الصلاة ولا يذكرون الله ولا يخشونه ولا يستحيون ولا تسمع من خيارهم إلا ما لا يرضى الله من قيل وقال وبالأخص حالة النسوة في الأعراس قد كن على حالة[1] غير مرضية من جهة استعمال السماع المحرم كالغناء ونحوه أمام الأقارب والأباعد والآن بحمد الله قد بدل الغناء الذي لا يحل سماعه بالسماع المباح من ذكر الله وما قاربه من انظام الأستاذ رضي الله عنه وعوض أن كن للصلاة تاركين صرن بها الآن آتيين وهكذا انتسخت القبائح بأضدادها والحمد لله على ذلك والثناء في ذلك راجع لمن كان سبباً لنا فيه إلخ ما أطال به حضرته من عد ما ظهر عليهم بواسطة الطريق والاستشهاد به على مكانة مؤسسها.

محمد الصديق بن يحيى المايني الوقلقالي

ـ حياته:

ولد المرحوم محمد الصديق بن يحيى عام 10 سنوات قبل 1892. تزوج بالصيد شريفة ورزق منها بأربعة أولاد ذكور أكبرهم محمد السعيد وأصغرهم لحسن.

نشأ وترعرع بقرية الماين، وكان على علوم نافعة ودروس شامخة، وكانت بدايته بقراءة القرآن ثم بقراءة العلم نحو العشر سنين بزاوية سيدي أحمد بن يحيى بناحية أقبو بلدية القبائل وكانت قراءته للقرآن أولاً برواية قالون وورش مفردين ثم بالجمع بينهما ثم قرأ بالبدور السبعة المسمات بالقراآت السبع، وهي قراءة نافع، والمكي، والبصري، والشامي، وعاصم، وحمزة، والكسائي، مع رواتهم.

(1) وهكذا يذكر عن نسوة تلك البقاع من الهمجية وخلع العذار ما تمجه الأسماع وتنكره الطباع أما الآن فلا يسمع عليهم إلا الاشتغال بالإذكار وتعلم ما ينفعهن كالفرائض والسنن وما يعود عليهن بالصيانة وحفظ المروءة وقد تركن والحمد لله جميع العوائد السيئة أرجو الله أن يجري ذلك في بقية البقاع التي لم تتمكن منها هاته النسبة.

أخذ ذلك عن الشيخ المرحوم السيد علي بن قاسة، وكان بحراً في العلوم الظاهرة معتكفاً على طاعة الله حتى توفي رضي الله عنه، وحفظ من المتون ما يزيد على الثلاثين متناً، كالأجرومية وألفية ابن ملك وإيساغوجي والسلم في المنطق والسمرقندية والجوهر المكنون في البلاغة ومتن خليل في الفقه والرحبية في الفرائض ولامية الأفعال في الصرف، ومتن الشاطبية في القراءات ومورد الظمآن في رسم القرآن للخراز والتبصرة للفاسي، والدرر اللوامع على قراءة نافع، ومتن السوسي في الفلك وغير ذلك.

وهذا مقام شريف ومنصب منيف.

لقد تعلم الجميع وعلم فيما ذكر من الفنون ما يزيد على عشر ختمات.

أما النحو فهو يزيد على خمسين ختمة.

ـ أعماله:

الشيخ الصديق أويحيى الوڤلاڤالي، تنجذب إليه القلوب ومما نراه من إخواننا ببلد القبائل كلما سألناهم عنه، يكادون يجمعون بأنه عالم جليل وجدير بأن يعد من الأفذاذ والرجال الصالحين الواصلين. لقد قضي مدة عمره وهو ينشر في العلم والمعرفة عبر المساجد الكبرى ومتنقلاً بين الزوايا، لقد أحيا الله به أرضاً كانت ميتة وأنعش قلوباً كانت للقساوة أنسب. وهذه شهادة الشهود من سكان الناحية فما أكثرهم.

ومما يروى عنه أنه قبل التعليم بقرية أدرار سيدي إدير. ولكن آن ذاك وقع شقاق وافتراق بين الصفوف، فكان المؤيد والمعارض، فقرر أحد الرجال المعارضين. إقناع الشيخ بالعدول عن ذلك. فسأله عن السبب.

فقال له الرجل: ـ أنا خائف من السكان بأن لا يوفوا بالعهد عندما يحين الوقت لدفع الأجرة المتفق عليها.

فأجابه الشيخ الصديق: ـ إذا كان هذا هو المبرر الوحيد: فهو غير كاف: اطمئن أنت وجماعتك على ذلك، لقد قررت أن أعلم عامين بدون أجرة.

فلما ذاع الخبر بالقرية دهش الجميع لهذا القرار، ومقابل هذا الفعل اتفقوا على التويزة في ممتلكات الشيخ في موسم الجني والقطف.

فلم تمض السنتان إلا وجمع الشمل وفضت الخلافات العشائرية التي كانت قبل مجيئه. فلما قرر الرحيل أبكاه الجميع وترجوه بأن يمكث عندهم طويلاً، ولكنه لم يتراجع عن قراره.

كما علَّم بإلماين (بجامع المجموعة)، ومما روي عنه من رفقائه وعامة الناس. أنه فسر البسملة في مدة ثلاثة أشهر كاملة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على غزارة علمه.

ومن الوثائق المادية التي ترشدنا إلى أن الشيخ حصل على موافقة من والي الولاية بقسنطينة لفتح زاوية لتعليم القرآن والدين بأمزيتة قرية سيدي مخلوف.

وفعلاً تم ذلك وعلم بها مدة طويلة فتخرج على يده علماء وفقهاء وأئمة مشهورون.

لقد عرف بالجد في العمل فكان يتعهد حدائقه بالغرس والشذب والسقي، فكلما فرغ من التدريس عرج لإتمام بقية الوقت في الحديقة والحقل.

كما أنه يحب الترحال والانتقال من مكان لآخر وهذا ما زاد في شهرته بين الناس.

إنه مفتي الديار بدون منازع في بلاد القبائل إلى أن عاصره الشيخ الملود الحافظي الأزهري عند عودته من مصر.

ومما روي عنه أنه حضر في مدينة بوسعادة إلى مشكلة فقهية أعجزت الفقهاء والعلماء بالنايحة. فتدخل وقضى بما قضى الإمام مالك. في معرفة الابن الحقيقي لكل امرأة بكل ذكاء وحكمة وتبصر. فأعجب الجميع بهذا الحل الذي أنهي الخلاف القائم بين المرأتين فيما يخص الابن الذكر الذي استبدل بالبنت.

لقد كان حنوناً عطوفاً على إخوته. وعلى عامة الناس حيث كان بيته مأوى

للفقراء والمحتاجين والمسافرين «بيت السبيل».

أما في مجانة دوار بورحلة بشعبة الحمرة أول عمل قام به عندما اشترى أرضاً فلاحية هو بناء مسجد، ووضع به معلماً لتعليم الصبيان القرآن الكريم، يتكفل بأجرته سنوياً، وهو مفتوح للعامة دون استثناء.

ـ التصوف:

ورد في كتاب الشهائد والفتاوى ص 119 في السطر السابع قول الشيخ الصديق ما يلي: «ومع هذا كله لم أنل ولم أستفد ما استفدته في أيام قليلة جداً مع هذا الأستاذ العظيم من الأسرار العجيبة والفوائد الغريبة مما لم يحسن التصريح به للعموم» إنه يشير إلى ما ورد عن علي كرم الله وجهه «حدثوا الناس بما يعرفون».

وذلك يدفع بنا إلى الاستشهاد بقول الشاعر:

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً. إن لم يروا فيه آثار إحسان.

إن شمائل الأستاذ المشار إليه في الحديث السابق لا تحصى وفضائله لا تستقصى ومريده منيب، لقد انتفع بسيرته القويمة وطريقه المستقيم.

هذه قناعة ذاتية، ليس لنا الحق في إنكارها، ما دامت عن دراية وعلم.

ـ وروى عن جماعة الموردين أن الشيخ بن عليوة المستغانمي، زار الناحية عام 1919 م. بطلب من السادة: ـ المرشد الجليل والصوفي النبيل الشيخ عبد الرحمان بوعزيز الجعفري، والسيد/ الشيخ محمد الصديق بن يحيى، والسيد/ الشريف الحسن.

ومن ذلك والأتباع في ازدياد.

لقد انبث بسبب هذا السيد/ أحمد بن علوية المستغانمي/ الحنان والشفقة وأنواع التكريمات بين الأفراد.

اقتطع من قول الشيخ محمد الصديق بن يحيى شهادة على الطريقة العلوية ما يلي:

«أن أغلب شباننا ونسائنا وبناتنا كانوا قبل الطريق لا يعرفون الصلاة، ولا

يذكرون الله ولا يخشونه، ولا تسمع من خيارهم إلا ما لا يرضي الله من قيل وقال. . . » لقد انتسخت القبائح بأضدادها والحمد لله على ذلك.

أرى أن الخصال العشرة المذكورة في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى قوله تعالى ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾. مطبقة في الطريقة العلوية. كانجذاب القلوب وإحيائها لدين الله وفتح باب الإحسان هو السبب المباشر لتلك القناعة.

كانت قرية تسمى بو مسعادة من دوار الجعافرة منذ عشرين سنة وهم في القتال فيما بينهم إلى أن بلغ عدد الأموات ست أو سبع رقاب وجاءهم قطاع طريق لم يسمعوا القائد ولا الحاكم ولا ولا . . . إلى أن وصل لقريتهم الشيخ بن عليوة المستغانمي في التاريخ السابق أي 1919 م. لقد شرع فيهم بالنصيحة والتأديب وبث فيهم الطريق المستقيم فتابوا جميعاً، وتراحموا وطابت أخوتهم ومن جملة الشواهد على الأمن والاستقرار آن ذاك، حيث نجد أن البعض له طرحة تين في وقته والزيتون عند جنيه، تبيت في فلاة وحدها بلا حارس، ولا يتعدى أحد على أحد، فالحرمات مصانة.

هذا سر من أسرار الطريقة التي اعتنقها الشيخ والمدرس الشهير الشيخ محمد الصديق بن يحيى الوفلاڤالي المايني.

إنه متصوف يتهجد الليل بتلاوة القرآن والذكر. دخل الخلوة بتاورميت (بوفنزار) بجعافرة ومكث فيها أياماً وليالي فكان فيها ما ترجاه من قبل.

فالمسألة عند أهل التقى تصفية باطنية وتنوير بصيرة. وما ترويه العامة عنه أنه رأى ليلة القدر وهو بالخلوة، ودون ذلك في وريقات تصل إلى السبعة. لكنها من كثرة تداولها وانتقالها من شخص لآخر اختفت ولم تظهر إلى الآن.

ـ عاش هذا الشيخ على حالة ربانية وسيرة نبوية اهتدى على يده الجمع الغفير وانتفع به الخلق الكثير، حسبما يشهد به أهل البلدة، لقد انتهت الناس على يده وصار معيناً على جلب العافية على الناحية. هذا غيض من فيض.

والخلاصة:

لقد كان محباً للفروسية، فربى الخيل وأفلح الأرض وتاجر وعلم بالمساجد والزوايا إلى أن وافته المنية عام 1940 أو 1941 م.

تغمده برحمته الواسعة بعد أن قضى في خدمته ما يقرب من أربعين سنة. بث التعاليم الشرعية والإرشادات الدينية في عدة بقاع كانت إبعد من أن يتناولها الإصلاح، ومن جملة وصاياه. طلب بأن يدفن بذراع بورحلة ببلدية مجانة وأن لا يبني قبره وأن تدفن بجانبه زوجته حتى لا يتعلق الأولاد والأحفاد بقبره وأن يتحول إلى مزارة للخلق.

وحث أولاده على العمل والنشاط وخدم الأرض بجد وعدم الرجوع للوراء.

قال: أنا أوصلتكم إلى هنا (مجانة) وأنتم إن استطعتم فسيروا إلى الأمام عملاً بقوله تعالى: ﴿فامشوا في مناكبها وكلـوا من رزقها ولله النشور﴾.

صدق الله العظيم

هذا ما قدرت على جمعه إلى حد الساعة.

وإلى مراسلة أخرى إن شاء الله[1].

---

(1) بطلب منا كتب هذه النبذة حفيده محمد أعراب بن محمد السعيد بن الشيخ محمد الصديق بن يحيى بوفليح. وهو مفتش ابتدائي في مدينة برج بوعريريج وولايتها. وشقيقه سالم بوفليح هو الذي تزوج بنتنا الحكيمة زكية بوعزيز.

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على نبيه الكريم

تاريخ زوايا الشيخ أمَحَمَّدْ بن حالة(1)

نبذة من حياته:

ولد الشيخ أمحمد بن حالة في إلماين سنة 1780 م، تقريباً، ولما بلغ أشده «رحمه الله» ذهب إلى زاوية (شلاطة) لآل بني علي الشريف لحفظ القرآن والتفقه في الدين واللغة، فبقي هناك مدة حتى حفظ القرآن رواية ورسماً، وأعطيت له إجازة تدريس، فدرس في نفس الزاوية في القراءة والفقه وعلوم اللغة، فبقي هناك ما شاء الله، ثم رجع إلى مسقط رأسه بإلماين، حيث تزوج هناك، ثم فكر في إنشاء زاوية مثل التي درس فيها لحفظ القرآن وتدريس الفقه واللغة ووقع اختياره على قطعة أرض بين جبلين تدعى «عشابو» واختار لها اسماً آخر فدعاها «المزين» فبنى هناك مسجداً لا زالت بقايا أثره إلى الآن وداراً لسكناه ولطلبته، معتمداً في معيشته ومعيشة طلبته على الأراضي التي استصلحها في تلك المنطقة واشتهرت في أنحاء كثيرة منها ما هو قريب، كبني ورثيلان، وبني يعلي، ومنها ما هو بعيد كالمسيلة، والمعاضيد، وبني مروان (بالعلمة)، حتى بلغ عدد طلبته ما بين ثمانين ومائة طالب، وبدأت تأتي إليه الوفود للاستشارة والإفتاء في المسائل الفقهية ـ أو الصلح بين المتخاصمين من الفرد والعشائر. ومن هذه الوفود وفد (الدهامشة) بدائرة عين الكبيرة ولاية سطيف

(1) أعد لنا هذه الخلاصة السيد المكي بن حالة بطلب منا.

حالياً، يتألف الوفد من طلبته وبعض الأعيان من نفس العرش طالبين منه أن يبني لهم زاوية لحفظ القرآن وتدريس الفقه واللغة. فاستجاب لطلبهم، وبنى لهم زاوية من مالـه الخاص وقد حبسوا عليها أراضي كثيرة من خيرة أراضيهم تعد بمئات الهكتارات، وقد اتسعت هذه الزاوية لكثرة الوافدين عليها من تلك الأنحاء وغيرها من النواحي وكان هو الذي يشرف عليها، كما أنه يقوم بالصلح بين العشائر والأعراش. حتى ذاع صيته فسمع به باي قسنطينة واستدعي من طرف هذا الأخير بعدما وصلته فتواه وكتاباته للصلح بين الفرق المتعادية في ذلك الوقت فاستجاب لنداء الباي فذهب إلى قسنطينة فعرض عليه الباي وظيفة من الوظائف الدينية فأبى معتذراً وقائلاً: «من للزوايا التي أنشأتها» وألح عليه كثيراً حتى وصل به الأمر والحال أن صاهره، حيث تصدق عليه بإحدى نساء عائلته ليتخذها كزوجة له، وهي بالفعل مدفونة (بعشابو) المذكور سابقاً. وقبرها معروف عند العائلة إلى حد الآن، فبقي عنده (أي الباي) مدة هو وزوجته ثم أطلق سراح الشيخ منصتاً لحججه التي قدمها لرفض المنصب الذي أسند إليه، فرجع إلى «الدهامشة» بعين الكبيرة واستمر في تدريس القرآن للحفظ والشرح والقراءات حتى كبر أحد أبنائه المسمى: محمد الشريف، الذي تعلم عليه العلوم اللغوية والفقهية وكان هذا الابن حاد الذكاء وكثير الحفظ حتى وصل أن فاق أباه في علوم وقته. لكثرة مطالعة الكتب الموجودة آنذاك عند أبيه الذي اشتغل بتعليم طلبته. ولم تتح له الفرصة كما أتيحت لابنه المذكور. - فبقي على هذه الحال يعلم ويربي إلى أن داست أقدام المستعمر أرض الوطن، فظهر الأمير عبد القادر بغرب الوطن بثورته الشعبية التي اندفع إليها دفعاً، وكانت مراسلات بينه وبين الأمير وبين أحد قادته يستحثونه على الدخول معهم لمحاربة الاستعمار مشيدين بالانتصارات التي أحرزوها والأحرار الذين ساندوهم في أرض الوطن ضد الدخيل. فما كان منه إلى أن أرسل ابنه محمد الشريف إلى الأمير فالتجأ هو (أعني الشيخ أمحمد بن حالة) إلى الأوراس وبالضبط إلى قرية (إشمول) وكانت قرية محصنة فأنشأ هناك زاوية ثالثة يعلم أهل تلك الناحية ومن التحقـق كذلك بزاويته ولا ندري بالضبط كم بقي بتلك الناحية ولكنها في الغالب ليست بقصيرة.

وكان الاستعمار قد وصل في توسعاته إلى سطيف وضواحيها، وبالفعل وصل إلى عين الكبيرة فوجد الزاوية لا زالت عامرة فسأل عن منشئها فأخبر من طرف أهاليها، وقد نبأ سابقاً من طرف جواسيسه بأن ضابطاً في جيش الأمير يدعى محمد الشريف بن حالة فسألوا أهل تلك الناحية من يكون هذا الضابط بالنسبة لمنشأ الزاوية. فلما أخبروه اغتصبوا أراضي الزاوية كلها وهي ما ينيف على سبعمائة (700) هكتار، ولما هدأت الحال بعض الشيء واستتب الأمر للاستعمار ذهبت جماعة من أعيان العرش إلى الضابط المسؤول هناك راجين منه أن يترك لهم الأراضي التي حول الزاوية. وهي ما يقرب من أربعين (40) هكتاراً وأجيب رجاؤهم بالقبول. وأعيدت لهم الأراضي التي حول الزاوية، ولما استتب الأمن ذهب أصحاب وأعيان تلك الناحية إلى الشيخ أمحمد بن حالة باشمول في الأوراس فأرجعوه إلى زاويته بالدهامشة بعدما ضمنوا له عدم المساس بشخصيته من المسؤولين عندهم، فمكث هناك حتى انتهى كفاح الأمير الذي دامت حربه 17 عاماً كما هو معروف، ورجع ابنه محمد الشريف سالماً معافى فاستخلفه الشيخ أمحمد بن حالة في الزاوية ورجع هو إلى زاويته (بعشابو) مع كل أفراد عائلته. أما الابن فمكث هناك بالدهامشة مشتغلاً بالتدريس حتى توفي هناك، وبقيت أراضي الزاوية وهي 40 هكتاراً تستغلها زاوية (عشابوا).

لما توفي محمد الشريف بقيت الزاوية تستغل تحت إشراف ابنيه الحاجين: الشيخ يحيى، والشيخ لحسن، وبعد وفاتهما تولاها الإخوان الشيخ الطاهر، والشيخ الزروق، ثم نقلها الشيخ الزروق إلى مكان يسمى (بالعزيب) على ضفة واد محجر ولا زالت أثرها هناك كما نقل سكناه إلى ذلك المكان. وفي هذا المكان بلغ عمرانها أوجّه، إذ بلغ عدد الطلبة 220 طالباً ولهم ثلاثة أساتذة أحدهم لحفظ القرآن وإملائه، والآخر للقراءات والأخير لدراسة اللغة والفقه، ومن جديد حولها الشيخ الزروق إلى (زرعة) لما انتقل بسكناه إلى هناك. وبعد وفاته رحمه الله في سنة 1943. بل قبل وفاته رحمه الله قسم أملاكه على أولاده التسعة وأعطى ما يقرب من الربع من أملاكه للزاوية حبسه بعقود

شرعية ورسمية عند موثقي العقود بمحكمة المنصورة وأنا الذي سلمت هذه العقود والتنازلات لوزارة الأوقاف وذلك بعد الاستقلال طبعاً وكان ربع أملاك الزاوية تقدم الإعانات إلى الزوايا الحرة إن طلبت الإعانة.

وحين أنشأ الشيخ عبد الرحمن بوعزيز زاويته بالجعافرة وبالضبط (ببوفنزار) عرضت عليه إعانات من طرف العائلة كما عرضت على الزوايا الأخرى مثل زاوية سيدي عبد القادر بتفرق، وزاوية تمقرة المشهورة وقبلتا الإعانة أما الشيخ عبد الرَّحمان فقال إني تابع إلى مستغانم، وقد عرض علي في نفس الوقت من مستغانم أن أنشأ زاوية ببرج بوعريريج وبالفعل لا زالت هذه الزاوية باسمه وبعقود رسمية.

ملاحظات:

المراسلات بين الأمير عبد القادر والشيخ أمحمد بن حالة وابنه وكذلك مراسلات الشيخ مع ابنه حينما كان بالدهامشة كانت في المكتبة العامة بدار المزرعة. وفي 1956 خلال تمشيط الناحية الذي قاده الجنرال (دوفور). فأحرقت جل المجلدات والمخطوطات بما فيها المستندات والرسائل منها رسائل الشيخ مع الأمير وضباطه ومع ابنه. وقد اطلعت عليها أنا بنفسي والله على ما أقول شهيد، وما بقي من كتب ومستندات والرسائل فقد نهبت، كما نهبت مكتبه الشيخ الطاهر (أخيه) بإيغيل أُوفَلَّة. فقد نهبت وكانت فيها مخطوطات قيمة وقديمة مثل مكتبة أخيه الزروق.

من أخيكم، المكي بن حاله

برج بوعريريج

في 26 أكتوبر 1986

الموافق لـ: 26 ربيع الأول 1409 هجرية.

نبذة عن حياة الشيخ الطاهر بن حالة

ولد الشيخ الطاهر بن حالة حوالي عام 1860 م بقرية عشابو السفلي التابعة لبلدية إلماين، بدائرة الجعافرة حالياً، من ولاية برج بوعريريج حالياً كذلك. حفظ القرآن الكريم على والده يحيى، وتعلم عنه علم القراءات، وبعض علوم الفقه واللّغة، والتاريخ والحديث. ثم انتقل إلى زاوية آل حمودي في أُلْمُوثَنْ ببني ورتلان، وتتلمذ على علمائها، وعلماء آل الشيخ الحسين الورثلاني. وبعد أن استكمل ما عندهم من علوم ومعارف، انتقل إلى مدينة قسنطينة ليستزيد من علمائها كذلك، ولينشر علمه، فجلس إلى حلقات علمائها، ودرَّس هو نفسه في مساجدها، وكان من بين زملائه، الشيخ حمدان لونيسي شيخ وأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس.

ومن قسنطينة عاد إلى مسقط رأسه، وتفرغ للتدريس في زاوية أبيه واشترط على طلبته أن يكونوا من حفظة القرآن الكريم. ومن بينهم: ولداه: الحسين، وعبد الرحمن، وأخوه الشيخ الزروق، وأخته الزينة، وابن أخيه زين العابدين، وعبد القادر بن حالة، والد الشهيد: الشيخ علي بن حالة، والشيخ شيروف من فجّ مزالة الذي حدثنا بنفسه عن ذلك عام 1956[1]. وقد استشهد في إحدى المعتقلات خلال الثورة. والسيد لڤدر محمد أُومُوسَى[2] وغيرهم كثيرون.

وبعد مدة ترك التدريس، ولحق بجده محمد بن حالة في قرية: الشمرة بالأوراس، ولكن أخاه الشيخ الزروق، لحق به وأعاده إلى الزاوية ليواصل تدريسه على نفقته الخاصة. وكانت له مكتبة هامة. وسجل عدة تعاليق على حواشي كثير من المخطوطات، مما يدل على تضلعه في العلوم والمعارف.

---

(1) أعد لنا هذه الخلاصة الأستاذ الفاضل محمد السعيد بن الرشيد بن حالة: بطلب منا في مدينة برج بوعريريج أين يقطن. وأعدنا صياغتها، وتلخيصها.

(2) السيد لڤدر محمد، من مواليد قريتنا مزرراق، وعاش أكثر من قرن وتوفي خلال عقد الثمانينات من هذا القرن، وهو الذي حكى لنا بأنه تتلمذ على الشيخ الطاهر بن حالة.

وفي أخريات حياته توقف عن التدريس، وتصوف، وسلك طريق المتصوفين في التعبد، والزهد، والابتعاد عن شؤون الدنيا، حتى توفي حوالي عام 1928. ودفن في قرية أعشابو. وبنيت عليه قبة وضريح لمكانته الدينية والعلمية، ما تزال قائمة حتى اليوم.

وخلال الثورة المسلحة وبالذات عام 1956 تم اغتيال عدد من أفراد أسرة أولاد بن حالة التي توارثت منصب قيادة عرش إلماين. وقام المدعو الطاهر بن الشريف بن الموهوب من قرية مزرراق، بسلب ضريح الشيخ الطاهر بن حالة، وأخذ الألبسة الموجودة به على التابوت، ونزع حتى الآجر الملون الذي يغطي القبر وأخذه إلى منزله. وهو عمل لئيم لا يقوم به إلاّ من ليس له أخلاق، وهذا الشخص لبس حركياً على كل حال، وحارب الثورة. وانكشف أمره وقد حدثني بهذا السيد عبد القادر بن حالة أحد سكان قرية عشابو، بعد استعادة الاستقلال عام 1962، وذلك خلال عقد الستينات. وقد توفي هذا الشخص الآن، ولكن المرارة كانت تملأ قلبه وهو يحدثني ويحكي القصة في متجر أخي الشيخ النذير بوعزيز بشارع قسنطينة رقم 20 من مدينة وهران.

موجز حياة الشيخ زين العابدين بن حالة

ولد الشيخ زين العابدين بن الشيخ الزروق بن حالة في قرية عشابو السفلى عام 1886 م حفظ القرآن الكريم على أبيه كما تلقى عنه مبادىء اللغة والعلوم العربية، والفقه. ثم تتلمذ على عمه الشيخ الطاهر، حتى أجازه، وأذن له بالتدريس للطلبة. ومن بين تلاميذه، أبناء عمومته: محمد السعيد، وعبد العالي، وأخواه: محمد الطاهر، وعبد السلام، والسيد عبد الكريم أكثوف من بني يعلي، الذي ما يزال حياً، ويدرس في مدينة الجزائر العاصمة.

وقد ورث عن أبيه الشيخ الزروق مكتبة هائلة تحوي مخطوطات نادرة

وشجرات الأنساب، كما تحوي مجموعة كبيرة من الرسائل المتبادلة بين رجالات العائلة والعلماء داخل الوطن وخارجه. وكان الشيخ زين العابدين دمث الأخلاق متواضعاً، محباً للعلم والعلماء، رغم كونه كان يتولى منصب قائد دوار إلماين الذي ورثه عن أبيه. وعندما تقاعد عنه أواخر الأربعينات احتله أخوه الشيخ المكي الذي ما يزال حياً، وقد سلم من وظيفته عندما طلبت جبهة التحرير الوطني من كل الموظفين الجزائريين أن يتخلوا عن وظائفهم في إطار مقاومـة الاستعمار. وفي عام 1956 اعتقلت جبهة التحرير الشيخ زين العابدين وأعدمته بدعوى أنه سلّم مجموعة من البنادق إلى المصاليين. وأعدمت معه شقيقيه: إبـراهيم. والنصير. وشن الجيش الفرنسي حملة عسكرية كبرى على المنطقة في نفس العام بقيادة الجنرال فور، وقنبل مختلف القرى، ومنها قرية زرعة مقر عائلة زين العابدين وأولاد حالة وتم إتلاف مكتبته، وبعثرتها، وحكى لي المجاهد الشيخ الصالح وشام بان طائرات الهيليكوبتر تحمل معها مجموعة من الكتب والمخطوطات وترميها من الهواء. وكان ذلك خسارة كبرى للفكر والثقافة، والمعرفة، والتراث. بصفة عامة. وأرغم السكان الأحياء على الهجرة إلى قرية بني حافظ. وللتاريخ أسجل هنا أن الشيخ زين العابدين بن حالة، هذا رجل فاضل، وتقي، وورع، يحترم العلم والعلماء، وكان يقدر والدي الحاج عبد الرحمن بوعزيز غاية التقدير، ويدافع عليه تجاه السلطات الاستعمارية. كما كان يتدخل باستمرار عندما تحاول هذه السلطات منع عودتي إلى تونس للدارسة، وقد زرته عدة مرات إلى منزله خاصة خلال مواسم الأعيان الدينية وكذلك والدي كان يزوره مع كبار القرية. ويلح على المتخاصمين في العرش أن يحضروا إلى والدي للفصل في مشاكلهم حسب الشرع الإسلامي، ويرضوا بحكمه ولا يذهبوا للمحاكم الفرنسية. وهي وطنية كاملة وعالية لا يتصف بها من أخلص في خدمة المعمر.

المجاهد الشهيد الشيخ علي أوحَالّة (بن حالة)

من مواليد قرية أولاد حالة بجوار الوادي الذي يحمل نفس الاسم على الحافة اليسرى منه، تعلم في زاوية الوالد بالجعافرة في منتصف عقد الثلاثينات وكان ذكياً ونشيطاً، يتصف بالحيوية، والرغبة في الإصلاح، ورغم أنه كان ينتمي لعائلة بن حالة التي تتولى منصب القيادة منذ عام 1871 م، إلا أنه كان يميل بعواطفه إلى الحركة الوطنية، ويرتبط بها وهو ما جعل العائلة التي ينتمي إليها وخاصة القياد منهم لا يرتاحون له، ولا يطمئنون لسلوكه، واتجاهاته الوطنية.

علَّم في قريته عدة سنوات، وعندما اندلعت الثورة المباركة في أول نوفمبر 1954 كان من الأوائل الذين انضموا إليها، وتجند، وترقى حتى وصل إلى رتبة ضابط، وعارض تصرفات أفراد أسرته الذين، لم يكونوا يميلون إلى الثورة، وساعد على عقابهم وعلى قتل البعض منهم، وقد تخصص في فك الألغام التي تسقطها الطائرات واستخراج ما بها من مادة البارود، وقطع التفجير، وفي وضع الألغام التي تستعمل لنسف الجسور، والقطارات، وطرق السكة الحديدية، ومحلات رجال الاستعمار.

ويذكر الشيخ عبد الحفيظ أمقران أن كل القطارات التي تم نسفها عبر طريق البيبان ما بين الجزائر وقسنطينة، تمت بعمله وتحت إشرافه، وقد واصل عمله حتى عام 1957، ومعه زوجته التي يبحث عنها الاستعمار كذلك، وتعرض لأزمة، واستشهد عام 1958، وخلف زوجته مع ابن صغير ما يزال حياً، وهاجر إلى فرنسا، واستقر هناك، وتزوج مع امرأة مغربية وقابلته هنا لدى منزل ابن عمي أبْعَازّيَ المولود، في حدود 1978 أو 1979 م، بالحي الذي يعرف بمؤدون: Meudon ويشتغل طباخاً في مطعم، ويدعى البشير بن حالة.

مسجد ومعمرة قرية فريحة

ببني ورثلان وشيوخهما

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

الحمد لله بذكره تطمئن القلوب، وبطاعته تغتفر الذنوب، وبعظمته تفرج الكروب، وبرحمته تستر العيوب.

أما بعد أيها السادة الأعزاء، ضيوفنا الكرام، يسرني باسمي الخاص، وباسم سكان هذه القرية أن أرحب بكم في هذا اليوم المبارك الذي تستعيد فيه قريتنا ذكرى أمجادها أيام كانت قبلة لطلاب العلم والمعرفة، وحصناً منيعاً لكيد الأعداء الذين حاولوا طمس معالم حضارتنا الإسلامية، وزيارتكم هذه ستكون إن شاء الله فاتحة عهد لإحياء التراث المجيد الموروث عن السلف الصالح، والمتمثل في هذا المسجد العتيق الذي كان مركز إشعاع ونور وهداية بالمنطقة.

وقد أسسه العالم الجليل والرجل المصلح سيدي يحيى أوموسى في القرن التاسع الهجري «15 م» وسماه: زاوية سيدي يحيى أوموسى، وتوافد عليه الطلبة من كل ناحية لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادىء العلوم الدينية واللغوية، وكان عدد الطلبة في البداية ثلاثين طالباً، أو أكثر، وهم يستفيدون من النظام الداخلي.

وهذه المعلومات مستقاة من كبار رجال القرية وشيوخها، وقد تخرج منها عدد لا يستهان به من حفظة القرآن الكريم، ورجال الفكر.

---

(1) تسلمت هذه الكلمة من الشيخ بلقاسم بن حمة بقرية فريحة نفسها وأمام المسجد يوم 12 مارس 1989 خلال زيارتنا للمسجد والزاوية بمناسبة إحياء الذكرى الثلاثين لوفاة العالم الشيخ الفضيل الورثلاني، وقد ألقاها في حفل اللقاء، ونظراً للمعلومات الثقافية المهمة رأينا إدراجها هنا في هذا القسم لأنها من صميم الموضوع.

1 ـ أما الشيوخ الذين كانوا يشرفون على الزاوية والتدريس فيها فهم على التوالي: الشيخ عبدالله بن زمران، والشيخ الفضيل آيت أعراب، والشيخ الخيضر، والشيخ أحمد بن حمة، والشيخ بوعزيز تيزراري، والشيخ مزيان بوزرارة، والشيخ الموهوب نايت شعبان، والشيخ علي بشاخ، والشيخ الطاهر بن زمران، والشيخ الشريف إيزمران، والشيخ الصالح، إيزمران، وهم من القرية المذكورة، ومختصون في الشريعة، والعلوم الدينية واللغوية، والفتوى، والإصلاح بين النّاس.

2 ـ وأما معلمو القرآن الكريم فنذكر منهم:

الشيخ أعمر إيزمران، والشيخ السعيد بن حمة، والشيخ محمد وعلي بن زمران، والشيخ المختار نايت شعبان، والشيخ محمد أرزقي بليط، والشيخ محمد أرزقي بن زرة، والشيخ عبدالله أمليل، والشيخ عبدالله آيت أعراب، والشيخ الصديق بن طالبي، والشيخ الطاهر أرزه، والشيخ السعيد بن شيكر، والشيخ أعمر بن زقور. والشيخ يحيى بن زمران، والشيخ محمد الصغير بوثمن، والشيخ محمد أكلي بوزرارة، والشيخ محمد الطاهر تواتي، والشيخ محمد أكلي بن حمام، والشيخ الرشيد تواتي، والشيخ أعمر آيت حمودي، وغيرهم كثيرون ممن انتشروا في أنحاء مختلفة من مدن وقرى، ساهموا كلهم في تحفيظ القرآن ونشر علوم الدين واللغة، وطلابهم إليهم كثيرون لهم مناصب محترمة في البلاد.

أيها الأخوة الكرام بهذه المناسبة لا بد أن نقف وقفة إجلال وخشوع أمام أرواح شهدائنا الأبرار، ونخص بالذكر شهيد الكلمة والحرية في الثورة المباركة، الشيخ لحسن بن حمة المعروف بالشيخ لحسن أُولْعَرْبي مؤسس المدرسة الحديثة لهذه القرية المسماة: مدرسة الهدى، والتي كانت تابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو من مواليد 1920 بنفس القرية، تربى وترعرع فيها، وحفظ القرآن العظيم وجوّده على أبيه سي محمد أُولْعَرْبي، وانتقل إلى زاوية الشيخ بن سحنون ببني وغليس، طلباً للعلم والمعرفة، وبعد ثلاث

سنوات انتقل إلى دار الشيخ محمد أرزقي الشَّبَّانِي، فرتبه وأتم له دروسه لمدة سنة، ثم رجع إلى مسقط رأسه وانتقل ثانية إلى قرية بني حافظ لإتمام دراسته على يد الشيخ المولود الحافظي، ومكث بها عاماً كاملاً، فنال جائزته، ومن ثم استدعي للتجنيد الإجباري من طرف القوات الفرنسية، وذهب إلى الجزائر والتحق بالتعليم في مدرسة سانت أوجان مع الشيخ أحمد سحنون داخل نظام جمعية العلماء، ثم تحول إلى مدرسة باسكال ببوزريعة، فدعاه أهل القرية للتعليم بالمسجد لما تأسست مدرسة جمعية العلماء «الهدى» فلبى رغبتهم وشرع في العمل بجد وإخلاص لتبليغ رسالته العلمية لإعداد جيل المستقبل.

ولما اندلعت الثورة عام 1954 كان من السباقين والداعين إلى الالتحاق بالجبهة عام 1956، فناضل وجاهد في صفوف الجيش حتى وافته المنية في أواخر عام 1956 ببني يَجَّر رحمه الله ورحم شهدائنا الأبرار.

وختاماً أيها الحاضرون أوجه كلمة قصيرة إلى شبابنا، أيها الشباب، قوموا لخدم بلدكم، واعملوا لصالح مستقبلكم، كي تستفيدوا وتفيدوا، وكونوا خير خلف، لخير سلف، وتذكروا أياماً خالدة، وأعياداً مجيدة تروي لنا قصص أبطالنا ورجال نهضتنا أمثال: الشيخ الفضيل الورثلاني، والشيخ لحسن، وغيرهما ممن تقدم ذكرهم، ولا ننسى رجال الفكر وقادتهم مثل الشيخ عبد الحميد بن باديس، والإبراهيمي، والشيخ العربي التبسي رحمهم الله وطيب ثراهم، لقد جاهدوا بعلمهم وعملهم، وبأرواحهم وأموالهم، في سبيل عزتكم ورفاهيتكم، وازدهاركم وإليكم هذه الأبيات:

فيا أيها الشباب سيروا إلى العلا   بعلم وأخلاق فلا تتهوروا
فسيروا حثيثاً واستنيروا لحكمه   وشقوا طريق العلم والدين تظفروا
سلام عليكم كالشذى متعطر   ودمتم جنود الله والله أكبر

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ بلقاسم بن حمة ابن الشريف

الشيخ مُحَمَّدْ وَعلِي وَالطَّيَب

من مواليد قرية أولاد سيدي يذير قرب قرية إلماين، أواخر القرن الماضي، أو مطلع القرن الحالي، وينحدر من عائلة آيت الطيب التي أنجبت عدداً من المثقفين والعلماء. حفظ القرآن في مسقط رأسه، ودرس وتعلم مختلف المواد والعلوم العربية الدينية، واللغوية خاصة مادة الفقه الإسلامي، والفرائض، والتركات، وتصدى بعد ذلك للتعليم والتدريس، والإفتاء في عدة قرى بالمنطقة، وعين إماماً وخطيب للجمعة في المسجد الكبير بقرية إلماين بعد استعادة الاستقلال الوطني عام 1962 م.

ومن المناسب هنا أن نفسح المجال للشيخ عبدالله شرِع الله، ليدلي بشهادته ومعلوماته عنه، كما أرسلها إلينا في رسالته المشار إليها آنفاً بتاريخ 13 ماي 1989 م، وهي مهمة جداً قال حفظهُ الله: «الشيخ محمد وعلي بن الطيب بن محمد الطاهر، كنيته مداغ، واسمه الشيخ محمد وَعْلي، فقيه وأديب، له مشاركة في مجموع العلوم سمعت منه قال: أنه درس مختصر خليل في زاوية الشيخ السعيد بن الأطرش، وسنه خمسة عشر عاماً، وتعلم في مسجد قريته أولاد سيدي يذير، ومن معلميه: الشيخ الفقيه العربي بن حمودة، قاضي بومزراق المقراني، ودرس على شيوخ وعلماء قريته شتى الفنون والعلوم، وحضر دروساً على الشيخ المولود الحافظي حين كان إماماً في قرية عباد الشريف، وحضر على الشيخ أستاذه وأستاذنا الشيخ أحمد العلوي، دروساً في الفقه، والنحو، والمنطق، هكذا سمعت منه، رحمه الله. وأما أبوه الشيخ محمد الطاهر فكان يحفظ الشيخ الدردير شرح مختصر خليل، وشرح الشيخ خالد

الأزهري على الأجرومية، وأما جده الشيخ وعلي لا أدري هل جده الأعلى أم الأدنى فقد أجيز إجازين من الشيخ مرتضى الزبيدي، شارح القاموس، إجازة في العلم، وإجازة على طريق التصوف، هكذا قال لي، ويتصل نسبه بالشيخ بوزيدي رضي الله، وهو رحمه الله تقي زاهد متعبد، وينتسب روحياً إلى الشيخ الدرقاوي، عند ظهور الطريقة العلوية انتسب إلى الشيخ أحمد العلوي، كان رحمه الله كاتباً وخطيباً، ومفتياً، ومن أقطاب الطريقة العلوية.

هذا ما استحضرته وفيه الكفاية، وهو معطوب حرب التحرير، وأما ازدياده ووفاته فاسأل عن ذلك بلديه إِلْمَايَن.

وكان فقير الحال كباقي سكان المنطقة، ويعتمد في معاشه على الإفتاء والتعليم في القرى وكان صديقاً للوالد يزوره مرة على مرة، وكان مع الوالد في الوفد الذي ذهب لزيارة الشيخ المولود الحافظي الأزهري في بني حافظ، بعد الحرب العالمية الثانية وكنت أنا، والشيخ عبدالله أُوشَرْعَ اللَّهَ معهما، ولم نحظ برؤيته لأنه كان مريضاً جداً، وذلك في حدود 1947 على ما أعتقد، وللشيخ محمد وعلي والطيب ابنان هما: جعفر، وعباس، درسا في زاوية الوالد بالجعافرة، وتوفي الأول في وقت مبكر وما يزال عباس حياً يقطن بالعاصمة، وتقاعد من التعليم.

عاش الشيخ محمد وعلي والطيب قسماً من سنوات الثورة لدى ابنه عباس بالعاصمة وبعد عام 1962 عاد إلى قريته واستقر بها ليواصل مهمة الإفتاء إلى أن توفي في ديسمبر 1970 م.

والشيء بالشيء يذكر، فإن والدي عندما صحبني معه لزيارة الشيخ المولود الحافظي الأزهري، كان ينوي أن يودعني لديه لأتعلم على غرار باقي الطلبة، ولما لم نتمكن من مقابلته، وعدنا، قرر أن يأخذني إلى زاوية الشيخ بلحملاوي بالعثمانية التي كانت تقوم بنشاط ثقافي واسع بزعامة شيخها عمر، وصحبنا في هذه الرحلة السيد الفاضل المولود أُوزَايَدْ، صديق الوالد من قرية الزخالين. وعندما نزلنا من القطار، وشرعنا في الاتجاه إلى الزاوية عدل الوالد

عن رأيه وقرر أن يأخذني إلى معهد الكتانية الذي تشرف عليه الزاوية الحملاوية بقسنطينة وذلك خلال شهر أكتوبر 1947، وفعلاً سجلت في السنة الأولى، واجتزت الامتحان، ثم إن صديقاً للوالد يدعى الشيخ حسن البسكري يتولى وظيفة الكاتب في المعهد، إلى جانب الشيخ المولود الحافظي، أشار عليه بأن يأخذني إلى عنابة لدى الشيخ الحاج حسن الطرابلسي لأستفيد أكثر فأخذ برأيه ونقلني إلى عنابة حيث بقيت هناك ثلاث سنوات قبل أن التحق بتونس في أكتوبر 1949.

الشيخ المولود بن الصديق السحابي الحافظي

ولد عام 1880 بقرية بني حافظ دوار عين لقراج بين بني يعلى، وبني ورتلان. وحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه وتعلم مبادىء اللغة والقواعد العربية، والفقه والتوحيد، والمنطق. وقبيل الحرب العالمية الأولى غادر الجزائر إلى تونس، ثم مصر، والتحق بالأزهر الشريف، وبقي به حوالي عشرين عاماً، حتى تحصل على الشهادة العالمية، ونبغ بصفة خاصة في مواد الرياضيات، وعلم الفلك، إلى جانب المواد الفقهية والأدبية.

وفي أواخر عقد العشرينات عاد إلى الوطن، واستقر بمسقط رأسه بني حافظ، وتصدى للتعليم والتدريس وشارك في تأسيس جمعية العلماء ثم انسلخ عنها وانضم إلى جمعية علماء السنة المعارضة لها، والمدعمة من الدوائر الاستعمارية ويقال بأن الباشاغا أو رابح له دخل في فصله عن جمعية العلماء بضغط من الإدارة الاستعمارية.

وقد التف حوله طلبة العلم من كل جهة، فرتبهم بمساعدة أثرياء الجهة

ودأب على كتابة المقالات في مختلف الجرائد التي كانت تصدر آنذاك ومنها: الشهاب والبلاغ الجزائري، والنجاح. وأسس هو أيضاً جريدة الإخلاص ولا ندري كم عمرت؟ وكم من عدد صدر منها؟ وأين؟ ومتى؟ وكانت له شهرة خاصة في علم مادة الفلك بحيث كان مرجعاً فيها خاصة فيما يتصل بالأهلة، والجداول الحسابية، والكسوف والخسوف. كما كانت له شهرة في فصل الخصومات بين الناس.

ومن بني حافظ انتقل إلى زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي بجرجرة، وعلم فيها مدة لا ندري مدتها، وانتفع به جمهور كبير من طلبة العلم.

ثم انتقل إلى زاوية الشيخ عبد الرحمن بلحملاوي بالعثمانية غرب مدينة قسنطينة، وتولى التدريس هناك إلى جانب بعض علماء الزيتونة كالشيخ الهادي حَمُّو، وغيره، واستفاد منه الطلبة، وكرمه صاحب الزاوية الذي كان يحاول أن ينافس نشاط جمعية العلماء على الأقل في حقل التربية والتعليم، وعينه مشرفاً على تنظيم الدروس والحركة العلمية بصفة عامة على أسس حديثة، فحاول أن ينظم الامتحانات ويحدد المستويات، ومواد الدراسة، وأوقات التدريس، واستمر في هذا العمل طوال سنوات الحرب العالمية الثانية، وهناك بدأت صحته تعتل.

وبعد الحرب انتدبه الشيخ عمر بلحملاوي ليشرف على معهد الكتانية بمدينة قسنطينة الذي أسسه عام 1947 كمنافس لمعهد ابن باديس كذلك فالتحق به وأشرف على افتتاحه وتنظيم الدراسة فيه، ولكن صحته اعتلت وتدهورت وأصيب بنوع من الشلل الجزئي، والغثيان، فعاد إلى مسقط رأسه.

وتوفي يوم 26 فيفري 1948 م عن عمر يناهز 68 عاماً، وترك مكتبة هامة عبثت بها الأيدي، وخلف ولدين اثنين ما يزالان على قيد الحياة: الصديق، والعربي، وخمس بنات ما يزال أربعة منهن على قيد الحياة، كما ترك آثاراً فكرية وأدبية مهمة منشورة في الجرائد والمجلات. ولعل بعض المخطوطات لم تنشر، كما يشير إلى ذلك الشيخ عبدالله شرع الله في شهادته التالية: ومن أبرز

تلاميذه: الشيخ السعيد اليجري، والشيخ الصديق أيت يحيى، والشيخ عبد القادر بن الزيتوني، والشيخ محمد وَعْلي مداغ بن الطيب، والشيخ عبدالله الشلحابي، والشيخ محمد السعيد الحافظي.

ولنفتح المجال للشيخ عبدالله شرع الله ليدلي بشهادته ومعلوماته عنه كذلك، فهي مهمة وفيها جديد: قال حفظه الله «والشيخ المولود بن الصديق الحافظي الأزهري، هكذا عرف في الجرائد، والكتب، قرأ القرآن في بني حافظ مسقط رأسه، ثم توجه إلى تونس، ومكث فيها ما شاء الله، ثم سافر إلى القاهرة، والتحق بالجامع الأزهر كطالب للعلم، واجتهد حتى فاق أقرانه، خاصة في الرياضيات، وعلم الفلك، واعترف به ذووا الفنون من أوروبا، أقام في مصر خمسة وعشرين سنة، على ما قيل، ورجع إلى الوطن بعد ألف وتسعمائة وثمانية عشر بالتحري.

وسبب خروجه من مصر أن وزير الأوقاف المصري أجحَف في حق الطلبة المغاربة فيما يخص حصتهم من الأوقاف فقدموا عليهم الشيخ المولود ليدافع عنهم أمام العدالة المصرية التي أنصفتهم واضطر الوزير المصري أن يتوسط ببعض رفاق الشيخ المولود من المغاربة والمصريين، وتم تسوية الوضع، وخصص قسم من مدخول رواق المغاربة إلى الطلبة المغاربة، وحسم الأمر، ولكن الوزير بقي يحقد على الشيخ المولود، وسعى لدى السلطات الإنجليزية الحاكمة، فدبرت له مكيدة، وأمرته بمغادرة مصر هكذا بلغني.

«وله تآليف عديدة، لا أعرف، أسماءها الا اثنين هما: كتاب يسمي السبع الشداد، والآخر الربع المجيب. يكيل به الطول، والعرض والغمق، والمسافة إلى آخره، صورته هكذا تقريباً، وما يزال موجوداً عند بعض الطلبة الذين قرؤوا عليه جميع مؤلفاته وكتبه، له خزانة كتب كبيرة أكلتها النار في حرب التحرير، كان رحمه الله من كتاب جريدة البلاغ الجزائري ضد فرحات عباس، وفيوليت، في مسألة الاندماج.

كانت الإدارة الفرنسية تتحفظ منه وتتحذر، وفي الأعوام الأخيرة فرضت

عليه فرنسا الإقامة في الجزائر، وفرضت عليه أيضاً أن يتكلم في الإذاعة، ولكن في أي موضوع شاء.

وسمعت من بعض الأصدقاء له ولي بأنه مات مسموماً من قبل عملاء فرنسا، وله مقالات عديدة، وهي مسجلة عندي، فإذا شاء القدر وتلاقينا، سأطلعك عليها».

الشيخ عبدالله أُوشَرْعَ اللّٰه

«سيرته بقلمه»(1)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

سيدي موسى دائرة الأربعاء ولاية البلدية في 21 جانفي 1989. الأخ المحترم الكريم الأستاذ الشيخ يحيى بوعزيز، صانكم الله ورعاكم، وحياكم تحية شاملة لأسرتكم الكبيرة، وطابت أعمالكم ورزقكم جداً، وعوناً، وتوفيقاً لما توخيتموه من تأليف وغيره.

هذا وإني قد فوجئت برسالة من جنابكم في حالة شوقي إليها زائد، كنت أنقب في هذه المدة على عنوانكم لأكاتبكم، وحفزني إلى ذلك ما كتبتموه في جريدة الشعب حول الطرق والزوايا، وفي آخر المقال كلمة: يتبع، وانتظرت مدة غير قصيرة ولم أر تنفيذاً لهذه الكلمة، ولم يتبع شيء لذلك، وأردت أن أكاتبكم سائلاً ومقترحاً.

وأما ما عزمت عليه من إعداد كتاب يرمي لإبراز ما قامت به منطقة بني عيدل من خدمات وأعمال جليلة إبان الثورة ضد الاستعمار الفرنساوي دفاعاً عن الوطن، وتاريخ ذلك وتسجيله، فهو شيء جميل جداً لا يستهان به ولا ينبغي

---

(1) اتصلت بهذه الرسالة صباح يوم 25 فيفري 1989، وفضلت إدراجها بنصها ما عدا إصلاح بعض الأخطاء كما أشار هو بذلك، وأذن به، لأن معلوماتها مهمة في ميدان الثقافة وسير بعض رجال العلم.

تركه، بارك الله فيكم، وهذا يعد خدمة للوطن، وللوطن علينا حق، والإسلام كذلك.

لقد فكرت بأن أؤرخ للوقائع والاشتباكات الواقعة في تلك المنطقة وبلغ عددها بالعدد ستة عشر وربما أزيد، ولكن أعوزني تاريخ وقوعها.

ودونكم ترجمتي كما اقترحتم:

اسمي الإداري داود بن الطاهر بن أحمد شرع الله مزداد في 24 مارس 1913 في قرية ثيوريرين ببلدية ثاموقرة، دائرة أقبو ولاية بجاية.

وأما اسمي المستعمل والشائع بين المجتمع وأفراد الشعب فهو عبدالله، والسبب في ازدواج هذين الاسمين وتعددهما هو أن أبي رحمه الله سماني أولاً داود، ثم بعد مدة من الزمن، حضر إلى قريتنا شيخ ليعلم، وأعجب والدي بدروسه، وأحبه كثيراً، وقرر أن يطلق اسمه علي، وهو عبدالله المعضادي من قرية صدوق، وكان هذا الشيخ تعلم في زاوية سيدي أحمد أويحيى في بلدية أمالو، دائرة أقبو، وهذه الزاوية تأسست في القرن التاسع الهجري «15 م» مثلما هو الشأن بالنسبة لباقي الزوايا في نواحي بجاية، وبلاد زواوة.

والدروس التي كان يلقيها الشيخ عبدالله المعضادي في قريتنا كانت في الفقه، والنحو، وقواعد التجويد، والقراءات، والفلك، أي السوسي، كما كان التعليم في ذلك الوقت في تلك النواحي، وربما عقيدة السنوسي رضي الله عنه.

وعندما كبرت قليلاً ووصلت إلى سن التعلم، التحقت بمسجد قريتنا، وتعلمت الحروف الهجائية على معلم القرية وأمامها كدأب مساجد الأرياف في نواحي بلادنا، واسم ذلك المعلم والإمام سيدي أَمْحَنْد أوحْمِيدَان من قرية ثاورميث بالجعافرة، وحفظت أجزاء من القرآن الكريم عليه، وبعد رحيله خلفه الحاج محمد أرزقي من أهالي قرية بوحمزة بدائرة أقبو، وأخذ يدرس متن الشيخ خليل في فقه مالك، والأجرومية في قواعد النحو، للطلبة الكبار، ولقنني شيئاً من متن الدرة البيضاء في علم الحساب، والمواريث للشيخ عبد الرحمن الأخضري دفين أولارل في صحراء الجزائر، ومكث مدة قليلة في قريتنا ثم رحل

وعوضه شيخ آخر يقال له الشيخ المولود أو جلواح من نواحي مسيسنة بدائرة أقبو، فأخذت عليه القرآن الكريم ومتن الأجرومية في النحو، وقواعد الأعراب، ولقنني بعض المتون المختصرة.

ثم استأذنه، فأذن لي، بالالتحاق بزاوية سيدي أحمد أويحيى في أمالو بدائرة أقبو، التي كان يدرس بها آنذاك الشيخ السعيد اليجري الزواوي، الذي كان يلقبه بشيخ الشيوخ، لأن جل الشيوخ وطلبة العلم أخذوا عليه، فحضرت عليه دروساً في الأجرومية، وجودت القرآن برواية قالون، وضريحه بزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي الزواوي.

وهو أي الشيخ السعيد رحمه الله له شهرة لدى الشعب والمجتمع خاصة الطلبة والعلماء ومن أشهر شيوخه الشيخ القطوشي الذي تعلم هو الآخر ودرس على الشيخ أُوبُورَاشَدْ من قرية إلماين الذي كان يحضر حلقات دروس العلماء بمدينة قسنطينة، ويذهب إليها هو وتلميذه القطوش على أرجلهما، والشيخ السعيد بن الحريزي مفتي بجاية آنذاك، ومسقط رأسه بالقلة دائرة مجانة.

ولم يبق الشيخ السعيد اليجري كثيراً بزاوية أمالو، بعد أن التحقت بها، فغادرها، وخلفه الشيخ لَحْلُو وَاعْمَارَهْ من بني خيار فدرست عليه شرح مختصر خليل في فقه إمام الأئمة مالك بن أنس رضي الله عنه، وألفية بن مالك في النحو، ومتن جوهرة التوحيد، وبعض قواعد الفلك، للسوسي، في معرفة الأوقات، والأعوام، والفصول الأربعة، والقبلة، وفي زمورة، وفي مسجد صغير يسمونه جامع زيتونة حضرت دروساً على الشيخ عمر بو حفص، في المرشد المعين، وشذور الذهب، لابن هشام الأنصاري في النحو، والصبان في العروض والقوافي، والشيخ عمر بوحفص هذا درس على الشيخ أحمد بن قدور من علماء زمورة، وها هو الآن إمام في مسجد سيدي رمضان بعاصمة الجزائر.

وفي قنزات ببني يعلى حضرت دروساً على الشيخ الهاشمي تلميذ الشيخ أرزقي صالحي، والقاضي الشيخ الربيع أُوقَرِّي رحمهما الله، في بعض أجزاء مختصر خليل، وألفية ابن مالك في النحو، وتفسير النسفي، وجمع الجوامع

في أصول الفقه، وشرح جلال المحلي على جمع الجوامع للإمام ابن السبكي رحمه الله، والشيخ الهاشمي ينسب إلى بن المولود الحاج الطيب «عائلة الحاج الطيب».

وأما زاوية الجعافرة فقد علمت أن الشيخ الزين بلحداد، قاطن قرية بوفنزار علّم فيها، وكذلك الشيخ لحلو أمزيث «من مزيتة» الذي علم في قرية ثاوريرث بالماين، وله شهرة في حفظ القرآن الكريم، وأنا ممن قرأت عليه في قريتنا، وكان ضريراً، وجئت يوماً إلى الزاوية فوجدت أباك يعلم الأولاد.

وأما الشيخ أحمّودي فهو أديب فقيه، وسياسي، وبيتهم عريق في العلم والدين، وكان أبوه الشيخ عبدالله فقيهاً، وله معرفة بالطب، وهو أحد الأطواد في الطريقة الحنصالية، وأهل هذه الطريقة لهم خاصية في استخدام الجنون.

وجده الشيخ يحيى أحمّودي عالم جليل له شهرة علمية عند علماء القبائل الصغرى، وممن عرف بالعلم لدى المجتمع في هذه الدار، الشيخ الحسن، والشيخ علي، ولهذه العائلة زاوية صغيرة يعلم فيها شيوخها العلوم، والقرآن الكريم، وقد اندمج الشيخ يحيى ضمن المصلحين.

وختاماً أرجوك أن تعذرني وتسمح لي فيما اقترفته من الأخطاء اللغوية والإملائية، والحق أنك تعرف أن بضاعتي العلمية قليلة، ولقد كتبت هذه اللمحة بسرعة، وأنا مريض في المعدة والريح، وألزمني ذلك الفراش، ولا شك أنه في إمكانك أن تتصرف في هذه اللمحة بالزيادة أو النقص أو تبديل العبارات، لأني في الأسطر الأخيرة كنت أكتب بدون إمعان النظر اعتماداً على أنك ستصحح.

اقترحت على أن أعرفك ببعض الزوايا والمعمرات، وكتاتيب القرآن الكريم، ومن بين ذلك.

زاوية سيدي عبد القادر الجيلاني في بلدة ثفرق التي يرأسها أولاد بغورة، ويتم فيها تعليم القرآن الكريم.

وكذلك زاوية سيدي يحيى العيدلي في ثاموقرة، وأسأل عنها الشيخ محمد

الطاهر المقراوي، وأسست أيضاً أولاً على يد الشيخ الجليل، والصوفي الكامل، سيدي يحيى العيدلي الذي كفاه فخراً أن الجامع بين الحقيقة والشريعة، السيد الشيخ الزروق البرنوسي، أخذ عنه الطريقة الصوفية، وهو، أي الشيخ زروق، جمع بين الفقه والتصوف، ومن جملة تصانيفه: شرح الرسالة لأبي زيد القيرواني، والنصيحة، وله كتاب القواعد جامع لشتى من فنون العلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

«من أخيكم عبدالله بن الطاهر شرع الله»

ويضيف الشيخ عبدالله شرع الله في رسالة أخرى[1] تفاصيل جديدة عن حياة أسرته وأفراد عائلته فيقول:

الأول من أخواني يسمى سليمان بن الطاهر بن شرع الله، هو الأكبر منا لأنه ختم القرآن وفي تاريخ اثنين وخمسين (وتسعمائة وألف) كان يعمل في فرنسا، ولما سمع باندلاع الثورة قدم بقصد الانخراط في الثورة، وعزم أن يلبس كجندي، ولكن مسؤولي الثورة أبوا عليه ذلك، واقترحوا أن يتولى المسؤولية في القرية كممون للمجاهدين، ومقتصد، وكان يجلب القمح من نواحي سطيف، ومجانة وتحته جماعة من اشخاص يقومون بالمهمة وعمل كمسؤول شعبي في القرية.

وفي بعض الأيام قدم إلى القرية من مركز الماين ضابط برتبة صاغ، وأخذ أخي سليمان المتحدث عنه، وبعض أفراد القرية، للبحث، والاستجواب، وبعد البحث والتحرير وشدة التهذيب، أطلق الضابط سراح أهل القرية جميعاً، وأخذ أخي سليمان، والحال أنه كان يشرف على الموت من شدة أنواع الضرب، وحمله معه على الراحلة إلى قرية إلماين، وفي تلك الليلة استشهد، وأخذ الضابط معه أيضاً ابن أخي محمد، وبقي في السجن ستة أشهر بعد وفاة أبيه

(1) لا تاريخ لهذه الرسالة ولكن ختم البريد يحمل 13 ماي 1989 م. وأخواه سليمان وأحمد اللذان يتحدث عنهما أعرفهما جيداً لأنهم من مريدي والدي. زرت منزلهم، وزاروا منزلنا عدة مرات.

الذي ترك من الأولاد محمد المذكور، والعلوي، والمهدي، وثلاث بنات.

وبعد أشهر دعي ابن أخي المسمى العلوي، وطلب للخدمة العسكرية في صفوف الجيش الفرنسي فاقترحت عليه أن يدخل في صفوف جنود الثورة، ففعل ذلك، ومنح درجة ضابط صغير وبقي في صفوف جيش التحرير إلى نهاية الثورة (عام 1962)، وهو مسؤول في تلك النواحي أي القبائل الكبرى، وما يزال إلى الآن مستقراً في تيزي أوزو، ولقد عذبت من أجله، من قبل فرنسا بسبب أني مسؤول عليه، وقالوا لي لماذا فر من التجنيد ودخل مع الفلاقة.

وأما أخي أحمد، فقد التحق بالثورة في أولها، حصل على درجة، وحفظ القرآن، واستشهد في جبال القبائل الكبرى خلال عملية جيمال (المجهر)، مع جماعة من شباب قريتنا، سنة 1959 وخلف من الأولاد، عبد المالك، وجمال، وبنتين، وزوجة، وأما، في بلدة ثاقة نابث نايث يحيى.

الشيخ الهاشمي بن الحاج الطيب اليعلاوي

من مواليد قرية ڤنزات ببني يعلى أواخر القرن الماضي، حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه، واهتم بصورة خاصة «بدراسة مادة الفقه الإسلامي حتى أصبح حجة فيه، إلى جانب علوم اللغة، والعقيدة والتوحيد، وتفرغ للتدريس في مسقط رأسه، وكون شبه معهد، رتب فيه الطلبة الذين يحضرون إليه من الآفاق، ومنهم على ما أذكر الشيخ عبدالله أُوشَرْغْ الله، والسيد لَقْدَرْ مُوحَنْدْ أُومُوسَى، والشيخ السعيد الصالحي وغيرهم.

ولم ينسجم مع جمعية العلماء، وممثلها بقنزات الشيخ السعيد الصالحي، ابن القرية، واحتفظ لنفسه باستقلالية الرأي والاتجاه، وفرغ نفسه لخدمة العلم بعيداً عن التيارات السياسية.

وكان له صدى كبير في المنطقة، وتلاميذ عديدون، يثنون عليه ويقدرونه، ويذكرون فضله في ميدان التربية والتكوين، والتعليم، خاصة وأنه

مع بيان شرف النسب، والعلم، وهم من جهات عديدة بالقبائل، والأوراس، وقد توفي بعد الحرب العالمية الثانية وفي مطلع الخمسينات حوالي عام 1958 وما تزال ذكراه على الألسن.

الشيخ أرزقي أوبَصّالَحْ وحفيده الشيخ السعيد الصالحي

الشيخ أرزقي أوبصالح من قرية قنزات ببني يعلي كان فقيهاً متضلعاً في أحكام الشريعة والدين، من مواليد القرن الماضي، وتوفي في القرن الحالي خلال الحرب العالمية الأولى، تصدى للتدريس في قنزات، ورتب طلبة من جهات كثيرة جاؤوا من الأوراس والهضاب العليا، وباقي منطقة القبائل الصغرى خاصة من بني ورتلان، ومن أبرز تلاميذه وأنجبهم حفيده الشيخ السعيد الصالحي عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي كان مقرباً كثيراً من الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكان متفوقاً في المواد الأدبية خاصة الخطابة والشعر، وفي علوم اللغة، والبلاغة ومادة الفقه الإسلامي.

وفعل مثل جده فتفرغ للتعليم والإقراء بقنزات، واختاره الشيخ عبد الحميد بن باديس، ضمن الوفد الذي أرسله إلى فرنسا عام 1936 مع الشيخ الفضيل الورتلاني، والشيخ محمد الصالح بن عتيق، للقيام بالوعظ والإرشاد في أوساط المهاجرين الجزائريين ونشر مبادىء الإصلاح بينهم، وكان فصيح اللسان، مقتدراً على جلب مستمعيه إلى الإصغاء له، وخلال الحرب العالمية الثانية سجن بسبب مواقفه الإصلاحية، كما سجن بعد أحداث 8 ماب 1945، وبعد خروجه عين من طرف جمعية العلماء للإشراف على الجمعية الإصلاحية بمدينة سيق، ومدرستها ومسجدها. وفي مطلع الخمسينات نقل إلى مدينة تلمسان حيث اعتقل هناك عام 1956 بعد اندلاع الثورة، وبقي في السجن حتى عام 1962، ثم عاد إلى نشاطه في إطار وزارة الشؤون الدينية، وعين مفتشاً عاماً على ولاية وهران وتلمسان، وعين عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى

الذي ترأسه بعض الوقت، ولم ينسجم مع الوزير مولود قاسم واختلف معه خاصة حول اعتماد القاعدة في صوم رمضان، والإفطار، فاعتزل الوظيف، وتوفي عام 1986 م، وأبناؤه أصدقاء لنا وهم: أرزقي، والخضير، والمأمون، وجمال، والزبير، ولدينا رسالة للشيخ السعيد الصالحي وجهها إلى الشيخ الفضيل الورتلاني بالقاهرة في حدود عام 1954 علي ما يبدو حدثه فيها أشياء كثيرة شخصية خاصة، وعامة ذات صلة بأوضاع البلاد وجمعية العلماء، والتعليم، والمدارس، ولأهميتها نورد نصها فيما يلي:

مدرسة الفضيل الورتلاني

لنشر التربية وبث الأخلاق الإسلامية

زمورة ـ البويرة (الجزائر)

زمورة في[1]

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أخي الكريم وصديقي الحميم الأستاذ الشيخ الفضيل أطال الله حياتكم، ووفقكم في أعمالكم الجليلة. أيها الأخ يؤسفني كثيراً أن أكاتبكم مرات ومرات، ولم أحظ إلا برسالة واحدة، كما كاتبت الأولاد والشيخ، فلم أرى منذ شهرين تقريباً حرفاً واحداً الأمر الذي آلمني كثيراً كثيراً أنني علم الله منذ كاتبني الشيخ قبيل عيد النحر في مسألة ولدنا الحسين فأجبته مراراً عديدة وأفهمته في قضية الولد غير أن الجواب صفر، لقد انقطعت أخباركم عنا اللهم إلا ما بلغنا بواسطة الشيخين: العربي، وبوشمال، وبعض الحجاج الآخرين. أيها الأخ أما الولد الحسين فلقد اتصلت به مرات كثيرة فتارة يرجح السفر وتارة يرغب في أن يكمل هذا العام بالمعهد وقد كاتبتكم في هذا الشأن بعد سي الزروق، كما أوصيته شفاهياً، ثم بعد ذلك قرر نهائياً السفر وها هو يستعد الآن، لأن يكون

---

(1) لا تاريخ لهذه الرسالة ولكن الغالب أنها كتبت أواخر عام 1954 أو أوائل 1955 م حسبما أكد لنا ذلك ابن الشيخ السعيد صالحي، السيد أرزقي صالحي عندما راجعته.

ضمن البعثة المقبلة إن شاء الله وقد أحسن في هذا القرار الأخير إذ سنه (كذا)، ذهبت لقسنطينة، لتوديعه وتزويده بالنصائح فوجدته سافر إلى بني ورتلان لتوديع الأقارب. وسأرجع إلى قسنطينة عند سفر البعثة إن شاء الله.

لقد كنت عزمت واقترحت أن أسافر مع البعثة إلى هناك لزيارة الأولاد والالتقاء بكم وبالشيخ وإخباركم بما جد هنا سواء في الجمعية وفي غيرها من الأمور التي لا تقال إلا شفاهياً، ولكن واأسفاه عين غيري لذلك، وهكذا أبعد دائماً عن الأمور المهمة، وقد وعدني الشيخ خير الدين أن يكون ذلك في البعثة الثانية، ولست أدري هل يثبت ذلك أم لا، إذ جربت موقفهم معي وعند الله تجتمع الخصوم، فقد كان الشيخان يلهجان بذكركم، ولكن كما قيل (الصيف ضيعت اللبن)، وإذا قدر الله أن نلتقي بكم فسأحدثكم كثيراً كثيراً عن كل شاذة وفاذة، فأرجو أن تلحوا على الشيخ كي يأمرهم بأن يعينوني في مرافقة إحدى البعثات، إنني والحق يقال حريص جداً أن أطلعكم على جميع الأمور قبل الموت والفوات.

ما هي حالة الأولاد يا ترى إنني في حيرة من الخضر وزوجه في كون السنة ضاعت عليهم مع النفقات الباهظة التي كلفني سفرهما بدون فائدة معتبرة فأرجو أن يلتحقا هذا العام بسعيكم وسعي الشيخ، إن الخضر ألف الأمر في حياته ولكن أخوف ما أخاف على البنت إذا لم تألف التغرب والمحن والاحتياج.

ذهبت في هذه الأيام إلى بجاية ومكثت هناك أسبوعاً ألقيت سبع دروس فكان الإقبال عظيماً جداً وقد نجحت في إرجاع الشيخ الهادي إلى بجاية وترسيمه هنالك باسم الجمعية، وقد فرح الناس بذلك، وها هو قد شرع في عمله. وسيرحل في أوائل نوفمبر، الناس كلهم لا حديث لهم إلا على سيادتكم وجهادكم، وما من درس في جولاتي في هذا العام إلا ذكرتكم فيها، وقد شاع اسمكم حتى عند ربات الخدور.

أما البويرة فبعد، أتعاب، وأتعاب، وتهديدات، وفتن، وثورات،

نجحت والحمد لله في فتح المسجد وتأسيس مدرسة بها وعدة مدارس بنواحيها. ومن بين النواحي زمورة، وقد اقترحوا أن يسموا المدرسة باسمكم ففرحت بذلك ووافقتهم، أما بني ورتلان وبني يعلى فقد فتحت في هذا العام مدرسة بألموثن، مدرسة بعراصة، تعمير مسجد الجمعة، مدرسة بقنزات، مدرسة بالشريعة، مدرسة ببني عشاش، والحركة دائماً في ازدياد وتقدم اجتماعنا الإداري في هذا العام كان مثمراً، وأستطيع أن أقول منذ فارقنا الشيخ ما وقع اجتماع مثله حيث ساد الوئام، والديمقراطية، والنصح، والإنتاج، فأعمالنا فيه إن شاء الله مثمرة، وقد قررنا مقررات إن نفذت كانت فتحاً مبيناً وخطوات كبيرة إلى الأمام حقق الله الرجاء آمين.

دمتم للعروبة والإسلام   أخوكم سعيد صالحي

الشيخ السعيد فضلاء البهلولي

ينحدر الشيخ السعيد فضلاء البهلولي من أسرة البهاليل التي تقطن بقرية: أَجْبَرْنِي، من أعراش بني ورتلان، وتنتسب إلى الجد الأعلى يذير أُولْحَاجْ، وقد استقر جده أحمد أبهلول في قرية أَلْمُوثَنْ، وبها ولد الشيخ السعيد بن الطاهر بن أحمد أبهلول يوم الثلاثة 8 رجب 1276 هجرية الموافق 31 جانفي 1860. وعندما كبر عكف مع أخته شريفة على حفظ القرآن الكريم، والمتون، والمصنفات، النحوية والصرفية، والفقهية على والده الشيخ الطاهر، ثم شرع في دراسة العلوم الدينية، واللّغوية على شيوخ أجلة ومنهم:

والده الشيخ الطاهر.

والشيخ يحيى حمودي.

والشيخ عبدالله حمودي.

والشيخ السعيد بن الحريزي القلي.

والشيخ محمد القاضي.

والشيخ أحمد بن الرحاب.

وعندما استكمل ما عند هؤلاء من العلوم والمعارف، انتقل إلى مدينة قسنطينة وتردد على حلقات دروس كل من الشيخ حمدان لونيسي، والشيخ عبد القادر المغربي، والشيخ عبد القادر المجاوي، والشيخ صالح بن مهنا، وذلك بصفة غير منتظمة.

ومن قسنطينة انتقل إلى أولاد دراج، والحراكتة، بعين البيضاء، ودرس فيها عدة فنون، ثم انتقل إلى قرية تاملوكة، ودرس في زاوية بوقندورة، وزاوية ابن سعدان في الطاية، ونال شهادة هناك، فدعاه شيخ زاوية بوقشابية بنواحي عنابة للتدريس بها، فلبى الدعوى وعلم بها مدة من الزمن، وصادف نجاحاً باهراً بسبب تضلعه في العلوم، وحسن أسلوبه وبلاغة أدائه.

وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى قسنطينة، وقرى الأوراس، عاد إلى مسقط رأسه ألموثن، وانتقل مع والده إلى قرية: ثِغِيلْتْ أَنْتَاقْوِينْ، قرب قرية جمعة بني ورتلان، واستقرا بها بصفة نهائية، وباعا كل أملاكهما في مسقط الرأس. وفي هذه القرية اختار والده الشيخ الطاهر لقب: فضلاء، له ولعائلته بدلاً من لقب أبهلول، الذي ما يزال يحمله أبناء عمومته حتى اليوم. وقد تم هذا الاختيار عندما شرعت الإدارة الاستعمارية في تسجيل الحالة المدنية للسكان.

وبعد وفاة والده الشيخ الطاهر، الذي أوصى أن يدفن في مسقط رأسه: ألموثن، انتقل الشيخ السعيد، إلى بني شبانة، وتزوج هناك ثلاث مرات، وأنجب من الأخيرة الأبناء: محمد الحسن، ومحمد الطاهر، وعبد الملك، ومحمد البهي، والبنتين: فاطمة، وجميلة، واعتنى بتربيتهم تربية إسلامية، وبتثقيفهم وتعليمهم.

تعرض الشيخ السعيد لمضايقة قائد الدوار بني ورتلان، والباشاغا، اللذين وشيا به إلى رجال الدرك في بوقاعة، فاستدعوه، وسجنوه، وأهانوه، ثم أطلقوا سراحه فرحل إلى الشرق الجزائري، وزاول التعليم في عين البيضاء ووادي زناتي، وعنابة، وعندما عاد، علَّم في بني شبانة، وزاوية سيدي أحمد الزروق الوغليسي، وزاوية سيدي الرزاق بأكفادو، ومسجد سيدي عيش الذي كان يحضر إليه كل يوم أربعاء، الذي هو يوم السوق الأسبوعي، ويحضر إليه كل

طلبة وشيوخ زوايا المنطقة ليعلمهم ويفتيهم، ويرشدهم.

قضى خمسة وثلاثين عاماً في زاوية سيدي موسى الوغليسي، بقرية ثينيدار، يعلم ويدرس، ويفتي، ويفقه، إلى أن توفي. وعلم كذلك في قرية أَنُو، وفي مسجد سيدي الحسين الورتلاني، صاحب الرحلة المشهورة ببني ورتلان. ومن بين تلاميذه الشيخ المصلح الفضيل الورتلاني، أحد شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ونظراً لتضلعه في العلوم، أجازه عدد من العلماء الذين درس عليهم، ومنهم الشيخ السعيد بن عبد الرحمن الحريزي اليعدلي، وذلك بالإجازة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

إجازة في العلوم.

الحمد لله ملهم الصواب، المانح من إصطفاه لتحمل العلوم أشرف الأسباب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أرجو بها زوال كل دين ومجاب، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الموصل بهمته كل مرتاب، المجيز من اهتدى بهديه كل راجع وتواب، وسند كل من أُوتي الحكمة وفصل الخطاب، وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وصلة الأحباب، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم المآب.

وبعد: فقد التمس مني من حسن بي ظنه وأعتقد أن قربنا جنة، الأخ في الله والمحب لأجله، الشيخ سيدي محمد السعيد نجل الشيخ سيدي محمد الطاهر أبهلول، أن أجيزه، وإن لم أكن أهلاً أن أجاز فضلاً أن أجيز، فقلت فقد أجزت الشيخ المذكور بجميع ما صحت درايته وثبتت له روايته من منقول ومعقول، كما أجازني بذلك أشياخي منهم الشيخ يحيى حمودي الورتلاني، وسيدي محمد بن بوجمعة القلي، وسيدي محمد الصادق الزواوي، وسيدي الحسين الفرطسي الغلفي، وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، سائلاً لي وله التوفيق، وأن لا ينسانا من دعواته في خلواته وجلواته آمين.

كتبه فقير ربه وغلام أوليائه محمد السعيد بن عبدالله الحريزي اليعدلي

منشأ. الأشعري اعتقاداً، مصلياً ومسلماً على رسول الله وآله عام 1298 هـ (4 ديسمبر 1880 ـ 22 نوفمبر 1881).

وقد توفي الشيخ السعيد يوم الأحد 21 صفر 1361 هـ الموافق 4 فيفري 1945 م. ودفن في ضريح سيدي موسى الوغليسي الذي علم بزاويته خمسة وثلاثين عاماً.

وخلف الشيخ السعيد مكتبة مهمة وله من الآثار:

1 ـ رسالة في الرد على الطرقيين والعوام القائلين بوجوب تلقين الأوراد والذكر، طبعت عام 1926 بالمطبعة الثعالبية، بالجزائر، وقرضها الشيخ البشير الإبراهيمي.

2 ـ شرح قصيدة الهمزية للبصيري (مخطوطة).

3 ـ مجموعة من الفتاوى الفقهية، ومراسلات مع عدد من العلماء ما تزال كلها مخطوطة لدى أبنائه، خاصة الأستاذ محمد الحسن فضلاء الذي يقوم بنشاط علمي وتربوي مهم ومكثف، وحقق عدداً من الأعمال الفكرية، وألف عدداً من الكتب التربوية.

وقد اعتمدنا في هذه المعلومات كلها على الترجمة الواسعة التي أرسلها إلينا ابنه الفاضل الشيخ محمد الحسن فضلاء.

بتاريخ 21 سبتمبر 1993 م. وبعدها نورد ترجمته هو كما كتبها بقلمه وأرسلها إلينا بطلب منا طبعاً كذلك.

سيرة الشيخ محمد الحسن فضلاء بقلمه

والشيخ محمد الحسن معلم كفء أحب التعليم وأخلص فيه، ولازمه وأبلى البلاء الحسن في سبيله، وأحدث فيه ما جعله يطمئن إليه، وينصرف كلية إلى فنونه وشؤونه يتمنى وهو في شيخوخته أن يعود إليه ويموت بين أحضانه، بعدما قضى نصف قرن بين أقسامه وتلامذته وفصوله ومعلميه.

مولده ونشأته وتعلمه:

ولد في 12 ربيع الأول 1332 الموافق ليوم 17 مارس 1914 بقرية (ترفت) ببني شبانة، من ولاية سطيف، من عائلة المرابطين.

قرأ القرآن في المنزل على والده وحفظه وهو ابن إحدى عشرة سنة (شاقاً) بفضل التكرار الذي لازمه مع أبيه، ثم أعاده مرتين، وكان الوالد رحمه الله لا يعتمد على غيره في تعليمه وتكراره.

ومما يذكر أنه سافر إلى الشرق الجزائري سفرة تستغرق أكثر من شهر وقد طلب منه أن يدرس لطلبته فناً من الفنون فوضع ابنه هذا عند إمام القرية وقد تركه في ربع من أرباع (سورة القصص) وهو: ﴿فلما قضى موسى الأجل آنس من جانب الطور ناراً﴾، ولما عاد من سفره بعد شهر ونصف وجده في نفس الربع الذي تركه فيه لم يخرج منه، في حال أن الحزب الواحد مع أبيه يحفظه في نحو 10 أيام، وتقريباً يحفظ ثمناً من الحزب كل يوم. فتأسف والده وتذمر وصب جام غضبه على الإمام ومن ثم لم يعد يعتمد على غيره في تحفيظه حتى حفظه كله.

وكان أثناء إعادته للقرآن يحفظ بعض المتون كالألفية، ولامية الأفعال، وغيرها من المصنفات والمتون مع طائفة أخرى من الشعر العربي.

كما بدأ يحضر مع طلبة والده الدروس العلمية كالشيخ خليل وغيره من الفنون الأخرى كالنحو والصرف والعقائد والبلاغة وعلم الكلام.

من حوادث الصبا:

نشأت في بيئة خرافية معقدة، والشعوذة فيها قد ضربت أطنابها، إلّا أن دارنا دار قرآن وعلم، فوالدنا، رحمه الله، كان عالماً مصلحاً يحرم علينا تحريماً باتاً، نحن أبناؤه، الاختلاط بالناس خوفاً من التأثر بترهاتهم وأباطيلهم، فهو لم يجر على محاربة البدع والشعوذة والطرقية كما فعل رواد الإصلاح بيد أنه قد ألف رسالة حدد فيها موقفه وموقف الدين من الطرقية وأشكالها، وألوانها وعدها ضلالة، وقد طبعت الرسالة في المطبعة الثعالبية بالجزائر سنة 1926

وعندما اطلع عليها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كتب إليه رسالة ما تزال عندي بخطه وقد جاء فيها قوله: «لذلك تضاعف فرحي وابتهاجي حين اطلعت على فكركم في هذه المسألة» وأنا أعدكم من أنصار هذه الحركة، حركة الإصلاح الديني، وأقوى ظهرائها في هذه البلاد المنكوبة بجدب العقول، وقحط الرجال المصلحين».

وهكذا نشأنا مصلحين ومتفتحين، واندمجنا بالطبيعة في حركة الانبعاث القومي عندما أعلن عنها الرواد، فصرنا جنوداً أوفياء من جنود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودعاة مخلصين في صفوفها.

الحادثة الأولى:

أبلغ من العمر ست أو سبع سنوات وكان ذلك في حدود 1920 عندما أقدمت على تقويض إحدى مقدسات الخرافة والدروشة والعقائد الضالة.

دخلت إلى (ضريح سيدي موسى الوغليسي) بحكم وجودي مع أبي المدرس في هذه الزاوية، وعلى قبر صاحب الضريح نصب (تابوت) بسطت عليه أردية وأصناف من الأقمشة الحريرية الفاخرة يأتي بها الزوار ويبسطونها على التابوت التماساً لبركة الشيخ. وكان في يدي علبه كبريت، فأضرمت النار في القماش ثم أطفأتها خوفاً منها، ثم أشعلتها مرة ثانية وثالثة إلى أن تصاعد لهيبها، ولم يعد في استطاعتي إخمادها، فهرولت هارباً تاركاً النار تفعل مفعولها، وقد رآني أحد الطلبة خارجاً من الباب والدخان يعلو سماء الضريح ويخرج من النوافذ ومن الباب، فهرع مقتحماً ألسنة اللهيب يجتاح برنوسه فتمكن من إخماد النيران المتأججة قبل أن تأتي على التابوت الخشبي، فبلغ الخبر والدي فحضر وانهال عليّ ضرباً ولكماً ورفساً إلى أن خلصني من بين يديه الذي أخمد النار نفسه.

وأذكر أن والدي لم يتعرض لهذه الحادثة بتوضيح أو تعقيب أو لوم أو بشيء من العتاب وقد اكتفى بضربي أمام الملأ فقط، وكأنه في قرارة نفسه راض بفعلتي هذه لأنه ما كان يؤمن بهذه الخرافة وهذا التصرف العقائدي الأحمق

الأخرق، ويعده ضلالاً مبيناً ولكنه لم يحاربه واكتفى بأن أنكره بقلبه، وعبر عن ذلك بلسانه في غير ما مرة قائلاً: اللهم إن هذا منكر، وهو أضعف الإيمان.

وجه الشبه:

قيل إن يوسف عليه السلام سرق في صغره (صنماً) كان لجده أب أمه فكسره وقد أشارت إلى هذه الفعلة الآية القرآنية ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ أي يوسف إلى آخر الآية من سورة يوسف.

الحادثة الثانية:

كنت في السنة الحادية عشرة من عمري عندما قدمني والدي للإمامة في صلاة التراويح طيلة شهر رمضان، وما بقي لي إلا الحزبين (عم وسبح) وكنت في الركعة الأخيرة والقراءة الأخيرة حتى إذا بلغت الآيات ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالات صفر ويل يومئذ للمكذبين﴾.

وإلى هنا شعرت وكأنني تلقيت ضربة قاصمة الظهر فصرخت آه. . . . . فوقعت على الأرض مغشياً عليّ، وما أدري ماذا فعلوا بي وكيف أتموا الركعة الأخيرة من الصلاة؟

والذي أذكره أن عيد الفطر من هذه السنة مر عليّ وأنا محموم بحمى شديدة انتابتني ولم أشعر بفرحة العيد، ولا بأيامه المشرقة.

إن صغري، وحسن أدائي، وفصاحتي في تبيان الآيات، وحفظي الجيد لها، كل ذلك داع لتأثير العين الحاسدة التي كنت هدفاً لها.

وقد ذكر ابن عباس وغيره من أئمة الصحابة رضوان الله عليهم أن يعقوب عليه السلام حين قال لأولاده بما قصه علينا القرآن الكريم ﴿يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ (61 يوسف) فقد خشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم وهم ذو جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء فإن العين كما قيل تستنزل الفارس عن فرسه، وقانا الله من شرها.

الهجرة في طلب العلم:

وفي سنة 1933 هاجرت إلى قسنطينة من غير رضا والدي عني، وأصبحت من تلامذة الجامع الأخضر بكفالة الشيخ الفضيل الورتيلاني المعنوية، وقد شكوت للشيخ عبد الحميد بن باديس عدم رضاء والدي عن قدومي ورجوته أن يتوسط في كسب رضاه عني، فكتب إليه الرسالة الآتية يستعطفه ويطمئنه.

قسنطينة في 16 رجب 1352.

العالم الولي، الخير النفاع، الأخ الكريم الشيخ سيدي السعيد أُوبهلول المعظم. أيده الله، وأدام النفع به، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إما بعد: فإني أرى من نعمة الله علي أن وفق ابنكم السيد الحسن إلى القدوم إلى قسنطينة لحضور دروسنا، وذلك لما أرجوه فيه من حمل العلم ونشره والعمل به، حسن ظن بنطفتكم الطيبة، وسيماه الزكية.

فأرجو من فضلكم أن تمدوه بدعائكم ورضاكم، وما لا بد مِمَّا يقوم به من ضروريات الحياة والله أسأل أن يجازيكم عنه وعنا خير الجزاء، ويديم انتفاع المسلمين بكم. لا تنسنا من دعائكم فإنني والله في غاية الاحتياج إليه من أمثالكم والسلام.

من أخيكم: عبد الحميد بن باديس، لطف الله به.

وحين عدت في السنة الثانية إلى قسنطينة وافق والدي على العودة ورضي عني وقدم لي العون.

وما كان عدم رضاه أول مرة إلاّ تخوفاً من التأثر بمغريات المدينة وانبهاري أمامها وانهيار الأخلاق وفساد السيرة.

مكثت في قسنطينة ثلاث سنوات، ففي نهايتها دعيت للخدمة العسكرية الإجبارية، وحين أنهيت مدتها في باتنة عينني الشيخ عبد الحميد معلماً على رأس (مدرسة التربية والتعليم فرع باتنة) في 3 أكتوبر 1937 والتحقت بمنصبي

فعملت فيه سنتين، ثم دعيت مرة ثانية للجندية الاحتياطية في 3 سبتمبر 1939 وشاركت في الحرب العالمية فما تحررت من العسكرية ومن الأسر الألماني إلا في 8 أبريل 1943.

أسوأ فترة في حياتي هي تلك الفترة التي قضيتها في العسكرية الفرنسية وكنت أتعمد نسيانها وأتوارى خجلاً من ذكرها، ما عدا الفترة التي قضيتها في الأسر الألماني (40 ـ 43) وهذه كانت مثمرة إذ مكنتني من تحويل المعتقلات كلها إلى مدارس، وخاصة (معتقل أورليو) في فرنسا المحتلة إلى معهد علمي تلقى فيه الدروس (وعظ وتوجيه، وتربية، ونحو وصرف، وقرآن، وحديث وسيرة نبوية وتاريخ، وجغرافيا).

ختمت بالتدريس في درس للعموم كتابي (محمد المثل الكامل) (والإسلام روح المدنية) كما قمنا بعدة أنشطة كالاحتفالات بالأعياد والمواسم وقد مثلنا روايات وطنية ودينية منها (رواية بلال بن رباح) وغيرها وقد حضرها ضباط ألمانيون فاندهشوا لما رأوه وأدركوا أن شعب الجزائر في طريقه إلى السيادة والحرية والاستقلال في شعوب إفريقيا الشمالية، بالإضافة إلى إحياء ليالي رمضان بالتراويح وقراءة القرآن والصلاة في العيدين.

هذا المعتقل يضم أكثر من ألفي أسير مغاربة وتونسيين وجزائريين فإدارة المعتقل شجعتنا على المضي في السبيل ووضعت بين أيدينا جميع الوسائل التي طلبناها ومنها الجرائد والكتب وأدوات الكتابة.

وكل الأسارى الذين كانوا معي يذكرون هذه الفترة بمزيد من الإعجاب.

نشاطي المدرسي:

ـ أول مدرسة عملت بها هي (مدرسة التربية والتعليم بباتنة) من أكتوبر 37 إلى آخر أوت 1939.

ـ المدرسة الثانية هي (مدرسة الشبيبة الإسلامية) بالعاصمة من أكتوبر 43 إلى آخر أوت 1949.

ـ المدرسة الثالثة هي (مدرسة التربية والتعليم) بحي المرادية من أكتوبر 51 إلى أوت 1952.

ـ المدرسة الرابعة هي (مدرسة الرشيدية) بشرشال من أكتوبر 52 إلى أوت 1953.

ـ المدرسة الخامسة هي (مدرسة الفلاح) بوهران من أكتوبر 53 إلى أوت 1954.

ـ المدرسة السادسة هي (مدرسة التهذيب) بالجزائر من أكتوبر 54 إلى 1962.

ـ فمجموع خدماتي في هذه المدارس تسعة عشر عاماً ثلاثة أعوام كمعلم وستة عشر كمدير.

المجلة المدرسية إحدى الطرق الممهدة للإنشاء:

كنت أول من أنشأ مجلة مدرسية في المدرسة الجزائرية الحرة يحرر التلاميذ مواضيعها ويتنافسون فيما بينهم ويتبارون، فالموضوع الذي يحصل على تنقيط أفضل ما هو الذي ينشر في المجلة. وتسبق هذه المحاولة (المجلة الحائطية) التي تعلق عليها المواضيع الإنشائية لأحسن ما حرره التلاميذ في القسم.

ـ فالمجلة الأولى التي أنشأتها هي (الشبيبة الإسلامية).

ـ والمجلة الثانية هي: (أطفال العرب).

ـ والمجلة الثالثة هي: (الأحداث).

وهذه المجلات الثلاث أنشئت في مدرسة الشبيبة الإسلامية من 43 إلى 1949.

ـ والمجلة الرابعة هي (المدرسة) أنشئت في مدرسة الرشيدية في شرشال (1953/52).

ـ والمجلة الخامسة هي (الفلاح) أنشئت في مدرسة الفلاح في وهران 1954/53.

- والمجلة السادسة هي (اقرأ واكتب) أنشئت في مدرسة الفلاح في وهران 53/1954.

- والمجلة السابعة هي (التهذيب) أنشئت في مدرسة التهذيب العربية بالجزائر العاصمة وهذه أدوم المجلات إذ عاشت ثماني سنوات من 54 إلى 1962.

والمطابع التي استعملناها في هذه المجلات هي أولاً (عجينة پولي كوبي) ومطبعة (النار ديكراف) وهذه أهديت لي من المرحوم الأستاذ الصادق السبعي مفتش التعليم العربي في تونس، ومطبعة (ميل كوب) وهذه تمشي بالكحول.

وجهت مجلة الفلاح للمدارس الصديقة دعوة سافرة لإنشاء المجلات المدرسية ولإحداث مثل هذا النشاط بين التلاميذ، فما هي إلا فترة وجيزة حتى طالعتنا مجلات اذكر منها ما وصلني عن طريق المبادلة:

1) (الروضة) لتلاميذ (دار الحديث بتلمسان) ويديرها الأستاذ محمد بابا أحمد.

2) (روض التلميذ) لتلاميذ (مدرسة تيارت) ويديرها الأستاذ عبد الحفيظ الثعالبي.

3) (الفتح) لتلاميذ (مدرسة الفتح) بغليزان ويديرها الشيخ محمد السنوسي دلاي.

4) (الإصلاح) لتلاميذ (مدرسة الإصلاح) بعين تموشنت ويديرها المرحوم الشيخ الحسين كوايمية.

5) (أفلام الناشئة) لتلاميذ مدرسة الحمرى وهران ويديرها المرحوم الشيخ العربي سعدوني.

6) (المدرسة) لتلاميذ (مدرسة الرشيدية) بشرشال ويديرها الشيخ علي شنتير وهذه كانت امتداداً للمجلة التي أنشأتها في 52/1953.

7) (الفتح) لتلاميذ مدرسة الفتح بسطيف ويديرها الشيخ بوعلام باقي.

8) (التربية والتعليم) لتلاميذ مدرسة تازمالت ويديرها الشهيد المرحوم الشيخ عبد المالك فضلاء.

9) (إحياء العلوم) لتلاميذ مدرسة العلمة ويديرها الشيخ عبد الرزاق الزواوي.

ولما تم إصدار هذه المجلات في المدارس ربطنا الصلات بين تلاميذها وتلميذاتها بالمراسلة المدرسية للتعارف والتعاون، وهي أيضاً إحدى الطرق الموصلة إلى التحرير والإنشاء والتعبير.

واستقلت الجزائر:

عينت مفتش التعليم في 18 أكتوبر 1962 مكلفاً بالتربصات السريعة المنطلقة من (دار المعلمين) ببوزريعة، وكل دفعة تستغرق في التكوين مدة شهر ابتداء من 2 سبتمبر 62 إلى 30 مارس 1963.

دعيت للعمل مع لجنة التأليف المدرسي بوزارة التربية من أول أبريل إلى 3 أغسطس 63.

عينت مفتش التعليم في دائرتي سكيكدة والقل التابعتين آنذاك لأكاديمية قسنطينة 63/1964.

عينت على رأس دائرة الدار البيضاء، مفتشاً للتعليم الابتدائي والمتوسط في 64/ إلى 1972 وهذه الدائرة تشمل كل البلديات: عين طاية، برج الكيفان، الأربعاء، سيدي موسى، بوكرة، حمام ملوان، خميس الخشنة أولاد موسى، رويبة، رغاية، بومرداس، زموري، ثنية، وشطر من الحراش، وبرقي فكان عدد المعلمين أو المعلمات الذين هم تحت إشرافي 1600 معلماً ومعلمة.

وأثناء ممارستي لنشاطي في هذه الدائرة رسمت في إطار مفتشي التعليم الابتدائي والمتوسط، وكنت أشارك في تكوين الطلبة المفتشين في مركز تحضير الكفاءة للتفتيش ودور المعلمين.

نقلت إلى دائرة الحراش مكلفاً بالشؤون الإدارية ومعي ثلاثة مفتشين للتربية من 72 إلى 1975 اثنان بالعربية وثالث بالفرنسية.

ثم نقلت عن طريق الحركة وبطلب مني إلى دائرة الأبيار من 75 إلى آخر 1982. وفي هذه الدائرة أحلت على التقاعد في 1/12/1982.

في دائرة الأبيار قلت المدارس وتقلص عدد المعلمين، وكثر نشاطي التربوي.

- عقد تربصات مختلفة للمعلمين والمديرين.
- تكوين أساتذة التعليم المتوسط.
- يضاف إلى ذلك زيارة المعلمين وترسيمهم وتكوينهم.
- مع الاشتراك في التكوين الخاص بمعهد مصطفى خالف.
- كما تكثف نشاطي كذلك في مركز تحضير الكفاءة للتفتيش.

بعد إحالتي على التقاعد:

وعندما تقاعدت طلب إلي من عدة جهات لاستأنف نشاطي (كمتعاقد حر) فكرهت أن أتقيد بمسؤولية أخرى، وفضلت أن أتفرغ كلية للتأليف، فكان أول عمل أنجزته هو:

- إعادة طبع (جريدة البصائر) السنة الأولى من السلسلة الأولى وتشتمل على 50 عدداً، طبع ونشر دار البعث بقسنطينة سنة 1984 والنية معقودة على طبع ونشر جميع سنوات البصائر في سلسلتها، غير أن وزير الشؤون الدينية الشيخ عبد الرحمن شيبان سامحه الله اعترض طريقها ورغب أن يصدرها باسم وزارته فإذا بالمشروع يتوقف كلية لا باسمي ولا باسم الوزارة.

- أعددت ثلاثة كتب من إملاء الأستاذ عبد الحميد بن باديس تحت عنوان عام:

من آثار الحركة العلمية بالجامع الأخضر 1 و2 و3

- أ - أصول الفقه طبع ونشر دار البعث 1985.
- ب - العقائد الإسلامية طبع ونشر دار البعث 1985.
- ج - التربية عبر الكتاب والسنة طبع ونشر دار البعث 1985.

أما الكتاب الثالث فهو مصور وجاهز للسحب في مطبعة البعث وحال بينه وبين إنجازه ما تتخبط فيه الدار من مشاكل بعد وفاة مديرها الحازم المرحوم عبد الحميد عياط.

ـ الشذرات من مواقف الأستاذ عبد الحميد بن باديس (تحت الطبع في مطبعة الشهاب).

ـ(هدى للمتقين) مطبوع في مطبعة الشهاب 1990.

ـ (المسيرة الرائدة) للتعليم العربي الحر (تحت الطبع في مطبعة الشهاب) أربعة أجزاء.

ـ (المختار من المحفوظات العربية) تحت الطبع (في دار الكتاب) ثلاثة أجزاء.

ـ (تعليم القواعد بواسطة ألعاب القراءة) تحت الطبع (في دار الكتاب).

ـ (من أعلام الإصلاح في الجزائر) 4 أجزاء تحت الطبع في (شركة الطريق).

ـ (مذكرات في المحادثة والقراءة) للسنة الأولى مخطوط.

ـ (المنتخب من طرائف الحكم والقصص والنوادر) تحت الطبع في دار الكتاب.

ـ (رواية عليشة ديدو) مؤسسة قرطاجنة مخطوط.

ـ وسبق أن أصدرت في سنة 1966 عن دار القومية المصرية:

ـ كتابي في المحادثة والقراءة مدعم بالصور مطبوع في دار القلم بمصر سنة 1966.

ـ الدروس الفقهية للمدارس الابتدائية مدعم بالصور مطبوع في دار القلم بمصر سنة 1966.

ـ ألعاب القراءة للقسم الابتدائي مدعم بالصور مطبوع في دار القلم بمصر سنة 1966.

ـ ثماني نماذج في ألعاب القراءة للصغار بالصور مطبوع في دار القلم بمصر سنة 1966.

أما نشاط التفتيش فلي فيه من أحاديث الندوات التربوية والأيام الدراسية المتنوعة والتربصات الحافلة بجم الأعمال والمحاضرات الشيء الكثير لم أتصدّ بعد لفرزها وتبويبها وإخراجها في شكل (كتاب للمعلم) وعساه إن فعلت يكون

نافعاً كما نفع في وقته حيث التكوين والتقويم والمراقبة والمتابعة التربوية والله الموفق.

أسرتي الشخصية:

فالزوجة التي تحملت معي أعباء الحياة والأسرة تلميذة من تلميذاتي باشرت التعليم مدة 19 سنة وأدارت مدرسة ابتدائية مدة 14 سنة أخرى ولي معها هؤلاء الأنجال:

- فؤاد مهندس إعلام آلي متزوج وأب لثلاثة أنجال، نزار، هيثم، بيان.
- أمال أستاذة اللغة العربية في المتوسط وأم لأربعة أنجال: سهام، وسيم، وئيل، نائلة.
- نبال مهندسة إعلام آلي متزوجة وأم لنجلين: أسيل، عصام.
- جهاد فقدناه وأرجو أن يكون لي ولأمه فرطاً وذخراً وشفيعاً.
- أجيال مدرسة فرنسية في الابتدائي متزوجة، وأم لثلاثة أنجال: نبيل، أنجال، هديل.
- نوال أستاذة اللغة العربية في المتوسط متزوجة وأم لنجلين: نازك، أكرم.

وفقهم الله وسدد خطاهم - محمد الحسن فضلاء 20 يونيو 1989.

الشيخ الفضيل حسنين الورتلاني
(1900 - 1959 م)

ولد الشيخ الفضيل بقرية أنُو المجاورة لبني ورتلان في القبائل الصغرى عام 1900، وقيل عام 1906 م، وينحدر من أسرة الرحالة المشهورة الشيخ الحسين الورتلاني صاحب الرحلة المشهورة المعروفة بالرحلة الورثلانية التي حققها ونشرها العالم محمد بن أبي شنب في مطلع هذا القرن.

حفظ الفضيل القرآن الكريم في مسقط رأسه، ودرس العلوم والمعارف العربية الإسلامية على علماء عصره ومنهم الشيخ السعيد أبهلول، الورثلاني.

وفي حدود عام 1920 أرغم على أداء الخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي الاستعماري، فلاحظ الميز العنصري بين المجندين المسلمين،

والأوروبيين. وعندما أكمل هذه الخدمة عاد إلى مسقط رأسه ليواصل التعلم حتى عام 1930، ثم شد الرحال إلى مدينة قسنطينة، والتحق بصفوف تلاميذة الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجامع الأخضر، وانكب على الدراسة بكل شوق، وامتاز بفصاحة اللسان، وقوة الحافظة، ولازم الشيخ باديس عدة سنوات، فتأثر به، وواظب على حضور دروسه، واجتماعات جمعية العلماء كما حكى ذلك الشيخ البشير الإبراهيمي، وفي عام 1932 كلف بتمثيل مجلة الشهاب، والتنقل باسمها لجمع الاشتراكات، وواصل ذلك عام 1933 فتنقل في مدن وقرى القبائل الصغرى للدعوة لها.

وفي بداية العام الدراسي 1933 ـ 1934 م عين مساعداً للشيخ عبد الحميد بن باديس في التدريس لبعض الأقسام، فقام بالمهمة خير قيام، وفي شهر أكتوبر 1934 عين مدرساً في مدرسة التربية والتعليم الإسلامية، وفي نفس الوقت أخذ الشيخ ابن باديس يصطحبه معه في رحلاته وجولاته داخل البلاد كما حصل عام 1934 إلى ميله، والتلاغمة، وبرج بوعريريج، وسطيف، وبوقاعة، وباتنة خلال شهري ماي، وجوان، من نفس العام، وعندما أصدرت مدرسة التربية والتعليم الإسلامية نشرة تربوية عام 1936، شارك في تحريرها بموضوعين، الأول عن التربية، والثاني عن الشباب.

الشيخ الفضيل في باريس:

وفي منتصف عام 1936 رحل الشيخ الفضيل إلى باريس بأمر من الشيخ ابن باديس، إلى باريس لتوعية المهاجرين الجزائريين، ونشر التربية الإسلامية والوطنية فيهم، وذلك لفصاحته وقدرته على التبليغ، فتمكن بعد جهد جهيد، وخلال أشهر معدودة أن يؤسس أكثر من 17 نادي، ومدرسة، ومنتدى، لتعليم المهاجرين وأبنائهم اللغة العربية وأمور دينهم الإسلامي.

وبفضل نجاحه في العمل دعم بعدد من الوعاظ والمرشدين منهم: الشيخ سعيد الصالحي، والشيخ الصالح بن عتيق، والشيخ حمزة بوكوشة، والشيخ السعيد البيباني، والشيخ فرحات بن الدراجي، والشيخ الشاعر محمد الهادي

السنوسي، والشهيد محمد الزاهر الميلي، والشيخ محمد واعلي العربي، توزعوا على معظم المدن الفرنسية التي يكثر بها المهاجرون الجزائريون.



المرحوم الشهيد الشيخ الفضيل الورتلاني

وقد حكى لنا الشيخ الصالح بن عتيق عنه الأعاجيب خلال المؤتمر السادس للحزب بقصر المركب الرياضي في الشراقة أيام 27 و28 نوفمبر 1988 وقال: إن الفضيل لم تلد أم مثله، وكان فصيح اللسان بالعربية، والقبائلية، والفرنسية، وقد اتفق مرة مع صاحب مقهى قبائلي يتردد عنده كثير من المهاجرين، على عقد اجتماع هناك للاتصال بأولئك المهاجرين المشردين،

وعندما ذهبنا إلى ذلك المقهى وجدنا عدداً كبيراً منهم موزعين في زوايا المقهى وبجانب كل واحد كأس من الخمر، والبعض منهم مصحوبين بالنساء والفتيات.

فطلب منهم صاحب المقهى قائلاً لهم: إن هناك جماعة تريد التحدث إليكم، وكانوا يتصورون أننا فرقة من المغنين، أو الممثلين في المسرح، فتقدم لهم الفضيل وخاطبهم باللغات الثلاث، وأخذ يضرب على الوتر الحساس، وذكرهم بنخوتهم، ورجولهم، وحذرهم من ضياع أعمارهم هناك بفرنسا وتعرض أمهاتهم وأخواتهم ونسائهم في الجزائر، للمهانة والاعتداء على شرفهن من طرف رجال الاستعمار الفرنسي، فتأثروا جميعاً وبكوا. ولم ينته الاجتماع حتى اتفقوا جميعاً على تكوين نادي هناك للجمعية، والالتفاف حوله، والتخلي عن كل الرذائل، والتفكير في مستقبلهم ومستقبل أسرهم، وعائلاتهم، وبلادهم الجزائر.

وهكذا نجح الفضيل الورتلاني نجاحاً عظيماً في لمِّ شمل المهاجرين الجزائريين بباريس، وكل أنحاء فرنسا. وفي إيقاظهم من سباتهم ودفعهم للعمل الجاد، فأخذوا يلتحقون بنوادي الجمعية مثلما نجح نجم شمال إفريقيا في تجنيد الكثير منهم، وحزب الشعب كذلك.

وقد بلغ عدد النوادي التي فتحها الفضيل في باريس وأحوازها 15 نادياً. ولدينا شهادتان مهمتان على الدور الرائد الذي أداه الشيخ الفضيل في باريس، أحداهما للشيخ البشير الإبراهيمي نشرها في افتتاحية البصائر يوم 6 مارس 1940. والثاني للسيد الوائل محمد الصغير سكرتير جمعية التهذيب في باريس، نشرها في جريدة السلام بكارديف التي كان يديرها الشيخ عبدالله علي الحكيمي رئيس الاتحاد اليمني يوم 25 فيفري 1951 نوردهما فيما يلي لأهميتهما: وهذه شهادة الشيخ البشير تحت عنوان:

الفضيل الورتلاني

الفضيل الورتلاني، نشأ نشأة الصبا والحداثة، في أحضان الفطرة الطاهرة، وفي أحضان الجبال الشماء، فاكتسب من الأولى قوة الروح، وصفاء العقيدة، والصلابة في الدين؛ ومن الثانية قوة الجسم ووثاقة التركيب وسلامة الحواس، ثم نشأ نشأة الشباب، في أحضان جمعية العلماء، ففتح عينيه على الميادين العامرة بأبطالها، وفتح أذنيه على الأصوات المجلجلة بالعلم والإصلاح، من دروس عامرة بحقائق التنزيل والحكم النبوية، ومحاضرات بليغة في التاريخ الإسلامي والأدب العربي، تفيض بالبيان الساحر، وتتدفق بالبلاغة الرائعة، فنشأ مؤمناً متين العقيدة، حراً عميق الفكر، صريحاً لاذع الصراحة، جريء اللسان على كلمة الحق، شجاع الرأي إذا جمعت الآراء وتخافتت، غيوراً على وطنه غيرته على دينه، إذن فهو معدود من بواكير هذه النهضة المباركة في الجزائر، رافقها في جميع مراحلها، وشارك ـ على فتوته ـ الشيوخ المحنكين في بنائها.

لازم إمام النهضة عبد الحميد بن باديس سنوات، فتأثر بمنازعه الخطابية، ومواقفه في حرب الضلال، وسقيت ملكته بغيث ذلك البيان الهامي، فأصبح فارس منابر، وحضر اجتماعات جمعية العلماء والخاصة، فاكتسب منها الصراحة في الرأي، والجراءة في النقد، والاحترام للمبادىء لا للأشخاص، ثم لابس السياسيين وغشي مجتمعاتهم، فرأى من زيغ العقيدة وزيف الوطنية؛ وانحلال الأخلاق ـ نقيض ما رأى من رجال جمعية العلماء، فثار عليهم ودعوا منه بباقعة، وكان الأستاذ الرئيس يقدر له ـ وهو في الحداثة ـ عواقب الرجال، ويتخيل فيه مخايل الأبطال، ويقول له كلما رأى منه مخيلة صدق: (لمثل هذا كنت أحسيك الحسا).

ثم جاوز البحر سنة 1936 ميلادية، بموافقة من الأستاذ الرئيس ومني، ليرد على الضالين من أبناء قومه هداية الإسلام، وليرد على الناشئين هناك من

أبنائهم ما أضاعه الوسط من دين ولغة، وليزرع في قلوب الآباء والأبناء معاً، حب الدين والجنس واللغة والوطن، وليعيد إلى الجزائر ـ بذلك كله ـ قلوباً تنكرت لها، وأفئدة هوت إلى غيرها، وغراساً أظمأه الاستعمار في مغارسه فالتمس الري والنماء في غيرها، فتتبعهم الفضيل في مطارح اغترابهم، وجمع شملهم على الدين، وقلوبهم على التعارف والأخوة، وجمع أبناءهم على تعلم العربية، وأسس في باريس وضواحيها بضعة عشر نادياً، عمرها هو ورفاقه الذين أمدته بهم جمعية العلماء، بدروس التذكير للآباء والتعليم للأبناء، والمحاضرات الجامعة في الأخلاق والحياة، ونجح الفضيل في أعماله كلها، نجاحاً عاد على المسلمين في فرنسا بالخير والبركة، وعاد على جمعية العلماء، بالسمعة العطرة والدعاية الطيبة، وكان في تلك المدة كلها، متصل الأسباب بجمعية العلماء، مراسلة واستمداداً، وإشارة واستشارة، وقد رجع في أثنائها إلى الجزائر، كلما انعقد اجتماع أو حزب أمر، وما زلت أذكر حضوره في اجتماع الجمعية صيف سنة 1937، وحضوره على أثر ذلك، افتتاح مدرسة «دار الحديث» بمدينة تلمسان، وخطبته في ذلك الحشد، الذي ضم عشرين ألفاً بعد سماعه لقصيدة الشاعر محمد العيد، وحملته الجارفة على التجنيس والمتجنسين.

وفي أواخر سنة 1938 فيما أذكر، هاجر إلى مصر مستزيداً من العلم والتجارب، مستجمعاً قوته للعمل في ميدان أوسع وجو أصفى، وكانت له المواقف المشهودة، والرحلات الموفقة إلى الأقطار العربية، وكان في تلك المدة كلها، متصلاً بنا على قدر ما تسمح به ظروف الحرب. إلخ. .

وهذه كلمة سكرتير جمعية التهذيب بباريس تحت عنوان:

إلى مجاهد العروبة والإسلام في استانبول

قال حضرته بعد كلام يخاطب فيه صاحب الجريدة:

والأمر الثاني الذي يهمني يا سيدي، فيما نشرته جريدتكم، هو ما يتعلق بالمجاهد الإسلامي الكبير الأستاذ الفضيل الورتلاني فلقد كان ما نشرته صحيفتكم من أخباره السارة، ونصائحه الغالية، التي كان يسديها لملككم

الراحل، رحمه الله ـ وما كانت تحمله عباراتكم من معاني وفاء أهل اليمن لفضله وإخلاصه، كل ذلك كان برداً وسلاماً على قلوب ثلاثين مليوناً من أبناء المغرب العربي. لأن الرجل، كان دائماً ولا يزال، مفخرة هذه البلاد في علمه الواسع، وحنكته وتجاربه العميقة، كل ذلك يتوجه عمل مستمر لا ملل فيه، وإخلاص لا تشوبه شائبة، وتضحية هي مضرب الأمثال.

فلقد كان يملأ أعظم الفراغ في هذه البلاد، في جميع الميادين العلمية والتربوية والسياسية، حتى ضاق الاستعمار به ذرعاً، ونصب له عشرات المكائد للإيقاع بحريته أو حياته، وظل يكافح ويبطل، بفضل إخلاصه وحكمته، كل مكائد الاستعمار، حتى أوشكت الحرب الماضية أن تندلع، وصار قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في شباك هلاكهم، فسلمه الله وسلك به طريقاً إلى ذلكم الشرق العزيز، فكان من جهاده هناك، للعروبة والإسلام، ما تعرفونه أنتم أكثر منا، حتى إذا وقعت حوادث اليمن، وجدها المستعمرون المتربصون فرصة لأذيته، فسخروا وكالات الأنباء، والإذاعات الرسمية، والصحف المأجورة، في سبيل النيل من سمعته، ولكن كان مثله كمثل الشمس في كبد السماء، يرجمها جمع من الأطفال بطائفة من الحجارة، وما هم بواصلين إليها.

ولقد كان للزعيم الورتلاني، أعظم جهاد في هذه البلاد الأوروبية وفي هذه العاصمة الفرنسية بالذات، حتى أنك لتشعر في أيامه وأنت بباريس، كأنك في إحدى كبار عواصم الشرق، من حيث الجو الإسلامي والعربي، وكان لي شرف مصاحبته في تلك الفترة الكريمة، وكان لي عمل متواضع معه، ففي باريس وحدها فتح الورتلاني خمس عشر نادياً، يتردد على كل واحد منها، آلاف من أبناء المسلمين، يتلقون الدروس، ويسمعون المحاضرات، ويؤدون فروض العبادة، ويحيون تعاليم الإسلام وفضائل العروبة، ويكافحون الاستعمار وكانت هذه الأندية مثابة لكل شرقي ينزل في هذه البلاد الأوروبية، وأني أذكر تلك الاجتماعات العمومية التي كان يخطب فيها على الآلاف المؤلفة من المسلمين، جمع كبير من رجال الإسلام، على اختلاف أوطانهم، وأذكر بالضبط ليلة تكلم فيها ثمانية عشر خطيباً، كل واحد منهم عن قطر خاص، فمن

مصري إلى عراقي إلى جزائري إلى هندي إلى ألباني وهلم جراً، وإني في هذه الكلمة العاجلة، غير قاصد ولا قادر ألبتة، أن أسرد ولو مجرد رؤوس أقلام، لجهاد الورتلاني، وإنما عاطفة السرور، دفعتني إلى مناجاة روحه الطاهرة بهذه الكلمة المتواضعة، وأن أتوجه إليه في مقره باستانبول، بتحياتي وتحيات ثلاثين مليوناً من أبناء المغرب العربي، راجياً باسمهم جميعاً وملحاً في الرجاء، أن يعيد النظر في أمر إقامته باستانبول فإن بلاد المغرب العربي أحوج ما تكون إلى شخصيته الكريمة في مثل هذه الظروف الدقيقة، التي يتقرر فيها مصير الأجيال من أبنائها الأبرار، وإلى أن يتقرر لديه هذا، وتتشرف البلاد بعودته نرجو له أطيب الإقامة في استانبول، عاصمة السلاطين العظام.

باريس ـ الوائل محمد الصغير
سكرتير جمعية التهذيب في فرنسا

رحيل الشيخ الفضيل إلى المشرق العربي

في أواخر عام 1938، اشتدت مضايقات الإدارة الاستعمارية له وأخذت تسعى لاعتقاله، واغتياله، كما أشيع، فغادر باريس خفية بمساعدة المصلح والداعية الكبير الإسلامي، الأمير شكيب إرسلان، والتحق بالمشرق العربي، وقصد مدينة القاهرة، عاصمة أرض الكنانة، واتصل بالشخصيات الإسلامية، والعلماء، ومكافحي بلدان المغرب العربي، ومتن صلاته بكبار شيوخ الجامع الأزهر أمثال: الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، وكيل الأزهر، والشيخ مصطفى المراغي، والدكتور مصطفى عبد الرزاق، والشيخ حسن البناء، رئيس جمعية الأخوان المسلمين، والشيخ الخضر حسين، وغيرهم، وركز في عمله وجهاده على التعريف بالجزائر وطنه الأصغر وبالعالم العربي والإسلامي وطنه الكبير، وقام بنشاط واسع ومكثف حتى أصبح داعية إسلامية كبيراً تخطت سمعتهُ مصر إلى كل بلدان العالم الإسلامي التي تنقل فيها كلها للتعريف بالقضايا المغاربية

والعربية الإسلامية، وحصل على سمعة كبيرة، وأصبح يدعي بالمجاهد والداعية الفضيل الورتلاني. وحصل على شهادة العالمية من كلية أصول الدين التي التحق بها عام 1939، كما توضح ذلك بطاقته المدرسية.

تعيين الفضيل كاتباً عاماً لجبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية

وفي القاهرة لعب الشيخ الفضيل الورتلاني دوراً بارزاً في تكوين جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، التي أسندت رئاستها إلى الشيخ الخضر حسين الجزائري الأصل، وتولى هو منصب الكاتب العام لها، وكان ذلك يوم أول ربيع الأول 1364 هـ الموافق ليوم 18 فيفري 1944 م.

وكان من بين أعضائها: الدكتور محمد عبد السلام العيادي، وأحمد نجيب بك برادة، والحاج أحمد بن قايد، ومصطفى بك بيرم، والشيخ إبراهيم أطفيش، والشيخ إسماعيل علي، والشيخ السعدي عمار، والحاج اليمني الناصري، والأستاذ أبو مدين الشافعي، وأحمد بن المليح، وحمود بن قابد، وأحمد السعدي، ومحسن بيرم، والأمير مختار الجزائري، وغيرهم.

وحددت أهداف هذه الجبهة في الأمور التالية:

مادة 1: ميلاد هذه الجبهة يوم 1 ربيع الأول 1364 هـ (18 فبراير 1944 م).

مادة 2: أهداف الجبهة السعي لتحقيق حرية واستقلال الشعوب لشمال إفريقيا (تونس، الجزائر، مراكش) وضمها إلى جامعة الدول العربية.

مادة 3: دستور الجبهة (التضامن وتحريم العصبيات).

مادة 4: تسعى الجبهة لتحقيق أهدافها بجميع الوسائل المشروعة كإنشاء الصحف، وفتح النوادي، وتكوين شعب لها في مصر، وخارج مصر إن لزم الأمر.

وفي إطار هذه الجبهة، وبحكم منصبه فيها أميناً عاماً، قام بنشاط مكثف وكتب عشرات المقالات، والرسائل، والبرقيات، إلى الملوك والرؤساء، والأمراء والجامعة العربية وأمينها العام، والأمم المتحدة، والهيئات الدولية

المختلفة، للتنديد بالاستعمار والتعريف بقضية الجزائر، وكل شعوب شمال إفريقيا.

وعندما قام الاستعمار الفرنسي بمجازر 8 ماي 1945 بالجزائر، ووصلت أخبارها إلى القاهرة، قام بنشاط دعائـي مكثف في الصحف والنوادي للتنديد بها، والاحتجاج، وتعريف العالم بخطورتها، وعرف بقضايا تونس، والمغرب الأقصى، وطرابلس، وكتب عشرات المقالات في صحف مصر، والشرق.

فتضايق السفير الفرنسي بالقاهرة من نشاطه، واتصل بالمسؤولين المصريين ليزعم لهم بأنه يكذب ويتقول ماليس حقيقة، فتصدى له بالرد المفحم، ووجه إليه رسائل مفتوحة بلغ عددها حوالي ثمانية عشر رسالة، نشرها في الصحف المصرية، كشف فيها مخازي الاستعمار الفرنسي في كل بلدان شمال إفريقيا، وأفحمه بالحجة والبرهان. وقد نشرت جريدة مصر الفتاة هذه الرسائل ونقلتها عنها الجرائد السورية والعراقية، ثم جمعتها جريدة النذير المصرية وأصدرتها في عددين اثنين خاصين: 151 و152 بتاريخ أول محرم 1366 (25 نوفمبر 1946) في اطار نشاط جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية.

ولم ينس الفضيل أن يكتب عن فلسطين، ومكر اليهود وخبثهم، ويكاتب ويراسل الملك عبد العزيز آل السعود، ورئيس الجمهورية السورية، ورئيس وزراء مصر، والأمين العام لجامعة الدول العربية، والسلطان محمد الخامس، ووزراء الخارجية العرب، والحكومة المغربية، والجامعة العربية، والأمم المتحدة، وعلي ماهر باشا، وملك الأردن، ورئيس مؤتمر سان فرانسيسكو، ووزراء الدول الخمس في مجلس الأمن، ورئيس وزراء سوريا، وغيرهم ممن لا يمكن حصرهم.

إن كتاب الجزائر الثائرة التي وضعه الورتلاني قبل وفاته يزخر بهذه المراسلات، والكتابات، والنداءات، التي قام بها، تطفح كلها بالوطنية الإسلامية الفياضة، وبدعوة المسلمين إلى اليقظة، والوحدة، والعمل للتخلص من الاستعمار ورواسبه، لقد كان الورتلاني لوحده جبهة وكتيبة عسكرية، وأدى

ما عليه من واجب كان يشعر به ويحس بثقله، ولم يتقاعس عن العمل حتى في أحرج أوقاته الصعبة خلال أزمة اليمن وما تلاها من الأحداث وقد راسلهُ الحبيب بورقيبة بالقاهرة برسالة وجهها إليه في لندن على ما يبدو، يشير فيها إلى عدد من الأحداث نورد نصها فيما يلي لأهميتها:

الحبيب بورقيبة المحامي

رئيس الحزب الحر الدستوري التونسي

القاهرة في 1945/07/24

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الوطني الغيور الأستاذ الفضيل الورتلاني تحية وسلام.

وبعد فقد وافاني كتابكم المؤرخ في 21 الجاري. والجواب هو أنني تقابلت مع الأستاذ عبد الرحمان عزام حسب الاتفاق، ولكنني لم أتمكن من التبسط في الموضوع لضيق الوقت ولم يزد كلامه إليّ عن المعتاد، أما مسألة توفيق السويدي فإني تقابلت معه مرتين وأظن أن التصريحات التي أشرتم إليها إنما كانت نتيجة المقابلة الأولى وأشار إلي بوجوب العمل في لندن عند اجتماع لجنة الوصاية هناك أي في شهر أكتوبر القابل ووعدني بالإعانة إذ ذاك. وقد اجتمعت اللجنة العامة لمؤتمر الهيئات العربية لكن لم يخرج نشاطها عن تعيين لجنة فرعية تتركب من خمسة شخصيات «لتنفيذ قرارات المؤتمر»...؟ وهو شيء ضئيل جداً. وغالب الأخوان مشتغلون بتجهيز العدد الخاص من المجلة لقضية شمال إفريقيا، وقد صدرت أخيراً جريدة «لامرسييز» وبها فصل عن حوادث الجزائر كلها تضليل، وافتراء تصلكم طي هذا ترجمته حسبما وردت في الكتلة بتاريخ 20 يوليو الجاري، ويحسن الرد عليه بكلمة منكم لما لديكم من المعلومات في خصوص الشعب الجزائري ولكم سديد النظر.

هذا أهم ما عندنا عرفناكم به، وفي الختام أتمنى لكم صحة طيبة وشيئاً من الراحة الفكرية ليمكن لكم مجابهة الأيام المقبلة بما فيها من أتعاب وإجهاد فكر في سبيل الوطن المقدس، والسلام من كافة الأخوان فرداً فرداً وبالخصوص من المخلص.

الحبيب بورقيبة

دور الشيخ الفضيل في ثورة اليمن عام 1948

ما يزال موضوع مشاركة الشيخ الفضيل الورتلاني في ثورة اليمن غامضاً، ولم يكشف الستار عن خلفياته ودوافعه ما عدا ما كتبه بعض اليمنيين الذين عاشوا الحدث ومنهم القاضي عبدالله الشماخي، والسيد أحمد الشامي.

والشيء الواضح حالياً هو أنه ذهب موفداً من الشيخ حسن البنَّا زعيم الأخوان المسلمين بمصر ليدير شركة تجارية مقرها مصر، تابعة للأخوان المسلمين ولها امتيازات واسعة في اليمن وذلك لخبرته في الميدان التجاري وأنه ذهب إلى عدن، ومن هناك دخل إلى اليمن الشمالي حتى وصل إلى صنعاء، فأعجب به ملك اليمن، والأمراء، والأعيان لفصاحته، وسحر بيانه، وقدرته على الإقناع، ودعوته الصريحة للإصلاح.

هكذا كانت البداية ثم تحولت إلى مشاركة في الإعداد للثورة، وقلب نظام الحكم في اليمن والقضاء على أسرة يحيى حميد الدين، ولدينا رواية القاضي عبدالله الشماخي التي يمكن أن تقدم لنا صورة عن دور الشيخ الفضيل في هذه الثورة، نوردها فيما يلي في انتظار روايات أخرى، وهي منقولة عن كتاب: رياح التغيير في اليمن للسيد الشاعر: أحمد الشامي أحد المشاركين في هذه الثورة:

يقول المؤرخ اليمني القاضي عبدالله الشماخي:

«ويأتي الأستاذ الجزائري الفضيل الورتلاني موفداً من الإمام حسن البنا،

وروح الثورة تتقدمه، فيمر بعدن ويضاعف حماس قادة حزب الأحرار وأعضائه، ذلك الحماس الزاحف مع الفضيل إلى كل مكان حل فيه، فهو معه بتعز يهز الملك المظفر، وبـ «إب» يحرك الملك المكرم والوالدة أَرْوَيَ، وبصنعاء يلهب شبابها وطلاب مدارسها وضباطها بسعير ثوري حَوَّلَ الجو بصَنعاء وعدن إلى أتون من التفكير الموجه الصحيح، وصار اليمن وكأنه قد ألغم بصواعق ستنقض على الإمام يحيى وحكومته. خيال نعم به أحرار اليمن زمناً أوقعهم بالغرور ومغباته، فلم يسمعوا لصوت الحقيقة المنبعث من مواطن القبائل اليمنية التي لم تصل إليها الدعوة النضالية فضلاً عن الحماس لها ولروحها المستعرة التي كانت لا تتجاوز بعض المجموعات من الشباب والطلاب والضباط في صَنعاء، وإب، وذمار، وتعز، وهنا حماس زاد في إشعاله الفضيل، وقد تمكن من ذلك لاحتضان ولي العهد أحمد له، فقد وصل تعز فاستقبله أحمد، وأعجب به وبدعوته الإصلاحية الإسلامية، وأسلوبه في الخطابة، والمحاضرة، والمحادثة، وفي تعز اتصل الفضيل بالقاضي عبد الرحمن الأرياني، والسيد زيد الموشكي، والسيد أحمد الشامي، ولازمه في تجواله وتأثر كل منهما بالآخر، وفي صنعاء قام الفضيل بنشاطه الثوري يرافقه المؤرخ المصري أحمد فخري، ويساعده الشامي، فيجذبان إليهما السيد العالم حسين بن محمد الكبسي، ويتصل الثلاثة بالمطاع وغيره، ويندفع الفضيل في إقامة الندوات، وإلقاء المحاضرات في المدارس، والمساجد، والحفلات فتسري روحه إلى الشباب والضباط، وطلاب المدارس، ولقد بلغ الحماس بصَنعاء ذروته أوائل العام السابع والستين وثلاثمائة وألف هجرية (1948 م)، وحول الجو بصَنعاء إلى درجة من التوتر أصبح الإمام يعي وأتباعه وهم يحسون بأن حولهم ثورة ستنفجر فراحوا يتحسسون ليضعوا أيديهم على مواطنها، وبدأوا باعتقال الشباب والضباط، وطلاب المدارس، وكلما حاولوا إيقاف الفضيل وإخراجه من اليمن ومد أيديهم إلى المثقفين حوله أرجعهم القدر، وتدخل ولي العهد وتوصياته بالفضيل، ودفاع السيد حسن الكبسي عنه، وكانت الثورة تبدو كأنها تطرق الأبواب، وهنا يتدارس الكبسي وأمثاله حول الوضع الحقيقي لليمن، فيقرون

افتقار الثورة إلى عناصر النجاح ما لم تدعمها القبائل، ولا سبيل إلى كسب القبائل عن طريق التوعية والمنظمات، فالوقت أضيق في هذا الطريق، ومن هنا يأتي الأمير عبدالله الوزير إلى الإمامة مع رجالات الدستور المنصوص عليه في الميثاق المقدس.

وأضاف القاضي عبدالله الشماخي بعد ذلك قائلاً:

«تمكن الفضيل، والكبسي، والمطاع، ورفاقهم من إثارة المخلوف، إلى درجة دفعت كلاً من الإمام يحيى وإولاده، وعبدالله الوزير، إلى أن يعد العدة ليتخلص من الآخر. وكان للشهيدين: السيد محمد بن حسين عبد القادر، والحاج عزيز المطري، نصيب الأسد في تسليط المخاوف على عبدالله الوزير كما كان للكبسي والشامي، والشماخي، الأثر الكبير في إثارة المخاوف على الإمام يحيى وبعض بنيه، فاقتنع الوزير بتوليه قيادة الثورة، والاستعداد لتفجيرها فقوى علاقته بالفضيل، ومن يتصل به وفتح لهم داره لعقد الاجتماعات ووضع المخططات، واتصل بمن يثق به من أعيان القبائل الموالية له ليكونوا على استعداد للساعة المطلوبة وتمكن من استمالة القاضي عبدالله العمري، والسيد حسين عبد القادر، إلى وجوب التخلص من أولاد الإمام وولي العهد أحمد وخطرهم الذي سحق معنويات العمري، والوزير، وحسين عبد القادر، وأعوانهم، والذي سيسحق شخصياتهم في المستقبل العاجل، إلى ما هناك مما جعل العمري يعمل في كتمان لصالح الوزير».

ويضيف كذلك قائلاً:

«عندما بلغ الموقف هذه الدرجة راح الفضيل والمطاع، والكبسي، ورفاقهم يضعون الخطط ويتصلون في صنعاء بالرئيس العسكري العراقي جمال جميل وغيره، وذهبت رسلهم تحمل المعلومات من تعز إلى الزبيري، ونعمان، بعدن، وإلى البناء بالقاهرة، وانتهت الاتصالات بالموافقة على أن يكون الوزير إماماً دستورياً، على رأس حكومة دستورية، وفعلاً شكلت الحكومة، ونص على أعضائها ووضع لها دستور سمي الميثاق الوطني المقدس اشترك في وضعه الفضيل والكبسي، وغيرهما، وكتبه السيد أحمد بن محمد الشامي، وأرسلت

منه نسخة بخط الشامي إلى الزبيري، والنعمان ليطبع منها عدد كبير يحفظ هناك في سرية إلى الوقت المناسب لإعلان الثورة، وطبع الميثاق واحتفظ بكل الأعداد، لكن السرية لم يحتفظ بها»[1].

وبعد فشل الثورة أفلت الشيخ الفضيل إلى مركب بحري مع رفيق له هو الدكتور مصطفى الشكعة المصري وقضيا عليه شهرين كاملين يذرع بهما البحر الأحمر والبحر المتوسط بحثاً عن مكان للجوء، ولكن البلدان العربية أغلقت حدودها دونه لتعاطفها مع أسرة حميد الدين، إلى أن وافق المرحوم رياض الصلح رئيس وزراء لبنان على لجوئه إلى لبنان بصفة متخفية، وغير رسمية تجنباً للمشاكل والمضايقات العربية والأوروبية.

وفي رسالة للدكتور مصطفى الشكعة إلى ابن الشيخ الفضيل، توضيح لهذه الأزمة أرسلها إليه من مدينة العين بالإمارات العربية المتحدة هذا نصها:

الأخ العزيز مسعود حفظه الله

سلام الله عليك ورحمته وبركاته

سعدت كثيراً بالاطلاع على رسالتكم إلى أخي الأستاذ الدكتور عبده الراجحي، التي تطلبون فيها عنواني للاتصال بي وتوثيق العلاقة بيننا إحياءاً لصلة كريمة عزيزة كانت تربطني بالمرحوم المبرور والدكم العزيز، واستئنافاً لوشيجة أنا أكثر حرصاً على تثبيتها وتمكينها.

إن صلتي بالمرحوم والدكم لم تكن مجرد صداقة ولكنها كانت أخوة موصلة الأسباب لإثنتي عشرة سنة في السراء والضراء في مصر، واليمن، ولبنان، فكان إذ أعز اللقاء في مصر، سعيت إليه في لبنان، ولقد خضنا سوياً مواقف حاسمة ولا أقول معارك حاسمة في تاريخ هاته الأمة رغم حداثة سني، آنذاك. فقد كان رحمه الله بمثابة الأخ الكبير لي، عشنا معاً الأيام الحاسمة في تاريخ اليمن في صنعاء، وقضينا مدة شهرين على باخرة صغيرة تذرع بنا البحر

(1) القاضي عبدالله الشماخي: ثورة 1948، ص 39 ـ 40 ـ 46 ـ 50 عن كتاب رياح التغيير في اليمن للسيد أحمد الشامي (جدة 1405هـ / 1984).

الأبيض، والبحر الأحمر، وعملنا من أجل استقلال الجزائر، وقد كان أبوك بعمله وفضله، وفصاحته، ومنطقته، وصبره، بمثابة كتيبة كاملة في معركة التحرير، ولم نفترق إلا حين هاجر مضطراً إلى تركيا حيث وافته المنية، وهو يقرأ كتاب الله بصوت جهير وأكرمه الله في الفترات الأخيرة بوجود مستشار السفارة الليبية صديقنا الأستاذ فرج بن جليل بالقرب منه.

وسوف يسرني كثيراً أن أعرف أخباركم وأطمئن على أحوالكم والله يحفظكم ويرعاكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. العين في: 20 فبراير 1985م.

المخلص: مصطفى الشكعة[1]

وقد تعاطف مع الفضيل المحبون والمخلصون، والمؤمنون بمستقبل الإسلام والأمة الإسلامية، ومنهم رئيس حزب الاتحاد اليمني الشيخ عبدالله علي الحكيمي الذي له زاوية بمدينة كارديف، وصحيفة تنطق باسمه تدعى: السلام، فكان يتتبع أخباره وينشرها ومن ضمن العناوين التي نشرها آنذاك: الشيخ الفضيل الورتلاني طريد البلاد العربية، وبالطبع فإن الشيخ الحكيمي معارض لأسرة الإمام يحيى حميد الدين. ويتزعم حزب الاتحاد اليمني المعارض.

وخلال أزمة الشيخ الفضيل هذه قامت مشيخة الجامع الأزهر بتشميع حجرته، بمسكن سوق الصيارف عدة شهور، وذلك على ما يبدو بأمر من السلطات المصرية الملكية التي كانت تتعاطف مع النظام الملكي في اليمين، وتتضامن معه.

ثم أصدر وكيل الأزهر يوم 14 ديسمبر 1948، قراراً بالاستيلاء على الحجرة وإخلائها من الأثاث وكلف الملاحظ بالقسم العام بتنفيذ الأمر، فقام صحبة ثلاثة من الفراشين بجرد ما فيها من الأثاث والألبسة، والأدوات، والكتب، ونقل كل ذلك إلى حجرة بالقسم العام تحت عهدة أبي العز الإشراقي.

---

(1) تسلمت صورة من هذه الرسالة من ابن الشيخ الفضيل.

وفيما يلي نص هذا الأمر، ومحتويات الحجرة كما جاءت في ذلك القرار:

جرد محتويات حجرة الشيخ الفضيل الورتلاني بمسكن سوق الصيارف وإخلاؤها

إنه في يوم[1] الثلاثاء ديسمبر 1948، كلفني شيخ القسم العام بالأزهر بتنفيذ الأمر الصادر من فضيلة الأستاذ الجليل وكيل الجامع الأزهر بإخلاء الغرفة الكائنة بمسكن سوق الصيارف التابع للأزهر، ونقل محتوياتها الخاصة بالشيخ الفضيل الورتلاني، إلى القسم العام بالأزهر ليمكن الانتفاع بتلك الغرفة بعد أن ظلت معطلة مدة طويلة.

وبناء على ذلك توجهت أنا الموقع على هذا، أحمد مرزوق بكر، الملاحظ بالقسم العام، ومعي حسن الطبلاوي، وأحمد الطبلاوي الفراشين بالقسم العام، وصلاح محمد أحمد الفراش بمسكن سوق الصيارف، وبعد معاينة خاتم الشمع الذي كان على باب الغرفة، والتحقق من سلامته، قمت بحضور المذكورين، بفتح الغرفة، فوجدنا محتوياتها تامة، وسليمة بالحالة التي كانت عليها ثم كلفت الفراشين المذكورين بإحضار عربة نقل، وقمنا بنقل جميع الأدوات والدواليب والكتب إلى القسم العام مع المحافظة التامة عليها أثناء عملية النقل، وقد تم وضعها في غرفة خاصة وتسليمها إلى محمد أبو العز الأشراقي في عهدة القسم العام وهذا محضر بذلك.

أحمد مرزوق بكر، حسن الطبلاوي، أحمد حسن الطبلاوي

وأقرر أنا الموقع على هذا، أبو العز الأشراقي عهدة القسم العام بالأزهر أنه قد وردت اليوم إلى القسم العام الأشياء الخاصة بالشيخ الفضيل الورتلاني التي كانت محفوظة بإحدى الغرف بمسكن سوق الصيارف وبيانها:

(1) تسلمت صورة من هذا الأمر من الأخ مسعود ابن الشيخ الفضيل بمدينة قسنطينة يوم 7 جوان 1989 بالمركز الثقافي الإسلامي الذي يديره.

عــدد	بيــــان
1	سرير مفرد بلوازمه وهي: مرتبتان، ومخدتان، وثلاثة بطاطين، وثلاث ملايات فرش
2	دولاب ملابس كبير، كل دولاب ذو مصراعين من الخشب.
1120	كتاب (وضعت بالدولابين المذكورين، منها كتب كبيرة، وكتب صغيرة مجلدة، وغير مجلدة، ومن بينها بعض المصاحف)[1].
1	شهادة العالمية الخاصة بالغرباء.
15	صورة فوتوغرافية منها واحدة موضوعة في إطار.
4	كراسي خشب منها ثلاثة قواعدها مملوءة بقش الخيزران، والرابع منجد.
2	طرابزة خشب مستطيلة ذات ثلاثة أسطح وأرجلها مخروطة، والأخرى مستديرة.
1	مكتب صغير من الطراز الإنجليزي بأربعة أدراج.
1	شنطة ملابس من الضبر متوسطة الحجم.
1	مرآة متوسطة في إطار من الخشب.
17	شماعة للملابس منها 6 كبيرة و11 صغيرة.
2	علبة من الخشب المطعم واحدة كبيرة والأخرى متوسطة.
1	علبة معدنية من علب الحلوى صغيرة.
1	علبة من الكرتون المبطن من الداخل بالقماش الأزرق.
2	طارة مستديرة من الخشب الأبيض.
56	قطعة ملابس مختلفة الأنواع (بلاطي، وبنطلونات، وصداري بدل، وقمصان إفرنجي، وفانلات، وجلاليب، وروب، وعقالات).
1	كمر جلد.

(1) بعد إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ثم نقل عدد من كتب الشيخ الفضيل إلى مكتبتها التي أنشئت بها في حي ڤاردن سيتي بالقاهرة، وذلك عام 1958 و1960 م.

5	طرابيش مستعملة.
3	فرشاة ملابس ومشطين.
2	كيس مخده أبيض جديد.
2	زوج حذاء قديم من الجلد الأصفر، وسيف، وخنجر، كل منهما في قراية.
5	براد صاج، وطبقين من العاج، وكوبين للماء واحد ألومينيوم والآخر زجاج.
1	كليم صوف بلدي كبير، وكمية كبيرة من الكرافتات القديمة، والجوارب، والبطاقات، والأوراق الخاصة.

وإني أقرر أني تسلمت الأشياء المذكورة ووضعتها بإحدى الغرف بالقسم العام وأصبحت في عهدتي، وأتعهد بالمحافظة عليها محافظة تامة وهذا إقرار مني بذلك.

محمد أبو العز الأشراقي

قمت بمعاينة الأشياء المذكورة وهي موضوعة بالغرفة المجاوفة لغرفة التليفون، وقد تم قفل الدواليب، بحضوري على الكتب والأشياء الأخرى الموضوعة بداخلها وختمت بالشمع الأحمر وبذلك أصبحت عهدة الشيخ أحمد مرزوق خالية من هذه الأشياء لانتقالها إلى عهدة محمد أبو العز الإشراقي.

نظره 1948/12/15

الختم
بتاريخ 16 ديسمبر
1948

يعتمد شيخ القسم العام
(الإمضاء)

وعندما صدر عفو الإمام أحمد، ملك اليمن الجديد، على المتهمين في الثورة، شمل الشيخ الفضيل الذي كان صديقاً له، ولربما كان هو السبب في نجاته وخروجه من اليمن، وكان الذي حال دون اعتقاله من قبل الإمام يحيى قبل اغتياله.

وكتب الشيخ البشير الإبراهيمي مقالة في البصائر استنكر فيها أن يكون الفضيل قد شارك في المؤامرة، واعتبر شمول العفو له بمثابة إهانة له. نوردها فيما يلي لأهميتها كشهادة.

شهادة الشيخ البشير الإبراهيمي
في الشيخ الفضيل الورتلاني[1]

وصلتنا من بيروت كلمة من الأخ الكريم الحاج خليل أبو الخدود، ومعها تصريحات لولدنا الأبر الأستاذ الفضيل الورتلاني، قبيل الاجتماع العام لجمعية العلماء. وكنا آنذاك منهمكين في إعداد الاجتماع، وفي استقبال السنة الدراسية وشؤون المدارس والعهد الباديسي، وما يستلزمه ذلك من أدوات ووسائل وتجديد في الأجهزة اللازمة من برامج ومال، ورجال ولقد كان إسكان تلامذة المعهد، وعددهم يشارف السبعمائة كافياً لاستنفاذ الجهد، واستغراق الوقت، وقارنت تلك الجهود تأخر «البصائر» عن مواقيتها لأسباب داخلية اقتضاها التجديد، لذلك كله تأخر نشر الكلمة وما معها من تصريحات إلى هذا العدد. فمعذرة إلى الأستاذين الفاضلين البعيدين عنا بعد الدار، القريبين منا قرب العمل المشترك والفكرة الجامعة أبي الخدود، والورتلاني.

وقد كنا قرأنا في الجرائد الشرقية خبر عفو أمير اليمن عن المتهمين في الحركة الانقلابية التي كان من آثارها قتل أبيه يحيى حميد الدين. فلم يحرك منا

(1) نشرت في العدد 174 من جريدة البصائر بتاريخ 05 نوفمبر 1951 م وفي كتاب عيون البصائر. الجزء الثاني (الجزائر ـ بدون تاريخ) «1971»، ص 687 ـ 690.

هذا العفو شعرة، كما لم يثر منا ذلك الانقلاب إلا الألم ولا يستطيع أحد أن يتهمنا في هذا بجفاء الطبع أو جفاف العاطفة، فنحن من أشد الناس افتتاناً بالعروبة والعرب، وأرقهم إحساساً في النوائب التي تنوبهم، وأعمقهم أسى للحالة التي هم عليها ولكن رأينا في ملوك العرب معروف، ومن رأينا في الكثير منهم أن كل ما يصدر منهم من عقد، ونقض، وعفو، ومؤاخذة، فهو ناشىء عن خطرات من الوساوس الفردية لا عن بواعث من المصلحة العامة. وأنهم عدموا القوانين المقيدة، فاستحكمت فيهم النزعات المطلقة، فأصبحوا، في نظرنا يوجدون فكأنهم، في فراغ الحياة، ما وجدوا، ويفقدون فكأنهم لهوان الخطب ما فقدوا. ومن رأينا في ذلك الانقلاب أنه أحط من بصيرة المتبصرين بدرجات وأنه متأخر عن وقته بسنوات. وأنه لو صحبته البصيرة، وكان العلم والعقل من ذرائعه، لكان تطوراً لا انقلاباً، ولما سأل فيه ملء محجم من الدم.

وقالت تلك الأخبار: إن العفو شمل الأستاذ الفضيل الورتلاني المتهم بتدبير الانقلاب، والاغتيال وتباشر أصدقاؤه وعارفوا فضله لهذا العفو، كأنهم رأوا فيه حداً للحالة التي يعيش عليها، وكأنهم يرون أن تلك التهمة على بطلانها، عاقت الأستاذ الفضيل عن مواصلة جهاده في سبيل العرب والمسلمين، فالعفو يضمن له تابعة الكفاح.

والأستاذ الورتلاني ابن بار من أبناء جمعية العلماء، وغض من دوحتها الفينانة، فتح عينيه على شعاعها وسار في الحياة من أول خطوة على هداها وبز الجياد القرح في ميادينها، ورمى الغايات البعيدة بتسديدها، ورضى عقله على التفكير الصائب، ولسانه على الحديث الصادق في الإصلاح السياسي، وهذه أنواع من الإصلاح متشابكة الأصول، متشابهة الفروع تفصل بينها فواصل اعتبارية دقيقة، ولكن الأجرياء المقدمين يرونها متلازمة متوقفاً بعضها على بعضها، ولا يتم جزء منها إلا بتمام جميعها، ومن هؤلاء ولدنا الفضيل، فلما ضاق عنه وطنه الأصغر طار إلى وطنه الأكبر، ولما كان الأستاذ الورتلاني منا، ومكانته عندنا، وأعددناه من أبنائنا البررة، ورجالنا الأفذاذ، وتيقنا من طهارة ذمته من القاذورات، وتسامي همته إلى بناء المأثورات، نرى أن كلمة: «العفو

عنه» كما تقول الجرائد، سبة لم يسب بأفحش منها، ولا نظن أن ولدنا الفضيل ارتاح لها، أو وقعت منه موقعها، لما نعرفه فيه من الشمم وكبر النفس، وما زالت كلمة العفو في مثل هذه المواطن ثقيلة على النفس الحرة، لا يطرب لها إلا المذنبون الضارعون، كالذي يقول (رأيت العفو من ثمر الذنوب) وإذا كان العفو لا يكون إلا عن جان فإقراره إقرار للجناية، ومتى كان الفضيل جانياً حتى يعفى عليه؟ أو حتى يكون العفو عنه مدعاة للسرور والابتهاج؟ وقد وقع لنا مثل ذلك مع الاستعمار، يظلمنا، ثم يبدو له فيقول: عفوت عنكم. فلا يكون أحز في نفوسنا من ظلمه إلا عفوه.

كل ذنب الفضيل أنه أراد أن يعالج ناحية من نواحي تلك المملكة الشقيقة. فعاجلته الأيدي الخفية التي تريد إصلاحاً بتلك الحادثة.

وبعض ذنبه، إن كان هذا يسمى ذنباً، أن جرأته على مصارحة الأمير القتيل بلزوم الإصلاح، وتنبيههُ إلى مواقع الخطر المترتب على الإهمال، كل ذلك جراً للطائشين على التعجيل بأمر لم يجيلوا فيه روية، ولا تدبروا له عاقبة، والمعاني الكبيرة لا تحتملها العقول الصغيرة، وأعان على ذلك ظلم طال أمده، واتسع مداه وتظلم خفت صوته، فلم يتردد صداه.

إننا نعلن، نيابة عن الأستاذ الورتلاني، بما لنا عليه من حق الأبوة، أنه يستحق التبرئة والاعتذار إليه لا العفو، إذا كانت العقول قد ثابت إلى رشدها، وطهر الجو من الروائح الاستعمارية، التي أفسدته. أما إذا كان الإمام لا يحسن الإمامة، وكان السيف لا يقطع إلا أوصال جلية، فخير للفضيل أن تتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق من أن تكتب في تاريخه الحافل «طرة» وهي أنه (مجرم معفو عنه).

إننا قوم لا نرضى من الأخلاق إلا أن تكون عقائد، وأن هذا الاعتبارات هي التي أسكتتنا عن الحديث في هذا العفو وإن لامنا عن هذا السكوت اللائمون، أما ما جرته تلك التهمة على الأستاذ الفضيل من تنكر الملوك له، وضيق الحكومات به، فهو امتحان البطولة، وطالما أداه الأبطال قاسياً ثقيلاً.

وما زالت العليا تعني عزيمها، كما يقول ابن خميس، وهو دليل البطولة، وللبطولة منها عليها شواهد.

وأما ما لقيه بسببها من تجهم بعض الأصدقاء، فهو دليل على أن صداقتهم كانت على دخن، أو من شماتة بعض الخصوم، فهو دليل على أنه كان غيظ الحاسد ومسيح الدجاجلة، وكل ذلك مما يعلي قيمة الفضيل، ويبين عن جفاء جوهره، وأن تلك الغيمة العارضة، ما زادت على أن كانت تلقيحاً في رجولته، وتنقيحاً في أصدقائه، وافتضاحاً لخصومه.

محمد البشير الإبراهيمي

أسفار الورتلاني ورحلاته في الغرب والشرق

لقد وهب الفضيل الورتلاني نفسه لخدمة بلاده، والإسلام، والعروبة، وضحى بماله، وصحته وأوقاته، في سبيلها. وكان بإمكانه، لو أراد أن يكون من كبار الأثرياء، ولكنه أبى إلا أن يكون داعية إسلامياً كبيراً، وهذا ما عبر عنه تلميذه ورفيقه اللبناني السيد رفيق سنو حيث قال: «إنني أعلم أن الورتلاني قد ورث عن آبائه وأجداده أموالاً كثيرة، لو خصص لها جزءاً صغيراً من عنايته، لكان بها من كبار الأغنياء، ولكن انصرافه إلى الرسالة وإهماله لها كما أهمل صحته في سبيلها جعل تلك الثروة تتبعثر، وتلعب بها الأيدي الاستعمارية وغير الاستعمارية، وهو يتفرج من بعيد كأنه لم يكن من أصحابها.

وما يزال حتى الآن يستعمل شتى الحيل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها، حتى يعيش عفيفاً كريماً. ولقد كان في مصر قبل ثورة اليمن يتمتع بنفوذ كبير على طائفة من الشركات الاقتصادية الكبرى ذات رؤوس أموال تعد بملايين الجنيهات. وكان يمكنه يومئذ بكل سهولة أن يجمع ثروة طائلة في رحابها الواسعة.

ولكن الرسالة المقدسة كانت صاحبة السلطان الأكبر على أخلاقه، فخرج من ذلك المحيط الضخم صفر اليدين من المال، ولكنه خرج بثروة كبيرة من العفاف والإكبار. وعاش في اليمن بنفوذ اقتصادي خطير كان يستمده من الشعب والحكومة معاً. ولقد كان مديراً عاماً للشركة الوحيدة ذات الامتيازات الواسعة في دولة اليمن، وقد علمت من المطلعين الصادقين، أن الورتلاني لو أراد أن يتنازل قليلاً عن الحنبلية في رسالته وعفافه، لخرج من اليمن بمئات الآلاف غير خائن ولا مشار إليه بالبنان. وعاد إلى مصر بعد الثورة الأخيرة وكان أقرب المقربين إلى رجال الثورة وكانت صلاته بأرباب الملايين واسعة عريضة ولكنه لم يرضى أن يشرب من كأس مشبوهة يوماً ما.

وبعد أن صدر العفو عنه، وعن غيره وأصبح بإمكانه الظهور، عاد إلى نشاطه السياسي، والفكري والثقافي فأخذ يكتب المقالات في الصحف والمجلات، أحياناً بأسماء مستعارة، وعمل مندوباً متجولاً، لبعض وكالات الأنباء، والصحف الكبرى، وقام برحلتين طويلتين إحداهما إلى بلدان أوروبا، والأخرى إلى بلدان آسيا.

رحلة الورتلاني إلى أوروبا والمغرب الأقصى

قام بهذه الرحلة عام 1950 وابتدأها من سوريا، إلى تركيا فاليونان، فإيطاليا، فسويسرا، فاللكسمبورغ نبلجيكا، فهولندا، فارلندا، فاسبانيا، فالبرتغال، فالمنطقة الخليفية بالمغرب الأقصى، فطنجة، وهكذا زار اثني عشر بلداً، وفي العودة مر عليها كلها كذلك، بعد أن أقام في كل بلد الوقت المناسب الذي كان يتطلبه عمله. والتقى بعدد كبير من زعماء وشخصيات المغرب العربي وغيره حسب اتفاقات ومواعيد مسبقة في سويسرا ولندن وطنجة والمنطقة الخليفية وغيرها وعندما نشبت أزمة السلطان محمد بن يوسف الخامس مع الجنرال جوان، كان الورتلاني في لندرة، فذهب إلى أسبانيا ومنها إلى تطوان، وطنجة ليساهم مع الزعماء المغاربة في مواجهة تلك الأزمة. وبقي هناك مدة كافية في زي متنكر حتى لا تعرفه المخابرات الفرنسية.

وقد أجرى الورتلاني اتصالات واسعة في كل هذه البلدات التي زارها مع القادة والزعماء، والشخصيات المهمة لخدمة قضية الجزائر، وبلدان المغرب العربي، والعالم الإسلامي بصفة عامة، واستغرقت رحلته هذه أكثر من سبعة شهور، ثم عاد إلى لبنان.

رحلة الورتلاني إلى بلدان الشرق الآسيوي

وبعد أن أخذ الورتلاني قسطاً من الراحة بعد هذه الرحلة الطويلة، شد الرحال إلى بلدان الشرق الأقصى في نفس العمل، داعية ومرشداً، ومواجهاً، فابتدأ رحلته من الكويت فإيران فالسعودية، فالبحرين، فالباكستان فالهند فباكستان الشرقية، فبورما، فسيام، فالملايو، فسنغافورة، فأندونيسيا، واستقبل من قبل الوزراء، والأمراء، والملوك، والعلماء، والحكومات، والجماهير الشعبية، وحاضر، وخطب، ووجه، ونصح، ووعظ، وأرشد واستضافته حكومات هذه البلدان، وكرمته، وبجلته وحضر خلال هذه الرحلة ثلاث مؤتمرات إسلامية دولية عالمية، وانتخب عضواً أساسياً وبارزاً وهي: المؤتمر الإسلامي العالمي، ومؤتمر علماء الإسلام، ومؤتمر الشعوب الإسلامية، وانتدبه الأولان رسمياً للقيام برحلة عالمية لشرح مقرراتها، وقام بجزء كبير منها.

ولدينا كلمة كتبها في رانقون عن أهل رانقون جديرة بأن نسجلها هنا لأهميتها سجلها في دفتر دار العلوم برانقون:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد فلقد كانت زيارتي إلى ديار رانقون غرة في جبين أيام رحلتي لما وقفت عليه من أسباب السعادة الدينية والدنيوية بين أهل الإسلام فيها. فالعلماء وهم في كل عصر ومصر مادة الحياة الحقة إذ أنهم مطر هدايتهم أخضرت أرض القلوب والنفوس والأجسام، واستوت السعادة على سوقها، وإن هم أمسكوا الله على خلقه، ورحمته هي العلم

الصحيح والمعرفة الحقة، إن هم أمسكوها شاع الجفاف في القلوب ووجد الشيطان وأعوانه من الشهوات سبيلاً إلى الصد والإضلال، فكان القحط وكان الشقاء والعياذ بالله، أما علماء رنقون فلقد وجدت فيهم من الود المتبادل والاحترام والتعاون ما ملأ نفسي غبطة وسروراً، إلى جانب ما لمسته من آداب الإسلام فيهم والحرص على إشاعة تعاليمه وذلك ما ظهر لي وسمعته من غير واحد في أيام إقامتي القليلة. وأرجو أن يكون هو الواقع الذي لا يزينه شيء من المظاهر العارضة.

ولقد اجتمعت بوزرائهم وكان سروري أشد حينما وجدت أمامي، رجالاً يختلفون كثير عمن رأيتهم، وما أكثر من رأيت من رجال السياسة، إذا وجدت التواضع أملك شيء على نفوسهم، واحترامهم للعلماء أبرز مزاياهم، والاعتزاز بدينهم صاحب السلطان الأكبر على تصرفاتهم، وكم كان سروري زائداً حين اكتشفت مقدار التعاون، القائم بين العلماء ورجال السياسة والتجار. فالأركان الثلاثة هي عماد النجاح، وهي في رنقون متضامنة والحمد لله.

هذه كلمة عامة وقاصرة بالنسبة لما أحمله لأهل رنقون من أجل الذكريات، أما الكلمة الحقة فهي التي أسجلها باغتباط عظيم عن هذه الدار العظيمة التي تقوم على نشر الهداية الإسلامية ولغة القرآن تلك هي دار العلوم، فلقد تفضل أميرها المفتي الأعظم محمود داوود يوسف بإقامة حفلة شيقة فيها، حضرها العلماء والتجار والأعيان، وحضرها جميع طلاب الدار، وأساتذتها، وتبارى الجميع في الخطابة نظماً ونثراً وتمجيداً للإسلام ولغته، وترحيباً بالضيف المتواضع، فأكبرت هذا العمل الجليل الذي سيكون له شأن عظيم إن شاء الله في مستقبل الأيام في بورما فقط ولكن في هذا الشرق الواسع الذي كاد يضم بين بنيه نصف سكان الدنيا وهم أقرب الناس إلى الإسلام.

ولقد تجلى الجد والإخلاص في الطلاب والمعلمين، والرؤساء، الأمر الذي ملأ نفسي أملاً بمستقبل أعمالهم، وإني وفاء بعهدي لهم ولله أسجل على نفسي كتابة أنني سأبلغ رسالتهم النافعة إلى جميع من تصل إليهم قدرتي من

حكومات وشعوب إسلامية كما أسجل عليهم في دفترهم: هذا عهدهم لي باسم الله، وبمبايعة أميرهم المفتي الأعظم، على أن يعيشوا جميعاً للدعوة الإسلامية، والله يتولاهم وينصرهم ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً.

كتبه الفقير إلى الله في رنڤون السيد محمد حسنين
الفضيل الورتلاني الجزائري
بتاريخ 19 رجب سنة 1372 هـ ـ 1952.04.14 م

ونقله أحقر عباد الله الرحمن العبد المكنى بأبي حفص المدعو بمحمد مقصود أحمد عفا عنه المعبود المنان ووفقه للخير في كل آن وزمان، وتوفاه على الإيمان بحرمة نبي الإنس والجان، وصلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام الأتمان الكاملان والحمد لله.

بتاريخ 20 رجب سنة 1372 هـ ـ 1952.04.16 م

عودة المجاهد الورتلاني لمصر
وتكريمه فيها

وأخيراً، وبعد خمس سنين قضاها الأستاذ المجاهد الإسلامي السيد الفضيل الورتلاني مشرداً مطارداً من حكومات الاستبداد، نراه يعود إلى مصر كما يعود الحق إلى نصابه والسيف إلى قرابه.

وقد تألفت في القاهرة لجنة من المجاهدين الإسلاميين والعرب للاحتفال بتكريمه والحفاوة به، كانت هيئة الاحتفال مؤلفة من حضرات السادة:

محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء بالجزائر، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الجامع الأزهر، والأستاذ محمد بدرة وزير الشؤون

الاجتماعية بتونس، والأستاذ محمد محمود الزبيري وزير معارف اليمن سابقاً، والأستاذ محمد الحسن الوزاني رئيس حزب الشورى بمراكش، والأستاذ إبراهيم شكري عضو مجلس النواب السابق، والأستاذ محمد العربي أبو جمالين ممثل حزب البيان الجزائري، والأستاذ عبد المجيد بن جلون مندوب حزب الاستقلال المراكشي، والأستاذ صالح عشماوي صاحب مجلة الدعوة، والأستاذ علي البلهوان مندوب الحزب الدستوري التونسي، والأستاذ محمد خيضر مندوب حزب الشعب الجزائري، وكان يشرف على الاحتفال الأستاذ محمد علي الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة.

وقد وجهت لجنة الاحتفال الدعوة إلى عدد كبير من فضلاء وعظماء مصر والشرق ونزلاء القاهرة من أبناء العروبة والعالم الإسلامي، وهي:

«بمناسبة عودة المجاهد العربي السيد الفضيل الورتلاني إلى الديار المصرية من المنفى ومن رحلاته وجهاده السياسي في البلاد الإسلامي.

«تتشرف لجنة الاحتفال بتكريمه بدعوة حضرتكم إلى تناول الشاي بفندق سميراميس في الساعة الخامسة بعد ظهر الجمعة 28 نوفمبر سنة 1952».

الحفـــلة

وما كاد موعد الاحتفال، يوم 28 نوفمبر 1952، يأزف حتى امتلأت القاعة الكبرى لفندق سميراميس بالشخصيات الممتازة، من وزراء وسفراء وساسة وعلماء وأدباء ورجال الصحافة والقلم من جميع الطبقات، وكان عدد الذين جلسوا على موائد الشاي حوالي ثلاثمئة غير الذين وقفوا على أقدامهم لكثرة الزحام.

وقد خطب كثيرون من الخطباء كما ألقيت قصائد المبرزين من الشعراء، ثم رد عليهم الأستاذ الورتلاني بخطاب سياسي ضاف شكر فيه حضرات المحتفلين والحاضرين جميعاً، وستصف الرسوم الآتية فخامة تلك الحفلة وروعتها، وهي:

تصاوير الاحتفال



المائدة الرئيسية:

ويظهر على المائدة من اليمين دولة السيد أحمد حلمي رئيس حكومة فلسطين فالشيخ فهمي هاشم الوزير الأردني الأسبق في المملكة السعودية فالحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين فالشيخ البشير الإبراهيمي رئيس علماء الجزائر فالأستاذ الورتلاني «المحتفل به» فالأستاذ محمد العشماوي وزير المعارف الأسبق فوزير أندونيسيا المفوض، وغيرهم من الفضلاء، ووقف الأستاذ محمد علي الطاهر خلف المائدة الرئيسية يخطب أمام الميكروفون ويقدم



صورة تذكارية من القاهرة سنة 1953 م

من اليمين إلى اليسار: أحمد طالب الإبراهيمي - الشيخ العربي التبسي، الشيخ البشير الإبراهيمي - الشيخ الفضيل الورتلاني - الرئيس جمال عبد الناصر

وعندما قامت الثورة المصرية يوم 23 جوليه 1952، وأطاحت بالنظام الملكي، ارتفع شأن الأخوان المسلمين الذين تعاطفوا مع الثورة، وتعاطفت معهم، فاغتنم الشيخ الفضيل الفرصة بعدما عاد إلى مصر، وعمل مع الشيخ البشير الإبراهيمي في مكتب جمعية العلماء، وجدد نشاطه كالعادة، وقام بنشاط مكثف وكتب عشرات المقالات والبرقيات، في الصحف والمجلات، وكثف صلاته بالشخصيات العلمية، والفكرية، والسياسية، واحتل مكانة مرموقة بفضل صلاته الوثيقة بالأخوان المسلمين. وليس هناك جريدة أو مجلة في مصر، وسوريا، ولبنان لم ينشر فيها مقالاً أو برقية أو دراسة، للتعريف بالجزائر، وجهادها، وبتونس، والمغرب، وليبيا، وبمشاكل فلسطين، واليهود، وبقضايا العالم الإسلامي، بصفة عامة. ومن ضمن هذه الجرائد:

الحياة ـ جريدة الجريدة، بيروت، بيروت المساء، المنار، الأنباء، الجمهورية، المصري، الأهرام، الأخبار، منبر الشرق، الدعوة، مصر الفتاة، الكتلة، الأخوان المسلمون، النذير.

وكانت له مراسلات مكثفة مع الكثير من شخصيات العالم الإسلامي، شرقاً وغرباً حول القضايا العامة، والخاصة، أحياناً وحده، وأحياناً مع الشيخ البشير الإبراهيمي: ونورد فيما يلي نص البرقية التي بعثها مع الشيخ البشير إلى حاكم باكستان ورئيس وزرائها حول قضية الشيخ أبي الأعلى المودودي.

نص البرقية التي أرسلها الشيخ البشير الإبراهيمي
والشيخ الفضيل الورتلاني إلى حاكم باكستان
ورئيس وزرائها في قضية المودودي

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

حضرة صاحب الفخامة السيد غلام محمد حاكم باكستان العام ـ كراتشي.
حضرة صاحب الدولة السيد محمد علي رئيس الوزراء الباكستانية ـ كراتشي.

---

(1) نشرت في عدد 232 من جريدة البصائر عام 1953، وفي كتاب عيون البصائر جـ 2 ص: 697 ـ 698.

شاع في أنحاء العالم أن المحكمة العسكرية بمدينة لاهور حكمت بالإعدام على عالم من أكبر علماء الإسلام ومن أعظم دعاته، وهو الشيخ أبو الأعلى المودودي، ثم شاع الخبر بأن الحكومة الباكستانية خففت هذا الحكم إلى السجن أربع عشرة سنة.

إن هذه الأخبار أحزنت مئات الملايين من المسلمين في العالم، وسرت أعداء الإسلام كلهم، ومهما تكن الدواعي لهذه الأحكام القاسية فأن المسلمين في جميع الدنيا لا يرضون لحكومة باكستان الإسلامية أن يسجل عليها التاريخ قتل علماء الدين، أو سجنهم، لأنها لا تعدم بإعدام المودودي شخصاً، وإنما تحطم سيفاً من سيوف الإسلام، وتسكت صوتاً من أصوات الإسلام، وتطمس مفخرة من مفاخر الإسلام، ويا فرحة أعداء الإسلام بذلك.

إننا باسم جمعية العلماء الجزائريين، وباسم ثلاثين مليون مسلم في المغرب العربي، نتوجه في شدة، وإلحاح، إلى دولة باكستان الرشيدة، التي نفخر ونعلق عليها الآمال، في إعلاء كلمة الإسلام أن ترجع عن هذه الأحكام التي تزعج نفوس المسلمين، وتطلق سراح المودودي عاجلاً، لترد الاطمئنان إلى نفوس جميع المسلمين.

إن فرح المسلمين بنشأة باكستان، وعطفهم عليها، وانتصارهم لقضاياها، هو رأس مال عظيم للدولة الباكستانية، الواجب أن تزكيه بإطلاق حرية رجل من أكبر رجال الإسلام، مهما كانت جريمته السياسية فإنها لا تعدو أن تكون جريمة رأي.

محمد البشير الإبراهيمي	الفضيل الورتلاني
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين	عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
ورئيس تحرير جريدة البصائر	والداعية الإسلامي

الشيخ الفضيل يغادر مصر نهائياً بعد أزمة الإخوان

وعندما اندلعت الثورة الجزائرية في نوفمبر 1954 أعلن عن تأييدها، ونشر بيانين واحد بتاريخ: 3 نوفمبر، والثاني بتاريخ: 15 نوفمبر 1954 واشترك هو والشيخ البشير الإبراهيمي مع ممثلي الأحزاب الجزائرية بالقاهرة في تكوين جبهة التحرير الوطني الجزائرية بتاريخ 17 جانفي 1955، وقام بنشاط مكثف، ونشر عدد / كبير / من المقالات والدراسات، في الصحف والمجلات، ورد على زيف الإذاعات الاستعمارية، وشارك في إبلاغ صوت الثورة إلى كل بلدان العالم العربية والإسلامي، وكشف المجازر التي تقوم بها القوات الاستعمارية في الجزائر، وتتبع حوادث الثورة، ونقلها إلى الصحف العربية.

ولكن السلطات المصرية لم تكن مرتاحة له حسبما أكد ذلك السيد فتحي الذيب رئيس قلم المخابرات المصرية وذلك لصلته الوثيقة بالأخوان المسلمين الذين اصطدمت بهم الثورة المصرية، وحاربتهم وقاومتهم بعد أن كانت متعاطفة معهم، وذلك بسبب إصرار الأخوان على ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية وتلكؤ ومماطلة قادة الثورة في ذلك، مما أدى إلى إعدام السيد قطب، والمحامي عبد القادر عودة.

ومن أجل ذلك اضطر الفضيل أن يغادر مصر ويلتحق ببيروت ليستقر بها كما كان في السابق ويواصل نشاطه في حدود إمكانياته، ولم يبخل في خدمة الثورة، وذكر لنا الأخ محمد كسوري ناقلاً عن المرحوم فرحات عباس بأن جبهة التحرير كانت راغبة في استقدامه إلى القاهرة للاستفادة من نشاطه، ولكن الحكومة المصرية عزفت عن ذلك لعلاقته الوثيقة بالإخوان، والحقيقة أن الحكومة المصرية حتى الشيخ البشير جمدت نشاطه، بإيعاز من عناصر معينة في الجبهة، وهذا مما يؤكد عدم صحة قول عباس حتى بالنسبة للشيخ الفضيل.

وخلال إقامة الشيخ الفضيل ببيروت كان يتنقل بينها وبين تركيا، إلى أن اضطر إلى مغادرة لبنان نهائياً فاستقر بتركيا. واعتلت صحته كثيراً ومع ذلك لم يتقاعس عن العمل، وهو الذي مهد لاعتماد أول مندوب لجبهة التحرير الوطني الجزائرية بتركيا عام 1958 م وهو العقيد عمرو أَوعَمْرَانْ، رغم الظروف الصعبة التي كان يعيشها مادياً وسياسياً، وهناك مرض ودخل إلى المستشفى، ووقف إلى جانبه رجل فاضل هو السيد الأستاذ فرج بن جليل، المستشار بالسفارة الليبية، وواساه وعوضه عن الغربة التي كان يعاني منها، وعن الآلام والأسقام، إلى أن وافته المنية يوم 12 مارس 1959 عن عمر حوالي نصف قرن وزيادة. وبعد 21 عاماً من مفارقته لوطنه الصغير الجزائر. فدفن هناك بأنقره إلى أن جلبت رفاته إلى الجزائر عام 1987 ودفن في مسقط رأسه ببني ورتلان. لقد عاش الشيخ الفضيل مكافحاً ومجاهداً في سبيل عزة الإسلام والعروبة، ومخلداً في سماء الخالدين، ولا يمكن أن تنسى ذكراه أبداً إلى يوم الدين، وسيبقى كتابه: «الجزائر الثائرة» رمزاً له وسجلاً حافلاً للأعمال الجليلة والكبيرة التي قام بها على مدى ثلث قرن من الزمن. وقد أعادت جماعة عباد الرحمان ببيروت طبعه ونشره عام 1963 م مشكورة. كما أعاد ابنه الحسين طبعه للمرة الثانية عام 1993 بميلة في قسنطينة. وخلف وراءه ابنه الحسين الذي يعمل حالياً مديراً للمركز الثقافي الإسلامي بمدينة قسنطينة، وبنتاً متزوجة هناك إلى جانبه، مع والدتهما حفظهم الله جميعاً وبارك في أعمالهم وجعلهم خير خلف لوالدهم العظيم.

وقد دعيت في مارس 1989 للمشاركة في إحياء ذكرى وفاته الثلاثين بمسقط رأسه بني ورثلان، وألقيت هناك محاضرة حوله وحول علماء المنطقة ودورهم في نشر العلم والثقافة ومقاومة الاستعمار.

نبذة مختصرة عن حياتي

يوسف العلوي المدعو يعلاوي بن الخير بن عبد الرحمن

من مواليد سنة 1918 بقرية شريعة

بلدية ڤنزات بني يعلى

أما يعلاوي فهو نسبة إلى بني يعلي عرفت به إبان الثورة أيضاً.

حفظت القرآن في قريتي شريعة مسقط رأسي، عن عمي المسمى علي الشريف رحمه الله وأخذت مبادىء العربية والفقهية من علماء الناحية الشيخ السعيد بن عمر عبد لاوي والشيخ يحيى الشريف رحمهما الله، ثم هاجرت مغامراً إلى زاوية بن الحملاوي سنة 1936. حيث أخذت معلومات عن أساتذة تونسيين وجزائريين.

وفي سنة 1937 ـ 1938 الدراسية ساعدتني الظروف أن التحق بالجامع الأخضر لأحظى بالتلمذة على الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

وكم تمنيت بل بذلت مجهودات لمواصلة الدراسة بالهجرة إلى تونس أو إلى مصر أو إلى معهد من المعاهد في الدول العربية والإسلامية ولكن الضعف المادي والعراقيل والحضوض كانت دون تحقيق الأماني.

في سنة 42 وقعت حادثة غلق طريق بوقاعة ڤنزات في وجه حاكم لافيط الڤرڤور الذي قدم في مهمة إلى ڤنزات لبحث حادثة المقاطعة التي نظمت ضد شراء بضائع أحد التجار الفرنسيين بڤنزات، والتي اعتبرت قضية سياسية فقام الاستعمار بالبحث عن كل مشبوه في أمره منتسب إلى حركة وطنية فانتقلت مهاجراً إلى سوق أهراس حين مكثت هنـاك إلى سنة 1944 حيث رجعت إلى بني يعلى قائماً بالتعليم والنضال تحت لواء التجمع المعروف آنذاك بأحباب البيان وفي 8 ماي تجدد البحث عن كل من ينتسب إلى كل حركة وطنية فانتقلت متسللاً إلى قمون بني خيـار حيث مكثت هناك كمعلم في نظام جمعية العلماء إلى سنة 1952 وقد قمت بتنظيم حركة هناك، عدةُ مدارس في الناحية أسست

ونشر الوعي في أوساط الشعب وحوكمت مرات في بوقاعة، ثم في بجاية، بالسجن والغرامة وأخيراً وفي سنة 1953 بمحكمة باريس بغرامة 76 ألف فرنك.

وفي أواخر سنة 1952 عينت كمدير لمدرسة عين آزال ناحية سطيف.

ومن هناك في أواخر سنة 1955 التحقت بجيش التحرير الوطني بولاية الأوراس حيث قضيت مدة حتى شهر أوت سنة 1959. انتقلت إلى الولاية الثالثة بأمر من القيادة العليا لجيش التحرير الوطني، كضابط سام، وبقيت هناك إلى سنة 1962 السنة التي انتصرت فيها الثورة على الاستعمار الفرنسي واسترجعت الجزائر سيادتها كاملة غير منقوصة.

جرحت جراحاً خطيرة في معركة كبيرة بجبل أكفادو سنة 1960 عاطلاً عن أداء المهام المسندة إليّ أحسن الأداء، وما زلت أعاني منها ما أعاني. هذا ما يتعلق بالنشاطات المتواضعة التي وقعت قبل سنة 1962.

إما بعد استرجاع السيادة الوطنية، فبالرغم من هذه الجراحات وبالرغم من العمليات الجراحية التي أجريت لي والتي بلغت نحو خمس عمليات، والأخيرة أجريت لي على القلب سنة 1984.

فقد أسندت لي أو كلفت بعدة مسؤوليات وطنية:

- عضو المجلس الوطني التأسيسي الأول من سنة 1962 إلى سنة 1965.
- محافظ وطني بولاية تيزي أوزو سنة 1966 إلى 1968.
- مراقب وطني في حزب جبهة التحرير الوطني من سنة 1968 إلى سنة 1973.
- أمين وطني في المنظمة الوطنية للمجاهدين ثم أمين عام لنفس المنظمة من سنة 1973 إلى اليوم.
- عضو اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني من سنة 1979 المؤتمر الرابع إلى هذا التاريخ الذي سجلت فيه هذه الوثيقة وهو 16 ذو الحجة سنة 1409 الموافق لـ 19 جويلية سنة 1989 م.

وكل ما يطلبه أخوكم العبد الضعيف أن يتقبل الله أعماله، وأن يختم الله حياتنا على الإخلاص لا مبدلين ولا مغير لا فاتنين ولا مفتونين.

يوسف اليعلاوي

المجاهد الشهيد الشيخ محمد الطاهر المدعو يونس بَغُورَة

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

نبذة من تاريخ الأخ السيد محمد الطاهر المدعو يونس بَغُّورَة.

ولد محمد الطاهر بغورة المدعو: يونس، بقرية ريفية تسمى: «ثاد شيرث» ببلدية تقرق التابعة لولاية سطيف سابقاً، وبرج بوعريريج حاياً، عام 1929 بعد وفاة أبيه محمد الطاهر بشهرين اثنين، ولذلك سمي باسمه، ولكنه شهر باسم يونس. وأصبح يدعى بهذا الاسم. وكان والده محمد الطاهر عالماً، وفقيهاً ومفتياً للناس، يفصل الخصومات بينهم كعادة كل الفقهاء، في القرى الريفية بالجزائر. وقد بقي الابن يونس تحت كفالة أعمامه إلى أن بلغ سنّ الدراسة فعلَّمه عمه محمد البشير، إمام القرية، القراءة والكتابة، وحفَّظه جزءاً من القرآن الكريم، ثم بعد أن كبر وتحسّن مستواه انتقل إلى زاوية سيدي عبد القادر الجيلالي بجوار القرية، التي كان يديرها ويسيِّر شؤون التعليم فيها أعمامه، ثم أخوه وأتم بها حفظ كلّ القرآن الكريم. وبعض المتون الفقهية واللغوية خاصة، الأجرومية، في النحو، وابن عاشر في الفقه، وجوهرة التوحيد، في علم التوحيد.

وعندما لاحظ عليه أخوه الرغبة الملحة في توسيع مداركه ورفع مستواه

(1) توصلنا بهذه النبذة أوائل شهر أبريل عام 1991 من طرف ابن عم الشهيد، السيد عبد الوهاب بغورة المعلم بمدينة برج بوعريريج، بطلب منا، وأعرف هذا المعلم يوم أن كان يدرس بتونس أوائل عقد الخمسينات.

وثقافته، حتى يتمكن من أخذ مكانة والده المرحوم كمفتي، وقاضي، وشيخ للقرية، والعرش، والزاوية، أرسله إلى الزيتونة بتونس ليتم دراسته، ويحصل على شهادة، وذلك أواخر عقد الأربعينات، من هذا القرن، ودرس هناك ثلاث سنوات أظـهر خلالها نجاحاً وتفوقاً، في دراسته وامتحاناته. وكان عندما يعود خلال العطل الصيفية، يتصدى لتعليم أبناء القرية، وطلبة الزاوية، ولا يضيع وقته، وقد انقطع عن الزيتونة في السنة الثالثة، وتفرغ للتعليم بالزاوية المذكورة، وعمل على إصلاح نظام التعليم فيها وتطويره، وبعث الحماس في نفوس التلاميذ والطلبة، وطبق أساليب جديدة في التعليم، تتناسب مع التطورات الجديدة التي كانت الجزائر تستعد لاستقبالها خاصة بوادر ثورة أول نوفمبر 1954 م، التي كان سباقاً للمشاركة فيها ودعوة الناس لها.

وتولى إدارة التعليم الحر في المنطقة وشؤون التفتيش، والقضاء بالناحية كلها في إطار جبهة التحرير الوطني التي كلفته بذلك، وتحمل المسؤولية عن جدارة حتى ألقي عليه القبض عام 1956 واقتاده جنود جيش الاحتلال إلى قرية «أولاد خليفة» التي اتخذت بمثابة معسكر له، وتمركز به عدد من جنود الاستعمار، ومجموعة من القوم، والحركة، الجزائريين الذين باعوا دينهم ووطنيتهم، فعذبوه بقسوة وسلطوا عليه وسائل قاسية علَّه يبوح لهم ببعض الأسرار، ولكنه كان شهماً فلم يفدهم بشيء ولذلك أعدموه بالرصاص، وفضل الاستشهاد على الاستسلام والخيانة للثورة والوطن.

وقد ترك زوجة، وبنتاً، كفلهما أخوه محمد أمزيان بَغُّورَه.

رحم الله الأخ، وجميع الشهداء، وأسكنهم فسيح جنانه.

نص عقد على تولية السيد محمد السعيد بغورة

إدارة زاوية ومعمرة عبد القادر

الجيلالي بقرية ثفرق

الحمد لله[1] وصلى الله على سيدنا محمد

الإعلام من الكاتب والإشهاد منه كل من وقف عليه كتابه هذا من علماء عصرنا وولات (كذا) بلدنا ومن له عقل راجح من وطننا أن يقف ويتبع كل ما يذكر ويتجنب كل ما تدعيه الخصام من الفجور فيؤجر. وبعد التماس صالح دعائكم لنا اعلموا رحمكم الله أن الحامل السيد محمد السعيد نجل البركة الشيخ السيد محمد امزيان بن البركة السيد محمد بن بغورة قد طلبني في الشهادة التي لا يحل لكل مسلم مؤمن بالله ورسوله أن يكتمها وذلك على معمرة جده البركة السيد محمد بن بغورة وهي تلقب بمعمرة السيد عبد القادر الجيلالي أحضر لنا عنايته لأنه قرأ فيها على ما سمعناه من مشايخنا وأجدادنا فأجبته بما هو واجب علي إفشاؤه ولا يحل كتمانه وإخفاؤه وأن المقام المزبور هو للحامل ولأجداد (كذا) فمنذ قمت وعرفت مصلحتي ودخلت فيه نتعلم القرآن العظيم فوجدت الشيخ السعيد محمد بن بغورة وابنه السيد محمد امزيان هما المتصرفان به مقامهم المزبور وتعلمت عليها زماناً حتى حفظت كلام الله فلم يتعرض لهم أحد حتى توفي الشيخ السيد محمد أمزيان وترك أباه وابنه المزبورين يتصرفان فيه ثم توفي السيد محمد بن بغورة فترك ابن ابنه الحامل السيد محمد السعيد يتصرف فيه أيضاً كما شاء، وبما شاء ولم يدخل كلفته أحد من القبائل ولا من المرابطين من آل ثفرق. ولا مدخل لأولاد سيد (كذا) الحاج محمد لأن جده نشأ في بني يعلى ولا مدخل أيضاً لسيد محمد وأخيه سي أحمد الملقب بسته فجدهما كان في القلَّة منشأ، وحاصل كل ما عندي من الشهادة لا مدخل لجميع من ذكر في المقام المسطور ولا تولية لهم عليه بل يختص به الحامل السيد محمد السعيد

---

(1) تسلمت نسخة طبق الأصل من هذا العقد من طرف الأخ عبد الوهاب بغورة ببرج بوعريريج عن طريق ابن العم سالم بوعزيز في شهر مارس 1992 م.

وأولاده وأولاد أولاده إلى هلم جر لأنه لا خلافة ولا شك أن الخلف يتبع السلف ويقيم (كذا) مقامه في كل الأمور إن كان الحق حقيقاً ولناصره تغريضاً وقائمه مخلصاً صديقاً فهذه شهادة كاتبه الآتي آخره ومن أذن له في وضع شهادته حيث أحضرهم الحامل بعد أن لهجوا بما ذكر بلسانهم صريحاً وعلمهم لذلك واضحاً وهو الناسك للحرمين الشريفين السيد الحاج محمد بن زرقاق من سلالة سيد الجودي والسيد الحاج الطيب بن بُغَنْجُوزْ والعدل المرضي محمد أمزيان بن رجدال والمرضي حَمُّ (كذا) بن رجدال منه، ومحمد وعلي بن فرماش والطاهر منه.

كاتبه الراجي عفو ربه العالي ابن الربيع حمود بن محمد الصديق المتعالي.

بتاريخ أول ربيع الأنور عام 1249هـ[1].

نبذة عن حياة الشيخ الشهيد عيسى حميطوش

ولد الشهيد عيسى حميطوش[2] يوم 12 أكتوبر 1917 في قرية بوندة الكبرى، التابعة لبلدية الجعافرة حالياً. وعندما بلغ سن الخامسة أدخله أبوه إلى المسجد ليتعلم القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم على عادة أبناء الريف القبائلي كله. وأتم حفظه عام 1927 م. فألحقه أبوه بزاوية: بُودَاوَدْ في جبال جرجرة، ليحكم حفظه ويتقن روايته، وليدرس العلوم العربية الدينية، واللغوية، كالفقه، والحديث، والسيرة النبوية والنحو، والصرف، وغيرها.

وبعد أن أتقن دراسة هذه العلوم والمعارف، تفرغ للتدريس في نفس الزاوية لمدة عام واحد، كما جرت عادة كل الزوايا. وفي عام 1931 عاد إلى مسقط رأسه ولزم والده الصياد، وأخذ عنه حرفة الصيد حتى أصبح من كبار الصيادين والقناصين، كما لزم عمه الذي كان يتولى الإشراف على شؤون

---

(1) الموافق 20 أوت 1930 م ويوجد في آخر الصحفة الثانية من شهادة العقد مفصولاً عنها: عبارة: عقد شهود المقام في مقامنا.

(2) أعدّ لنا هذه النبذة صهره أحمد حميطوش بطلب منا، فأعدنا صياغتها.

العائلة. وورث عنه النخوة والشجاعة والشهامة، والرجولة، والمحافظة على العرض والشرف العائلي كما ورث عنه منصب رئاسة الفرقة في القرية، مما أكسبه عداوة قائد الدوار.

وفي الفترة من 1934 إلى 1939، متن صلاته بحزب الشعب الجزائري من الناحية الوطنية والسياسية، وبجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من ناحية التعليم والإصلاح الديني، والاجتماعي.

وفي عام 1939 دعي للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي، ولكن الكشف الطبي أعفاه من ذلك بعد أن مرض واعتلت صحته.

وفي عام 1945 تزوج، من ابنة عمه التي أنجبت له ثلاث بنات وولداً والتحق ببلدة اليشير غرب مدينة برج بوعريريج كمعلم للقرآن الكريم، لدى عائلة ابن محمد، واستمر في هذه المهنة عدة سنوات، وتخرج على يديه عدد من حفظة القرآن الكريم، وخلال أحداث مجازر 8 ماي 1945، اعتقلته السلطات الاستعمارية وسجنته في بلدة مجانة أسبوعاً كاملاً، ثم أطلقت سراحه.

وفي عام 1947 أذنت له جمعية العلماء بإنشاء مدرسة حرة في قريته بوندة وتعاون مع عدد من الرفاق وحول أحد مسجدي القرية إلى مدرسة، بعد جهد جهيد بسبب معارضة كبراء القرية الذين يدعون «بالمزاور» والمرتبطين بقائد الدُّوَّارْ.

وبعد انكشاف أمر المنظمة الخاصة السرية التابعة لحزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في مارس 1950 اعتقل وصدر الحكم عليه بسنة ويوم سجناً. ولكن صديقه محمد الطاهر بن أخروف كلف المحامي محمد الصالح بن مصباح بالدفاع عنه وتمكن من إطلاق سراحه بعد عدة أيام فقط من صدور الحكم عليه، ويقال إن السيد فرحات عباس استعمل نفوذه كذلك.

وخلال هذه الأحداث دبرت ضده مؤامرة اغتيال من طرف جماعة من خصومه، والحاقدين عليه، جمعوا مبلغاً من المال، واشتروا مسدساً، وأعطوهما للمرحوم سليمان قيسوس، لينفذ العملية، ولكنه بعد أن ترصده، أنبه

ضميره فتراجع عن قراره وزاره في منزله ليلاً وحكى له القصة، وسلم له المسدس، والمبلغ المالي، الذي استغله في بناء مدرسة القرية، وشكره على موقفه، وأخزى الله الجماعة.

وكان الشيخ عيسى عام 1948، بعد انتخابات المجلس الجزائري المزورة، قد دعا لمقاطعة حافلات بلخير العياشي الذي كان عوناً للاستعمار، فامتثلوا أمره، وقاطعوها أسبوعاً كاملاً. وبسبب الفقر المدقع، وكثرة رقابة أذناب الاستعمار له، خاصة قائد الدوار، وكبار القرية، التجأ إلى أسلوب التغيب عن القرية والاختفاء لدى بعض أصدقائه في القرى المجاورة أمثال: المولود البلعيالي، وسليمان العشابو، وأحمد علوش وابنه الوشانيين وعمر بوشيحة البومسعداوي.

ورغم أنه وظف في القرية كمعلم للقرآن الكريم، والصلاة بالناس إلاّ أنه قاطع التعليم، وهاجر إلى فرنسا، والتحق بثلاثة إخوة أشقاء له هناك. وبقي عندهم عاماً واحداً ثم عاد إلى القرية، وبصحبته بندقية صيد اشتراها من هناك ودعا سكان القرية إلى بناء مدرسة جديدة تليق بالتعليم العصري الحديث، ولكنه وجد معارضة ضده من قائد الدوار، وأعوانه في القرية الذين استعملوا النعرة القبلية وأذكوها حتى قسموا سكان القرية إلى صفين متعاديين، وأدى ذلك إلى قطع صلة الرحم حتى بين أفراد العائلة الواحدة.

وعندما حاول سكان القرى المجاورة إصلاح ذات البين وجدوا صعوبات كبيرة، ولم يفلحوا في مساعيهم، وزادت الأمور تعقيداً، ولكن المدرسة أسست على أي حال وفي المكان المعين والمقرر لها. وأرسلت جمعية العلماء الشيخ أحمد حسين ليصلح ذات البين ويهدىء الأمور بين الفريقين.

وبعد تأسيس هذه المدرسة وفتحها. تغير أسلوب الشيخ عيسى ولوحظ عليه كثرة التغيب عن القرية لفترات أحياناً تطول وأحياناً تقصر. ولاحظ عليه أفراد عائلته، كثافة اللقاء والتجمع مع رفاقه وأصدقائه إثر كل عودة من غيابه، وذلك في منزله وبعد منتصف الليل، حيث لا يعلم أحد ماذا يدور بينهم في

اللقاء. وكان من ضمنهم: بوغيدة الصديق، وفتح الله رابح، وأمدور الهاشمي، وغيرهم.

وفي أواخر عام 1954 غاب عن القرية أكثر من شهرين، ورزق في أول نوفمبر 1954 بولد، وهو غائب، وفي إحدى ليالي نوفمبر نفسه بعد أن عاد، اجتمع بمعلم القرية السيد: علي الحوار، رحمه الله، في منزله، وطال اجتماعهما، وفي الصباح أخبر أسرته بأنه سيسافر إلى تونس ليعالج عينيه، وهو في الحقيقة ينظم اتصالاته بالمجاهدين.

وبعد عودته من هذه الغيبة دعا سكان القرية إلى تحقيق المصالحة وإزالة الانقسام والانشقاق الناشب من جراء بناء المدرسة. وكانت هذه الدعوة تمويهاً لغرض منها جمع سكان القرية كلهم في المسجد، وكان قد اتفق مع جنود جيش التحرير الذين حضروا معه، أن يدخلوا إلى القرية خلال الاجتماع يحيطوا المجتمعين باندلاع الثورة، ويدعوهم لدعمها وتأييد المجاهدين، وفعلاً اقتحم المجاهدون المسجد خلال الاجتماع وأبلغوهم أخبار الثورة، وحققوا المصالحة بينهم، وتجندوا جميعاً في صفوف الثورة. وغادر الشيخ عيسى القرية مع المجاهدين، ولم يعد إليها إلا بعد أن حمل السلاح وارتدى اللباس العسكري، وكان رائداً في تبليغ الثورة إلى قرى المنطقة مثل: القلعة وتازلة، وبلعيال، والشكبو وغيرها.

وفي أواخر عام 1955 م، اشترك مع المجاهدين في محاربة الميصاليين المعارضين للثورة بنواحي: أَوَقَّاشْ، وبني موحلي، وبني يعلى، والبابور، وخاض معارك في قرى: إقليم أوموسى، وبوختالة، وثاركبات، وغيرها. وفي عام 1956 م أرسله القائد عميروش إلى بلاد الأوراس في مهمة، وعاد بفيلق من الجنود على رأسهم المجاهد البطل علي النمر.

وبعد مؤتمر الصومام عام 1956، عاد إلى مسقط رأسه بوندة بصحبة عدد من ضبطا جيش التحرير أبرزهم: يوسف زيروت، وعمرو أُوعَمْرَانْ. وبعد ذلك حيكت ضده مؤامرة من طرف الحاقدين عليه، فمثل أمام لجنة تأديب،

وجرد من كل رتبه العسكرية، ونقل إلى بلاد القبائل الكبرى، وواصل عمله كما كان حتى استعاد كل رتبه العسكرية. وعندما استشهد بربوة سيدي المسعود في ضواحي أربعاء بني دوالة في شهر جويلية عام 1958 كان يحمل رتبة نقيب. وقد أقام مجاهدوا المنطقة نصباً تذكرياً له ولزملائه في مكان استشهادهم عام 1987 هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

بني دوالة 5 جويلية 1987

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

صدق الله العظيم

في هذه الربوة من روابي بلدية بني دوالة، والتي تدعى سيدي مسعود، وقعت معركة حاسمة بين الاستعمار البغيض، وجيش التحرير الوطني في شهر جويلية 1958 بقيادة النقيب سي عيسى. وفيها بلي جيش التحرير الوطني بلاءً حسناً وكبد العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وعلى أثرها سقط 34 شهيداً في ميدان الشرف.

رحم الله الشهداء وأسكنهم فسيح جنانه.

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار

الشاعر الشهيد

الشيخ الربيع بوشامة(1)

ولد الربيع بوشامة بقرية قنزات في بني يعلي، دائرة بوقاعة، ولاية سطيف، في شهر ديسمبر من عام 1916 م. وكان الابن الثاني من بين إخوته، وهم طفلان وثلاث بنات. وعندما كبر أدخله والده إلى مسجد القرية ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم، كما أدخله إلى المدرسة الفرنسية منذ السنة السابعة من عمره.

وعندما بلغ سن الثانية عشرة حفظ القرآن الكريم على أيدي الشيخ الصديق بن عبد السلام، وأقام له والده حفلة احتفاء وتخليداً للمناسبة كعادة الناس في المنطقة. وواصل تعلمه في المدرسة الفرنسية إلى السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية.

وبعد ذلك تفرغ لدراسة العلوم العربية الدينية واللغوية على شيوخ المنطقة وعلمائها ببني يعلى. فتتلمذ على الشيخ سعيد الصالحي سنوات عديدة، وكان عالماً متضلعاً في العلوم والمعارف الإسلامية الدينية واللغوية. ودرس علوم النحو والتجويد، وعلم القراآت على الشيخ العياشي مزغيش. ودرس كتاب خليل في الفقه على الشيخ الهاشمي بالمولود الذي كان هو الآخر متخصصاً في علوم الفقه والتوحيد. ودرس أيضاً على الشيخ علي الزموري، والشيخ السعيد بن عمر، وغيرهما، وأظهر حزماً ونشاطاً في تحصيل العلوم والمعارف، والآداب العربية، وتفانى في تكوينه الذاتي، وكون لنفسه مكتبة مهمة منذ صدر شبابه لتساعده على التكوين الشخصي. وبالطبع فإن وجود أولئك العلماء في

(1) لخصنا هذه النبذة من المقدمة الطويلة التي كتبها الأستاذ جمال قنان لديوان شعره. والتي أرسلها لنا مشكوراً. وهو ابن أخت الشاعر الشهيد.

قريته: ڤنزات لهم دور في نجاحه ونبوغه وتفوقه. وارتقائه، في مدارج العرفان.

يضاف إلى هذا أن منطقة بني يعلى خلال عقد الثلاثينات كانت إحدى مراكز الإشعاع الفكري والإصلاحي، فشب الربيع بو شامة في هذا الجو والمناخ، ومتن صلاته بالحركة الإصلاحية التي كان يقودها آنذاك في المنطقة الشيخ السعيد الصالحي، والشيخ الفضيل الورتلاني. ودأب على قراءة مجلة الشهاب الباديسية التي كانت تصله باستمرار وبانتظام.

وابتداء من عام 1937 أصبح الربيع بوشامة عضواً عاملاً في حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأسس مع نخبة من رفاقه شبان القرية نادياً للشباب وأخذ يساعد شيخه وأستاذه السعيد الصالحي، في التدريس بجامع القرية الكبير.

وفي عام 1938 أخذه معه الشيخ السعيد الصالحي إلى باريس لمساعدة الشيخ الفضيل الورتلاني في عمله الإصلاحي هناك.

غير أن الإدارة الاستعمارية طلبته للتجنيد، فعاد قبل أقل من عام من وجوده هناك، ولكن الفحص الطبي أثبت أنه غير صالح للجندية بسبب ضعف بصره. فنجاه الله من ذلك والتحق بالشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة للدراسة، والتحصيل، فحثه الشيخ على الالتحاق بالزيتونة في تونس لأن مستواه الثقافي كان عالياً، ولكنه اعتذر بالضائقة المالية، ووعده الشيخ بتدبير الإمكانات غير أن الموت عاجلت الشيخ عبد الحميد بن باديس يوم 16 أبريل 1940، فتبخرت أماني الربيع بوشامة وعاد إلى قريته ڤنزات حزيناً ومتألماً من وفاة الشيخ أساساً، وتوقف مشروع الالتحاق بالزيتونة ثانياً، ولكن تأثير الشيخ بن باديس فيه كان قوياً جداً، وبقي فيه طول حياته.

وخلال وجوده بقسنطينة دأب على مساعدة الشيخ بن باديس، في التدريس لبعض المستويات الأولى. وعندما عاد إلى ڤنزات أقام بها سنتين وزيادة، يمارس التعليم والوعظ والإرشاد والإصلاح. وثارت حفيظة الإدارة الاستعمارية

ضد نشاطه واستدعاه حاكم بلدية بوقاعة المختلطة مرتين، وهدده بالنفي إلى الصحراء إذا لم يتوقف عن نشاطه الإصلاحي، ولكنه لم يلتفت إليها ثم أن صديقه المعلم محمد الشريف أحموم أبلغه بأن مدرسة قرية خراطة بحاجة إلى معلم. فانتقل إليها عام 1942، ولحقت به زوجته وأمه وأخته الصغرى في العام الموالي 1943 م.

وكانت مدينة خراطة في هذه الفترة تعج بحركة تنمية واسعة في المجال الاقتصادي مما جعلها قبلة لكثير من الناس التحقوا بها للعمل. من مناطق كثيرة خاصة سطيف، والعلمة، والمسيلة، وبني يعلى، وبجاية وغيرها، وذلك في القطاع الصحي، والجهاز القضائي، وورش الكهرباء ومصلحة المياه، وشق الطرق وغيرها. ومن المشاريع الكبرى التي كانت قائمة آنذاك: بناء سد خراطة، وإنشاء معمل توليد الكهرباء، وإنجاز مشروع حفر نفق للسكة الحديدية، التي تربط سطيف ببجاية، واستغلال المحاجر الموجودة على أطراف القرية.

وزيادة على هذا كانت خراطة نقطة عبور هامة للقوات الأمريكية بين بجاية وسطيف، ومحتشد للأسرى الإيطاليين الذين كانت الإدارة الاستعمارية تسخرهم في المحاجر لكسر الحجارة وتفتيتها. وهكذا شهدت خراطة في هذه الفترة وخلال الحرب العالمية الثانية نهضة اقتصادية، وقفزة في العمل الإصلاحي، بفضل مدرسة جمعية العلماء، واستقرار عدد من الناس ذوي الحس الوطني لم يتوانوا في العمل لإصلاح ذات البين، ونشر العلم والوعي الوطني بين الناس.

ومن المفارقات العجيبة أن السكان في خراطة قبل أحداث 8 ماي 1945، كانوا متعاونين ومتضامنين رغم اختلاف أجناسهم: جزائريين، ونصارى ويهود ويبدو أن محنة الحرب العالمية ألّفت بينهم جميعاً. وكانوا يحتفلون سنوياً في المناسبات العامة، فيخرج الأطفال من مدارسهم المختلفة ويلتقون في ساحة القرية العامة، وينشد أطفال اليهود أناشيدهم، وأطفال النصارى أناشيدهم والأطفال الجزائريون نشيدهم الخاص بهم وهو: شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب وذلك دون أي حرج، أو عقدة، أو خلفية.

محنة الربيع بوشامة خلال أحداث 8 ماي 1945 م

في صبيحة يوم الثلاثاء 8 ماي 1945، وصلت أخبار مظاهرات سطيف وأحداثها الدامية إلى خراطة، فثار الناس وهاجموا بعض المحلات الأوروبية، وقتلوا عدداً من الأوروبيين، فاتصل السيد محمد أعراب حنوز بالربيع بوشامة وأوضح له بأن الأوروبيين يدبرون مذبحة في المدينة، والأحسن أن نجمع شملنا. ونلجأ إلى قرية آيت موعي، المطلة على المدينة من أعلى، والقريبة من جبال البابور، وننتظر هناك ما سوف تفرزه الأحداث. وفعلاً انتقلوا إلى تلك القرية، وقضوا ليلتهم هناك داخل مدرسة فرنسية كان بها معلم جزائري صديق لهم. وفي اليوم الموالي تدارسوا الأمر وفكروا في أحد حلين: إما التوغل داخل الجبل، أو العودة إلى خراطة، واختاروا في النهاية الحل الثاني، وعادوا إلى خراطة التي يسيطر عليها رجال الدرك، والجيش، القادمون كنجدة من سطيف وبجاية.

وبمجرد وصولهم إلى خراطة ألقت السلطات الاستعمارية القبض على الربيع بوشامة، وفتشت منزله، واقتادته إلى مقر رجال الدرك، ومن هناك اقتادوه إلى مدينة سطيف وتكفل أخوه الحاج رمضان بوشامة الذي عاد لتوه من الحرب بأوروبا بالبحث عنه، وكلف المحامي الصالح مصباح للدفاع عنه، واكتشف أنَ مستوطناً أوروبياً من خراطة يدعى ساكس هو الذي كذب عليه وشهد لدى الدرك بأنه هو الذي كان يتصدر المظاهرة بخراطة، ويحث الناس على الجهاد، ومهاجمة المعمرين الأوروبيين، وكان هذا المستوطن الأوروبي قد تعرض منزله للتخريب، ولم يجد من يكذب عليه سوى الربيع بوشامة المعلم بالمدرسة.

وقد صدرت الأحكام عليه وعلى ثلاثة عشر آخرين بالإعدام، وبالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة على امرأة كانت ضمن هذه المجموعة.

فاستأنف الربيع بوشامة الحكم أمام محكمة قسنطينة، مستغلاً تذبذب شاهد الزور الأوروبي ضده، وتضارب أقواله، ووكل محامياً أوروبياً دافع عنه،

وصدر الحكم بالبراءة فخرج من السجن أواخر شهر فيفري 1946، في حالة من العياء والتعب والشقاء، والتحق بأهله في قنزات.

انتقال الربيع بوشامة إلى الجزائر العاصمة

وفكر ملياً في العمل وقرر الانتقال إلى الجزائر العاصمة وهناك اتصلت به جمعية الهداية بحي العناصر. وطلبت منه العمل بمدرستها كمعلم، واتفق معها في شهر جوان وأمضى عقد العمل الذي باركه الشيخ البشير الإبراهيمي وأوصى الهيئة الإدارية للجمعية بالعناية به، وتوفير ظروف العمل له.

وفي أول شهر جويلية 1946 باشر الشيخ الربيع عمله في المدرسة وأحدث فيها ثورة في أسلوب الدراسة، وبرامجها وفي إقبال الأطفال عليها، وذلك بفضل كفاءته العلمية أولاً، ونشاطه المكثف ثانياً. ولم يكتف بهذا فأحدث درساً أسبوعياً، ودروساً ليلية للشبان والكهول من مختلف الأعمار. وخصص الأجور التي يقدمونها له لميزانية المدرسة، واكتفى فقط بالأجر الشهري المتفق عليه.

إنها تضحية من نوع آخر وقد اعترفت الجمعية للشيخ البشير الإبراهيمي بأن المدرسة كانت ميتة فأحياها الشيخ الربيع بوشامة، ولذلك كافأته جمعية العلماء على هذه الجهود، ورقته، وعنيته مديراً ممتازاً من الدرجة الأولى في سلكها التعليمي خلال العام الدراسي 1947 ـ 1948 م.

ورغم هذه الجهود، وهذا النجاح الجيد لم يستمر الربيع بوشامة في العمل طويلاً بمدرسة الهداية هذه لأن الهيئة الإدارية الجديدة للجمعية المحلية صاحبة المدرسة، انتخب فيها أعضاء جدد ينتمون إلى حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الذي كان يسعى هو الآخر للقيام بحركة تعليم حرة تابعة له، ووجد بوشامة نفسه أمام خيارين: أما البقاء في مدرسة الهداية التي سيتقلص فيها نفوذ جمعية العلماء وذلك يتعارض مع تفكيره وقناعاته التي ترى أن إشراف جمعية العلماء على حركة التعليم هو الذي سيضمن لها الاستمرار، والجدية، والتطور،

وأما مغادرة المدرسة، وترك الوظيفة وهو ما فعله. فعينته جمعية العلماء معلماً ومديراً لمدرسة الثبات بالحراش في بداية العام الدراسي 1948 ـ 1949 م. وباشر عمله بجد ونشاط وحيوية وفتح أبواب المدرسة لمئات التلاميذ، وحصل على نتائج جد هامة ومرضية، وأصبح الخريجون من مدرسة الثبات يوجهون إلى الزيتونة في تونس، وإلى معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة. ورشحت المدرسة فوجاً من تلاميذها للمشاركة في أول دورة للشهادة الابتدائية التي نظمتها جمعية العلماء، في صيف عام 1952 م.

الربيع بوشامة ينتدب لشعبة باريس

وفي شهر أوت من عام 1952 انتدبته جمعية العلماء ليرأس شعبتها المركزية بباريس، على إثر الزيارة التي قام بها الشيخ البشير الإبراهيمي إلى فرنسا في بداية نفس العام قبل أن يرحل إلى المشرق. قطع الربيع بوشامة عطلته الصيفية، والتحق بباريس على أمل أن تتم صلاة عيد الأضحى في مسجدها الجامع تحت إشراف الجمعية من أجل التعريف بها وبأنشطتها المختلفة، وذلك سيسمح لها بتكوين شعب جديدة في باريس وكل أنحاء فرنسا. وجمع الأموال اللازمة لمشاريعها التعليمية وتكثيف الاتصالات مع الجاليات العربية والإسلامية المتواجدة هناك، ومع المثقفين كذلك. وتنظيم المهاجرين الجزائريين، وبث حركة التعليم والوعظ والإرشاد في أوساطهم.

وفعلاً باشر بوشامة نشاطه وتمكن مع رفاقه في تأسيس عدد لا بأس به من النوادي والشعب في باريس وغيرها من المدن الفرنسية الكبرى التي يتواجد فيها المهاجريون الجزائريون. ويبدو أن خصوم الجمعية لم يرتاحوا لعمل بوشامة ونشاطه لأنه نجح في رفع وصاية بعض الأحزاب السياسية الجزائرية خاصة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، ولذلك بدأوا يتحركون ليثيروا الصعاب أمامه وأمام معاونيه، وأخذ يشعر بالضيق خاصة وأن الدعم الذي كان يتلقاه من الشيخ البشير الإبراهيمي انقطع بعد سفره إلى الشرق العربي. وفي الأخير أنهيت مهمته في باريس قبل أن تمر سنة على التحاقه بها. وعاد إلى الجزائر وإلى إدارة

مدرسة الثبات بالحراش كمدير عادي من الدرجة الثانية وكان قبل ذلك مديراً ممتازاً من الدرجة الأولى، وواصل نشاطه التعليمي بصفة عادية حتى اندلعت الثورة في ليلة أول نوفمبر 1954 م. وبالطبع سوف لن يتخلف عن الركب، ولن يتردد في العمل لدعمها بكل إمكاناته المادية والمعنوية خاصة وأنه كان على معرفة تامة بالعقيد حمودة عميروش يوم أن كان في باريس.

عمل الربيع بوشامة في ثورة أول نوفمبر 1954 م

بدأ الربيع بوشامة اتصالاته بقادة الثورة في الشهور الأولى من اندلاعها خاصة قادة جيش التحرير الوطني، وكان أول اتصال له مع الشهيد العقيد عميروش. وفي ربيع عام 1955 تم ثاني اتصال له معه بعد أن أرسل إليه رسالة مع مبعوث خاص إلى منزله. وفي يوم 13 ماي 1956 الموافق لثاني يوم من عيد الفطر المبارك لعام 1375 هـ توجه بوشامة إلى برج بوعريريج، ثم إلى مسقط رأسه قنزات ببني يعلى، ومنها إلى قرية قلعة بني عباس في جبال البيبان أين اجتمع بالعقيد عميروش، ولا شك أن الحديث كان على شؤون الثورة خاصة قضايا المصاليين الذين تمركزوا في غابات منطقة بني يعلى التي رحل عنها الجيش الفرنسي. ثم عاد إلى العاصمة، وواصل نشاطه التربوي كعادته.

وفي مطلع عام 1957 غادر العاصمة للاتصال بقادر جيش التحرير في مهمات خاصة لصالح الثورة، ودامت غيبته شهراً كاملاً، ثم عاد إلى منزله، ونشرت الصحف الفرنسية اسمه ولكن محرفاً مما جنبه المتابعة إذ لم تذكر الربيع وإنما ذكرت بوشامة فقط، وبعد مدة قام برحلة إلى سطيف وبعض مدن الشرق الجزائري مستخدماً بطاقته المهنية كمفتش لمدارس جمعية العلماء، ليقضي مصالحه ويؤدي ما أوكل إليه من مهمات لصالح الثورة، قبل أن يعود إلى العاصمة. ليواصل عمله النضالي على مستوى مدينة الجزائر في إطار خلايا جبهة التحرير الوطني.

ونظراً إلى الرقابة الشديدة التي كانت السلطات الاستعمارية تفرضها على نشاطاته، كان دائماً في حالة طوارىء ليلاً ونهاراً. وقد أعدّ له العقيد عميروش

الأوراق ليذهب إلى الخارج تونس مثلاً، ولكن لم يتم ذلك، وكان لا يرغب في الخروج وقال لزوجته ذات مرة عندما اقترحت عليه ذلك، إذا كان كل متابع يخرج إلى الخارج فيمن يبقى هناك لخدمة جيش التحرير والثورة.

استمر الربيع بوشامة في عمله مع الثورة، واتصاله بقادة جيش التحرير طول عامي 1957 و1958، وكانت آخر رسالة توصل بها من العقيد عميروش قبل شهر من اعتقاله في مطلع عام 1959 م. ففي الأسبوع الثاني من شهر جانفي 1959 تمكنت السلطات الاستعمارية من تفكيك شبكة بحي المدينة بالجزائر العاصمة، وتم إلقاء القبض على أكثر من مائة مناضل. وبدأ بوشامة يشعر بالخطر يقترب منه، ثم لما تمكنت من تفكيك شبكة حي سيد امْحَمَّد أصبح ما بد من اعتقاله لأن مناضلي هذه الشبكة لهم صلة به، وسوف يذكرون اسمه بعد التعذيب.

وهكذا وفي صباح يوم 16 جانفي 1959 تم إلقاء القبض على الربيع بوشامة في مدرسة الثبات بالحراش بتهمة تمزيق العلم الفرنسي الذي كان منتصباً وسط ساحة المدرسة، واقتيد إلى مقر قيادة الدرك بحي بلفور في الحراش، واستجوب هناك وأنكر أن يكون هو الذي مزق العلم، فأطلق سراحه وعاد إلى البيت، وعلى الساعة الثانية عشرة ليلاً حضرت الشرطة السرية إلى منزله واعتقلته من جديد وفتشت منزله وحملت معها كل ما وجدته من أوراق وجرائد واقتادته إلى مكان مجهول لمدة ستة أيام عذّب فيها عذاباً شديداً ثم عادوا به إلى منزله في حالة يرثى لها من الجروح والدماء وذلك لمواصلة البحث والتحقيق، وإرهاب أفراد أسرته كذلك، وتفتيش المنزل تفتيشاً دقيقاً.

وبعد أن أنهوا عملهم اقتادوه معهم من جديد، وهي آخر مرة يرى فيها عائلته، واعتقلوه في مكان مجهول تماماً، حتى عن محاميه الأوروبي، الذي ظـل يردد لعائلته بأنه ما يزال رهن التحقيق.

وخلال شهر أبريل 1959 اتصل المحامي بعائلته وأبلغها بأن الربيع بو شامة سيقدم للمحاكمة قريباً وأن المحكمة حددت أجلاً للنظر في قضيته.

وفعلاً فقد تم تحويل بوشامة من يد الشرطة إلى السلطات العسكرية ومنها تسلمه رجال الدرك. ووضعوه في ضيعة بوشي قرب بلدة لربعطاش، وأخذوا يحققون معه من جديد، ويترددون على منزله للتفتيش واستكمال البحث.

وتمكنت أسرته من التعرف على مكان اعتقاله في آخر لحظة عندما وصلتها منه رسالة في بداية شهر ماي ليست بخطه، ولكن أفكارها منه قال لهم فيها أنه بخير، ويسأل عن حالهم. واستناداً إلى رموز هذه الرسالة التي تعرفوا منها على مكان وجوده اتجهت إليه زوجته وصديقه وتلميذه الشيخ محمد بوستة، وهناك قال لهم الحارس بأن جنود الدرك أخذوه صباح اليوم هو والشيخ أحمد، وكان ذلك يوم 14 ماي 1959 وهو اليوم الذي أعلن فيه رجال الدرك عن مقتله ومقتل الشيخ أحمد إمام مسجد بودواو.

ذلك هو شريط حياة الشهيد الشاعر الشيخ الربيع بوشامة، باختصار شديد لخصناه من مقدمة طويلة كتبها ابن أخته الأستاذ الدكتور جمال قنان لديوان شعره الذي جمعه ورتبه، وقدمه للطباعة والنشر منذ 1986، وما زال لم يصدر إلى الآن. ومن هذا الشريط يتضح أن الربيع بوشامة مجاهد الفكر، والقلم، والتربية والتعليم والوعظ والإرشاد قبل ثورة 1954، ومجاهد النضال السياسي والعسكري خلال هذه الثورة إلى يوم استشهاده في شهر ماي 1959، أنه رجل العلم والثقافة، والسياسة وشاعر مفلق عبر بشعره عن خلجات هذا الشعب، وصور مآسيه مع الاستعمار وبطولاته في الجهاد والمقاومة، ووضع أناشيد في أغراض شتى. وفيما يلي بعض من شعره كنماذج فقط، في انتظار صدور ديوانه الشعري الذي ينتظره الجميع خاصة معشر الشعراء والكتاب والقصاصين والمؤرخين فقال في حق شهرماي:

لي فيك يا (ماي) النوائب والردى ذكـرى ستبقـى طيلـة الأعـوام
فقدان خير أب، وأكرم صحبة وجحيم سجن حف بالإعدام
فـي ذمـة التـاريـخ تسعـة أشهـر قضيتهـا فـي غـزوة وصـدام
قـابلتهـا بشجـاعـة جبـارة وتجلـد يسطـو علـى الآلام

وخرجت منها حر نفس محمداً اعتـز ـ جهـد الظـافـر الغنـام
يا (ماي) قد ظلموك حقاً مثلما ظلموا الضعاف، وشوهوك بذام
وكسوك ثوب المجرمين ـ إهانة مقصـودة لسنـائـك البسـام
ما كنت أهلاً للفجائع والأذى لـولا هـوى فـي دولـة الأقـوام
ورموك من بين الشهور بوصمة شـوهـاء تبقـى سبـة الأعـوام
عجباً لوجهك كيف عاد لحاله من بعد أحداث عرتك جسام
هلا غربت عن الزمان وأهله فتـريـح هـذا النـاس مـن إيـلام
أصبحت رمز الفاجعات بذا الحمى تبـدو بهيمـاً مفـزع الأظـلام
وتروح ذكرى السوء تحمل قرحة مهمـا تعـد تشـرق بجـرح دام
يا (ماي) مالك واجماً لم تنتقم أو ما سقاك الظلم أسوأ جام؟
هذا حرامك بالدما مسفوكة قـد عـج بـالأرواح والأجسـام
فارفع إلى مولاك شكوى ضارع يبـرأ مـن الحكـام والأحكـام
واسأل يد الجبار عاجل نقمة للظـالـم المستهتـر الهـدام
يا (ماي) أنا في انتظار حكومة فمتـى يسـاق الظلـم لـلإعـدام؟

وكما تجاوب مع الأحداث الوطنية، تجاوب وتفاعل مع أحداث الأشقاء في الخارج، ورثى شهيد القسطل الفلسطيني عبد القادر الحسيني، وقال:

حـي ذاك الشهيـد فـي الميـدان بـاسـم الثغـر هـادىء الـوجـدان
يـرفـع الطـرف للسمـاء شكـوراً نعمة الموت من حمى الأوطان
والدماء الحمراء، تدفق نوراً وحيـاة مشبـوبـة الألـوان
بطل (القسطل) الشهيد المفدى حزت مجداً مخلداً في الزمان
أن تعالجك في الجهاد المنايا قد بلغت المدى على الأقران
رح شهيداً مقدس الروح شهماً مشـرق الـوجـه عـاطـر الأكفـان
أيهـا العـرب أمـة المجـد والعلـ ـياء ماذا ترجون غير التفاني؟
أنـه المـوت فـي الكـرامـة والعـ ـز، أو العيش في الشقا والهوان
كيف ترضون عيش أمن وخير وفلسطيـن فـي الجحيـم تعـانـي
فـانهضـوا للفـدا ولبـوا سـراعـاً داعـي الله مـن سمـا الأكـوان

لا رعـــى الله أنفســـاً تتملـــى   عيشة الذل في صفوف الغواني

وعندما تم إعلان استقلال المملكة الليبية عام 1952 م، حياها، وحي الشعب الليبي والأبطال الليبيين بقصيدة طويلة منها:

وأسعد بتحرير أخوان بني رحم   موصولة، أيدتها ذمة الجار
أن العروبة في أي البلاد نمت   روح مـوحـدة الآمـال والـدار
حييت يا ليبيا الشماء من وطن   معـزز سيـد الأبطـال مغـوار
وعشت خفاقة الأعلام زاهرة   ترعاك روح الهدى في ذمة الباري

يا شباب هيا للعلاء...

«مهداة إلى أخوان الصفاء والوفاء: وفي طليعتهم السيد الطاهر سي بشير[1]، والشيخ عبد الحفيظ أمقران، والشيخ البشير إيزمران الذي له فضل الإيحاء والبعث على نظمها، بكتابته الأخوية المؤثرة وأدبة اللطيف الممتع، ثم إلى سائر الشباب الناهض من أبناء العروبة والإسلام».

حـي بـاسـم الأخـوان الصفـاء   وارع فيهـم أبـداً عهـد الـوفـاء
واعتــزز منهــم بــذكــر نخبــة   أهــل فضــل وطمــوح وذكــاء
رأسهــم عبــد الحفيــظ ظـاهـر   وبشيـر المجـد فخـر الأصفيـاء
ثم (صبحي)[2]ذلك الشهم السري   آيـــة الله نبـــوغـــاً وذكـــاء
من بني (لبنان) عنوان الفدى   وحمى الأعلام والصيد الوضـاء
وأشـد ألحـان وداد عـذبـة   تنعش النفس وتسمو بالإخاء
واسقنـى منهـا كـؤوسـاً ثـرة   تتـوالـى فـي صبـاح ومسـاء
صـرفـة ميمـونـة أعقـابهـا   ليـس فيهـا مـن نفـاق أو ريـاء
إنهـا سلـواي فـي دنيـا هـوى   وهمـوم، وهـي طبـي والشفـاء

---

(1) الطاهر سي بشير هو خال العميد العربي سي لحسن، والبشير أيزمران، وعبد الحفيظ أمقران، كانوا كلهم بفرنسا مع الشيخ الربيع بوشامة.

(2) الدكتور صبحي الصالح من طرابلس بلبنان. كانت له صلات متينة بالمهاجرين الجزائريين في باريس. اغتالته الأيدي الأثيمة في لبنان خلال الحرب الأهلية.

وحيـــاة لشعــوري وسنـــا		لضميـري، وســلاح للغــداء

* * *

فتيــة المجــد رعــى الله يــداً		جمعتنــا حــول وردّ وصفـــاء
وأتـــاحـــت لكلينـــا فـــرصـــاً		طيبـــات للتـــآخـــي والـــولاء
ولسعــي مــا جــد مشتــرك		للمعــالــي والأمــانــي والسنــاء
حيث جاهدنـا بـأعلـى همـة		وبنينــا للحمــى خيــر البنــاء
كـم هـززنـا مـن نفـوس نـوم		وسقينـا مـن حشـاشـات ظمـاء
وبعثنــا مــن شعــور طيــب		ونشــرنــا مــن حيــاة وضيــاء
ورفعنـا مـن طمـوح صـادق		وأثــرنــا مــن حمــاس وإبــاء
ومـلأنـا الجـوّ رَعـداً قـاصفـاً		مـوقطـاً روح العـلا والكبـريـاء
وقــد تحطنــا وإبلينــا بــلا		حسناً من غير شكوى أو وناء
وأقمتنا سمعـة حسنـى غـدت		مضـرب الأمثـال عنـد العقـلاء
ونـوينـا مـن المـآتـي كلهـا		ما نوى ذو همة سامي الرجاء
وأردنـا الله مـن دون الـورى		ولـدى الله لنـا أوفـى الجـزاء
سل حمى باريس أرضاً وسما		عـن هـدانـا وساعينا الوضاء
واسأل الأحرار من أهل الحجى		هـل وفينا وظفـرنـا بـالـرضـاء
وأقمنــا مثلمــا كنــا علــى		شـرعـة الله، وطهـر الأتقيـاء
كلهــم يشهــد بــالحــق لنــا		أننـا أهـل المعـالـي والـوفـاء
همنـا الـوثـاب تحقيـق المنـى		وفدى الأوطان من قيد العناء

* * *

يـا شبـابـاً عـاهـدوا الله علـى		خدمة الشعب وحرب الألداء
اسمعوا صوت جريح مرهق		واستجيبـوا بـاهتمـام للنـداء
إن أوطـانكــم الشــم بكــت		واستغـاثـت: يـا لقـوم للفـداء
يـــالقـــوم لصغـــار رضـــع		ونســاء ورجــال مــن الـدمـاء
وشبــاب ضيــع قــد حـرمـوا		فـي حمـاهـم كـل خيـر وهنـاء
حطّموا الأغلال عنا وافتدوا		أمــة ردت عبيــداً وأمـــاء

وأعـزوا كـل وجـه كـاسـف — سـامـه الـذل وألـوان الشقـاء
وخـذوا الـرّايـة الحمـراء لهـا — وارفعـوهـا فـوق هـام الشهـداء
لا تهابوا الموت في سبيل العلا — إنمـا المـوت حيـاة العظمـاء
ذاك صوت الحق يدعو في السما — يـا شبـاب العـرب هيـا للعـلاء
ابـذل الأرواح والمـال تعـش — بـالمنـى والعـز عيـش السعـداء

الجزائر في 27 ـ 08 ـ 1954 م

الربيع بوشامة

الشيخ محمد أَكْلِي أُوحَمُّودَة زَابُورِي

من مواليد قرية بوفنزار بالجعافرة في مطلع هذا القرن، وكان أبوه الشيخ محمد أرزقي أُوحَمُّودَة حافظاً للقرآن الكريم، وعلم في قريته هذه أكثر من أربعين عاماً وعليه حفظ ابنه هذا القرآن الكريم، وتعلم العلوم الدينية الفقهية، والعربية، واللغوية، في زوايا المنطقة، وتضلع خاصة في اللغة والأدب، واعتمد على التكوين الذاتي.

وبعد ذلك شرع كغيره في التعليم بالقرى والمداشر، فعلم في قرية بوحمزة بعرش بني عيدل عدة سنوات، ثم انتقل إلى قرية مغنية على الحدود الجزائرية المغربية، وتصدى للتعليم هناك بضع سنين، والتف حوله عدد من الطلاب، فأحدث نهضة علمية نشطة، وكان من ضمن من علم عنده في مدرسته الأستاذ المرحوم الدكتور محمد مصايف أستاذ الأدب العربي في جامعة الجزائر، وتعرض للمضايقة من طرق السلطات الاستعمارية فأشار عليه بعض المخلصين له بأن يرحل قبل أن يتعرض لما لا تحمد عقباه، فانتقل إلى مدينة وهران، واحتضنه حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وساعده على إنشاء نواة لمدرسة في شرق المدينة الذي يدعى بقامبيطة، ثم أسس له «مدرسة الحياة» في حي كوربي الذي يعرف اليوم بالصاديقية وذلك بعد الحرب العالمية الثانية، وزرته بها حوالي عام 1947 أو 1948 يوم جمعة، وكان يستعد لصلاة الجمعة لأن المدرسة بها مسجد للصلاة تؤدي فيه كذلك صلاة الجمعة، وعرض

علي البقاء لتناول الفطور معه بعد الصلاة فاعتذرت.

وقد تطورت هذه المدرسة وتوسعت، وشاركت في النهضة الثقافية وكان من ضمن من علم بها تحت إشرافه، الشيخ عبد القادر الزبير مفتش الشؤون الدينية الذي علم بها أربع سنوات كاملة لغاية 1955، وقد حكى لي بنفسه عام 1986 بأن الشيخ محمد أكلي كان يخرج إلى واحات الجنوب كالبيض، وسعيدة، وعين الصفراء، ومشرية، ليحضر الطلبة الذين يدرسون بالمدرسة ويجمع التبرعات التي تساعد على إيوائهم، وتموينهم، وذكر لي كذلك بأن زوجة الشيخ محمد أكلي كانت تقوم بإعداد الطعام بنفسها من طلوع الشمس إلى الغسق لهؤلاء الطلبة.

وقد أشاد الشيخ الزبير، والشيخ المحامي محمد فرحات المعسكري، بفضله في هذا الميدان، ويحكي الأستاذ محمد بونوة أنه وأخوان له من عين الصفراء، كانوا بمثابة أبناء له يدخلون إلى بيته ويخرجون، ويتناولون غذاءهم داخل المنزل بين أطفاله، ولا شك أن دعم الحركة الوطنية له مما ساعده على النجاح في مدينة طغت فيها وتجبرت الجالية الأوروبية خاصة العناصر الإسبانية منها.

وقد بقي يجاهد ويكافح في هذا الميدان حتى عام 1957، ثم غادر المدرسة لحي آخر بعد أن هدد بالقتل، وتعب كغيره وفي عام 1962 انتقل إلى مدينة الجزائر وحصل على أقدمية وعين أستاذاً في ثانوية عمارة رشيد حتى تقاعد، وحج، وتوفي عام 1987 م.

وقد زارتني أسرته خلال عام 1988 زوجته، وبنتان، وابن، إلى منزلي وحكوا لي جانباً من حياته، وذكرت لي زوجته بأن له ديواناً شعرياً يحوي مجموعة من القصائد في مختلف الأغراض، وعدة تقييدات، ووعدتني بإرسالها للاطلاع عليها، ولم يحصل ذلك بعد. وحدثني ابن له طبيب، بأنه سيعمل على نشرها، وذكر لي الشيخ المحامي المعسكري محمد فرحات بأن الشيخ محمد أكلي فصيح اللسان عندما يخطب له قدرة على التأثير على مخاطبيه، متطلع في العلوم العربية والمواد الفقهية، متفتح، وله مواقف هامة في ميدان الاجتهاد قل أن توجد عند غيره.

الشهيد الشيخ جمعة أُويَخلَف الَمايِني

من مواليد قرية إلماين، ووالده يدعى سي محمد السعيد أُويَخْلَفْ وأعرفهما جيداً، وكثيراً ما زارنا إلى منزلنا، وكثيراً ما زرتهما إلى منزلهما، حفظ الشيخ جمعة القرآن الكريم في مسقط رأسه، والتحق بمعهد ثاموقرة، ودرس هناك على الأستاذ الشيخ الطاهر، وحاول أن يلتحق بالزيتونة في تونس ولكن لم يوفق لظروف عائلية، ولكبره في السن الذي لا يسمح له بالانخراط رسمياً في سلك التعليم الرسمي.

واعتمد على التكوين الشخصي، وتضلع في الفقهيات، وعلوم اللغة والأدب، وفي مادة الفرائض والتركات، وعلَّم في عدة قرى وانخرط في صفوف الثورة منذ البداية، فعينته معلماً في قرية ثُودَّارْ ببني عيدل، وهناك استشهد في غار بعد أن هجم عليه وعلى من معه الجنود الفرنسيون، وقَذَفُوهُمْ بالنيران، وكان المجاهد عبد الحفيظ أمقران العشاشي، المحافظ السياسي، والمسؤول عن التعليم والأوقاف في الولاية هو الذي عينه للتعليم في هذه القرية كما ذكر لي شخصياً، وقد استشهد خلال عام 1957 أو الذي بعده.

الشيخ الطاهر آيت علجت المقراوي

من مواليد قرية ثاموقرة ببني عيدل عام 1917، حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه بزاوية جده الشيخ يحيى العيدلي، ودرس هناك مبادىء العلوم العربية، واللغوية، ثم رحل إلى زاوية بلحملاوي في العثمانية قرب قسنطينة، ودرس هناك حتى تضلع خاصة في الفقه وعلوم اللغة والأدب، والرياضيات وحضر بعض الدروس على الشيخ باديس في قسنطينة، ثم عاد إلى ثاموقرة، وتفرغ هناك للتعليم والتدرسي والإفتاء، وأقبل عليه طلاب العلم والمعرفة من كل الجهات ما بين بجاية على البحر، والهضاب العليا في الداخل ومن حوض الصومام إلى جبال البابور، فأحدث ثورة في ميدان التربية والتعليم، وأصبح طلابه وتلاميذه يلتحقون أفواجاً بجامع الزيتونة في تونس، للدراسة والتحصيل

ويتفوقون، لأن نظام الدراسة الذي يطبقه في مَعَمْرَةِ ثَاموقثرة كان متطوراً يتماشى مع النظام الزيتوني في تونس، ومع نظام معهد عبد الحميد بن باديس، ومعهد الكتانية، بقسنطينة، فتخرج الكثير من طلبته، وتصدوا للتربية والتعليم في كل قرى المنطقة، وشاركوا في الجهاد الثقافي مشاركة فعالة ومؤثرة.

وقد بدأت هذه النهضة الثقافية بمعهد ثاموقرة قبل الحرب العالمية الثانية، واستمرت حتى عام 1956، ثم التحق الشيخ الطاهر وطلابه، بالثورة وشاركوا كلهم فيها، واستشهد الكثير منهم، وفي عام 1957 التحق الشيخ الطاهر بتونس، وعين عضواً في مكتب جبهة التحرير الوطني بطرابلس الغرب لغاية 1962[1]، ثم عاد إلى الجزائر، وعين أستاذاً في إحدى ثانوية الجزائر حتى تقاعد، وما يزال حياً يمارس دروس الوعظ والإرشاد في مسجد حيدرة، ويتمتع بسمعة كبيرة جداً في أوساط سكان المنطقة، ولدى كل المثقفين ومن مزاياه ومآثره أنه يتولى فصل الخصومات بين الناس، وينقذهم من المحاكم الاستعمارية التي كانت تمتص أموالهم، وتضيع لهم أوقاتهم وكان في هذا مثل الوالد، والشيخ المولود الحافظي، والشيخ الهاشمي بن الطيب، والشيخ محمد وَعْلِيَ وَالطَّيب مَدَاغْ وآخرين.

وقد اتصلت به مراراً، ورجوته أن يكتب لنا سيرته بخط يده كما فعل آخرون فلم يستجب. ولعله تحاشى الحديث عن نفسه.

الشيخ حمزة كسورى الورتلاني

من مواليد قرية الجمعة ببني ورتلان التي يعقد فيه سوق أسبوعي حتى اليوم يدعى بسوق الجمعة عرفته بتونس حيث كان يدرس هناك وحصل على شهادة التحصيل في بداية الخمسينات، وعاد إلى مسقط رأسه ليمارس التدريس

(1) عندما غادرت القاهرة إلى تونس في شهر جوان أو جويلية ١٩٦٢. مررت بطرابلس الغرب واتصلت به في مكتب جبهة التحرير الوطني وضيفني هو ورئيس المكتب المرحوم أحمد بودة. وبقيت هناك ثمانية أيام.

في مدرسة القرية نفسها التابعة لجمعية العلماء، وكان من الأوائل الذين حصلوا على هذه الشهادة بالمنطقة من الزيتونة، أما أخوه محمد فقد واصل دراسته بعده، ثم أرسل مع بعثة جمعية العلماء إلى مصر، وتخرج من كلية أصول الدين، واشتغل في مكتب جبهة التحرير بالقاهرة حتى عام 1960 ثم نقل إلى مكتب الجبهة ببغداد حتى عام 1964 م. ثم دخل إلى الجزائر.

وعندما اندلعت ثورة أول نوفمبر 1954 وشرع الجيش الفرنسي في قذف قرى المنطقة فر الشيخ حمزة، والتجأ إلى قريتنا: أمزرراق، وبقي بها لاجئاً طوال عام 1956، والنصف الأول من 1957، وعندما هجر سكان القرية هاجر معهم إلى ثاوريرث نتيزي عيذل، ثم إلى أولاد سيدي يذير، وعد من أفراد القرية، وخصصت له حجرة في زاوية بالقرية وتولى السكان المهاجرون تموينه، ووجد نوعاً من الحماية بفصل رجل من الحركة في بلده بني ورثلان يدعى: جَمْعَةْ أَكْسَاسْ، كان مجنداً ضمن الحركة في قرية إلماين المجاورة لأولاد سيدي يذير، فغطى عليه، وحال دون معرفة الضباط الفرنسيين لحقيقة أمره. وهذا الحركي يثنى عليه كل سكان المنطقة لمواقفه المشرفة بحيث أنقذ الكثير من العذاب، ونجى كثيرين من مصائب الجيش الفرنسي، بحسن نصائحه، وملاطفته، وحسن سياسته ودفاعه.

وعندما نقل هذا الحركي من إلماين، وشى بالشيخ حمزة حركي آخر من قرية أفلقال قرب إلماين، يدعى إبراهيم أُوقَاضَرْ إلى السلطات العسكرية، وزعم لضباط المركز بأنه كان قاضياً للثورة يحاكم الخونة والجواسيس، فاعتقله ذلك الضابط في الحال وسلط عليه العذاب الأليم عدة أسابيع، ثم رماه في حفرة كبيرة معدة للتعذيب، بنى عليها برج حراسة، وترك هناك يتبول عليه الجنود، ويرمون القاذورات عليه، للبرد، والشر، والعطش، ومرة على مرة يخرج من الحفرة، ويمسك الضابط عوداً طويلاً في طرفه موسى الحلاقة، ويضربه به على أجزاء جسمه ليسيل دماءه.

لقد عذب الشيخ حمزة في هذه الحفرة عذاباً أليماً، ولم يكن أحد يتصور

أنه سيبقى حياً، ولكن الأرواح بيد الله على أي حال، وحكى لي هذه القصة ابن العم أبْعَازِّي مَحَمَّدْ الذي شهد بنفسه الحدث. وعندما سمع حركة بلاده بني ورثلان، بخبره، احتجوا لدى الضابط الفرنسي هناك، وقالوا له أما أن يأمر بإحضاره أو يستقيلون من عملهم بصفة جماعية وأكدوا له بأن هذا الرجل من بلادهم، وإذا استوجب التعذيب والعقاب، فمركز بلادهم أولى بذلك فرضخ الضابط للأمر الواقع وقادهم جميعاً إلى مركز بني حافظ الذي يحكم ضابطه في معسكر إلماين، فأعطى لهم ورقة إلى ذلك الضابط ليسلمه إليهم، فذهبوا إليه وأخذوه إلى بلاده بني ورثلان، ولم يطل الأمر حتى عجل الله بالفرج، واسترجعت البلاد استقلالها، وشفي الشيخ حمزة، وعوفي، فتصدى للتدريس والتعليم، والإمامة، والخطابة في جامع قرية سوق الجمعة. وقد زرت قرية بني ورثلان يومي 12و13 مارس1989 بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاة العالم الفاضل الشيخ الفضيل الورتلاني، والتقيت به وجلست معه. وقد تقدم به السن، وأصبح لا يطيق الحوار والمناقشة، ولا يقبل رأي غيره. وقد توفي الشيخ حمزة كسورى حوالي عام 1992 م.

الشيخ الشريف عديس حمودة

من مواليد قرية أغيل أورير بسفح جبل ثفرق وأعشابو أوفله (العلوى). حفظ القرآن في مسقط رأسه بمسجد القرية، ودرس في معمرة آمالو، بواد الصومام، وفي زاوية الوالد بالجعافرة على الشيخ علي البوديلمي المسيلي، الذي يكن له تقديراً كبيراً ويزوره إلى مقر سكناه بتلمسان مرة على مرة إلى أن توفي عام 1988.

تضلع الشيخ الشريف في مادة الفقه، وعلوم قواعد اللغة العربية، كالنحو والصرف، وتصدى للتعليم في القرى قبل الثورة وخلالها ابتداء من الحرب العالمية الثانية.

وبعد استرجاع الاستقلال الوطني عام 1962، حصل على الأقدمية وعين

مدرساً في مدينة برج بوعريريج إلى تقاعده في بداية الثمانينات وتفرغ لتكوين الأئمة والإطارات الدينية، بتعاقد مع وزارة الشؤون الدينية، وهو كفوء لذلك دمث الأخلاق، طيب، ومتواضع، ويعتبر أحد تلاميذ الوالد، وثيق الصلة به طوال حياته، مد الله في عمره، وأعانه على أداء الدور والرسالة الدينية التربوية التي يقوم بها لصالح الأمة، وقد توفي الشيخ الشريف حمودة عديس عام 1992 م عن عمر طويل قضاه كله في التربية والتعليم.

الشيخ بلقاسم البوجليلي

من مواليد قرية بوجليل بجبال بني عباس، في جبال البيبان، في أوائل القرن الماضي وتوفي عام 1898 م، ولم يلحق القرن الحالي، ويوافق ذلك عام 1316 هـ. حفظ القرآن الكريم على والده في مسقط رأسه ثم التحق بزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي في جبال جرجرة، ودرس مختلف العلوم والمعارف العربية الإسلامية الدينية واللغوية على المشائخ التالين: العربي الأخداشي، ومحمد الطاهر الجنادي خريج جامع الزيتونة بتونس، ومحمد بن علي التقابي، ومحمد أُوبُورَاشَدْ الألمياني، وأدرك بالزاوية الشيخ محمد بن يحيى اليراثني، وبعد تخرجه من الزاوية تفرغ للتدريس بها مدة سنة، ثم أخذ الطريقة الصوفية على الشيخ محمد أمزيان بن علي الحداد، وأسس لنفسه زاوية في بوجليل، وعكف فيها على التعليم والتدريس، وتحفيظ القرآن الكريم، للكبار، والصغار، ومن المواد التي كان يدرسها: النحو، والفقه، والأصول، والفرائض، والتوحيد، والمنطق، والحساب، والتجويد، وعلم القراءات، وألف في عدة أغراض خاصة، النحو، والقراءات، ومن مؤلفاته:

1 ـ التبصرة في القراءات العشرة،

2 ـ معرب الأجرومية،

3 ـ إعراب المبنيات،

4 ـ نظم أرجوزة في التجويد جمع فيها تقاييد للشيخ محمد بن عنتر

البتروني، وهو أحد الشيوخ المبرزين للطريقة الرحمانية له تلاميذ ومريدون عديدون أخذوا عنه أو عن نوابه، ومقدميه.

الشيخ عبد الحفيظ أمقران الحسني

لقد طلبنا منه أن يسجل لنا ملخصاً عن حياته فاستجاب مشكوراً، وأرسل إلينا النبذة التالية:

من مواليد 1926 بقرية بني عشاش، بلدية عين لقراج، دائرة بني ورتلان، وجده الأعلى التاسع هو سيدي أحمد الشريف الحسني نجل سيدي علي البكاء البجائي كما ورد في كتاب «الرحلة الورتلانية» لصاحبها سيدي الحسين الورتلاني[1].

ويوجد ضريح سيدي أحمد الشريف (من القرن العاشر الهجري) على بعد ثلاث كيلومترات جنوب غربي قرية بني عشاش، وكانت زاويته تأوي ما لا يقل عن خمسمائة طالب في وقته، يتلون كتاب الله ويتدارسون العلوم الدينية[2].

حفظ السيد عبد الحفيظ أمقران القرآن بمسقط رأسه، ولم يتجاوز اثنتي عشرة سنة على جده من أمه وبعض شيوخ الناحية، كما تعلم مبادىء العلوم على ابن عمه الشيخ محمد أمقران، وأساتذة آخرين، كالشيخ المولود الحافظي الأزهري، والشيخ عبدالله الشلحابي، ثم انتقل إلى مدينة سطيف سنة 1942 لمواصلة التعليم الثانوي الحر على مجموعة من الأساتذة أمثال: الشيخ رابح مدور، ولا يزال حياً، والشهيدين البشير الريغي، وآمحمد عادل الزيتوني، والمرحوم الشيخ الصادق حماني، والشيخ محمد وعلي، والشيخ حسونة، وهؤلاء جميعاً، كانوا قائمين بهذا التعليم كتعويض عن رائد النهضة الشيخ عبد الحميد بن باديس بعد وفاته في 1940، مثل قيام الشهيد الشيخ العربي التبسي

(1) أنظر ص 73 وص 603 من المرحلة المذكورة، ويوجد ضريح سيدي أحمد الشريف على بعد ثلاث كيلومتر جُنوب غرب قرية بني عشاش.
(2) نفس المصدر.

بنفس التعليم في مدينة تبسة. واصل السيد عبد الحفيظ تعلمه حتى سنة 1945، حينما استعد للالتحاق بجامع الزيتونة بتونس، فإذا بحوادث 8 ماي من نفس السنة تحول بينه وبين هذه الأمنية، وكاد أن يذهب ضحية الأحداث بمدينة سطيف لولا لطف الله، وكـان متصـلاً بالكشافة الإسلامية فيها، حيث أنه كان في نفس الوقت من أصغر الطلبة. وهذا التعليم الحر كله كان يتم بمسجد المحطة في مدينة سطيف. ثم عمل معلماً بمدرسة قرية بني عشاش سنة 1946، وبعدها انتقل إلى فرنسا، باريس، أواخر سنة 1948، وسعى في جمع التبرعات لمعهد بن باديس بقسنطينة بعد إنشائه، وكان هذا سبباً في تلقيه رسائل شكر وثناء من مديره، المرحوم العربي التبسي، ثم من رئيس جمعية العلماء الشيخ البشير الإبراهيمي، يحثانه على بث نشاط الجمعية وتجديد الشعبة المركزية بباريس، وهو ما وقع فعلاً، حيث عين كاتباً عاماً لها، وعززتها الجمعية بإرسال الشهيد الربيع بوشامة الذي ترأس هذه الشعبة المركزية. فانتعشت الحركة الإصلاحية وقويت الروح الوطنية في الجالية الجزائرية، حتى أعادوا لها تلك النهضة المعروفة أيام الأستاذ المرحوم الشيخ الفضيل الورتلاني قبل الحرب العالمية الثانية.

ثم عاد عبد الحفيظ إلى أرض الوطن، وعمل مديراً لِمدرسة برباشة بحوض الصومام لمدة سنتين، وبعدها، عاد إلى باريس سنة 1953 وفي هذه المرحلة، تعرف بالمناضل اعميروش آيت حمودة، وكانا يجتمعان في اطار الشعبة المركزية للجمعية. ولما حلت سنة 1954، واستفحل الخلاف السياسي بين مناضلي حركة الانتصار، كان اعميروش وعبد الحفيظ أمقران، وخمسة آخرون من بين المناضلين الذين كوّنوا في سرية تامة أول خلية للجنة الثورية للوحدة والعمل في شهر ماي 1954.

ثم عاد الأستاذ عبد الحفيظ إلى أرض الوطن. وإلى نفس المدرسة ببرباشة، في انتظار تفجير الثورة المسلحة، بعد توديع أخيه في النضال والجهاد الشهيد العقيد اعميروش. وفور اندلاعها في غرة نوفمبر 1954 وتعيين الشهيد العقيد اعميروش مسؤولاً وقائداً للثورة بحوض الصومام، التحق الأستاذ عبد

الحفيظ بمعاقل الثورة مجاهداً، فمحافظاً سياسياً، فضابطاً لجيش التحرير الوطني منذ مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 في مستوى الولاية الثالثة، وهو من المعطوبين الكبار في ثورة التحرير، حيث أصيبت بجراحات بليغة سنة 1958.

وبعد استرجاع الاستقلال الوطني في 1962، تقلد عدة مناصب سياسية وإدارية في المستوى الوطني، وساهم بصفة فعالة في الحياة الثقافية بالمحاضرات والمقالات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والإذاعة الوطنية، كما شارك في جميع الملتقيات لكتابة تاريخ الثورة التحريرية في إطار منظمة المجاهدين، ولا يزال يعمل في هذين الحقلين الثقافي والتاريخي إلى اليوم، وهو مدير للمركز الثقافي الإسلامي بعاصمة الوطن منذ 1984 تحت وصاية وزارة الشؤون الدينية.

نسأل الله التوفيق وحسن الخاتمة

الشيخ موسى الأحمدي نويوات بقلمه(1)

* موسى الأحمدي نويوات عُرف في الأوساط الأدبية (بموسى الأحمدي).
* ولد عام 1320 هـ - 1903 م بقرية الطبوشة بلدية أولاد عَدِي لَقباله ولاية المسيلة (المحمدية).
* قرأ القرآن بجامع الصحابي عقبة بن نافع (ض). ثم ببرج الغدير وبه قرأ مبادىء اللغة العربية والفقه والتوحيد وانتقل إلى قسنطينة فتتلمذ على الإمام عبد الحميد بن باديس (رحمه الله) عام 1925 م - 1926 م ثم التحق بجامع الزيتونة بتونس ومكتبه من عام 1927 م - 1930 م، وأجازه الشيخ عثمان بن المكي التوزري على عادة القدامى في إعطاء الإجازات.
* رجع إلى المسيلة وباشر التعليم المسجدي، والمدرسي بقلعة بني حماد ثم ببرج الغدير ثم بالقلعة العباسية ثم ببرج بوعريريج معلماً فمديراً 1930 م إلى

(1) طلبنا منه في رسالة أن يكتب إلينا موجزاً عن حياته فأرسل إلينا هذه النبذة مع مقتطفات من أشعاره.

1982 م فاستقال بمحض إرادته.

* شارك في كل النشاطات في جمعية العلماء بلسانه وقلمه.

* نشر عدة مقالات وقصائد وبحوث في مجلتي الحضارة الإسلامية، والثقافة السوريتين، والشهاب والثقافة الجزائريتين. وفي الصحف: النجاح والبلاغ والمنتقد والبصائر والشُّعْلَة والنصر والشعب والمساء والسلام والعقيدة.

* دواوينه: له ديوانان: أحدهما بالشعر الفصيح الموزون، والآخر بالشعر الشعبي الملحون.

* نال جائزتين: إحداهما في مسابقة رمضان مُنحَ تذكرة في الطائرة ذهاباً وإياباً إلى الأماكن المقدسة، والثانية من رئيس الجمهورية تقديراً لأعماله ومؤلفاته.

* بَحْثٌ صَوَّبَ فيه ما أخطأ فيه النحاة وأصحاب الشواهد النحوية في إعراب بيت لجرير: لَمْ تَتَلَفَّعْ بِفَضْلِ مِئْزَرِهَا البيتَ، وما أخطأ فيه صَاحِبُ القاموس في إعراب (جابان)، وما أخطأ فيه الدسوقي في حاشيته على شرح المختصر لسعد الدين التفتزاني على متن التلخيص في بيتين للحرير كان البناء فيهما أكثر من قافيتين نسب الأبيات إلى غير بحرها.

* مؤلفاته: المتوسط الكافي، في علمي العَروض والقوافي في طبعته الثالثة، معجم الأفعال المتعدية بحرف في طبعته الثالثة، المحادثة العربية في طبعتها الثالثة، كشف النقاب، عن تمارين اللباب في الفرائض والحساب، شرح الأسئلة الرمضانية، كتاب طرائف وَمُلَح، كتاب الألغاز المطالعة العربية (خ).

* كتب للأطفال: 13 قصة بالصور من تراث جزائري: نُشِرَ منها: ثلاثةٌ بِبَارِيسَ، وأربعة بالجزائر. والباقية تنتظر النشر.

* له في مجال النشاط: مناظرة بين العلم والجهل، ومناظرة بين غني وفقير، وحِوار شعري بين معلم وزملائه، ومحاورة بين الخليفة أبي جعفر المنصور والشعراء الثلاثة، ومسرحية بطلها أبو محجن الثقفي.

* عنوانه: شارع (ن) 12 هكتار برج بوعريريج ـ الجزائر ـ الجمهورية الجزائرية.

(نَحنُ شُمُوسُ سَمَاكِ)[1]

بقلم: (موسى الأحمدي نويوات)

شَبَابَ ٱلْجَزَائِرِ كُنْ ذَا ثَبَاتْ فَأَنْتَ ٱلْمُعَدُّ لِكَسْبِ ٱلْحَيَاةْ
وَأَنْتَ ٱلَّذِي بِكَ نَيْلُ ٱلْمُنَى وَأَنْتَ ٱلَّذِي بِكَ لَمُّ ٱلشَّتَاتْ
وأَنْتَ ٱلَّذِي عِشْتَ تَحْمي ٱلْحِمَى وَتَدْفَعُ عَنْهُ سِهَامَ ٱلْعُدَاةْ
فَكُنْ لِلْجَزَائِرِ بَانِي عُلاَهَا وَحَامِي حِمَاهَا مِنَ ٱلْمُوبِقَاتْ
فَكَمْ قَدْ أَفَادَتْكَ مِنْ نِعْمَةٍ وَكَمْ قَدْ وَقَتْكَ مِنَ ٱلْحَادِثَاتْ
فَجِسْمُكَ مِنْ نَبْتِهَا قَدْ نَمَى وَرُوحُكَ مِنْهَا لَهَا نَسَمَاتْ
فَإِنْ كُنْتَ مِنْهَا نَشَأْتَ فَصُنْهَا وَقُمْ رُدَّ عَنْهَا، سِهَامَ ٱلرُّمَاةْ
فَخُذْ لُلْحَيَاةِ، سِلاَحاً وَهَاتِ، كِفَاحاً يُوَاتِي، زَمَانَكَ هَاتْ
وَسِرْ لِلْمَعَالِي، بِسُمْرِ ٱلْعَوَالِي وجل في المجال، وكن ذا ثبات
وَدَاوِ ٱلْجَرِيحَ، لِكَيْ يَسْتَرِيحَ، وَهُزَّ الطَّرِيحَ، مِنَ ٱلْمُهْلِكَاتْ
فَقَدْ ضَاقَ ذَرْعاً بِمَا لَمْ تَطِقْهُ، وَتَعْجِزُ عَنْ حَمْلِهِ الرَّاسِيَاتْ
دِمَاءٌ مُرَاقٌ، وَظُلْمٌ يُذَاقُ وَشَرْبٌ زُعَاقُ، فَمَا ذِي ٱلْحَيَاةْ؟
فَكَيْفَ ٱلْخَلاَصُ، وَأَيْنَ ٱلْمَنَاصُ، وَهَلاَّ قَصَاصُ، وَأَيْنَ ٱلْقُضَاةْ؟
وَكَيْفَ ٱلْوُصُولُ، لِمَا فِيهِ سُولُ بَنِي ٱلشَّعْبِ قُولُوا، فَمَاذَا ٱلصُّمَاتْ؟
أَلَسْنَا ٱلْهُدَاةَ، أَلَسْنَا ٱلْكُمَاةَ، أَلَسْنَا ٱلْحُمَاةَ، أَلَسْنَا الأُبَاةْ؟
فَثِبْ يَا شَبَابُ، لِيُفْتَحَ بَابٌ، فَأَنْتَ ٱلْحِرَابُ، لِتِلْكَ ٱلدُّعَاةْ
وَسِرْ لِلرَّشَادِ، ـ بَقِيتَ ـ وَنَادِ، وَقُلْ يَا بِلاَدِيَ، بَنُوكِ ٱلْحُمَاةْ
فَنَحْنُ شُمُوسُ سَمَاكِ وَنَحْنُ أُسُودُ حِمَاكِ لَدَى ٱلْمُزْعِجَاتْ

في شهر أوت سنة 1959 سافرت إلى فرنسا، وركبت الباخرة المسماة

---

(1) أنشأت هذه القصيدة سنة 1948 م قبل ثورة 1954 م المباركة بست سنوات

(الجزائر) وسحرتني مناظر البحر الرائعة فصغت القصيدة التالية، وقد نشرتها مجلة الجيش في عددها 23 من السنة الثالثة من صدور المجلة المؤرخ بـ 1385/11/10 هـ ـ 1966/2/1 م نشرتها تحت عنوان: (من وحي الثورة).

بِنَا سَارَ (ٱلْجَزَائِرُ) بَعْدَ ظُهْرٍ ... يَشُقُّ بِنَا ٱلْعُبَابَ إِلَى ٱلشَّمَالِ
وَكُنْتَ تَرَى ٱلْخِضَمَّ بَدَا كَزَرْعٍ ـ ... تُكَيِّفُهُ ٱلرِّيَاحُ لَدَى ٱسْتِبَالِ
فَطَوْراً لِلْيَمِينِ يَمِيلُ كَرْهاً ... وَأُخْرَى لِلْيَسَارِ عَلَى ٱلتَّوَالِي
وَأُخْرَى لِلْجَنُوبِ وَقَدْ تَوَارَتْ ... وَرَاءَ حُصُونِنَا أُخْتُ ٱلْغَزَالِ
مَنَاظِرُ تَخْلُبُ الأَلْبَابَ سِحْراً ... وَتَمْنَحُكَ ٱلسُّرُ ورَمَعَ ٱلْجَمَالِ

* * *

وَمَا سَيْرِي لأَرْضِ ٱلْغَرْبِ طَوْعاً ... وَلَكِنِّي دُفِعْتُ إِلَى ٱنْتِقَالِي
طَغَى رِيحُ ٱلسُّمُوم عَلَيَّ حَتَّى ... يَرَانِي بِٱلضَّنَى بَرْيَ ٱلْخِلاَلِ
رِيَاحٌ بِٱلْجَنُوبِ تَهُبُّ دَوْماً ... وَأُخْرَى كَالْجَحِيمِ مِنَ ٱلشَّمَالِ
طَغَتْ بِنْتُ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱسْتَعَرَّتْ ... وَزَادَ سُعَارَهَا جَيْشُ ٱحْتِلاَلِ
جُنَاةٌ مِنْ بَنِي ٱلأَزْوَامِ طَارَتْ ... لِتَرْتَكِبَ العظيمَ مِنَ ٱلْمُحَالِ
وَجَاءَتْ كَالدَّبَى جَوًّا وَبَحْراً ... لِتَقْهَرَ ٱلْوَغَى أُسْدَ ٱلنِّضَالِ
وَظَنَّ (ٱلشُّقْرُ) أَنَّ ٱلْخَطْبَ سَهْلٌ ... وَأَنَّا كَالسَّوَائِمِ فِي ٱلْخَوَالِي
وَأَنَّا مَا لَنَا فِي ٱلْكَوْنِ وَزْنٌ ـ ... وَأَنَّا عَاجِزُونَ عَنِ ٱلبِزَالِ
وَمَا عَلِمُوا بِأَنَّا لاَ نُجَارَى ... وَأَنَّا كَالصَّوَاعِقِ فِي ٱلمَجَالِ
وَأَنَّا كَٱلْجَحِيمِ إِذَا ٱضْطَرَمْنَا ... بِنَا يَصْلَى ٱلشُّجَاعُ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَأَنَّا كَٱلْقَضَاءِ إذا نَزَلْنَا ... نَهُدُّ ٱلرَّاسِيَاتِ مِنَ ٱلْجِبَالِ
وَأَنَّا كَٱلْحِمَامِ إِذَا ٱبْتُلِينَا ... نُخَطِّفُ فِي ٱلْوَغَى (صُفْرَ ٱلسِّبَالِ)
وَنَسْحَقُهُمْ بِحَدِّ ٱلْعَزْمِ سَحْقاً ... وَمَا جَمْعَ ٱلْعُدَاةُ وَلاَ نُبَالِي

(موسى الأحمديّ نُويوَاتْ)

(فَالْعِلْمُ خَيْرُ سِلاَحِ)

يَـا ٱبْـنَ ٱلْعُـرُوبَـةِ هَيَّـا قُـمْ لِلْمَعَـالِـي تَهَيَّـا
بَلْـةَ ٱلْهُـوَيْنَـا تَقَـدَّمْ وكُـنْ فَتَـى عَبْقَـرِيَّـا
وَٱقْـدَحْ مِـنَ ٱلـزَّنْـدِ عَـزْمـاً وَٱجْـلُ ٱلْحَـوالِـكَ هَيَّـا
إِلَـى ٱلْمَكَـارِمِ سَـارِعْ يَـا ٱبْـنَ ٱلْحُمَـاةِ ٱلأَبِيَّـا
فَـالـرَّكْـبُ سَـارَ حَثِيثـاً يَطْـوِي ٱلْمَسَـافَـاتِ طَيَّـا
فَهَـلْ سَعَيْـتَ لَمَـا قَـدْ سَعَـى لَـهُ وَتَهَيَّـا؟
وَنِلْـتَ مِمَّـا ٱجْتَنَـاهُ مِـنَ ٱلْمَعَـارِفِ شَيَّـا؟
فَـٱلْعِلْـمُ خَيْـرُ سِـلاَحِ بِـهِ تَكُـونُ قَـوِيَّـا
إِنْ حُـزْتَـهُ كُنْـتَ حَقّـاً مَـعَ الـدُّهَـاةِ سَـوِيَّـا

* * *

فَنَحْـنُ فِـي الأَرْضِ نَحْبُـو وَٱلْقَـوْمُ فِـي ٱلْجَـوِّ طَـارُوا
دَاسُـوا ٱلْفَضَـاءَ بِعِلْـمٍ وَبِـٱلْكَـوَاكِـبِ دَارُوا
لَهُـمْ تَكَشَّـفَ سِـرٌّ فِيـهِ ٱلْعُقُـولُ تَحَـارُ
بِـذَاكَ سَـادُوا وَشَـادُوا بِـهِ عَلَـى ٱلنَّـاسِ جَـارُوا
إِلَـى مَتَـى يَـا ٱبْـنَ قَـوْمِـي إِلَـى مَتَـى لاَ تَغَـارُ؟
إِلَـى مَتَـى لاَ تُبَـالِـي بِمَـا أَتَـاهُ ٱلْفُجَّـارُ؟
إِنَّ ٱلشُّعُـوبَ بِحَـقٍّ عَلَـى ٱلْمُنَـاوِىءِ ثَـارُوا
فَـأَوْرَدُوهُ ٱلْمَنَـايَـا وَٱنْفَـكَّ ذَاكَ ٱلأَسَـارُ
فَـرَاحَ يَجْتَـرُّ غَيّـاً يَتْلُـوهُ خِـزْيٌ وَعَـارِ

(موسى الأحمدي نويوات)

حرر ببرج بوعريريج في 11/03/1979 م

(اليَومَ يا شَعْبُ فَافخَرْ)

أَللَّــــــــهُ أَكْبَــــــــرْ شَعْـــبَ الأَبَـــاةِ تَحَـــرَّرْ
مِمَّـــــنْ طَغَـــــى وَتَجَبَّـــرْ اليَـــوْمَ يَــا شَعْـــبَ فَــافْخَــرْ
بِمَــــا كَسَبْـــــتَ افْتِخَـــــارَا

مَـــا بَعْــــدَ نُجْحِـــكَ بَــأْسْ وَإِنْ حَـــوَى البُسْـــلُ رَمْـــسُ
هَيَّـــا لَقَــــدْ طَــابَ غَــرْسَ فَيَـــومُ فَـــوْزِكَ عـــرْسُ
إِذْ حُـــزتِ فِيــــهِ انْتِصَـــارا

كَـــمْ ذادَ جُنْـــدُ النِّضَـــالِ كَـــالأُسْـــدِ فَـــوْقَ الْجِبَـــالِ
عَـــنْ غِيلِـــهِ لا يُبَـــالِـــي بَـــأْسَـــاءَ صُفْـــرِ النِّبَـــالِ
فِــي حَـــرْبِنَـــا الْغَـــرْبُ حَـــارَا

ظَـــنَّ الْعَــــدُوُّ بِـــأَنَّـــا قَـــوْمٌ ضِعَـــافٌ فَشَنَّـــا
حَـــرْبـــاً عَـــوَانـــاً فَكُنَّـــا حِصْنـــاً حَصِينـــاً وَقُمْنَـــا
نَصْلِيـــهِ فِـــي الْحَـــرْبِ نَـــارا

فَــاسْتَنْجَــدَ الْغَــرْبُ لَمَّــا[1] حَـــسَّ انْتِحَـــارَهُ حَمَّـــا[2]
فَلَـــمْ يَقُـــدْهُ فَغمَّـــا[3] وَإِذْ تَكَسَّــــــرَ لَمَّـــــا[4]
مَــــا يَبْتَغِيــــــهِ وَطَـــــارَا

إِنَّـــا كَـــأُسْــدِ الأَجَـــامِ مَـــا مِثْلُنَـــا فِـــي الأَنَـــام
فِـــي الْبَـــأْسِ يَـــوْمَ الصِّـــدَامِ نَسْقِـــي كُـــؤوسِ الْحِمَـــامِ[5]
مَـــنْ يَعْتَـــدِي عَـــنْ حِمَـــانَـــا

---

(1) لما: حين.
(2) حَمَّ: قَرُبَ.
(3) غم: حَزِنَ.
(4) لَمَّ: جَمَعَ.
(5) الحِمَامُ: الموتُ.

(لا ناقة لكم فيه ولا جمل)

صـدَّامُ فَـاصْـدِمْ طُغَـاةَ الْبَغي يَـا بَطَـلُ ... يَـا مَـنْ عَلَيْـهِ جَحِيـمُ الْبَغْـي يَنْهَطِـلُ
ظَـنَّ الطُّغَـاةُ بِـأَنَّ العـربَ عَـاجِـزَةٌ ... عَـنِ النِّضَـالِ وَمَـا فـي جِيلِهـم بُسُـلُ
فَـأَقْبَلُـوا كَـالـدَّبَى يَحْـدُو بِهِـمْ طَمَـعٌ ... فِـي ثَـرْوَةٍ دُونَهَـا لَـوْ دَقَّقُـوا الأَجَـلُ
مِـنْ كُـلِّ صَـوْبٍ كَـالنَّمْـلِ يَجْمَعُهُـم ... حِقْـدٌ دَفِيـنٌ عَلَـى الْبَغْضَـاءِ قَـدْ جبلُـوا
إِنَّ الْعِـرَاقَ شَجـيٌّ يُـدْمِـي حُلُـوقَهُـمُ ... يَـامَـنْ أَتَيْتُـمْ عَـرِيـنَ الأسْـدِ فَـانْتَقِلُـوا
إِنَّ الْكُـويـتَ لِمَـنْ يَحْمِيـهِ مُتَّئِـداً ... لاَ نَـاقَـةٌ لَكُـمْ فِيـهِ وَلاَ يَنْخَـذِلُ

* * *

صَهْيُونُ أَخْـرَجَ شَعْباً مِـنْ حِمَـاهُ فَلَـمْ ... يَبْدُوا اعْتِرَاضاً وَعَـن عدوانِهِ فَعَلُوا
وَالْيَوْمَ هَمُّوا لِكَيْ يَحْمُو الْكُويتَ وَمَا الْـ ... ـكويتُ مَا خَطَّطُوا بَل ذَاكَ مَا فَعَلُوا
تَخطِيـمُ مَـا اختـرَعَ بَغْيُهُـمْ ... وَصَـوْنُ صَهْيـونَ مِـنْ صَارُوخِهِ أَمَلُـوا
لِيَبْـقَ صَيهْيَـونُ يَعْشُـو فـي مَـرَابِعِنَـا ... وَلاَ يُبَـالِـي بَيْـن فـي حَـرْبِـهِ فَشِلُـوا
لِلّــهِ دَرُّكَ يَــا صَــدَّامُ مِــنْ بَطَــلٍ ... يَامَنْ تَحَدّى جُيُوشَ الْغَرْبِ فَانْذَهَلُوا
ثَبَـتَ كَـالطَّـوْدِ فـي وَجْـهِ العـدّاةِ وَلَـمْ ... تَـرْهَـبْ حُشُـودَهُـمُ أَوْ عُـدَّةٌ حَمَلُـوا
كَفَـاكَ فَخْـراً بِـأَنَّ الغَـرْبَ أَجْمَعَـهُ ... وَمَـنْ يُسَـانِـدَه مِـن بَطْشِكـمْ جفَلُـوا
إِنَّ الشُّجَـاع الَّـذِي يَحْمِـي عُـروبَتَـهُ ... لاَ مَـنْ يَلُـوذُ بِـأَعْـدَاء بِـهِ نَكَلُـوا
حَـيّ العِـرَاقَ وَحَيِّـي مَـنْ يَنَـاصِـرُهُ ... وَمَـنْ عَلَـى نَصْـرَة المظْلُـومِ قـد جُبِلُـوا

(موسى الأحمدي نويوات)

الأجيال المثقفة في قرى جبال البيبان

محاولة جرد

في قرية أمزرراق (قرية المؤلف)

ـ الشيخ الولي محمد أُوعَبْدَ اللَّهْ جد معظم سكان القرية وخاصة الفرق الأربعة: أولاد بوعزيز، وأولاد يحيى، وأولاد وعَمْرَوْ، وأولاد بلقاسم.

ـ الشيخ الحاج أُوعَبْد العزيز جد فرقة البعازيز (أولاد بوعزيز).

ـ ابنه الشيخ الحسين (1765 ـ 1857 م) وأبناؤه الأربعة:

1) الشيخ العربي، وأبناؤه: الشيخ عمرو، والشيخ الحسين، والشيخ المختار، وأبناء ابنه عمرو، وهما الشيخ العربي، والشيخ المختار.

2) الشيخ بلقاسم، وابناه: الشيخ الحسن، والشيخ الهادي، وابنا ابنه الحسن، وهما: الشيخ عبد الرحمن، والشيخ يحيى، وأحفاده، أبناء الشيخ عبد الرحمن وهم: الشيخ الزروق الأول، والشيخ النذير، والشيخ الحسن، والشيخ يحيى (مؤلف هذا الكتاب). والهادي الثاني.

3) الشيخ الصالح، وابناه: الشيخ الصالح، والشيخ بلقاسم، وابنا ابنه الصالح وهما الشيخ المدني، والشيخ الحسن.

4) الشيخ محند، وابنه الشيخ جعفر.

ـ الشيخ الموهوب أويعزيز الذي درس في زاوية أَمَالُو بحوض الصومام وعلم في قرية ثاله وانو لدى أخواله أكثر من ثلاثين عاماً.

ـ الشيخ أَمْحَنْدْ بَعَازيَ، وابنه محمد الأستاذ والمفتش حالياً في مادة التاريخ.

ـ الشيخ الطيب أويلقاسم، وابنه العربي، وابناه الطيب، والحسن.

ـ الشيخ علي أُويَحْيَى، وابنه العربي الصيد (شهيد).

ـ الشيخ الطيب أُويَحْيَى.

ـ الشيخ علي وعَمْرَوْ.

ـ الشيخ الزين وعمرو.

ـ الشيخ مقران أُويَحْيَى.

ـ الشيخ العربي أُوقَرِيِّ.

ـ الشيخ أمحند أُوبَلْقَاسَمْ بن العربي بن الزين (شهيد).

ـ الشيخ الطيب بومياسة حفظ القرآن على الوالد حفظاً جيداً، وما يزال حتى اليوم يؤذن في مسجد القرية.

في قرية أولاد حَالَّهْ:

ـ الشيخ الطاهر أُوحَالَّه.

ـ الشيخ العربي أوحاله.

ـ الشيخ علي أوحاله (شهيد).

ـ الشيخ عبد الحميد أوحاله.

في قرية إِلْمايَنْ:

ـ الشيخ الولي أحمد أُوغُوبَهْ (ت 7 هـ/ 13 م).

ـ الشيخ محمد الطاهر أُوبَتْقَهْ صهر الحسين أُوبَعْزِيزْ، تزوج بنته كلثوم التي أنجبت له: الشيخ لحلو، والشيخ محمد أمزيان، الذي أنجب الشيخ محمد الشريف، والشيخ يوسف.

ـ الشيخ التواتي أُوبَتْقَهْ.

ـ الشيخ محمد الطاهر أُويَخْلَفْ (شهيد).

ـ الشيخ جمعة أو يخلف (شهيد).

ـ الشيخ خالد أُومَقْرانْ، ضرير.

ـ الشيخ محند أُوحَالَّه.

ـ الشيخ محند أُومَصْبَاحْ.

في قرية أَقْلَقَّالْ:

ـ الشيخ عمرو أُوعَشَّاشْ، وابنه الشيخ الطيب، وابنة عمه الشيخ لحسن (شهيد).

ـ الشيخ الصديق أُويَحْيَى، وابنه الشيخ أَمْحَنْدْ اَسْعِيدْ.

في قرية أَذْرَارْ سَيِّدِي بِذِيرْ:

- الشيخ سيدي بِذير بن الحاج، ولي صالح.
- الشيخ الحاج أُوحَمُّودَةْ (ق 18م).
- الشيخ محمد بن عثمان بن الطيب (ق 18 م).
- الشيخ أَبُو القاسم بن الطيب (ق 18 م).
- العالم محمد البهلولي.
- الشيخ محمد وَعْلِي وَالطَّيَّبْ، عالم، وفقيه، توفي في السبعينات، وابناه عباس، وجعفر.
- الشيخ عثمان أو الطيب.
- الشيخ العربي أوحمودة قاضي بومزراق المقراني.
- الشيخ محمد الشريف أوصَالَحْ.
- الفقيه أحمد بن محمد السعيد (ق 18 م).
- الشيخ إسماعل أوصالح.
- الشيخ محمد، والشيخ عبد الكريم ابنا الشيخ المبارك.
- الشيخ عبدالله بن أحمد بن علي تلميذ أحمد بن حموده.

في قرية تَانْسَاوْتْ:

- الشيخ بلقاسم أُولْخَيَّرْ.
- الشيخ وعلي وَالْخَيَّر (شهيد).

في قرية ثَاوْرِيرْتْ اَنْتِيزِي عِيذَلْ:

- الشيخ عبدالله أُوشَرْعَ اللَّهْ، وأخوه أحمد (الشهيد).

في قرية ثَاوَزْمِيتْ (الجعافرة):

- الشيخ أحمد بوختاله وابناه: الشيخ المختار، والشيخ العطوي.
- الشيخ العياشي الزيتوني (بلعمار)، والشيخ أمحند أُوحْمِيدَّانْ.

في قرية بُوفِنْزَارْ (الجعافرة):

- الشيخ المختار أُومَعْطِي.

ـ الشيخ لخضر أُومَعْطِي، وابناه: يحي، ومُحَنْدْ وعَمْرَوْ.
ـ الشيخ محمد أرزقي أُوحَمُّودَهْ، وابنه الشيخ محمد أكلى.
ـ الشيخ الزروق البدوي، وابنه الشيخ عمرو البدوي.
ـ الشيخ الزين بلحداد.
ـ الشيخ يحيى برقة.

في قرية أَوْرِيزْ الجمافرة:

ـ الشيخ مُحَنْدَ شقار.
ـ الشيخ محند أمقران شقار.
ـ الشيخ بلقاسم شقار صهر جدنا لأمنا الشيخ الهادي الذي تزوج بنته ربيعة وأنجبت له خالتنا كلثوم التي تزوجها أخونا النذير بوعزيز، وبقيت عنه ثمانية عشر عاماً حتى توفيت ولم تنجب عام 1949 م.
ـ الشيخ أحمد شقار.
ـ الشيخ محمد أمزيان شقار، وأخواه، محمد الشريف، والزبير.
ـ الشيخ رابح بسعى.

في قرية المقام (ثِيكْنِيشَّوْتْ) بأولاد سيدي الجودي قرب بني يعلي:

ـ الشيخ سيدي الجودي أُوعَولْمِي ولي (أواخر القرن 10 هـ).
ـ الشيخ محمد الجودي.
ـ الشيخ علي بن الجودي تلميذ علي بن المبارك صاحب كتاب المرائي.
ـ الشيخ بلجودي بن الحاج.
ـ الشيخ حميدة الشريقي من أولاد بلعباس، علم ثلاثين عاماً بقرية ثالة وَانُو.
ـ الشيخ علاوة الزوادي البهلولي.

في قرية ثاله وانو:

ـ الحاج الحسن بن الربيع، طالب قرآن، وفقيه، وابنه محمد.
ـ الشيخ محمد المسعود بن شايب العين.
ـ الشيخ سَعُو من أولاد شايب العين.

ـ الشيخ بلقاسم من أولاد شايب العين.
ـ الشيخ محمد بلفقير.
ـ الشيخ المختار بن بلقاسم بن الربيع، وابنه الشيخ إبراهيم.
ـ الشيخ الشريف، درس في أمالو، وعلم في القلة.

في قرية أَسْقَهْ:

ـ الشيخ الطاهر بَرَّعْوَاشْ، من فرقة إِيرَغْوَاشَنْ.

في قرية بني لعلام:

ـ الشيخ محمد بوقْجار فقيه.
ـ الشيخ البشيربو قجار، وابنه محمد الصالح المحامي.

في قرية إِغِيل أَوْرِيرْ:

ـ الشيخ الشريف عديس حموده.

في قرية مَذْوَاسْ:

ـ الشيخ الطيب أُوصَالَحْ، وأخوه الشيخ محمد أرزقي ـ وقد دَرَسَ عليهما الوالد بعض المواد في منزله بالجعافرة. فقهية، وأدبية.

في قرية أَعَشَّابُو أُوفَلَّهْ (الأعلى):

ـ الشيخ حموده بن معزة.

في قرية ثَاوْرِيرْثْ انْتَفْرَقْ:

ـ الشيخ أبو القاسم بن مدور، تلميذ الورثلاني صاحب الرحلة تولى قضاء بجاية.
ـ الشيخ الصالح التفرقي، تلميذ الورثلاني كذلك.
ـ الشيخ محمد أرزقي أوبغورة وأبناؤه: الشيخ يونس (شهيد)، والشيخ يوسف، وابن عمهم: الشيخ منصور. والشيخ الطاهر أُوبَغُّوره، والشيخ عبد الوهاب.
ـ الشيخ محمد بن أخروف (من أولاد خليفة).

في قرية أولاد زايد:

ـ الشيخ عاشور قيطاري، وابنه الأستاذ إسماعيل المفتش حالياً في علوم التربية.

في قرية بُونْدَهْ:

ـ الشيخ إسماعيل الزياني.

ـ الشيخ عيسى حميطوش (شهيد).

ـ الشيخ فتح الله المحامي.

في قرية مَجَّانَةْ:

ـ الشيخ سيدي بتقة.

ـ الشيخ سيدي موسى، (ق 9 هـ/ 15 م) وله ذرية في جبل المعاضيد.

ـ الشيخ يحيى بلجودي، أصله من ثَالَةْ وَانُو.

في قرية البيبان:

ـ سي محمد لخضر البيباني.

ـ سي محمد قادري، مسؤول الأوقاف في الولاية الثالثة خلال الثورة.

ـ الشيخ السعيد البيباني.

في قرية ثَامُوقْرَةْ:

ـ الشيخ يحيى العيدلي صاحب المعمرة والزاوية (ق 9هـ/ 15 م).

ـ الشيخ محمد بن علي العيدلي، وابنه الشيخ سيدي الموهوب، وابنه سيدي عبد القادر.

ـ الشيخ حميمي، وأخوه محمد وَعْلِي العِيذْلِيَانِ، (قروفة).

ـ الشيخ محمد الطاهر آيت علجت الموقراوي.

في قَرْية القلة (ثَازالأَمْتْ):

ـ الشيخ محند أُولْمُوهُوبْ، وابنه الشيخ عبد الحميد صهر الشيخ علي البوديلمي، المسيلي، إمام بتلمسان حالياً وأستاذ.

في قرية بني يعلي (قْنزَاتْ):

ـ الشيخ أرزقي أُوبَصَّالَحْ، فقيه.

ـ الشيخ السعيد أُوبَصَّالَحْ ـ فقيه وأديب وعضو جمعية العلماء.

ـ الشيخ الهاشمي بن الحاج الطيب، فقيه، ولغوي.

- الشيخ أرزقي الزيتوني.
- الشيخ محمد أَزَيْتُوني.
- الشيخ محمد الصالح أُوقَرِيّ.
- الشيخ بونوار أُوقَرِّي.
- الشيخ الربيع بُوشَامَةْ (شهيد) شاعر، وأديب.
- الشيخ يوسف اليعلاوي، فقيه ولغوي، مجاهد.
- الشيخ يحيى اليعلاوي، شيخ الورثلاني صاحب الرحلة.
- الفقيه الأديب عبد الرحمن بن بركات بن محمد بن قرى.
- الشيخ أبُو القاسم بن دحمان.
- الشيخ محمد بن يحيى اليعلاوي تلميذ الورثلاني (ق 11 هـ) وهو من أولاد الشيخ سيدي مالك وقبره مشهور يزار في بني يعلى.

في قرية أوْرِيْر أُوعُولْمِي:

- سي الجودي أُوزَايَدْ.

في قرية زَمُّورَةْ:

- الشيخ الحاج محمد القشطولي.
- الشيخ حمود بن طالب حسنين.
- الشيخ محمد بن عبدالله، تلميذ الورثلاني.
- الشيخ علي الفرقاني من آيت فرقان.
- الشيخ عمر، والشيخ محمد بن زيان.
- الشيخ عمر بو حفص.

في قرية بني حافظ:

- الشيخ المولود الحافظي الأزهري، وابنه الشيخ العربي أُوعْطُوطُ السَّحَابِي.
- سي علي حميدة.
- سي يوسف مقران.

في قرية بني عَشّاشْ:

- الشيخ محمد أمقران مؤسس مدرسة بني عشاش.
- الشيخ عبد الحفيظ أمقران (مجاهد).

في قرية بوقاعة:

- الشيخ ناصر.

في قرية عَبَّادْ الشَّرِيفْ:

- سي سليمان آيت سليمان.

في قرية برباشة:

- الشيخ علي بن سليمان البرباشي.
- ابنه الشيخ علي بن الصالح البرباشي.

في قرية بني وجهان:

- الشيخ عمر بن عبد المحسن الصواف الوجهاني (ق 7 هـ).

في قرية شَرْفَة ثابت براهم:

- سي الحاج الحسين مهدي.

في قرية آيت سيدي علي بآيت إبراهم:

- سي محمد السعيد.
- الشيخ علي الصافي، وأبناؤه من عائلة يحيى حمودي.
- الشيخ محمد أويحيى، قريب لنا ابن إحدى بنات أسرتنا أولاد بوعزيز.

علماء بني ورثلان ومنطقتها

- الشيخ أحمد الشريف جد الحسن الورثلاني صاحب الرحلة الذي ينتهي نسبه إلى الشيخ أحمد البكاي البجائي من أشراف مدينة تافيلالت. فقيه، ومدرس، وناسخ للكتب والمخطوطات وله زاوية كان بها 500 طالباً.
- الحسن بن محمد بن عبد القادر الورثلاني، حافظ وناسخ للكتب، ومفتي

ومدرس، زار مصر ودرس بالأزهر، ومن تلاميذه عبد الباقي الزرقاني شارح موطأ الإمام مالك.

- ابنه الشيخ الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف الورثلاني، من قرية أنّو قرب بني ورثلان، وهو صاحب كتاب: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المعروفة بالرحلة الورثلانية التي حققها ونشرها الشيخ محمد بن أبي شنب عام 1908 م.
- الشيخ الفضيل الورتلاني العالم والواعظ الكبير، وعضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- الشيخ حمزة قصوري خريج الزيتونة وخطيب جامع القرية.
- الشيخ الحسن فضلاء وأخوه محمد الطاهر فضلاء، وأبوهما الشيخ السعيد أَبَهْلُولْ.
- الشيخ محمد بن عقيلة الورثلاني، مفتش حالياً في مادة اللغة العربية. *

علماء أسرة ابن الحبيب ببني ورثلان
وأصلهم من ونوغة

- الشيخ السعيد بن الحبيب.
- الشيخ يحيى بن الحبيب.
- الشيخ عيسى بن الحبيب.
- الشيخ محمد الصالح من قرية أقلميم في عرش بني جماتي ببني ورثلان.
- ابنه الشيخ الحسين بن محمد الصالح الذي زاره إلى منزله باي قسنطينة، فرحات باي (1646 ـ 1652 م).
- الشيخ أحمد بن حمود ابن أخيه الشيخ الحسين.

في قرية بني معوش:

- عيسى لحلاح.

في قرية بني شبانة:

- الشيخ أرزقي الأشباني، عالم عاش أحداث الثورة المسلحة وتوفي عام 1987 م.

في قرية شلحاب:

- الشيخ عبدالله الشلحابي.

في قرية فريحة:

- الشيخ البشير إيزمران وأخوه الشيخ إدريس.
- الشيخ الطاهر الفريحي.
- الشيخ محمد الصغير الفريحي.
- الشيخ عبد العزيز يونسي الأزهري.

في قرية أمالو:

- سي مقران عبد الوهاب.

في قرية إِيث يَخْلَفْ:

- سي عبد الحميد أُونَاصَرْ.
- سي لحلو أوشطاب.

في قرية إيث مالك:

- سي محمد أمقران بن مالك، عَلَّمَ ببني عباس بعد قنبلة مدرستها تولى منصب مفتش الشؤون الدينية في كل من سطيف، وبجاية متقاعد.

في قرية سيدي إبراهيم بالمنصورة:

- الشيخ العربي السعدوني.

في قرية مزيته:

- الشيخ العياشي أُوجَوَّاقْ تابابوشت.

في قرية المعاضيد (برج العذير):

- الشيخ موسى نويوات الأحمدي، وابناه: سعد الدين، والمختار الأستاذ

بجامعة عنابة.

في قرية رأس الواد:

- الشيخ البشير الإبراهيمي (أشهر من أن يعرف). رئيس جمعية العلماء.

علماء صدوق ومنطقتها بحوض الصومام

- الشيخ محمد أمزيان بن علي الحداد زعيم ثورة 1871 م، وابناه.
- الشيخ عزيز بن الحداد.
- الشيخ أمحمد بن الحداد.
- الشيخ محمد بوزوزو، البجائي.
- الشيخ محمد السكلادي تلميذ الورتلاني صاحب الرحلة.
- الشيخ يحيى بن حمزة.
- الشيخ عبد القادر بن الشيخ الموهوب بالأعراش.
- الشيخ محمد بن العربي شيخ والد الورثلاني والساكن بجبل سيدي الموهوب (ت. ق. 12 هـ).
- الشيخ علي بن أحمد شيخ الطريقة الشاذلية الناصرية.
- الشيخ الصادق ولي في واد بجاية وضرير (ق. 10 هـ).
- الشيخ يحيى بن الموهوب.
- الفقيه يحيى بن الواثق تلميذ الورتلاني صاحب الرحلة.
- الشيخ الصالح بن الشيخ أُولْقَاضِي وأخوه الشيخ محمد الشريف، من صدوق.

من قرية ثَاقَاعَتْ، أَوَصَدُّوقْ السفلي:

- الشيخ عمر البوعناني، من ثابو عنانت ببني عباس.

العلماء والمثقفون في قرى قلعة بنى عباس

- الشيخ أحمد بن عبد الرحمن جد أولاد أمقران، ووالد مؤسس مدينة القلعة في القرن 15 م.
- ابنه الشيخ محمد ابركان دفين ضريح أبيه أحمد بن عبد الرحمن.
- الفقيه الشيخ محمد السعيد بن الطالب.

- الفقيه يحيى الشريف بن رقية من وِزْرَانْ (ق 11 هـ).
- الشيخ سيدي أحمد بن علي من أولاد يحيى العيدلي.
- الشيخ المسعود بن عبد الرحمن، وابنه الشيخ علي بن المسعود.
- أولاد محمد الصالح الدكالي وهم: أبوسنة، وعلي بن محمد، ومحمد بن الفقيه المحقق في علم الكلام، وتلميذ الورتلاني صاحب الرحلة، والطالب بن الفقيه.
- الفقيه الأديب يحيى بن حمزة.
- الفقيه محمد اليعلاوي بن بطيح.
- الشيخ يحيى.
- الشيخ سيدي محرز من قلعة بني عباس، ولي صالح.

من قرية ثِيغِيلْتْ أُومَيَّالْ

أسست بها جمعية العلماء مدرسة حوالي عام 1945، وعلم بها:
- الشيخ محمد الصادق رزق الله (من ثِيزِي نَتْفُونَاسْ) بين 1945 ـ 1948.
- الشيخ محمد أمزيان طوالبي (شقار) من أورير الجعافرة بين 1949 ـ 1955 م.
- الشيخ الطاهر زقرور، من بوشقفة بين 1955 ـ 1957 .
- الشيخ الصديق إيمخلاف، من ثيغيلت أوميال، بين 1955 ـ 1957 م.
- الشيخ عيسى رحيم (شهيد) بين 1957 ـ 1958 م.

وعلم بمسجدها الأئمة التالية أسماؤهم:
- الشيخ بوعزيز (الحسن والهادي والمدني الأولى جدنا ووالد أبينا، والثاني جدنا ووالد أمنا فطوم، علم بين 1915 أو 1920 م، والثالث ابن عم الوالد.
- الشيخ محمد أرزقي أُورَاضِي من ثُودَّارْ قبل عام 1930 م.
- الشيخ الشريف يوسف خوجة من حَنْدِيس حوالي عام 1932.
- الشيخ الطاهر حنديس، حوالي عام 1934 م.
- الشيخ عبد الرحمن بَسْعِي من ثَاقُرَّابَتْ.

ـ الشيخ محمد الربيع أوكيل.
ـ الشيخ أحمد الحسين من أَوْرِيرْ.
ـ الشيخ دَعُ (السعيد) مباركَ من أورير.
ـ الشيخ محند أرزقي من ثَاسْلَنْتْ حوالي عام 1918 م.

من قرية بوشقفة

أسست بها مدرسة حرة عام 1938 م، وصارت لجمعية العلماء عام 1945 م، وعلم بها.

ـ الشيخ محمد امزيان طوالبي (شقار).
ـ الشيخ محمد الطيب أُوقَاسَهْ من بُوحِيثَمْ.
ـ الشيخ محمد الطاهر أُوشْعِيث حوالي 1947 ـ 1948 م.
ـ الشيخ محمد الطاهر الموقراوي (من ثاموقرة).
ـ الشيخ بلقاسم كَرِّيس من عام 1948 ـ 1955 م.
ـ الشيخ الطاهر زقرور (ضابط حالياً) ما بين 1955 ـ 1957 م.

ومن أئمة هذه القرية في مسجدها:

ـ الشيخ الطاهر جنديس ما بين 1918 وعقد الثلاثينات.
ـ الشيخ محمد أمقران شقار (طوالبي) من أورير الجعافرة ما بين 1933 ـ 1935 م.
ـ ابنه الشيخ محمد امزيان شقار (طوالبي).

من قرية ڤيندوز:

أسست بها مدرسة حرة عام 1942، وصارت لجمعية العلماء عا 1944 م وعلم بها:

ـ الشيخ صالح جطوطح.
ـ الشيخ داعي مبارك.
ـ الشيخ محمد الطاهر شنتير ما بين 1946 ـ 1950.

ومن أئمة مسجدها:

ـ الشيخ سحنون الطاهر من أيخرشوشن علم مدة 17 سنة.
ـ الشيخ صالح يعلى من ثاقرابث.
ـ الشيخ محمد أُوخَاتَّاشْ من بوحمزة.
ـ الشيخ حمودي محمد الصغير من وزران.

من قرية حنديس:

ـ تشتهر حنديس بزاويتها التي أسسها الشيخ سيدي محمد بن يوسف الذي هاجر من الساقية الحمراء خلال القرن التاسع الهجري واستقر بعض الوقت في أولاد راشد، ثم انتقل إلى عريب إعزز أَنْتَازَرْتْ حيث توفي هناك، ودفن بجوار الزاوية التي بدىء في التدريس بها مع مطلع القرن الثالث عشر الهجري (1200 هـ) ومن الذين علموا بها.

ـ الشيخ الربيع مزيان حوالي عام 1916 م.
ـ الشيخ الصالح بعلي.
ـ الشيخ أرزقي بو يعلة، من بني شبانة.
ـ الشيخ أرزقي جبدر من قولمه (أولمه).
ـ الشيخ المولود من سيدي الجودي.
ـ الشيخ عبد المجيد (حالياً إمام بالعاصمة).
ـ الشيخ الحاج علي.

وقد تخرج من هذه الزاوية جيل من المثقفين نذكر منهم:

ـ ـ بلعباس لحلو، من بيشر.
ـ جلواح عمر، من ثازايرت.
ـ عبد الرحمن بسعي، من ثاقرابث.
ـ الربيع قدور من أولاد الساسي.
ـ الصالح بعلي، من ثاقرابث.
ـ لحلو السعيد.
ـ معمر العربي من قلعة بني عباس.

ـ ابنه معمر عمرو، (حالياً تاجر بالعاصمة).
ـ زكريا حنديس من حنديس.
ـ يوسف خوجة الشريف من حنديس.
ـ يعيش ارزقي من حنديس.
ـ حنديس الصغير.
ـ زكريا أحمد.
ـ يوسف خوجة لحلو.
ـ حنديس محمد السعيد من حنديس تولى الإفتاء في أقبو ثلاثين عاماً.
ـ حنديس العربي من حنديس علم في إِغْرَمْ عشرين سنة.
ـ حنديس البشير من حنديس علم في اغيل علي عشرين عاماً.
ـ حنديس محمد، علم في مدرسة باب الواد بالعاصمة 23 عاماً ما يزال حياً.
ـ حنديس الحسن، بوزيان علي، عمران سعيد (ما يزال حياً).
ـ خوجة الحسين.

كان لدى الزاوية مكتبة مهمة تحوي عدد كبيراً من كتب الفقه والحديث والتاريخ، والسير، ومصاحف القرآن الكريم، والأدب، جمعها جيش الاستعمار عام 1960 م وأحرقها مع كتب أخرى للغير.

ومن الشيوخ الذين علموا بمسجد قرية حنديس:
ـ الشيخ زكريا محمد الحسين، قبل أكثر من قرن ونصف.
ـ الشيخ عمران عمران قبل أكثر من قرن وثلاثين عاماً.
ـ الشيخ يوسف خوجة الشريف خريج الزاوية حوالي عام 1922 م.
ـ الشيخ حنديس البشير حوالي 1928 م.
ـ الشيخ يوسف خوجة البشير.
ـ الشيخ زكرياء موسى حوالي 1940 م.
ـ الشيخ مجاهدي السعيد من قولمه إلي 1959 م.
ـ الشيخ باي بوعزيز من حنديس (حالياً يعلم في بوجليل).

من قرية ثازايرت:

أسست بها مدرسة حرة عام 1939، وألحقت بجمعية العلماء عام 1945 ومن بين من علم بها:

- الشيخ عيسى قدور من ثاقرابث بين 1939 ـ 1945 م.
- الشيخ محمد الطيب عبلاوي من بوثواب.
- الشيخ داودي محمد الطيب، من تاملوكة.
- الشيخ محمد الطاهر الأطرش من المسيلة.
- الشيخ العربي العربي، من تاملوكة.
- الشيخ عدنان السعيد، من ايعزوڤن (شهيد).
- الشيخ الديلمي محمد وأحمد من سيدي إبراهيم (شهيد).

ومن إئمة مسجد القرية:

- الشيخ عمر أَزِيكِيوْ من أَزْرَوعَلُولْ بين 1914 ـ 1918 م.
- الشيخ محمد الطيب عزوق من سيدي إبراهيم حوالي 1919 و1920 م.
- الشيخ لونيس بن أحمد من مزيته علم أكثر من 15 عاماً.
- الشيخ العربي البوجليلي حوالي 1922 ـ 1923م.
- الشيخ نايث حمود من أيلقانن.
- الشيخ محمد أمقران شقار (طوالبي) بعد عم 1930 م.
- ابنه الشيخ محمد امزيان شقار (طوالبي) بين 1938 ـ 1939م.
- الشيخ محمد أمزيان أولموهوب من ثاوريرث عبلة بين 1925 ـ 1938م.
- الشيخ محمد العربي من ثاسلنت.
- الشيخ الصالح جطوطح من ثاقرابث.
- الشيخ العربي أوكيل.
- الشيخ يحيى بن عودة من عين بسام بين 1956 ـ 1962 م.

من إغيل علي:

أسست جمعية العلماء بها مدرسة عام 1945 وممن علم بها:

ـ الشيخ محمد الطاهر شنتير من بوجليل.
ـ الشيخ محمد أمويان، من ثارماست.
ـ الشيخ محمد الصادق عيسات من بوجليل.
ـ الشيخ الصالح عبد المالك، من بسكرة.
ـ الشيخ عبد الحميد أوحالة، من أولاد حَالَّةْ وآمَزْرَرَاقْ.
ـ الشيخ ساكري محمد (شهيد) من جهة باتنة.
ـ الشيخ حميدوش من آيت سعيدة، بقي يعلم حتى عام 1962م.

ومن أئمة هذه القرية:

ـ الشيخ محمد أرزقي أو منصور حوالي عام 1917 م.
ـ الشيخ بشير حنديس.
ـ الشيخ بشير عبد العزيز من إغيل علي.
ـ ابنه الشيخ محمد الطيب عبد العزيز.
ـ الشيخ أحسن البشير من ثاقرابث.
ـ الشيخ بوبكري بوبكر من سيدي إبراهيم.
ـ الشيخ محمد الطيب بوديبة الذي له مسجد يحمل اسمه حتى اليوم بإغيل علي.

من قرية ثاقرابث:

توجد بها زاوية منافسة لزاوية حمديس أسسها الشيخ عبد الرحمان المقراني من أولاد مقران الذي كان مفتياً في جباية وغادرها إلى هذه القرية وأسس فيها هذه الزاوية، ودفن بجوارها بعد وفاته، إلى جانب قرية القلعة الأولى التي كانت مقر للمقرانيين قبل تأسيس قرية القلعة الحالية بأعلى الجبل الذي يطل على بونده، وبني عيدل.

ومن شيوخ هذه الزاوية الذين علموا بها:

ـ الشيخ محمد أرزقي يحيى الشريف المعاصر للحسين الورتلاني صاحب الرحلة.
ـ الطاهر أُوقِيطُوس من إيلولن.

- الشيخ الحسين أُوعِيسَى من بوجليل.
- الشيخ الطيب شنتير من بوجليل وهو شقيق الشيخ علي شنتير الحالي.
- الصديق البسكري من تيزي أوزو.
- محمد أمزيان أجعود من آيت سلام.
- الطاهر قولمه من ايلولن.
- علي زروق من العزازقة.

ومن أئمة مسجد القرية قبل الثورة:

- بشير شرقاوي من الشرفة.
- عبدالله الصدوقي من صدوق.
- الخضير من ايلولن.
- ارزقي بو يعلى من عين الحمام.
- الشريف أبو دريقة من سيدي عيش.
- الشيخ سعد من آيت خليفة.
- محمد امزيان بويعلى من عين الحمام.
- السعيد نايث ايراثن من آيت ايراثن.
- الطاهر أوقوسيم من عزارقة ومخلوف بلقاسم.

أما خلال الثورة فمنهم:

- عبد الرحمن رابح، من ثاقرابث.
- شريفي بشير من ثاقرابث ما يزال حياً.
- بسعي عبد الرحمن من ثاقرابث ما يزال حياً.
- بعي لونيس من ثاقرابت ما يزال حياً.
- قدور عيسى من ثاقرابث ما يزال حياً.

ومن الطلبة والأئمة الذين تخرجوا بالزاوية (ثاقرابث):

- الشيخ أحمد قدور من ثاقرابت.

ـ الشيخ العرب أمزيان ثاقرابث.
ـ الصالح أُوعَزّوقْ ثاقرابث.
ـ قدور الصادق ثاقرابث.
ـ الصالح بعلي (أحمد خوجة) ثاقرابث.
ـ بن ناصر أوكيل ثاقرابث.
ـ امزيان الحسين ثاقرابث.
ـ أمزيان الربيع ثاقرابث.
ـ بلقاسم مخلاف ثاقرابث.
ـ محمد جطوطح ثاقرابث.
ـ الصلاح جطوطح ثاقرابث.
ـ قدور البشير بن علي ثاقرابث.
ـ قدور عيسى ثاقرابث.
ـ قدور صالح ثاقرابث.
ـ بسايح العربي بن بسعي ثاقرابث.
ـ عبد الرحمن بسعي ثاقرابث.
ـ لحلو السعيد ثاقرابث.
ـ أوكيل محمد الربيع ثاقرابث.
ـ أوكل عيسى بن الطاهر ثاقرابث.
ـ بعلي لونيس (ما يزال حياً) ثاقرابث.
ـ شريفي البشير ثاقرابث.
ـ عبد الرحمن أعراب (ما يزال حياً) ثاقرابث.
ـ مخلاف صالح ثاقرابث.
ـ قدور العربي (ما يزال حياً) ثاقرابث.
ـ الطيب الشريف محمد أرزقي ثاقرابث.
ـ زموري صالح (ما يزال حياً) من برباشة.

من قلعة بني عباس

أسست جمعية علماء بها مدرسة عام 1934 وافتتحت عام 1936 وممن علم بها:

- الشيخ الصالح بن أعتيق من ميلة أحد شيوخ جمعية العلماء.
- الشيخ موسى الأحمدي نويوات من برج العذير.
- الشيخ بن يحيى بن عودة، من عين بسام.
- الشيخ محمد وعمر أوجلواح من القلعة.
- الشيخ مقران صديقي.

ومن علماء هذه المنطقة:

- الشيخ المولود أوجلواح الذي علم بقرية تيزي عيدل سنوات طويلة وهو من أيمسيسن. وله ابنان ما يزالان الآن أحياء: مقران وتعلم بتونس حوالي ثلاث سنوات ثم انقطع وهو الآن معلم، والعلوي وكان يغني بالإذاعة بعض الوقت.
- الشيخ عمر البوعناني الذي علم مع الشيخ علي شنتير في مدرسة بجاية وبعد عام 1962 أصبح أستاذ في إحدى ثانويات العاصمة ما يزال حياً.
- الشيخ علي شنتير من بوجليل عضو المجلس الإسلامي الأعلى.
- الأستاذ مولود قاسم نايث بلقاسم من بلعيال، وهو خريج جامعة القاهرة.

وفيما يلي نبذة عن حياته وجهاده الفكري والأدبي، والسياسي، وقد توفي في شهر أوت من عام 1992 م.

في ذكرى المرحوم مولود قاسم والقواسم الثلاثة

بقلم: د. يحيى بوعزيز

في أواخر صيف عام 1992 فقدت الجزائر أحد أبنائها البررة الأوفياء المخلصين، رجلاً ليس ككل الرجال، وعظيماً ليس ككل العظماء، ومفكراً ليس ككل المفكرين، وكاتباً ليس ككل الكتاب، ووطنياً غيوراً ليس ككل الوطنيين العاديين.

إنه الأستاذ الفاضل المرحوم مولود قاسم نايت بلقاسم، الذي رزئت بفقده الأمة الجزائرية كلها. لأنه كرس حياته كلها في خدمتها منذ النشأة حتى الوفاة على مدى خمسة وستين عاماً، فمن هو مولود قاسم؟ أنه من مواليد قرية بلعيال إحدى قرى جبال بني عباس في القبائل الصغرى التي تمثل جزءاً من كتلة جبال البيبان الكبرى شرق وادي الصومام وجنوبه. والتي كانت تمثل مقراً الإقامة والرئاسة لأمراء إمارة أولاد مقران في قلعة بني عباس على مدى أكثر من ثلاثة قرون.

ولد المرحوم مولود قاسم في أواخر عقد العشرينات من هذا القرن وحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه، وأتقن مبادىء اللغة والعلوم العربية الدينية والأدبية. ثم رحل إلى تونس أواخر الحرب العالمية الثانية والتحق بجامع الزيتونة للدراسة حتى عام 1950، ثم رحل إلى القاهرة والتحق بقسم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وهي نفس الكلية التي التحقت بها أنا عام 1957، ولكن في قسم التاريخ، وعندما اندلعت ثورة أول نوفمبر 1954 كان قد أنهى دراسته والتحق بمكتب جبهة التحرير الوطني، ليناضل من أجل تحقيق استعادة الاستقلال الوطني للجزائر . وعمل في عدة بلدان أوروبية مثل ألمانيا، والسويد، وبعد استعادة الاستقلال الوطني عام 1962 عاد إلى الوطن، وتجند لخدمة بلاده في وزارة الخارجية، والرئاسة، والحكومة إلى أن وافاه أجله في نهاية شهر أوت 1992 م.

ولسنا هنا بصدد التأريخ لحياة المرحوم مولود قاسم، ولكن لاستعراض بعض مآثره، وأعماله، وجهوده الخالدة التي قدمها لبلاده الجزائر. ولشعبه تخليداً لذكراه، وتمجيداً لماضيه، واعترافاً بأفضاله وخدماته ليكون نموذجاً وأمثولة لشباب اليوم، خاصة في ميدان الفكر والثقافة والتربية الوطنية.

القواسم الثلاثة:

واستعراض بعض مآثر الفقيد المرحوم مولود قاسم يتطلب العودة قليلاً إلى الوراء، فعندما التحقت أنا شخصياً بالزيتونة في تونس خلال خريف عام 1949 م، وجدت سمعة، وحديثاً يذكر عن قواسم ثلاثة: قاسم رزيق، وقاسم زيدون وقاسم مولود، وكلهم أعضاء مناضلون في حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الواجهة الظاهرة والقانونية لحزب الشعب الجزائري المحظور، والذي كنت أنا عضواً فيه كذلك. وهم كلهم طلبة في جامع الزيتونة العامر. أما قاسم رزيق فقد تولى رئاسة جمعية الطلبة الجزائريين التي تنتمي سياسياً إلى حزب الشعب الجزائري، وعندما اندلعت الثورة دخل إلى الجزائر واستشهد في سنة ومكان لا أذكرهما حالياً.

وأما قاسم زيدون فاسمه الحقيقي، بلقاسم زدور إبراهيم، ابن الشيخ المصلح والمربي الطيب المهاجي الذي تصدى للتدريس، والإقراء والإفتاء في مدينة وهران قرابة نصف قرن، ولم يتوف إلا عام 1968 م. انتقل قاسم زيدون إلى القاهرة في السنة التي التحقت فيها أنا بتونس، ولم أتعرف عليه شخصياً، وعاد إلى الوطن عام 1954 م، واعتقلته السلطات الاستعمارية في اليوم الثاني من اندلاع الثورة وهو شهر نوفمبر 1954، وأعدمته، ورمت جثته في البحر أين تم العثور عليها أمام برج الكيفان في قصة مشهورة، وذلك لأنه رفض أن يفصح لها عن أخبار أحمد بم بلة ورفاقه أعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني، بالقاهرة.

وأما مولود قاسم فقد بقيت ذكراه تتردد بين الطلبة الجزائريين في تونس رغم أنه غادرها عام 1950 إلى القاهرة، ولم أتعرف عليه شخصياً إلاّ بعد

استعادة الاستقلال الوطني عام 1962 م، ولذلك قصة لا بد من ذكرها.

كيف تعرفت على الأستاذ مولود قاسم:

فقد التحقت أنا بحقل التعليم، والتحق هو بالعمل السياسي في وزارة الشؤون الخارجية كمدير على ما أظن، لقسم البلاد العربية، وكانت تصلني عنه بعض الأخبار والطرف عن طريق بعض الزملاء الذين كانوا يعملون تحت إدارته، وأذكر منهم الأخ الخضير صالحي، والشيخ الطاهر آيت علجت، وآخرين.

وعندما شرعت عام 1968 في إعداد دراستي الجامعية عن ثورة المقراني والحداد عام 1871 م، وصلته الأخبار، وراسلته من أجل أن يزودني بمصدر كنت أبحث عنه، وكان هو قد بدأ في مشروع إحياء ذكريات كبار المقاومين وزعماء ثورات القرن الماضي، كالباشاغا المقراني، والشيخ الحداد، وابنيه، عزيز وامحمد، والشيخ البركاني، والأمير عبد القادر، وأحمد باي، فأخذ يستدعيني للمشاركة فيها وشاركت فعلاً في ذكرى إعلان الشيخ الحداد للجهاد بصدق يوم 8 أبريل 1871 وذلك عام 1971 م طبعاً.

وعندما أسس مجلة الأصالة في نفس السنة أرسل إلي في وهران رئيس تحريرها الأخ عثمان شبوب، ليطلب مني كتابة موضوع عن دور عائلة الشيخ الحداد في هذه الثورة. ولبيت الدعوة شاكراً وكان ذلك أول موضوع ينشر لي في هذه المجلة. ومن يومئذ أخذت الصلات بيني وبينه تتمتن وتتوثق، ولكن في حدود الفكر، والثقافة، والكتابة.

وفي عام 1974 دعاني للمشاركة كمعقب في ملتقى الفكر الإسلامي ببجاية وكذلك فعل في ملتقى تلمسان عام 1975 م. ولاحظ علي الدقة، والجدية في تعقيباتي، وكأنه اكتشف عنصراً جديداً كان يبحث عنه، وهو أمر طبيعي لكل مسؤول، فأخذ يستدعيني بعد ذلك كمحاضر ابتداء من ملتقى عنابة عام 1976 م وفي كل الملتقيات التالية حتى ترك الوزارة عام 1979. وكنت أنشر باستمرار مقالاتي التاريخية في مجلة الأصالة، ويعجب بها، ويلح علي

دائماً في المشاركة في كل الأعداد. وواظب على إشراكي في كل النشاطات الفكرية والثقافية، لوزارة الشؤون الدينية وفي المحاضرات والندوات بالمركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة.

وأسجل هنا اعترافي الجميل له، لأنه هو الذي شجع قلمي على الكتابة، والانطلاق في تحرير الموضوعات، الوثائقية، وانتشلني وانتشل قلمي من الكسل، والركود، والجمود، وكان السبب حتى في تأليف بعض كتبي انطلاقاً من الموضوعات التي حررتها للملتقيات الفكرية الإسلامية، ولمجلة الأصالة التي فتح مجالها لي ولغيري من الكتاب والباحثين.

وكثيراً ما كان يراجعني في تصحيح بعض الأحداث، والأسماء ويطلب مني التصحيح والتعقيب، والكتابة، وفي بعض الأحيان يبعث إليّ بعتاب. ففي ملتقى بجاية عام 1974 صحح عني بعض المعلومات عن دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر. وفي ملتقى تلمسان عام 1975 لاحظ قلة تدخل الأساتذة الجزائريين المعقبين وعاتبهم على منصة الملتقى، فأخذت المبادرة وشرحت للملتقين بتوسع ما كان يهدف إليه وتلقيت منه ومن الضيوف الشكر والثناء، وفي ملتقى عنابة عام 1976 أشاد بي على المنصة وذكرهم بالجهود التي أبذلها، وعاتب غيري، وشهد ردّي المفحم على المرحوم الشيخ سليمان داوود بن يوسف المزابي. وأعجب هو وكل الحاضرين بردي، وصفقوا كثيراً. وفي ملتقى ورقلة عام 1977 حصل سوء تفاهم بيني وبين المشرفين على تنظيم الملتقى مادياً. ورفضوا أن يعطوا لي سكناً بالفندق لأني صحبت معي زوجتي وبنتي، فغادرت الملتقى في اليوم الثاني، وافتقدني فحدثوه بمعلومات مخالفة للحقيقة، وبعث إليّ بوهران عتاباً مع الشيخ عبد القار الزبير، الذي نقل إليّ حرفياً قوله: (لقد تركت لي الملتقى يتيماً) فإجبته برسالة توضيحية فرضي وأدرك الخلفيات.

وعندما رددت على الشيخ سليمان داوود بن يوسف بمقال مفحم في مجلة الأصالة حول بعض الأحداث التاريخية التي زعم أني أخطأت فيها، وطلب

الشيخ سليمان من رئيس تحرير المجلة إلاّ ينشر لي ردودي، فقال له الأخ مولود قاسم لا يمكن هذا أبداً، المجلة مفتوحة للجميع، والغلبة لصاحب الحق وبإمكانك أن تسكنه بالحقائق. والوثائق، إن كانت لديك، وإلاّ توقف أنت عن التعقيب. ليتوقف هو عن الرد.

شخصية مولود قاسم:

لم يكن المرحوم مولود قاسم، شخصاً عادياً، وإنما هو شعلة من الوطنية، وكتلة متحركة ومتنقلة من الإخلاص لوطنه الجزائر، وللإسلام والعربية وأمة العروبة، وديار الإسلام، أينما كانت. ويملك ثقافة عالية جداً، وفذة، في العلوم والحضارة العربية الإسلامية، وفي التاريخ الجزائري أساساً، والمغاربي، والعربي بصفة عامة والعالمي بصفة أعم. وطعم هذه الثقافة باتقانه لعدة لغات أخرى أبرزها: الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والسويدية، والإسبانية.

إن المرحوم مولود قاسم عبارة عن موسوعة ودائرة معارف بحالها له في كل علم باع وطرف، وفي كل فن رصيد، ويقرأ ما شاء الله من الكتب، والمجلات، والجرائد والنشريات، والدراسات الخاصة والعامة، خاصة ما يتصل بتاريخ وحضارة الجزائر، وأخبارها وأحداثها القديمة والجديدة، وكذلك الحال بالنسبة للعالمين: العربي والإسلامي وبسبب تضلعه في العلوم والمعارف، انتخب عضواً مراسلاً في المجمع اللغوي بالقاهرة وعضواً عاملاً في المجمع اللغوي بدمشق، والمجمع اللغوي بالأردن، وكان يعد العدة لإنشاء المجمع اللغوي بالجزائر عندما عاجلته المنية، واختطفته في صيف عام 1992 م.

إن الجزائر بالنسبة للمرحوم مولود قاسم هي كل شيء، يغار عليها وكافح في سبيل تحريرها. وإحياء أمجادها التاريخية والحضارية، وتحمّل في سبيل ذلك ما لا يتصور من الأتعاب، والمشاكل، والمنغصات، وحاول أن يبرز ذلك في كتابه: شخصية الجزائر الدولية، ومكانتها العالمية الذي يجب على كل شباب الجزائر أن يقرؤوه ويعيدوا قراءته ليعرفوا من هو مولود قاسم، وما هو

وزن الجزائر وشعبها عنده وكذلك الحال بالنسبة لكتبه الأخرى مثل: إنية وأصالة، ولمقالاته المتعددة في مجلتي الأصالة والثقافة ومختلف الجرائد الأخرى الوطنية والأجنبية.

إن خدمات مولود قاسم لوطنه الجزائر، وتاريخه، وحضارته، عظيمة جداً، وقد لا تعد ولا تحصى، ويمكن أن نبرز بعضها في النماذج التالية:

أولاً: مولود قاسم وإطارات الشؤون الدينية:

لقد كانت وزارة الشؤون الدينية في مؤخرة الوزارات كلها، شكلاً ومحتوى ومكانة، ولا يخصص لها في الميزانية العامة السنوية للدولة سوى مبلغ زهيد جداً لا يسمن ولا يغني من جوع. وكانت إطاراتها ضعيفة المستوى في الميدان الفكري والتربوي، وهزيلة المكانة السياسية نظراً للظروف الاستعمارية القاسية التي مرت بها البلاد خاصة بالنسبة لشؤون الدين، ولم يكن المسؤولون المسيرون للبلاد في السنوات الأولى لاستعادة الاستقلال الوطني، يعطون الأهمية المطلوبة للدين الإسلامي، ورجاله مقارنة بباقي الإطارات في الوزارات الأخرى، ولأجل هذا استمر انتشار الدروشة في أوساط الوعاظ والأئمة، والخطباء في المساجد، وعم الركود والتخلف أوساطهم، ووضعوا على هامش الحياة تقريباً، ولذلك تخلف المسجد عن أداء رسالته المطلوبة في التوعية، والتثقيف والتربية الخلقية، وعندما تسلم المرحوم الأستاذ مولود قاسم وزارة الشؤون الدينية عام 1971 م غيّر الأمور رأساً على عقب، فاهتم بإطارات المساجد، وعلى رفع مستوى الأئمة والخطباء والوعاظ، بالتكوين المستمر، عن طريق الندوات، والملتقيات، واستدعاء علماء الإسلام المبرزين من العالمين العربي والإسلامي ليحاضروا لهم، ويدربوهم على أسلوب الوعظ والإرشاد، ويقدموا لهم المعلومات المطلوبة والمنسجمة مع الدين والعصر، وكلف المفتشين في كل الولايات بتنظيم دروس اسبوعية للأئمة، والوعاظ، والمرشدين والمؤذنين والقيمين، وأمر أن يشارك المسجد في محو الأمية، والتوعية الدينية، والاجتماعية والساسية. ونظراً لتدني مستوى خطباء المساجد كون لجنة على مستوى الوزارة لتعد وتحرر خطب الجمعة الأسبوعية لهم، وفسر

الناس غير العارفين ببواطن الأمور ذلك بكونه تدخلاً في رسالة المسجد، وتوجيهاً للأئمة والخطباء. كذلك عمل الأخ مولود قاسم على رفع أجور السلك الديني، وإدخال رجاله في الوظيف العمومي، بعد أن كانوا على الهامش وبذل جهوداً كبرى ومضنية حتى حقق لهم ذلك. وأصبحوا لا فرق بينهم وبين باقي الموظفين في الوظيف العمومي ما عدا المستوى والمؤهل. وبذلك أعاد مولود قاسم لإطارات الشؤون الدينية مكانتها، واعتبارها بعد أن كانت رخيصة ومهمشة، وغير ذات اعتبار. وزال عنها ذلك الحيف الذي دام قرناً وثلث القرن تقريباً.

ثانياً: مولود قاسم والمعاهد الإسلامية:

وإلى جانب اهتمام المرحوم مولود قاسم بإعادة الاعتبار لإطارات الشؤون الدينية ورفع مستواها الديني والثقافي وتحسين أجورها المادية، أنشأ معاهد التعليم الأصلي والشؤون الدينية لتكوين إطارات كفأة جديدة على أسس عصرية، وأطلق اسم: التعليم الأصلي على برامجها، وقال إنه أخذه عن الإخوان المغاربة وأراد به التعليم العربي الإسلامي الأصيل الذي بفضله وصلت الأمة الإسلامية إلى قمة الرقي في العصور الإسلامية الزاهرة على أن يطعم بالمواد الأخرى العصرية ليواكب خريجوها تقدم العصر وحركة التطور.

وقد تم إنشاء هذه المعاهد الإسلامية في معظم ولايات الوطن وامتازت بأشكالها الهندسية المعمارية العربية الإسلامية الجميلة، وبمستواها الثقافي الرفيع وخرجت أجيالاً من الطلبة برزوا بثقافتهم وسلوكهم الطيب، خريجي الثانويات العادية، وأنقذت أجيالاً أخرى من التلاميذ الذين أفرزتهم الثانويات والمتوسطات، ورمت بهم إلى الشارع فاحتضنتهم وكونتهم وفتحت أمامهم آفاق المستقبل السعيد.

ونظراً لأهمية هذه المعاهد في تكوين وإعداد إطارات دينية كفأة وأصيلة، فقد تآمر عليها الماكرون عام 1976، وتذرعوا بفكرة توحيد التعليم ودفعوا السلطات دفعاً لتدمجها في التعليم العام، وأطفأوا شمعة أوقدوها المرحوم

مولود قاسم لتنير طريق الأجيال الصاعدة، واغتالوا هذه المعاهد ودفنوها قاتلهم الله، وستنتقم منهم الجزائر طال الزمن أم قصر.

ثالثا: مولود قاسم ومجلة الأصالة:

وإلى جانب معاهد التعليم الأصلي، أنشأ المرحوم مولود قاسم مجلة الأصالة عام 1971 م لتواكب حركة التطور في البلاد، وتكشف الغطاء عن ماضي الجزائر المشرق، وتاريخها الطويل الحافل بالأمجاد والبطولات، لقد كان مولود قاسم مفكراً مبدعاً، وفيلسوفاً أصيلاً، وكاتباً مجدداً، ومثله لا يمكن له أن يركن إلى الجمود، والخمول، والتقوقع، ولذلك آلى على نفسه أن يغير أوضاع إطارات الشؤون الدينية من حيث الفكر، والثقافة والتكوين. وأنشأ هذه المجلة ليفتح لها ولغيرها المجال للإبداع، والابتكار، والتزود بالثقافة الصحيحة، والأصيلة والنافعة كل المجالات والتخصصات، وكانت تصدر كل شهرين، وبمبلغ دينارين فقط لا يساويان واحداً في الألف من تكلفتها، وينفق عليها بسخاء ويحرص على أن تصدر في مواعيدها المحددة، وعندما لا يجد صاحب مطبعة البعث بقسنطينة الورق اللازم لسحبها يتدخل هو شخصياً ويدبر له الورق. حكى لنا ذلك الأخ مولود قاسم بنفسه رحمه الله.

وقد تطورت هذه المجلة في محتواها وأصبحت عالمية يبحث عنها كل المثقفين على مستوى القارات الخمسة. وذلك بمقالاتها المتعددة والدسمة في كل عالم وفن، ومادة، وأبرزت تاريخ الجزائر، وحضارتها المشرقة عبر العصور وأزاحت عنها الغبار، وحفزت الأقلام وهمم الكتاب، والباحثين ليكتبوا ويبحثوا ويبدعوا، وكانت حقاً نافذة على الجزائر إلى كل بلدان العالم وصورتها الحقيقية، عرّفت أصالة الجزائر، وعراقتها، في التطور، والتحضر، والرقي، عبر العصور.

وقد عمرت هذه المجلة عقداً من الزمن من عام 1971 إلى عام 1981 م ثم قام الشيخ عبد الرحمن شيبان الذي خلف الأخ مولود قاسم في الوزارة قام بإعدامها واغتيالها، كما اغتال وأعدم التاريخ في ملتقيات الفكر الإسلامي

بدعوى أنها تنشر دراسات عامة، ولا تنشر الدراسات الدينية الخاصة. وهي دعوى عنصرية فكرية وثقافية لا يهضمها ولا يقبلها إلاّ الشيخ عبد الرحمن شيبان ومن على شاكلته وهواه، وكما يقول المثل: فاقد الشيء لا يعطيه.

رابعاً: مولود قاسم وكتب التراث:

ومع مجلة الأصالة اهتم المرحوم مولود قاسم بنشر كتب التراث وتبنت وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، نشر عدد من الكتب المحققة ومنها: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، لمحمد بن سحنون الراشدي، ودليل الحيران، وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، لمحمد بن يوسف الزياني، اللذان حققهما المرحوم الشيخ المهدي البوعبدللي، كما تبنت هذه الوزارة نشر كل محاضرات وتعقيبات ملتقيات الفكر الإسلامي التي تعتبر بحق مفخرة الجزائر، وموسوعة هذه الملتقيات وقد خصص المرحوم مولود قاسم ريع هذه الدراسات وكتب التراث لدعم مجلة الأصالة وتوفير الأموال اللازمة لإصدارها. وحتى ريع كتبه الخاصة: إنية، وأصالة، وشخصية الجزائر الدولية ومكانتها العالمية، خصصه للأصالة كذلك، ولم يأخذ منه ولو صانتيماً واحداً، حكى لنا هذا مقتصد الأصالة نفسه الأخ محمد بربح. ولكن الشيخ عبد الرحمن شيبان قضى على كل هذه المشاريع، واغتالها وكل ما قام به هو نشر ملخص لملتقى الفكر الإسلامي، عام 1981، وثلاثة كتب من آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس.

خامساً: مولود قاسم وملتقيات الفكر الإسلامي:

لقد كانت ملتقيات الفكر الإسلامي الأولى قبل مولود قاسم متواضعة تعقد على شكل ندوات صغيرة يدعى إليها عدد محدود من طلاب الثانويات ليستمعوا إلى محاضر قد لا يكون مختصاً ومنهم المرحوم مالك بن نبي. وبعد أن تولى مولود قاسم وزارة التعليم الأهلي والشؤون الدينية، أحدث انقلاباً كبيراً في هذه الملتقيات شكلاً ومحتوى، ومكاناً، وزماناً، فأنشأ مديرية خاصة لها بالوزارة، وأخذ يدعو إليها صفوة المفكرين والباحثين والمبدعين، من القارات الخمس ليبحثوا ويدرسوا على مدى إثني عشر يوماً، موضوعاً محدداً، يوزع إلى عدة

محاور أبرزها محور التاريخ الذي يخصص عادة للمدينة والمنطقة التي يعقد بها الملتقى. وقد دأب الأخ مولود قاسم على عقد هذه الملتقيات في المدن الجزائرية الكبرى الساحلية والداخلية بصفة دورية، كل سنة، ويبدأ في الإعداد لها في نهاية كل ملتقى حيث يعلن عن موضوع الملتقى القادم، ومكانه وزمانه ثم يشرع بعد ذلك مع اللجنة المنظمة في تحديد قائمة الأساتذة المحاضرين والمعقبين، ويوجه لهم الدعوة قبل ستة أشهر من الموعد، مع موضوع الملتقى ومحاوره، ليختاروا الموضوع الذي يحاضرون فيه، ويلزم الأساتذة المحاضرين بإرسال نصوص محاضراتهم قبل انعقاد الملتقى من أجل طبعها على الآلة، وسحبها، وترجمتها، لتوزع على الملتقين خلال الملتقى، ويتم ترجمة النصوص غير العربية إلى العربية، وخلال انعقاد الملتقى تتم الترجمة الفورية تعميماً للفائدة، ويدعى لهذه الملتقيات باستمرار ألف طالب على الأقل من الجامعات والمعاهد، والثانويات، ليستفيدوا مما يلقى ويتعلموا طرق البحث، والعرض، والحوار، والنقاش.

وكان المرحوم مولود قاسم يشرف بنفسه على تنظيم الملتقى، وتحديد مكانه وزمانه، ومحتواه، ومحاوره، ويعقده في أفخم الفنادق والمركبات السياحية ويشرف بنفسه ويراقب إقامة الطلاب في المعاهد والثانويات وقوائم الأكل لهم وللضيوف، ويكون أول الداخلين لقاعة الملتقى، وآخر المغادرين لها، لا تفوته شاردة ولا واردة ليلاً ونهاراً. وينظم رحلات سياحية وترفيهية للملتقين، ويوفر كل وسائل الإقامة المريحة والتنقل والتغذية لضيوف الملتقى. وخلال انعقاد الملتقى يكلف عدداً من السادة الأساتذة الزائرين بمحاضرة الطلاب ليلاً في أماكن إقامتهم، والإجابة على استفساراتهم. وفي نهاية الملتقى يكلف عدداً منهم بإلقاء محاضرات في عدد من المدن الجزائرية. وكأن يتدخل بنفسه يومياً بالتعقيب والتوضيح على ما يلقى من المحاضرات والتعقيبات.

إن ملتقيات الفكر الإسلامي في عهد المرحوم مولود قاسم بمثابة أعراس ثقافية كبرى للجزائر، ومظاهرات ضخمة في ميادين الفكر والثقافة، والإبداع والحوار، والبحث، بل وحتى السياحة والترفيه. ولأول مرة في تاريخ إطارات

الشؤون الدينية يدعون للإقامة في أضخم الفنادق السياحية الكبرى، وتناول الأكلات الفخمة واللذيذة، الأمر الذي لم يكن متاحاً لهم إطلاقاً قبل ذلك. وعليهم أن يترحموا على الأستاذ مولود قاسم، ويعترفوا بأفضاله عليهم، وعلى الوزارة والاتجاه الديني ككل.

وبفضل هذه الملتقيات الفكرية الإسلامية، أصبحت الجزائر قبلة العلماء والمفكرين، والباحثين، والمؤرخين، والفلاسفة، والفقهاء، والشعراء، من كل بلدان العالم، وقد كان الأخ مولود قاسم خلالها شديد الحرص على تطبيق نظام دقيق في وقت المحاضرة، والتعقيب، والتعليق، والتدخل، وبداية الجلسة ونهايتها، والدخول والخروج، وأوقات الأكل، والصلاة، والراحة، وطبع المحاضرات، وتوزيعها، وراحة المدعوين خاصة الأساتذة المحاضرين. ومن أفضاله كذلك أنه يطبع كل ما يرد إلى هذا الملتقى، وما يلقى من المحاضرات والتعقيبات مع الصور التذكارية، في مجلدات خاصة، ويزود بها كل أستاذ محاضر فيها، مجاناً، ويعرض الباقي للبيع في المكتبات لصالح الأصالة، وقد تكونت من ذلك موسوعة ضخمة من العلوم والمعارف الإنسانية بفضل هذه الملتقيات التي كان يشرف عليها.

سادساً: مولود قاسم والتاريخ:

كان المرحوم مولود قاسم يهتم كثيراً بمادة التاريخ، رغم أن تخصصه كان في مادة الفلسفة، وذلك لأن المستعمرين الفرنسيين شوهوا تاريخ هذه البلاد وهذه الأمة الجزائرية وزوروا حقائقه، ثم أن تكوين المرحوم مولود قاسم العربي الإسلامي في جامعات إسلامية عريقة، بمسقط الرأس، والزيتونة، والقاهرة، فرض عليه ذلك، وحفزه على قراءة تاريخ بلاده وأعمال النظر فيه، والعمل على تنقيته وتصفيته من الشوائب، وإحيائه وبعثه من جديد ويعتبر ذلك جزءاً من الوطنية السليمة والمتأججة لكل مواطن غيور على بلاده ووطنه. ومن أجل ذلك فإنه عندما تولى وزارة الشؤون الدينية شرع كما قلنا في إحياء ذكريات كبار الزعماء والمقاومين الجزائريين، وإقامة مهرجانات خاصة بهم عبر الوطن لتحسيس الشعب بهم وبماضيهم، وبطولاتهم، وتضحياتهم، وفي نفس الوقت

أصبح يخصص المحور الأول من محاور موضوعات الملتقيات الفكرية الإسلامية، للتاريخ، كل سنة، ويدعو كبار الباحثين والمؤرخين للكتابة فيه داخل الوطن وخارجه، عرباً ومسلمين، وأوروبيين، ويعطي لهذا المحور أهمية خاصة، ويتتبع باهتمام كل ما يلقى فيه من محاضرات وتعقيبات ويتدخل بنفسه في كل محاضرة، ويرد ويعقب، ويوضح بشكل مكثف، كأنه محام على تاريخ الجزائر أساساً، والعربي الإسلامي بصفة عامة. وبهذا الأسلوب، سلط الأضواء على معظم جوانب التاريخ الجزائري عبر العصور، وأحياه، وأجلاه، ودفع عنه الشبه، والأباطيل، وسلط الأضواء على كل جوانب الفكر والحضارة والاقتصاد والاجتماع لهذه البلاد، وهو ما لم يدركه الشيخ شيبان للأسف الشديد. ولذلك اغتال التاريخ وأعدمه في الملتقيات الإسلامية التي أشرف عليها خلال توزره، وسار على نهجه من جاء بعده من الوزراء.

وقد أحس المرحوم مولود قاسم بعمق الجرح، وروجع على ما يبدو ونوقش في الموضوع عندما كان وزيراً، وبعد ذلك، فرد بنفسه على من نهج نهج الشيخ شيبان وقال لهم: إن التاريخ هو ذاكرة الشعوب، ولا يمكن أن يغيب في أي ملتقى أو ندوة، فهو ملح العلوم والفنون جميعاً.

سابعاً: مولود قاسم والجدية في العمل:

كان المرحوم مولود قاسم مضرب المثل في الجدية، والانضباط، والاتقان قولاً وعملاً، طوال حياته وعلى كل المستويات في المسؤولية فكان يجمع الليل بالنهار في عمله ويسهر بالوزارة عندما ينهي الموظفون عملهم ويجدونه في الصباح قبلهم، في مكتبه. ومع الجدية والانضباط يتسم بالتواضع، ويبتعد عن الكبرياء الذي يطبع كبار الموظفين في بلادنا. ويكفي هنا أن أورد الأمثلة والشهادات التالية:

1) شهادة الشيخ السعيد الصالحي عضو المجلس الإسلامي الأعلى الذي عمل معه عدة سنوات، واختلف معه حول موضوع اعتماد الحساب في بداية شهر رمضان ونهايته، وغادر الوزارة، وكنت ألتقي به مرة على مرة، في منزله

بالجزائر وفي وهران عندما يحضر إلى ابنه الصغير هناك، وفي إحدى هذه اللقاءات معه جرنا الحديث إلى مولود قاسم فقال لنا: أشهد الله على أنه يضرب المثل في العمل ويسهر في الوزارة أحياناً إلى الساعة الرابعة صباحاً، وقد رزق صبراً كبيراً لم يرزق به غيره، واعترف له بذلك رغم أني أختلف معه في موقفه من جمعية العلماء.

2) شهادة أحد معاونيه من خنشلة عام 1978 عندما كان مرافقاً لي من مدينة قسنطينة إلى باتة عبر خنشلة لحضور ملتقى الفكر الإسلامي. فقد كنا نتحدث على قضايا كثيرة وجرنا الحديث إلى الإعداد للملتقيات الفكرية الإسلامية. فقال لنا إن الأخ مولود قاسم يبذل جهوداً جبارة في سبيل ذلك ويسهر الليالي الطوال كي يصل إلى النتائج المرجوة. ويسهر حتى الساعة الرابعة صباحاً، وأعمل معه في مكتبه وعندما يشعر بأني متعب يشير علي بأن أذهب لأنام، ولكني أرفض لسبب بسيط وهو أنه كيف أسمح لنفسي، وأنا موظف بسيط أن أذهب إلى النوم والراحة، وهو وزير ولكنه يواصل العمل، ولا يسمح لنفسه بالراحة، لقد قال لنا هذا الكلام من أعماق نفسه وهو يهزّ رأسه، ويتعجب ممن لا يعرفون مقدار الجهد الذي يبذله حتى تنعقد تلك الملتقيات في ذلك المستوى الرفيع مادياً، وروحياً، وأدبياً، مظهراً ومخبراً، وأخذ يعدد لي بعد ذلك مثل هذه المواقف في جدية المرحوم مولود قاسم وصرامته.

3) حادثة الأستاذ الدكتور صبحي الصالح الإسلامي اللبناني في ملتقى الفكر الإسلامي بتلمسان عام 1975 م فقد حاول الغمز واللمز ضد المؤرخة السورية ليلى الصباغ وقام ببعض التصرفات التي كادت أن تفجر الملتقى فصعد إلى المنصة ونزل عليه باللوم والعتاب وقال له لا حاجة لنا بالتفصح الذي يفرق الصفوف ويفرقع الجماعة، وإنما نحن بحاجة إلى وحدة التصور وجمع الكلمة، ولم يداره فكان ذلك درساً له قاسياً لاحظته على محياه عندما التقينا على مائدة الغذاء بعد ذلك.

4) حادثة الشيخ الأنصاري أحد علماء دولة الإمارات العربية المتحدة في

مؤتمر تلمسان عام 1975 م عندما انزلق لسان المرحوم مولود قاسم، وقال إن الرسول نفسه يمكن أن يخطىء، فثارت ثائرة الشيخ الأنصاري، وأرعد وأزبدّ وهدد بمغادرة الملتقى، وتدخل الشيخ أحمد حماني وموسى الصدر اللبناني، زعيم الشيعة وآخرون، وأصلحوا ذات البين واعترف الأخ مولود قاسم بأنه سبق لسان فقط. والحقيقة أن الأخ مولود قاسم في ملتقى تلمسان كان يعيش أزمات حادة، منها قطع المياه على الطلبة في محال إقامتهم، وتقاعس المسؤولين في الولاية عن تعليق اللافتات، وأداء الخدمات المطلوبة للملتقى، وضيق القاعة التي عقد فيها الملتقى، وأخطر من كل هذا هو الضغط المسلط عليه حول وجود الشاعر الكبير مفدى زكرياء، وهو له موقف معروف من الرئيس بومدين والحزب، ويبدو أن هناك ضغوطاً عليه ليصرفه عن الملتقى، ومع أنه لم يفعل ذلك، ولكنه لم يسمح له بإلقاء القصيدة التي أعدها لذلك. في مثل هذه الظروف والضغوطات كيف لا ينزلق اللسان ولا يجنّ العقل، خاصة وأن الرئيس كان مبرمجاً أن يزور الملتقى، وقد زاره فعلاً بالليل في الجلسة المسائية وقبل رفعها بقليل.

5) حادثة الشيخ أحمد حسين وحكاها لي الأخير بنفسه، ولم يطق صبراً على تحملها، وغادر الوزارة بصفة نهائية، ولكنه قال لي بعد أن قصّها على أن قلب سي مولود نقي، ولكنه شديد التسرع والانفعال. وهي حقيقة، ولكنه في سبيل المصلحة الوطنية، وسرعان ما يعترف هو بنفسه عندما يدرك خطأه، ويحاول إصلاح ما أفسده تسرعه.

6) حادثة المفكر الإسلامي الجزائري رشيد بن عيسى في ملتقى بجاية عام 1974 فقد كان يعقب على محاضرة الأستاذ مولاي بلحميسي وكان المرحوم مولود قاسم جالساً أمام المنصة، وبجانبه محافظ الشرطة ولم يعجبه تعقيب بن عيسى وحاول أن يناقشه من القاعة، وهو أسلوب خارج عن النظام، فردّ عليه بن عيسى بعنف ونرفزة، من على المنصة، ولم يطق الأخ مولود ذلك العنف وتشابك معه بكلام أشد عنفاً، وقال له انزل يا حمار، وكانت زوجته تتفرج من القاعة على المنظر، والمسرحية، فنزل وغادر القاعة ولحقت به زوجته، وجرى

وراءه الأخ مولود، وآخرون ليعيدوه فرفض ولم يعد من ذلك التاريخ لحضور الملتقيات، وحصلت له مشكلة مع المرحوم محمد الصديق بن يحيى ومع النظام كله فغادر الجزائر، ليتوظف في منظمة اليونسكو بباريس، وقد حضر كزائر في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر العاصمة عام 1981 وأعطيت له الكلمة ليعقب فجرح في شخصية معروف الدوالي السوري الذي كان حاضراً، واتهمه بالعمالة للمخابرات الغربية، واضطر الوزير الشيخ عبد الرحمن شيبان أن يتدخل ويعقب ليرفض مثل هذه التعقيبات.

ثامناً: مولود قاسم والأصالة والتفتح:

كان المرحوم مولود قاسم مفكراً إسلامياً أصيلاً، شديد التمسك بالشخصية الوطنية الجزائرية في إطار الإسلام والعروبة، وذلك بفضل ثقافته العربية المتينة، وإطلاع الواسع، ولكنه مع ذلك كان يدعو إلى التفتح على الثقافات العالمية للانتفاع بمحاسن التطور، واستغلالها في نهضة الجزائر وترقية شعبها، بشرط ألا يكون ذلك التفتح سبباً في التنكر لعادات وتقاليد البلاد وللإرث الحضاري المشرق الذي بناه وشيده الأجداد عبر العصور بجهودهم وعرقهم. وخاطب هذا النوع من المثقفين المنحرفين وقال لهم إنكم تدعوننا لفتح الأبواب والنوافذ، وإزالة السقوف، وتعريتنا من كل ألبستنا، وفصلنا عن ماضينا ومقوماتنا الوطنية، ولعل تسمية مجلته بالأصالة يترجم هذا الاتجاه والمنحنى الوسط للأخ مولود الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة والتفتح دون شطط، وبكيفية عقلانية مهذبة ومعقولة ومقبولة وهو اتجاه كل الوطنيين المخلصين الغيورين على بلدانهم وشعوبهم وحضارتهم.

وللأسف الشديد فإن أغلبية شبابنا اليوم يدعون لفتح الأبواب والنوافذ وإزالة السقوف، والغوص في حضارة الغير، ولو مع التخلي عن كياننا ومقدساتنا الدينية والوطنية لأن مغريات الغير اليوم كثيرة جداً، وتقتحم ديارنا بدون استئذان عن طريق الفيديو، والكاسيت، والبارابول، وهي أخطار كبيرة ومرعبة، تهددنا بالانسلاخ عن ماضينا، والذوبان في حضارة غيرنا إذا لم نواجهها بما تستحق من الوسائل قبل فوات الأوان، وكان الأخ المرحوم مولود

قاسم يدركها جيداً، وحاربها بكل ما أوتي من قوة ووسائل وإمكانات قولاً وعملاً وسلوكاً.

تاسعاً: مولود قاسم والمواقف الحاسمة:

كان المرحوم مولود قاسم شديد الحرص على حماية كرامة الجزائر، والدفاع عن مقدساتها الوطنية التي طالما أهانها وأذلها الاستعمار الفرنسي. ولم يكن يتسامح إطلاقاً في هذا مع أي كان داخل الجزائر وخارجها مع الجزائريين وغيرهم. والنماذج التالية: توضح بعض جوانب ذلك:

1) في عقد السبعينات قام المرحوم مولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية بزيارة الاتحاد السوفيتي، على رأس وفد عام من وزارته، وفي مطار موسكو استقبله موظف بسيط لا يتناسب مع منصبه كوزير، ويتعارض مع الأعراف الديبلوماسية. وأكثر من هذا نظمُوا له زيارة لكنيسة مسيحية أورثوذوكسية بدل أن يزوروه المآثر الإسلامية هناك وبآسيا الوسطى. وهو وزير مسلم لأمة مسلمة طالما عانت من الغبن المسيحي النصراني الأوروبي، وكافحت عشرات السنين من أجل إعادة الاعتبار لدينها الإسلامي. ولم يطق صبراً على تحمل ذلك، وتشاجر معهم وقطع زيارته، وعاد إلى الوطن بسرعة، رغم أن الاتحاد السوفياتي كان أكبر صديق للجزائر خلال الثورة، والممون الرئيسي لها بعد ذلك بالأسلحة والعتاد العسكري بالنسبة للجيش الوطني الشعبي. لأن مقدسات البلاد الدينية فوق كل اعتبار. ولم يراع صرامة الرئيس بومدين في هذا الميدان، وأعتقد أنه لو كان الموقف مع وزير آخر غير مولود قاسم ما اتخذ هذا الموقف. ومن ذلك التاريخ لم يزر مولود قاسم الاتحاد السوفياتي رسمياً حتى توفي. لقد أخذ بزمام الموقف وضحى بالأبهة، واستصغر ما قد يتعرض له من طرف الرئيس بومدين.

2) عندما زار الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان الجزائر في عهد الرئيس بومدين خلال عقد السبعينات، خطب في مطار الدار البيضاء وقال بالحرف الواحد: «فرنسا التاريخية تحيي الجزائر الجديدة» وهي مقولة فيها ما

فيها من الغمز واللمز لأنها تعني فيما تعني أن فرنسا ذات تاريخ، والجزائر لا تاريخ لها وقد ولدت من جديد عام 1962 م، فأثارت حفيظة المرحوم مولود قاسم ورد عليها وعليه وكان ذلك على ما أظن سبباً في تأليفه لكتابه: «علاقات الجزائر الدولية ومكانتها العالمية». بينما مرت هذه المقولة على غيره مرور الكرام، وذهبت مع الريح، ولم يحس بها إلا القليل.

3) في خلال شهر ديسمبر 1984، وبمناسبة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لاندلاع ثورة أول نوفمبر 1954، نظمت وزارة الثقافة ملتقى تاريخي بنزل السفير في مدينة الجزائر دعينا إليه وحضره المرحوم مولود قاسم، وصادف أن شكك أحد الحاضرين في رقم مليون ونصف المليون شهيد، واعتبر ذلك مبالغة فثارت ثائرته، وأرعد وأزبد وكنت واقفاً بجانبه بعد نهاية الجلسة، وقال إن اليهود يزعمون أن النازيين قتلوا منهم ستة ملايين وهو زعم باطل، ولكنهم رسخوه في قلوب الجميع على مستوى القارات الخمسة خاصة البلدان الغربية الأوروبية والأمريكية ولو كان باستطاعتهم أن يلصقوا لافتة بذلك الرقم في السماء لفعلوا، ونحن اليوم نشكك في هذا الرقم المتواضع الذي أصبح شعار هذه الثورة في كل أنحاء العالم. وبالطبع هو محق في رأيه مليون في المائة.

4) وفي نفس الملتقى شاركت أنا بموضوع حول أيديولوجيات الحركة الوطنية من خلال ثلاثة نصوص جزائرية، ومن بين ما ذكرته في الموضوع خلال المحاضرة، المفارقة العجيبة التي حصلت خلال الثورة، وعكست الموازين والمقاييس، فالزعيم فرحات عباس الذي كان يدعو للإدماج والتجنيس وربط مصير الجزائر بفرنسا ربطاً أبدياً وبأي شكل من الأشكال أصبح على رأس قمة هرم جبهة التحرير الوطني وهي الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بالمنفى عام 1958 م.

والزعيم مصالي الحاج الذي كان ينادي باستقلال الجزائر وكل بلدان الشمالي الإفريقي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وقضى حياته كلها في السجون والمنافي والإقامات الجبرية داخل الجزائر وخارجها، اتهم بالخيانة

عندما قامت هذه الثورة وحتى الآن لم يرد له اعتباره. فلم يستسغ هذا الكلام السيد محمد قنانيش أحد قدماء مناضلي هذا الاتجاه الذي هو من تلمسان مسقط رأس الزعيم مصالي الحاج، فطلب التعليق وأدلى بكلام عاطفي بعيد عن المنطق والصواب، وغادر القاعة دون أن يسمع ردي وجوابي الذي قلت فيه: إن جبهة التحرير الوطني الجزائرية هي التي أعلنت الثورة، وهي التي أصدرت هذا الحكم ضده، وكنا نتمنى أن تعيد لهذا الزعيم اعتباره كما أعادت الاعتبار لغيره. وما قلناه منبثق من الوثائق موجودة في حوزتنا وكان المرحوم مولود قاسم حاضراً العرض والمناقشة، ولم يتكلم في ذلك اليوم ولكنه في اليوم الموالي حضر وطلب الكلمة في غيابي وقال كلاماً جميلاً لا اختلاف معه فيه. ودافع عن الرجل، وذكر أنه لولاه ما عرف الناس فكرة الاستقلال، ولا كانت هناك ثورة أو استقلال والطريف في دره هو أنه طوال حديثه الذي استغرق على ما قيل لي، لأني لم أكن حاضراً، بل كنت في إحدى القاعات الجانبية أسجل للتلفزة حديثاً بالمناسبة، استغرق حوالي ساعة، كان يوجه الانتقاد للأستاذ إسماعيل العربي، وعندما حضرت إلى القاعة وهو في ختام كلامه، ورآني تفطن للمقلب وأرسل إلى المنصة اعتذاراً إلى الأستاذ إسماعيل العربي الذي ضاق ذرعاً وغادر القاعة، وضحك هو وضحك جميع من في القاعة. وأجمل شيء قاله عن مصالي هو أنه في مهرجان وفد المؤتمر الإسلامي عام 1936 حمل شيئاً من التراب في الملعب وقال لهم إن هذا التراب لا يباع ولا يشترى ولا يرهن فمن أذن لكم بالموافقة على إدماج الجزائر في فرنسا، وأنتم لا تمثلون إلا أنفسكم.

والخلاصة من كل هذا هو أن المرحوم مولود قاسم لا يتردد في قول الحقيقة واتخاذ المواقف الحاسمة عندما يتصل الأمر بكرامة الجزائر، ومقدساتها الدينية والوطنية. أما مصالي الحاج فهو أبو الحركة الوطنية الجزائرية دون منازع منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى نوفمبر 1954 م، ولا يستطيع أحد أن ينكر له هذا. أما بعد ذلك فلله في خلقه شؤون، ولا خلاف إطلاقاً بيني وبين الأخ المرحوم مولود قاسم لأننا معاً من نفس المدرسة والاتجاه، والتكوين.

عاشراً: مولود قاسم والتعريب:

كان المرحوم مولود قاسم بحكم وطنيته التي لا تقارن، وثقافته الأصيلة، وتكوينه المتين والراسخ، حريصاً كل الحرص على أن تستعيد اللغة العربية مركزها، ومكانتها في هذه البلاد. وهي إحدى الأماني التي يتقد حرارة لإنجازها، وعندما كان موظفاً في وزارة الشؤون الخارجية يحاسب العاملين تحته على النقط والفواصل، عندما لا يحسنون وضعها في أماكنها، كما حدثني بذلك الأخ الخصير صالحي، الذي أكد لي أنه كان يطلب إعادة كتابة الرسالة أو التقرير، مرة وثانية وثالثة من أجل نقطة أو فاصلة، أهملت أو وضعت في غير مكانها فضلاً عن كلمة أو جملة غير صالحة.

وكان يستهجن ويستنكر التحدث بغير العربية لغة العلم، والقرآن والحضارة أكثر من خمسة عشر قرناً، إلاّ عندما يتطلب الأمر ذلك. وأتذكر هنا يوماً كيف أنب وعاتب الشيخ المهدي البوعبدللي في قاعة المحاضرات خلال إحدى الملتقيات للفكر الإسلامي عندما كان يذكر ألقاب: الكولونيل، والجنرال، وقال له: كفى يا شيخ إن في العربية ألقاباً مقابلة لها مثل، العقيد، والمقدم، فما بالك لا تستعملها، عيب يا شيخ.

وقد واكب المرحوم مولود قاسم حركة التعريب في الجزائر، وعانى أكثر من غيره حركة المعارضين لها. وكان ضمن المجموعة التي أعدت وجهزت لتطبيق التعريب عام 1971 التي أعلنت سنة للتعريب الشامل، وبعد خروجه من الوزارة أسندت إليه رئاسة المجلس الأعلى للغة العربية، وكلف بمراقبة تنفيذ قرار التعريب، وتنقل في كل أنحاء البلاد ولاية فولاية، وبح صوته من الخطب، والشروح، والتعليقات، وإلفات النظر في الندوات والملتقيات، والمهرجانات والمحاضرات، وأطلع نفسه وفي عين الأماكن على العراقيل والصعوبات التي يضعها أعداء التعريب في طريقه، وعلى المؤامرات التي يحيكونها ويدبرونها كل مرة. وتحمل عبء إعداد قانون تأسيس أكاديمية 19 جوان للغة العربية، وتكلف بإعداد إنشاء مجمع اللغة العربية بالجزائر على غرار المجتمعات العربية

الأخرى في البلاد العربية، ولكن المنية عاجلته واختطفته قبل أن يحقق أمله، وأمل كل المخلصين لهذه البلاد ولإرثها العربي الإسلامي الضخم.

ومن السيئات التي نسجلها هنا للرئيس العظيم هواري بومدين هو أنه كان في مقدوره عام 1971 أن يطبق التعريف لأنه كان في موقف قوة داخلاً وخارجاً ولا أحد يمكن أن يعارضه ولو فعل ذلك ما أمكن أن تحصل اليوم هذه الردة التي نعيشها. والتي تطالب بلائكية الدولة، وأمازيغية اللغة. وكلاهما لا يخدم مصالح هذه البلاد وهذه الأمة الجزائرية وعلى العكس يهددان وحدتها وأمنها واستقرارها، وتقدمها، لقد فوت الرئيس بومدين فرصة ثمينة قد لا تعوض في المستقبل إلا إذا حدثت تطورات غير متوقعة مهداة من الله سبحانه وتعالى وهو قادر على ذلك، وليس بعزيز عليه، على أي حال، وهو ما نتمناه ونتعشمه.

وقد تألم المرحوم مولود قاسم كثيراً عندما حيكت مؤامرة إلغاء معاهد التعليم الأصلي، وإلحاقها بالتعليم العام عام 1976 كما تألم أكثر عندما أصدر المجلس الاستشاري عام 1992 قرار بتوقيف العمل باللغة العربية، الذي أصدرة المجلس الشعبي الوطني عام 1991 م. لأن ذلك بمثابة ردة في الحقيقة والواقع لآمال الأجيال المتوالية منذ 1830 إلى ذلك التاريخ، وقد كان قرار الردة هذا من مجلس استشاري غير منتخب، بمثابة غصة له ولأمثاله من المخلصين، ضاعفت من آلامه، وصارت إحدى العوامل التي ضاعفت من آلامه ومرضه الذي أدى إلى وفاته.

وهنا لا بد من إيراد خلاصة للقصة التالية التي سوف توضح للأجيال الصاعدة قيمة هذا الرجل، وعظمته، ومدى حبه للجزائر وللإسلام واللغة والثقافة العربية الإسلامية.

فبعد اتخاذ قرار تحديد الأجل للعمل باللغة العربية، وتعريب المواد العلمية في الجامعات الجزائرية، سافر على رأس وفد إلى المشرق العربي وانتقى من هناك خاصة العراق وسوريا نخبة من الكتب العلمية ليعتمد عليها طلاب الشعب العلمية وأساتذتهم كخطوة أولى لإعداد الكتب الأخرى أو

ترجمتها. وتم شحن هذه الكتب بحراً إلى الجزائر فحجزت في الميناء عدة شهور من طرف إدارة الجمارك، بإيحاء أعداء التعريب، وخلال تلك المدة رمي بجزء كبير منها في البحر، نعم رمي بها في البحر، وما بقي منها تم إخراجها بصعوبة، وأحضر إلى مقر المجلس الأعلى للغة العربية في قصر الحكومة وأودع هناك ثم لما صدر قرار ترحيل هذا المجلس إلى مقر حزب جبهة التحرير الوطني في قصر زيروت يوسف شحنت تلك الكمية إلى هناك، ووضعت في حجرة خاصة أغلقها المرحوم مولود قاسم بنفسه حتى يضمن سلامتها وعدم ضياعها. ولكن المجرمين أعداء التعريب كسروا باب الحجرة وأخذوا تلك الكتب إلى وجهة مجهولة حتى اليوم وبالتأكيد أعدموها وأتلفوها وكان سي مولود في هذه الفترة مريضاً، فأخفوا عليه الخبر مدة ثم كاشفوه بالحقيقة. فتضاعف ألمه ومرضه، وقال لأحد مساعديه الذي حكى لي القصة بنفسه في مدينة برج بوعريريج عام 1993 م، وكان يعمل معه في نفس المجلس، قال له: لقد انتهى عهدي ودوري، وتوفي بالحسرة والغصة من كل تلك الأعمال الإجرامية.

هكذا اغتال أعداء الجزائر لغتها وحضارتها، واغتالوا معها هذا الرجل العظيم مولود قاسم، الذي لو كان بمقدوره أن يحمل الجزائر على كتفيه لحملها وقد أطلق على بنته الوحيدة بعد أخيها، اسم الجزائر، نعم: الجزائر، وما ذلك إلاّ حبّاً في بلاده، فمن يفعل هذا من غيره يا ترى؟

إن الكتابة عن المرحوم مولود قاسم، ومآثره، وخصاله، لا يمكن أن يحيط بها موضوع كهذا، لأن الرجل عظيم حيّاً وميتاً، وإذا غاب عنا جسمه، فإن مآثره باقية وخالدة خلود الجزائر، وهو أهل لأن يطلق اسمه على إحدى جامعاتنا الكبرى لأنه موسوعة علم، ودائرة معارف، وقدم للجزائر خدمات كبرى، ولم يتوقف عن ذلك إلا عندما اختطفه المنون، وما هذه المآثر التي استعرضناها في هذا المجال إلاّ تحية له وهو عند ربه آمناً بفضل الزاد الذي قدمه من قول وعمل، وبفضل تقواه وطهارته وإخلاصه وشدة إيمانه، وما بذله من جهود متواصلة في سبيل الإسلام والقرآن، ولغة القرآن وحضارة القرآن.

فلينم قرير العين، وليطمئن بأن أبنائه وأحفاده وما أكثرهم سيواصلون دربه، وسيخلصون بإسلامها، وعروبتها، وأصالتها، ويتفانون في خدمتها مثلما خدمها هو وأخلص لها، وإنّا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. والله أكبر ولله الحمد[1].

نماذج من أعلام الفكر والثقافة

في منطقة جبال جرجرة

1) أبو محمد عبد السلام الزواوي: هو زين الدين عبد السلام بن عمر بن سيدي الناس الزواوي، ولد في بجاية عام 589 هـ (1193 م)، ونبغ في علوم الفقه، والقراءات، وعلوم اللغة والأدب، وعندما تقدمت به السن، رحل إلى المشرق، وتنقل بني الاسنكدرية، والقاهرة، ودمشق، التي اتخذها مقاماً له، وتولى هناك مشيخة الإقراء الكبرى بالتربة الصالحية، كما تولى قضاء المالكية، وتصدى للتدريس والتعليم، والإفتاء حتى توفي عام 681 هـ (1282 ـ 1283 م)، وسار في جنازته نائب الشام لاجين، مما يدل على المكانة العلمية التي كان يحتلها.

2) العالم يحيى بن معطى النحوي: ولد أبو الحسين زين الدين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي في قرية إفرا وسن بجبال جرجرة عام 564 هـ (1169 م)، ودرس في صغره على علماء المنطقة، وتفقه على المذهب المالكي، ثم رجل إلى المشرق واعتنق المذهب الشافعي ثم الحنفي، واستقر في دمشق الشام، ودرس على ابن عساكر، وغيره، حتى نبغ في علوم اللغة والأدب، وتصدى للتدريس في الجامع الأموي إلى أن استدعاه الملك العادل إلى مصر، فانتقل إلى القاهرة، وتصدى لتدريس علوم اللغة في الجامع الأزهر،

---

(1) حررنا هذا المقال وأنهيناه يوم الأربعاء 1 جمادي الأولى عام 1413 الموافق 28 أكتوبر 1992 ونشرناه في جريدة الشعب على ثلاث حلقات خلال شهر أوت 1993 بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوفاته.

حتى توفي عام 628 هـ (1231 م)، وخلف لنا من ورائه عدداً من التآليف في الأدب، والنحو، والعروض، وعلم القراءات، منها:

- الدرة الألفية في علم العربية، وموضوعها النحو، والصرف، بدأها بقوله:

يقــول راجــي ربــه الغفــور   يحيى بن معطى بن عبد الغفور

وقلده فيها ابن مالك في ألفيته النحو كذلك.

وقد طبعت ألفية ابن معطى في مصر، وفي ليبزق بألمانيا، وشرحها كثيرون منهم الشربيني.

- كتاب الفصول.
- كتاب العقود والقوانين في النحو.
- حواشي على أصول ابن السراج في النحو.
- شرح كتاب الجمل للزجاجي في النحو.
- شرح أبيات سيبويه، شعراً.
- نظم لكتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد.
- نظم كتاب في العروض.
- ديوان خطب.
- كتاب المثلث.
- نظم كتاب الصحاح للجوهري.

إن ابن معطي من المجتهدين في علوم قواعد اللغة والأدب، وبقيت كتبه في هذا الميدان مرجعاً أساسياً في كل الجامعات الإسلامية شرقاً وغرباً حتى القرن الحالي.

علماء أسرة بني غبرين:

أنجبت أسرة بني غبرين في منطقة العزازقة بجبال جرجرة عدداً لا بأس به من العلماء الأفاضل خدموا الفكر والثقافة العربية الإسلامية داخل الجزائر وخارجها منهم:

3) **أبو العباس أحمد الغبريني:** ولد عام 644 هـ (1246 ـ 1247 م)

وتعلم في صغره العلوم العربية، وحفظ القرآن الكريم، وتفقه في العلوم الدينية، والشرعية، والفلسفية، ودرس علوم الدراية والرواية، في بجاية، وتونس، وأورد في كتابه: عنوان الدراية قائمة طويلة للعلوم والمعارف، والكتب التي درسها، وللشيوخ والعماء الذين درس وتعلم عليهم، وشغل وظيفة التدريس في بجاية، وجامع الزيتونة بتونس، وتولى وظيفة القضاء في عدة أماكن ومنها بجاية.

وفي أواخر حياته ذهب في سفارة إلى تونس من قبل السلطان أبي البقاء خالد، إلى صاحب تونس محمد الواثق أبي عصيدة من أجل تمتين الروابط، وفي عودته من هناك إلى بجاية وشى به ظافر الكبير إلى سلطان بجاية، وأشاع لديه بأنه داخل سلطان تونس، وحرضه على غزو بجاية، فصدق أبو البقاء خالد هذه الوشاية، واعتقل الغبريني وسجنه وقتله عام 704 هـ (1304 ـ 1305 م)، وخلف لنا من ورائه كتاباً جليل القدر، في تراجم علماء بجاية وأحوازها سماه: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، طبعه المرحوم محمد بن أبي شنب في مطلع هذا القرن، وأعاد طبعه المرحوم رابح بونار عام 1981 م، وترجم فيه الغبريني لمائة وأحد عشر من العلماء، والأولياء، والفقهاء.

4) **ابنه أبو القاسم أحمد الغبريني**: الفقيه، والإمام، والخطيب، درس ببجاية، ثم بتونس على الفقيه ابن عبد السلام، وأضرابه، وتولى منصب الفتيا بتونس، ودرس عليه عدد من علماء تونس منهم ابن عمه القاضي أبو مهدي عيسى الغبريني، وأبو عبدالله القلشاني، وتوفي هناك بعد عام 770 هـ (1368 ـ 1369 م).

5) **وولده الآخر أبو سعيد أحمد الغبريني**: الفقيه، والخطيب، والمستشار، لعامة الناس، ولم يسجل كتاب السير تاريخ ميلاده ووفاته.

6) **أبو مهدي عيسى بن أحمد الغبريني**: قاضي الجماعة بتونس، وعالمها، وخطيبها، وحافظ الحديث فيها، قال عنه الشيخ عبد الرحمن

الثعالبي، بأنه أوحد زمانه علماً، وديناً، وقد ناب عن الشيخ الفقيه ابن عرفة في الخطبة بجامع الزيتونة عندما ذهب إلى الحج عام 972 هـ (1390 م) وتوفي عام 816 هـ (1413 ـ 1414 م).

7) **أبو محمد عبد الحق بن يوسف بن جماعة الغبريني**: فقيه، ولغوي، ونحوي، تولـى القضاء في بعض كور بجاية، ولم يسجل كتاب السير تاريخ مولـده ووفاته.

8) **الشيخ عيسى بن مسعود بن المنصور بن يحيى المنقلاتي**: فقيه، وأصولي، وأديب، ولد في بني منقلات عام 664 هـ (1265 م ـ 1266 م)، وتفقه في بجاية على أيدي الشيخ أبي يعقوب الزواوي، وحفظ مختصر خليل في مدة ثلاثة أشهر ونصف الشهر، كما حفظ موطأ مالك في الفقه وتنقل بين بلاده، والاسكندرية، والقاهرة، ودمشق، وتولى في هذه الأخيرة منصب قاضي الجماعة، ودرس في الأزهر الشريف، وقال عنه ابن فرجون، بأنه إمام في الفقه، انتهت إليه رئاسة الفتوى على مذهب مالك في الديار المصرية، والشامية.

ومن مؤلفاته في الفقه والتاريخ:

- شرح صحيح مسلم في الحديث سماه: إكمال الإكمال في 12 مجلداً.
- شرح مختصر ابن الحاجب في الفقه، في سبع مجلدات ولم يكمله.
- اختصر جامع ابن يونس في شرح المدونة.
- صنف في الوثائق والمناسك، وعلم المساحة، ومناقب مالك والشافعي.
- رد على ابن تيمية في مسألة الطلاق.
- ألّف كتاباً في التاريخ في عشر مجلدات وصل إلى النصف.
- شرح الرسالة العضدية في علم الوضع.

9) **الشيخ يعقوب بن يوسف المنقلاتي**: من أهل القرن السابع الهجري (13 م) درس وتفقه في بجاية، وتونس، وتضلع في الأصول، والفقه، والتوحيد، وتصدى للتعليم والتدريس والإفتاء في بجاية حتى توفي في بني

منقلات نفسها عام 690 هـ (1291م).

10) وإلى جانبه يمكن الإشارة كذلك إلى الفقيه والمحدث الشيخ عطية الله بن منصور الزواوي، من آيت إيراثن، والشيخ أحمد بن عيسى البجائي، شيخ عبد الرحمن الوغليسي، وأبي الحسن المنقلاتي، والشيخ أحمد بن عمر الدللسي، وأحمد الزروق بن مصباح، والحسين بن أعراب اليراثني من آيت إيراثن، وأحمد بن أياس الفليسي.

11) **الشيخ أحمد بن إدريس اليلولي البجائي**: من علماء القرن الثامن الهجري (14 م)، توفي بعدم عام 760 هـ (1359 م)، تضلع في العلوم والمعارف الإسلامية خاصة الفقه، وتصدى للتدريس والإفتاء في بجاية، ودرس عليه عبد الرحمن بن خلدون وأبوه يحيى، وعبد الرحمن الوغليسي، ألف عدة رسائل في أغراض شتى، ونقل عنه ابن زاغو التلمساني، ومحمد الشاذلي، ويحيى الرهوني، وابن عرفة التونسي، وابن سلامة البسكري، ودرس عليه عالم وهران ووليها، محمد بن عمر الهواري كذلك، وله زاوية صوفية مشهورة ما تزال إلى اليوم في مسقط رأسه بعرش إيلولن في دائرة العزازقة لأنه كان صاحب زاوية ومدرسة صوفية مشهورة بالمنطقة كلها التي تستقطبها في عصره مدينة بجاية ـ ويعتبر أحمد بن إدريس أحد رواد التصوف في الجزائر والمغرب الإسلامي بصفة عامة.

12) **الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي**: من علماء القرن الثامن الهجري (14 م)، ولد وتربى في بني وغليس على بُعْدِ حوالي ميل من قرية سيدي عيش جنوب بجاية على الضفة اليسرى لواد الصومام، تضلع في العلوم والمعارف العربية الإسلامية حتى أصبح إماماً فيها خاصة مادة الفقه، وتولى وظيفة الإفتاء والإمامة بالجامع الكبير في بجاية، ولقب بشيخ الجماعة، وتتلمذ على الشيخ ابن إدريس، ودرس عليه الخلدونيان، وأبو القاسم المشدالي، ومحمد بن عمر الهواري الوهراني، وعبد الرحمن الثعالبي.

ومن تآليفه المشهورة: منظومة الوغليسية في الفقه التي شرحها كل من

أحمد زروق البرنوسي، ومحمد السنوسي التلمساني، ويحيى العيدلي، وعبد الرحمن الصباغ، وقد توفي الوغليسي عام 786 هـ (1384 م)، ومن تلاميذه كذلك علي بن عثمان المنقلاتي.

ويمكن أن نضيف إليه الفقيه والخطيب، والمفتي الموثق، محمد بن إبراهيم الوغليسي كذلك، الذي له شهرة في كتابة الرسائل السلطانية وعقود التوثيق، لتعمقه في علم الفقه والحديث والفرائض.

العلماء المشداليون:

أنجبت قبائل إيمشدالن عدداً لا بأس به من العلمـاء والمفكرين، خدموا الفكر والثقافة العربية الإسلامية، وأثروها إثراء واسعاً، ومنهم:

13) **الشيخ عمران بن موسى المشدالي**: الذي ولد عام 670 هـ (1271 ـ 1272 م) بإمشدالن، ودرس بها، ثم رحل إلى بجاية، وبقي بها حتى حاصرها السلطان الحفصي، ففر إلى الجزائر، واستدعاه السلطان الزياني أبو تاشفين إلى تلمسان، وتفرغ هناك للتدريس والإفتاء، والإقراء حتى توفي عام 745 هـ (1347 ـ 1348 م). وترجم له أحمد المقري بتوسع في كتابه نفح الطيب وهو صهر وقريب أبي علي ناصر الدين المشدالـي كذلك، واشتهر بالتفقه، ولقب بالحافظ لتعمقه وتضلعه في علوم القرآن والحديث.

14) **الشيخ محمد بن أبي القاسم المشدالي**: إمام وخطيب، وفقيه ومفتي، درس ببجاية ثم انتقل إلى تونس حيث باشر التدريس والإفتاء، حتى توفي عام 866 هـ (1461 ـ 1462 م) واعتمد على فتاواه كل من الونشريسي صاحب كتاب المعيار، والمازوني، صاحب كتاب نوازل مازونة، ونقلا الكثير من فتاواهما عنه في كتابيهما.

15) **الشيخ محمد بن عبد الحق المشدالي**: فقيه ومحدث، رحل إلى المشرق في طلب العلم والمعرفة.

16) **الشيخ أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي**: فقيه ومحدث، وأصولي، ومفسر، أشاد به معاصره أحمد الغبريني، وأشاد بشروحه

وتأليفه في الفقه، والحديث، والمنطق، واللغة. رحل إلى المشرق وبقي بها نيفاً وعشرين عاماً، ولقي الكثير من علماء الإسلام واستفاد منهم، وأفادهم، وعندما عاد تصدق للتدريس حتى توفي عام 731 هـ (1330 ـ 1331 م).

17) أبو الفضل محمد المشدالي: ابن محمد بن أبي القاسم المشدالي ولد في أمشدالة عام 820 هـ (1417 م)، وحفظ القرآن الكريم في صغره، وأتقن القراءات السبع المشهورة وعلوم القرآن الأخرى، ونبغ في العلوم الدينية والعربية، كالفقه، والأصول، والبلاغة، والتوحيد، والنطق، وحفظ كثيراً من المتون، والشروح، ودواوين الشعر، وانكب على الدراسة، والتحصيل، بكل شغف لعلوم الحساب، والفلك، والمنطق، والعروض، والبيان، والفقه، والتوحيد، وغيرها.

ولم يكتف بما حصله في بلاده فرحل إلى تلمسان، ودرس على ابن مرزوق الحفيد علوماً أخرى مثل الجدل، والطب، والهندسة، ثم عاد إلى بجاية، وتنقل بينها، وبين عنابة، وقسنطينة وتونس، وقبرص، والقاهرة، وجدة، والمدينة، ومكة، وفي العودة من الحج جاور الأزهر، وتفرغ للتدريس فيه، وحظي بسمعة كبيرة، وتعرف عليه السخاوي، وأعجب به، وترجم له في كتابه: الضوء اللامع، وحكى عن دروسه، وغزارة علمه، وقد توفي في عينتاب بالشام عام 864 هـ (1459 ـ 1460 م) بعد أن عاد إلى هناك.

18) الشيخ محمد الصالح بن سليمان العيسي المشدالي: من شرفاء قرية العش بإمشدَّالَنْ درس في بلاده، وفي تونس، وعندما تضلع عاد إلى وطنه وتفرغ للتدريس في بني عيسى مدة إلى أن استدعاه الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشطوتي إلى زاويته بآيت إسماعيل ليساعده على التدريس والتعليم، والتأليف، والتربية، فتخرج عليه عدد كبير من طلبة العلم.

وألف عدة أعمال في اللغة والقواعد مثل:

- ميزان اللباب في قواعد البناء والإعراب.
- الدليل على الأجرومية.

ـ شرح على الأزهرية.
ـ حاشية على الصغرى في المنطق للأخضري سماها: المحتاج في شرح معاني السراج.
ـ رياض السعود في ما لله من العجائب والحدود.
ـ شرح على البردة للبصيري.
ـ شرح على السلم في المنطق للأخضري.

توفي عام 1242 هـ (1826 ـ 1827) ودفن إلى جوار شيخه محمد بن عبد الرحمن القشطولي.

19) ابنه أحمد الطيب بن محمد الصالح المشدالي: تتلمذ على والده، وألّف مثله عدداً من التآليف والشروح منها:
ـ الدرة المكنونة.
ـ تكملة الفوائد في تحرير العقائد على أم البراهين.
ـ مفتاح الأحكام، منظومة في ألف بيت شرحها تحت عنوان: تذكرة الأحكام.
ـ منظومة: نصرة الأخوان في إحجاج الفقهاء بالبرهان.
ـ مفيد الطلبة: شرح على متن الأجرومية في النحو.
ـ الفرق العصرية، وموضوعه أحكام الفتاوى.

20) ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء الشيوخ: يحيى بن أبي يعلى الزواوي، الذي ولد في بني عيسى، ودرس في قلعة بني حماد على ابن الخراط، وغيره، ثم رحل إلى المشرق، وتجول في عواصمه وحج ثم عاد إلى بجاية، وتصدى للتدريس والإفتاء، حتى توفي عام 611 هـ (1214 ـ 1215). وكان يطعم الفقراء، ويجمع لهم المال من الأغنياء، ولا يأكل إلا لحم السمك الذي يصطاده بنفسه.

21) العالم محمد بن عمر المليكشي: أدب وشاعر، وكاتب، وفقيه، من بني مليكش، درس في بلاده أولاً، ثم رحل إلى المشرق، ودرس بالإسكندرية، والقاهرة، وشغف بالرواية والتصوف. تولى خطة الإنشاء بتونس، وتحدث عنه

كل من أحمد المقري في كتابه نفخ الطيب، ولسان الدين بن الخطيب في كتابه: الإكليل الزاهر.

وقد زار الأندلس، وتغزل في فتاة بمدينة مالقه عند باب الملعب وقال:

لـم أنـس وقفتنـا ببـاب الملعـب — بين الرجا واليأس عن متجنب
وعدت فكنت مراقباً لحديثها — بـأذل وقفـة خـائـف متـرقـب
وتـدللـت فـذللـت بعـد تعـزز — يـأتي الغـرام بكـل أمـر معجـب
بدوية أبدى الجمال بوجهها — ما شئت من خد شريق مذهب

وقد توفي في غرة شهر محرم عام 740 هـ (جويلية 1339 م).

22) **الشيخ إبراهيم بن فايد الزواوي**: ولد عام 796 هـ (1393 ـ 1394) وحفظ القرآن الكريم في صغره، وتفقه على العالم والفقيه المنقلاتي علي بن عثمان، فقيه بجاية، ثم رحل إلى تونس، ودرس على الأبي، والزغبي، والقلشاني، والغرياني، وبعد ذلك رجع إلى جبال جرجرة وتفرغ للدراسة والتفقه على علمائها قبل أن يرحل إلى قسنطينة لنفس الغرض، وتضلع في علوم كثيرة، وكان من ضمن من درس عليهم بها العالم التلمساني المشهور ابن مرزوق الخطيب.

وخلال حياته العلمية تصدى للتدريس والإقراء، وألّف عدة كتب في أغراض شتى منها:

ـ كتاب في تفسير القرآن الكريم.
ـ شرح لمختصر خليل في الفقه سماه: تسهيل المقتطف.
ـ أزهار روض خليل في ثماني مجلدات.
ـ فيض النيل في جزئين، وهو شرح آخر لخليل.
ـ تحفة المشتاق في شرح خليل إسحاق، وهو شرح آخر في مجلة ضخم.
ـ شرح لألفية ابن مالك في النحو في مجلة واحد.
ـ تلخيص، وهو شرح لتلخيص المفتاح، في مجلد واحد.

وقد توفى ابن فايد عام 857 هـ (1453 م).

23) **الشيخ الفقيه والطبيب الددلسي**: أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عبد السلام الددلسي من ددلس، سكن بجاية وتفقه على شيوخها، وعلمائها، وتأدب، ودرس علم التاريخ والسير، وتولى القضاء في بعض كور بجاية، وتعلم الطب دراية، وعلماً. فكان يعالج الناس ويصف لهم الأدوية، ويولد النساء، كما كان أديباً ينظم الشعر وأورد له الغبريني عدة منظومات في كتابه: عنوان الدراية.

24) **الشيخ عبد الرحمن الثعالبي اليسرى**: ولد الشيخ عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي عام 786 هـ (1384 ـ 1385 م) في قرية يسر، إحدى قرى جبال جرجرة الجنوبية، ونشأ نشأة علم، وتقوى، وصلاح، ودرس في مسقط رأسه أولاً، ثم رحل إلى بجاية، ودرس على أجلة علمائها، أمثال علي بن عثمان المنقلاتي، وأبي القاسم المشدالي، وأحمد النقاوسي ثم رحل إلى تونس عام 809 هـ (1406 م)، ودرس على الأُبّـي، والبرزلي، وأبي مهدي عيسى الغبريني، وانتفع بعلومهم ومعارفهم. ورحل بعد ذلك إلى مصر عام 817 هـ (1444 م) ودرس وعلم، وانتفع به خلق كثير، وانتقل إلى مدينة إسنة في الجنوب المصري، لمدة سنة، ومن هناك رحل إلى مدينة بروسه التركية، وشاع أمره كشيخ لطريقة صوفية، وبنيت له زاوية ما تزال حتى اليوم على ما قيل محبسة عليه.

ومن هناك رحل إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج، ثم عاد إلى مصر، فتونس، عام 819 هـ (1416 م)، حيث لازمهُ ابن مرزوق الحفيد التلمساني فأجازه بثلاثة إجازات.

وقد تخرج على الشيخ الثعالبي كثيرون من العلماء الإعلام، كالشيخ محمد السنوسي وأخيه لأمه التالوتي التلمسانيين، وأحمد زروق البرنوسي، والمغيلي، وأحمد بن عبدالله الزواوي، وابن مرزوق الكفيف.

وكما كون الشيخ الثعالبي جيلاً من العلماء، والفقهاء، والمتصوفين، فإنه ألف عدداً كبيراً من الكتب أغلبها في علوم القرآن، بلغ عددها حوالي تسعين مخطوطاً منها:

ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، حققه ونشره الأستاذ عمار الطالبي.

- روضة الأنوار في معجزات النبي المختار.
- الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة، في جزء.
- رياض الصالحين في جزء.
- التقاط الدرر.
- الدر الفائق، في الأذكار والدعوات.
- العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة، في مجلد ضخم.
- شرح علي ابن الحاجب الفرعي، في سفرين جمع فيه نخباً من كلام ابن رشد، وابن عبد السلام، وابن هارون، وخليل، وابن عرفة، وجواهر المدونة، وعيون مسائلها.
- إرشاد السالك، في جزء صغير.
- الأربعون حديثاً النووية.
- المختار من الجوامع في محاذات الدرر اللامع.
- جامع الفوائد.
- جامع الأمهات في أحكام العبادات.
- كتاب النصائح.
- تحفة الأخوان في إعراب بعض آي من القرآن.
- الذهب الأبريز في غرائب القرآن.
- الإرشاد في مصالح العباد.

توفي الشيخ الثعالبي عام 875 هـ (1470 ـ 1471) وضريحه معروف في مدينة الجزائر.

25) **أبو مهدي عيسى الثعالبي**: ولد مثل عبد الرحمن الثعالبي في مطلع القرن الحادي عشر الهجري أو قبله بقليل، ودرس في مسقط رأسه أولاً، ثم التحق بمدينة الجزائر ليدرس على علمائها الأجلاء أمثال الشيخ سعيد قدورة وغيره، وحظي بتقدير من طرف رجال السلطة فضمه الداي يوسف باشا إلى مجلس خاصته.

وقد تنقل أبو مهدي عيسى بين عدة جهات من جباب جرجرة، والبابور، والبيبان، وقسنطينة، وبسكرة، وبعض قرى الزاب، واتصل بالشيخ عبد الكريم الفقون في قسنطينة.

ثم رحل إلى تونس، وبلاد المشرق عام 1061 هـ (1648 م) وحج وجاور مكة مدة سنتين، وتصدى للتعليم والإقراء، للحديث وعلوم اللغة والبلاغة والمنطق، وعلم الكلام، والأصول، والفقه، والتفسير، والتاريخ، وعلم التصوف.

وبسبب تبجره في العلوم والمعارف، وصفه البعض بعالم المغربين والمشرقين، ومسند الدنيا في زمانه، ودرس عليه عدد من العلماء منهم الرحالة المغربي العياشي الذي التقى به في مكة.

ومن مكة عاد أبو مهدي عيسى إلى مصر، واستقر بالقاهرة، عام 1064 هـ (1653 ـ 1654 م) عدة أعوام، ثم عاد إلى مكة واستقر بها حتى توفي عام 1080 هـ (1669 ـ 1670 م) وخلف وراءه عدة مؤلفات في مختلف الأغراض ودفن في مقبرة الحجون.

26) الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشطولي: ولد عام 1126 هـ (1715 م) بقرية آيت إسماعيل في فروحة بقشطولة على بعد خمسة عشر كلم من شرق ذراع الميزان بجبال جرجرة وزاول تعلمه الابتدائي على الشيخ ابن أعراب في قرية آبت إيراثن مع الشيخ امحمد بن بلقاسم التاجديوي، وكان الشيخ ابن أعراب قد زار مصر، وتعلم هناك بالأزهر، وتثقف، وعاد برصيد ثقافي كبير، وتصدى للتعليم والإقراء في موطنه، واحتشد حوله طلاب العلم والمعرفة من كل صوب، ومنهم محمد بن عبد الرحمن القشطولي، الذي شد الرحال بعد ذلك إلى المشرق وأدى فريضة الحج، ثم عاد إلى مصر، واستقر بالقاهرة مدة طويلة من الزمن اعتكف فيهاعلى الدراسة والتعليم، والتدريس، وتتلمذ على عدد من شيوخ الأزهر وأعلامه أبرزهم الشيخ محمد بن سالم الحفناوي، شيخ الطريقة الحفناوية الخلوتية، الذي أرسله إلى بلاد الهند، وبلاد السودان لينشر طريقته الصوفية فنجح في مهمته، وحصل على مبالغ مالية مهمة

من الأموال ساعدته بعد عودته إلى القاهرة، في أن يتزوج من سيدة حبشية مسلمة وهكذا سيفعل الشيخ عزيز بن الحداد فيما بعد أواخر القرن التاسع عشر. ويتزوج من حبشية بمكة كذلك.

وفي القاهرة التحق به أخوه الأكبر مُحَمَّدْ (بضم الميم) على أمل أن يستقر معه، ولكن الشيخ الحفناوي طلب منهما العودة إلى بلادهما «لنشر العلم، وتربية الخلق، بعد أن أذن له (محمد) بإعطاء الورد، والإذن بالخلوة، وألبسه الخرقة» فعادا إلى الجزائر حوالي عام 1183 هـ (1770 م)، واستقر الشيخ محمد في بجاية فترة قصيرة، كواعظ ومرشد في مسجد سيدي محمد أمقران، ثم انتقل إلى قرية الحامة قرب مدينة الجزائر، واستقر هناك وتصدى للتدريس والوعظ والإرشاد، فالتف حوله طلاب العلم والمعرفة بكثرة، فعلا صيته، واتسعت سمعته، فأهدى له أفراد عائلة بني عيسى قطعة أرض بنى عليها زاوية صغيرة اتخذها مركزاً لنشاطه الديني، والثقافي، ومقراً لإخوانه وأتباعه ومريديه.

ولم يمض نصف عام على استقراره بقرية الحامة هذه حتى أصبح يتمتع بسمعة كبيرة، وصار حديث الناس كلهم بعلمه الواسع، وثقافته الكبيرة، وفصاحته البالغ، وبأسرار طريقته الدينية الحفناوية التي ستحمل اسمه فيما بعد، وتعرف بالرحمانية.

فحقد عليه بعض رجال الدين والعلماء في مدينة الجزائر، الذين أثار غيرتهم، وحقدهم بسبب تفوقه، وسعة إطلاعه، وقدرته على استمالة الناس إليه، وكثرة الأتباع والطلاب الذي التفوا حوله، فاتهموه بالابتداع، والخروج عن مذهب أهل السنة والجماعة، واستعدوا عليه رئيس الدولة نفسه الداي محمد عثمان باشا فدعاه إلى المدينة، وجمع له كبار العلماء والفقهاء في الجامع الكبير، فحاوروه في مبادىء طريقته الدينية الجديدة، وأفحمهم جميعاً بالحجة والبرهان، وانتصر عليهم، واكتشف الداي نفاقهم، فاستضافه في قصره عدة أيام، وإخذ عنه ورد طريقته، وأصبح من أتباعه وإخوانه الأمر الذي لم يكن يخطر على باب خصومه الموتورين عندما أثاروه ضده.

ورغم انتصار الشيخ محمد بن عبد الرحمن على خصومه في هذه المناظرة الكبيرة، إلا أنه لم يطمئن لمستقبله في الحامة، فقرر مغادرتها والعودة إلى مسقط رأسه بآيت إسماعيل في قشطولة وأسس هناك زاوية جديدة له ما تزال قائمة حتى اليوم تفرغ فيها للتعليم والتدريس، وإعطاء وِرْدِ طريقته التي انتشرت في معظم أنحاء الجزائر، وقدر لها أن تكون من أبرز الطرق الصوفية التي ستواجه الاستعمار الفرنسي بعنف وتحاربه طوال القرن التاسع عشر، ومطلع العشرين.

وقد توفي الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشطولي في مسقط رأسه 1208 هـ (1793 ـ 1794 م)، ودفن بزاويته، وخلف من ورائه أربعة وعشرين مقدماً، وخليفة، موزعين على معظم أنحاء البلاد خاصة بالشرق الجزائري، والهضاب العليا.

27) **الشيخ محمد بن علي الشريف الشلاطي**: ولد بشلاطة في أيلولن عام 1238 هـ (1822 ـ 1823 م)، وتثقف في زاوية جده وأبيه محمد وَعْلِي أُومُوسَي، وتصدى هو اخر للتربية والتعليم وتحفيظ القرآن الكريم للأطفال الصغار، والكبار.

دور علماء بلاد القبائل في مقاومة الغزو الثقافي الأجنبي

إن دور علماء هذه المنطقة، في مقاومة الغزو الثقافي الأجنبي الفرنسي، عظيم جداً، ورائد بحق، ويتضح ذلك من الأشكال والأساليب التي اتخذوها، ومن صلابة المقاومة التي أبداها الشعب ضد الغزو والاحتلال العسكري، والديني، والثقافي، والاقتصادي.

لقد كان الغزو الفرنسي للجزائر، عسكرياً، ودينياً، وثقافياً واقتصادياً، في آن واحد، عمل من أول يوم على شطب ما في الجزائر الماجد والمشرق بجرة قلم، وطمس ومحو شخصيتها القومية، والدينية الإسلامية بصفة كلية، وذلك بالقضاء النهائي على الدين الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، وإحلال الدين

المسيحي، واللغة والثقافة الفرنسية، محلهما في إطار سياسة الإدماج، والفرنسة والتنصير.

وعلى هذا الأساس صادر جيش الاحتلال منذ السنة الأولى للاحتلال، أملاك الأوقاف الإسلامية، العقارية والمنقولة، واستولى على المساجد والزوايا، وهدم الكثير منها، وحول الباقي إلى كنائس واصطبلات، ومراكز إدارية، وضايق العلماء، ورجال الدين، فطرد الكثير منهم ونفاهم خارج البلاد، وقتل البعض، وسجن آخرين، وراقب الباقي، ومنعهم من ممارسة أنشطتهم الدينية، والثقافية، والاجتماعية.

ولكن الشعب الجزائري، ومن ضمنه سكان هذه المنطقة وعلماؤها، قاوموا هذه السياسة، بشدة وعنف، وأبدوا ما لا يتصور من الشجاعة، والبطولة، والفداء، في سبيل الحفاظ على الوجه العربي الإسلامي للبلاد، وحماية اللغة والثقافة العربية الإسلامية.

وقد تصدر هذه المقاومة رجال الدين، والعلم، والثقافة، وتفرغوا للتعليم والتثقيف، والتربية الخلقية، وتحفيظ القرآن الكريم للأطفال الشبان، وتدريس مختلف العلوم العربية الدينية والأدبية، وواجهوا سياسة الفرنسة والتنصير، والإلحاق، بما تستحق من الجهد وحاربوها محاربة شديدة، ومتواصلة بوسائل مختلفة، ومتنوعة.

فأسسوا ما لا يحصى من المعمرات، والزوايا، والمساجد، والكتاتيب القرآنية، والمدارس في كل القرى، والمداشر، والأعراش، كمؤسسات للتربية والثقافة، والتعليم والتكوين. وحشدوا إليها الشباب والكهول، من كل الأصقاع، ووجهوهم لحفظ القرآن الكريم، وتعلم العلوم العربية الدينية، والعلمية والأدبية وتصدوا بأنفسهم لهذه المهمة النبيلة والشاقة في آن واحد، ووفروا الإمكانيات المادية الملائمة للإنفاق على الطلبة من إيواء، وتغذية وألبسة وكتب وأغطية ومصاحف وكل ما يلزم للإقامة والتعلم، كما وفروا الأئمة والمدرسين للاختصاصات المختلفة، ووضعوا مناهج، ونظماً وبرامج للتعليم لا

تقل عن الأنظمة العصرية المطبقة عند الغير آنذاك وحرصوا على تطويرها باستمرار وكان لذلك نتائج طيبة وباهرة.

واستعملوا حتى الوسائل البسيكولوجية لإقناع الشبان، وذويهم بالإقبال على تعلم اللغة والعلوم والمعارف العربية، ومقاومة ثقافة المستعمر الغازية والمسمومة، ووضعوا للخريجين، إجازات تمنح لهم حسب تخصصهم، ودرجاتهم العلمية، ومستوياتهم الثقافية.

ولعل من أسباب نجاح علماء المنطقة في جهودهم الثقافية المكثفة، مساندة الشعب لهم ودعمه اللامحدود لأعمالهم، وطبيعة المنطقة الجبلية ذات التضاريس الصعبة، والمعقدة، التي حالت دون توطن العناصر الأوروبية بها، وكان ذلك رحمة وبركة على الدين والثقافة العربية الإسلامية.

إن المقاومة العسكرية المسلحة التي قادها الشعب، وعلماء المنطقة، هي في ذات الوقت مقاومة دينية، وثقافية، استهدفت الحفاظ على الدين الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، الذين يمثلان الشخصية والذاتية للبلاد والوطن، وهذا ما يفسر ارتماء أغلب إن لم نقل كل علماء المنطقة ومثقفيها في حركة الجهاد، والمقاومة المسلحة على مدن قرن وثلث القرن من حملة الاحتلال عام 1830 إلى معركة الاستقلال عام 1954 ـ 1962 م بأشخاصهم، وأموالهم وطلابهم، وأتباعهم، ومريديهم ومؤسساتهم ، وأوقاتهم، وأهاليهم.

ولعل قائمة الزوايا، والمعمرات، والكتاتيب القرآنية التي تعج بها المنطقة، طولاً وعرضاً في كل عرش، ودوار، وقرية حتى اليوم، خير دليل على جهود شعب هذه المنطقة في نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية، ومحاربة الغزو الثقافي الأجنبي الأوروبي الفرنسي، الاستعماري، وعلى جهود علمائها في ميدان التربية والتعليم، وحماية الوجه العربي الإسلامي لهذه البلاد.

ثمار جهود الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشطولي: لقد كانت لجهود محمد بن عبد الرحمن القشطولي، ثمار حسنة أشعت على معظم أنحاء الجزائر. فقد كون أجيالاً من طلب العلم، والفقهاء وحفاظ القرآن الكريم، وخلق حركة

ثقافية وفكرية، ودينية هامة، وأحيى ما اندثر، ووصل ما انقطع وكان لثقافته الأزهرية المتنورة، والمتطورة، دور رائد، في ذلك إذ أنه خلف أربعة وعشرين مقدماً، ووكيلاً وخليفة لطريقته الرحمانية، وحركته الثقافية النشيطة، انتشروا في معظم أنحاء البلاد لأداء نفس الدور، أبرزهم: الشيخ عبد الرحمن باش تارزي الذي كون لنفسه زاوية في مدينة قسنطينة، وخلف وراءه بعد وفاته تلميذه النجيب، الشيخ محمد بن عزوز الذي أسس زاوية رحمانية بواحة البرج قرب طولقة بالزيبان.

وعندما وصل جيش الاحتلال إلى هذه المنطقة عام 1843 م، فر إلى مدينة نفطة بالجريد التونسي، وأسس هناك زاوية رحمانية جديدة، أصبحت مأوى وملجأ لكل الفارين واللاجئين من المقاومين الجزائريين، إلى نهاية القرن تقريباً.

وقد خلف الشيخ محمد بن عزوز وراءه في الواحات والهضاب العليا الشرقية خمسة مقدمين كباراً أسس كل واحد منهم زاوية رحمانية خاصة به وهم:

- الشيخ علي بن عمر في طولقة، وخلفه الشيخ مصطفى بن عزوز.
- الشيخ عبد الحفيظ الخنقي في خنقة سيدي ناجي.
- الشيخ المختار بن خليفة في أولاد جلال.
- الشيخ مبارك بن قويدر.
- الشيخ محمد أوبلقاسم بشرفة الهامل قرب بوسعادة، وهو تلميذ الشيخ الصادق الرحماني زعيم ثورة 1858 ـ 1859 م بالخنقة وبسكرة.

أما في جبال جرجرة فأكبر خليفة له هو الشيخ علي بن عيسى والد فاطمة نسومر، ثم الحاج عمر، ثم الشيخ محمد بن محمد الجعدي من آيت يجعد، الذي أذن للشيخ محمد امزيان بن علي الحداد، بتأسيس زاوية صدوق الرحمانية.

والشيخ الحداد، أذن للشيخ الحاج علي بن الحملاوي في العثمانية بتأسيس زاوية العثمانية كذلك.

وكل هؤلاء الوكلاء والمقدمين، لعبوا دوراً هاماً وبارزاً في نشر الأخلاق

الدينية الفاضلة، والعلم والثقافة العربية الإسلامية، ومقاومة الثقافة الأجنبية الاستعمارية الغازية.

جهود الحاج عمر:

خلف الحاج عمر، الشيخ البشير، في رئاسة زاوية آيت إسماعيل منذ عام 1843 م، وتصدى للتعليم والتدريس، عدة سنوات، وتحصل عام 1849 على رخصة لجمع الأموال لصالح التعليم والتربية في الزاوية فاستغلها في دعم حركة الجهاد والمقاومة التي كان يخوضها السكان بزعامة محمد الأمجد بن عبد المالك المدعو بوبغلة عام 1851 م. ولذلك أوقفته السلطات الاستعمارية في نوفمبر من نفس العام، وجمدت نشاطه فاضطر أن يغادر إلى الجبال في سبتمبر 1853، وظهر في قرية بوعبد الرحمن في بني واسيف، وحاول أن يصلح الخلاف بين الصفين المتعارضين صف الباشاغاسي الجودي، وصف الشيخ الحسين نايت الحاج أعراب، ولم يفلح فانحاز ألى صف الأخير، وبعد مقتل بوبغلة في مطلع عام 1855، واصل الحاج عمر دعم خليفته في الجهاد، الشيخ أو أعراب، وشيخة أيسومار فاطمة نسومر، منذ عام 1856 م، وخاض عدة معارك ضد خصومه في بني واسيف، والمعاتقة، وآيت إسماعيل، وآيت ايراثن، وإغيل إيقوليمين وذراع الميزان، وايسومار، واشترك في معركة ايشريضن يوم 24 جوان 1857 قرب الأربعاء نايت ايراثن، واعتقل يوم 8 جويلية في بني عطاف ونفي إلى الخارج، فذهب إلى زاوية نفظة الرحمانية بالجريد، ومن هناك إلى الحجاز بصحبة أسرته وابن لبوبغلة، وبنت للشيخ مولاي إبراهيم، زوجهما من بعضهما بالمدينة المنورة، ونقل جهاده الفكري والديني والثقافة إلى هناك.

جهود الشيخ محمد الجعدي والشيخ الحداد

وعلى غرار الحاج عمر، فعل خليفته الشيخ محمد الجعدي، ووسع صلاته بسكان المنطقة ورتب الطلبة في زاويته، وأنفق عليهم وحث على تعليم وتحفيظ القرآن الكريم، ولعب دوراً هاماً بالمنطقة في ثورة 1871، وكتب الرسائل ووجه الرسل إلى الأعراش والأعيان يحث الناس على حمل السلاح

وجهاد أعداء الإسلام واللغة والثقافة العربية الإسلامية، وأشرف بنفسه على حصار ذراع الميزان، ونسق العمل مع الباشاغا محمد المقراني، وأخيه بومزراق، والشيخ الحداد، وابنيه: سي عزيز، ومحمد، وآخرين.

وقد ذكر الشيخ عزيز بأن زاوية أبيه في صدوق كانت تنفق على أكثر من خمسمائة طالب وتلميذ، يتعلمون القرآن والحديث، وعلوم اللغة والآداب العربية.

وكذلك الأمر بالنسبة لزاوية ابن علي الشريف في شلاطة، وزاوية ابن الموهوب في لعراش، وزاوية ابن إدريس، وزاوية اليلولي وغيرها، مما يصعب ويتعذر إحصاؤه.

وحتى الذين كانوا يعملون مع إدارة الاحتلال الفرنسي، لم يتخلفوا عن الركب، بل عملوا على حماية الدين، ونشر الثقافة العربية الإسلامية، وبذلوا كل ما يستطيعون من إمكانات في سبيل ذلك كالباشاغا ابن علي الشريف، شيخ زاوية شلاطة، والشيخ محمد السعيد بن زكرى مفتى الجزائر، والشيخ أبو يعلى الزواوي الذي عمل مع جمعية العلماء، ونشر عدة مقالات في جرائدها ومجلاتها، وكتب تاريخاً، عن بلاد زواوة نشره بالشام.

وكان قد اقترح على الشيخ طاهر الجزائري الزواوي كتابة هذا التاريخ في رسالة وجهها إليه بالقاهرة عام 1912، ولكن الشيخ طاهر كان مشغولاً بالقضايا القومية في المشرق ولم يكن بإمكانه القيام بذلك، أو أنه لم يقتنع باقتراحه.

هكذا يتضح مدى عظمة الدور الذي أداه ولعبه علماء هذه المنطقة قديماً وحديثاً في نشر الثقافة العربية والتربية والإسلامية، داخل الجزائر وخارجها وفي مقاومة الغزو الثقافي الأجنبي الأوروبي المسيحي، ومحاربة سياسة الإلحاق، والفرنسة، والتنصير.

الشيخ السعيد بن علي اليجري الزواوي

«سيرته بقلم ابنه محمد حسن عليلي»

مدير مدرسة البنات ببراقي

بسم الله الرحمن الرحيم[1] وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

لمحة عن حياة الأستاذ الشيخ السعيد اليجري الزواوي.

نسبه: هو السعيد بن علي بن أحمد بن محمد الثاني بن محمد الأول بن علي بن أحمد، بن علي بن موسى، وهذا الأخير هو الجد الأعلى لسكان قرية آيت سيدي أحمد وعلي المسماة باسم حفيده، وهو المؤسس الأول للقرية وللجامع الذي هو عبارة عن مدرسة قرآنية، ويدعى جامع الملوك «أي جامع الملائكة».

ولد الشيخ السعيد عام 1290 هـ «1873 م» بعد اندلاع ثورة المقراني والشيخ الحداد عام 1871 بنحو سنتين، في قرية سيدي أحمد وعلي المذكورة آنفاً، بعرش بني يجّر منطقة الزواوة، وحالياً ببلدية يوزڤان دائرة عزازقة، ولاية تيزي أوزو.

وكان والده الشيخ علي بن أحمد معلماً للقرآن الكريم، واللغة العربية، وإماماً، بمسجد قرية ايحطوسن، ثم انتقل إلى قرية كريمة في عرش بني أخلف بدائرة بوقاعة لنفس المهمة إماماً ومقاماً للقرآن الكريم، بأمر وتعيين من طرف الشيخ محمد امزيان الحداد وبطلب من سكان القرية المذكورة، ومن بينهم الشيخ أحمد بن ناصر القاضي بمدينة بجاية آنذاك.

دراسته: بدأ الشيخ السعيد دراسته الابتدائية على والده الشيخ علي

---

(1) تلقيت هذه النبذة يوم 25 فيفري 1989 عن طريق الشيخ عبدالله أُوشَرْعَ الله من سيدي موسى قرب الجزائر العاصمة. وقد أعدها له ابن المرحوم محمد حسن.

الزواوي، ثم التحق بزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي ليتابع دراسته الثانوية والعالية[1] سنة 1306 هـ «1888 م» وتلقى تعليمه على المشايخ والعلماء التالية أسماؤهم:

1) العلامة الشيخ الصادق بن زكريا البسكري الذي تولى وظيفة المفتي في مدينة تيزي أوزو، في حدود عام 1890، واستمر فيها حتى توفي عام 1926 أو 1927، ودفن بجوار الشيخ عبد الرحمن البلولي.

2) الصوفي المربي الشيخ الشريف آيت عيسى الجَنَّادي اليجري الذي ولد عام 1840 وتوفي في عام 1336 هـ «يناير 1918 م»، ودفن في قرية: تومليلين قرب مدينة ثيقزيرت.

3) العلامة المقـرء النحوي الشيخ الطاهر القيطوس الحضيري، المعروف بلقب «قام زيد»، والذي ولد في قرية أُولَخْضِيرْ قرب أقبو، وتوفي رحمه الله عام 1321 هـ «1903 م»، ودفن بمسقط رأسه، ورثاه تلميذه الشيخ السعيد اليجري «والدي» بقصيدة عثرت على بعض أبيات منها.

4) العلامة الأديب والفقيه الشيخ السعيد بن عبدالله بالحريزي الساطوري القلي من منطقة القلة والساطور شمال غرب مجانة، وقد درس عليه مادة الفقه الإسلامي في مسجد سيدي الصوفي بمدينة بجاية عام 1332 و1333 هـ «1914 ـ 1915 م» الذي كان فيه شيخاً وإماماً وقد توفي بعد ذلك بسنوات، ولم نتعرف بعد على تاريخ ذلك.

5) العلامة المحدث، خاتمة حفاظ أهل المغرب، الشيخ محمد سعيد بن زكريا المفتي المالكي بالجامع الكبير بالعاصمة، والأستاذ بالمدرسة العليا الثعالبية، الذي توفي عام 1333 هـ «1914 م»، وقد درس عليه علم الكلام «التوحيد» الذي كان يدرسه باستمرار في شهر رمضان.

6) العلامة المدقق ذو التآليف العديدة الشيخ عبد القادر المجاوي أمام

---

(1) هذه الزاوية حولت إلى معهد لتكوين الأئمة والإطارات الدينية، وبدأ التكوين بها والتدريس في سبتمبر 1984 ووقع تدشينها يوم الاثنين 01 جويلية 1985 م.

مسجد سيدي رمضان، وأستاذ المدرسة الثعالبية بالعاصمة وتوفي رحمه الله عام 1333 هـ «1914 م».

7) الشيخ محمد وَاعْمَارَهْ الأُوزَلاَّقني من قرية أُوزَلاَّقَنْ.

8) الشيخ السعيد البهلولي الورثلاني المتوفي في 9 رمضان 1371 هـ «01 جوان 1951 م».

وقد تبادل الشيخ السعيد «الوالد» عدة رسائل مع صديقه الشيخ السعيد أبي يعلى الزواوي حين كان مقيماً بدمشق في سوريا، ومصر، حول كثير من المواضيع والأحداث العلمية والفكرية وغيرها، وكان الشيخ السعيد اليجري يحفظ القرآن حفظاً جيداً، ويتلوه ويجوده بالروايات السبع، والعشر، ودرس النحو وأتقنه اتقاناً جيداً حتى لقنه طلبة العلم في عصره بالزواوة، بلقب: «قادوم النحو» كما درس علم الكلام «السنوسية، وجوهرة التوحيد، وبدء الأمالي، وكتب أخرى للغزالي وغيره». ودرس الفقه، والأصول، والمنطق، والرياضيات، وله إلمام وإطلاع واسع بالتاريخ والجغرافية، والاقتصاد الدولي، والسياسة الدولية، ويتمتع بإلمام واسع في الفقه المقارن، ويحفظ عدة متون عن ظهر قلب.

تعليمه: تولى الشيخ السعيد اليجري مهنة التعليم في عدة زوايا منها:

1) زاوية سيدي أحمد أو يحيى بآملو قرب أقبو، وهي أول زاوية بدأ فيها التعليم.

2) زاوية سيدي يحيى بن موسى الوغليسي قرب سيدي عيش.

3) زاوية سيدي سعيد المسيسني بصدوق.

4) زاوية زرعة بأولاد حال قرب إلماين، وأمزرراق.

5) زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي بعزازقة.

6) زاوية سيدي محمد بن مالك بعزازقة.

7) زاوية ابن علي الشريف بشلاطة.

8) زاوية سيدي موسى ثينيدار قرب سيدي عيش.

9) زاوية سيدي بويحيى ببني دوالة في تيزي أوزو.

10) زاوية سيدي عمرو الحاج ببني يجر، بعزازقة، وهي آخر زاوية علم بها حتى توفي رحمه الله.

نشاط الشيخ السعيد وعمله الإصلاحي:

كان الشيخ السعيد لا يفتأ عن دعوة الناس إلى الطريق المستقيم، وكان منزله كعبة لطلبة العلم، والمعرفة، والدين، وملاذاً للمستضعفين والمظلومين، يحكم بالعدل بين المتخاصمين، ويفصل بينهم بالحسنى، والتراضي، ويعلم باستمرار حيثما وجد، مستقراً أو راحلاً، ويقضي جل أوقاته في التدريس والتعليم، والوعظ والإرشاد، والفصل بين الناس في مشاكلهم، والدعوة إلى طريق الهدى، والدين.

وتخرج على يديه عدد كبير، قد لا يحصى، من حفظة القرآن الكريم، وطلبة العلم، والشيوخ الكبار، شغلوا مختلف المناصب.

وكان رحمه الله سريع البديهة، حاضر الجواب، قوي الحجة، واسع الخيال، كريماً، بشوشاً، واسع الاطلاع، عميق التفكير، قوي الذاكرة، كثير الحفظ، والاستيعاب، وهو في الحقيقة، سابق لأوانه وعصره.

وقد زاره إلى منزله علماء أجلاء من بينهم الشيخ أحمد بن عليوة مؤسس الطريقة العلوية في حدود 1922 م، والشيخ عبد الحميد بن باديس في سنة 1925 م.

وكان اهتمامه منصباً أكثر على الأمور التالية:

- تحفيظ القرآن الكريم وتجويده.
- نشر اللغة العربية وتعليمها، وتعميمها.
- الدعوة إلى اتباع تعاليم الإسلام، وهداية الناس إلى الطريق المستقيم.
- نصرة الحق، وإعانة الضعيف، وردع الظالم.

ـ الإصلاح بين الناس وإزالة الخلافات بينهم، ورد المظالم.

ولقى في سبيل هذا عناء كبيراً ولكنه صبر، وتحمل، ولم يكن يتسامح ولا يقبل الجدال والمناقشة، والتنازل في الأمور الثلاثة التالية:

الدين، واللغة العربية، والوطن.

وفاته: توفي الشيخ السعيد اليجري رحمه الله مساء الجمعة 5 محرم الحرام 1371 هـ «5 أكتوبر 1951 م»، وحضر جنازته جمهور غفير من مواطني وطن بني يجر، وعدد كبير من طلب العلم، وابنه بعض طلبته المتخرجون عليه بكلمات مؤثرة ومنهم:

1) الشيخ أبو القاسم بن عمر الحيطوسي.
2) الشيخ محمد أمزيان بن أحمد المجاهدي اليلولي.
3) الشيخ عمر البسعي اليجري.
4) الشيخ الشريف محمدي اليجري.
5) الشيخ عمر العنّابي اليلولي.

ودفن رحمه الله في مقبرة قرية آيت سيدي أحمد وعلي ببلدية يوزقان، دائرة عزازقة، ولاية تيزي أوزو.

وخلف وراءه خمس بنات، وابنين هما: محمد حسن كاتب هذه اللمحة، وعبد الرحمن، وكلهم أحياء بنون وبنات.

ملاحظة: هذه لمحة مختصرة كتبتها لنفسي، ولأخي المحب الصديق الشيخ عبدالله شرع الله النازل والمقيم حالياً بمدينة سيدي موسى ولاية البليدة، وذلك بطلب منه، إذ هو أحد الطلبة المجتهدين الذي أخذ ما تيسر من العلم على المترجم له، وفقنا الله ما فيه سعادة الدارين آمين.

تحريراً في برّاقي يوم الجمعة 26 جمادي الثانية 1409 «3 فيفري 1989 م» أعده وكتبه محمد حسن بن الشيخ السعيد اليجري.

تعريف بكاتب الموضوع

الاسم: محمد حسن

اللقب: عليلي

تاريخ الميلاد: صباح الخميس 27 رمضان المعظم 1350 م، الموافق 4 فبراير 1932 م ـ الساعة الرابعة صباحاً

مكان الميلاد: بقرية آيت سيدي أحمد بن علي ببني يجر دائرة عزازقة، ولاية تيزي أوزو.

ابن: الشيخ السعيد بن علي بن أحمد.

الحالة العائلية: متزوج وأب لأربعة ذكور، وخمس بنات.

الوظيفة: عملت مدرساً للغة العربية، وإماماً واعظاً في عدة أماكن من سنة 1952 إلى 1962.

خلال ثورة التحرير: عملت موجهاً، ومدرساً، وقاضياً وإماماً (بدون شهادة النضال طبعاً).

بعد الاستقلال (1962): انخرطت في سلك التعليم، عملت مدرساً، ومديراً لمؤسسة تربوية.

من شيوخي: ـ السيد الشيخ محمد أرزقي الأمعوشي (شهيد)

ـ السيد الشيخ محمد بن عمر اليجري (شهيد)

ـ السيد الشيخ محمد بن هارون الأفليسي

ـ السيد الشيخ محمد امزيان أبي يعلى الزواوي

ـ والدي الشيخ السعيد بن علي اليجري

ـ السيد الشيخ أرزقي أبي يعلى الزواوي

دخلت إلى معهد التاريخ بجامعة الجزائر إلا أن ظروفي الصحية لم تسمح لي بمواصلة الدراسة.

براقي، في 8 ماي 1991 م.

محمد حسن عليلي

الشيخ أرزقي الشرفاوي الغبريني الأزهري

(1302 ـ 1964 هـ/ 1884 ـ 1944 م)

ولد الشيخ أرزقي الشرفاوي عام 1302 هـ الموافق لعامي 1884 ـ 1885 م. بقرية الشرفاء جنوب مدينة العزازقة بحوالي ثلاث كيلومترات، وينحدر من عائلة ابن القاضي التي كانت تحكم إمارة كوكو بجبال جرجرة. ولعب زعيمها آنذاك الحسن بن القاضي دوراً مع عروج وخير الدين في مطلع القرن 16 م وقاد الوفد الجزائري الذي أرسله خير الدين إلى السلطان العثماني سليم الأول ليقترح عليه ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية ونجح في مسعاه، ووافق السلطان على ذلك وأرسل مع الوفد تعييناً لخير الدين بايلرباي على الجزائر. وكمية من الأسلحة ومجموع من الجنود الأتراك ليساعدوه على حفظ النظام، وتم ذلك عام 1518 م والذي تلاه. ثم غير الحسن بن القاضي رأيه، وحارب خير الدين مدة من الزمن قبل أن يحصل ضده انقلاب يعيد خير الدين إلى الجزائر. وعائلة ابن القاضي هذه لها فروع في قرية جمعة الصهريج، وبني يتوراغ وبني وقنون، وفي تونس، وتولى بعض أفرادها القضاء في بجاية.

تم تسجيل الشيخ أرزقي في سجل الحالة المدنية على الشكل التالي بالعزازقة: قازو أرزقي بن محند، ابن علي بن سي محند، أُوقَازُو. وعندما كبر أدخله أبوه إلى زاوية القرية التى تدعى: معمرة سيدي بهلول. وما تزال حتى الآن قائمة، وعامرة، وذلك لحفظ القرآن الكريم. وبعد مدة انتقل إلى زاوية سيدي أحمد بن إدريس اليلولي البجائي بعرش يلولة. حيث أتم هناك حفظ القرآن الكريم حفظاً جيداً وأتقن رسمه وتجويده. ثم انتقل إلى زاوية سيدي عمر الحاج التي أسست في القرن العاشر الهجري (16 م) وما تزال قائمة حتى اليوم وعامرة ببني يجّر. واعتكف هناك على دراسة علوم اللغة العربية كالنحو والصرف، وعلوم الفقه، والحديث والتوحيد، والفلك، والحساب. ومن هناك

انتقل إلى مدينة الجزائر ليدرس على مشاهير علمائها أمثال: الشيخ عبد القادر المجاوي، ومكث بها حوالي عامين تزود فيها بمعارف كثيرة ووسع معلوماته وتعرف على الكثير من الطلاب والعلماء والفقهاء.

رحيله إلى مصر:

ويبدو أن ما تحصل عليه من العلوم والمعارف لم يشبع رغبته، فعزم على السفر إلى المشرق، والتحق بالأزهر الشريف في مصر، وانخرط في سلك طلبته، واعتكف على الدراسة إلى أن نال شهادة العالمية عام 1339 م (1921 م)، وبقي هناك يبحث وَيَدْرُسُ، ويُدَرِّسُ أكثر من عشر سنين.

عودته إلى الوطن:

وفي عام 1351 هـ (1933 م) عاد إلى الجزائر، واستقبله إخوانه وأصدقاؤه، ورجال العلم، بكل حفاوة، ونصحه بعض الناس بأن يلتحق بقريته حتى يتجنب مضايقة الإدارة الاستعمارية له، ولعله السيد أحمد بن زكريا كما قال السيد محمد حسن عليلي، وعرض عليه طلبة زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمان اليلولي أن يستقر عندهم لينتفعوا بعلمه فلبّي رغبتهم، ولم يخيب آمالهم وانتقل إليها وبقي هناك إلى عام 1355 هـ (1936 م). ثم انتقل لمدة عام واحد إلى زاوية سيدي موسى الوغليسي بقرية ثينيدار، قرب قرية سيدي عيش. وعاد مرة أخرى إلى زاوية الشيخ بن عبد الرحمن بسبب إلحاح طلبتها عليه. وواصل تدريس علوم اللغة والآداب، والفقه، والهيئة، ورسم القرآن، وتجويده، والحساب، والتوحيد، وغيرها. وتخرجت على أيديه أجيال من الطلبة، والفقهاء والمعلمين الذين انتقلوا إلى الزيتونة، وقسنطينة لمواصلة الدراسة.

بعض آثاره:

نشر الشيخ أرزقي مجموعة من المقالات في جريدة البصائر الأسبوعية في سنوات 1936 ـ 37 ـ 38 حول رؤية هلال رمضان، والأعياد الدينية كما نشر في مجلة لواء الإسلام المصرية عامي 1937، 38، حول نكاح الربيبة الذي أثار

خلافاً حاداً بين علماء المنطقة في الجزائر، ولدى آخرين في الخارج.

ويذكر الشيخ محمد حسن عليلي بأنه يقال إن الشيخ أرزقي ألّف بعض الكتب ومنها:

1 ـ إرشاد الطلاب إلى ما في الآيات من الإعراب.

2 ـ بغية الطلاب في علم الآداب.

3 ـ الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزواوية.

4 ـ الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية.

5 ـ الخلاصة المختارة في فضلاء الزواوة.

ولكنها كلها مفقودة، وغير معروفة، ويقال إنها ضاعت بعد وفاته.

وفاته: توفي الشيخ أرزقي الشرفاوي بمنزله في الشرفاء يوم الأربعاء 12 محرم الحرام 1364 هـ الموافق ليوم 27 ديسمبر 1944 م، رحمه الله وخلد مثواه(1).

الشيخ محمد أمزيان بن أحمد المجاهدي اليلولي(2)

ولد عام 1885 بقرية ألمة قرب مدينة أقبو، وبدأ حفظ القرآن الكريم على والده وبعض شيوخ القرية، ثم ألحقه والده بزاوية شلاطة للدراسة والتحصيل، فدرس على الشيخ الطيب المبارك اليعلاوي، وعاصر الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان طالباً هو الآخر هناك ومن شلاطة انتقل إلى زاوية أمالو، ودرس على الشيخ السعيد اليجري، النحو، وفن التجويد ودرس الفقه والأصول على الشيخ الحسن أو خالد، وبعد تخرجه علم في الزوايا التالية:

(1) اعتمدنا في هذا الترجمة على الكراسة التي أعدها لنا خصيصاً الشيخ الفاضل محمد حسن عليلي، وأرسلها لنا خلال شهر ذي القعدة 1411 هـ الموافق لشهر جوان 1991. فشكراً له جزيلاً.

(2) أعد لنا هذه الترجمة الشيخ محمد حسن بن الشيخ السعيد اليجري بطلب منا.

ـ زاوية سيدي سعيد المسيسي الصدوقي.
ـ وزاوية سيدي يحيى أوموسى الوغليسي.
ـ وزاوية سيدي عمر والحاج اليجري.
ـ وزاوية ابن علي الشريف بشلاطة.

ثم اشتغل مدة طويلة كاتباً إدارياً في دار ابن علي الشريف، خلفاً لوالده الذي كان يشتغل في نفس الوظيفة، وذلك من بداية القرن إلى عام 1947 م، حيث أحيل على التقاعد، وفرنسة تلك الإدارة.

يمتاز الشيخ امزيان بكثرة الحفظ، وسرعة الفهم، وجودة الخط، وسعة الباب ويميل كثيراً إلى المواد الأدبية كالقصص، والألغاز، والنكت، وتوفي يوم 19 فيفري 1960 م.

الشيخ عمر العنابي اليلولي(1)

من مواليد بداية هذا القرن على ما يبدو، بدأ دراسته الأولى في قرية تيفريت القريبة من مدينة أقبو، ثم أدخله والده إلى زاوية أمالو، العيدلية، ودرس على كل من:
ـ الشيخ السعيد اليجري.
ـ والشيخ الطيب شنتير البوجليلي.
ـ والشيخ الطيب الحسن أوخالد العيدلي.

وبعد تخرجه عين إماماً في مسجد أقبو منذ عقد الثلاثينات وعكف على الوعظ والإرشاد والإصلاح بين الناس، والفتوى، وتعليم القرآن الكريم، ويمتاز بجودة الخط، وسلاسة التعبير، وقوة الحجة، وسعة الإطلاع، وسرعة الحفظ والفهم، وخفة الروح، ونشر عدة مقالات في جرائد: لسان الدين، والنجاح، وصوت المسجد، وله عدة أجوبة فقهية حول مسائل مختلفة وله محاولات في

(1) أعد لنا هذه الترجمة الشيخ محمد حسن بن الشيخ السعيد اليجري بطلب منا.

نظم بعض الأشعار منها نظمه في رثاء المرحوم الشيخ السعيد اليجري.

كان بإمكانه أن يتفوق في الكتاب، ونظم الشعر، لو تفرغ للتدريس ولكن وظيفة الإمامة ألهته عن مهنة التدريس، وقد قتله المجاهدون عام 1956 بتهمة امتناعه عن التسليم والاستقالة من منصبه كما طلبت جبهة التحرير الوطني.

سيرة الشيخ محمد الصالح الصديق بخط يده

ولد الشيخ محمد الصالح بن الشيخ البشير الصديق سنة 1925 بقرية أبزار في ولاية تيزي أوزو. وحفظ القرآن على والده بنفس القرية حيث كان أبوه إماماً، كما حفظ أكثر من عشرين متناً، وعشرين قصيدة شعرية لفحول الشعراء العرب.

وبعد ذلك التحق بزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي التي كان يدرس بها الشيخ المولود الحافظي الأزهري، والشيخ أرزقي الشرفاوي الأزهري كذلك. ودرس بها العلوم العربية والفقهية، ثم أصبح يدرس بها.

وفي عام 1946 سافر إلى تونس صحبة زميله الشيخ محمد نسيب، للالتحاق بجامع الزيتونة، فألقي القبض عليهما وأوديا السجن بمدينة تبسة مدة 19 يوماً، وعند إطلاق سراحهما تسربا ليلاً إلى تونس، والتحق الشيخ محمد الصالح بالزيتونة وتحصل منها على شهادة التحصيل عام 1951، فعاد إلى الجزائر، وعين أستاذاً في زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي التي سبق أن درس فيها، وتعلم.

ومنذ سنة 1948 بدأ ينشر في الصحف بعض القصص والمقالات القصيرة، في تونس، وألف عام 1951 كتاب أدباء التحصيل من أربعة أجزاء، طبع منها جزأين. وعندما اندلعت ثورة أول نوفمبر 1954 التحق بها، وكلف بجمع الأموال، والأسلحة وفي عام 1956 التحق بتونس عن طريق باريس، وعين في مصلحة الصحافة والإعلام لجبهة التحرير الوطني، وفي عام 1957 كلف مع غيره بالالتحاق بصحراء فزان الليبية للقيام بأعمال الدعاية للثورة، وفي

حتى عام 1969، ثم التحق بوزارة الشئون الدينية ليعمل في عدة مصالح، وفي عام 1974 التحق بجامعة الجزائر وحصل على شهادة الليسانس في الفلسفة عام 1979، وشغل عدة وظائف في وزارة الشؤون الدينية، وشارك في تحرير مجلتي، الأصالة، والرسالة، وأصدر كتابين هما: صور من الواقع، وابن سكران، وله كتاب آخر تحت الطبع بعنوان، زوايا القرآن وتحصين الذات الإسلامية، وله مشاريع أخرى طي الإنجاز.

قائمة الزوايا والمعمرات في جبال جرجرة وحوض الصومام

1 ـ معمرة سيدي علي بن يحيى في بني كوفي.

2 ـ معمرة سيدي على أو موسى في المعاتقة.

3 ـ معمرة سيدي عمر الشريف على ساحل دللس.

4 ـ معمرة سيدي عمر الحاج على ساحل دللس.

5 ـ معمرة سيدي منصور بالعزازقة.

6 ـ معمرة سيدي أحمد بن إدريس بعرش إيلولن في دائرة العزازقة.

7 ـ معمرة سيدي عبد الرحمن اليلولي.

8 ـ معمرة الشرفة نبهلول قرب العزازقة.

9 ـ معمرة وزاوية محمد بن عبد الرحمن القشطولي في قشطولة.

10 ـ معمرة وزاوية شلاطة بيلولة أُومَالُو لعائلة ابن علي الشريف.

11 ـ معمرة لعراش بيلولة أومالو كذلك.

12 ـ زاوية سيدي موسى نتنذار فوق سيدي عيش.

13 ـ معهد ثاغراست أو زاوية أوحسون.

14 ـ زاوية سيدي حسن بصمعون في بني وغليس.

15 ـ زاوية أيزروقن في قرية ايزروقن بعرش بني وغليس.

16 ـ هذا إلى جانب أغلب المساجد الكبرى والكتاتيب القرآنية.

بعض المراجع ذات الصلة بالموضوع

(1) أبهلول (أبو علي بن الحسن بن علي المجاجي): العقد النفيس في بيان علماء وشرفاء غريس (مخطوط في بداية القرن 11 هـ وأواخر القرن 16 م).

(2) الإفراني أو اليفريني (محمد الصغير):

أ ـ صفوة من انتشر في أخبار القرن الحادي عشر م.خ.ع. الرباط، د 671.

ب ـ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ترجمة هوداس إلى الفرنسية عام 1888 م (منشورات أرنست لوروكس).

(3) الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى. 3 أجزاء (تونس 1971، 1972، 1974 م).

(4) ابن أبي أصيبعة (أحمد الخزرجي): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (بيروت ـ دار الحياة 1965 م).

(5) بدوي (عبد الرحمن): مؤلفات ابن خلدون، (القاهرة 1962 م).

(6) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف): كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها. 2 أجـ (مدريد 1882 ـ 1883 م) (القاهرة ـ 1962 م).

(7) بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة فارس (نبيه أمين) والبعلبكي (منير) ط 2 (بيروت 1974 م).

(8) بوعزيز (يحيى):

أ ـ ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها. مجلة الأصالة، أعداد: 75، 76، 77، 78، (الجزائر ـ نوفمبر، ديسمبر 1979، جانفي ـ فيفري 1980) ص 113 ـ 144.

ب ـ جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، الأصالة، عدد 19

(الجزائر 7 مارس، أبريل 1974 م) ص 287 ـ 301.
ج ـ أعلام الفكر والثقافة بمدينة تلمسان ووهران ومعسكر. (مخطوط).
د ـ مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (الجزائر د.م.ج 1991 م).
هـ ـ مركز بجاية الحضاري، ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا. مجلة الحضارة الإسلامية. العدد الأول. (وهران 1414 هـ/ 1993 م) ص 1 ـ 19.
(9) التميمي (محمد بن أحمد): كتاب طبقات علماء إفريقيا (الجزائر 1332 هـ/ 1914 م).
(10) التنبكتي، (أحمد بابا): نيل الابتهاج، بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة/ 1351/ 1923 م).
(11) التنسي (محمد بن عبد الجليل): نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان (مخطوط).
(12) التيجاني (أبو زيد عبد الرحمن): عقد الجمان، النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس (مخطوط) وهو رجز شرحه تلميذه محمد الجوزي بعنوان: فتح الرحمن في شرح عقد الجمان.
(13) الجيلالي (عبد الرحمن): تاريخ الجزائر العام (الجزائر 1988) ط 2 ـ 4 أجـ.
(14) ابن حجر العسقلاني، (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ط 1 (حيدر أباد ـ 1348 هـ) ط 2 تحقيق محمد عبد الحق (القاهرة ـ 1966 م).
(15) حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (اصطنبول 1941 ـ 1943 م) 2 أجـ. (طهران 1967 م/ 1387 هـ).
(16) ابن حواء (الشيخ محمد): سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان (مخطوط).
(17) الحميري (أبو عبدالله محمد): الروض المعطار، (القاهرة ـ 1948 م)
(18) ابن خلكان (شمس الدين): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة ـ 1948 م) 6 أجـ، ط 2 تحقيق إحسان عباس (بيروت 1971).
(19) الخشني (أبو عبدالله محمد): قضاة قرطبة وعلماء إفريقيا (القاهرة 1372 ـ

الجزائر 1914 م).
(20) ابن خلدون (عبد الرحمان):
أ ـ كتاب العبر، جـ 7 (بيروت 1971 م).
ب ـ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً. تحقيق وتعليق ابن تاويت (محمد الطنجي) (القاهرة 1951 م).
(21) ابن خلدون (يحيى): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر ألفريد بل. 2 أجـ، (الجزائر ـ ج 1 ـ 9041 جـ 2 ـ 1913 م) ط 2 ج 1 تعريب وتحقيق عبد الحميد حاجيات (الجزائر 1980 م).
(22) ابن أبي دينار (محمد القيرواني): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس. تحقيق محمد شماخ (تونس ـ 1967 م).
(23) الزركشي (محمد بن إبراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. ط 2 تحقيق محمد ماخور. (تونس 1966 م).
(24) الزركلي (خير الدين): الأعلام (القاهرة 1954 ـ 1955 م) 10 أجزاء.
(25) ابن الزيات (يوسف التادلي): التشوف إلى معرفة رجال التصوف نشر أدولف فور (الرباط 1958 م).
(26) الزياني (محمد بن يوسف): دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. تقديم وتعليق المهدي البوعيدللي (الجزائر 1978 م).
(27) السخاوي (محمد): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة 1354 ـ 1355 هـ) 12 أجـ. ط 2 (بيروت بدون تاريخ) 12 جـ.
(28) سعد الله (د. أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، 2 أجـ (الجزائر 1982 م).
(29) ابن سعد (التلمساني) روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين (مخطوط) عندنا حققناه وقدمناه للطبع.
(30) أبو العرب (محمد القيرواني): طبقات علماء إفريقيا وتونس، تحقيق علي النشابي، وزميله (تونس 1968 م).
(31) عنان (محمد عبدالله): ابن خلدون حياته وتراثه الفكري (القاهرة ـ 1938 م).
(32) ابن عسكر (محمد): دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (الرباط ـ 1397 هـ ـ 1977 م).
(32 م) ابن عبدالباري (الشيخ محمد): كتاب الشهائد والفتاوى فيما صح لدى

العلماء من أمر الشيخ العلاوي. (تونس ـ المطبعة التونسية نهج سوق البلاد عدد 57) تونس ـ 1343 هـ / 995 إلى 259 ص.
(33) الغبريني (أبو العباس أحمد): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر 1971 م).
(34) ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (القاهرة ـ 1954 م) 2 أجـ. ط 2 (1966 م).
(35) فيشل (والتر): لقاء ابن خلدون لتيمورلنك. ترجمة توفيق (محمد) (بيروت بدون تاريخ).
(36) القادر (محمد بن الطيب):
أ ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. (فاس 1310 هـ ـ 1892 م).
ب ـ مستودع المواعظ والعبر في أخبار أعيان أهل المائة الحادية والثانية عشر (مخطوط).
(37) ابن القاضي (أحمد الفاسي): جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس (فارس 1309 هـ).
(38) ابن قنفذ (أحمد الخطيب القسنطيني):
أ ـ الوفيات. تحقيق هنري بيريز ـ الجزائر (بدون تاريخ) ط 2، تحقيق عادل نويهض (بيروت 1971 م).
ب ـ أنس الفقير وعز الحقير. تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور. (الرباط ـ 1965 م).
(39) محمد (الأمير): تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأبار الجزائر (الإسكندرية ـ 1903 م) 2 أجـ.
(40) المحبي (محمد): خلاصة الأثر فى أعيان القرى الحادي عشر (القاهرة) (1284 هـ/ 1867 م).
(41) ابن مريم (محمد المليتي): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. تحقيق ابن أبي شنب (الجزائر 1908 م).
(42) ابن مرزوق (محمد الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق فيغيرا (د. ماريا خيسوس) (الجزائر ـ 1981 م).
(43) المزاري (بن عودة إسماعيل): طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها

الأسود. تحقيق بوعزيز (د. يحيى) 2 أجـ. (بيروت 1990 م).

(44) ابن محرز الوهراني (محمد): منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. تحقيق إبراهيم شعلان، ومحمد نغش (القاهرة 1968 م).

(45) المقري (أحمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق وتعليق إحسان عباس (بيروت 1968 م) 8 أجـ.

(46) المغيلي (محمد بن عبد الكريم): أسئلة الأسقياء وأجوبة المغيلي، تحقيق وتقديم د. عبد القادر زبادية (الجزائر 1974 م).

(47) الهواري (محمد بن عمر): السهو والتنبيه للفقراء أهل الفضل النبيه، (مخطوط).

(48) الورتلاني (الحسين): نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار المعروفة بالرحلة الورتلانية، تحقيق محمد بن أبي شنب (الجزائر 1920 م).

المجلات:

مجلة الأصالة: (1971 ـ 1981 م).

مجلة الثقافة (1971 ـ 1989 م).

المجلة التاريخية المغربية (1974 ـ 1991 م).

مجلة المقتبس (1906 ـ 1908).

دوائر المعارف:

دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة الفرنسية 3 مجلدات.

دائرة معارف القرن العشرين، 10 أجزاء.

دور المحفوظات:

الأرشيف الوطني التونسي، الوزارة الأولى.

(ملفات المشبوه فيهم).

شمال

إلماين
امزراق
الجعافرة
ثفرق
القلعة
تاسامرث
زمورة
ثنية الخميس
اولاد دحان
اولاد سيدي ابراهيم
خليل
مرازة
عسناوة
مجانة
بير قاصد علي
الهير
سيدي مبارك
عين تاغروط
المنصورة
برج بوعريريج
بشير
لعناصر
بن داود
ثيكستار
تاسرة
القصور
الحمادية
بليمور
الرابطة
راس الواد
العش
برج الغدير
عين تاسة
اولاد براهم
(تاقليعث)
أولاد دحمان

خريطة توضح مسقط رأس عائلة أولاد بوعزيز (البعازيز)
بقرية أمزراق منطقة إلماين والجعافرة

PREFECTURE
DE
CONSTANTINE

° Bureau
Affaires indigènes
N° 15737

OBJET :

A.S. du nommé BAGHDADI, de la confrérie des Chadoulya

REPUBLIQUE FRANÇAISE

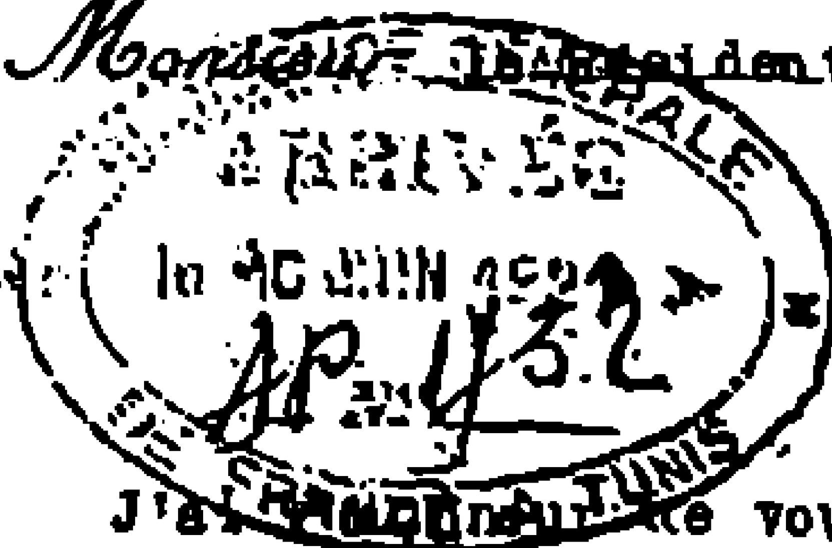
CONFIDENTIEL

CONSTANTINE, le 11 juin 1921

Le Préfet du Département de Constantine

à Monsieur le Résident Général de France

TUNIS



Archives Nationales de Tunisie

J'ai l'honneur de vous faire connaître qu'un centre d'activité religieuse musulmane très intense vient de se manifester dans mon département, dans la commune mixte des Biban.

Cette propagande religieuse est dirigée par les deux Mokaddem locaux BENBAZIZ Abderrahmane et BOUFELIH Saddik, tous deux de la commune susdite, mais obéissant aux ordres du cheikh BENALIOUA, de Mostaganem.

Ce cheikh BENALIOU qui appartient à la secte des Chadoulyia mais qui passe pour chercher en réalité à créer une secte dissidente qui lui soit propre, dispose en outre de deux autres agents de propagande très influents, les deux frères BEGHDADI Salah ben Abdelaziz et BEGHDADI Moulay Hacen ben Abdelaziz, tous deux originaires de Tlemcen.

Le premier de ceux-ci est tenu pour un homme de très grand savoir et jouit, par ce fait, d'un très haut prestige et d'une très grande influence sur ses coreligionnaires.

......

Quant à Moulay-Hacène , taleb, sans autre qualité, il habitait Mostaganem depuis deux mois lorsqu'il en est soudainement parti. Son passage m'a, vers la fin du mois dernier, été signalé dans la région de Bordj-bou-Arréridj et des Biban où une certaine agitation s'était aussitôt produite.

Puis il disparut de nouveau et des renseignements qui me sont parvenus, il se serait dirigé vers Tunis.

Le but avoué de ce voyage est de traiter avec un imprimeur de cette ville pour faire éditer les ouvrages religieux de son cheikh (BENALIOUA).

Egalement, le but de ce prosélytisme religieux ne tendrait, de l'aveu des personnages que j'ai nommés plus haut, qu'à recruter des adeptes et à supplanter les sectes des Rahmania et des Chadoulya, seules jusqu'à maintenant, en concurrence dans la région.

Cependant, il est d'ores et déjà établi que l'agitation créée dans la région des Biban par BENBAZIZ Abderrahmane et BOUFELIH Seddik a une allure nettement politique et anti-française.

D'autre part, le voyage de BEGHDADI Moulay-Hacen vers Tunis a un caractère clandestin qui ne saurait nous échapper.

Cette situation me parait donc devoir retenir toute l'attention des pouvoirs publics et éveiller toute leur vigilance. C'est donc pour ces raisons, Monsieur le Résident général, qu'après vous avoir mis au courant des agissements de ces personnages religieux je vous ~~prie de~~ serais obligé de vouloir bien prescrire des recherches en vue de retrouver la trace du nommé Beghdadi Moulay-Hacen et de recueillir des renseignements aussi complets que possible sur le but de son voyage à Tunis,

....

Suite au verso

sur ses allées et venues, sur ses fréquentations et ses occupations et enfin, s'il s'est remis en route, sur la direction qu'il a prise.

LE PREFET :

الفهـارس العامـة

أ - فهرس الأعلام.
ب - فهرس القبائل والأعراش.
جـ - فهرس الأماكن.

أ ـ فهرس الأعلام

ب ـ فهرس القبائل والأعراش

جـ- فهرس الأماكن

فهرس محتوى الكتاب



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P..113 - 5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1995/10/1000/281

التنفيذ: كومبيوتايب في لصف الصفحات الالكتروني

الطباعة : دار صادر، ص . ب . 10 - بيروت

Bouazīz Yaḥia

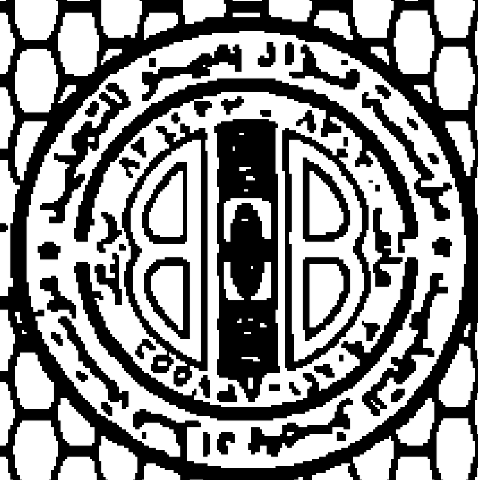
ʾAʿLĀM AL-FIKR

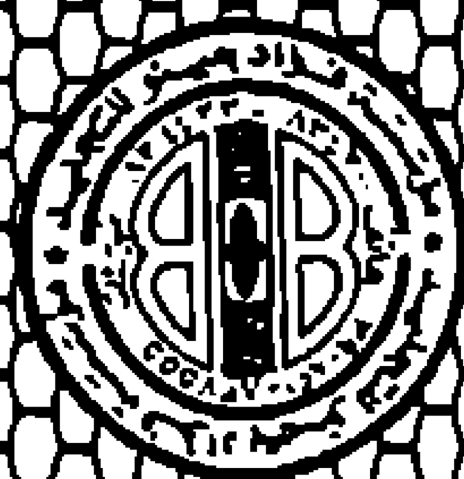
(Personnalités de la pensée et de la culture algériennes)

Volume I



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI



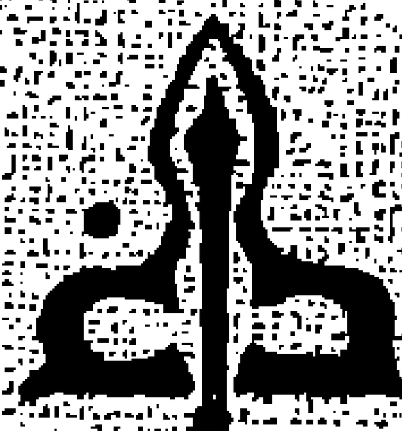


Bouaziz Yaḥia

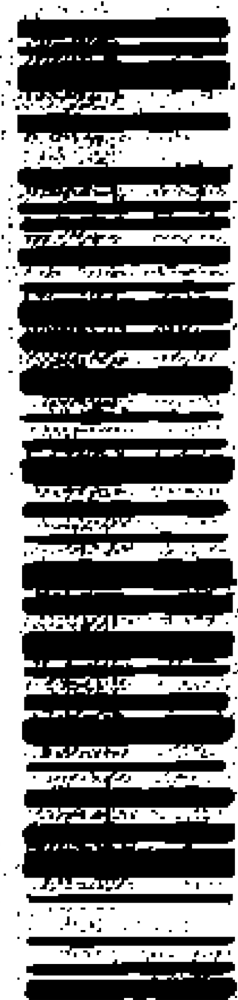
'A'LĀM AL-FIKR

(Personnalités de la pensée et de la culture algériennes)

Volume I



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI



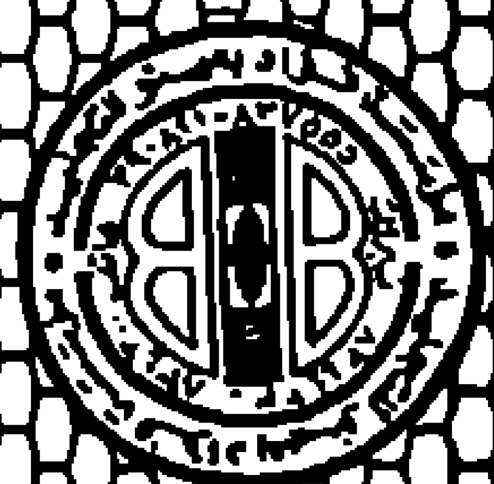
الدكتور يحيى بوعزيز

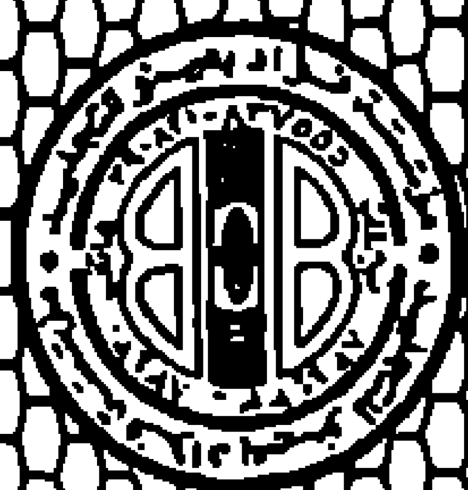
أعلام الفكر والثقافة

في الجزائر المحروسة

الجزء الثاني







أعلام الفكر والثقافة
في الجزائر المحروسة

الدكتور يحيى بوعزيز

أعلام الفكر والثقافة
في الجزائر المحروسة

الجزء الثاني



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1995

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قصة هذا الكتاب طريفة وتستوجب الوقوف عندها، وقد أعددناه في جزئين اثنين لكل منهما قصته وحكايته.

الجزء الأول: أعددناه في الأصل ليكون الجزء الأول من الجزئين اللذين خصصناهما لدراسة الثورة المسلحة في الولاية الثالثة من الولايات الست للثورة الجزائرية 1954 ـ 1962. ولكن ما أفرزته ديمقراطية أكتوبر 1988 من الدعوة للائكية الدولة، وأمازيغية اللغة والثقافة، دفعنا لنجعله كتاباً مستقلاً بذاته ليكون أحسن رد وجواب مفحم للذين يريدون الشر للإسلام واللغة والثقافة العربية الإسلامية في هذه البلاد التي أنجبت وما تزال تنجب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أبطالاً، وعظماء، ومفكرين مبدعين في جميع التخصصات تجاوزت سمعتهم ومكانتهم وتأثيرهم رقعة الجزائر وبلدان المغرب والأندلس، إلى بلدان الشرق العربي الإسلامي وآسيا الوسطى، ومجاهل إفريقيا وجنوب أوروبا. وتركوا بصماتهم على كل جوانب الحياة الحضارية، وعمل الكثير منهم بصمت ورحلوا عن هذه الدنيا بصمت وكانوا بحق جنود الخفاء.

وهذا ما دعانا إلى تخصيص هذا السفر لاستعراض تراجم وسير بعضهم في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة التي نشأت عليها الدولة الحمادية بشرق الجزائر من القرن التاسع إلى نهاية القرن العشرين الحالي، ما دام من الصعب الترجمة لجميعهم، وعلى المستوى الوطني لأن ذلك يتطلب جهوداً جماعية،

ومجلدات عدة وإمكانات مادية معتبرة غير متاحة لنا. وما لا يعمل كله لا يهمل بعضه كما يقول المثل السائر.

وليس هذا العمل بالأمر الغريب، فقد سبقنا إلى مثله بعض العلماء فيما مضى، فأرخ أحمد الغبريني لعلماء بجاية في كتابه: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية(1)، وأرخ ابن مريم لعلماء تلمسان في كتابه: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان(2)، وأرخ محمد الحفناوي لكثير من العلماء والصلحاء في كتابه: تعريف الخلف برجال السلف(3)، كما أرخ قبلهم ابن صعد التلمساني لكثير من العلماء والصلحاء في كتابه: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، وكتابه: روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين الذي استخرجه من الأول(4)، وأرخ آخرون غيرهم لا مجال لذكرهم هنا.

وقد بذلنا جهوداً مضنية في جمع مادة هذا الجزء خاصة بالنسبة لسير العلماء المحدثين والمعاصرين، فاعتمدنا على المراسلات، والاتصالات المباشرة، والمعرفة الشخصية. فكتب لنا البعض سيرهم وتراجمهم بأقلامهم، وأمدنا البعض بسير من يعرفونهم شخصياً أو لديهم معلومات موثوق منها. وترجمنا نحن لمن نعرفهم شخصياً وغادروا هذه الدنيا، واستعنا بمن يعرفهم كذلك ليكون العمل كاملاً أو قريباً من الكمال. أما الذين لا نملك عنهم معلومات كافية فقد اكتفينا بإيراد أسمائهم، ومواطنهم في انتظار استيفاء

---

(1) حقق هذا الكتاب ونشره ابن أبي شنب بالجزائر عام 1910 وأعاد نشره المرحوم رابح بونار عام 1974 م.

(2) حقق هذا الكتاب ونشره ابن أبي شنب عام 1908 وأعاد سحبه ديوان المطبوعات الجامعية عام 1986 م.

(3) نشر هذا الكتاب بالجزائر عام 1906 وأعادت سحبه مؤسسة الرسالة والمكتبة العتقة بتونس عام 1982 م.

(4) كتاب النجم الثاقب ما يزال مخطوطاً في المكتبات العامة والخاصة، وروضة النسرين حققناه نحن وقدمناه للطبع والنشر لدى مؤسسة: دار الغرب الإسلامي لصاحبه الفاضل الحبيب اللمسي.

المعلومات المطلوبة مستقبلاً إن شاء الله، ولشحذ الهمم الأخرى لتبحث عنها وتدرس حياتها الفكرية والثقافية.

وخلال هذا استعرضنا المؤسسات العلمية والتربوية في المنطقة مثل الزوايا، والمدارس، والمعاهد، والمساجد، والمعمرات، التي كان لها دور رائد وأساسي في تكوين هذا الحشد من العلماء، والمفكرين، والمثقفين، خاصة في الفترة الاستعمارية الأوروبية التي امتدت من 1830 إلى 1962، وتعتبر من أحلك وأظلم فترات تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر.

الجزء الثاني: أعددناه منذ مطلع الثمانينات واستعرضنا فيه سير عدد من العلماء الكبار في مدينة تلمسان ووهران، ومعسكر الذين أنجبتهم عائلات علمية ذات باع في الفكر والثقافة، على مستوى العالم العربي الإسلامي غربه وشرقه. وتعثر طبعه في المؤسسة الوطنية للكتاب لأسباب بيروقراطية نأسف لها. وجاءت المناسبة ليضم إلى هذا السفر ونكون بذلك قد جمعنا بين عمل الغبريني وابن مريم. وابن صعد، والحفناوي وآخرين.

إن التاريخ الفكري والثقافي لأية أمة، هو المقياس الأساسي والأداة الفعالة لوزن وقياس مدى نهضتها، ورقيها، وتقدمها، ومدى مشاركتها في تشييد الحضارة الإنسانية المحلية والعالمية. وما قدمناه نحن في هذين الجزئين من أعلام الجزائر يؤكد أصالة وعراقة حضارة الجزائر، ويثبت المشاركة الفعالة للشعب الجزائري المؤمن والمسلم، والمجاهد، في إثراء وإخصاب الحضارة العربية الإسلامية مشرقاً ومغرباً.

وهو ما يجب على الأجيال الصاعدة أن تعرفه، وتطلع عليه لترى ما أنجزه الأجداد، وما بذلوه من جهود جبارة عبر التاريخ وفي كل مجالات الحياة لتعيش هي اليوم حرة مكرمة ومستقلة وفخورة بماضيها، وحاضرها، ومستقبلها.

فباسم الله وعونه نقدم للمكتبة التاريخية هذا الجهد المتواضع من سير الأجداد تحت عنوان: «أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة» بجزئيه عن شرق البلاد وغربها.

ونقدم شكرنا وتقديرنا للأخ الفاضل الحبيب اللمسي، وداره العامرة، دار الغرب الإسلامي التي تولت طبعه ونشره.

والله يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح والفلاح.

	وهران، جمال الدين	د. يحيى بوعزيز
الجمعة	18 ذو القعدة 1414 هـ	معهد التاريخ
	29 أبريل 1994 م	جامعة وهران
		(الجزائر)

تمهيد

لقد شهدت تلمسان في العصر الإسلامي الوسيط حياة فكرية رائدة، وحركة تنوير واسعة للعلوم والمعارف الإسلامية المختلفة امتد تأثيرها وإشعاعاتها إلى المدن والعواصم الإسلامية الكبرى في مغرب العالم الإسلامي ومشرقه.

وانكب شعب هذه المدينة، وأمراؤها وسلاطينها، على البناء الحضاري بمفهومه الواسع، وشهد القرن الثامن الهجري (والرابع عشر الميلادي) بناء عدد من المدارس العلمية، وانكباب جيل من العلماء للتدريس بها، وتثقيف الأجيال وتنويرها، والنهوض بها إلى الآفاق السعيدة.

وهكذا أسس الأمير أبو حمو موسى الأول، أول مدرسة علمية بتلمسان في مطلع القرن الثامن الهجري خصصها للعالمين الفاضلين ابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن وأخيه أبي موسى عيسى، ليدرسا بها. ومن بعده أسس ابنه الأمير تاشفين الأول المدرسة التاشفينية بجانب الجامع الأعظم حيث مركز البلدية الحالي. وفي عام 748 هـ (1347 م) أمر السلطان المريني أبو الحسن ببناء مدرسة العباد الحالية، وبعده أمر ابنه أبو عنان ببناء المدرسة العنانية بجانب ضريح الولي الصالح أبي عبدالله الشوذي الحلوي الأشبيلي عام 754 هـ (1356 م)، وبعد حوالي ست سنوات أمر الأمير أبو حمو موسى الثاني ببناء المدرسة اليعقوبية عام 763 هـ (1362 م) بجانب ضريح قبور: أبيه أبي يعقوب، وعميه، أبي سعيد عثمان، وأبي ثابت، وخصصها للعالم الفقيه أبي عبدالله محمد الشريف الحسني التلمساني وولده أبي محمد من بعده، ليدرسا

بها، وينشرا علمهما ومعارفهما الواسعة، وفيها دفن العالم الصالح إبراهيم المصمودي تلميذ أبي عبدالله الشريف، وقد أزال الاستعمار الفرنسي هذه المدارس كلها وخربها ما عدا مدرسة العباد بجوار ضريح أبي مدين شعيب بن الحسين.

ويعود سبب ازدهار الفكر والثقافة بتلمسان خلال هذه الفترة وما بعدها، إلى عدة عوامل أهمها: موقعها الجميل بين الشرق والغرب الأندلسي والشمال التلي، والجنوب الصحراوي.

فهي أولاً: عقدة مواصلات لطرق القوافل التجارية بين التل والصحراء تزود الجنوب ببضائع الشمال المختلفة: الزراعية، والحيوانية، والصناعية. وتستورد منه بضائعه المختلفة خاصة الأصواف، والجلود، وتبر الذهب، والعبيد، والسمن، والملح، وريش النعام، وعظامه.

وهي ثانياً: منبت ومحط أنظار العلماء والمفكرين، وطلاب العلم والمعرفة الذين يفدون إليها من الغرب الأندلسي ومن المشرق للتعلم والتعليم في مدارسها الناهضة، ومساجدها الجامعة.

وهي ثالثاً: محطة عبور لقوافل الحجاج الذين يغدون ويروحون بين بلدان المغرب والأندلس من جهة، وبلدان المشرق الإسلامي والبلدان المقدسة من جهة أخرى، لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول ﷺ، ولممارسة الأعمال التجارية، وتلقي العلم والمعرفة على أجلة الشيوخ وأكابر العلماء.

وبفضل هذا الموقع الاستراتيجي الهام لمدينة تلمسان، وبفضل تلك المدارس العلمية العديدة التي أنشئت بها خلال القرن الثامن الهجري (14 م) استقطبت عدداً كبيراً، قد لا يحصى، من عمالقة الفكر والأدب، وأساطين الثقافة والمعرفة بمفهومها الواسع، وفروعها العديدة، والمتنوعة، الدينية، واللغوية، والتاريخية، وغيرها، البعض منهم من أبنائها ومواليدها، والبعض الآخر جاؤوا إليها من الأصقاع البعيدة شرقاً وغرباً وجنوباً، واستقروا بها وأصبحوا من أهلها وذويها.

ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: أبو جعفر الداودي (ت عام

402 هـ)، وأبو الحسن علي بن قنون (ت 557 هـ)، وأبو علي الأشيري (ت 570 هـ)، وأبو مدين شعيب بن الحسين الغوث (ت 594 هـ)، وأبو عبدالله التجيبي (ت 610 هـ)، وأبو عبدالله بن عبد الحق (ت 625 هـ)، وابن يخلف التنسي (ت 680 هـ)، ومحمد بن مرزوق القيرواني (ت 681 هـ)، وأحمد بن مرزوق (ت 741 هـ)، ومحمد بن مرزوق الجد والخطيب والرئيس (ت 781 هـ)، ومحمد ابن مرزوق الحفيد (ت 842 هـ)، ومحمد بن مرزوق الكفيف (ت 901 هـ)، وأحمد بن مرزوق حفيد الحفيد، وابن خلف التلمساني (ت 690 هـ)، وأبو الحسن التنسي (ت 706 هـ)، ومحمد السلاوي (ت 737 هـ)، وأبو زيد عبد الرحمن بن الإمام (ت 743 هـ)، وأخوه أبو موسى عيسى بن الإمام (ت 749 هـ)، وأبو موسى عمران بن موسى المشدالي (ت 745 هـ)، وأبو عبدالله محمد التميمي (ت 745 هـ)، وأبو عبدالله محمد المقري (ت 759 هـ)، وابن خميس التلمساني (ت 708 هـ)، وابن هدية القرشي (ت 735 هـ)، ومحمد بن أبي جمعة التلالسي طبيب السلطان أبي حمو موسى الثاني، وأبو زكرياء يحيى ابن خلدون (ت 780 هـ)، وابن النجار (ت 749 هـ)، وأبو عبدالله بن إبراهيم الأبلي الأصل، التلمساني المولد والنشأة، الذي تتلمذ عليه شيوخ وعلماء أجلاء، على رأسهم عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى، والمقري الكبير، وأبو عبدالله الشريف وابن مرزوق الجد، وسعيد العقباني، وابن الصباغ وغيرهم (ت 757 هـ)، وأبو عبدالله الشريف (ت 771 هـ)، وإبراهيم المصمودي (ت 805 هـ)، وسعيد العقباني (ت 811 هـ)، وقاسم العقباني (ت 854 هـ)، ومحمد بن أحمد بن قاسم العقباني (ت 871 هـ)، وابن زاغو المغراوي (ت 845 هـ)، ومحمد بن العباس (ت 871 هـ)، والإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت 895 هـ)، وابن عبد الجليل التنسي (ت 899 هـ)، وأحمد بن زكري (ت 900 هـ)، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ)، وأحمد البيدري (ت 930 هـ)، وعلي بن أحمد بن الفحام، ومحمد ابن الحباك (ت 867 هـ)، وعلي بن محمد البسطي القلصادي (ت 891 هـ)، وغيرهم.

إن هذه القائمة الصغيرة جداً، لبعض أعلام مدينة تلمسان، وعلمائها الأجلاء في عصورها الإسلامية الزاهرة، تكفي دليلاً على مدى النهضة والرقي الذين بلغتهما الحضارة الإسلامية بتلمسان خاصة والجزائر، وكل المغرب الأوسط بصورة عامة.

ومن الطريف أن نذكر هنا أن الكثير من هؤلاء العلماء الأجلاء لم تكن تعيقهم الحدود والحواجز السياسية، ولم يكونوا يخافون أو يرهبون من الأمراء والملوك والسلاطين، بل إن الأمر بالمعروف والنهي عن النكر هو شعار أغلبهم، وكانوا بحق علماء عالميين يتنقلون بين مختلف العواصم الإسلامية للتعليم، والتدريس، والوعظ، والإرشاد والتأليف، ولنصح الملوك والأمراء والسلاطين، ولا يتحرجون من زجر أي سلطان وترك خدمته والانتقال لخدمة سلطان آخر في بلد آخر، وأبرز مثل على ذلك: ابن مرزوق الجد، وعبد الرحمن بن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب، وأبو زيد عبد الرحمن بن الإمام، وأخوه أبو موسى عيسى، وأبو مدين بن شعيب الغوث، وأبو عبدالله محمد الشريف، وعبد الكريم المغيلي، وأحمد المقري.

كما شهدت وهران، ومعسكر، ازدهاراً فكرياً وثقافياً، واكب مسيرتهما الطويلة عبر التاريخ، وشب وعاش بها عدد كبير من رجال الفكر، والأدب، والتاريخ، والشريعة، ذاع صيتهم في أصقاع المغرب والمشرق، وشارك الكثير منهم في إثراء الحضارة المغاربية العربية الإسلامية مشرقاً ومغرباً، ومن أبرزهم: ابن محرز الوهراني، والهواري، والتازي، وأبوراس الناصر، وعلماء المشارف، وآخرون، نستعرض فيما يلي سيرهم وأخبارهم.

الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأشبيلي

(520 ـ 594 هـ = 1126 ـ 1197 م)

أصله وموطنه وهجرته إلى المغرب الأقصى:

الموطن الأصلي لأبي مدين شعيب بن حسين الأنصاري، هو حصن قنتيلة شمال شرق مدينة أشبيليا بالأندلس، ولد عام 520 هـ (1126 م) وعاش حياة بسيطة في صباه، وحرمه أخوته من التعليم وسخروه لرعي مواشيهم، فتألم من وضعه، وقرر مغادرة الأندلس كلية والاتجاه إلى عدوة المغرب، ليحصل هناك على ما حرم منه بمسقط رأسه، فعبر المضيق إلى مدينة سبتة، ونزل عند أحد صيادي السمك واشتغل عنده بعض الوقت، وحكى بنفسه حياته الأولى عنده وقال: «فسرت حتى وصلت البحر، ووجدت خيمة فيها ناس، فخرج إلي منهم شيخ، فسألني عن أمري، فأخبرته وجلست عنده فإذا جعت رمى بخيط في طرفه مسمار فأخذ حوتاً ويطعمه لي مشوياً، وقال لي: انصرف إلى الحاضرة حتى تتعلم العلم فإن الله تعالى لا يعبد إلا بالعلم[1].

---

(1) من ضمن من ترجم لأبي مدين شعيب: التشوف ص 316 ـ 325. التكملة جـ 2 ص 715. نفح الطيب جـ 9 ص 342 ـ 351. أزهار الرياض جـ 2 ص 308، 309. نيل الابتهاج ص 127/ 129. جذوة الاقتباس ص 332. البستان ص 108 ـ 114. تعريف الخلف جـ 2 ص 172 ـ 178. عنوان الدراية ص 5 ـ 13. الذيل والتكملة جـ 4 ص 127 ـ 130 أنس الفقير 11 ـ 20. بغية الرواد جـ 1 ص 125 ـ 126. وكذلك:

G.MARÇAIS: ART. dans E.I. 2,.1. PP. 141-142. BARGES: Vie du Célébre MARABOUT CIDI ABOU-MEDIEN (Paris. Le Roux. 1884).

وبعد إقامة قصيرة في مدينة سبتة، اتجه أبو مدين إلى مدينة مراكش بصحبة جمع من المسافرين الأندلسيين الذين اعتبروه كمجند لديهم واستغلوا عطاءه المادي لصالحهم، فتألم من ذلك، ولكنه صبر حتى يصل إلى مبتغاه، وأخذ بمراكش يبحث عن أندية العلم والعلماء، ونصحه الذين سألهم أن يتجه إلى مدينة فاس التي كانت آنذاك في القرن السادس الهجري والثالث عشر الميلادي، تعج بالحياة الاقتصادية الناهضة، والمتطورة، وبالازدهار الفكري، والثقافي، والعمراني، والاجتماعي.

اتجه أبو مدين إلى مدينة فاس كما أشير عليه، وأخذ يبحث ويسأل عن مجالس العلماء والذاكرين، وحلقات الشيوخ والوعاظ والمرشدين لكي يروي عطشه الفكري، ويزود عقله بالعلم والمعرفة، ظاهراً وباطناً، وصار يتنقل من حلقة إلى أخرى ومن شيخ إلى آخر، ومن عالم إلى غيره حتى عثر على بغيته، وحكى بنفسه قصة ذلك عندما قال: «سرت إليها (فاس) ولازمت جامعها، ورغبت من علمني أحكام الوضوء والصلاة، ثم سألت عن مجالس العلماء، فسرت إليها مجلساً بعد مجلس، وأنا لا يثبت في قلبي شيء مما أسمعه من المدرسين إلى أن جلست إلى شيخ كلما تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته.

وهذا الشيخ الذي جلس إليه أبو مدين وتأثره به، وأثر في حياته، ومستقبله العلمي، والفكري، هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبدالله بن حرزهم (أو حرازم كما يسمى بالدارجة) وهو عالم زاهد متقشف، درس على عمه أبي محمد صالح بن حرزهم، الذي تعرف على الإمام أبي حامد الغزالي بالمشرق، وعلى أبي الفضل يوسف بن محمد الحمادي بن النحوي دفين قلعة بني حماد، الذي عارض فقهاء المغرب الذين أشاروا على الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، بأن يحرق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بدعوى أنه يحتوي على بدع المتكلمين وضلالاتهم، ويحمل أفكاراً تناقض الفقهاء، وتدعوا إلى شتمهم، وتنفير الناس عنهم، وأفتى هؤلاء الفقهاء بتحريم قراءته وتداوله بين الناس. وقد سار على هذا الرأي ابن حرزهم، وخالفه تلميذه أبو مدين شعيب هذا.

وبمجرد أن اختفى علي بن يوسف، وانهارت دولة المرابطين، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين، عاد كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، إلى الظهور والتداول لدى كل الأسر، وفي كل ربوع بلاد المغرب والأندلس، ومن يومئذ شاعت مقولة «بع اللحية واشتر الإحياء» وما تزال شائعة حتى اليوم بالمغرب الأقصى على ما قيل.

لازم أبو مدين شعيب، شيخه ابن حرزهم، مدة من الزمن في فاس، وانكب على تحصيل العلوم والمعارف منه في أوقات دروسه وفي نفس الوقت أخذ يعمل نساخاً للكتاب لدى النساخين حتى يحصل على ما يعيل به نفسه ويقيم أوده، ويصلح شؤونه المادية.

وبعد وفاة ابن حرزهم الذي دفن قرب عين سيدي حرازم بفاس، لازم العالم الفقيه المجاهد أبا الحسن بن غالب، وانكب على الدراسة لديه مدة من الزمن، وسمع منه وأتقن سنن الترمذي ودرس عليه عدة علوم أخرى، وتوفي هذا العالم عام 592 هـ (1196 م) ودفن بمدينة القصر الكبير (قصر كتامة)، قرب موقع معركة وادي المخازن.

وبعد أن تزود أبو مدين شعيب، بعلوم الظاهر وملأ وطابه منها، اشرأبت نفسه لتلقى علوم الباطن أو فن التصوف، فسمع بالشيخ الزاهد المتصوف أبي يعزى يلنورين ميمون التلمساني الأصل في جبل إيروڤان قرب قرية تاغية بعيداً عن فاس فذهب إليه، وأخذ يتردد عليه الأيام والليالي. وهو أي أبو يعزى تلميذ للشيخ مولاي أبي شعيب السارية مؤسس رباط أزمور.

وقد تأثر أبو مدين شعيب كثيراً بالإمام الغزالي، والشيخ أبي يعزى في ميدان التصوف، وقال «طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني، إلى زمننا هذا، فما رأيت أعجب من أبي يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي».

ونتيجة لهذا التأثر، وهذا الإعجاب، أخذ أبو مدين يتردد على الشيخ أبي يعزي في خلوته بتاغيه، ويبقى عنده الأيام والليالي، فعمل الشيخ على امتحانه

واختار صبره وإيمانه بوسائل شتى ومتنوعة أحياناً بالإعراض عنه ومقاطعته وعدم مكالمته، وأحياناً بحرمانه من الطعام وتركه للجوع عدة أيام، وأحياناً بإرساله إلى أماكن بعيدة فيها أسود كاشرة أنيابها، ولصوص متوثبون للسطو والاعتداء.

ولكن أبا مدين صبر لكل هذا، وصابر، وفاز في الأخير برضى شيخه أبي يعزى، وبسره الصوفي، فباركه وورثه علمه الروحي.

أبو مدين شعيب يرحل إلى المشرق:

بعد إقامة طويلة بفاس لطلب العلم والمعرفة، وبعد أن تحصل أبو مدين شعيب على مايريده من علوم الظاهر والباطن من شيوخه الأجلاء أمثال: ابن حرزهم، وابن غالب، وأبي يعزى، وأبي عبدالله الدقاق السجلماسي الأصل، تاقت نفسه لأداء فريضة الحج، وزيارة بيت الله الحرام وقبر الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وللاتصال بكبار العلماء والفضلاء ذوي الشهرة والمكانة في ذلك الوقت، فاتصل بشيخه أبي يعزى، واستأذنه في ذلك، فسرحه، وغادر المغرب إلى المشرق في تاريخ غير معروف ولم تحدثنا المصادر عنه، وافترض البعض أنه كان بين عام 550 و555 هـ (1155 ـ 1160 م)، كما لم تحدثنا المصادر عن الوسيلة التي سافر بها براً أو بحراً، وعن المدن والبلدان التي مر بها في طريقه إلى المشرق ولا شك أنه مرّ بالجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر.

وعندما وصل إلى الحجاز التقى بالشيخ أبي صالح عبد القادر الجيلاني (أو الكيلاني) بجبل عرفات، وتعرف عليه، ولازمه بعض الوقت في الحرم الشريف بمكة، ودرس عنه علم الحديث، وعلم التصوف، وتحصل منه على خرقة الصوفية، وعلى الأسرار الصوفية وسر كثيراً لذلك، وافتخر بصحبته لهذا الشيخ واعتبره أفضل وأعظم مشايخه الأكابر.

وقد شحت المصادر علينا، ولم تحدثنا حول إقامة أبي مدين بالمشرق كما لم تحدثنا عن اتصالاته، وتنقلاته التي لا نشك أنها كثيرة، ومتنوعة، سمحت له بالحصول على أسرار طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وعلى علوم ومعارف أخرى ثقافية واجتماعية، وسياسية.

العودة إلى بجاية:

وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى المشرق التي دامت أكثر من عقدين من الزمن، قفل أبو مدين شعيب راجعاً إلى ديار المغرب العربي الإسلامي، ومر بمدينة بجاية واستقر بها، وتزوج بامرأة حبشية، لا ندري من جاء بها إلى هناك، وأنجبت له ولداً، وتصدى للتدريس والتعلم بها، وأقبل عليه طلبة العلم من كل صوب وحدب، وكانت بجاية في هذا العهد من القرن السادس الهجري تعج بالنشاط الاقتصادي الفلاحي، وبالتجارة البرية والبحرية، والبحبحة الاقتصادية، والازدهار الثقافي، والنهضة الفكرية، والتطور العمراني، والاجتماعي. يفد إليها الشيوخ والعلماء، وطلاب العلم والمعرفة، ومن ضمن من درس على أبي مدين بها: محيي الدين بن عربي دفين دمشق الذي وفد من الأندلس ليدرس عليه عام 590 هـ (1193 م)، والفقيه أبو عبدالله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي، وأبو عبد الحق عبد الرحمن الأشبيلي، والشيخ أبو علي المسيلي، الملقب بأبي حامد الصغير، وعبد السلام بن مشيش، ومن الكتب التي كان أبو مدين يدرسها لطلبته في بجاية: الرسالة القشيرية في التصوف للشيخ أبي القاسم عبد الكريم القشيري (ت 462 هـ)، والمقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى لأبي حامد الغزالي.

وقد قضى أبو مدين شعيب أكثر من عقد ونصف في بجاية انكب خلالها على التربية والتعليم والإقراء، والوعظ والإرشاد، والعبادة، وأعجبته المدينة وحلاله المقام بها، وتخرج عليه عدد كبير من العلماء الأجلاء، وطلبة العلم النجباء والفضلاء، وورَّث طريقته الصوفية القادرية إلى تلميذه عبد السلام بن مشيش شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية وعلى رأسهم أبو الحسن الشاذلي دفين مقبرة الجلاز بمدينة تونس الذي انتشرت طريقته في كل أصقاع بلدان المغرب العربي وغرب إفريقيا، وقد قيل أنه تخرج عليه ألف شيخ وعالم.

رحيل أبي مدين إلى تلمسان ووفاته بها:

لقد نال أبو مدين شعيب شهرة واسعة في بجاية تخطت بلاد المغرب إلى

المشرق، وبلاد الأندلس، وذلك بفضل علمه الواسع وتقواه، وجهوده المباركة الواسعة في التربية والتعليم والتكوين والوعظ والإرشاد، والإقراء، وكثر زواره والوافدون عليه من الآفاق البعيدة طلباً للعلم، فأثار ذلك حقد وحسد بعض علماء الظاهر ومنهم الشيخ أبو عمر الحباك الذي وشى به إلى السلطان يعقوب المنصور الموحدي، وقال له: «إنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبهاً بالمهدي وأتباعه كثيرون في كل بلد». فتأثر المنصور بهذه الوشاية ونالت منه، فقرر أن يحقق مع أبي مدين بصفة شخصية وبعث إلى أمير بجاية وطلب منه أن يشخصه إليه معززاً مكرماً، وحرس على ألا يلحقه أي أذى.

وعندما علم أصحابه وتلاميذه بالخبر شق عليهم فراقه وتخوفوا من سوء مصيره، فطمأنهم أبو مدين وقال لهم: «إن منيتي قريبة ولغير هذا المكان قدرت، فبعث الله من يحملني إليه برفق، وأنا لا أرى السلطـان، ولا يراني» فطابت نفوسهم، وذهب عنهم الخوف وارتحلوا به إلى أن وصلوا إلى ضواحي العباد بتلمسان فقال لهم ما أصلحه للرقاد ولما وصلوا إلى وادي يسر اشتد عليه المرض فأنزلوه على دابته، وتوفي، فحملوه إلى العباد ودفنوه هناك عام 594 هـ (1197 م).

ومن يومئذ اشتهرت مدينة تلمسان به، وأصبح اسمه مقروناً بها وبالعباد كلما ذكر على أي لسان، وفي أي عصر حتى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد مرت على وفاته الآن أكثر من سبعة قرون ولكن قبره ومسجده بالعباد، ما يزالان محط الرعاية والاحترام، كما يزال يذكر بفاس بعين سيدي بومدين قرب مسجد حي الرميلة بجانب قنطرة بين المدن، الذي كان إلى عهد قريب يجتمع فيه المهاجرون التلمسانيون لإحياء ليلة المولد النبوي الشريف أو لحل مشاكلهم المستجدة.

ويوجد بمقصورة هذا المسجد تجاه خلوة أبي مدين قبر شيخه أبي يعزى التلمساني.

ولا يزال أبو مدين يذكر بتونس كذلك بواسطة جماعة زاوية سيدي بومدين، وهي جماعة الشيخ المختار الكسراوي التي تجتمع للذكر، وتلاوة البدرية، والهمزية ودلائل الخيرات.

ولأهمية ماضي أبي مدين العلمي والثقافي، وضريحه ومسجده اهتمت الدولة الجزائرية به وقررت أن يتخذ العباد كمجمع ثقافي هام على أن تجري عليه إصلاحات وترميمات تليق بماضيه الفكري والثقافي، وبهندسته المعمارية الإسلامية الجميلة. وهو عمل محمود سيساعد على إبراز وجه تلمسان الحضاري الهائل، وعلى دور الجزائر الرائد في إثراء وتنمية وتطوير الحضارة الإسلامية في ربوع هذه البلاد وكل العالم الإسلامي الطويل والعريض[1].

علماء أسرة أبناء الإمام البرشكية التلمسانية

(683 ـ 845 هـ=1284 ـ 1441 م)

كان الإمام أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الإمام البرشكيّ التلمساني يقطن مدينة برشك الساحلية بين مدينتي شرشال وتنس غرب مدينة الجزائر، وتولى هناك منصب إمام وواعظ في أحد مساجدها[2].

وعندما استبد زيري بن حماد المكلاتي الملقب بزيرم ببرشك هذه نكب بالإمام محمد بن عبدالله وقتله بعد أن اتهمه بإخفاء وديعة مالية لأحد خصومه

(1) انظر مقال: عبد القادر الخلادي: أبو مدين الغوث دفين تلمسان. (520 ـ 594 هـ 1126 ـ 1197 م) مجلة الأصالة. عدد 26. (الجزائر ـ جويلية، أوت 1975 م) ص 284 ـ 295 م.

(2) ممن ترجم لأبناء الإمام: التعريف لابن خلدون ص 22 ـ 47، ابن فرحون: الديباج المذهب ص 152. أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 166 ـ 193. ابن القاضي: درة الحجال جـ 2 ص 408. الحفناوي جـ 2 ص 201 ـ 213 و301 ـ 307، الحلل السندسية ص 832 ـ 835. نظم الدر والعقيان ورقة 55. بغية الرواد جـ 1 ص 130 ـ 131. ابن مريم ص 63 ـ 64 و123 ـ 129 و220 ـ 221 عبد الرحمن الجيلالي تاريخ الجزائر العام جـ 2 ص 164 ـ 167. وكذلك:

BARGÉS: Complement. P: 56-66 et TELEMCEN, p. 327.

وأعدائه، ورفض أن يعترف له بما وجد له عليها، وتم ذلك عام 683 هـ (1284 م).

وكان للإمام محمد بن عبدالله هذا ولدان اثنان هما: أبو زيد عبد الرحمن، وهو الأكبر، وأبو موسى عيسى، اللذان ولدا ببرشك في تاريخ لم تذكره لنا المصادر، واشتهرا بلقب (ابني الإمام) لأن أباهما كان إماماً ببرشك كما ذكرنا، وارتبط اسمهما بتلمسان كما سنرى.

رحلتهما إلى تونس وفاس:

وقد تخوف هذان الأخوان على مصيرهما بعد أن قتل زيرم أباهما فرحلا إلى تونس في نهاية المائة السابعة للهجرة 700 هـ (1301 م)، واجتمعا هناك بعدد من علمائها الأجلاء من جيل القرن السابع، ودرسا على البعض منهم أمثال: ابن العطار، وابن جماعة، والمرجاني، واليفريني، وتفقها على تلاميذ ابن زيتون، وأصحاب أبي عبدالله بن شعيب الدكالي، وقضيا هناك مدة من الزمن غير طويلة ثم قفلا راجعين إلى الجزائر، وتلمسان، وفاس، في مطلع المائة الثامنة للهجرة 701 هـ (1302 م) وانكبابهما على الدراسة في حلقات علمائها الأجلاء أمثال: الشيخ السبطي، والشيخ الطنجي، وغيرهما وقضيا جل وقتهما في المطالعة والدراسة، والتحصيل.

ومن فاس عادا إلى بلدتهما برشك، ولكنهما عجزا عن الدخول إليها بسبب استمرار استبداد زيرم بها، فواصلا سيرهما إلى مدينة الجزائر واستقرا بها مدة من الزمن، وتصديا للتعليم، والتدريس، والإقراء، والوعظ والإرشاد، ونالا سمعة كبيرة في أوساط العلماء، وطلاب العلم والمعرفة بفضل نشاطهما ونبوغهما في العلوم والمعارف.

وعندما هاجم السلطان المريني أبو يعقوب يوسف مدينة تلمسان، وفرض عليها ذلك الحصار الطويل، غادر الأخوان مدينة الجزائر وتوجها إلى مدينة مليانة عاصمة المغراويين، والتقيا هناك بالكاتب منديل بن محمد الكناني، ضابط جباية بني مرين، فأدرك فضلهما وعلو منزلتهما، وقربهما إليه وكلفهما

بتعليم ابنه محمد، وأسند إليهما خطة القضاء بتلك المدينة.

أبو حمو يبني لهما مدرسة خاصة باسمهما في تلمسان

وبعد مقتل السلطان أبي يعقوب يوسف المريني بالمنصورة عام 705 هـ (1306 م)، وإبرام الصلح بين فاس وتلمسان، وانتهاء ذلك الحصار المرهق والطويل، صحبهما معه منديل الكناني إلى تلمسان، وأثنى عليهما لدى الأمير الزياني أبي حمو موسى الأول، فاستقبلهما، وسر بلقائهما، وقربهما إليه، واتخذهما ضمن رحال خاصته، وبني لهما مدرسة عرفت بلقبهما، بناحية المطهر، داخل باب كشوط، وخصص لهما بها إيوانين للتدريس، والإقراء، وبنى لهما بجوارها منزلين لسكناهما، وأوكل إليهما أمور الشورى والفتوى، وضمهما إلى خاصته من أهل مجلسه وأعيان دولته، فقضيا في عهده حياة رغدة كريمة، وحظيا بالتقدير والإكبار والتعظيم من الجميع خاصة الوجهاء وأهل العلم.

وعندما تمكن أبو حمو موسى الأول من فرض سيطرته على مغراوة بمليانة وحوض الشلف، توجس زيرم المكلاتي منه وخاف على نفسه، فسعى لكسب مودته وعطفه، وأعلن خضوعه له، وتنازل له عن قرية برشك التي كان قد استبد بها والذي كان الواسطة في المفاوضات والاتصالات التي انتهت إلى هذه النتيجة، هو أبو زيد عبد الرحمن ابن الإمام الذي استأذن من أبي حمو أن يسمح له بالانتقام منه لأبيه الذي قتله كما أسلفنا سابقاً، فأذن له ودبر مؤامرة انتهت بقتله عام 708 هـ (1308 م) وألحقت بدولة أبي حمو بتلمسان وشفي أبو زيد، وأخوه أبو موسى، غليلهما، وكان لهما في ذلك القصاص حياة، وزهو.

رحلتهما إلى المشرق

استمر الأخوان ابنا الإمام، في القيام بمهنة التدريس بتلمسان، وفي صحبتهما للأمير أبي حمو الزياني، وملازمته حتى توفي فقربهما إليه من بعده، ابنه وخلفه أبو تاشفين الأول، ورعاهما مثل أبيه، وواصل رعايته وتقديره

وتبجيله لهما حتى رحلا إلى المشرق عام 720 هـ (1320 م) لأداء فريضة الحج، فاجتمعا هناك بكبار العلماء الأجلاء، وأخذا عنهم علومهم ومعارفهم، وعلى رأسهم، الشيخ علاء الدين القونوي الذي أثنى عليهما ومدحهما، وجلال الدين القزويني صاحب التلخيص في البلاغة الذي قال عنهما قولته المشهورة «بمثلهما يفخر المغرب»، والشيخ شرف الدين الزواوي المالكي، الذي أفادهما كذلك بعلومه ومعارفه.

وفي الحجاز سمعا ورويا صحيح البخاري في الحديث عن الشيخ الحجازي، وناظرا شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية وتفوقا عليه، وأفحماه بالحجة والبرهان، وكان ذلك مما ضاعف في محنته في قضية تفسير نزول القرآن على ظاهر لفظه، عندما مثل ذلك بنزوله هو درجة من المنبر الذي كان يتحدث فوقه، وقال كنزولي هذا هكذا.

وعندما ذهبا لزيارة بيت المقدس، زاولا هناك مهنة التدريس واكتسبا سمعة عالية، وأقبل طلاب العلم بكثرة عليهما في حلقات دروسهما للتزود بعلومهما ومعارفهما الواسعة، وعدوهما وحيدي زمانهما، وكان محمد المقري آنذاك هناك، فناله شيء من الغيض والغيرة، ويظهر أنه حدثته نفسه بشيء ضدهما، فنصحه بعض المغاربة الذين كانوا هناك بأن لا يفعل ذلك، وأن ينتسب إليهما إذا سئل، إذا أراد أن لا يفقد قدرهُ واحترامه، لأن الجميع سلموا بعلو قدر الرجلين في العلم والمعرفة والتقى، وقد اعترف المقري بهذه الحكاية، وأوردها ابنه بعده في كتابه نفح الطيب.

عودتهما من المشرق .

بعد هذه الرحلة الطويلة إلى بلدان المشرق العربي، عاد الأخوان العالمان ابنا الإمام، إلى تلمسان وجاورا أميرها أبا تاشفين الزياني، وانكبا على التدريس والتعليم في مدرستهما، لطلبة العلم للمتعطشين أمثال: أبي عبدالله الشريف

التلمساني، ومحمد بن مرزوق الجد والخطيب، والمقري، وأبي عثمان العقباني، وأبي عبد الله اليحصبي، والشيخ الآبلي، وغيرهم، فزاد ذلك في رفعة شأنهما وعلو قدرهما ومنزلتهما في معظم أصقاع المغرب الإسلامي.

وبعد مقتل السلطان الزياني أبي تاشفين الأول عام 737 هـ (1337 م) على يد السلطان المريني أبي الحسن، الذي احتل تلمسان، قربهما هذا السلطان إليه، وبالغ هو الآخر في تقديرهما، وتكريمها، فاتخذهما أعضاء في مجلس علمائه الذين أحاطهم به، وأصبحا بمرور الزمن من أعز الفقهاء وأقربهم إليه، يلقيان الدرس العلمية في حضرته وبمحضر علمائه الأجلاء ولازماه طيلة إقامته بتلمسان.

وعندما عزم على السفر إلى بعض الأقاليم بالمغرب الأقصى لتفقد الأحوال، خرجا معه، ثم سرحهما وأذن لهما بالعودة إلى تلمسان وأسقط عنهما كلفة السفر، تقديراً لهما ولعلمهما، ولجهودهما في التدريس والتعليم وتكوين الطلاب والعلماء.

ولما قتل الأمير أبو مالك، توجه أبو زيد عبد الرحمن إلى فاس لتعزية السلطان أبي الحسن، وتخلف أخوه أبو موسى عيسى، بسبب مرض ألم به.

وعندما اتجه أبو الحسن المريني إلى البرتغال للحرب صحب الأخوان ابنا الإمام معه، مثل ابن مرزوق الخطيب والجد، والشيخ الآبلي، وشهدا معه معركة طريف في جمادي الأولى عام 741 هـ (أكتوبر 1340 م) التي كانت نكبة على الجيش المغربي، وأسر فيها ابن السلطان الأمير أبو عمر تاشفين.

وفاتهما:

وبعد العودة من هذه الحرب بمدة قليلة، توفي العالم أبو زيد عبد الرحمن ابن الإمام في منتصف رمضان 741 (1341 م) ودفن بمسقط رأسه في برشك وبقي أخوه الصغير أبو موسى عيسى ملازماً للسلطان المريني أبي الحسن عدة سنوات أخرى بفاس وتلمسان يواصل جهوده العلمية في التدريس والتعليم وسار

معه في حملته على بلاد تونس عام 748 هـ (1347 م) عبر تلمسان، والجزائر، وبجاية، وقسنطينة.

وعندما تعرض أبو الحسن المريني لنكبته المعروفة حول مدينة القيروان بتونس، بدا على أبي موسى عيسى بـن الإمام، العجز، والكبر، وأخذ يفكر كثيراً في مصير أولاده الصغار الذين خلفهم وراءه بتلمسان، ويكثر من ذكرهم لمن حوله، وطلب من السلطان أن يأذن له في العودة والرجوع إليهم، فأذن له، وعاد إلى تلمسان، والتحق بقريته ومسقط رأسه برشك وتوفي بمرض وباء الطاعون في شوال عام 749 هـ (يناير 1349) وخلف من ورائه ابنه أبا محمد عبدالله بن عيسى.

ولم تحدثنا المصادر عن تآليف لهما ما عدا ابن فرحون الذي ذكر أن لهما تصانيف عديدة، دون أن يذكر أسماءها، ويقال إن أبا زيد عبد الرحمن، شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي، ولعل سبب ذلك يعود إلى كثرة أسفارهما من جهة، واستنفاد كل أوقاتهما في التعليم والتدريس، والوعظ والإرشاد. وقد اجتمع العلمـاء، وكتاب التراجم والسير، على أنهمـا أي ابني الإمـام، كانا على درجة عالية، في العلم والثقافة، وسعة الاطلاع، وأفادا بعلومهما أجيالاً لها من الطلاب، والعلماء، في المغرب، والمشرق الإسلاميين، وتخطت سمعتهما أصقاع الجزائر والمغرب، وتونس إلى الأندلس وبلدان المشرق.

أبو الفضل محمد بـن الإمام

وقد ذكر ابن خلدون بأن للأخوين ابني الإمام، أعقاباً بتلمسان، وذكر صاحب البستان منهم: الشيخ أبا عبد الحق بن أبي موسى، وأبا سالم إبراهيم بن أبي زيد عبد الرحمن، الذي استقر بفاس، ونال شهرة علمية وله باع في الفتاوى التي نقل منها الونشريسي، والمازوني، الكثير في نوازلهما، وقد توفي بفاس عام 797 هـ (1397 م) ودفن بباب الجيزيين وخلف من ورائه ابنه العالم

الفاضل أبا الفضل محمد الذي ولد بتلمسان وعاصر ابن مرزوق الحفيد العجيسي، والتحق بتونس عام 810 هـ (1408 م).

وأقام بها مدة للدراسة والتحصيل، ثم رحل إلى مصر والقاهرة، ومن هناك ذهب إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج وزيارة بيت الله الحرام، وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبعد الانتهاء من موسم الحج عاد أبو الفضل بن الإمام إلى القاهرة، ومنها سافرا إلى الشام عام 812 هـ (1410 م) وزار بيت المقدس، وانكب على التدريس هناك في مساجدها ومدارسها وفي نفس الوقت اهتم بتوسيع مداركه، وتقاطر عليه الطلاب بكثرة في حلقات دروسه التي أظهر فيها المزيد من المقدرة، والكفاءة، فنال شهرة واسعة، واستفاد منه طلابه كثيراً.

وقد أشاد به الحافظ التنسي، وأورد طرائف من علمه وفضائله، وذكر المقريزي بأنه نادراً ما لا يشارك في علم أو فن من الفنون، وأكد الونشريسي بأنه له قدماً راسخة في البيان، والتصوف والطب، والشعر، وهو أول من أدخل إلى المغرب شامل بهرام وشرح المختصر له، وحواشي التفتزاني على المعتضد، وابن هلال على ابن الحاجب الفرعي، وغيرها من الكتب.

وزيادة على هذا له أبحاث في التفسير تحدث عنها مع المقري في مسائله التفسيرية، ونقل الونشريسي صاحب المعيار بكثرة عنه في نوازله.

ومن الذين درسوا عليه ابن مرزوق الكفيف، ومحمد بن عبد الجليل التنسي، وتقي الدين الشمني صاحب المغني، وأبو الحسن القلصادي، الذي ذكره في رحلته وشهد بسعة علمه وقال إنه فقيه وإمام، وعالم في علوم المعقول، توفي عام 845 هـ (1441 م). وخلف من ورائه ابنه أبا العباس أحمد الذي عاصر ابن مريم صاحب البستان وتتلمذ عليه كما أكد ذلك صاحب البستان نفسه.

الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي التلمساني
(681 ـ 757 هـ = 1282 ـ 1356 م)

أصله ونشأته:

هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الآبلي، ولد بمدينة تلمسان عام 681 هـ (1282 م) وكان أبوه إبراهيم، وعمه أحمد، قد هاجرا من قرية آبلة ببلاد الجوف شمال غرب مقاطعة مجريط (مدريد) بالأندلس، إلى مدينة تلمسان، واشتغلا جنديين في جيش الأمير ياغمراسن الزياني، وعمل إبراهيم، أبو مترجمنا هذا، قائداً لحامية مرفإ هنين شمال مدينة تلمسان وتزوج من ابنة قاضي تلمسان أبي الحسن محمد بن غلبون، وأنجب منها ولده هذا محمد الذي اشتهر بلقب «الآبلي»(1).

نشأ محمد الآبلي في كفالة جده القاضي ابن غلبون الذي حبب إليه العلم والعلماء. وصرفه عن العمل والاشتغال في الجيش كأبيه، فانكب على الدراسة والتحصيل عليه وعلى علماء تلمسان الأجلاء الفضلاء. وأظهر تفوقاً في العلوم

---

(1) عن الآبلي انظر: التعريف بابن خلدون. ص 21 ـ 38. بغية الرواد. جـ 1. ص 120. المسند لابن مرزوق: ص 33 ـ 44. ابن حجر. جـ 3. ص 299. جلوة الاقتباس. ص 144 ـ 192. درة الحجال. جـ 1. ص 283. نفح الطيب. جـ 7. ص 167 ـ 171. نيل الابتهاج. ص 245 ـ 248. البستان. ص 214 ـ 219. الفهرست. جـ 1. قسم 3. ص 616 ـ 621. تعريف الخلف. جـ 1. ص 89 ـ 100. أزهار الرياض. جـ 2. ص 78. أعلام الإعلام. جـ 3. ص 273 ـ 279. عبد الرحمن بدوي. مؤلفات ابن خلدون. ص 256. الجيلالي: جـ 2. ص 167 ـ 169. وكذلك: BARGÉS. Complement. PP. 25-27, 207.

المنقولة والمعقولة، خاصة الفلسفة، والتوحيد، وما وراء الطبيعة، وعلم الحساب، فدرس المنطق وعلم الأصول على أبي موسى عيسى بـن الإمام، وعلم الشريعة على جده القاضي ابن غلبون، ودرس عدة علوم أخرى على أبي الحسن التنسي. وأظهر مقدرة فائقة في فهم العلوم والمعارف التي درسها على هؤلاء الشيوخ.

وعندما غزا أبو يوسف يعقوب المريني مدينة تلمسان وحاصرها، وسيطر على الأقاليم المحيطة بها، ومنها ميناء ومدينة هنين، اعتقل والد مترجمنا هذا إبراهيم ضمن من اعتقلهم، وشاع في تلمسان أن السلطان المريني، يطلق سراح المعتقلين الذين يقدمون أولادهم رهائن، فطلبت أسرة إبراهيم من ابنه محمد أن يذهب ليقدم نفسه رهينة لخلاص أبيه، فذهب إلى عين المكان وتسلق الأسوار حتى دخل على أبيه في معتقله، واكتشف أن الإشاعة غير صحيحة، فعاد من حيث أتى.

وبعد مدة من هذا الحادث طلب السلطان المريني من محمد الآبلي أن يتولى منصب قائد على الجنود الأندلسيين في تاوريرت، فلم يستحسن العرض واختفى في رباط العباد، ولبس الثياب الرثة، وبعض المسوح حتى لا يتعرف عليه أحد من أتباع السلطان المريني، وذلك في وسط عدد من الفقراء والمعوزين.

رحيلة إلى المشرق:

وفي رباط العباد تعرف على رجل غريب من أهل كربلاء بالعراق قدم خفية إلى المغرب للقيام بالدعوة لصالحه باعتباره من ذرية سيدنا الحسين بـن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان هذا الريس الكربلائي الغريب مغفلاً، وليس صاحب عزيمة، كما قال ابن خلدون، ففشل فيما قدم إليه، خاصة بعد أن شاهد السلطان المريني يحاصر تلمسان، ويغزو أطرافها وأحوازها، وعزم على العودة إلى بلاده بالمشرق ورأى محمد الآبلي الفرصة مناسبة له ليصاحبه إلى المشرق ويؤدي فريضة الحج.

فداخله في الأمر واتفقا على الرحيل معاً، واتجها إلى بلاد تونس عن طريق البر، ومن هناك ركبا السفينة إلى مدينة الاسكندرية بمصر 699 هـ (1300 م)، وخلال الرحلة في البحر تعرض لمرض سماه ابن خلدون بمرض الغلمة، اشتد عليه، وأكثر من الاغتسال، حتى تحرج من ذلك الشيخ الكربلائي، فأشار عليه بعض الرفاق بأن يشرب الكافور، ففعل وعندما وصل إلى بلاد مصر لازمه ذلك المرض فلم يستطع أن يتفرغ للتدريس واكتفى بالتعرف على الشيوخ والعلماء المشهورين أمثال، تقي الدين ابن دقيق العيد، وابن الرفعة، وصفي الدين الهندي، والتبريزي، وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول.

عودته إلى تلمسان:

وبعد ذلك غادر مصر بصحبة ذلك الرئيس إلى الحجاز وأدى فريضة الحج، وسار معه إلى بلاد العراق، وزار كربلاء موطن ذلك الريس وبقي عنده فترة من الوقت، ثم عزم على العودة إلى تلمسان، فكلف ذلك الرئيس من رافقه في عودته حتى أوصلوه إلى بلاد زواوة آمناً مطمئناً كما ذكر ابن خلدون وسلموا له دنانيره التي أخذها معه في رحلته إلى المشرق وأخذها منه الرئيس الكربلائي وحفظها له، بدل أن ينفقها، وكلف مرافقيه أن يتسلموا منه وصلاً يثبت لديه تسلمه إياها بعد عودتهم، وهذا يدل على أن محمد الآبلي احتل منزلة رفيعة لدى هذا الكربلائي ولا شك أن ذلك كان بسبب سعة علمه، وعلو قدره وأخلاقه الفاضلة، وسلوكه الحسن.

ومن بلاد زواوة أخذ محمد الآبلي طريقه إلى تلمسان التي كان يحكمها في هذه الفترة الأمير الزياني أبو حمو موسى الأول، فانتشرت أخباره بها، وسمع الأمير الزياني بمقدمه، وتفوقه في علوم الحساب. فدعاه إليه وعرض عليه وظيفة محاسب لضبط أموال خزينة الدولة فلم يستحسن العرض وحاول أن يعتذر، فأرغمه على العمل في قيادة بني راشد من كور بلده.

فراره إلى فارس ومراكش:

ولما لم يكن على استعداد للعمل في هذه الوظيفة فر إلى مدينة فاس،

واختفى لدى العالم اليهودي خليفة المغيلي الذي اشتهر بتفوقه في علوم الحكمة، ودرس عليه علومه تلك واستكملها وأتقنها، ثم غادر فاس إلى مراكش عام 710 هـ (1310 م) واتصل هناك بالإمام العلامة أبي العباس أحمد بن البناء، ولازمه مدة من الزمن، ودرس عليه علوماً كثيرة ومتنوعة في المعقول والمنقول، والتصوف، وأخذ عليه مقامه في التصوف.

وعندما استغنى من علوم ابن البناء استدعاه إليخ شيخ الهساكرة علي بن محمد بن تاروميت، بهسكورة، ليدرس عليه، ويتزود من معارفه فذهب إليه وبقي عنده مدة من الوقت تصدى للتدريس، والتعليم، واجتمع حوله عدد كبير من طلاب العلم والمعرفة، واستفادوا منه كثيراً ويجلوه وعظموه، وأكبروه، وشكره أستاذه ابن البناء على جهوده تلك في التعليم والإقراء بهكسورة.

وعندما استدعى السلطان المريني أحمد بن البناء إلى فارس ليستقر بها، أخذ معه الآبلي إليها، فتصدى للتدريس والتعليم، وتفرغ للإقراء، وارتفعت سمعته، وذاع صيته أكثر، وأجمع الناس على تلقيه بعالم الدنيا، وأعلم خلق الله في فنون المعقول والمنقول وسلموا بأمانته.

عودته إلى تلمسان:

وعندما غزا السلطان المريني أبو الحسن مدينة تلمسان واحتلها في رمضان عام 737 هـ (إبريل 1337 م)، حدثه العلامة أبو موسى عيسى بن الإمام، عن مترجمنا هذا الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي، وأشاد بفضله ونبوغه في العلوم والمعارف، وكان هذا السلطان يحب العلماء، ويجلهم، ويقربهم منه، فاستقدمه من فاس، وضمه إلى مجلس علمائه الذين أحاطهم به، فعكف على تدريس العلوم العقلية، وأبدى استعداده لخدمة السلطان، والتف حوله عدد كبير من طلبة العلم، والعلماء، والأكابر، يدرسون عليه ويستفيدون من علومه ومعارفه العقلية والنقلية. وعندما قرر السلطان المريني أبو الحسن أن يقوم بحملته العسكرية على البرتغال بالأندلس، صحبه معه مثل ابن مرزوق الخطيب، وابني الإمام، وشهد معهم نكبة معركة طريف في جمادى الأولى 471 هـ (أكتوبر 1340 م)، وما أنجز عنها من أسر ابن السلطان.

رحيله مع أبي الحسن المريني إلى تونس:

وعندما عزم السلطان أبو الحسن على غزو تونس عام 748 هـ (1347 م) صحبه معه كذلك مع عدد آخر من العلماء الأجلاء كعادته، وشهد معه نكبة القيروان كذلك في العام الموالي، ورحل معه إلى مدينة تونس، ولازمه طيلة المدة التي بقي بها، ثم لما عزم السلطان على مغادرة تونس بعد أن بلغته أخبار ثورة ابنه أبي عنان ضده، أظهر للسلطان عدم رغبته في السفر، وساعده في رغبته محمد بن خلدون والد عبد الرحمن بن خلدون، وأوضح للسلطان بأنه لا يستطيع السفر معه، وكان يرغب هو الآخر في إبقائه إلى جانبه ليستفيد منه طلبة العلم، ومنهم ابنه عبد الرحمن بن خلدون.

وقد تعرف محمد الآبلي على علماء تونس وكبرائها، وتصدى للتعليم والتدريس، والتف حوله جموع الطلبة ومنهم الفقيه أبو عبدالله بن عرفة، وعبد الرحمن بن خلدون الذي أشاد بفضله عليه، وبعلمه، وخصاله، وقال بأنه درس عليه العلوم العقلية، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، ولازمه طيلة وجوده بتونس وشهد له بالتفوق في كل ما درسه وتعلمه منه، وذكر أن الجميع كانوا يجلونه ويشيدون به وبقدره، وأكد أنه كان من ضمن من ثبطه على عدم السفر مع السلطان أبي الحسن وكان في ذلك نجاته، لأن معظم العلماء الذين سافروا معه غرقوا أمام مدينة بجاية عندما هبت عاصفة بحرية عليهم وداهمت مراكبهم.

عودته إلى تلمسان:

وقد بقي الآبلي بتونس بعض الوقت إلى أن طلبه السلطان أبو عنان المريني من صاحب تونس وأميرها، فأشخصه إليه مع صاحب أسطوله الذي حضر إلى تونس لنفس الغرض وغيره، وعندما وصل إلى بجاية نزل بها واقترح عليه رجال العلم أن يدرس لهم مختصر ابن الحاجب، وأيد طلبهم صاحب الأسطول الذي يجله فامتثل رغبتهم، ودرسه لهم في ظرف شهر من الزمن.

وبعد ذلك رحل مع صاحب الأسطول إلى ميناء هنين، ومن هناك التحق

بمدينة تلمسان برّاً واتصل بأبي عنان الذي كان آنذاك هناك، فنظمه في مجلس علمائه على غرار أبيه، واتخذه لنفسه شيخاً وأستاذاً، وتصدى للدراسة عليه وأخذ عنه عدة علوم ومعارف لغوية وحكمية، عقلية ونقلية والتفّ حوله في حلقه دروسه عدد آخر من العلماء الأجلاء على رأسهم عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه أبو زكرياء يحيى، وابن الصباغ المكناسي، والشريف التلمساني، والشريف الرهوني، وابن مرزوق الخطيب الجد، وأبو عثمان العقباني، وابن عرفة التونسي، والولي بن عباد، والمقري، وغيرهم وهم كثيرون جداً، وأشادوا به جميعاً، فقال عنه ابن مرزوق الجد: بأنه شيخ المغرب في العلوم العقلية وإمام وقته، وقال عنه عبد الرحمن بن خلدون: إني لا أعرف بالمغرب وإفريقيا فقيهاً كبيراً إلا وله عليه مشيخه.

ورغم سعة علم محمد الآبلي، وكثرة نشاطه في التعليم وكثافة جهوده في هذا الميدان، إلا أنه لم يكتب ولم يؤلف، ولم يخلف لنا آثاراً علمية مكتوبة له، ولم تحدثنا المصادر عن شيء من ذلك، بل على العكس ذكرت أنه لا يميل إلى الكتابة والتأليف، ونقلت عنه قوله: «إنما أفسد العلم كثرة التآليف وأذهبه بنيان المدارس»، وهو رأي غريب إن صح منه وثبت.

رأي الآبلي في التأليف والمسلمين وملوكهم:

وقد تأسف الآبلي على كثرة انقسام المسلمين على أنفسهم في عهده واختلاف كلمتهم، مما أدى إلى ضعفهم، وتشتتهم، وتسلط الأعداء النصارى على كثير من بلدانهم خاصة بالأندلس، وأُثِرَ عنه في هذا الميدان قوله: «لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل في حق بني إسرائيل لأننا أتينا أكثر مما أوتو» وهو يشير بذلك إلى افتراق كلمة المسلمين على أكثر مما نزل في حق بني إسرائيل.

وقد أخذ الآبلي المسلمين على تعدد ملوكهم، وتغلب الهوى عليهم، واندراس معالم التقوى فيما بينهم، كما آخذهم على تحريف وتبديل كلام الله تعالى بتأويله تأويلاً خاطئاً على حسب هوى كل واحد منهم.

فإذا كان هذا هو الحال في عهد الآبلي في القرنين السابع والثامن الهجريين (13 و14 م) فكيف الحال في عصرنا هذا بالقرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين (19 و20 م) الذي تبدلت فيه كل الأمور والأوضاع، وتغيرت، وانقلبت رأساً على عقب، وأصبحت الفضيلة والقيم الدينية غريبة لدى أغلب الناس من الجماهير الإسلامية شرقاً وغرباً.

إن شيخاً كون عالماً كعبد الرحمن بن خلدون، لا بد أن يكون عظيماً وجليل القدر، عالي المكانة، وهكذا كان محمد بن إبراهيم الآبلي، وشهد له بذلك علماء عصره، واللاحقون بعد ذلك، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه.

وفاته:

وقد توفي بمدينة فاس في ذي القعدة عام (757 هـ ـ 1356 م) ودفن كما ذكر ابن مرزوق الخطيب، ما بين المدينة البيضاء، وفاس، وحضر السلطان المريني جنازته، وسار في موكبها.

علماء أسرة ابن مرزوق العجيسية التلمسانية
(560 ـ 918 هـ = 1050 ـ 1512 م)

أصل ومنبت الأسرة:

تنتمي عائلة ابن مرزوق إلى قبيلة عجيسة التي كانت تقطن منطقة المسيلة وقلعة بني حماد بجبال المسيلة وإقليم الزاب في شرق منطقة الهضاب العليا الجزائرية الشرقية، والبعض منها كان يقطن جنوب غرب تونس الحالية التي كانت تعرف آنذاك بإفريقيا.

وفي وقت مبكر من صدر الفتح الإسلامي هاجرت هذه العائلة إلى مدينة القيروان واستقرت بها، وقد يكون ذلك خلال عهد الدولة الأغلبية التي كان لها شأن في المنطقة، وفي التاريخ الإسلامي المغاربي.

هجرتهما إلى تلمسان:

وفي نهاية القرنين الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي هاجرت هذه العائلة من القيروان إلى تلمسان بعد أن زحف عرب بني هلال على شمال إفريقيا، واستقرت برباط العباد، وتوارث أفرادها خدمة ضريح أبي مدين شعيب بن الحسين، ورباطه، كقيمين واشتغلوا بالعلم، والتدريس، والثقافة، والدين، وخاض البعض منهم غمار السياسة وكان لهم شأن.

سلسلة أجدادها:

ويعتبر مرزوق الذي تنتمي إليه هذه الأسرة، أول من استقر بتلمسان، بعد أن هاجر إليها من القيروان، وذلك خلال سيطرة اللمتونيين المرابطين، وكان

رجل دين، وفلاح مالك للأرض التي امتلكها بعد أن استقر بالعباد، وسار أولاده على منواله في خدمة الأرض.

واشتهر ابنه أبو بكر بن مرزوق، بإخلاصه وتحمسه لخدمة ضريح أبي مدين شعيب الأندلسي، بالعباد، وعنه توارث أفراد أسرته هذه الوظيفة كقيمين، لهذا الضريح، وذلك الرباط.

وعندما توفي أبو بكر خلف وراءه ابنين هما: محمد الأول ولم يكن له شأن يذكر، وقد يكون مات قبل أبيه.

ومحمد الثاني وخلف أباه كقيم على ضريح أبي مدين بالعباد، ولقبه يحيى بن خلدون وصاحب البستان بالقيرواني، لكون جده كان يعيش بالقيروان قبل هجرته إلى تلمسان أو أنه انتقل إلى القيروان فترة من الوقت في صدر شبابه ثم عاد إلى تلمسان، حفظ محمد هذا القرآن الكريم، ثم تصدى للدراسة على أجلة علماء عصره أمثال: أبي زكرياء ابن العصفور، وأبي إسحاق التنسي وأبي يزيد اليزناسني، وتضلع في الفقه والحديث، ومال إلى حياة الزهد والتبتل، والتصوف، وانقطع على الناس في خلوة خاصة في أخريات أيامه إلى أن توفي في أوائل شهر رجب 681 هـ (1282 م).

ودفن في دار الراحة داخل الجامع الأعظم بجوار القصر القديم بتلمسان، ودفن معه فيما بعد الأمير باغمراسن الزياني تبركاً به وبفضله، وهو الذي يلقب بجد الجد[1].

وعندما توفي محمد (الثاني) هذا خلف من ورائه ابنين هما:

محمد (الثالث) الذي عاش أحداث غزو السلطان المريني أبي الحسن، لتلمسان، فقربه إليه هذا السلطان وأسند إليه الأشراف على ترميم ضريح أبي مدين وبناء مسجد بجواره، وعندما تم بناء هذا المسجد عين فيه من قبل السلطان خطيباً، ومرشداً، ومدرساً، وذلك حوالي 733 هـ (1332 م) وقد أكد

---

(1) يمكن العودة إلى بارجيس 1516 . BARGES: COMPLEMENT وكذلك إلى البستان ص 226، وبغية الرواد جـ 1 ص 114 ـ 115.

ابن مرزوق الخطيب، والجد، في كتابه المسند بأن الجامع الذي أمر السلطان أبو الحسن ببنائه بجوار ضريح أبي مدين بالعباد، أشرف على بنائه عمه هذا محمد (الثالث)، وشاركه هو في ذلك كما سيأتي في ترجمته فيما بعد، وأورد له وصفاً طويلاً في ذلك الكتاب (ص 403 ـ 404) وذكر المقري بأن محمداً (الثالث) هذا كان ما يزال حياً عام 4747 هـ (1346 م) وأنه تتلمذ عليه.

وأحمد الأول الذي ولد يوم 02 من شهر محرم من عام 681 هـ (1282 م) وذلك قبل حوالي سبعة شهور من وفاة أبيه. حفظ القرآن الكريم منذ صغره، واعتكف على الدراسة وتحصيل العلم بكثير من الجد في تلمسان، وفاس، ومال منذ الصغر إلى حياة الزهد والتصوف، ولذلك اغتنم فرصة قيام السلطان المريني أبي يعقوب يوسف بغزو تلمسان وفرض الحصار عليها، فهاجر إلى المشرق، وأقام بمصر مدة، ثم ذهب إلى الحج لأداء فريضة الحج، وهناك قرر أن يجاور الحرمين حتى يموت، وفعلاً استقر هناك حتى توفي عام 741 هـ (1340 م) بمكة ودفن بباب المعلا، ولكن صاحب البستان ذكر أنه دفن في مكان بين المحرج خارج باب الجياد. وهذا الباب، يوجد بتلمسان، وذكرت دائرة المعارف الإسلامية بأنه توفي بمكة، ودفن بباب المعلى وقبره مزار كبير، وهو ما أكده يحيى ابن خلدون، وذلك أصح.

خلف أحمد (الأول) هذا ابنه محمد (الرابع) الذي اشتهر بألقاب: الخطيب، والجد، والرئيس، ولد عام 710 هـ (1310 م) من أمه خديجة بنت أبي الحسن التنسي وتوفي عام 781 هـ (1379 م)، وسيكون له شأن كبير في الفكر، والثقافة، والسياسة.

وعندما توفي خلف من ورائه ابنين اثنين هما محمد (الخامس) ولم يكن له شأن يذكر وتوفي عام 760 هـ (1359 م). وأحمد (الثاني) ولم يكن له شأن يذكر كذلك ما عدا كونه كان عالماً وفقيهاً اهتم بالدراسة والتفقه.

وعندما توفي أحمد (الثاني) هذا، خلف ابنه محمد (السادس) الذي عرف واشتهر بلقب الحفيد، بالنسبة لجده محمد «الرابع» الخطيب والجد، والرئيس،

ولد عام 766 هـ (1364 م) ونال شهرة ومكانة جده واعتبره المترجمون له خاصة المقري في كتابه، نفح الطيب، بأنه أستاذ العلوم العربية الإسلامية في المغرب الإسلامي، وقد توفي عام 842 هـ (1438 م) ودفن بجامع تلمسان وخلف وراءه طفلين هما: محمداً، وحفصة.

أما الابن محمد (السابع) فقد اشتهر بلقب الكفيف، وولد عام 824 هـ (1421 م)، وتوفي عام 901 هـ (1495 م)، وخلف وراءه أحمد (الثالث) الذي عرف بحفيد الحفيد، وتوفي عام 925 هـ (1519 م).

وأما البنت حفصة، فقد خلفت ابناً اسمه محمد (الثامن) الذي توفي عام 918 هـ (1512 م)، وكان آخر حلقة في سلك هذه السلسلة من العلماء المرزوقيين الأجلاء، الذين تفخر بهم تلمسان والجزائر بصفة خاصة، والبلدان المغاربية الأخرى والأندلس، والمشرق.

وقد اشتهر في هذه العائلة بصورة خاصة محمد (الرابع) ابن مرزوق الخطيب، والجد، والرئيس وحفيده أحمد (الثاني) ابن مرزوق الحفيد العجيسي، اللذان بلغا الذروة في العلم والثقافة وكونا أجيالاً من العلماء، وزودا المكتبة العربية الإسلامية بعدد كبير من الكتب العلمية في مختلف فروع الثقافة الإسلامية، وسنفرد لبعض هؤلاء العلماء المرزوقيين دراسات خاصة حسبما يسمح به الوقت، والظروف، وحسبما تفيدنا به المصادر المتعددة، والمتنوعة. التي حاولنا قدر الإمكان تتبعها وتصفحها، ونبدأ بأحمد (الأول) ابن محمد بن مرزوق.

الشيخ أحمد (الأول) ابن محمد بن مرزوق

ميلاده ونشأته:

ولد أبو العباس أحمد (الأول) ابن محمد بن مرزوق ليلة الاثنين الثاني من شهر محرم عام 681 هـ (1282 م)، واعتكف منذ صغره على حفظ القرآن الكريم، على الولي الصالح الشيخ يوسف بن يعقوب بن علي الصنهاجي، وأبي

محمد عبد الواحد المستاري، وعندما كبر درس علوم الفقه الإسلامي على الشيخين الفقيهين، وعلى الإمام ابن هدية، وأبي عبدالله بن عبد الـرازق، وابن أبي يحيى، وأبي محمد عبد المهيمن.

وقد ذكر صاحب البستان بأن له صلة قرابة مع أسرة بني علي صاحب قلعة بني حماد، الصنهاجيين، اشتهر أحمد (الأول) بـن مرزوق بالزهد، والتقوى، والورع، كما اشتهر بالتضلع في علوم كثيرة، دينية، ولغوية، خاصة الفقه والحديث.

وتصدى للتدريس بالعباد سنوات طويلة، وتخرج عليه عدد كبير من طلبة العلم داخل تلمسان وخارجها.

قصته مع السلطان المريني أبي يعقوب يوسف[1]:

وفي عهده قام السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بغزو تلمسان وحصارها ذلك الحصار الطويل من عام 698 هـ إلى عام 705 هـ (1299 ـ 1307 م) فعمل على تقديم العون والمساعدة لأخته وخاله داخل المدينة المحاصرة وذلك بواسطة خادم لأبيه يقوم بربط الصلة بين العباد وتلمسان.

وفي إحدى هذه المرات سقطت رسالة من هذا الخادم وعثر عليها بعض أنصار السلطان المريني مكتوباً عليها في ظهرها: تدفع إلى أحمد بن مرزوق، ويداخلها من خاله إليه، وفيها يخبره خاله بأنه توصل بوعاء السمن الذي أرسله يوم كذا، وبالأشياء الأخرى يوم كذا وكذا قبله وبعده.

وعندما قرئت هذه الرسالة على السلطان غضب غضباً شديداً وقال ماذا نفعل نحن إذن بوجودنا هنا، وكان قد أهدر دم كل من يقدم الإغاثة إلى المحاصرين أو يعلم بها ولا يبلغ عنها، أو يساعد على تبليغها أو يسكت ويغض الطرف عن ذلك.

ولذلك أمر السلطان المريني بإحضار أحمد بن مرزوق إليه من العباد،

---

(1) انظر البستان ص 27 ـ 30. نفح الطيب ـ جـ 7 ص 165، بغية الرواد ج.ص 115.

فأحضر، وحجز بحجرة داخل القصر كان بها الشيخ ابن حسن يقوم بنسخ القرآن الكريم، فآنس به وتبادل أطراف الحديث معه، وعندما خرج حدث السلطان عنه، كما حدث الفقيه أبا الحسن بن يخلف التنسي شقيق أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي الذي هو جد أحمد بـن مرزوق هذا من أمه، فأمر السلطان فقيهه أبا محمد عبدالله بن أبي مدين بأن يذهب إليه ويستفسره عن الرجل صاحب الرسالة التي وجهت إليه، فاتجه إليه ولاطفه، وأخبره برغبة السلطان، فأنكر كل صلة له بصاحب الرسالة، ومحتوياتها فشكره فقيه السلطان، وقال له، أثبت على موقفك هذا، ولا تخف حتى لا يقتل أحد بسببك فأنت ابن الأكرمين وذلك ما فعله مع كل الذين جاؤوه بعد الفقيه ليستفسروه، ويستعلموه عن صاحب الرسالة، رغم تشددهم وتهديدهم له بإلحاق الأذى به.

وعندئذ استدعاه السلطان ليتصل به مباشرة، فقاده إليه وزيره عبدالله القشيري، وعندما أدخل عليه وجد معه الفقيه أبا الحسن بن يخلف التنسي شقيق جده، الذي سبق أن حذر السلطان من النيل منه لأن كل الناس بتلمسان وخارجها يقدرون علمه وفضله.

ولهذا السبب تلطف السلطان معه، ولم يسمعه أية إساءة بل طلب منه الدعاء الصالح، وعرض عليه مساعدة إذا احتاج فرفض مؤكداً له بأنه لا يحتاج لأي شيء مما يدل على عفته وعزة نفسه، فأطلق سراحه بينما كان الناس يظنون أنه سيقطع رأسه.

وعندما خرج من قصر السلطان بعد هذه المقابلة، قال السلطان للفقيه أبي الحسن التنسي، لمثل هذا ينبغي أن تزوج ابنة أخيك أبي إسحاق، فقال له، قد سبق لنا معهم في هذا الحديث فعلاً، فأمره السلطان بالعمل على تنفيذ ذلك بأقصى ما يمكن من السرعة، وتمت الاتصالات في اليوم الثاني لهذا الحادث، بواسطة فقيه السلطان أبي محمد بن أبي مدين، وتمنع شقيق ابن مرزوق محمد (الثالث) في البداية ثم قبل وتحمل السلطان دفع 480 دينار ذهبياً وفرساً، صداقاً

لها، وتم الزواج، والإطعام بعد مقتل السلطان المريني أبي يعقوب يوسف بالمنصورة بسبعة أيام، ورفع الحصار عن سكان مدينة تلمسان، الذين كتب لهم أن يكون لهم حظ في ذلك الطعام واعتبروه تيمناً، وخيراً وبركة.

وقد ساق هذه القصة ابن مريم صاحب كتاب البستان ناقلاً عن مناقب حفيد الحفيد ابن مرزوق، وأوردها بمزيد من التفصيل لم نر له لزوماً هنا، لأن فيها كثيراً من الخلط.

أما ابن مرزوق الخطيب، والجد، فقد ساق القصة في مسنده بكيفية أخرى أكثر وضوحاً وأقل خلطاً.

رحلته إلى المشرق:

بقي أحمد (الأول) بن مرزوق عدة سنوات أخرى بالعباد يواصل نشاطه العلمي والفكري، وفي عام 717 هـ (1317 م) رحل إلى المشرق صحبة محمد (الرابع) ابن أخيه، وأقام بمصر مدة للدراسة، والتدريس، والتعرف على رجال العلم، والعلماء بها، ثم سافر إلى الحجاز وأدى فريضة الحج مع ابن أخيه، ولما وصل إلى المدينة المنورة قرر أن يجاور بها إلى أن يموت وطلب من ابن أخيه محمد (الرابع) بن مرزوق أن يعود إلى تلمسان ليساعد عمه محمد (الثالث) بالعباد، ويؤنس أمه وباقي أفراد أسرته، فامتثل الولد، وغادر المدينة المنورة مع عدد من المغاربة، وذلك في يوم وموقف مشهودين.

وفاته بمكة:

أما أحمد (الأول) المجاور فقد بقي يتردد بين مكة والمدينة إلى أن توفي بمكة في ذي القعدة 741 هـ (1340 م) ودفن بباب المعلا، وقبره معروف، يزار، وهو ما أكده ابن خلدون، أما صاحب البستان فقد ذكر أن قبره معروف ما بين الأسوار خارج باب الجياد، وذلك بتلمسان على ما يبدو، وهو محظ خطأ.

الشيخ محمد (الرابع) ابن مرزوق الخطيب والجد، والرئيس

(710 ـ 781 هـ= 1310 ـ 1379 م)

ميلاده ونشأته:

العالم الثاني من علماء أسرة ابن مرزوق، هو أبو عبدالله شمس الدين محمد (الرابع) بن أحمد (الأول) بن محمد (الثاني)، بن محمد (الأول) بن أبي بكر مرزوق الذي اشتهر بألقاب: الخطيب، والجد، والرئيس.

ولد بتلمسان آخر عام 710 هـ (1310 م)، واعتكف على حفظ القرآن الكريم، منذ صغره، وتعلم مبادىء اللغة العربية وآدابها بتلمسان على عادة كل الصغار وأطفال المسلمين(1).

سفره إلى الحجاز:

وفي عام 718 هـ (1318 م) سافر مع والده أحمد (الأول) إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ومرا على مدينة بجاية وبقيا بها بعض الوقت، اعتكف خلالها الابن على الدراسة والتحصيل، ودرس على الشيخ أبي علي ناصر الدين المشدالي وغيره. ثم واصل سيره مع أبيه إلى المشرق وعمره لا يزيد على ثماني سنوات يوم أن غادر تلمسان.

---

(1) عن ابن مرزوق الخطيب، وعائلة المرازقة. انظر: التعريف بابن خلدون. ص 396 ـ 398. الزركشي. تاريخ الدولتين: ص 96. البستان. ص 184 ـ 190. نيل الابتهاج. ص 267 ـ 270. الديباج المذهب. ص 305 ـ 309. ابن حجر. الدرر الكامنة. جـ 3. ص 360 ـ 362. نفح الطيب. جـ 7. ص 309 ـ 338. جذوة الاقتباس. ص 140 ـ 142. تعريف الخلف. جـ 1. ص 136 ـ 144. الكتاني. فهرست الفهارس. جـ 1. ص 394 ـ 396. الأعلام. جـ 4. ص 26 ـ 37. كحالة. معجم المؤلفين. جـ 9. ص 16 ـ 17. الزركلي. الأعلام. جـ 6. ص 226. محمد حاج صادق. دائرة المعارف الإسلامية. جـ 3. ص 890 ـ 892. بغية الرواد. جـ 1. ص 115، الجيلالي. ص 131 ـ 134. المسند. ص 12 ـ 58. وكذلك:

BROCKELMAN. G.A.L. 11.310. sup. 4.335. A.BEL. L'inscription Arabes de fés. PP. 47- 50. E.LIVI PROVENÇal: Le Musnad Dien Marzuk dans Hespéris. V. 1925. PP. 1-82.

وعندما وصل إلى الحجاز وأدى فريضة الحج مع والده، اعتكف على الدراسة على علماء العصر في ذلك البلد، ثم ترك والده مجاور للحرمين وقام هو بجولة إلى كل من الشام، ومصر، وسمع وروى ودرس على عدد من العلماء الأجلاء، في مكة، والمدينة، وبيت المقدس، وحبرون، والقاهرة ويلبيس، والإسكندرية، وحصل على تبرز، وتفوق في علوم كثيرة كالطب والرواية والخط، وبصورة خاصة في علوم الحديث الذي اعتكف على دراستها على حوالي مائتين وخمسين شيخاً، وألف فيها عدداً لا بأس به من الكتب والدراسات، مما جعله يذكر في إحدى رسائله من السجن خلال إحدى نكباته السياسية بأنه «لا يوجد اليوم من يسند أحاديث الصحاح قراءة وسماعاً، من باب الإسكندرية إلى البرين، والأندلس غيري».

عودته إلى تلمسان:

وبعد حوالي خمسة عشر عاماً من الإقامة، والتجوال والتنقل، ببلدان وعواصم المشرق، للدراسة، والتحصيل، والتعرف على أحوال المسلمين، قرر أبوه أحمد (الأول) أن يجاور بالحرمين، ويقضي بقية حياته إلى أن يموت، وطلب من ابنه أن يعود إلى تلمسان وقال له: «يا بني وفاتي قربت، وأنا قد سألت الله أن أموت غريباً، فلا تفسد علي عملي» وأوصاه أن يمر في طريقه، على الشيخ أبي عبدالله المرشدي بالمنية في مصر ليبلغه سلامه وتحيته.

فامتثل الابن أمر ورغبة أبيه، وودعه في موقف مشهود بجوار قبر الرسول بالمدينة المنورة، وسافر مع عدد من المغاربة الذين قرروا العودة إلى المغرب ومنهم، عثمان بن خرار، والحاج بن أبي يوجان وإبراهيم بن الشنتوف، وعبد الرحمن الأشبيلي، ومسعود القشيري العدوي.

وعندما وصل إلى الإسكندرية ذهب لزيارة الشيخ المرشدي كما أوصاه أبوه، فقدمه لإلقاء خطبة بجامع الإسكندرية، وتهيب، ولكنه امتثل، فأبدع بحسن بيانه وبلاغته، وعمق معارفه، وشكره الشيخ وقال له ستصبح خطيباً، وحمل لقب الخطيب من ذلك اليوم.

وبعد إقامة قصيرة بالإسكندرية واصل طريقه إلى مسقط رأسه، ومر على مدينة طرابلس، ثم اتجه إلى الجريد، ومن هناك صعد شمالاً إلى مدينة تونس، ثم إلى مدينة بجاية، ومدينة الجزائر.

وعندما وصل إلى الشلف، تلقاه عبد الواحد بن محمد كاتب العسري، ومعه رسالة إليه من السلطان المريني أبي الحسن، وعمه محمد (الثالث) خطيب مسجد العباد، يستحثانه على الإسراع بالوصول إلى تلمسان، وأخبره عمه في تلك الرسالة بأنه عين خطيباً في ذلك المسجد بالعباد.

تعيينه خطيباً بمسجد العباد:

وصل محمد بن مرزوق إلى تلمسان يوم 17 رمضان 737 هـ (20 إبريل 1337 م)، ووجد السلطان أبا الحسن ما يزال يحاصرها بجيشه وتمكن من اقتحامها بعد تسعة أيام من ذلك التاريخ، وكان أول شيء قام به في اليوم الثاني لوصوله هو زيارة السلطان ومقابلته في برج الكيس، وبعد ذلك تفرغ لمشاغله الخاصة، وعلاج شؤون عائلته.

وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان دعاه السلطان ليحضر الاحتفال بليلة القدر، فاعتذر، وفي صباح اليوم الموالي حضر إليه عمه وقال له بأن السلطان يدعوك إليه حالاً فذهب واستقبله بكل حفاوة وتقدير وعينه خطيباً في مسجد العباد، وهو ما يزال شاباً يافعاً، وضمه إلى مجلس علمائه الكبار الذي كان البعض منهم شيخاً وأستاذاً لوالده، واتخذه معلماً لأولاده وكاتباً لأسراره، وقاضياً للفصل في شكاوى الناس، وسفيراً إلى الملوك والأمراء ومدرساً وواعظاً في المساجد، وقد ذكر أنه ارتقى وخطب على ثمانية وأربعين منبراً، في بلاد شتى من أقصى المغرب ووسطه، وعدوة الأندلس، والزاب، وإفريقيا، فما من قاعدة وحضرة ملك في هذه البلاد إلا وعلا منبرها وأخلص الدعاء لصاحبها الذي قلده ذلك.

ورغم أنه عاد من المشرق كما رأينا بزاد وافر من العلوم والمعارف، إلا أن ذلك لم يمنعه من مواصلة دراسته على من هم أعلى منه فلازم العالمين

الأخوين ابني الإمام، أبا زيد عبد الرحمن، وأبا موسى عيسى، وأخذ عنهما مادة الفقه الإسلامي وتعمق في دراستها عنهما حتى أصبح هو الآخر فقيهاً.

سفره إلى البرتغال:

وفي عام 741 هـ (1340 م) أو الذي بعده صحبه معه السلطان المريني أبو الحسن في حملته الحربية ضد البرتغال بالأندلس، وشهد هناك معركة طريف التي حصلت في جمادى الأولى 741 هـ (أكتوبر 1340 م) وانهزم السلطان فيها، وأسر له ابنه الأمير أبو عمر تاشفين.

وخلال هذه الأحداث، وبينما اسلطان يقيم بسبتة وجيشه، يحاصر الجزيرة، علم ابن مرزوق بأن عمه بتلمسان مريض، فاستأذن من السلطان أن يسمح بزيارته وعيادته، فأذن له وزوده برسالة إلى كل المسؤولين في كل المناطق التي سيمر بها، ليعتنوا به ويزودوه بما يحتاج إليه في الذهاب والإياب، وطلب منه ألا يتأخر كثيراً، وأن يمر خلال عودته بمدينة فاس ليستقصي له أخبارها وأحوالها، ويعود بها إليه ففعل ما أمره به.

سفره إلى البرتغال في مهمة ديبلوماسية:

وفي عام 748 هـ (1347 م) أرسله السلطان أبو الحسن سفيراً من قبله إلى الفونسو الرابع البرتغالي، ليفاوضه في إطلاق سراح ابنه أبي عمر تاشفين الذي أسر في معركة طريف، فذهب، وفاوض، ونجع في مسعاه وتحصل على إطلاق سراح الأمير الأسير، وعاد به مع عدد من زعماء النصارى الإسبان الذين وجههم الفونسو إلى أبي الحسنى ليهنئوه على نجاحه في غزو تونس واحتلالها.

واتجه بهم جميعاً إلى تونس، وعندما وصل إلى قسنطينة علم بأخبار كارثة القيروان التي تمرد العرب في ضواحيها على أبي الحسن، ونكبوا بقوته، واضطر أن ينسحب إلى صفاقس.

أسفاره إلى إفريقيا والمغرب الأوسط:

وبينما هو في قسنطينة وافته رسالة من أبي الحسن يطلب منه فيها أن يتجه إلى بسكرة ليسعى من هناك في إنقاذ زوجته وأهله المحاصرين بها، فالتحق

بسكرة، ثم بتونس عندما علم أن السلطان التحق بها بعد كارثة القيروان، وبمجرد وصوله أمره السلطان أن يلتحق بالقافلة التي يوجد فيها ابنه أبو عمر، وعريفه أبو زيان، ووزيره محمد بن العباس، وعدد آخر من بني مرين فأسرع للحاق بهم، وأدركهم في مُقْرَةَ، وساعده في مهمته أبو يعقوب ابن مزني، وأبو راشد يعقوب بن علي، وجمعا له شيوخ الذواوة وأهل المنطقة الذين رافقوه حتى أوصلوه هو والقافلة إلى تونس.

ومن هناك كلفه السلطان بالسير على رأسهم جميعاً مرة أخرى إلى بسكرة، وطلب من ابن مزبي أن يتعاون معه في استخلاص زوجته وأهله بمدينة قسنطينة، الذين كانوا في طريقهم إليه، وعندما وصل ابن مرزوق إلى بسكرة علم أن سكان مدينة قسنطينة ثاروا على عامل السلطان أبي الحسن ونهبوا المدينة، وبايعوا الفضل بن أبي يحيى الموحدي.

وبينما ابن مرزوق ببسكرة جاءته رسالة أخرى من السلطان أبي الحسن بتونس يلح فيها عليه أن يبذل كلّ جهوده في إنقاذ زوجته وأولاده، ومرافقتهم إلى فاس، فأسرع إلى قسنطينة، وتمكن من إنقاذ أهل السلطان، واتجه بهم إلى فاس، وعندما وصل إلى ظاهر تلمسان توفيت زوجة السلطان، وواصل طريقه إلى فاس، واستقبله أبو عنان الذي تمرد على والده بكل حفاوة وتقدير نظراً لهذا الجهد الكبير الذي بذله خلال هذه التقلبات السياسية والعسكرية في معظم أصقاع بلدان المغرب الأدنى والأوسط، والأقصى.

عودته إلى تلمسان:

وكان من المفروض أن يستقر محمد بـن مرزوق بفاس بعد هذه الرحلة الطويلة والمتعبة، ولكنه لم يكن مرتاحاً لتلك التطورات السياسية والعسكرية خاصة ذلك الصراع الذي ظهر وبرز بين السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، وتحول إلى صراع دموي وينذر بعواقب وخيمة، فطلب ابن مرزوق من الأمير المريني أبي عنان أن يعفيه من مهامه هذه، ويأذن له في الانصراف إلى مسقط

رأسه، فوافقه وسرحه، واتجه إلى تلمسان واعتكف بمسجد العباد على التعليم والتدريس مدة من الزمن.

وساطته بين تلمسان وأبي الحسن:

ثم أن الأمير الزياني أبا سعيد عثمان الذي استعاد عرش تلمسان من المرينيين، فكر في أن يوسطه بينه وبين السلطان أبي الحسن الذي كان يفكر في حشد قواته والزحف على تلمسان لاسترجاعها، واستدعاه إليه وأوضح له الأمر فقبل القيام بالمهمة وأرسل من قبله المدعو عليا بن محمد برسالة إلى أبي الحسن بتونس فلقيه في مدينة الجزائر عائداً من بجاية بعد أن نجا من الغرق هناك، فسر بتلك الرسالة، وأجابه عنها بمثلها وأهمل الإجابة عن رسالة الأمير أبي سعيد عثمان الزياني، وقرر ابن مرزوق أن يذهب بنفسه إلى مدينة الجزائر لمقابلة السلطان وغادر تلمسان وأخذ طريقه عبر الصحراء، حتى يتجنب المشاكل.

اعتقاله:

ولما لم يكن الأمير ثابت شقيق أبي سعيد عثمان، على علم بهذه المأمورية، وهذه المفاوضات السرية، فقد غضب على أخيه وعاتبه، وكلف صغير بن عامر بملاحقة ابن مرزوق واعتقاله وإعادته، فلحق به وأعاده السلطان إلى تلمسان موثوقاً ومقيداً، وعذب في معتقله الذي كان يدعى (بالمطبق)، وأشيع عمداً بأنه قتل، وبقي في السجن أحد شهراً ثم لما قتل السلطان أبو الحسن، واعتلى عرش فاس أبو عنان، أطلق سراحه.

سفره إلى الأندلس:

فطلب الإذن بالسفر إلى الأندلس، وقبل طلبه، فذهب إلى غرناطة، واستقبله سلطانها أبو الحجاج بالحفاوة، والتبجيل لأنه كان يعرفه خلال حرب البرتغال ومعركة طريف وعينه خطيباً ومدرساً في جامع الحمراء عام 752 هـ (1351 م)، وبقي هناك عامين كاملين تعرف خلالها على الأمير المريني أبي سالم شقيق أبي عنان الذي كان لاجئاً هناك وغاضباً عى أخيه المغتصب للعرش

وعلى لسان الدين بن الخطيب وزير سلطان غرناطة الذي تتلمذ عليه ووثق صلاته به. وكان من ضمن من درس وتتلمذ عليه هناك الوزير ابن زمرك بذلك.

عودته إلى فاس:

وفي عام 754 هـ (1353 م) استدعاه السلطان المريني أبو عنان بعد أن تغلب على أبيه أبي الحسن وعزله واستولى على عرش فاس وعلى تلمسان الزيانية وأقاليمها، فذهب إلى فاس، وانتظم في سلك أصحابه وأكابر دولته، وأهل مجلسه المستشارين له، وتفرغ للتدريس والتعليم بمحضر السلطان أحياناً، وفي غيابه أخرى.

سفره إلى صفاقس:

وفي عام 755 هـ (1354 م) أرسله السلطان أبو عنان مع أبي عبدالله محمد حفيد ابن سيد الناس في مهمة إلى حاكم صفاقس ابن مكي، وحملا إليه مبلغ 50 ألف من الذهب العين، ليفتدي بها مدينة طرابلس من النصارى المسيحيين الذين احتلوها في يوم 10 ربيع الثاني من نفس العام، وعاثوا فيها فساداً، وقتلوا أهلها.

وعندما فاوضهم ابن مكي في الجلاء عنها طلبوا هذا المبلغ وعجز عن توفيره كاملاً، فبعث إلى السلطان أبي عنان يطلب المساعدة فبعث إليه المبلغ كاملاً، وطلب منه أن يعيد للناس ما أخذه منهم، قبل أن يتصل به، ولكن الناس رفضوا استعادة ما قدموه فوضعه في بيت المال واستعاد طرابلس بأموال أبي عنان.

وبعد أن عاد من صفاقس عاد إلى مهنة التدريس وصحبه السلطان أبو عنان فيَ حملته وسفرته إلى مدينة قسنطينة عام 758 هـ (1357 م) ومن هناك أرسله إلى تونس ليخطب له ابنة السلطان الحفصي أبي يحيى ابن أبي بكر فلم يوفق في مهمته لأن ابنة السلطان رفضت العرض، واختفت عن الأنظار[1] ووشى إلى أبي

(1) روى الزركشي بأن ابن مرزوق اتصل بوالدة البنت وحدثها عن غرضه فقالت له غداً إن شاء الله يكون الحديث بمحضر القاضي وغيره فرجع إليها من الغد فاختفت عنه وجد في الطلب عليها فلم يجدها، وعندما اعتقل بعد عودته قال له الملك أبو عنان، لم لم تضع =

عنان الذي عاد إلى فاس في ذي الحجة من نفس العام (758 هـ)، بأن ابن مرزوق له ضلع في ذلك، فغضب عليه وكلف حاجبه يحيى بن شعيب بأن يعتقله، فخرج للبحث عليه ووجده في تاسالت واعتقله وقيده، وعنفه وقرعه وبقي في المعتقل ستة أشهر كاملة ثم أطلق سراحه.

وعندما تولى عرش فاس السلطان أبو سالم شقيق أبي عنان في يوم الجمعة 15 شعبان عام 760 هـ (12 جويلية 1359 م) أكرم محمد بن مرزوق، وأعاد إليه اعتباره، لأنه كان صديقاً له بغرناطة، ولعب هو وابن خلدون دوراً بارزاً في وصوله إلى العرش، فرعى له ذلك وأعلى قدره وأسند إليه مناصب سامية في دولته حتى أصبح سيدها المطلق يعود إليه الجميع في كل الأمور، ويخطب وده السادة والأكابر، ووطىء الناس عقبه، وغشي أشراف الدولة بابه وصرفت الوجوه إليه، فمرضت لذلك قلوب رجال الدولة ونقموا على السلطان، وتربصوا له وأخذوا يحيكون المؤامرات، وفي الأخير تمكن الوزير عمر بن عبدالله من القيام بحركته الانقلابية في 21 ذي الحجة عام 762 هـ (23 سبتمبر 1361 م)، وقضى على السلطان أبي سالم ونكب بمحمد بن مرزوق الخطيب، وسجنه، وأغرى به السلطان الجديد محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن، فامتحنه، ونغص عليه، وجرده من كل وظائفه.

وقد بقي ابن مرزوق الخطيب في السجن عامين كاملين ثم أطلق السلطان سراحه رغم أن كل رجال الدولة، كانوا يطالبون بقتله، لأنه كان كثيراً السعاية ضد الشخصيات المرموقة، ومنهم ابن خلدون الذي ذكر ذلك في تاريخه.

رحيله إلى تونس:

وبمجرد أن خرج من السجن عزم على مغادرة البلاد لأنه خاف أن تلاحقه الأيدي، وتعيده إلى نفس المأساة، وهذه مقولة ابن خلدون، وقرر أن يرحل إلى تونس وركب السفينة من ساحل باديس بمدينة سبتة في شهر رجب عام 764 هـ

= اليد فيها حين ذهبت لتخطبها لي، فقال: بنت ملك يخطبها سلطان كيف نضع يدي عليها، فأبقاه في الثقاف بسبب ذلك ستة أشهر، ص 97/98.

(1363 م) ووصل إلى تونس في شهر رمضان من نفس العام، وحظي بالتقدير والإكبار من طرف السلطان الحفصي أبي إسحاق، ووزيره ووصيه محمد بن تافراكين، وعين خطيباً في جامع السلطان، ومدرساً في مدرسة الشماعين واعتكف على التدريس، وبث العلم والتربية الخلقية سبعة سنوات كاملة إلى أن توفي السلطان أبويحيى الحفصي في رجب 770 هـ (1369 م) ثم عصفت به الأحداث السياسية كذلك.

فقد تولى عرش تونس خالد بن يحيى، وثار عليه أبو العباس أمير قسنطينة، وقتلـه وجلس هو على عرش تونس عام (772 هـ) (1371 م) فعزل محمد ابن مرزوق من منصبه بدعوى أنه كان يميل إلى ابن عمه محمد أمير بجاية، الذي لم يكن معه على وفاق، فتعرض لمحنة سياسية جديدة وكاتب وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب، وتوسط به فكاتب السلطان المريني أبا فارس عبد العزيز يستعطفه عليه، ويرجوه أن يمهد لعودته إلى المغرب من تونس على أن تعاد له أمواله وأملاكه، وشرع ابن مرزوق من جهته في تأليف كتابه: المسند الصحيح الحسن في محاسن ومآثر السلطان، أبي الحسن ليكون له خير شفيع عند عودته.

ومما قاله له في رسالته قوله: «وذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الأوحد رسالة الصالحين وخطيب والدكم كبير الخلفاء والسلاطين وبالها من مزية دنيا ودين، أبا عبدالله ابن مرزوق خير الله على يدكم البرة حاله، وسنيّ من مقامكم السامي آماله، حيرى عليه من المحن وتباريح الأحن مـا يعلم كل ذي مروءة وعقل، واجتهاد ونقل أن ذلك من الجنايات على والدكم السلطان محسوب وإلى معقاته منسوب.

«... وأنه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرر من حاله ما يفت الفؤاد ويوجب الامتعاض له والاجتهاد، يطلب منا الإعانة بين يديكم والانحناء ويشكو العيلة والأولاد والغربة التي احتلت الأقطار النازحة والبلاد، والحوادث التي سلبته الطارق والتلال وأن نذكركم بوسيلته، وضعفه حالته، فبادرنا لذلك عملاً

بالواجب وإن كنا نطوقه في أمرنا عند الحادثة علينا تقصيراً، ولا نشكر إلا الله ولياً ونصيراً، فحقه علينا أوجب فهو الذي لا يحقد ولا يحجب ولا يلتبس من المذهب[1].

رحيله إلى المشرق:

ويبدو أن هذا التدخل لم يأت بنتيجة وأن ابن مرزوق استبطأ الجواب، فقرر مغادرة تونس إلى المشرق ليلتحق بمهجر أبيه أحمد الأول، واستأذن من السلطان أبي العباس الحفصي، وحصل منه على الموافقة وأنشد في وداع أهل تونس:

أودعكـــم وأننـــي ثـــم أننـــي ... علـى ملـك تطـاول بـالجميـل
واســأل رغبـة منكـم فـي ربـي ... بتيسيـــر المقـــاصـــد والسبـــل
ســـلام الله يشملنـــا جميعـــاً ... فقد عزم الغريب على الرحيل

وركب السفينة التي أقلته إلى مدينة الإسكندرية، وذلك في ربيع الأول عام 773 هـ (1372 م) ومن هناك التحق براً بمدينة القاهرة واستقر بها، وتعرف على أمراء الدولة ووجهائها، وأكابر العلماء، والشيوخ الأجلاء، ونال حظوة ومكانة عالية، لأن سمعته العلمية سبقته إلى هناك، فولاه السلطان الأشرف شعبان بن حسين مناصب عليه، قاضياً، وخطيباً، وأستاذاً للتدريس، والإفتاء، والوعظ، والخطابة، في عدد من مدارس القاهرة، كالشيخوخة، والضرغطمشية والقمحية، والنجمية.

وفاته ومؤلفاته:

وقضى بالقاهرة بقية حياته معظم الجانب، موفور المادة، عظيم الجاه، إلى أن فارق هذه الدنيا، والتحق بالرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول عام 781 هـ (1379 م) ودفن بمقبرة القرافة الصغرى بين قبري الإمامين الفقيهين، أبي القاسم، وأشهب، ذوي الشهرة والمكان في الفقه والتشريع الإسلامي،

---

(1) نفح الطيب جـ 2 ص 125 ـ 128.

وخلف لنا من ورائه عدداً من الكتب والمؤلفات العلمية بعضها قد يكون فقد، والبعض ما يزال موجوداً، ومنها:

1) المسند الصحيح الحسن في محاسن ومآثر مولانا أبي الحسن، وقد تولت الدكتوراه ماريا فيغيرا خيسوس الإسبانية تحقيقه، ونشرته المكتبة الوطنية بالجزائر عام 1981 م، وهو كتاب نفيس في تاريخ تلمسان والمغربين الأدنى والأقصى، وتاريخ السلطان المريني أبي الحسن، والأحداث التي حصلت خلال هذه الفترة، وفيه جانب مهم عن حياته هو السياسية والدينية والثقافية.
2) عجالة المستوفز المستجاز، في ذكر من استجازني من المشائخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز، أحصى فيها شيوخه الذين درس وتعلم عليهم ومنهم 250 شيخاً درس عليهم علم الحديث فقط، وذكر الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام بأن ابن مرزوق الخطيب عدد في هذه العجالة ألفي شيخ من شيوخه، وهو عدد ضخم جداً ولم نطلع على العجالة حتى نؤكد هذا أو ننفيه.
3) تحفة الطرف إلى الملك الأشرف، ويبدو أنه أُلِّفَ للملك الأشرف شعبان سلطان مصر.
4) إيضاح المراشد فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد.
5) إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب، وهو شرح لكتاب ابن الحاجب الفرعي في علم الفقه الإسلامي.
6) الأربعين المسندة في الخلافة والخلفاء، وله صلة بكتابه السابق إيضاح المراشد.
7) شرح على كتاب الشفاء للقاضي عياض، لم يكمله في الفقه الإسلامي.
8) شرح عمدة الأحكام لتقي الدين الجمالي في خمسة أجزاء جمع فيه بين أسلوب ابن دقيق العيد وعمر الفاكهاني.
9) شرح الأحكام الصغرى لعبد الحق ابن عربي الأشبيلي.
10) كتاب الإمامة.

11) كتاب جني الجنتين في فضل الليلتين (ليلة القدر وليلة المولد النبوي).
12) ديوان خطب وقصائد.
13) شرح لصحيح البخاري في الحديث النبوي الشريف.
14) كتاب في الصبر.
15) كتاب في التنجيم.

الشيخ أبو عبدالله محمد (السادس) ابن مرزوق الحفيد العجيسي

(766 ـ 842 هـ ـ 1364 ـ 1439 م)

ميلاده ونشأته:

العالم الثالث من أسرة ابن مرزوق العجيسية التلمسانية هو أبو عبدالله محمد (السادس) بن أحمد (الثاني) بن محمد (الرابع) ابن أحمد (الأول) بن محمد (الثاني) بن محمد (الأول) بن أبي بكر ابن مرزوق، الذي اشتهر بلقب الحفيد، ولد بتلمسان ليلة الاثنين 14 ربيع الأول 766 هـ (10 ديسمبر 1364 م)، ونشأ على غرار أبيه وجده، محباً للعلم والعلماء، وتفرغ في البداية لحفظ القرآن الكريم، ثم اعتكف على دراسة العلوم والمعارف الإسلامية، على أجلة الشيوخ والعلماء بتلمسان وفاس، وتونس، والقاهرة، وغيرها.

فقد درس على أبيه أحمد (الثاني) وعمه محمد (الخامس) وعلى عالم المغرب العربي القاضي سعيد العقباني، وأبي إسحاق إبراهيم المصمودي، والأشهب الغماري، وأبي محمد عبدالله بن الشريف التلمساني وتعلم تلاوة القرآن برواية نافع، على الشيخ عثمان الزواوي.

سفره إلى تونس وفاس:

وبعد ذلك سافر إلى تونس ودرس على الفقيه ابن عرفة وأبي العباس القصار، وغيرهما، ثم عاد إلى تلمسان، وشد الرحال إلى فاس، واعتكف هناك

على الدراسة والتحصيل في حلقات العلماء الأجلاء أمثال الشيخ أبي زيد المكودي، وابن حياتي، النحويين، والحافظ بن مسعود الصنهاجي، الفلالي، وغيرهم.

سفره إلى المشرق:

ومن فاس شد الرحال إلى المشرق الإسلامي، ونزل بالقاهرة وأخذ العلم على عدد من علمائها المشهورين أمثال: عبد الرحمن بن خلدون، وسراج الدين البلقيني، وشمس الدين الغماري، وزين الدين الحافظ العراقي، والفيروز أبادي صاحب القاموس، ومحمد الدين بن هشام، وابن صاحب كتاب المغني ونور الدين النويري صاحب النهاية، والقاضي ناصر الدين التنسي، وسراج الدين بن الملقن، وآخرين غيرهم من ذوي الفضل والمكانة العلمية.

عودته إلى تلمسان:

وعندما ملأ وطابه بالعلوم والمعارف، قفل راجعاً إلى تلمسان في تواريخ غير مضبوطة، واتجه عام 792 هـ (1390 م) إلى الديار المقدسة بالحجاز لأداء فريضة الحج صحبة شيخه، وأستاذه الفقيه ابن عرفة التونسي، واجتمع بمكة، بالشيخ بهاء الدين الدماميني، ونور الدين العقلي، وأخذ عنهما، وروى صحيح البخاري على الشيخ ابن صديق، ولازم المحب ابن هشام ودرس عنه اللغة العربية وآدابها، ثم عاد إلى تلمسان وبقي عدة سنوات في التدريس، والإقراء، والوعظ، والإرشاد، والتأليف.

سفره إلى المشرق:

وفي عام 819 هـ (1416 م) سافر إلى المشرق للمرة الثالثة وأدى فريضة الحج مرة أخرى والتقى هناك بعدد آخر من شيوخ العلم درس وتعلم عليهم، ومنهم الشيخ رضوان الزيني، والإمام ابن حجر، وحصل على إجازات علمية كثيرة من علماء أندلسيين مهاجرين أمثال: محمد بن جزي وأبي القاسم بن الخشاب، وابن عبدالله محمد القيجاطي، والمحدث محمد بن علي الحفار الأزهري، والحافظ ابن علاق، وبقي هناك مدة ثم عادا إلى تلمسان.

عودته إلى تلمسان:

وقد سمحت له هذه السفرات، واللقاءات، ومجاورة العلماء، والشيوخ، بالتبحر في العلوم والمعارف، المختلفة، وعلى التحقيق والتدقيق في المسائل العلمية المختلفة، والاطلاع الواسع للمعارف المتنوعة الدينية واللغوية، فغدا بحراً لا ساحل له في هذا الميدان. وكاد أن يتفوق على جده ابن مرزوق الخطيب، وأجمع الناس في عصره على فضله وعلو شأنه وإحاطته بمذاهب الفقه الإسلامي المختلفة، وأثنى عليه تلاميذه الكثيرون وعلى رأسهم، عبد الرحمن الثعالبي، وأبو الفرج بـن أبي يحيى الشريف التلمساني، وأخوه أبو العباس، والشيخ يحيى بن أدريس المازوني، والحافظ التنسي، وأبو الحسن القلصادي، وأبو الفضل المشدالي، ونصر الدين الزواوي المشدالي، والحسن أبركان، والقاضي عمر القلشانـي قاضي الجماعة بتونس وإبراهيم بن فايد الزواوي، وأحمد بن زكري، وقاضي الجماعة بغرناطة أبو العباس ابن أبي يحيى الشريف وأحمد بن يونس القسنطيني، وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الندرومي وعيسى بن سلامة البسكري، والشهاب بن كحيل التجاني، وأبو البركات الغماري، والعلامة علي بن ثابت، وابنه محمد بن أحمد بن مرزوق الكفيف ويحيى بن بدير، وأبو عبدالله محمد بن العباس.

إن قائمة هؤلاء التلاميذ الذين درسوا على مترجمنا ابن مرزوق الحفيد، العجيسي، تثبت مدى سعة علمه، ومدى تفوقه على أهل زمانه من الشيوخ والعلماء الأجلاء.

نموذج عن ثقافته:

وقد أورد تلميذه أبو الفرج ابن يحيى الشريف التلمساني قائمة طويلة بالعلوم والمعارف، والكتب التي درسها عليه يحسن أن نوردها هنا نقلاً عن كتاب نفح الطيب لأحمد المقري حتى تكون نموذجاً ومثالاً لسعة علمه وثقافته، وتبحره في العلوم والمعارف الإسلامية المختلفة، واطلاعه المكثف على مختلف الآراء العلمية.

قال أبو الفرج... اتصلت به... فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن، ومن الحديث صحيح البخاري بقراءتي وقراءة غيري مراراً، وصحيح مسلم كذلك، وسنن الترمذي وأبي داود بقراءتي والموطأ سماعاً، وتفقهاً والعمدة. ومن علم الحديث أرجوزته الصغرى وهي الحديقة في علم الحديث وبعض الكبرى وهي الروضة تفقهاً ومن العربية نصف المقرب تفقهاً، وجميع سيبويه كذلك، وألفية ابن مالك وأوائل شرح الإيضاح لابن أبي ربيع، وبعض المغنى لابن هشام، وفي الفقه التهذيب كله تفقهاً، وابن الحاجب الفرعي، وبعض مختصر الشيخ خليل، والتلقين وثلثي الجلاب، وجملة من المتيطية والبيان لابن رشد وبعض الرسالة، وكل ذلك قراءة وتفقهاً، وتفقهت عليه من كتب الشافعية في تنبيه الشيراوي، ووجيز الغزالي من أوله إلى كتاب الإقرار، ومن كتب الحنفية، مختصر القدوري تفقهاً، ومن كتب الحنابلة، مختصر ابن الحاجب، ومن أصول الفقه المحصول، ومختصر ابن الحاجب، والتنقيح وكتاب المفتاح لجدي، وقواعد عز الدين، وكتاب المصالح والمفاسد له، وقواعد القرافي، وجملة من النظائر والأشباه للعلائي، وإرشاد العميدي، ومن أصول الدين المحصل والإرشاد تفقهاً، وفي القراءات قصيدة الشاطبي تفقهاً، وابن بري، وفي البيان التلخيص، والإيضاح والمصباح كملها تفقهاً، وفي التفقه، الأحياء الغزالي سوى الربع الأخير منه، وألبسني خرقة التصوف كما ألبسه أبوه، وعمه، وهما ألبسهما أبوهما جسده.

وصف المقري له:

أن هذه الفقرة، توضح وتؤكد سعة علم هذا الرجل وإحاطته بمختلف المعارف الإسلامية العقلية والنقلية، الدينية، واللغوية وقد وصفهُ أحمد المقري في كتابه نفح الطيب، وصفاً جميلاً، ورائعاً وبليغاً، يثبت أنه كان بمثابة موسوعة للعلوم والمعارف، ولا بد من إيراد ذلك الوصف رغم طوله إنصافاً للرجل، وتأكيداً لمركزه ومكانته العلمية، وإبرازاً لما كانت عليه تلمسان من المكانة العلمية والأدبية.

قال أحمد المقري: «وأما عالم الدنيا أبو عبدالله محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد، فهو البحر الإمام المشهور، الحجة الحافظ، العلامة المحقق الكبير النظار، المطلع المصنف المتصف، التقي الصالح الناصح، الزاهد العابد، الورع البركة، الخاشع، الخاشي النبيه القدوة، المجتهد الأبرع، الفقيه الأصولي المفسر المحدث، الحافظ المسند الراوية الأستاذ المقري، المجود، النحوي اللغوي ، البياني العروضي، الصوفي الأواب، الولي الصالح، العارف بالله، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب، الراعي في كل علم مرعاه، الخصيب، حجة الله على خلقه، المفتي الشهير الرحلة الحاج، فارس الكراسي، والمنابر سليل الأكابر، سيد العلماء الأخيار وإمام الأئمة وآخر الشيوخ ذوي الرسوخ، بدر التمام الجامع بين المعقول والمنقول، والحقيقة والشريعة بأجل محصول، وآخر النظار الفحول، شيخ المشائخ صاحب التحقيقات البديعة، والاختراعات الأنيقة، والأبحاث الغريبة، والقواعد الغزيرة».

كان رحمه الله تعالى آية في تحقيق العلوم، والاطلاع المفرط على النقول، والقيام التام على الفنون بأسرها، أما الفقه فهو فيه مالك، ولازمه فروعه حائز ومالك، فلو رآه الإمام قال له: تقدم فلك العهد والولاية فتكلم، فمنك يسمع فقهي وفروعي، ومثلك من راعه ما ينبغي فروعي، وأبو القاسم لقربه عيناً، وقال له، طالما دفعت عن المذهب عيناً وشيناً. أو المازري لعلم أنه بمناظرته حرى، أو الحافظ ابن رشد لقال: هلم يا حافظ الرشد، أو اللخمي لأبصر منه محاسن «التبصرة» أو القرطبي لنال منه «التذكرة» أو القرافي لاستفاد منه قواعده المقررة، وابن الحاجب لاستند إلى بابه في كشف الإشكالات المحررة، إلى ما انضم إلى ذلك من معرفة التفسير ودوره، والاطلاع بحقائق التأويل وغرره، فلو رآه مجاهد لعلم أنه في التحقيق خير جاهد، أو مقاتل، أو الزمخشري لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقة، وقال لكتابه تنح لهذا الحبر عن سلوك الطريقة أو ابن عطية لركب في الرحلة إلى الاستفادة منه المطية أو أبو حيان لغرق في نهره، ولم تسل له نقطة من بحره، إلا الإحاطة بالحديث ومضمونه والاطلاع على أسانيده، ومتونه ومعرفة منكره، ومعروفه، ونظم أنواعه

ووصف صنوفه، إذ إليه الرحلة انتهت في رواياته ودراساته، وعليه المعول في حل مشكلاته، وفتح مقفلاته، وأما الأصول فالعضد ينقطع عند مناظرته ساعده، السيف يكل عند بحثه حده حتى يترك ما عنده ويساعده، والبرهان لا يهتدي معه لحجة، والمقترح لا يركب في بحره لجة، وأما النحو فلو رآه محمود لتلجلج في قراءة «المفصل» واستقل ما عنده من القدر المحصل أو الرماني لاشتاق إلى مفاكهته، وارتاح واستجدى من ثمار فوائده، وامتاح، أو الزجاج لعلم أن زجاجة لا يقوم بجواهره، وأنه لا يجري معه في هذا العلم إلا في ظواهره، بل لو رآه الخليل لقال: هذا هو المقصد الجليل وأثنى عليه بكل جميل وقال لفرسان النحو: مالكم إلى لحوق غريبة من سبيل، وأما البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح، وصاحب المفتاح لا يهتدي معه إلى الفتح، والقزويني يلقى علومه لإيضاح المعاني، والسعد يرقى بمفهومه في مطالع المثاني، وكم له من مناقب تنحط عن منالها الثواقب ومواهب تجلو بأنوارها الغياهب، وأما زهده وصلاحه فقد سارت به الركبان، واتفق عليه الثقلان، فمن وصفه بالبحر فقل له: دون علمه البحر، أو البدر فما تصل خلقه البدر أو الدر.

وبالجملة فالوصف يتقاصر عن صفاته، وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صفاته، فهو شيخ العلماء في أوانه، وإمام الأئمة في عصره وزمانه، شهد بنشر علومه العاكف والبادي، وارتوى من بحار تحققاته الظمآن والصادي.

«حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفري»

ذلك هو وصف أحمد المقري له.

وفاته:

وقد بقي ابن مرزوق الحفيد بتلمسان حتى توفي مساء يوم الخميس 14 شعبان عام 842 هـ (30 جانفي 1439 هـ)، وصلى عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة في اليوم الموالي ودفن فيه وسار في جنازته السلطان والعلماء، وكبار رجال الدولة وخلف من ورائه ابنه الكفيف ابن مرزوق، وحفيده من بنته حفصة ابن مرزوق الخطيب.

مؤلفاته :

وترك لنا قائمة طويلة من الكتب والمؤلفات التي ألفها في مختلف فروع المعارف الإسلامية، بعضها طبع، وبعضها ما يزال مخطوطاً والبعض موجود والبعض الآخر اندثر وعفا بسبب عوامل الزمن، ومن هذه المؤلفات :

1) إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة.

2) الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب، وهما كتابان آخران أوسط، وأصغر في شرح قصيدة البردة كذلك.

3) الغاية القراطيسية في شرح الثقراطيسية.

4) المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج رموز الخزرجية وهو كتاب في علم العروض والقوافي.

5) الروضة، رجز في علم الحديث.

6) الحديقة، رجز في علم الحديث كذلك.

7) المقنع الشافي وهو أرجوزة في علم الميقات بها 1700 بيتاً.

8) نهاية الأمل في شرح الجمل، وهو شرح كتاب الخونجي.

9) اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة، وهو عبارة عن أجوبة على مسائل علمية وردت عليه من عالم قفصة ابن السراج أبي يحيى بـن عقيبة.

10) المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن السراج وهو عبارة عن كتاب أجاب فيه ابن السراج الغرناطي على مسائل نحوية ومنطقية.

11) أنوار اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين.

12) الدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي.

13) النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص رد فيه على فتوى قاسم العقباني حول مسائل الفقراء الصوفية، وعارضه في آرائه.

14) مختصر الحاوي في الفتاوى، لابن عبد النور التونسي.

15) الروض البهيج في مسائل الخليج.

16) أنوار الداراري في مكررات البخاري.

17) المتجر الربيح والسعي الرجيح، والمرحب الفسيح في شرح الجامع

الصحيح (صحيح البخاري)، ولم يكمله.

18) المنزع النبيل في شرح مختصر خليل، لم يكمله.

19) إيضاح المسالك على ألفية مالك، لم يكمله.

20) روضة الأريب في شرح التهذيب.

21) عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد.

22) الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات.

23) الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغظ الروم.

24) أسماع الصم في إثبات الشرف من جهة الأم[1].

25) شرح ابن الحاجب الفرعي.

26) شرح التسهيل.

27) أرجوزة ألفية في محاذاة حرز الأماني للشاطبي.

28) أرجوزة نظم تلخيص المفتاح.

29) أرجوزة نظم تلخيص البناء.

30) أرجوزة نظم جمل الخونجي.

31) أرجوزة في اختصار ألفية ابن مالك.

32) تأليف في مناقب شيخه إبراهيم المصمودي.

33) تفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء.

هكذا كان ابن مرزوق الحفيد بحراً علامة في العلوم والمعارف الإسلامية المتنوعة، وشيخاً وأستاذاً لجيل بحاله من الشيوخ والعلماء وطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي الواسع شرقاً وغرباً.

---

(1) نسب السخاوي في كتابه الضوء اللامع هذا الكتاب إلى محمد بن عبد الرحمن أبي عبدالله بن أبي زيد المراكشي القسنطيني المغربي المالكي الضرير الذي ولد في جمادي الآخرة سنة 739 هـ ضريراً، وذكر أنه رأى له عند البدر بن عبد الوارث المالكي مصنفاً ابتدأه في ذي القعدة عام 801 هـ سماه: أسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، صدره باختلاف علماء تونس وبجاية فيها عام 726 هـ فمنعه التونسيون وأثبته البجائيون ومال هو إليهم وذكر أنه رأى ابن الغماز من علماء تونس وابن دقيق العيد وأشياخه بني باديس، الضوء اللامع جـ 8 ص 48.

وهكذا كان مكتبة بحالها بما خلفه لنا من كتب ودراسات مكثفة وغزيرة.

الشيخ محمد (السابع) ابن مرزوق الكفيف

(824 ـ 901 هـ = 1421 ـ 1495 م)

العالم الرابع من أسرة ابن مرزوق التلمسانية هو محمد (السابع) بن محمد (السادس) بن أحمد (الثاني) بن محمد (الأول) بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني الذي يلقب بالكفيف أو الضرير ولد ليلة الثلاثاء غرة ذي القعدة عام 824 هـ (27 أكتوبر 1421 م).

واعتكف منذ صغره، كعادة كل أبناء الأسرة، على حفظ القرآن الكريم، ودراسة العلوم العربية الدينية واللغوية فحفظ القرآن على والده ابن مرزوق الحفيد، ودرس عنه بعض العلوم الأخرى خاصة الفقه، والحديث، وظهر نبوغه وتفوقه منذ البداية في احتواء هذه العلوم وهضمها وأجازه والده على ما درسه عليه، ثم اعتكف على الدراسة على أجلة علماء تلمسان أمثال: أبي الفضل بن إبراهيم بن أبي زيد بن الإمام، وقاضي الجماعة قاسم العقباني، وأبي العباس أحمد بن محمد بن عيسى اللجائي الفاسي، والمحدث أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي تلميذ أبيه، وابن عقاب الجذامي التونسي، وابن البحيري التونسي، وشيخ الإسلام أحمد بن حجر الشافعي العسقلاني، وكلهم أجازوه بعد أن سمع ودرس عنهم ما عدا ابن حجر الذي أجازه عن طريق المراسلة مع أولاد ابن مرزوق عام 829 هـ (1426 م) كما ذكر ذلك صاحب البستان نقلاً عن أحمد ابن داوود البلوي.

وفي عام 861 هـ (1458 م) سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، والدراسة على شيوخ وعلماء الحرمين الشريفين، وهناك التقى بالحافظ السخوي وأخذ عليه واستفاد من علومه ومعارفه، وتحدث عنه أستاذه هذا في كتابه الضوء اللامع، وقال بأنه سمع عام 871 هـ بأنه ما يزال حياً.

ولم ندر كم مدة قضاها بالمشرق، ومتى عاد إلى تلمسان ولم تحدثنا المصادر التي اطلعنا عليها، على ذلك، وقد اعتكف على التدريس، والتف حوله عدد من طلبة العلم الذين أصبحوا علماء فيما بعد ومنهم: أحمد بن داود البلوي، وأبو العباس الونشريسي، صاحب كتاب: المعيار، والإمام السنوسي صاحب العقائد المشهورة وابن اخته الخطيب ابن مرزوق، وأبو عبدالله محمد بن الإمام أبي العباس، وابن غازي، وغيرهم، وذكر هذا الأخير بأنه درس عليه كتاب الصحيحين وبعض مختصر ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وجزءاً من كتاب التهذيب وبعض من جمل الخونجي في المنطق.

وقد أخذ عنه بالإجازة عالم فاس الكبير ابن غازي، ونقل عنه معاصره المازوني في كتابه الدرر المكنونة في فك نوازل مازونة وذكر ابن ظهيرة بأنه درس عليه الفقه والأصول، والمنطق، وآداب اللغة العربية، وذلك مما يؤكد تضلعه في هذه العلوم وغيرها وبخاصة الحديث والتفسير، وقيل بأنه شرح كتاب أبيه المسمى: مختصر الحاوي في الفتاوى، وهو شرح كذلك لكتاب ابن عبد النور التونسي.

وقد ذكر الأديب المؤرخ محمد بن يعقوب، بأن ابن مرزوق الكفيف هذا توفي عام 901 هـ (1495 م) بتلمسان وهو التاريخ الذي أكدته دائرة المعارف الإسلامية.

وذكر المقري في نفح الطيب بأنه زار قبره مراراً، وهو جد أبيه أحمد المقري، لأن والدة أحمد المقري هي بنت محمد بن مرزوق الكفيف هذا.

ويبدو من السخاري في كتابه الضوء اللامع بأن ابن مرزوق الكفيف هذا، هو الذي ألف كتاب: إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، وليس أبوه ابن مرزوق الحفيد فليراجع في مكانه من الجزء الثامن ص 48. وقد خلف من ورائه ابنه أحمد (الثالث) الذي لقب بحفيد الحفيد حسبما ذكر ذلك في كتابه: التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال الساكن والناد.

الشيخ أحمد (الثالث) ابن مرزوق، هو أحمد (الثالث) بن محمد (السابع) بن محمد (السادس) بن أحمد (الثاني) بن محمد (الرابع) ابن أحمد (الأول) بن

محمد (الثاني) بن محمد (الأول) بن أبي بكر بن مرزوق، واشتهر بلقب حفيد الحفيد.

اعتكف في صغره على حفظ القرآن الكريم على والده ابن مرزوق الكفيف ثم درس عليه جملة من العلوم والمعارف الإسلامية، كما درس على علماء آخرين أمثال الشيخ السنوسي، والعلامة الشيخ التنسي والشيخ ابن زكري.

ولم يعمر طويلاً، ولم تحدثنا المصادر لا عن تاريخ ميلاده ولا وفاته، ولا شك أنه عاش في أواخر القرن التاسع ومطلع القرن العاشر الهجريين، وقيل بأنه توفي عام 925 هـ (1519 م) بتلمسان، أي بعد أبيه بربع قرن من الزمن.

الشيخ محمد (الثامن) ابن مرزوق حفيد الكفيف

العالم السادس والأخير من أسرة ابن مرزوق هو أحمد (الثامن) ابن حفصة بنت محمد (السادس) الحفيد، ابن مرزوق، اشتهر بالخطيب ولقب بحفيد الكفيف، لأنه سبط الشيخ محمد (السادس) الحفيد العجيسي من بنته حفصة، ويجتمع أبوه وأمه عند أحمد (الثاني) والد الحفيد ابن مرزوق.

ولد بتلمسان، وتضلع في علوم الحديث بصورة خاصة مثل جديه، الخطيب ابن مرزوق الجد، والحفيد ابن مرزوق العجيسي، ودرس على خاله محمد (السابع) ابن مرزوق الكفيف، وعلى محمد بن العباس، ومحمد التنسي، وأبي عبدالله العبادي، وغيرهم من العلماء الأجلاء الفضلاء في عهده.

وكان حياً عام 918 هـ (1512 م) ولم يذكر المترجمون له لا تاريخ ميلاده، ولا تاريخ وفاته، ولا شك أنه توفي قبل نهاية الربع الأول من القرن العاشر الهجري، وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية بأنه توفي عام 918 هـ (1512 م)، وهو آخر من اشتهرت بهم عائلة ابن مرزوق العجيسية التلمسانية.

وفيما يلي شجرة نسبهم حسبما أوردته دائرة المعارف الإسلامية في الجزء الثالث. ص 890 ـ 892.

شجرة عائلة ابن مرزوق(1)

مرزوق العجيسي عاش في نهاية النصف الثاني من القرنين 5 هـ (11م). أبو بكر، كان قيماً في ضريح أبي مدين بالعباد (ق 6 هـ = 12 م) محمد «الأول».

محمد الثاني (629 ـ 681 هـ = 1231 ـ 1282 م).

محمد الثالث: أول خطيب في جامع العباد كان حياً عام 747 هـ (1346 م).

أحمد الأول (681 ـ 741 هـ = 1282 ـ 1340 م).

محمد الرابع: الجد والخطيب والرئيس (710 ـ 781 هـ = 1310 ـ 1379 م).

محمد الخامس: أحمد الثاني توفي عام 760 هـ (1350 م).

محمد السادس: الحفيد العجيسي (766 ـ 842 هـ = 1364 ـ 1438 م).

محمد السابع الكفيف (824 ـ 901 هـ = 1421 ـ 1495 م).

محمد الثامن: كان حياً عام 918 هـ (1512 م) وقيل توفي في نفس العام (أحمد الثالث) حفيد الحفيد قيل توفي عام 925 هـ (1519 م).

(1) عن دائرة المعارف الإسلامية جـ 3 ص 890 ـ 892.

الشيخ أبو عبدالله الشريف العلوي التلمساني
(710 ـ 771 = 1310 ـ 1370 م)

مولده ونشأته:

هو الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني، ولد بقرية العلويين (بفتح العين وسكون اللام بعدها) من أعمال تلمسان عام 710 هـ (1310 م)، وحفظ القرآن في صغره على الشيخ أبي زيد ابن يعقوب، ثم وجهه خاله عبد الكريم إلى العالمين الفاضلين ابني الإمام، أبي زيد عبد الرحمن، وأبي موسى عيسى، ليدرس العلوم العربية والإسلامية الدينية واللغوية، فلازمهما، ودرس عليهما علوماً كثيرة خاصة، الأصول، والفقه، وعلم الكلام.

وفي نفس الوقت لازم الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي ودرس عليه علوماً كثيرة معقولة ومنقولة، وتفوق فيها، والتحق بمستوى مشائخه وأساتذته، وتفجرت منه ينابيع العلوم والمعارف كما قال ابن خلدون.

رحيله إلى تونس:

وبعد أن استكمل ما عند علماء تلمسان من علوم ومعارف شد الرحال إلى تونس الخضراء عام 740 هـ (1340 م) وهو في عمر الثلاثين ليستزيد من العلوم والمعارف الإسلامية، وانضم هناك إلى حلقة الشيخ ابن عبد السلام، شيخ ابن خلدون، ودرس عليه ما كان يلقيه من دروس، واستفاد منه كثيراً، وظهر تفوقه الكبير فأكبره شيخه، وأخذ يستدعيه إلى منزله ليسمع منه، وهو تلميذه، فصل التصوف من كتاب الإشارات لابن سيناء، الذي درسه هو وأتقنه عن الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي بتلمسان قبل أن يرحل إلى تونس.

عكف أبو عبدالله الشريف في تونس على دراسة كتاب الشفاء لابن سيناء، وتلاخيص كتب أرسطو، ومواد الحساب، والهندسة، والفرائض علاوة على ما أتقنه قبل ذلك بتلمسان من علوم الفقه والشريعة والآداب العربية، وتضلع حتى أصبح كما قال ابن خلدون صاحب يد طولى، وقدم عالية في كتب الخلافيات.

وقد اعترف له شيخه وتلميذه في آن واحد، ابن عبد السلام بتبحره في العلوم والمعارف، وعرفه بكبار علماء تونس الذين أحبوه وبجلوه وأكبروه، بعد أن اكتشفوا نباهته، ورجاحة عقله رغم صغر سنه.

ومن جملة الشيوخ الذين درس عليهم أبو عبدالله الشريف إلى جانب من ذكر: الشيخ الفقيه أبو محمد عبدالله المجاصي، والقاضي أبو عبدالله محمد بن عمر التميمي، وأبو عبدالله محمد بن محمد البروني، وأبو موسى عمران المشدالي، والشيخ السطي، والقاضي أبو عبدالله محمد بن عبد النور، والشيخ القاضي أبو العباس أحمد بن الحسن، والقاضي أبو الحسن علي ابن الرماح، وأبو عبدالله محمد بن النجار المنجم، وعبد المؤمن بن الجاناتي الفاسي، وشهدوا له كلهم برجاحة العقل، وسعة الإدراك، وحضور الذهن، وكثرة التحصيل.

عودته إلى تلمسان:

وبعد أن ملأ أبو عبدالله الشريف، وطابه من العلوم والمعارف بتونس، واستكمل زاده، عاد إلى تلمسان في تاريخ لم تضبطه لنا كتب التراجم، وتصدى للتدريس والتعليم، والإقراء، فأقبل عليه طلبة العلم من كل جهة وتزاحموا على حلقات دروسه، ولم يبخل في إرواء نهمهم وإشباع عطشهم، وأبدى نشاطاً واسعاً في دروسه حتى يكون عند حسن ظنهم.

وعمل في نفس الوقت على إحياء سنة الرسول والخلفاء الراشدين، وقاوم البدع والضلالات، وجاهر بقول الحق، ومقاومة الباطل، وشجع طلابه على التحلي بالفضائل والمكرومات، وحثهم على الدراسة حسب ميولهم حتى يستطيعوا أن ينبغوا ويتفوقوا.

وعندما غزا السلطان المريني أبو عنان تلمسان عام 753 هـ (1352 م) اصطفاه، واختاره ضمن من اختارهم من رجال العلم، وعينه عضواً في مجلس علمائه الذين أحاطهم به، وأخذه معه إلى مدينة فاس عندما عاد إليها.

رحيله إلى فاس:

فاعتكف هناك على التدريس والإقراء، وحضر السلطان درساً له في إحدى الأيام، واندهش من فصاحته، وغزارة علمه، وقال لبعض الجالسين بجواره لكأني أرى العلم يخرج من منابت شعره.

عودته إلى تلمسان ومحنته:

كان من المفروض أن يرتاح أبو عبدالله الشريف لمقامه بفاس، وللرعاية التي كان السلطان، يحيطه بها، ولكنه أكثر من التبرم والشكوى، ولم يطق الاغتراب عن تلمسان، وأبدى للسلطان رغبته في العودة إليها، فاستغرب، وارتاب من أمره خاصة بعد أن علم بأن سلطان تلمسان أبا سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني، وأوصاه على ولده، وأودع له مالاً لدى أحد الأعيان بتلمسان يعلم به، وأمر في الحال بانتزاع تلك الوديعة من صاحبها الذي أودعت عنده، وعاتب أبا عبدالله الشريف على ذلك ولامه، وعنفه ثم سجنه عدة أشهر.

وعندما قام السلطان أبو عنان بحملته على مدينة قسنطينة في مطلع عام 756 هـ (1355 م)، علم هناك وبلغه بأن علماء تونس، وأعيانها وسكانها غاضون وحاقدون عليه بسبب سجنه لأبي عبدالله الشريف الذي يعرفونه جيداً، ويدركون مركزه العلمي يوم أن كان هناك بين ظهرانيهم.

رحيله إلى فاس:

فتأثر السلطان من ذلك وأمر بإطلاق سراحه بعد أن عاد إلى فاس، واستدعاه إليه، واعتذر له، وقربه منه وعينه عضواً في مجلسه العلمي مرة أخرى وأعاد له اعتباره وبقي على تلك الحال حتى توفي السلطان أبو عنان عام 759 هـ (1358 م) واستمر في أداء وظيفته العلمية.

عودته إلى تلمسان:

وعندما استعاد السلطان الزياني أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن عرش تلمسان من بني مرين، واستقر له الأمر، بعث إلى أبي عبدالله الشريف بفاس يستدعيه إليه، فطلب الإذن من الوزير عمر بن عبدالله، وحصل على موافقته، وغادر فاس إلى تلمسان، وعندما وصل إليها استقبله السلطان أبو حمو بحفاوة بالغة وأحاطه برعايته وزوج له ابنته، وبنى له مدرسته الشهيرة التي عرفت بالمدرسة اليعقوبية عام 763 هـ (1362 م) بجوار ضريح قبور: أبيه أبي يعقوب، وعميه أبي سعيد، وأبي ثابت، فانكب على التدريس والتعليم بها أكثر من ستة سنوات وتزاحم حوله طلبة العلم، والراغبون في الاستزادة من العلوم والمعارف، وكان من ضمن تلاميذه في هذه الفترة، ابنه أبو محمد الذي سيخلفه فيما بعد في مهنة التدريس بهذه المدرسة، وعبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى، والإمام الشاطبي، وابن زمرك، وإبراهيم الثغري، وأبو عبدالله القيسي، وابن عتاب، وابن السكاك، والفقيه محمد الميورقي.

لقد كان أبو عبدالله الشريف التلمساني من الراسخين في العلوم والمعارف الإسلامية المختلفة والمتنوعة، فتفوق في الفقه وألف فيه كتابه: «مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول» الذي طبق فيه مسائل الفقه على علم الأصول، وتضلع في علوم اللغة والآداب العربية كالنحو، والعروض والبيان، والبلاغة، والبديع، وغريب اللغة، والشعر والأمثال، وتبحر في أخبار الناس ومذاهبهم، وأيام العرب، وسيرهم، وحروبهم وتاريخ الرسول ﷺ والخلفاء، وفي أخبار الأولياء والصالحين، وسيرهم ومذاهب الصوفية وآرائهم، وأقوالهم، وشطحاتهم.

وكانت له القدم المعلى واليد الطولى في العلوم العقلية والنقلية، والفلاحة، والمنطق، والحساب، والهندسة، والموسيقى، والطب، والتشريح، والتنجيم، وغيرها.

لقد فسر القرآن الكريم في ظرف ربع قرن من الزمن أتى فيه بالعجب

العجاب، ولازم حضور دروسه هذه الملوك، والأمراء والعلماء، والصلحاء، ونجباء الطلبة وشيوخ زمانه، ولم يكن يتخلف أحد منهم عنها، وذلك لأنه كان عالماً غاية العلم بمعاني حروف القرآن ونحوه وإعرابه، وقراءاته المختلفة، ورواياته المتنوعة، وبيانه، وإعجازه وأحكامه، ومعانيه، وأمره ونهيه وناسخة ومنسوخة، وما فيه من أخبار الأولين وتاريخهم، فكان يعطي لكل علم وفن غايته في البحث والتدقيق والشرح، والغوص في معانيه ومراميه.

وإلى جانب هذا كان أبو عبدالله الشريف إماماً في علم أصول الدين، والحديث الشريف، فتضلع في فقه أحكامه، وتمييز غريبه ومشكله وصحيحه، والمختلف فيه ومتونه، وأنواعه، ورواته ورواياته المختلفة.

إفحامه لعلماء فاس:

وبفضل هذا التضلع، وذاك التفوق في العلوم والمعارف الإسلامية، كثر حساد أبي عبد الشريف والحاقدون عليه، وحاولوا أن ينالوا من مركزه العلمي، ومقدرته وكفاءته فأشاع فقهاء فاس بأنه ضعيف وغير دقيق في علوم الفقه والحديث، ولم يستطع أن يستوعب أحكامهما.

ونقلوا هذه الإشاعة إلى السلطان فجمعهم في مجلس علمي حافل، ودعا إليه أبا عبدالله الشريف، وكلفه دون سابق علم، بإلقاء درس في شرح حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، «إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم إلى آخر الحديث، حتى يختبر علمه في الفقه والحديث وأصولهما، فأخذه في شرح الحديث، وأتى بخمسة وعشرين فرقاً ورواية له وفسر كل رواية وفرق على حدة، وأورد الروايات الراجحة والضعيفة وأبهر الحاضرين، وأسكت وأخرس الحاقدين والمتقولين، وعندئذ قال السلطان لهم معرفاً بهم ومتهكماً: «هذا هو العالم الذي طعنتم في علمه وأشرتم إلى قصوره في الفقه والحديث وعلم الكلام».

إشادة العلماء به:

وإذا كان هذا هو موقف بعض علماء فاس من أبي عبد الله الشريف، فإن

آخرين وهم كثيرون، أشادوا به، وبعلمه، وبجهوده في تكوين الأجيال، وتنوير العقول وترقيتها.

فقد أشاد به عبد الرحمن ابن خلدون، ووصفه بالإمام العالم القدوة، فارس المعقول والمنقول وصاحب الفروع والأصول.

وقال عنه الونشريسي بأنه كان إماماً في العلوم العقلية، كلها منطقاً، وحساباً، وفرائض، وتنجيماً وهندسة، وموسيقى وتشريحاً، وفلاحة، وكثيراً غيرها من العلوم القديمة (علوم الحكمة).

وترجم له ابن السراج في فهرسته، وقال إنه بلغ في علمه درجة الاجتهاد. وعندما اعتزم أبو عبدالله الشريف الهجرة إلى تونس، قال عنه ابن مرزوق الخطيب، والجد، لقد كرهت فراقه ولكن أحمد الله على رؤية أهل إفريقيا، ويعني بها تونس مثله من علماء المغرب، ويعني به المغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى، لأنه سيبهرهم، ويسكتهم ويفحمهم.

وذكر ابن مرزوق الحفيد بأنه أعلم أهل عصره بالإجماع وقال عنه شيخه ابن عبد السلام، التونسي، ما أظن أن هناك في المغرب عالماً مثله.

ودرج لسان الدين بن الخطيب على إرسال كل مؤلف له يتمه إليه ليقرضه ويكتب عليه بخط يده، واعتاد شيخ شيوخ الأندلس العلامة أبو سعيد ابن لب، على استشارته والرجوع إليه في كل ما يشكل عليه من المسائل الفقهية، والعلمية المختلفة.

وقال عنه شيخه محمد بن إبراهيم الآبلي: هو أوفر من قرأ على عقلا، وأكثرهم تحصيلاً، وكان من عادته عندما يشكل أمر من الأمور على طلبته، أن يقول لَهم، انتظروا به أبا عبدالله الشريف.

وذكر الشيخ أبو يحيى المطغري بأن السلطان أبا عنان طلب يوماً من الفقيه الحافظ القاضي أبي عبدالله المطغري أن يقوم بإلقاء درس في التفسير في مجلس علمائه، وبينهم أبو عبدالله الشريف فامتنع وقال له: أن أبا عبدالله الشريف أولى مني بذلك، وعندما كرر السلطان رجاءه له بالغ في التمنع والاعتذار قائلاً: لا يمكن لي أن أقرىء بحضرة أبي عبدالله الشريف، لأنه أعلم مني، فقبل السلطان اعتذاره، وطلب من أبي عبدالله الشريف أن يقوم، واضطر السلطان خلال

الدرس أن ينزل من السدة التي كان يجلس عليها، وينضم إلى الجالسين من العلماء على الحصائر، وفي نهاية الدرس قال السلطان للجالسين حوله لكأني أرى العلم يخرج من منابت شعره.

وكان كبير فقهاء فاس موسى العبدوسي شديد الحرص على تقييد كل ما يصدر من أبي عبدالله الشريف من فتاوى، وأحاديث وقضايا علمية، رغم أنه كان أكبر منه سناً.

ودأب الفقيه المحدث القاضي أبو علي منصور ابن هدية القرشي على القول بأن كل فقيه قرأ في زماننا هذا، أخذ ما قدر عليه من العلم، وتوقف، إلا أبا عبدالله الشريف الحسني، فإن اجتهاده يزيد باستمرار والله أعلم حيث ينتهي.

بعض تآليفه:

ويبدو أن كثرة اشتغال أبي عبدالله الشريف بالتعليم والتدريس، والإقراء، عاقته على الاهتمام بالكتابة، والتأليف، على عكس غيره من علماء عصره، كابن مرزوق الخطيب، وابن مرزوق الحفيد، وابن خلدون، ومع ذلك خلف بعض الكتابات ولو قليلة منها.

1) مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، وطبع بتونس عام 1346 هـ (1927 ـ 1928 م) ووضع الشيخ عبد الحميد بن باديس ملخصاً عنه لطلبته بقسنطينة يوم أن كان يقوم بالتدريس.
2) شرح على جمل الخونجي في علم المنطق.
3) كتاب في القضاء والقدر.
4) كتاب في المعارضات (أو المعاطاة).
5) فتاوى ورسائل وأجوبة على مسائل علمية مختلفة أجاب بها عالم تونس الشيخ يحيى الرهوني.

وفاته:

واصل أبو عبدالله الشريف مهنة التعليم والتدريس والإقراء، والوعظ، والإرشاد، بالمدرسة اليعقوبية في تلمسان حتى توفي ليلة الأحد الرابع (4) ذي

الحجة عام 771 هـ (29 جوان 1370) عن عمر 61 عاماً، ودفن بالمدرسة اليعقوبية في تلمسان التي سيدفن بها فيما بعد تلميذه الشيخ إبراهيم المصمودي عام 805 هـ (1402 م) وسار السلطان أبو حمو موسى الثاني في جنازته، وتأسف لفقدانه كثيراً، وقال لابنه أبي محمد: ما مات من خلفك أنت، ولكن مات أبوك لي أنا، لأني كنت أباهي به الملوك والأمراء.

وعندما سمع الفقيه ابن عرفة التونسي بخبر موته تأسف كثيراً وقال: لقد ماتت بموته العلوم العقلية.

وبعد دفن أبي عبدالله الشريف قام السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني بتعيين ابنه أبي محمد في مكانه مدرساً في تلك المدرسة اليعقوبية ورتب له ما يلزمه من الأموال، والوسائل ليواصل التعليم، وتكوين الأجيال.

علماء أسرة العقباني التجيبيون التلمسانيون

تنتمي أسرة العقباني إلى قرية عقبان بالأندلس، وتنتسب إلى تجيبة والتجيبيين، ولا ندري بالضبط متى هاجرت إلى تلمسان، ولكن يبدو أن ذلك تم في فترة الاضطرابات التي عمت البلاد الأندلسية، بعد أن استفحل خطر النصارى الإسبان.

وعندما استقر بها المقام بتلمسان، اشتغلت بالعلم والثقافة على غرار الأسر العلمية الأخرى التي برزت في هذه الفترة خلال القرنين الثامن الهجري، والرابع عشر الميلادي، ونبغ منها علماء فضلاء، خاصة في ميدان القضاء والتشريع الإسلامي، كان لهم تأثير بالغ في الحياة الفكرية: الدينية والأدبية واللغوية، سواء بتلمسان أو باقي أصقاع المغرب الإسلامي، والأندلس وتولوا مناصب القضاء بتلمسان، وفاس، وبجاية، وسلا، ومراكش، وغيرها. ويمكن أن نميز منهم العلماء، والقضاة، التالية أسماؤهم الذي سنفرد لكل منهم ترجمة مناسبة:

1) سعيد بن محمد بن محمد العقباني.
2) قاسم بن سعيد بن محمد العقباني.
3) أحمد بن قاسم العقباني.
4) إبراهيم بن قاسم العقباني.
5) محمد بن أحمد بن قاسم العقباني.

القاضي أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني

ولد أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني بمدينة تلمسان عام 720 هـ (1320 م). وحفظ القرآن الكريم في صغره، وانكب على الدراسة وتعلم العلوم والمعارف العربية الإسلامية، كالنحو، والصرف، والبلاغة والتفسير، والفقه، والحديث، والأصول، على علماء أجلاء، فتفقه على ابني الإمام: أبي زيد عبد الرحمن، وأبي موسى عيسى، ودرس عليهما عدة كتب في الفقه والحديث، ودرس علم الأصول على أبي عبدالله محمد بن إبراهيم الآبلي، وتضلع فيه وفي الفقه والحديث، حتى أصبح من الفقهاء المبرزين في مذهب الإمام مالك.

ودرس علم الفرائض وتقسيم التركات على الحافظ السطي، وروى كتاب البخاري، والمدونة في الحديث على السلطان، أبي عنان الذي رواهما بدوره على العالم الحافظ عز الدين ابن جماعة.

وبعد أن تضلع في مختلف العلوم والمعارف الإسلامية الأدبية والدينية تصدى للتدريس في مساجد تلمسان ومدارسها، وفي عدة مدن أخرى كبجاية ووهران، وسلا، ومراكش، وتولى منصب قضاء الجماعة في هذه المدن كلها وبقي في هذا المنصب أكثر من أربعين عاماً، رغم وجود علماء أجلاء مثله، وهذا يثبت تفوقه، وكفاءته، ويبرر استحقاقه اللقب الذي أطلق عليه وهو: «رئيس العلماء والعقلاء». ومن الذين درسوا وتتلمذوا عليه: ابنه قاسم العقباني، والإمام أبو الفضل ابن الإمام، وعبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى وابن مرزوق الحفيد، وإبراهيم المصمودي، وأبو يحيى الشريف، وأبو العباس أحمد ابن زاغو، ومحمد بن عقاب الجذامي، وهذا الأخير أجازه، والحافظ التنسي.

وخلال اشتغال أبي عثمان سعيد العقباني بالتدريس، شرح، وألّف عدة كتب، فشرح جمل الخونجي في المنطق، والتلخيص لابن البناء، وقصيدة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة، والعقيدة البرهانية في أصول الدين وفسر سورة

الفاتحة، والأنعام، والفتح، وألف شرحاً على الجُوفي.

تولى منصب قاضي الجماعة بمدينة وهران مدة من الزمن، كما تولاه في تلمسان وبجاية، ومراكش، وسلا. وتوفي القاضي سعيد العقباني عام 811 هـ (1408 ـ 1409 م) عن عمر 91 عاماً، ودفن في مقبرة السلاطين الزيانيين[1].

القاضي أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني

لم تذكر المصادر متى ولد قاسم بن سعيد العقباني، ولكن يبدو أنه ولد في أواخر القرنين الثامن الهجري، والرابع عشر الميلادي، وحفظ القرآن الكريم، وأتقنه على والده، ودرس عليه علوماً أخرى كذلك، كما درس على علماء آخرين، وتفقه حتى تضلع ووصل إلى درجة الاجتهاد في مذهب مالك وغيره.

وقد حصلت بينه وبين ابن مرزوق الحفيد العجيسي مناقشات حادة حول مسائل فقراء الصوفية، فوضع الأخير كتاباً سماه: النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص، رد فيه على قاسم العقباني، وحاججه بأسلوبه، وآرائه التي يؤمن بها بقطع النظر عن صحتها أو عدم صحتها.

تضلع قاسم العقباني في علوم المعقولات والمنقولات، وتولى منصب قاضي الجماعة بتلمسان على غرار أبيه سعيد، وذلك في وقت مبكر من حياته يوم أن كان شاباً يافعاً، وهذا مما يؤكد تضلعه في علوم الشريعة وأصول الدين، وحذقه لغيرها بالتبعية.

وفي عام 830 هـ (1426 ـ 1427 م) سافر إلى المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج، فزار مصر، وحضر دروساً من أملاء ابن حجر العسقلاني واستجازه فأجازه، وحضر دروساً أخرى على العلامة البساطي. ووضع تعاليق على كتاب ابن الحاجب الفرعي، وأرجوزة في أذكار الصوفية وتراتيلهم لأنه كان

---

(1) ابن مريم: البستان. ص 106 ـ 107. وممن ترجم له كذلك: ابن فرجون، وابن خلدون عبد الرحمن وأخوه يحيى، والرحالة أبو علي الحسن، والأب بارجيس، وليفي بروفانسال. وجان كازناف. وعبد الرحمن الجيلالي.

يميل إلى الحياة الصوفية، ولا شك أنه زار عدة بلدان ومدن مشرقية خلال هذه الحجة. وبعد ذلك عاد إلى تلمسان وتصدى للتدريس ومزاولة منصب ووظيفة القضاء، وتتلمذ عليه علماء كثيرون أمثال، الإمام أبي العباس، وأبى البركات النايلي، وولده القاضي أبي سالم العقباني، وحفيده القاضي محمد بن أحمد العقباني، وأبي زكرياء المازوني، والونشريسي، والشيخ ابن زكري، ومحمد ابن مرزوق الكفيف.

وأثنى الكثير منهم عليه، وأكدوا على غزارة علمه وعمق ثقافته ومنهم محمد بن العباس التلمساني، وأبو زكرياء يحيى المازوني، والحافظ التنسي الذي قال عنه بأنه وحيد دهره وفريد عصره.

ومما قاله عنه تلميذه الرحالة القلصادي هو: أنه الفقيه الإمام المعمر ملحق الأصاغر بالأكابر، العديم النظراء والأقران، المرتقي ذروة الاجتهاد بالدليل والرهان، انفرد بفني المعقول والمنقول، واتحد في علمي اللسان والبيان، وهو فيما عداه من الفنون يفوق الصدور ويفيض على مزاحمة البحور ولي خطة القضاء بتلمسان في صغره، ورأى أمله من ذريته في كبره، وأحرز في العلوم قصب السبق وحازه، وقطع فيه صدر العمر واستقبل أعجازه. عكف على تعليم العلوم، وعطف على تدريس المعدوم منها والمعلوم، فأفاد الأفراد، وأقنع الجهابذة النقاد، وأسمع الأعلام ما اشتهى كل منهم وأراد. فسمعت منه، وأخذت عنه، ولازمته بعد وفاة سيدي أحمد بن زاغو إلى أن ارتحلت من تلمسان، ولما عدت إليها وجدته حياً، فقرأت عليه مختصر ابن أبي زيد للمدونة، ومختصر خليل، والحكم لابن عطاء الله، وشرحها لابن عباد والحوفي بطريق الصحيح، والمكسور، والمناسخات، من شرح والده سعيد، ومختصره في أصول الدين، وغيرهما، وحضرته في كتب متعددة في علوم شتى.

وكانت أخلاقه رضي الله عنه حسنة، ومرضية، قبل أن يرى مثلها توفي في شهر ذي القعدة من عام 854 هـ (1450 م) وصلي عليه في الجامع الأعظم،

وحضر جنازة السلطان وعلية القوم، وكل العلماء، والفقهاء، وكان يوماً مشهوداً[1].

القاضي أبو العباس أحمد بن قاسم العقباني

لم نجد فيماعدنا إليه من كتب التراجم، من ترجم له وتحدث عن حياته ولو بإيجاز واكتفى صاحب البستان بذكر توليه وظيفة القضاء بتلمسان ونقل عن أبيه قاسم العقباني بأنه توفي عام 840 هـ (1436 ـ 1437 م)، أي أنه توفي قبل أبيه بأربعة عشر عاماً كاملة، وهذا يعني أنه تولى القضاء في عهد أبيه، وقد يكون ذلك خلال رحلته إلى الحج.

وذكر أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج، بأن لأحمد بن قاسم العقباني هذا ولداً اسمه عبد الواحد تولى وظيفة قاضي الجماعة هو الآخر وتوفي عام 896 هـ (1490 ـ 1491 م)[2].

القاضي أبو سالم إبراهيم بن قاسم العقباني

ولد إبراهيم بن قاسم العقباني بمدينة تلمسان عام 808 هـ (1405 ـ 1406م) وحفظ القرآن الكريم على والده قاسم العقباني، ودرس عنه العلوم والمعارف الأخرى الأدبية والدينية، خاصة مادة الفقه الإسلامي ودرس على علماء آخرين كذلك حتى صار علماً من الأعلام فتصدى للتدريس والتعليم، والتأليف كغيره من علماء العصر، والتف حوله طلبة العلم للارتواء من معارفه، ومنهم، أبو العباس الونشريسي الذي استفاد منه كثيراً في ميدان الفقه، ونقل عنه فتاوى عديدة في كتابه المعيار الذي ألفه فيما بعد.

وكذلك فعل المازوني في نوازله، ونقل عنه فتاوى كثيرة، وذكر الشيخ أحمد زروق بأن أحمد قاسم العقباني كان فقيهاً متضلعاً، تولى منصب قاضي الجماعة بتلمسان بعد أن عزل عنه ابن أخيه محمد بن أحمد بن قاسم العقباني،

---

(1) نفس المصدر. ص 147 ـ 149.
(2) نفس المصدر. ص 51.

وذكر كذلك بأنه كان هو وأبوه قاسم يستنكران بشدة على ابن العربي إباحته إرسال الريح في المساجد.

توفي إبراهيم العقباني بتلمسان عام 880 هـ (1475 ـ 1476 م) ودفن بها، بعد أن قضى جل عمره في التدريس، والتعليم والإفتاء[1].

القاضي محمد بن أحمد بن قاسم العقباني

ولد محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني بمدينة تلمسان، ولم تذكر المصادر متى ولد بالضبط، ولكن يبدو أنه ولد في مطلع القرن التاسع الهجري أو آخر القرن الثامن قبله، وحفظ القرآن الكريم في صغره، ودرس على جده الإمام قاسم العقباني، وعلى علماء آخرين، العلوم العربية الفقهية واللغوية والأصولية، وتضلع مثل جده، ووالد جده، في مادة الفقه الإسلامي، وأصبح له باع في الإفتاء والنوازل تولى منصب القضاء بتلمسان، ودرس عليه أبو العباس الونشريسي وأحمد بن حاتم، وغيرهما، واهتم بعلم التصوف مثل جده قاسم العقباني فدرسه وبجل رجاله، وتصوف مثلهم[2].

وقد عاش محمد بن قاسم العقباني عدة أحداث سياسية وذهب إلى تونس سفيراً من قبل السلطان الزياني واشترك مع بعض وجوه تلمسان في توقيع الصلح مع سلطان تونس الحفصي عندما غزا تلمسان، وردوا الخطر عن المدينة وسكانها مرتين اثنين في أقل من عشر سنوات.

القاضي محمد العقباني يترأس وفد الصلح

لقد كانت أطماع السلاطين الحفصيين بتونس في هذه الفترة شديدة على تلمسان وإمارتها، ويستغلون أية فرصة للتدخل في شؤونها الداخلية، والانقضاض عليها كلما أمكن ذلك. ففي ربيع الأول عام 866 هـ (1464 م) قام الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت بفرض سيطرته على مدينة تلمسان،

---

(1) نفس المصدر. ص 57 ـ 58.

(2) نفس المصدر. ص 224.

وأخرج منها صاحبها وأميرها أبا العباس أحمد بن أبي حمو، عم أبيه، فأنزوى بالعباد فترة من الزمن ثم رحل إلى الأندلس.

وعندما سمع سلطان تونس الحفصي أبو عثمان بن محمد ابن أبي فارس عبد العزيز بالأمر، قرر أن يغزو تلمسان ليؤدب هذا الأمير الجديد فخرج على رأس قواته من تونس في شهر شوال من نفس العام، ومر على مدينة قسنطينة، وعرج على جبال الأوراس، وحاصر قلعة أولاد حليمة حتى اقتحمها، ثم واصل سيره غرباً نحو مدينة تلمسان وعندما وصل إلى بني راشد وفد عليه عرب سويد، وبنو يعقوب، والذواودة، وبنو عامر وأعلنوا له طاعتهم وخضوعهم، فتقبل منهم ذلك، وفرق قواده في معظم أنحاء وأطراف تلمسان حتى يأخذوا من الناس البيعة، والجباية. وبينما هو يستعد للتقدم إلى تلمسان واقتحامها حضر إليه منها وفد من ثلاثة شيوخ هم الشيخ أبو العباس أحمد بن الحسن، والفقيه أبو عبدالله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني مترجمنا، وأبو الحسن علي بن حمو بن أبي تاشفين، خال الأمير محمد المتمرد، والجالس على العرش واستظهروا له بعقد أمضاه عدد من أعيان تلمسان، يؤكد أن جميع ما يبرمونه معه من شروط ستكون ملزمة للأمير محمد ابن أبي ثابت، وطلبوا منه أن يكف عن عزمه غزوا المدينة، على أن يبايعوه نيابة عن صاحبها الذي سيدخل تحت طاعته، ويحكم تلمسان باسمه فقبل عرضهم ورجاءهم، وأعلن الأمير محمد طاعته له فرحل وعاد إلى تونس في شهر صفر من عام 867 هـ (1462 م)[1].

القاضي محمد بن أحمد العقباني يذهب سفيراً إلى تونس

وحتى يثبت الأمير الزياني حسن نيته أوفد إلى تونس وفداً من قبله يحمل هدية إلى صاحبها، تألف من القاضي محمد بن أحمد العقباني، ورجل من بني عمومته هو، ذهب إلى تونس في أواخر جمادى الثانية 868 هـ (1464 م)

---

(1) الزركشي. تاريخ الدولتين: ص 150.

وعندما وصل هذا الوفد إلى تونس وجد السلطان الحفصي مريضاً وفي غيبوبة، وعندما فاق من غفوته واستعاد وعيه أبلغ بخبر هذا الوفد التلمساني وبالهدية التي جاء بها إليه ففرح بها غاية الفرح، وأمر بتزيين الأسواق، والساحات العامة، ابتهاجاً بهذا الحدث السعيد، وفرح السكان كذلك واستبشروا أخيراً كما أكد ذلك الزركشي في كتابه، تاريخ الدولتين الموحدية، والحفصية.

وقد بقي محمد العقباني ورفيقه بتونس أربعة شهور كاملة وزيادة، ثم عاد إلى تلمسان في شهر ذي القعدة بهدية صاحب تونس وصحبهما مندوب من سلطان تونس يدعى، محمد بن فرج الغربي ليحضر تسليم الهدية، ويؤكد صداقة عرش تونس، لعرش تلمسان[1].

القاضي محمد العقباني

يفاوض سلطان تونس على عقد الصلح مرة ثانية

وكان من المفروض أن يسود السلام بين البلدين، وتدوم الصداقة بين العرشين الحفصي والزياني، ولكن الذين يصطادون في الماء العكر كثيرون فسعوا حتى أفسدوا العلاقات بين العرشين، ودفعوهما للتطاحن من جديد بعد أن أثاروا الشقاق والشكوك بينهما.

ففي عام 870 هـ (1465 ـ 1466 م) وفد على سلطان تونس أبي عثمان زعماء بني عامر، وسويد وغيرهم من أعراب تلمسان، وقدموا له شكاوى عديدة ضد أمير تلمسان الزياني محمد ابن أبي ثابت، وأكدوا له بأن هذا الأمير نكث عهده وبيعته للعرش الحفصي بتونس، وخابر محمد بن سباع، ومحمد بن سعيد بالأوراس والزاب، والزيبان، ليكونا في صفه وبجانبه، فيما إذا أقدم سلطان تونس على غزو تلمسان واقترحوا عليه أن يجهز جيشاً لغزو تلمسان ومعاقبة هذا الأمير العاصي، وأعطوا له وعداً ثابتاً ليؤيديوه، وينصروه.

قبل السلطان الحفصي عرضهم، وسمع لاقتراحهم، وعزم على غزو

(1) الزركشي: تاريخ الدولتين. ص 150 ـ 155.

تلمسان ومعاقبة الأمير العاصي المتمرد، فعين أبا جميل زيان بن عبد الواحد بن أبي حمو، أميراً جديداً لتلمسان، وكان يعيش آنذاك في تونس وكتب له عهداً بذلك أوائل شهر شوال من عام 870 هـ (1466 م)، وجهز له فرقة من الجنود، وزوده بالأسلحة الضرورية والأموال اللازمة وكلفه بالخروج إلى تلمسان، وأرسل معه قائده فرج الجبائي، والفقيه أحمد البنزرتي، وطلب من ابنه عبد العزيز أن يخرج معه كذلك ويصحبه إلى تلمسان، ووعدهم بأن يلحق هو بهم فيما بعد.

خرج هذا الأمير ومن معه من الرفاق والجنود من تونس واتجهوا إلى مدينة بجاية كمرحلة أولى، وفي 10 من شهر ذي القعدة 870 هـ (1466 م) خرج السلطان الحفصي نفسه ليلحق بهم، ومر على جبال الأوراس ففر أمامه محمد بن سباع، ومحمد بن سعيد، ومن معهما من الأنصار، والتحقوا بالمناطق الصحراوية الجنوبية، وتمكن هو من الاستيلاء على كثير من قلع الأوراس وحصوها، ثم واصل سيره نحو تلمسان عبر الهضاب العليا، وبايعه سكان مدن، المدية، ومليانة، وتنس، وأرسل عساكره إلى عدة جهات لتأخذ له البيعة، وتقدم الضرائب والجبايات المالية المطلوبة.

وعندما وصل إلى ظاهر تلمسان في شهر ربيع الثاني عام 871 هـ (1466 م) اصطدم مع سكانها، وتقاتل معهم يوماً كاملاً، وتقدم حتى وصل إلى المنصورة، وشدد الحصار على المدينة، وجرى قتال عنيف بين الطرفين وحالت الأمطار، والوحل، وصمود السكان، دون سقوط المدينة في أيدي صاحب تونس الحفصي.

وعندئذ التجأ أعيان تلمسان كالعادة إلى الوسائل الديبلوماسية بإيعاز من الأمير الزياني، وتألف وفد للمفاوضة تزعمه القاضي محمد بن أحمد العقباني وخرج إلى معسكر السلطان الحفصي صبيحة يوم السبت وطلب منه العفو عما بدر منهم ومن الأمير الزياني وسلموا له عقد البيعة الذي حرروه، وكتب فيه الأمر الزياني محمد بن أبي ثابت بخطة ما نصه: «اشهد على نفسه عبدالله

المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلا الله» وأعلموه بأن الأمير محمد هذا قد أعطى ابنته البكر إلى الأمير أبي زكرياء يحيى بن المسعود الحفصي، دون أن يخطبها منه، وذلك من أجل ترسيخ أواصر القربى بين العرشين، وإزالة بذور الشقاق والخلاف بينهما.

فقبل سلطان تونس العرض، ورحل عن تلمسان، ورجع إلى بلاده تونس ووصل إليها في يوم 9 شعبان من عام 871 هـ (1467 م). ويعود الفضل في هذه المفاوضات وهذا الاتفاق إلى القاضي محمد بن أحمد بن قاسم العقباني الذي توفي بعد ذلك بعدة أشهر فقط وذلك في يوم 23 ذو الحجة عام 871 هـ (1467 م)، وقد ذكر الجيلالي وأحمد بابا التنبكتي بأن أحمد بن قاسم العقباني له ولد اسمه عبد الواحد العقباني تولى هو الآخر وظيفة القضاء بتلمسان وتوفي عام 896 هـ (1490 ـ 1491 م)[1] وهو على ما يبدو آخر أعلام هذه العائلة من القضاة والفقهاء.

(1) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. (الجزائر. 1982) جـ 2. ص 174 ـ 175.

العلامة عبد الرحمن بن خلدون

(732 ـ 808 هـ ـ 1331 ـ 1406 م)

أصل أسرة ابن خلدون:

تنتمي عائلة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون إلى وائل بن حجر من أقيال عرب حضرموت باليمن، هاجر جده الأول خلدون بن عثمان من اليمن إلى بلاد الأندلس في صدر الفتح الإسلامي، واستقر بمدينة قرمونة مع جماعة من بني قومه الحضرميين فترة من الزمن، وكان له ولأسرته وأبنائه دور في الحياة والأحداث بها على مرّ الزمن ثم انتقلوا إلى إشبيلية، وانخرط البعض منهم في فرقة الجنود اليمنيين واشترك زعيمهم كريت وأخوه خالد في الثورة التي نشبت بإشبيلية ضد الأمير عبدالله المرواني الأموي أواخر المائة الثالثة للهجرة أي ما بين 280 و290 هـ (893 ـ 902 م) ولعبا دوراً بارزاً فيها، واستقل كريت بأمر إشبيلية مدة من الزمن ثم تآمر عليه إبراهيم بن حجاج وقتله.

وحسب رواية ابن حيان فإن أسرة ابن خلدون في إشبيلية بلغت درجة عالية في النباهة، وحازت الرياسة في العلم والسياسة واستمرت على ذلك طوال عهد الخلافة الأموية ولما تمزقت وحدة الأندلس، واختفت الخلافة وقام على أنقاضها ملوك وأمراء الطوائف، وبرز بإشبيلية بنو عباد، وتغلبوا عليها وعلى ما حولها من المدن والقرى وشيدوا إمارتهم بها، اتخذوا وزراء لهم من أسرة بني خلدون ووظفوهم في إمارتهم ودولتهم، فزاد ذلك في رفعة شأنهم، وعندما عبر يوسف بن تاشفين مضيق طارق إلى الأندلس لنجدة أمير إشبيلية من بني عباد وباقي أمراء الطوائف ضد النصارى الإسبان اشترك الخلدونيون معهم في معركة

الجلالقة (الزلاقة) واستشهد البعض منهم، وواصلوا دورهم السياسي في إطار السيادة المرابطية.

وعندما قامت الدولة الموحدية على أنقاض دولة المرابطين وفرضت سيطرتها على بلاد الأندلس اتصل زعماء أسرة ابن خلدون بولاتها، وأهدى المحتسب بن خلدون جارية جليقية تم سبيها قبل ذلك، إلى أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عامل الموحدين بإشبيلية، فاتخذها أم ولد وأنجبت له ثلاثة أبناءهم: أبو يحيى زكريا، وعمر، وأبو بكر، ولقبت بأم الخلفاء وأسست مدرسة جامع الهواء بتونس بعد أن انتقل زوجها أبو زكرياء يحيى لحكم تونس، عام 620 هـ (1223 م) واستقل بها وأسس الدولة الحفصية، وسيكون هو السبب والدافع لهجرة أسرة ابن خلدون إلى تونس فيما بعد.

وعندما اضطربت أوضاع الأندلس السياسية، وثار بنو هود وتفككت سلطة الموحدين وتقوضت، وتكتل النصارى الإسبان على غزو واحتلال المدن والعواصم الإسلامية بها خاصة قرطبة، وإشبيلية، وجيان وما إليها من السهول والبسائط، ثار ابن الأحمر في حصن أرجونة بغرب الأندلس، وأخذ يسعى لفرض سيطرته على ما بقي من البلاد الأندلسية الإسلامية خارج سلطة النصارى، ففاوض ذوي الرأي والمشورة بإشبيلية من بني الجد، وبني الوزير، وبني سيد الناس، وبني خلدون، وعرض عليهم فكرة الثورة ضد بني هود، ومسالمة الطاغية النصراني الذي يحكم القرنتيرة والعمل على السيطرة والاحتفاظ بالجبال الساحلية وأمصارها الوعرة من مالقة إلى غرناطة والميرية فلم يوافقوه على خطته وكان على رأسهم أبو مروان الباجي فنابذهم وانفصل عنهم وخلع طاعة الباجي، وأخذ يتلاعب، فأحياناً يبايع بني هود، وأحياناً صاحب مراكش الموحدي، وأحياناً أبا زكريا يحيى الحفصي بتونس، ونازل غرناطة وسيطر عليها واتخذها عاصمة له، وترك القرنتيرة وأمصارها للطاغية النصراني.

فخشي بنو خلدون عاقبة هذه السياسة، وتخوفوا من أن يقوم الطاغية النصراني بغزو إشبيلية، فهاجروا إلى مدينة سبتة بالمغرب الأقصى وحصل ما

كانوا يتوقعونه فاحتل الطاغية مدن قرطبة، وإشبيلية، وقرمونة، وجيان، وما إليها في ظرف عشرين عاماً.

وعندما نزل بنو خلدون بسبتة، استقبلهم أميرها العزفي وأكرمهم، وأصهر لهم بأبنائه وبناته وارتبطوا معهم بدم المصاهرة وظهرت بينهما ذرية مشتركة، وكان الحسن بن محمد سبط ابن المحتسب جد بني خلدون على علم بسوابق سلفة لدى الأمير أبي زكريا يحيى الحفصي صاحب تونس، وقصة تلك الجارية الجليقية التي أهدوها له وأنجبت بنين، فاتجه إليه واستقبله وأكرمه، ومن هناك سافر إلى الحجاز وأدى فريضة الحج ثم عاد إلى تونس، ولحق بالأمير الحفصي أبي زكرياء يحيى بعنابة فأكرمه وبجله واعتنى بأمره وأقطعه بعض الأراضي وفرض له الأرزاق الضرورية، وبقي بعنابة حتى توفي عام 467 هـ 1249 م ودفن بها وحظي ابنه أبو بكر محمد بنفس الرعاية والعناية لدى السلطان المستنصر الحفصي بتونس، ولدى ابنه من بعده أبي إسحاق عيسى الذي عينه في منصب ووظيفة كبيرة بالدولة وأوكل إليه مهمة الانفراد بولاية العمال وعزلهم، ومحاسبتهم على أموال الجباية فاضطلع بالمهمة وأداها على ما يرام.

وبعد وفاته عقد الأمير أبو إسحاق إلى ابنه محمد بن أبي بكر وهو الجد الأقرب لعبد الرحمن بن خلدون على وظيفة الحجابة لابنه وولي عهده أبي فارس في بجاية، فتولاها مدة ثم طلب إعفاءه منها فأعفاه ورجع من بجاية إلى تونس، وعندما تمكن الدعي أحمد بن مرزوق ابن أبي عمارة من السيطرة على عرش تونس اعتقل أبا بكر محمد وصادر له كل أمواله وقتله خنقاً في سجنه يوم 28 شوال 681/ 1283 م وذهب ابنه محمد مع السلطان أبي إسحاق وأبنائه إلى بجاية فارين بأنفسهم، ومن هناك خرجوا مع الأمير أبي فارس لمواجهة الدعي أبي عمارة المسيلي ومقاومته والتحموا معه في معركة مرماجنة الكبيرة بفج الأبيار قرب قلعة سنان يوم الاثنين 3 ربيع الأول 682 هـ 1283 م وانهزموا ونجا محمد بن خلدون والأمير أبو حفص، والفزاري، وأبو الحسن بن سيد الناس، وفروا إلى قلعة سنان واعتصموا بها بعض الوقت حتى مرت العاصفة.

وعندما تمكن الأمير أبو حفص ابن أبي زكرياء من استعادة عرش أبيه بتونس وقضى على الدعي ابن أبي عمارة، أكبر موقف محمد ابن خلدون وأعاده إلى وظيفته كسابق عهده وأقطعه أراضي، ونظمه في سلك كبار قادة جيشه، واستكفى به في الكثير من أمور ملكه، ورشحه ليتولى منصب الحجابة له بعد الفزاري.

وعندما تولى أبو عصيدة عرش تونس اصطفى لحجابته واختار محمد بن إبراهيم الدباغ ومحمد بن خلدون، وبقي في وظيفته حتى هلك أبو عصيدة وخلفه الأمير أبو خالد، فرفع من شأن محمد بن خلدون وعظمه دون أن يسند إليه أية وظيفة، وبقي على حالته تلك إلى أن تولى ابن اللحياني أبو يحيى العرش فاصطفاه واتخذه مستشاراً له ومديراً لأموره عندما داهمته أحداث عرب بني هلال، وكلفه بحماية جزيرة جربة من أحداث وقلاقل قبيلة لاج التي تقطن بأحوازها، وتنتمي إلى بني سليم، فأدى المهمة كما يجب وسجلت له مآثر في هذا الميدان.

وعندما توفي ابن اللحياني، سافر محمد بن خلدون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عام 718 هـ (1318 م) وبعد أن عاد كف عن ممارسة الأمور السياسية، وتولى وظائف الدولة، ومال إلى حياة الزهد والتعبد وعاد إلى الحجاز مرة أخرى لأداء مناسك الحج عام 723 هـ (1323 م)، ولزم بيته بعد عودته، وأبقى السلطان أبو يحيى، له جراياته وإقطاعاته الأرضية، ووفر له الأموال، ودعاه مراراً ليتولى وظيفة الحجابة له فرفض وامتنع.

ولما توفي الحاجب المزوار عام 727 هـ (1327 م) دعاه السلطان ليتولى وظيفة الحجابة فرفض واستشاره فيمن يصلح لها فأشار عليه بصاحب ثغر بجاية محمد بن أبي الحسن بن سيد الناس، وأكد له بأنه أحق بذلك المنصب كفاءة ومقدرة، وكان بين العائلتين علاقة وطيدة بالأندلس وتونس، فأخذ السلطان برأيه واستدعى ابن السيد الناس من بجاية وأسند إليه وظيفة الحجابة ومع ذلك كلما خرج إلى جهة من الجهات للتفقد، يستخلفه في مكانه ليرعى

شؤون الدولة، وهذا يدل على علو مكانته ورفعة شأنه.

وقد بقي محمد بن خلدون على هذه الحال من الرفعة والمكانة حتى توفي عام 737 هـ (1336 م)، وخلف من بعده ابنه محمد والد عبد الرحمن بن خلدون، الذي آثر الدراسة والمرابطة على الوظائف السياسية، ولازم الشيخ العالم الفقيه أبا عبدالله الرندي الذي كان أكبر علماء تونس في العلوم والفتوى، والولاية في عهده، وأخذ عنه علوم الفقه والآداب العربية، والشعر وفنونه، وأصبح بحراً لا ساحل له، وتوفي بوباء الطاعون عام 749 هـ (1348 م).

ميلاد ونشأة عبد الرحمن بن خلدون:

ولد عبد الرحمن بن خلدون بن محمد في مدينة تونس يوم أول رمضان عام 732 هـ (1331 م)، وتربى في أحضان والده محمد، الذي أوكل أمر تعليمه إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن نزال الأنصاري البلنسي الذي علمه القرآن الكريم حفظاً ورواية على القراءات السبع إفراداً وجمعاً واستعرضه عليه إحدى وعشرين مرة، ثم جمعه عليه مرة أخرى في ختمة واحدة، ومرة ثانية على رواية يعقوب، وحفظ عليه لامية الشاطىء في القراءات السبع، والرائية في الرسم، وعرض عليه كتاب التفسير لأحاديث الموطأ لابن عبد البر الذي حذا فيه حذو كتابه: التمهيد على الموطأ مقتصراً على الأحاديث فقط، ودرس عليه كتباً أخرى جمة مثل التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الخطيب في الفقه وغيرهما.

ودرس على والده علوم اللغة العربية وصناعة الشعر، وكذلك على الشيخ الحصايري، ومحمد الشواس المزازي وابن القصار النحوي وابن بحر اللغوي الذي أشار عليه بحفظ المزيد من شعر المعلقات.

ودرس على إمام المحدثين ابن جابر، كتاب مسلم بن الحجاج وكتاب الموطأ، وبعضاً من الأمهات الخمس، وهو الذي أعطى له كتباً كثيرة في الفقه والعربية ليقرأها، وأجازه إجازة عامة عنها.

ودرس الفقه على عدد من المشايخ أمثال: الحياني، ومحمد القصير، وقاضي الجماعة ابن عبد السلام، مع أخيه عمر بن خلدون الذي توفي فيما

بعد، واستفاد منه كثيراً، كما ذكر، ومن ضمن الكتب التي درسها واستعرضها التهذيب للبرادعي، ومختصر المدونة، وكتاب المالكية والموطأ لمالك.

وعندما غزا السلطان المريني أبو الحسن تونس عام 748 هـ (1347 م) صحب معه ثلة من العلماء، فاعتكف ابن خلدون على الدراسة عليهم والاستفادة من علمهم ومنهم: الشيخ السطي، وعبد المهيمن الحضرمي، وأبو العباس أحمد الزواوي، ومحمد بن إبراهيم الآبلي، وابن رضوان المالقي، وكلهم أفادوه في علوم كثيرة نقلية وعقلية دينية ولغوية، وأدبية، وأثنى عليهم جميعاً.

ابن خلدون يتولى وظيفة العلامة بتونس:

لقد انكب عبد الرحمن بن خلدون منذ صغره على الدراسة والتحصيل كما رأينا على جمهرة كبيرة من العلماء والشيوخ الأجلاء، فحصل على علوم ومعارف كثيرة وواسعة من مصادر مختلفة ومتنوعة، وعندما حدث وباء الطاعون عام 749 هـ (1348 م) توفي أبواه، والكثير من شيوخه وأساتذته فلازم الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي ثلاث سنين إلى أن رحل هو الآخر إلى المغرب الأقصى عام 752 هـ (1351 م) بطلب من السلطان أبي عنان، فبقي وحيداً ولكن الأقدار كانت ترعاه.

فقد استدعاه الوصي على عرش تونس أبو محمد بن تافراكين إليه وأسند له وظيفة العلامة وهي الحجابة للسلطان الحفصي أبي إسحاق الصبي الصغير فتولاها وكتب العلامة عن السلطان وهي: «الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم».

وفي عام 753 هـ (1352 م) خرج ابن تافراكين والسلطان الحفصي لمواجهة صاحب قسنطينة الذي تمرد عليهما بدعم من عرب مهلهل، وأخذا معهما عبد الرحمن بن خلدون على كره منه لأنه كان يشعر بالوحشة بسبب فقده لوالديه ومعظم أشياخه، وكان يرغب في الهجرة إلى تلمسان والمغرب الأقصى، ولكن أخاه الكبير محمد صده على ذلك، وقد حضر ابن خلدون معركة مرماجنة بفج الأبيار قرب قلعة سنان، وشهد انهزام سلطان تونس وجيشه، فنجا بنفسه

إلى بلده «آبه». وأقام مدة لدى الشيخ عبد الرحمن الوسناني أحد كبار المرابطين، ثم تحول إلى مدينة تبسة ونزل لدى صاحبها محمد بن عبدون وأقام عنده أياماً حتى هيأ له السفر مع رفيق من المغرب صاحبه إلى مدينة قفصة حيث أقام بها أياماً كذلك حتى قدم عليه فيها الفقيه محمد ابن الرئيس منصور بن مزني، من تونس وهو في طريقه إلى أخيه يوسف صاحب الزاب بمدينة بسكرة، فرافقه ابن خلدون إليها واتصل بأخيه يوسف بن مزني وبقي عنده مدة قصيرة.

وفي هذه الفترة كان السلطان المريني أبو عنان قد شرع في غزو مدينة تلمسان، فأخذ ابن خلدون طريقه إليها للالتحاق به، وعندما وصل إلى البطحاء التقى بالوزير ابن أبي عمر فرحب به، وأرجعه معه إلى مدينة بجاية التي كانت الأوضاع فيها مضطربة، فأصلح أمورها وهدأ أحوالها ووفدت عليه هناك وفود من تونس تهنئة بفتحها وكان ابن خلدون يشهد ويرى كل ما يحصل بها من الأحداث.

وعندما عاد ابن أبي عمر إلى تلمسان أخذه معه فأكرمه السلطان أبو عنان وأحسن إليه رغم صغر سنه ثم عاد مع ابن أبي عمرو إلى بجاية وأقام بها فصل شتاء عام 754 هـ وعاد أبو عنان إلى فاس.

ابن خلدون يتولى الكتابة لأبي عنان في فاس:

عندما عاد السلطان أبو عنان إلى فاس جمع حوله عدداً لا بأس به من العلماء، والشيوخ الفضلاء، واختصمهم بمجالسته، ومشاورته، فجرى ذكر ابن خلدون لديه وتكرر ذلك من طرف أصحابه وأصدقائه الذين كانوا يعرفونه بتونس، ومدحوه له، فأرسل رسالة إلى الحاجب ابن تافراكين وطلب منه أن يشخصه إليه، وهو ما كان ينتظره ويرجوه ابن خلدون، فشد الرحال إلى فاس عام 755 هـ (1354 م) وضمه السلطان إلى مجلس علمائه وألزمه على حضور الصلوات الخمس إلى جانبه، واستعمله في كتابة رسائله والتوقيع بين يديه مع أنه لم يكن يحب ذلك لأنه حسب قوله لم يكن يعهد ذلك في أسلافه وأجواده.

استغل ابن خلدون إقامته بفاس فانكب على الدراسة وإعمال النظر في

العلوم والمعارف المختلفة ووطد صلاته بالعلماء والمشايخ من أهل المغرب، والأندلس المقيمين هناك والوافدين في أغراض السفارات والمراسلات واستفاد منهم ومن علمهم، ومنهم محمد بن الصفار المراكشي إمام القراءات ومحمد المغربي التلمساني قاضي الجماعة بفاس، وأبو عبدالله الشريف التلمساني والقاضي محمد بن يحيى البرجي الأندلسي، ومحمد بن عبد الرزاق.

أبو عنان ينكب بابن خلدون:

حظي ابن خلدون بمكانة بارزة لدى أبي عنان رغم صغر سنه، وحداثة اتصاله وذلك بفضل نبوغه العلمي ونجاحه في أعماله الكتابية معه، وتفوقه في علومه ومعارفه، فظهر منافسون كثيرون له حقدوا عليه حضوته تلك، وأخذوا يحيكون ضده السعايات والمؤامرات وأعدوا من ينقلها إلى أبي عنان، فأصم في البداية أذنيه، ثم لما مرض واعتل آخر عام 757 هـ (1356 م) تأثر بتلك الوشايات ومال إلى تصديقها، وكان ابن خلدون على صلة صداقة بالأمير محمد صاحب بجاية السابق من طرف الموحدين، تعود أسسها إلى العلاقات الوطيدة بين عائلة ابن خلدون والموحدين بالأندلس وتونس ولم يكن حذراً في هذه الصلة مع الأمير محمد لأنه لم يكن يتوقع أن يرتاب منه السلطان أبو عنان.

وقد نقل الساعون إليه بأن الأمير محمد يعتزم الفرار من فاس ليسترجع إمارته ببجاية، وأن ابن خلدون داخله في ذلك ويؤيده فأمر السلطان باعتقاله هو والأمير محمد، وبعد مدة أطلق سراح الأمير وأبقى ابن خلدون في السجن فتأثر وتألم من ذلك ونظم قصيدة في استعطافه قال فيها:

على أي حال لليالي أعاتب ... وأي صروف الدهر للزمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل ... تسالمني طوراً وطوراً أسالم

وقال أيضاً:

سلوتهم إلا ادكار معاهد ... لها في الليالي الغابرات غرائب
وأن نسيم الريح منهم يسوقني ... إليهم وتصبيني البروق اللواغب

وهي تقع في أكثر من مائتي بيت، وعندما وصلت إلى السلطان أعجبته وتأثر بها وكان يومئذ بتلمسان ووعد بإطلاق سراحه عندما يعود إلى فاس ولكنه عندما عاد إليها مرض ومات ليلة 24 ذي الحجة 759 هـ (1358 م) قبل أن ينفذ وعده، فإطلق سراحه الوزير الحسين بن عمر مع جماعة أخرى من المعتقلين وعزم على العودة إلى بلاده تونس، ولكن الوزير تمسك به وأثناه عن عزمه وأعاده إلى ما كان عليه قبل سجنه وأكرمه وبجله وبقي على تلك الحال حتى تعرض الوزير إلى مشاكل مع المرنيين.

ابن خلدون يتولى الكتابة للسلطان أبي سالم بفاس:

على أثر وفاة أبي عنان بايع المرنيون منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، ونصبوه ملكاً وحاصروا الوزير الحسين بن عمر وسلطانه الصغير السعيد بن أبي عنان الذي فرضه فرضاً على العرش في البلد الجديد الذي يعرف بفاس الجديد.

وخلال هذه الأحداث بفاس حضر من الأندلس السلطان أبو سالم شقيق أبي عنان ونزل بجبل الصفيحة من بلاد عمارة وبدأ يسعى لاستعادة ملكه في فاس، فكاتب سراً محمد ابن مرزوق الخطيب وخاطبه في الأمر وناشده العون والمساعدة، وطلب منه كذلك أن يكاتب ابن خلدون في الأمر فاتصل به وأبلغه رغبة أبي سالم وألح عليه في الاستجابة لطلبه لأنه له صلة متينة وقوية بأشياخ بني مرين، وما يزال كاتباً لمنصور بن سليمان الذي بويع حديثاً، فأجاب رغبة ابن مرزوق وأبي سالم الذي وعده بعدة أمور جزاء على عمله إن نجح، وتقدم إلى شيوخ بني مرين، وأمراء الدولة وحرضهم على نبذ طاعة الوزير وسلطانه أبي سعيد، ومبايعة السلطان أبي سالم، وبعث ابن مرزوق إلى الوزير الحسين بن عمر المحاصر في فاس الجديد يعرض عليه إعلان طاعته للسلطان أبي سالم، فقبل وأذعن بعد أن سئم وضجر من الحصار المفروض عليه وعلى أصحابه، واتفق بنو مرين على نبذ طاعة منصور بن سليمان والدخول إلى فاس الجديد.

وبعد أن تم تمهيد كل شيء اتجه ابن خلدون إلى جبل الصفيحة على رأس

عدد من وجوه الدولة، وأبلغ أبا سالم حالة البلاد والأوضاع بفاس وأخبره بفرار بني مرين وخلع منصور بن سليمان، وأحاطه علماً بالموعد الذي ضربوه للقائه، وحثه على التوجه بسرعة إلى فاس قبل أن تتغير الأمور ويحدث مالا يسر، فاتجه بصحبته ومن كان معهما إليها، واعترضهم في الطريق بشير أخبرهم بفرار منصور بن سليمان إلى باديس، ودخول بني مرين إلى فاس الجديد وإعلان الوزير الحسين بن عمر طاعته لأبي سالم، وعندما وصلوا إلى مدينة القصر الكبير لقيتهم قبائل السلطان وعساكره براياتهم والوزير مسعود بن رحو بن ماسي وزير منصور بن سليمان الذي فر إلى باديس، استقبله أبو سالم باللطف والاحترام واستوزره، وعندما وصل إلى فاس لقيه الوزير الحسين بن عمر في أحوازها وأعلن له طاعته وخضوعه.

فدخل السلطان أبو سالم إلى القصر بصحبة ابن خلدون في منتصف شعبان 760 هـ (1359 م) ورعى له جهوده في سبيل نجاحه وفوزه بالملك وعينه كاتباً لسره ولمراسلته مع الملوك والأمراء فأبدى براعته وتفوقه وبزمن سبقه في هذا الميدان وقال: «فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سره والترسل عنه والإنشاء لمخاطبته، وكان أكثر ما يصدر عنه بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها وخفاء المعاني منها على أكثر الناس، بخلاف غير المرسل فانفردت به يومئذ وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة».

وخلال عمل ابن خلدون لدى السلطان أبي سالم، اهتم بقول الشعر ونظمه، وانثال عليه منه بحور، حسب تعبيره خاصة في المناسبات الدينية والحوادث المهمة، كالمولد النبوي وعودة السلطان إلى عرشه، ووصول هدايا من ملك السودان وما إلى ذلك.

ابن خلدون يلتقي بلسان الدين ابن الخطيب:

وخلال هذه الفترة وفي شهر محرم من عام 761 هـ (1360 م) وفد على فاس سلطان غرناطة المخلوع الغني بالله، ووزيره لسان الدين بن الخطيب،

فارين ولاجئين بعد أن ثار عليهما الأمير إسماعيل واستولى على عرش غرناطة في رمضان 760 هـ (1359 م) فكانت فرصة لابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب أن يتعرفا على بعضهما البعض بصفة مباشرة، وكان كل منهما قبل ذلك يسمع عن صاحبه ويتوق إلى لقائه، وتجمع بينهما صفات وخصال عديدة مادية وفكرية وأدبية، فكل منهما أستاذ عصره في التفكير والكتابة وكل منهما شخصية بارزة في حوادث عصره يخوض غمارها ويتصل بها بأوثق الصلات، ويتقلب فيها بين الظفر والفوز، والمحنة والانكسار، وكلاهما كان وزيراً مستبداً ومستشاراً لأمراء وسلاطين عصره يعمل لصالحهم أو يحرض ضدهم.

فابن خلدون شغل في دول بلدن المغرب الإسلامي، نفس المركز والوظيفة التي كان يشغلها ابن الخطيب في الأندلس، واستأثر بزعامة التفكير والكتابة التي كان ابن الخطيب يستأثر بها في الأندلس وقد جمعت بينهما أوامر الحب والصداقة في البداية، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس، ومع ذلك كان كل منهما يحترم الآخر ويجله، ويكبر مواهبه وخلاله، ومواقفه، وترجم كل منهما للآخر وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال، وتبادلا عدداً لا بأس من الرسائل الشخصية والسياسية تعتبر من أبدع نماذج النثر والترسل في ذلك العصر، وأورد ابن خلدون طائفة منها في تعريفه بآخر الجزء السابع من كتاب العبر، كما أورد ابن الخطيب والمقري، طائفة منها، كذلك، خاصة المقري في نفح الطيب.

ابن مرزوق يتآمر ضد ابن خلدون:

بقي ابن خدون صاحب حظوة ومكانة لدى السلطان أبي سالم عدة سنوات، ثم انقلب عليه ابن مرزوق الخطيب، والجد، وحقد عليه، وأثار ضده قلب السلطان، غيرة وحسداً وحل هو محله في حظوته ومكانته، فلاحظ ابن خلدون ذلك، ورأى جفاء السلطان وابن مرزوق معاً. فقلل من تحمسه للعمل واكتفى بما يلزم منه فقط، وأخذ حذره من مغبة الأمور، وقصر الخطو إلا ما يجب عمله «من كتابة السر، وإنشاء مخاطبته ومراسيمه» ومن أداء خطة المظالم

التي أسندت إليه في أواخر أيام السلطان، وقد ذكر أنه وفاها حقها، ودفع للكثير حقوقهم راجياً من الله الثواب.

وقد واصل ابن مرزوق سعاياته وتحريضاته ضد ابن خلدون وأمثاله من رجال الدولة، بعد أن أكلت الغيرة قلبه، وبدل أن يصيب ذلك ابن خلدون، لحق السلطان نفسه عندما قام الوزير عمر بن عبدالله بانقلاب ضده وقتله، وأجلس على العرش سلطاناً صغيراً تحت وصايته، ووفق إرادته.

وقد أقر الوزير عمر بن عبدالله، ابن خلدون في خطته ووظيفته وزاد في جرايته، عكس ما كان يود ابن مرزوق الذي أودع السجن، لأنه كان صديقاً له منذ أيام السلطان أبي عنان وكان ثالث الأثافي لهما في هذه الصحبة والصداقة: أمير بجاية أبو عبدالله محمد، حيث كانوا يتبادلون النكت والفكاهات والمراسلات فترة من الزمن، وكان ذلك سبباً في غضب أبي عنان على ابن خلدون وإدخاله السجن كما أسلفنا سابقاً.

ابن خلدون يرحل إلى الأندلس:

عمل ابن خلدون فترة من الزمن مع الوزير عمر بن عبدالله ثم غضب عليه وانقطع عن الذهاب إلى دار السلطان، ولم يوضح سبب غضبه فرد عليه الوزير بالإعراض عنه كذلك، فطلب ابن خلدون الإذن بالرحلة والعودة إلى بلاده تونس، ومنعه من ذلك واعترض عليه مخافة أن يغتبط بذلك أبو حمو موسى الثاني الزياني ويضمه إلى مجلسه بتلمسان التي استعادها واستعاد معها عرش آبائه وأجداده.

ولكن ابن خلدون أصر على مغادرة فاس، وتوسط بصهر الوزير مسعود بن رحو بن ماسي، ودخل عليه يوم عيد الفطر لعام 763 هـ (1362 م) وأنشد بين يديه قصيدة رائعة في المدح والثناء، وفي إداء رغبته في الرحيل والعودة إلى بلاده ومسقط رأسه، بتونس، ومما قاله في قصيدته:

ووالله ما رمت الترحل عن قلى ... ولا سخطة للعيش فهو جزيل
ولا رغبة في هذه الدار أنها ... ظل على هذا الأنام ظليل

ولكن نأي بالشعب عنا حبائب شجاهن خطب والفراق طويل

فأعانه الوزير بن ماسي على تحقيق رغبته، وأذن له بالسفر إلى حيث يشاء ما عدا تلمسان، فقرر أن يرحل إلى الأندلس، ووجه زوجته وأولاده إلى أخوالهم أولاد القايد محمد بن الحكيم بقسنطينة في فاتح عام 764 هـ (1362 م) وكتب لهم رسالة إلى صاحبها السلطان أبي العباس يستوصيه بهم خيراً، ويخبره بأنه سيذهب إلى الأندلس، ثم يلتحق بهم، وبعد ذلك غادر فاس واتجه إلى مدينة سبتة، ونزل عند صاحبها أبي عباس أحمد بن الشريف الحسني، ذي الأصل الصقلي، فاستضافه وأكرمه، وجهز له مركباً أو حراقة كما قال، شارك هو بنفسه في دحرجتها إلى مياه البحر، فأقلته إلى جبل الفتح الذي كان تحت سيطرة ملك المغرب وهو جبل طارق الحالي.

ومن هناك اتجه إلى غرناطة، وراسل السلطان أبا الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب يخبرهما بقدومه، فأرسل أليه ابن الخطيب فتى من قبله لمرافقته قبل ليلة من وصوله، ومعه رسالة إليه استهلها بالأبيات الشعرية التالية:

حللت حلول الغيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المعصب والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة تنشي اغتباطي بالشبيبة والأهل
وودي لا يحتاج فيه لشاهد وتقريري المعلوم ضرب من الجهل

وفي صباح يوم 8 ربيع الأول 764 هـ (1362 م) وصل ابن خلدون إلى غرناطة وفرح السلطان بمقدمه، وهيأ له منزلاً في قصره مفروشاً ومجهزاً بكل ما يلزم من الأثاث والأدوات وبعث للقائه بظاهر المدينة كل رجال دولته وخاصته فقادوه إلى قصر السلطان الذي استقبله بحفاوة بالغة ورحب به وخلع عليه عطاياه.

وبعد السلام والترحيب والتحية صحبه لسان الدين بن الخطيب إلى منزل الذي خصصه السلطان له، وتوثقت الصلة بعد ذلك بينه وبين السلطان الذي ضمه إلى أهل مجلسه واختصه بالمناجاة في خلواته، والمصاحبة في مواكبه،

والمواكلة والمفاكهة في خلوات أنسه.

ابن خلدون يذهب رسولاً إلى حاكم إشبيلية النصراني:

وفي عام 765 هـ (1363 م) وجهه سلطان غرناطة رسولاً وسفيراً من قبله إلى ملك إشبيلية النصراني الفونسو (بطرة بن الهنشة بن أذفونش) من أجل التفاوض لعقد صلح بين الطرفين وحمَّله إليه هدية فاخرة من ثياب الحرير، والجياد، والمقربات بمواكب الذهب الثقيل، وعندما وصل إلى إشبيلية التقى بيدرو الطاغية، كما عبر عنه، فاحتفى به، وأثنى عليه لديه طبيبه اليهودي إبراهيم بن زرور الذي كان يعرفه سابقاً في مجلس أبي عنان المريني بفاس، وعرفه بأن أصله من هذه المدينة إشبيلية، فعرض عليه الإقامة بصفة دائمة عنده، ووعده بأن يعيد إليه كل أملاك آبائه وأجداده التي هي في أيدي بعض كبار دولته، فشاهدها ابن خلدون، وتحسر وتألم في داخلية نفسه، وشكر عرض الطاغية، ولكنه اعتذر له عن ذلك، فزوده بهدية مماثلة للسلطان، وخصه هو ببغلة فارهة ذات مركب ثقيل، ولجام ذهبيين، أهداهما هو إلى السلطان بعد عودته، أقطعه هو مقابل ذلك قرية (البيرة) بأراضيها الفسيحة والمسقية في مرج غرناطة، وكتب له بذلك منشوراً.

وفي ليلة المولد النبوي الشريف حضر ابن خلدون الاحتفال بها على عادة ملوك وسلاطين المغرب، وأنشد في حضرة السلطان قصيدة طويلة في مدحه، ووصف إيوانه، ورحلته هو من المغرب إلى الأندلس، كما أنشده في مناسبة إعذار ولده عام 765 هـ (1363 م) وفي مولد الرسول لنفس العام كذلك. وبعد أن طاب له المقام بغرناطة اشتد حنينه لأهله وزوجته، وأولاده، فأمر السلطان باستقدامهم وكلف من جاء بهم من قسنطينة إلى تلمسان، وأمر قائد أسطوله بألميرية بأن ينقلهما من عدوة المغرب إلى هناك فتفقد الأمر وأحضرهم إلى ألميرية، وطلب ابن خلدون من السلطان أن يأذن لهم بالذهاب لملاقاتهم هناك فاتجه إليهم وصحبهم إلى حيث هيأ لهم المنزل، والبستان، ودمنة الفلح، وسائر ضروريات المعاش، وعندما اقترب بهم من قرطبة كتب رسالة إلى ابن الخطيب يستأذنه في القدوم عليه.

ابن خلدون يتولى منصب الحجابة ببجاية:

وخلال إقامة ابن خلدون بغرناطة كثر خصومه والحاقدون عليه بسبب حظوته، فأخذوا يسعون ويشون ضده لدى الوزير لسان الدين بـن الخطيب، وزينو له بأنه يسعى لإثارة حقد السلطان ضده، فتحركت في نفسه الغيرة وتنكر له بعد أن رحب به في البداية، وانقبض عليه، وهو صاحب الأمر والنهي في غرناطة.

فتخوف ابن خلدون من سوء العاقبة، وكان حريصاً على ألا تفسد علاقاته به، وألا تتكرر مأساة فاس مع ابن عنان فاغتنم اتصاله برسالة من صاحب بجاية الأمير أبي عبدالله محمد، يخبره فيها بأنه استعاد عرشه في رمضان عام 765 هـ (1364 م) وطلب منه الحضور إليه فاستأذن من السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه واللحاق به، ولم يشعره بجفاء ابن الخطيب له، فتردد في الموافقة ثم أذن له على مضض، وودعه بعد أن كتب له مرسوماً لتشييعه من إملاء لسان الدين بن الخطيب حث فيه المسؤولين براً وبحراً على أن يذللوا له كل الصعاب، ويوفروا كل الوسائل حتى يصل إلى مقصده، وتاريخه يوم 19 جمادى الأولى 766 هـ (1365 م) وكان أخوه يحيى بن خلدون في هذه الفترة يعمل حافظاً للرسوم لدى صاحب بجاية بأمر وإشارة من السلطان أبي سالم قبل وفاته، كما أن عبد الرحمن ابن خلدون ساعد الأمير أبا عبدالله على استعادة إمارته ببجاية وتعهد له بأن يسند له وظيفة الحجابة، التي شرحها بقوله: «ومعناها في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته لا يشاركه في ذلك أحد» وذلك بعد أن أقنع السلطان أبا سالم بأن يطلق سراحه ويأذن له في العودة إلى بجاية لاستعادتها.

ركب ابن خلدون السفينة من ميناء ألميرية في منتصف عام 766 هـ (1365 م) ووصل إلى بجاية بعد خمسة أيام، وتلقاه وجهاء الدولة بغاية الترحاب، واصطف الجميع للقائه ورؤيته، وتقبيل يده ومسح أعطافه وكان يوماً مشهوداً، واستقبله السلطان بكل ما ينبغي من الاحترام والتبجيل وخلع عليه

العطايا وأسند إليه وظيفته في اليوم الموالي لوصوله، فاستقل بتدبير سياسة الدولة وبذل جهوده في تدعيمها وعينه السلطان إلى جانب ذلك خطيباً في جامع القصبة طوال مدة إقامته ببجاية.

وقد حضر ابن خلدون الحروب التي حصلت بين أمير بجاية أبي عبدالله محمد وابن عمه أمير قسنطينة أبي العباس، وكان من ضمن أسبابها مشاكل الحدود التي أثارها الذواودة، وتولى ابن خلدون بنفسه مهمة إقناع القبائل بدفع أموال الجبايـة له حتى يصلح أموره بعد أن انهزم أمام ابن عمه صاحب قسنطينة.

وبعد انتهاء هذه الحروب الدامية أرسل أمير تلمسان إلى الأمير أبي عبدالله ببجاية يطلب منه يد ابنته فزوجها له ليستعين به ضد ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة ولكن أبا العباس هذا سبق الحوادث وشن حملة عسكرية خاطفة على بجاية عام 767 هـ (1365 م) واحتلها بدعم وتأييد عرب صدويكش، ورياح وابن صخر، وقتل الأمير أبا عبدالله، وتخلص منه، وكان ابن خلدون خلال الهجوم على بجاية يوجد في قصبة المدينة حيث قصر السلطان فطلب منه أهل البلد أن يقوم بالأمر ويبايع بعض أبناء الأمير القتيل، فتفادى ذلك وفضل أن يخرج إلى الأمير أبي العباس ويمكنه من المدينة، وهو ما فعله فأكرمه على تصرفه هذا وأبقاه في منصبه لتسيير الأمور كعادته.

ابن خلدون يرحل إلى بسكرة:

غير أنه سرعان ما كثرت الوشايات والسعايات ضده وحذر الحاقدون عليه، الأمير أبا العباس، وخوفوه منه، فشعر ابن خلدون بالمخاوف وطلب منه الإذن بالرحيل بواسطة عهد منه سابقاً، فأذن له بعد أن تمنع وغادر بجاية في الحال ونزل لدى يعقوب بن علي، ثم أن السلطان سرعان ما غير رأيه فيه وأسرع لاعتقال أخيه يحيى وسجنه بمدينة نابة وقام رجاله باقتحام منزل ابن خلدون وأخذوا يبحثون عن الذخائر والأموال التي قيل له بأنه يخبئها عنده، فلم يعثروا على أي شيء، وخاب ظنهم وظن الأمير معهم واكتشفوا كذب الواشين.

أما ابن خلدون فقد غادر منزل يعقوب بن علي، واتجه إلى بسكرة،

وقصد شيخها أحمد بن يوسف بن مزني الذي كان صديقاً له، ولأبيه فأكرم وفادته وسلاه وقدم له كل ما يلزم من المواساة، والتبجيل والاحترام.

ابن خلدون يشايع أبا حمـو الزياني بتلمسان:

كان أبو حمو موسى الثاني قد صاهر الأمير أبا عبدالله محمد وأمير بجاية، وتزوج ابنته يوم أن كان ابن خلدون هناك ببجاية، وعندما قتل أبوها أبو عبدالله في جبل أيزم بضواحي بجاية على أيدي ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة كما سبقت الإشارة، امتعض أبو حمو من ذلك خاصة بعد أن التف السكان حول السلطان الجديد وآزروه، وكانوا قبل ذلك داخلوا أبا حمو ليساعدهم على رد بطش صهره عليهم، كما داخلوا أيضاً أبا العباس صاحب قسنطينة الذي ساعده الحظ على الظفر بإمارة بجاية.

غضب أبو حمو مما حصل لصهره، وعزم على غزو بجاية وافتكاكها من أبي العباس لأنها إمارة صهره، ولكونه كان يرى نفسه أجدر بها عدة، وعدداً، وماضياً، فأعد جيوشه وسار إليها وعسكر بالرشة لدى بني عبد الجبار قرب بجاية وكان معه جموع من زغبة، وبني عامر، وبني يعقوب، وسويد، والديالم، والعطاف، وحصين.

ودافع سكان بجاية دفاعاً مستميتاً، وبعث أبو العباس في طلب أبي زيان عم أبي حمو الذي كان معتقلاً بقسنطينة ليدفعه ضد عمه الذي كان خصماً له ويسعى للإطاحة به والاستحواذ على عرش تلمسان، كما طلب من قائد جيوشه بشير، أن يخرج إلى بني عبد الجبار ليحارب أبا حمو في معسكره بالرشة وينقض عليه.

وكانت نتيجة هذه التحركات إلحاق الهزيمة بأبي حمو وفراره إلى تلمسان وكان قد علم سابقاً بمغادرة ابن خلدون لبجاية، وقيام الأمير أبي العباس بسجن أخيه يحيى بن خلدون بعنابة، واقتحام منزلهما ببجاية وتفتيشه من الأسلحة والذخائر بسبب وشايات من بعض الموتورين.

ولذلك كتب أبو حمو رسالة إلى ابن خلدون طلب منه الحضور إليه

بتلمسان قبل أن يخرج إلى بجاية وكان في نيته طبعاً أن يستغله ويستغل نفوذه، وغضبه في نفس الوقت مما حصل له ولأخيه وأسرته، ولكن ابن خلدون تروي في الأمر وكان يرى أن الأمور غير مستقرة وأحس بما حدث فيما بعد فاعتذر لأبي حمو وبقي لدى أحياء يعقوب بن مزني ببسكرة.

ولكن أبا حمو لم يتوقف عن المحاولة فسعى لاستمالة قبائل رياح وكتب إلى ابن خلدون مجدداً يطلب منه استعمال تأثيره على تلك القبائل والأعراش وإقناعها بالعمل معه، ودعاه في نفس الوقت ليتولى منصب الحجابة والعلامة لديه كإغراء لإقناعه بالقبول، لأنه كان يعول عليه في تحقيق ما يريد خاصة استمالة القبائل والأعراش المشار إليها آنفاً، وتاريخ رسالة أبي حمو إليه هو 17 رجب 769 هـ (1368 م).

وقد اتصل ابن خلدون بهذه الرسالة ورسائل أخرى عن طريق رسول بعثه أبو حمو إلى أشياخ الذواودة، فأجاب رغبته فيما يخص استمالة القبائل فحثها على نبذ طاعة أبي العباس ومشايعة أبي حمو صاحب تلمسان، وأجابت وامتثلت لما طلبه منها.

أما ما يخص وظيفة الحجابة فإن ابن خلدون اغتنم فرصة فرار أخيه يحيى من سجن عنابة والتحاقه به في بسكرة، فأرسله عوضاً عنه إلى تلمسان ليتولى تلك الوظيفة، وتفادى هو الذهاب بنفسه لأنه لم يكن مطمئناً للأوضاع السياسية السائدة بها، ثم أنه كان يعزف حسب قوله: «على الخوض في أحوال الملك، وشؤون السياسة، وغواية الرتب» ويميل إلى العودة إلى حقول العلم والمعرفة للتدريس، والتأليف، والكتابة.

وعندما وصل يحيى بن خلدون إلى تلمسان باشر وظيفته وقام بها خير قيام، وتكلف بإرسال رسائل أخيه عبد الرحمن إليه، التي كانت تصله من أصدقائه وزملائه بواسطة رسل سلطان غرناطة إلى تلمسان، ومنها رسالتان من لسان الدين بن الخطيب السلماني إحداهما بتاريخ 2 جمادى الأولى 768 هـ (1368 م) حدثه فيها عن أوضاع الأندلس السياسية ونشاط الغزاة المجاهدين

وشيخهم عبد الرحمن بن علي بن السلطان أبي علي، وذكر له بأنه أرسل عدة كتب من تأليفه إلى مصر لتحبس هناك منها الإحاطة في أخبار غرناطة.

والثانية بتاريخ 14 ربيع الأول 770 هـ (1368 م) يتشوق فيها للقائه والاجتماع به، وكأنه لم يكن السبب في إخراجه من غرناطة قبل ذلك وهذا هو النفاق السياسي بعينه. وقد أجابه ابن خلدون برسالة مؤثرة أحاطه فيها علماً بالأوضاع السياسية المتردية بتونس، والمغربين الأوسط والأقصى، وكذلك أوضاع المشرق الإسلامي المتدهورة كذلك استناداً إلى أخبار الحجاج العائدين من هناك.

وعندما اتصل لسان الدين بن الخطيب بهذه الرسالة رد عليه برسالة أخرى بتاريخ ربيع الثاني 771 هـ (1369 م) ويبدو أنه يريد أن يكفر عما صدر منه في حق ابن خلدون ويسعى لتوثيق الصلة معه من جديد، ولكن الظروف سوف لن تساعد على ذلك كما سنرى فيما بعد. وقد لاحظ ابن خلدون بأنه أطال في استعراض هذه الرسائل، وأنها لربما ستكون خارجة عن أغراض الكتاب، ولكنه ذكر بأنها تحوي أخباراً كثيرة عنه تفيد من يعود إليها في الكتابة.

ابن خلدون يتوسط لدى سلطان تونس لأبي حمو:

مثلما كاتب أبو حمو، ابن خلدون، كاتب أيضاً سلطان تونس الحفصي أبا إسحاق ابن أبي بكر، طالباً منه العون، والتأييد ضد أمير بجاية وقسنطينة الذي هو خصم لهما معاً، وكان رسله ورسائله إليه تمر عن طريق ابن خلدون ببسكرة الذي بذل كل ما بإمكانه وجهوده لكسب الأنصار والمؤيدين له سواء لدى الأعراب بالجزائر أو لدى سلطان تونس.

وخلال هذه الفترة قام أبو زيان ابن عم أبي حمو بغارة، على تلمسان وأحوازها بدعم وتحريض من أبي العباس صاحب بجاية وقسنطينة فلم يظفر بشيء وعاد إلى مركزه بحصين وأقام بينهم فالتفوا حوله، وكثرت الغارات المتبادلة بين الطرفين، واضطربت الأمور في عموم المغرب الأوسط (الجزائر)، وفكر أبو حمو في خطة لأحكام الحصار على ابن عمه والقضاء عليه ونجح في

استعمال ابن خلدون وجره بعد ذلك إلى تلمسان نفسها.

ابن خلدون يلتحق بتلمسان:

كانت خطة أبي حمو أن يزحف هو من الغرب إلى جبال التيطري حيث يعتصم أبو زيان، ويزحف أنصاره من الشرق بزعامة ابن خلدون ليطبقوا عليه ويضعوا حداً لحركته التي أقلقت البلاد، فزحف هو إلى جبال التيطري في منتصف عام 769 هـ (1368 م)، وكتب إلى ابن خلدون ببسكرة طلب منه أن يستنفر له الذواودة، واتجه على رأسهم إلى الناحية الغربية ليحولوا دون هروب أبي زيان إلى الصحراء، وكتب كذلك إلى أشياخ الذواودة يعقوب بن علي كبير أولاد حمو، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى، وكتب إلى ابن مزني ببسكرة طالباً منه إمدادهم بما يحتاجون إليه من عون وزاد، ففعل وسار بهم ابن خلدون أو خرج معهم في اتجاه الغرب وعندما وصلوا إلى قطيفة بتل التيطري وجدوا أبا حمو قد أحاط بابن عمه من ناحية التل، وكان في نيته عندما ينتهي من مشكل ابن عمه أن يزحف على بجاية، وكأنه كان متأكداً من انتصاره عليه، وأن الظروف صورت له ذلك.

ولكن صاحبها أبا العباس علم مسبقاً بالخطة فجمع هو الآخر جموعاً من قبائل رياح واتجه بها نحوه، وعسكر في ثنية القطيفة التي تؤدي إلى مدينة المسيلة، وقام المعارضون من قبائل زغبة بزعامة خالد بن عامر كبير بني عامر، وأولاد عريف كبراء سويد، بالهجوم على حشد ابن خلدون بصفة فجائية وشتتوا رجاله، ففر الذواودة، وانسحب ابن خلدون ومن معه من الأتباع إلى المسيلة ثم إلى الزاب، والتحق عرب زغبة بالتيطري وانضموا إلى أبي زيان وحصين، وهاجموا معسكر أبي حمو، وهزموه ففر ناجياً بنفسه إلى تلمسان وفشلت خطته، ولكنه، لم يتخل عن محاولاته واستعداداته، للظفر بابن عمه، وصاحب بجاية وقسنطينة، فقد راسل الذواودة مرة أخرى، وراسل سلطان تونس الحفصي أبا إسحاق، وابنه خالد من بعده ووافقته أعراب زغبة على الدخول في طاعته، فخرج من تلمسان إلى حصين ومنها إلى بجاية آخر عام 770 هـ (1369 م) ووفد عليه ابن خلدون على رأس جمع من الذواودة أولاد عثمان بن يوسف بن

سليمان والتقى به في البطحاء وحدثه عن الأوضاع العامة بالمنطقة التي قدم منها بالزاب وبسكرة، والمناطق التي مر بها، واتفقوا على اللقاء بمدينة الجزائر في تاريخ معين لتنفيذ خطة الهجوم، فانصرف الأعراب إلى أوطانهم وتخلف ابن خلدون هناك ليقضي بعض الأغراض الخاصة التي لم يفصح عنها، وصادف حلول عيد الفطر فصلى العيد بالسلطان أبي حمو في البطحاء، وخطب، وأنشد في مدحه قصيدة شعرية طويلة بعد الانصراف من المصلى بدأها بقوله:

هـذه الـديـار فحييهـم صبـاحـا وقـف المطـايـا بينهـن طـلاحـا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها عبـرات عينـك وأكـف ممتـاحـا

وبينما ابن خلدون وأبو حمو في هذه الحال، وصل الخبر بأن السلطان المريني عبد العزيز قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش واعتقل صاحبه، وأخذه معه إلى فاس وقتله وهو يستعد ليشن هجوماً على تلمسان للانتقام من أبي حمو الذي سبق أن قدم مساعدة لعامر بن محمد الهنتاتي هذا.

فقرر أبو حمو في الحال العدول عن مشروع مهاجمة ابن عمه أبي زيان، وعاد بسرعة إلى تلمسان، وأخذ يستعد للخروج إلى الصحراء بصحبة أشياعه من بني عامر الزغبيين، ليواجه هناك سلطان بني مرين ويحول دون وصوله إلى تلمسان.

ابن خلدون يتحول إلى صاحب المغرب الأقصى:

وبينما أبو حمو يستعد للخروج إلى الصحراء، طلب منه ابن خلدون أن يأذن له في الانصراف إلى الأندلس بعد أن تعذر عليه العودة إلى بلاد رياح، وأظلم الجو بكثرة الفتن والحروب، والاضطرابات وانقطعت السبل والمسالك، فأذن له وسلم إليه رسالة إلى سلطان بني الأحمر، فاتجه إلى مرفأ هنين ليأخذ من هناك سفينة، فتعذر عليه الأمر وبقي ينتظر، وعلم هناك بأن أبا حمو غادر تلمسان إلى البطحاء فاراً بنفسه وأن السلطان عبد العزيز المريني قد وصل إلى تازة في طريقه إلى تلمسان.

وبينما هو ينتظر في هنين توفر باخرة تقله إلى الأندلس سمع به السلطان

عبد العزيز المريني، وقيل له بأنه يحمل وديعة إلى سلطان غرناطة وذلك من طرف بعض الوشاة، فأرسل في الحين سرية من تازة إلى هنين لتعترض طريقه وتأخذ منه الوديعة، وعندما وصلت أبلغته مهمتها ولم تجد عنده أية وديعة، ولكنها أخذته معها إلى تلمسان، ووجد السلطان في أحوازها فاتصل به وسأله عن أمر الوديعة، فأبلغه عدم صحة ذلك، وعنفه وعزره على مغادرته لفاس وديار المغرب الأقصى، فاعتذر له بما قام به وزيرهم عمر بن عبدالله عندما كان مستبداً بالأوضاع السياسية، وشهد له لديه عدد من الفضلاء والكبراء على رأسهم كبير مجلسه وونزمار بن عريف، ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، فنجا من سوء العاقبة، واستفسره السلطان عن أوضاع بجاية وصاحبها، وكاشفه بأنه يريد أن يغزوها ويستولي عليها فشرح له ابن خلدون أوضاعها، وهون عليه غزوها وفتحها فسر بذلك، ولربما سلك ابن خلدون هذا الموقف حتى يحصل على حضوة لديه، وعلى نجاته مما قد يتعرض له من عقاب.

بقي ابن خلدون ليلته الأولى بالمعتقل، وفي اليوم التالي أفرج عنه وقصد رباط العباد، ونزل بجوار ضريح أبي مدين وعزم على التفرغ للتعليم والتدريس أن تركت له الحرية، غير أن سلطان المغرب الأقصى كانت له مشاريع وأهداف أخرى معه، فبعد أن احتل تلمسان، كلف وزيره أبا بكر بن غازي بملاحقة أبي حمو ومتابعته، وطلب من ابن خلدون أن يذهب إلى بلاد رياح ليستميلهم إليه تمهيداً لخروجه هو أو اللحاق به.

فقد استدعاه من خلوته بالعباد، وتذاكر معه وأكرمه وخلع عليه ثم عرض عليه المهمة فقبل، وكتب له رسائل إلى شيوخ الذواودة ليطيعوه ويمتثلوا أوامره وكتب إلى ابن مزني، ويعقوب بن علي ببسكرة والزاب ليساعدوه في مهمته كذلك وطلب منهم أن يعملوا على إخراج أبي حمو من أحياء بني عامر، ويدفعوا به إلى حي يعقوب بن علي.

غادر ابن خلدون تلمسان، واتجه إلى البطحاء في عاشوراء من عام 772 هـ (1370 م) ووجد هنا الوزير ابن غازي وعرب المعقل وزغبة، وسلم

إلى ابن غازي رسالة السلطان وتقدم أمامه وفي طليعته، وشيعه وونزماز، وطلب منه أن يسعى لتحرير أخيه محمد المعتقل لدى أبي حمو، ويبذل كل جهده حتى لا يصاب بسوء، وأرسل معه ابن أخيه عيسى وجماعة من عرب سويد ليساعدوه في مهمته.

اتجه ابن خلدون إلى أحياء حصين، وأبلغهم فرج بن عيسى وصية عمه وونزمار، فتخلوا عن أبي زيان ولكنهم بعثوا معه أدلاء أوصلوه إلى بلاد رياح ونزل لدى أولاد يحيى بن علي بن سباع وتوغلوا به إلى بلاد الصحراء حتى ينجوا من قبضة خصومه. أما ابن خلدون فقد واصل طريقه إلى بلاد رياح، وعندما وصل إلى مدينة المسيلة وجد أبا حمو ورياح معسكرين بالقرب منها في وطن أولاد سباع بن يحيى من الذواودة، فاتصل به كبراؤهم وزعماؤهم، وحثهم على طاعة السلطان المريني عبد العزيز، فأجابوه، ووجهوا وفداً منهم إلى الوزير ابن غازي في الديالم عند نهر واصل، أعلنوا له طاعتهم، ودعوه للاتجاه إلى بلادهم لملاحقة عدوه أبي حمو، فسار معهم.

أما ابن خلدون فقد انتقل من المسيلة إلى بسكرة، واجتمع هناك بيعقوب بن علي، وابن مزني، وأقنعهما بطاعة السلطان المريني عبد العزيز، فبعث يعقوب ابنه محمد إلى أبي حمو، وأمر بني عامر أن يخرجوه من بلادهم التي أصبحت تحت سيادة السلطان فوجدوه قد أخذ طريقه من المسيلة إلى الصحراء، والتقوا به عند قرية الدوسن وطلبوا منه أن يغادر وطن أولاد سباع إلى الزاب.

وبينما هم في الحديث والمفاوضة معه إذا بقوات ابن غازي تهاجمه بصفة فجائية، وتسلب منه كل ما معه من الأسلاب والأمتعة، والزاد، ففر بنفسه ومن نجا معه إلى بلاد ميزاب، ولحقه فيما بعد أهله وأولاده الذين اختفوا وتستروا لدى بعض أصدقائهم، ونجا في المعركة محمد شقيق وونرمار.

استراح ابن غازي عدة أيام في الدوسن، ثم قفل راجعاً بجيشه إلى المغرب الأقصى، واتجه ابن خلدون إلى بسكرة لزيارة أسرته وعائلته ثم لحق

هو الآخر بتلمسان وفرح السلطان به واستقبله استقبالاً حافلاً هو وكل من شارك في تلك الحملة الناجحة.

وبعد ذلك كلفه السلطان بالذهاب إلى الذواودة لإقناعهم بطرد غريمه أبي زيان من عندهم، فاتجه إلى هناك ونجح في مهمته، ثم واصل رحلته إلى بسكرة وصادف آنذاك أن ثار بالشلف داعية من مغراوة يدعى حمزة بن علي بن راشد، وعجزت عساكر السلطان عن القضاء عليه، وتعذر على ابن خلدون أن يعود إلى فاس فاكتفى بإرسال الرسائل فقط إلى السلطان ليحيطه علماً بالأحداث..

وبينما هو ببسكرة علم بفرار لسان الدين بن الخطيب من غرناطة إلى المغرب الأقصى وأرسل إليه هناك رسالة يعلمه بذلك ومعها نص الرسالة التي حررها لسلطان بني الأحمر عندما غادر الأندلس إلى المغرب، وقد أورد ابن خلدون هذه الرسالة بحذافيرها في كتابه لأهميتها مع طولها، فأجابه ابن خلدون برسالة مثلها تاريخها يوم عيد الفطر لعام 772 هـ (1371 م).

استمر مقام ابن خلدون مدة ببسكرة بسبب كثرة الاضطرابات في ربوع المغرب الأوسط، واستفحال ثورة حمزة بن راشد ببلاد مغراوة، وعجز الوزير عمر بن مسعود على القضاء عليه في حصن تاجموت، وظهور أبي زيان الزياني من جديد في بلاد حصين.

وعندما عزم السلطان عبد العزيز على مهاجمة أبي زيان ببلاد حصين في جبال التيطري، كتب إلى الذواودة ليجندوا له رجالهم، وكذلك إلى أحمد بن مزني صاحب بسكرة وطلب من ابن خلدون أن يسير على رأسهم إلى هناك، فقادهم إلى قطيفة في أول عام 774 هـ (1372 م)، وفرضوا الحصار على أبي زيان ورجاله حتى فروا إلى الصحراء وخضع الجميع إلى السلطان المريني ووجهوا إليه وفوداً لتبايعه بتلمسان، فاستقبلهم وتقبل منهم طاعتهم وسرحهم إلى أوطانهم.

أما ابن خلدون وابن غازي فقد لاحقوا أبا زيان إلى جبل غمرة ولم يعثروا عليه وعلموا أنه رحل إلى مدينة ورقلة، فعاد ابن خلدون إلى بسكرة وكاتب

السلطان عبد العزيز بما وقع له من الأحداث والأمور خلال تلك الفترة، وبقي ينتظر حتى جاءه استدعاء من طرفه إلى مدينة فاس.

ابن خلدون بفاس مرة أخرى:

بقي ابن خلدون ببسكرة مدة من الزمن بجوار صاحبها والآمر الناهي بها وبمنطقة الزاب كلها، أحمد بن يوسف بن مزني زعيم عرب رياح، وحدث أن قام بعض الوشاة الحاقدين بإيغار صدره ضده وحدثوه بما أحفظ عليه قلبه فكتب رسالة إلى وونزمار بن عريف ولي السلطان عبد العزيز وصاحب شوراه في الأمر وشكى له ما تقوله الناس ضد ابن خلدون، وأبلغوه إليه، فحدث هو السلطان بذلك، وأمر باستدعائه إلى فاس.

غادر ابن خلدون بسكرة ومعه أسرته صباح يوم المولد النبوي الشريف لعام 774 هـ (1363 م) وأخذ طريقه إلى فاس، وعندما وصل إلى مدينة مليانة علم بخبر وفاة السلطان عبد العزيز، ومبايعة ابنه السعيد في مكانه بكفالة الوزير أبي بكر بن غازي الذي كان في مغراوة يحارب الثائر الدعي حمزة وارتحل إلى فاس فوراً عندما علم بالخبر وفرض سيطرته على الأوضاع السياسية بها كما مر.

وقد وجد ابن خلدون بمليانة علي بن حسون بن أبي علي الهطاسي حاكماً عيها من قبل بني مرين، فسار معه إلى العطاف، ونزلوا على أولاد يعقوب بن موسى أحد أمراء الجهة، ومن هناك سار ابن خلدون إلى أولاد عريف أمراء سويد بصحبة بعض الأدلاء العطافيين، ولحقه إلى المغرب الأقصى عبر الهضاب والصحراء، حتى لا يتعرض لهم أبو حمو موسى الثاني الذي عاد من تيكورارين واستعاد تلمسان من المرنيين وشرع في تطهير المنطقة من أنصارهم وأتباعهم.

وقد تفطن أبو حمو لرحلة ابن خلدون وابن حسون وأوعز إلى بني يغمر، وشيوخ عبيدالله في المعقل، أن يعترضوا طريقهما فهاجموهما في مكان يدعى رأس العين عند مخرج وادصا، وشتتوا لهما جموعهما، وقتلوا البعض، وأسروا آخرين، وفرا القادرون على خيولهم إلى جبل دبدوا، وتشرد ابن خلدون بأسرته وأولاده في تلك القفار وتعرض لحوادث، ومشاكل كثيرة لم يفصلها، ولكنه

تمكن في الأخير من اللحاق برفاق الرحلة الناجين في جبل دبدوا، ومن هناك التحقوا بمدينة فاس في جمادي من نفس السنة، واتصل بالوزير أبي بكر بن غازي، وابن عمه محمد بن عثمان الذي له معرفة سابقة به منذ أحداث السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة، فأكرمه ووفر له الجراية الكافية، ولأولاده المزيد من الاحترام والتبجيل.

أقام ابن خلدون بفاس معززاً مكرماً، عظيم القدر والجاه، لدى السلطان، ووزيره ابن غازي، ورجال مجلسه الخاص، وأكابر دولته، وعكف على التدريس والتعليم، وعول على الابتعاد، عن الأحداث والمشاكل السياسية التي كانت تجري آنذاك بين سلاطين بني مرين وسلطان بني الأحمر بغرناطة حول قضية الوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني، وحتى ينجو من تبعاتها ولكن لعنة الحوادث، وحسد الحساد، كانت تتابعه وتطارده فلقد كان الأمير عبد الرحمن على علاقة طيبة ووثيقة معه، ويميل إليه ويؤثره على غيره في الاستشارة والجلوس والمسامرة، فاستغل ذلك الوزير محمد بن عثمان، وملأ صدر السلطان عليه بالحقد والوشاية والسعاية فاعتقله وعزم على إلحاق الشرّ به فأنذره في الحين الأمير عبد الرحمن وتوعده، فأطلق سراحه بعد يوم واحد من سجنه وتطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة، وتمكن الأمير أبو العباس من الاستيلاء على عرش فاس، فغادرها الأمير عبد الرحمن وابن خلدون إلى مراكش.

وقد استوحشت الأمور على ابن خلدون، وأظلم الجو السياسي أمامه فعزم على الرحيل إلى الأندلس عبر ميناء أسفي، ولكن الوزير مسعود بن ماسي الذي كان في صحبته، أثناه عن عزمته، والتحقا معاً بونزمار بن عريف في نواحي قرسيف رسول السلطان، فأخذه معه إلى فاس واستأذن له منه في ذلك فوافق بعد تمنع ومطاولة، وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان بن داود بن أعراب، ورجال الدولة الآخرين الذين كانوا، على ما يبدو، يودون اعتقاله وسجنه.

وكان يحيى ابن خلدون شقيق عبد الرحمن في هذه الفترة، قد فر من

تلمسان، بعد عودة أبي حمو إليها، والتحق بالسلطان عبد العزيز في فاس، ودخل في خدمته وخدمة ابنه السعيد من بعده، ولما استولى أبو العباس على عرش فاس، استأذن منه يحيى في الانصراف، والالتحاق بتلمسان، فأذن له واتجه إليها والتحق بأبي حمو، فأعاده إلى منصبه كاتباً لسره كما كان قبل ذلك، وطلب منه أن يؤلف له كتاباً عن بني زيان فشرع في تأليف كتابه الذي سماه: «بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد».

ابن خلدون يرحل إلى الأندلس للمرة الثالثة:

قصد ابن خلدون إلى الأندلس في ربيع عام 776 هـ (1365 م) بنية الاستقرار، والتفرغ للتعليم والتدريس بعيداً عن الاضطرابات والتقلبات السياسية، . واستقبله سلطان غرناطة بالتجلة والاحترام، وكان قبل وصوله إليها قد التقى في جبل الفتح، بكتاب الفقيه أبي عبدالله بن زمرك الذي كان في طريقه إلى فاس لتهنئة السلطان المريني الجديد، وأوصاه بأن يصحب له معها على أسطوله، أسرته وعائلته إلى غرناطة عند عودته.

وعندما وصل ابن زمرك إلى فاس وتحادث مع أسرته استنكرت ذلك ولم تكن مرتاحة لاستقراره بالأندلس، واتهمته فاس بأنه يسعى لحمل سلطان بني الأحمر على تأييد الأمير عبد الرحمن ضد السلطان أبي العباس ومنعت أهله من الذهاب إلى الأندلس، وخاطبت ابن الأحمر في أن يعيده إلى المغرب فرفض وطلبت منه أن يحثه على العودة إلى تلمسان.

ابن خلدون يعود إلى تلمسان:

وعندما أذنت فاس لمسعود بن ماسي بالالتحاق بالأندلس، حملته وصية شفوية إلى ابن الأحمر مفادها أن ابن خلدون كان يسعى لإنقاذ حياة لسان الدين ابن الخطيب الذي كان معتقلاً بفاس الجديد. وفعلاً كان ابن خلدون قد توصل برسالة من ابن الخطيب في سجنه يرجوه فيها أن يسعى لإنقاذه فقبل وعول على بذل مجهود لدى ابن ماسي وونزمار بن عريف، ولكن المسعى لم ينجح، وقتل ابن الخطيب في سجنه شر قتله وبسرعة فائقة لم تسمح للوساطة أن تنجح

وعندما وصل ابن ماسي إلى غرناطة حدث السلطان بهذه القصة وأطلعه عليها فأظهر امتعاضه، بل واستنكاره على ما يبدو، وسقط في يده فوافق على سفره إلى تلمسان، فسافر إلى هنين، وهناك أوعز أبو حمو موسى الثاني بإيقافه لأنه كان على علم بمواقفه ضده بالزاب، وبقي هناك حتى قدم محمد بن عريف إلى تلمسان، وسمع بأمره فعاتب أبا حمو على موقفه، وعذله، وطلب منه أن يطلق سراحه فاستدعاه إلى تلمسان، واتجه إليها وقصد إلى العباد واستقر به، واستقدم أسرته من فاس ووصلت إليه صباح يوم عبد الفطر لعام 776 هـ (1375 م) فتفرغ للتعليم والتدريس مدة من الزمن، ولا شك أنه كان يشعر بكثير من المرارة أمام هذه الخيبات السياسية التي توالت عليه طوال هذه السنين، والتي وقفت في طريق طموحاته والتي ما انفكت تتجدد أينما حل وارتحل.

ابن خلدون يرحل إلى قلعة بني سلامة:

كان ابن خلدون عازماً على التفرغ للتعليم والتدريس بعيداً عن المشاكل السياسية ولكن أبا حمو موسى عندما وافق على استدعائه من هنين كان يفكر في استخدامه لأغراضه ومشاريعه العسكرية والسياسية المختلفة فقد رأى أن يسعى لاستمالة الذواودة إليه ويعرف أن لابن خلدون تأثيراً عليهم كما سبقت الإشارة في الحوادث الماضية، فاستدعاه إليه من خلوته بالعباد وكلفه بالقيام بسفارة إليهم بعد أن شرح له هدفه فتردد في قبول المهمة لأنه كان عازماً على التخلي عن الخوض في المشاكل السياسية، والتفرغ فقط للعبادة والتدريس والتأليف، ولكنه أدرك أن الرفض سيجر عليه مشاكل هو في غنى عنها، فتظاهر بالقبول واستعد للسفر، وغادر تلمسان إلى البطحاء، وفي نيته شيء آخر، فقد عرج ذات اليمين إلى منداس، والتحق بأولاد عريف قبلة جبل كزول، فاستقبلوه بالحفاوة والتبجيل وأقام عندهم أياماً، وفاتحهم في رغبته في الإقامة عندهم وشرح لهم عدم استطاعته إتمام سفارة السلطان أبي حمو، ورغبته في تخليص أسرته من تلمسان واستقدامها إليه، فأعلنوا استعدادهم لمساعدته، وتكلفوا بترحيل زوجته من تلمسان وإحضارها إليه، وأنجزوا وعدهم، واعتذروا لأبي حمو بعجزه عن إتمام تلك السفارة التي كلفه بها.

وأنزلوه في قلعة أولاد سلامة من بلاد بني توجين التي أقطعها لهم السلطان، وأقام هناك في قصر أبي بكر عريف أربع سنوات كاملة، وتفرغ من كل المشاكل السياسية، وشرع في تأليف كتابه الكبير، وأتم هناك مقدمته التي جاءت كما قال: «على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها وكان من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما سأذكره إن شاء الله تعالى»[1].

ابن خلدون يرحل إلى تونس:

أقام ابن خلدون بقصر أبي بكر بن عريف في حلقة بني سلامة أربع سنوات كاملة، وكان كما قال، من أحفل المساكن، وأوفقها له بحيث طاب له ولأسرته فيه المقام، وحظي بالتقدير والإكبار، والرعاية، والاحترام لدى أولاد عريف.

ولكنه كان غير مرتاح، ويتوجس خيفة من مكر ملوك فاس، وتلمسان الذين كانت له معهم ومع كبار موظفيهم ووزرائهم، مشاكل، وسوابق سياسية متعددة، ومتقلبة، ويبدو أن مقتل لسان الدين بن الخطيب على تلك الصورة البشعة بفاس الجديد قد أثر كثيراً فيه وتخوف من أن يتعرض لنفس العاقبة والمصير سيما وأنه، كما قلنا له معهم سوابق سياسية غير مشرفة.

وفي نفس الوقت فإنه لما انتهى من تأليف مقدمة كتابه، ووصل إلى صميم الموضوع عن أخبار العرب، والبربر، وزناتة، تشوف إلى مطالعة الكتب والدواوين، التي لا توجد إلا في الأمصار، بعد ما أملي الكثير من حفظه وأراد التنقيح والتصحيح. ولذلك فإنه بعد أن شفي من مرضه الذي تعرض له خلال هذه الفترة، وكاد أن يقضي عليه لولا لطف الله سبحانه وتعالى، فكر في مكاتبة السلطان تونس الحفصي أبي العباس، واستئذانه في القدوم عليه بتونس حيث قرار آبائه ومساكنهم وقبورهم.

وكاتبه فعلاً فأجابه وطلب منه أن يعجل في القدوم، فشد الرحال إليه مع قافلة من عرب الأحصن من بادية رياح كانوا ينتجعون قطعانهم بمنداس وذلك

(1) المقدمة: ص. 444 ـ 445.

في رجب من عام 780 هـ (1387 م) وسلكوا طريق الصحراء إلى الدوسن بأطراف الزاب، ثم عرج هو إلى ناحية التل الشمالي مع حاشية يعقوب بن علي الذين وجدهم بواحة فرفار، التي كان يعقوب قد اختطها لنفسه وعندما وصل إلى ضواحي مدينة قسنطينة، وجد هناك يعقوب بن علي، وأمير قسنطينة إبراهيم ابن السلطان أبي العباس الحفصي صاحب تونس، مخيمين بعساكرهما فأكرمه الأمير إبراهيم، وبربه، وأذن له في دخول مدينة قسنطينة، وإنزال أهله وأسرته بها في كفالته، ريثما يصل إلى تونس ويتصل بأبيه الذي كان آنذاك يقوم بحملة، عسكرية إلى بلاد الجريد لاستنزال شيوخها على كراسي الفتنة التي كانوا أوقدوها فيما بينهم.

غادر ابن خلدون مدينة قسنطينة إلى تونس واتصل بالسلطان أبي العباس في ظاهر مدينة سوسة، فحياه وبر بمقدمه، وبالغ في تأنيسه من وحشته.

واستشاره في مهمات كثيرة سياسية ثم سفره إلى مدينة تونس وأوعز إلى نائبه بها مولى فارح بأن يهيء له المنزل الملائم، والجراية الكافية، وكل ما يلزم من وسائل الراحة والاستقرار.

وقد وصل إلى مدينة تونس في شهر شعبان عام 780 هـ (1387 م) واستقر بها ووفر له المسؤولون كل وسائل الراحة والاستقرار، فنعم ببعض الراحة، وأرسل إلى مدينة قسنطينة يستقدم أهله وعائلته، فحضروا إليه، وجمع شملهم بعد طول غياب، وأسفار، وأتعاب، وتنقلات.

وعندما عاد السلطان أبو العباس من حملته بالجريد قربه إليه، واصطفاه لمجالسته، ومشاورته، واتخذه رفيقاً ومستشاراً ونصوحاً، فظهر منافسون له حقدوا عليه حظوته، ومركزه، وأخذوا ينسجون حوله السعايات والوشايات ويوصلونها إلى السلطان، وكان على رأسهم إمام جامع الزيتونة وشيخ الفتيا محمد بن عرفة الذي كان في قلبه حقد وغيرة عليه منذ أن اجتمعا في قرية المرسى بمجلس علمي كبير حضره أجلة الشيوخ والعلماء، وبرز تفوق ابن خلدون علهم جميعاً، وبدت سعة علمه، وإطلاعه، فأخذ ابن عرفة وكثير من

أمثاله يبيتون له الشر، ويعقدون الاجتماعات لنسج السعايات والوشايات ولكن السلطان أصم أذنه عنهم ولم يعرهم اهتماماً، وواصل تقديره لابن خلدون، وتشجيعه لجهوده العلمية والفكرية خاصة وأنه على علم بأساس رغبته في العودة إلى تونس.

ابن خلدون ينجز تأليف كتاب العبر:

عندما استقر ابن خلدون بتونس، تصدى للإقراء والتعليم، وانثال عليه طلبة العلم من كل جهة، عندما اكتشفوا سعة إطلاعه، وحذقه في شتى العلوم والمعارف وحتى طلبه ابن عرفة التحقوا به وتخلوا عن شيخهم مما زاد في حقده، وحفزه على شن حملة شعواء ضده حتى ينفر منه الناس، واتفق مع البعض منهم أن ينقلوا للسلطان بعض الوشايات والسعايات والوشايات عنه.

غير أن السلطان سكت عنهم، واحتقرهم وشجع ابن خلدون على الانكباب على تأليف كتابه الذي سبق أن حدثه عنه يوم أن كان بقلعة سلامة في أولاد عريف لأنه كما قال ابن خلدون: «كان متشوقاً إلى المعارف والأخبار واقتناء الفضائل» فانكب على الكتابة وأكمل منه أخبار البربر وزناتة وكتب من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إليه منها، وأكمل منه نسخة رفعها إلى خزانته، ورفعه معها قصيدة شعرية طويلة في مدحه حتى يسفه الذين وشوا إليه بأنه لم يمدحه بالشعر استهانة به وبسلطانه بينما أكثر من مدح السلاطين الآخرين قبله.

وقد ذكر ابن خلدون بأنه أهمل تعاطي قول الشعر وانتحاله ليتفرغ للعلم والتدريس، والتأليف، وعندما أبلغه بعض أصدقائه من بطانة وزمرة أولئك الوشاة هذه المقولة صمم على تسفيههم، واغتنم فرصة تقديمه أول نسخة من كتابه إلى السلطان، وأنشد على مسامعه قصيدة في مدحه، ومدح فتوحاته وفي الاعتذار عن انتحال الشعر واستعراض أسباب ذلك، وبدأها بقوله:

هل غير بابك للغريب مؤمل أو عن جناحك الأماني معدل

ثم تطرق إلى كتابه الذي رفعه إليه وقال:

وإليك من سير الزمان وأهله — عبرا يدين لفضلها من يعدل
صحفاً تترجم عن أحاديث الأولى — درجوا فتجمل عنهم وتفصل
تبدي التبابع والعمالق سرها — وثمود قلبهم وعاد الأول
والقائمون بملة الإسلام من — مضر وبربرهم إذا ما حصلوا
لحظت كتب الأولين بجمعها — وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حوشي الكلام كأنما — سردا اللغات بها لنطقي ذللوا
وجعلته لسوار ملكك مفخراً — يبهي الندى به ويزهر المحفل
والله ما أسرفت فيما قلته — شيئاً ولا الإسراف مني يجمل
ولأنت أرسخ في المعاني رتبة — من أن يموه عنده متطفل
فملاك كل فضيلة وحقيقة — الناس تعرف فضلها أن بدلوا
والحق عندك في الأمور مقدم — أبداً فماذا يدعيه المبطل

ابن عرفة يواصل السعاية ضد ابن خلدون:

ورغم الجهود التي كان يبذلها ابن خلدون في ميادين التعليم والتدريس، والتأليف، ورغم كفه عن الاشتغال والمشاكل والقضايا السياسية وعدم تقلده أي منصب سياسي فإن الحاقدين عليه والموتورين، بزعامة الفقيه ابن عرفة لم يتوقفوا عن سعاياهم ووشاياهم ضده إلى السلطان عساهم ينجحون في الإيقاع به وأبعاده.

ومن جملة الخطط والدسائس التي اتفقوا عليها ونفذوها، أغراه السلطان بأخذه معه في حملته على بلاد توزر ضد الثائر بن يملول عساه يهلك هناك وإقناع نائبه عنه بتونس مولى فارح بأن لا يقبل أن يتخلف عنده خلال غياب السلطان حتى لا يتآمر عليه، وتواطأ هؤلاء المتآمرون على أن يشهد ابن عرفة لدى السلطان في غياب ابن خلدون بنيته في التآمر عندما يخرج السلطان إلى توزر، وفعل ذلك وشهد بالزور، وهو شيخ الفتيا كما عبر عليه ابن خلدون نفسه، ولم يتورع ولم يخش حتى الله، ورغم أن السلطان استنكر منهم ذلك، ووبخهم إلا أنه استدعى ابن خلدون وطلب منه أن يتهيأ للسفر معه ويبدو، أنه كان يخاف عليه إذا خلفه من ورائه، وقد قبل ابن خلدون عى مضض الخروج

معه، لأنه كره الحروب والتقلبات السياسية الكثيرة التي عاشها سنوات طويلة في معظم أصقاع بلدان المغرب والأندلس.

خرج مع السلطان ورافقه حتى إلى مدينة تبسة، ثم أعفاه السلطان عن مواصلة السير معه، وأعاده إلى تونس، وواصل هو حركته إلى توزر وقضى على حركة الثائر يملول الذي تمرد منذ عام 783 هـ (1381 م)، وأعاد ابنه إلى مركز حكمه بتوزر وفر ابن يملول إلى الزاب، واحتمى بابن مزني في بسكرة وعندما عاد ابن خلدون من تبسة لم يتجه إلى مدينة تونس، وإنما قصد ضيعة الرياحين في ضواحيها، واشتغل هناك بخدمة مزرعة له وفلاحتها وبقي بها حتى عاد السلطان من توزر فصحبه ودخل معه إلى تونس، وذلك حتى يأمن شر الكائدين عليه.

ابن خلدون يرحل إلى مصر:

وفي شهر شعبان من عام 784 هـ (1382 م) عزم السلطان على القيام بحملة إلى بلاد الزاب لمعاقبة ابن مزني الذي آوى الثائر ابن يملول وتخوف ابن خلدون من أن يطلب منه السلطان مرة ثانية أن يصحبه إلى هناك ولابن مزني فضل كبير عليه في المحن التي تعرض لها خلال السنوات الماضية مع سلاطين تلمسان وفاس، يضاف إل هذا كرهه المشاركة في الحروب والعودة إلى الخوض في الأحداث والمغامرات السياسية والعسكرية.

ولذلك فإنه اغتنم وجود سفينة اسكندرانية بالمرسى محملة بالبضائع والأمتعة، تستعد للإبحار إلى بلاد مصر، فطلب من السلطان أبي العباس وتوسل إليه أن يأذن له بالسفر لأداء فريضة الحج فقبل، وجهز نفسه بما هو ضروري وخرج إلى المرسى للسفر بصفة فجائية، وخرج معه أعيان البلد، وهم مشدوهون يتساءلون خاصة تلاميذه والشيوخ الفضلاء الذين يجلونه ويقدرون علمه.

ركب الباخرة في منتصف شهر شعبان من عام 784 هـ (1382 م) وفوت الفرصة على خصومه مما كانوا ينصبونه له من حبال، وقال بالحرف الواحد

«وفوضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه وتعالى، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم والله ولي الأمور سبحانه».

واستغرقت رحلته من مدينة تونس إلى مدينة الإسكندرية أربعين يوماً طواها طياً، ولم يحدثنا عن البلدان التي مر بها، والمشاكل التي لربما تعرض لها كما فعل المقري بعده بأكثر من قرن من الزمن، ووصل إلى ميناء الإسكندرية صباح عيد الفطر المبارك من نفس العام، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر (برقوق) على عرش مصر.

وبقي بالإسكندرية شهراً كاملاً يحاول توفير الأسباب والظروف التي تساعده على مواصلة السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولكنه لم ينجح في محاولاته ولسنا ندري ماذا كان ينقصه هل المال أم السفينة ولذلك اتجه إلى مدينة القاهرة في أول شهر ذي القعدة، ورأى «حاضرة الدنيا، وبستان العالم ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواين في جوه، وتزهر الخوانق، والمدارس، والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطىء النيل نهر، ومدفع مياهه السماء يسقيه، العلل، والنهل، سيحه، ويجيء إليهم الثمران، والخيرات ثجه».

فانبهر ابن خلدون بهذه المدينة العلمية العجيبة، وكان قد سمع عنها من الحجاج، والتجار والعلماء، كل وصفها له بشكل، ولكن الكل معجبون بها، وممن سألهم عنها يوم أن كان ببلدان المغرب شيخه أبو عبدالله المقري، وأبو عبدالله بن إدريس البحائي وهو من شيوخه كذلك، وقاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي.

وعندما استقر المقام بابـن خلدون بالقاهرة تلك المدنية العالمية العظيمة تصدي للتدريس، وأنثال عليه طلبة العلم يلتمسون منه كما قال: «الإفادة مع قلة البضاعة» فأخذ مكانه بالجامع الأزهر، وتصدى للتدريس والتعليم وتعرف على الأمير الطنبغا الجوداني، ووثق صلاته به فعرفه بالسلطان برقوق وقدمه إليه،

فأكرمه، وآنس غربته، ووفر له الجراية المادية بعد أن آنس منه الكفاءة العلمية، ولم يكتف بها فعينه مدرساً بالمدرسة القمحية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي لتدريس الفقه المالكي، كما عينه محاضراً للفقه المالكي كذلك في المدرسة البرقوقية الظاهرية بشارع بين القصرين وذلك في يوم 9 جمادى الأولى 786 هـ (1384 م). وبقي هناك ينتظر أن تلحق به أسرته ولكن سلطان تونس منعها رغبة منه في عودته إلى تونس فتوسط سلطان مصر برقوق وطلب منه أن يتدخل لديه ففعل وأرسل إليه يرجوه السماح لأسرته بالالتحاق به في مصر فقبل.

ابن خلدون يتولى خطة قضاء المالكية:

وخلال تلك الفترة عزل سلطان مصر قاضي المالكية من منصبه عام 786 هـ (1384 م) وعين ابن خلدون في مكانه رغم تمنعه لأنه لمس فيه أهلية لذلك المنصب ومقدرة، وخلع عليه الجلباب الخاص بالوظيفة في إيوانه يوم 9 جمادى الأولى وأرسل معه من نصبه في مكانه بالمدرسة الصالحية بين القصرين وتصدى لأداء مهمته، بجد، وحكمة، وتروي، وعدل، وحزم، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكان القضاء في ذلك الوقت بتلك المدينة، كما حكى ابن خلدون نفسه، مسخرة، شاعت فيه الرشوة، والممالأة ومراعاة اعتبارات كثيرة شخصية لا تمت إلى الحق والعدل، وكتاب الله وسنة رسوله بصلة، وأورد طرائف وحكايات كثيرة من ضمنها جهل القضاة، وتقاهتهم، وتزوير العقود، والأحكام والإمضاءات، ففشا بسبب ذلك الضرر في الأوقاف والأملاك والمصالح العامة والخاصة:

ويبدو، حسب قول ابن خلدون أن الكثير من القضاة والعدول الصغار، كانوا من السوقة الجهلة، ووصلوا إلى تلك المناصب بالرشوة والكذب والوساطة، والجاه، وغيرها، ومنهم البعض من بلدان المغرب لم يذكر أسماءهم، اتخذوا زواياهم وبيوتهم أمكنة لنشر الأباطيل والدعايات الكاذبة.

وقد قال ابن خلدون في هذا المعنى، «فصدعت في ذلك بالحق وكففت أعنة أهل الهوى، والجهل، ورددتهم على أعقابهم، وكان فيهم ملتقون سقطوا

من المغرب يشعوذون ولا ينتمون إلى شيخ معروف مشهود ولا يعرف لهم كتاب في فن، اتخذوا الناس هزؤاً وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض، ومثابة للحزم فأرغمهم ذلك مني وملأهم حسداً وحقداً علي» وكان موقفه هذا سبباً في بروز وشاة وخصوم ضده من هذه الطبقة وسعوا به إلى السلطان بعد أن فشلوا في إقناعه بأن يفعل مثلهم، ويسلك سبيلهم ويحكم بحسب الظاهر، وبمالىء الحكام والأمراء.

وقد بالغوا في حملتهم ضده، وسمموا الجو، فأظلم الجو أمامه وسخط الكثير من رجال الدولة التافهين عليه، وتضاعف حزنه وألمه عندما غرق أهله وأولاده في البحر قرب ميناء مدينة الإسكندرية قادمين من تونس وذلك في أوت في عام 1384 م، ففكر في الاستقالة من منصبه ونصحه بعض أصدقائه بعدم فعل ذلك حتى لا يسخط عليه السلطان ويصدق ما قيل ضده، وبينما هو في تلك الحالة والأزمة النفسية جاء الفرج من عند الله، وقرر السلطان برقوق أن يعيد قاضي المالكية المعزول إلى منصبه وذلك في 7 جمادى الأولى 787 هـ (1385 م) ففرح فرحاً شديدا واعتبر ذلك نعمة من الله عليه ورحمة وبركة منه إليه، فعاد إلى مهنة التدريس، والمطالعة والتأليف مدة ثلاث سنوات بالمدرستين، القمحية والظاهرية.

ابن خلدون يذهب إلى الحج:

وفي منتصف شهر رمضان من عام 789 هـ (1387 م) ودع ابن خلدون السلطان، والأمراء، وذوي الجاه والأحباب، وغادر القاهرة إلى مرسى جبل الطور في بحر السويس، وزوده السلطان والأمراء من أحبابه بكل ما يلزمه في سفره، وركب الباخرة من جبل الطور يوم 10 شوال، ووصل إلى ميناء ينبع بعد شهر كامل من السير، ووجد هناك موكب المحمل فرافقه إلى مكة ودخلها يوم 2 ذي الحجة وأدى فريضة الحج، وزار المدينة المنورة، وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم عاد إلى ميناء ينبع، وبقي ينتظر المركب الذي يقله إلى مصر وهناك في ينبع التقى ابن خلدون بالفقيه الأديب أبي القاسم ابن شيخ الجماعة أبي إسحاق إبراهيم الصالحي، الذي حمل إليه رسالة من كاتب سر سلطان غرناطة

أبي عبدالله بن زمرك، يشكره فيها ويثني عليه، وعلى عهود الصحبة والصداقة بينهما، وتحمل هذه الرسالة تاريخ 20 محرم 789 هـ (1387 م) كما كتب له قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البني رسالة بتاريخ صفر 790 هـ (1388 م). وركب ابن خلدون المركب من ميناء ينبغ إلى مرسى جبل الطور وعندما اقترب المركب من هذا المرسى اعترضته ريح عاتية وتعذر عليه الرسو بالميناء فاتجه به ربانه إلى ساحل القصير بالضفة المقابلة لخليج السويس، ومن هناك ساروا إلى بندرقنا، وصاحبوا الأعراب براً إلى مدينة قوص عاصمة الصعيد واستراحوا بها أياماً، ثم ركبوا سفينة نيلية أقلتهم إلى القاهرة عبر وادي النيل ووصلوا إليها بعد شهرين كاملين من السفر والمعاناة ودخل ابن خلدون إليها في شهر جمادى (الأول) من سنة 790 هـ (ماي 1388) وذهب بعد ذلك لمقابلة السلطان برقوق، حيث قدم له عرضاً عن سفرته والظروف التي حج فيها، وأبلغه بأنه دعا له في الأماكن المقدسة بطول العمر، ودوام العز، فتقبل منه ذلك، وأقام في رعايته، فأعاد إليه جرايته المالية.

ابن خلدون يعين مدرساً في الضرغطمشية:

وبعد أن استراح ابن خلدون من وعثاء السفر وأتعابه ومشاقه، عينه السلطان برقوق شيخاً ومدرساً للحديث في المدرسة الضرغطمشية التى أسسها الأمير سيف الدين ضرغتمس، وأوقفها على الفقهاء لتدريس الفقه والحديث على المذهب المالكي، لخبرته فيه وتعمقه في أحكامه، الأصولية والفرعية وذلك في شهر جانفي (1389 م) 790 هـ.

ابن خلدون يعين مديراً للخانقاه البيبرسية:

وبعد ثلاثة أشهر اعتزل وظيفته الشابقة كمدرس للفقه والحديث في المدرسة الضرغتمشية وعين مدير للخانقاه البيبرسية التي جلبت له إدارتها فوائد مادية وأدبية كبيرة ورفعت من شأنه ومنزلته، لأنها مؤسسة صرفية غنية بالأوقاف التي أوقفت عليها وهي بمثابة زاوية يؤمها شيوخ الطرق الصوفية. وقد بقي ابن خلدون على رأس هذه الخانقاه يديرها ويسيرها حتى عزل السلطان برقوق عن العرش في يوم 5 جمادى الثانية 791 هـ (1389 م) فعزل هو كذلك، فقام

بعمل مريب ليس غريباً عنه، حسبما عهدناه في بلدان المغرب، وأدى ذلك إلى عزله عن الخانقاه، فقد اشترك مع بعض القضاة في التوقيع على فتوى تجيز محاربة السلطان الظاهر برقوق، وخلعه عن العرش وقتله وذلك لاستعانته بالكفار النصارى في محاربة المسلمين.

وقد حاول هو أن يبرر موقفه، ويشرحه بكيفية أخرى، واستعرض حادثة عزله بالكيفية التالية وقال: «أن الملك الظاهر برقوق لما خلص من سجنه في الكرك، وتغلب على معارضيه، والثائرين عليه بالشام وفلسطين عاد إلى مصر، واستعاد عرشه، وأعاد للدولة هيبتها «وولى سودون على نيابته، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنت فيها، وكان ينقم على أحوالاً من معاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء أزمان كنت عليه ومن تصرفات دواداره بالخانقاه وكان يستنيبه عليها فوغر صدره علي من ذلك وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش وأكرهنا على كتابتها فكتبناها وورينا فيها بما قدرنا عليه، ولم يقبل السلطان ذلك وعتب عليه وخصوصاً علي، فصادف سودون منه إجابة في إخراج الخانقاه عني فولى فيها غيري وعزلني عنها، وكتبت إلى الجوباني بأبيات اعتذر عن ذلك ليطلعه بها، فتغافل عنها وأعرض عني مدة ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه[1].

ومن ضمن أبيات هذه القصيدة الشعرية قوله في مطلعها:

سيدي والظنون فيك جميلة — وأياديك بالأماني كفيلة
لا تحل عن جميل رأيك إني — مالي اليوم غير رأيك حيلة
واصطنعني كما اصطنعت بإسداء — يد من شفاعة أو وسيلة
لا تضعني فلست منك مضيعاً — ذمة الحب والأيادي الجميلة
وأجرني فالخطب عض بنابيه — وأجرى إلى حماي خيوله
أَنْهِ أمري إلى الذي جعل الله — أمور الدنيا له مكفولة
لا تقصر في جبر كسرى فما زلت — أرجيك للأيادي الطويلة

(1) نفس المصدر. ص 363 ـ 365.

أنـا جـار لكـم منعتـم حمـاه | ونهجتـم إلـى المعـالـي سبيلـه
وغريب انستموه على الوحشة | والحـزن بـالـرضـى والسهـولـة
وجمعتـم مـن شملـه فقضـى الله | فـراقـاً ومـا قضـى مـأمـولـه
غـالـه الـدهـر فـي البنيـن وفـي | الأهل وما كان ظنه أن يغوله

* * *

والعـدا نمقـوا أحـاديـث افـك | كلهـا فـي طـرائـق معلـولـة
روجوا في شأني غرائب زور | نصبـوهـا لأمـرهـم أحبـولـة
ورموا بالذي أرادوا من البهتان | ظنـاً بـأنهـا مقبـولـة
زعموا أنني أتيت من الأقوال | مـا لا يظـن بـي أن أقـولـه
كيف لي أغمط الحقوق وأنى | شكـر نعمـاكـم علي الجـزيلـة
كيـف لـي أنكـر الأيـادي التـي | تعرفها الشمس والظلال الظليلة
إن يكـن ذا فقـد بـرئـت مـن الله | تعـالـى وخنـت جهـراً رسـولـه
طـوقـونـا أمر الكتـاب فكـانـت | لقـداح الظنـون فينـا مجيلـة
لا ورب الكتـاب أنـزلـه الله | علـى قلـب مـن وعـى تنـزيلـه
ما رضينا بذاك فعلاً ولا جئناه | طـوعـاً ولا اقتفينـا دليلـه
إنمـا سـامنـا الكتـاب ظلـوم | لا يـرجـي دفـاعـه بـالحيلـة
سخـط نـاجـز وحلـم بطـيء | وسـلاح للـوخـز فينـا صقليـة
ودعوني ولست من منصب الحكم | ولا سـاحبـاً لـديهـم ذيـولـه
غيـر أنـي وشـى بـذكـري واش | يتقصـى أوتـاره وذحـولـه
فكتبنـا معـوليـن علـى حلمـك | تمحـو الأصـار عنـا الثقيلـة
مـا أشـرنـا بـه لـزيـد ولا عمـرو | ولا عينـوا لنـا تفصيلـه
إنمـا يـذكـرون عمـن وفيمـن | مبهمـات أحكـامهـا منقـولـة

* * *

فاقبلوا العذر أننا اليوم نرجو | بحيـاة السلطـان منكـم قبـولـه
وأعينـوا علـى الـزمـان غـريبـاً | يشتكي جـدب عيشـه ومحـولـه
جاركم ضيفكم نزيل حماكم | لا يضيـع الكـريـم يـومـاً نـزيلـه

جـددوا عنـه رسـوم رضـاكـم فـرسـوم الكـرام غيـر محيلـة
داركـوه بـرحمـة فلقـد أمسـت عقـود اصطبـاره محلـولـة
وأنحلـوه جبـرا فليـس يـرجـى غيـر إحسـانكـم لهـذي النحيلة
يـا حميـد الآثـار فـي الـدهـر يـا الطنبغـا يـا روض العـلا ومقيلة
كيـف بـالخـانقـاه ينقـل عنـي لا لـذنـب أو جنحـة منقـولـة
بـل تقلـدتهـا شعـوراً بمـرسـوم شـريـف وخلعـة مسـدولـة
ولقـد كنـت آمـلاً لسـواهـا وسـواهـا بـوعـده أن ينيلـه
وتـوثقـت للـزمـان عليهـا بعقـود مـا خلتهـا محلـولـة
أبلغن قصتي فمثلك من يقصد فعـل الحسنـى بمـن ينتمـي لـه
واغنمـوا مـن مثـوبتـي ودعـائـي قـربـة عنـد ربكـم مقبـولـة[1]

وبعد أن عزل عن إدارة الخانقاه عاد إلى مهنة التدريس، والكتابة والتأليف سنوات طويلة حتى مطلع القرن التاسع الهجري، ولم يفصل لنا أخبار حياته في هذه الفترة كما كان معتاداً ما عدا حادثة واحدة تتصل بصلات عرش مصر، مع سلاطين بلدان المغرب العربي، ودوره هو في ذلك.

ففي عام 793 هـ (1390 م) وصل إلى القاهرة شيخ عرب المعقل يوسف بن علي بن غانم فاراً من بطش السلطان المريني بفاس أبي العباس أحمد بن أبي سالم وراغباً كذلك في أداء فريضة الحج، ووجد سلطان مصر الظاهر برقوق غائباً في الشام للقضاء على فتنة وتمرد الزعيم المملوكي منطاش. فسعى له ابن خلدون لدى صاحب محمل الحج، وصحبه معه إلى البلاد المقدسة. وعندما عاد من هناك بعد انتهاء موسم الحج وجد السلطان برقوق قد عاد من الشام، فساعده ابن خلدون على تنظيم لقاء معه، واشتكى له محنته. ورجاه أن يتوسط له عنده فكتب له رسالة تشفع وزوده بهدية إليه تتألف من الأقمشة والعطور، وغيرها، وطلب منه كذلك أن ينتقي له عدداً من الخيول المغربية، وقد قبل السلطان المغربي هذا التشفع، وعفا عنه وأعاده إلى منزلته

(1) نفس المصدر. ص 365 ـ 370.

السابقة وشرع في انتقاء الخيول التي طلبها منه السلطان برقوق، وبعض التحف والهدايا الأخرى التي سيرسلها إليه، ولكنه توفي قبل أن يرسلها كما توفي بعده ابنه أبو فارس، وعندما تولى العرش أخوه (أبو فارس) أبو عامر جهز الهدية ليرسلها مع رسوله يوسف بن علي.

وقد استغرق هذا عدة سنوات فاستبطأ سلطان مصر وصول الخيول المغربية التي كان يرغب فيها، وأوصى عليها، فعزم على إرسال رسول آخر إلى بلاد المغرب ليشتري له الخيول بالمال، واستدعى إليه ابن خلدون، واستشاره في ذلك فأيده في فكرته، واقترح عليه أن يكتب لسلاطين بلدان المغرب ثلاثة رسائل في الموضوع واحدة إلى سلطان تونس والثانية إلى سلطان تلمسان، والثالثة إلى سلطان فاس، فعين المملوك قطلوبغا، للمهمة، وزوده بتلك الرسائل الثلاثة، وهدايا أخرى لكل واحد منهم تتألف من القماش، والطيب وغيرها.

سافر قطلوبغا إلى بلدان المغرب عام 799 هـ (1396 ـ 1397 م) وأكرمه كل السلاطين الذين توجه إليهم، وعندما وصل إلى فاس، وجد هدية السلطان أبي عامر جاهرة ومعدة إلى الإرسال بقيادة يوسف بن على فخرج معها بعد عيد الأضحى لنفس العام عائداً إلى مصر ومر بتلمسان فزوده سلطانها الزياني أبو زيان بن حمو بهدية وقصيدة شعرية في مدح السلطان برقوق جاء فيها:

لمن الركائب سيرهن ذميل ... والصبر إلا بعدهن جميل
يا أيها الحادي رويدك إنها ... ظعن يميل القلب حيث تميل
رفقاً بمن حملته فوق ظهورها ... فالحسن فوق ظهورها محمول

* * *

وإليكما تنبيك صدق مودتي ... صح الدليل ووافق المدلول
فإذا بذاك المجلس السامي سمت ... فلديك إقبال لها وقبول
دام الوداد على البعاد موصلاً ... بين القلوب وحبله موصول
وبقيت في نعم لديك مزيدها ... وعليك يضفو ظلها السدول

ثم مر على تونس وتسلم من سلطانها الحفصي هدية أخرى من الجياد والأقمشة، وعندما وصل إلى القاهرة قدمها إلى الملك الظاهر برقوق في موكب حافل بعد أن نهب الخاسكية ما بها من الأقمشة، والبسط، ومراكب الخيل، وبعض الجياد، ففرح بها غاية الفرح، وكانت تتألف مما يلي:

هدية سلطان المغرب الأقصى بها 35 فرساً من جياد الخيل بسروجها وألجمتها الذهبية، والسيوف المحلاة، وبحمولاتها من أجود أقمشة الحرير والكتان والصوف، والجلد.

وهدية سلطان تلمسان بها 30 فرساً من جياد الخيل بمراكبها المموهة وأحمالها من الأقمشة المنتقاة.

وهدية سلطان تونس بها 30 فرساً من جياد الخيل مجللة بأجمل الأقمشة المنتقاة.

وقد أكرم السلطان برقوق حاملي هذه الهدية، وبربهم وأعدلهم منازل أنيقة ومريحة لإقامتهم، وسفرهم مع الموكب السلطاني إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وزودهم بالأموال اللازمة للإنفاق على شؤونهم خلال موسم الحج، وعندما عادوا من الحج إلى القاهرة أكرمهم كذلك وجهز لهم ما يلزمهم لعودتهم إلى بلدانهم معززين مكرمين.

وكان ابن خلدون خلال كل هذا محل فخر، واعتبار، وتقدير، وذكر حسن وجميل، لأنه كان الواسطة في كل ما تحقق من هذه الصلات والهدايا والرسل بين عرش مصر، وعروش بلدان المغرب وسلاطينها(1).

ابن خلدون يعين قاضياً وينتدب للسفر إلى الشام:

بعد أن عزل ابن خلدون عن إدارة الخانقاة، عاد إلى مهنة التدريس والكتابة والتأليف وإلى ممارسة أعماله الخاصة، وخدمة أرضه. ومزرعته التي كانت له بالفيوم، وذلك لعدة سنوات، وفي مطلع القرن التاسع الهجري استدعاه

(1) نفس المصدر. ص 376 ـ 383.

السلطان من الفيوم وعينه في منتصف رمضان عام 801 هـ (ماي 1399 م) قاضياً للمالكية من جديد بعد حوالي 14 عاماً من عزله عن ذلك المنصب، وذلك لما توفي القاضي المالكي ناصر الدين أحمد التنسي، ويبدو أن السلطان برقوق رضي عنه وعفا عن فعلته السابقة وتجاوز عنها بعد مرور هذه السنوات الطويلة عنها.

استمر ابن خلدون في وظيفته هذه حوالي تسعة أشهر، ثم انتدبه السلطان فرج هو وباقي القضاة الآخرين ليسافروا معه إلى الشام للقضاء على الفتنة والتمرد الذي تزعمه عدد من المعارضين وعلى رأسهم تنم، وايتمش، فسافر إلى دمشق خلال شهر جمادى الثانية عام 802 هـ (فيفري 1400 م) ووصل إليها مع السلطان فرج. في أول شعبان 802 هـ (1400 م) ومكث هناك عدة أسابيع استغلها في مطالعة الكتب بخزائن مكتبات دمشق الخاصة والعامة.

وعندما انتهى السلطان من القضاء على التمرد، استأذن ابن خلدون منه في السماح له بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين، فأذن له وقام بزيارة بيت المقدس، والخليل، وبيت لحم، خلال شهر رمضان وامتنع عن الدخول إلى كنيسة القيامة التي سماها: القمامة: لاحتوائها على الصلبان، وبعض المظاهر المسيحية الأخرى، ومن هناك انتقل إلى غزة ولحق بجيش السلطان فرج بظاهر مصر، ودخل معه إلى القاهرة أواخر شهر رمضان 802 هـ (ماي 1400 م) واستمر في وظيفته القضائية حتى توفي السلطان فرج، فعزل عن وظيفته القضاء مرة ثانية في منتصف شهر محرم عام 803 هـ (سبتمبر 1400 م) وعين مكانه نور الدين بن الخلال الذي قال عنه بأنه كان دائماً يحاول أن يخلف القضاة في منصبهم عند غيابهم وبذل هذه المرة حتى أمواله وجاهه ليحصل على هذه الوظيفة[1].

ابن خلدون ينتدب للسفر إلى الشام لمحاربة تيمورلنك:

وعندما زحف تيمورلنك على بلاد الشام خلال عام 803 هـ والذي تلاه ندبه السلطان فرج للسفر مع الجيش المصري، إلى جانب باقي قضاة المَذاهب

(1) نفس المصدر. ص 383 ـ 387.

الأخرى كما جرت العادة، فعزف عن ذلك، وأظهر عدم رغبته، فكلف السلطان فرج دوادره (كاتب سره) يشبك الشعباني بأن يعمل على إقناعه بالسفر، فاتصل به وأقنعه، وهو ما عبر عنه ابن خلدون نفسه عندما قال: (فتجافيت عن ذلك، ثم أظهر العزم علي بلين القول وجزيل الكلام فأصخيت».

سافر ابن خلدون مع السلطان فرج وجيشه إلى مدينة غزة في منتصف ربيع الأول 803 هـ (28 نوفمبر 1400 م)، ومن هناك اتجهوا إلى دمشق، وتوقفوا في مركز شقحب أياماً، ثم قصدوا دمشق ووصلوا إليها قبل تيمورلنك، وضربوا خيامهم في ساحة قبة يلبغا، واستقر ابن خلدون في المدرسة العادلية، وعندما وصل تيمورلنك قادماً من بعلبك عسكر على مسافة غير بعيدة، منهم وحصل صدام بين الطرفين ثلاث أو أربع مرات، وفي النهاية اقترب تيمورلنك من أبواب دمشق.

ابن خلدون يتفاوض مع تيمورلنك:

وفي يوم 13 جمادى الأولى 7803 هـ (30 سبتمبر 1400 م) هرب سلطان حسن حفيد تيمورلنك إلى معسكر الشاميين ونمي للسلطان فرج وكبار أمرائه بأن بعض الأمراء يدبرون مؤامرة وانقلاباً ضده، ويفكرون في العودة إلى القاهرة لتنفيذ خطتهم فتدارس الوضع مع كبار قادته، واتفقوا على العودة إلى مصر، وترك دمشق لمصيرها ونفذوا خطتهم وغادروا دمشق إلى مصر ليلة 21 جمادى الأولى 803 هـ (7 جانفي 1401 م) عبر غزة، وتخلف ابن خلدون في دمشق مع عدد من أفراد الجيش المصري وأمراء المماليك، والقضاة وعندما فوجىء سكان دمشق في صباح اليوم الموالي بمغادرة السلطان فرج وجيشه لدمشق، اجتمع ثمانية قضاة وفقهاء وقصدوا إلى مقر ابن خلدون في المدرسة العادلية وتداولوا معه الأمر وأمروه عليهم وفوضوه التصرف لخبرته في الأمور والقضايا السياسية، وتعوده على معالجتها عندما كان ببلاد المغرب والأندلس الإسلاميين وبعد تداول الأمر، وتقليبه من عدة أوجه اتفقوا على تسليم المدينة إلى تيمورلنك، وعرضوا رأيهم على نائب قلعة دمشق يزدار، فعارضهم واستنكر ذلك عليهم، ولكنهم لم يلتفتوا إليه وصمموا على تنفيذ ما اتفقوا عليه وكلفوا

القاضي الحنبلي برهان الدين بن مفلح، وأحد شيوخ الصوفية للزاوية، والخانقاه الصلاحية السيمساطية بأن يتوجها إلى تيمورلنك ويعرضا عليه أمر الصلح والتسليم.

فتدليا من السور، بعد أن رفض يزدار نائب قلعة المدينة فتح الباب لهما وذهبا إليه فاستقبلهما، ورحب بعرضهما الذي حملاه إليه نيابة عن الفقهاء وأعيان المدينة، وطلب منهما أن يعودا إلى المدينة ليحضرا إليه وجوه القوم فعادا إلى المدينة وصحبا معهما ستة أشخاص آخرين وعادوا إليه جميعاً فاستقبلهم، واتفق معهم على فتح أبواب دمشق له في صباح اليوم الموالي وسلم إليهم رقاع الأمان، كما سلموا له الهدية التي طلبها هو منهم كإجراء اعتاد عليه هو في مثل هذه المواقف وعندما عاد هذا الوفد إلى دمشق، أخبر رئيسه القاضي ابن مفلح، ابن خلدون بأن تيمورلنك سأل عنه، واستفسر هل ما يزال موجوداً بدمشق أم رحل مع السلطان إلى مصر، فتكونت لدى ابن خلدون رغبة للاتصال به بصفة شخصية كعادته في مثل هذه المواقف التي تناسب طموحاته السياسية.

وقد حصل خلاف بين أعيان دمشق حول الاستسلام وعدمه بعد أن عاد الوفد من عند تيمورلنك، وكان نائب القلعة على رأس المعارضين، فأسرع ابن خلدون ليلاً إلى الفقهاء وألح عليهم بضرورة الوفاء بعهدهم، وتسليم المدينة إلى تيمورلنك في الوقت المحدد له، وطلب منهم أن يسمحوا له بأن يخرج بنفسه إلى تيمورلنك على الباب أو السور فعارضوه في البداية ثم عادوا إلى رأيه ووافقوه، وساعدوه على التدلي من السور إلى خارج المدينة، حيث وجد وفداً في انتظاره، أمام الباب من قبل تيمورلنك، يقوده شاه ملك، فحياهم، وردوا عليه بمثلها، وأعطاه شاه ملك دابة، ودليلاً أوصله إلى معسكر تيمورلنك، فدخل عليه في خيمته، وحياه وقبل يده، وجلس بجانبه.

وتولى الفقيه عبد الجبار بن نعمان الحنفي الخوارزمي الترجمة بينهما فسأله تيمورلنك عن بلده وسبب مجيئه إلى مصر، وما فعله معه السلطان برقوق، وعن سبب توليه منصب قضاء المالكية، وعزله عنه كما سأله عن مكان

مولده، وموقع بلاد المغرب، والأندلس، ومدن، فاس، وطنجة، وسبتة، وتلمسان، فأجابه ابن خلدون بما يسمح به الوقت، ولكن تيمورلنك لم يقتنع بما سمعه منه أو لم يستوعبه، فطلب منه أن يسجله له كتابة، وتناول معه الطعام في تلك الجلسة.

وذكر ابن خلدون بأنه كان يتوجس خيفة بأن يلحقه ما لحق قاضي قضاة الشافعية، صدر الدين المساوي الذي حبسه تيمورلنك، وعذبه حتى مات بدعوى أنه استعلى عليه واحتقره، وتتلخص قصة المناوي فيما يلي:

كان صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي، قد أرسله السلطان فرج إلى حاكم دمشق الثائر والمتمرد، تنم، في رجب 802 هـ (مارس 1400 م) وعندما هاجم التتار دمشق فر مع الفارين في اتجاه مصر ولكن، التتار قبضوا عليه وأخذوه أسيراً وأحضروه إلى مجلس تيمورلنك، فجلس دون استئذان منه، مظهراً التعالي، فاعتبر تيمورلنك ذلك إهانة منه له، وأمر بأن يسحب على الأرض ويسحل كما تسحل الماشية والكلب، فتمزقت ثيابه، وخدش لحمه، وضرب ضرباً مبرحاً، وأودع السجن، وعندما رحل تيمورلنك أخذه معه فمات في الطريق غريقاً بنهر الزاب في شهر شوال 803 هـ (ماي ـ جوان ـ 1401 م).

تخوف ابن خلدون من هذا المصير وزور كلاماً يخاطبه به، يسمح له بأن يصبح ذا حظوة لديه، وزعم له بأنه كان يترقب ويتشوق للقائه منذ ثلاثين أو أربعين عاماً، وهذا كله من محظ الدجل والنفاق السياسي الذي جبل عليه ابن خلدون في بلاطات تونس، وبجاية، وتلمسان، وفاس، وغرناطة.

وبينما ابن خلدون يحكي ويقص لتيمورلنك هذه المقولات، وصل الخبر بفتح أبواب دمشق، فتوقف الحديث وحمل تيمورلنك على فرسه، واتجه إلى دمشق ونزل بالقرب من باب الجابية، وحضر إليه القضاة، وأعيان البلد، ودخلوا عليه بصحبة ابن خلدون الذي التحق بهم، وسلموا عليه، فخلع عليهم، وأثبتهم في مناصبهم، كما كانوا فانصرفوا، وعاد ابن خلدون إلى مقر إقامته في المدرسة العادلية واعتكف أياماً كتب خلالها مختصراً عن تاريخ بلاد المغرب

إلى تيمورلنك كما طلب منه قيل إنه يتألف من 12 كراساً، وحمله إليه وسلمه له، فطلب بعضهم أن يترجمه له إلى اللغة المغولية على ما قيل. ضيق تيمورلنك على قلعة دمشق حتى استسلم من بداخلها وخربها، وهدمها تماماً، وصادر أموال الناس، وأباح المدينة لأتباعه فنهبوها، وأشعلوا فيها النار فاحترقت، واحترق الجامع الأموي، وذاب رصاص أبوابه وزخرفته فاستبشع ابن خلدون ذلك، وأوكل أمره إلى الله، وهذا يؤكد عدم احترام تيمورلنك لتعهداته.

ابن خلدون يحضر تحقيقاً حول مدع للخلافة:

وخلال هذه الفترة ظهر رجل كان من ضمن من حصل على الأمان من جنود قلعة دمشق، ادعى أنه من سلالة الخلفاء العباسيين بمصر الذين نصب الظاهر بيبرس جدهم خليفة، وطلب من تيمورلنك أن يعترف له بمنصب الخلافة، بدلاً من الذي يتولاها بمصر دون مستند شرعي، وأورد له حديثاً نبوياً مزعوماً يؤيد دعواه، فجمع تيمورلنك مجلساً قضائياً بزعامة القاضي عبد الجبار الخوارزمي وكان ابن خلدون من ضمن القضاة الذين دعوا لهذا المجلس، فأنكر ابن مفلح صحة حديث: أن الخلافة لبني العباس ما بقيت الدنيا، وأكد أنه كاذب ومزور، وعندما جاء دور ابن خلدون أسهب في شرح قضية الخلافة منذ قيامها إلى ذلك الوقت، واستعرض أقوال وآراء المذاهب الإسلامية حولها، وشرح قضية الذي يتولاها آنذاك في مصر، وأكد صحة نسبه.

وشرعية توليته، فالتفت تيمورلنك إلى ذلك الدعي وقال له، ها أنت قد سمعت رأي الفقهاء، ولا شيء لك عندنا، فانصرف عنا راشداً فانصرف.

ابن خلدون يقدم هدية لتيمورلنك:

بعد أن تعرف ابن خلدون على تيمورلنك، وتحاور معه، وتردد عليه مدة عدة مرات، أشار عليه بعض أصحابه بأن يقدم له هدية، ولو متواضعة، فاشترى مصحفاً جميلاً وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيد البردة للبصيري، وأربعة علب من الحلوى المصرية الفاخرة وحملها إليه في القصر الأبلق، وعندما دخل عليه في إيوانه جلس على يمينه وقدم له الهدية، وفتح له المصحف فوضعه على رأسه

تعظيماً له، ثم سلم له البردة فسأله عن محتواها وصاحبها، وأعطاه السجادة فقبلها، ووضع علب الحلوى بين يديه وتناول منها شيئاً أكله حتى يطمئن على عدم غشها، وذلك حسبما جرت العادة، فأخذها وقسمها على الحاضرين في تلك الجلسة، وشكره على صنيعه. وقد استغل ابن خلدون الفرصة وفاتحه في أمره هو، وأمر أصحابه، وقال ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي، وشأن أصحاب لي هناك فقلت أيدك الله لي كلام أذكره بين يديك فقال: قل قلت، أنا غريب بهذه البلاد غربتين: واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشئي، وأخرى من مصر وأهل جيلي بها، وقد حصلت في ظلك وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي، فقال قل الذي تريده أفعله لك فقلت حال الغربة أنستني ما أريد، وعساك، أيدك الله، أن تعرف ما أريد فقال انتقل من المدينة إلى الأوردو وأمكث عندي، وأنا إن شاء الله أوفى كنه قصدك فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار عليه بإمضاء ذلك فشكرت ودعوت وقلت، وبقيت لي أخرى، فقال، ما هي، فقلت هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر من القراء والموقعين، والدواوين، والعمال صاروا إلى إيالتك، والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانهم كبير، وعمالاتكم متسعة، وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم، فقال، وما تريد لهم قلت، مكتوب أمان يستنيمون إليه ويعولون أحوالهم عليه، فقال للكاتب، اكتب لهم، فشكرت ودعوت وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان، وانصرفت إلى منزلي.

ابن خلدون يهدي بغلته لتيمورلنك ويعود إلى مصر:

وعندما عزم تيمورلنك على مغادرة دمشق وبلاد الشام إلى بلاده دخل عليه ابن خلدون ذات يوم، فسأله تيمورلنك ما إذا كان عنده بغلة جميلة فأجابه بنعم وعرض عليه أن يبيعها له، فرفض وقدمها له هدية، ولكن تيمور أرسل إليه ثمنها إلى القاهرة مع أحد الرسل فيما بعد.

وعندما قابله مرة أخرى وأخيرة بعد حوالي خمسة وثلاثين يوماً من الإقامة بدمشق والتردد عليه وسأله تيمور عما إذا كان يريد السفر والعودة إلى مصر فقال

له: إن كان ذلك في خدمتك فنعم، وإلا فلا، فقال له تيمور لا بد من أن تسافر إلى عيالك وأهلك بمصر، وطلب من أحد أبنائه الذي كان على وشك السفر إلى مركز شقحب لزيارة مربع دوابه أن يتولى رعايته.

فقبل ابن خلدون في البداية أن يسافر معه، ثم تراجع بدعوى أن وجهة ذلك الابن غير معروفة، كما أن وقت سفره لم يحدد بعد، وهو يريد أن يسافر إلى صفد، وقد تكون هناك أعذار أخرى لم يصرح بها ابن خلدون خاصة وأن تيمورلنك أو أتباعه سيثير الشكوك ضده.

وقد قبل تيمورلنك عذره وأوصى به قاصداً إلى صفد، كان بالصدفة حاضراً تلك المقابلة، وجاء رسولاً إليه من قبل حاجب صفد ابن الدويداري ولكن ابن خلدون اختلف معه حول الطريق الذي سيسلكه وفارقه، وسافر مع جماعة أخرى من أصحابه، وتعرض لهم العربان في الطريق، وسلبوا لهم أمتعتهم حتى اللباس، ولم يصلوا إلى صفد إلا بعد مشقة وصعوبات كبيرة ومن هناك أخذ ابن خلدون مركباً إلى مدينة غزة، ومنها إلى القاهرة التي وصلها في شعبان عام 803 هـ (17 مارس 1401 م) ووصل من بعده رسول السلطان فرج إلى تيمورلنك، وحمل له ثمن بغلته التي أهداها إلى تيمورلنك فرفض أن يسلمه إلا بعد أن يأذن السلطان له بذلك، وبعد مدة أرسل إليه ناقصاً وقيل له بأنه تسلمه هكذا ناقصاً.

ابن خلدون يراسل سلطان المغرب الأقصى:

وبعد أن استقر ابن خلدون بالقاهرة، كتب رسالة طويلة إلى سلطان المغرب الأقصى أبي سعيد عثمان بن أبي العباس بن أبي سالم المريني حدثه فيها عما حصل له من الأحداث مع تيمورلنك، ولخص له تاريخ التتار والمغول، ومما قاله له في هذه الرسالة أو التقرير.

«وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك فهي بخير والحمد لله وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف التتر إليه في بلاد الروم والعراق مع ملكهم تمر، واستولى على حلب، وحماه وحمص،

وبعلبك وخربها جميعها، وعاثت عساكره، فيها بما يسمع أشنع منه ونهض السلطان فرج في عساكره لاستنقاذها وسبق إلى الشام، وبقي هناك مواجهاً إياه تيمور لمدة شهر، وبعدما رجع إلى مصر، وقد تخلف الكثير من أمرائه وقضاته وكنت من المختلفين.

«وسمعت أن سلطانهم سأل عني فلم يسع إلا لقاؤه فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق وأقمت عنده خمساً وثلاثين يوماً أباكره، وأراوحه، ثم صرفني وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر».

«وكان طلب مني بغلة كنت أركبها فأعطيته آياها فسألني البيع فتأففت منه لما كان يعامل به من الجميل فبعد انصرافي إلى مصر بعث إلي بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هناك، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا».

وبعد أن استعرض ابن خلدون تاريخ التتار وبلادهم وملوكهم وغزواتهم، قال عن تيمورلنك: «وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراعنتهم والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض لما يرون من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء إنما هو شديد الفطنة والذكاء كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم عمره بين الستين والسبعين، وركبته اليمنى عاطلة، من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني، يجرها في قريب المشي، ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة، وهو مصنوع له، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده».

ابن خلدون يتولى منصب القضاء عدة مرات:

عندما سافر ابن خلدون إلى دمشق في المرة الثانية كان قاضياً للمالكية في مكان القاضي نور الدين بن الخلال الذي توفي، وعندما عاد السلطان فرج إلى القاهرة وترك من ورائه هناك ابن خلدون أشيع بأنه توفي فعين في مكانه جمال الدين الأقفهسي قاضياً للمالكية في منتصف جمادي الثانية 803 هـ (جانفي 1401 م) وبقي في هذه الوظيفة حتى عاد ابن خلدون من دمشق وثبت كذب

الإشاعة فعزل عن تلك الوظيفة وأعيد ابن خلدون إلى منصبه في شعبان من نفس السنة (أبريل 1401 م) وشمر عن ساق الجد لأدائها، فأنصف المظلوم وقهر الظالم، وقاوم أصحاب الأغراض الخاصة، فظهر منافسون له حاقدون وموتورون وسعوا ضده لدى السلطان، وكان على رأسهم جمال الدين البساطي الذي قدم من ماله الرشاوي ليحصل على منصب قاضي المالكية، ونجحت الخطة، وعزل ابن خلدون للمرة الثالثة أواخر شهر رجب 804 هـ (مارس 1402 م) وعين البساطي في مكانه.

غير أن السلطان راجع موقفه، عندما أدرك خطأه وتراجع عن رأيه السابق وعزل البساطي، وأعاد ابن خلدون إلى وظيفته القضائية كما كان للمرة الرابعة وذلك في ذي الحجة من نفس العام (جويلية 1402 م) فمارسها كعادته لمدة سنة وبعض السنة، ثم عزل عنها للمرة الرابعة، وأعيد البساطي إليها في ربيع الأول عام 806 هـ (سبتمبر 1403 م) وبقي يمارسها حتى العام الموالي، ثم عزل عنها، وأعيد ابن خلدون إليها للمرة الخامسة في يوم 10 شعبان عام 807 هـ (11 فيفري 1405 م) وبقي يمارسها حتى شهر ذي القعدة من نفس السنة (27 مارس 1405 م)، ثـم عزل عنها للمرة الخامسة لعـدة شهور، وأعيـد إليها في شهر رمضان عام 808 هـ (فيفري 1406) وبقي يمارسها حتى توفي.

وفاة ابن خلدون:

عندما تسلم ابن خلدون منصب قاضي المالكية في المرة السادسة، كان قد عجز، وتقدم به السن كثيراً ويبدو أن التقلبات التي عاشها طوال حياته خاصة صراعه ضد الفقهاء المتزمتين بالقاهرة، قد أثرت فيه كثيراً، ولذلك لم يبق إلا أسبوعين أو ثلاثة ثم توفي يوم الأربعاء 25 رمضان 808 هـ (17 مارس 1406 م) عن عمر ستة وسبعين عاماً تقريباً، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة، ولكن قبره غير معروف الآن رغم الحفريات والتحريات التي أجريت على ذلك.

أبو زكرياء يحيى ابن خلدون

(734 ـ 780 هـ = 1333 ـ 1379 م)

ولد يحيى ابن خلدون بمدينة تونس عام 734 هـ (1333 ـ 1443 م). وحفظ القرآن الكريم على الشيخ ابن بر القرشي وتعلم عنه علم القراآت السبع للقرآن الكريم. ودرس كتاب التقصي لابن عبد البر في أحاديث الموطأ. ومختصر ابن الحاجب في الفقه. وكتاب التحصيل لأبي مالك في النحو. ثم تفرغ لدراسة الآداب العربية، على بعض شيوخ تونس المشهورين أمثال: الحصايري، والبرزالي وابن القصار، ومحمد ابن بحر، الذي أشار عليه وعلى أشقائه بحفظ المزيد من الشعر العربي خاصة شعر المعلقات، وأبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء وغيرهم كما أشار إلى ذلك عبد الرحمن بن خلدون شقيق يحيى.

وإلى جانب العلوم اللغوية، درس يحيى ابن خلدون العلوم الدينية على أشهر شيوخ وعلماء تونس، أمثال: ابن جابر الوادي آشي. والقاضي ابن عبد السلام، والجياتي، وابن القصير، وغيرهم.

وبعد أن قام السلطان المريني أبو الحسن بغزو تونس واحتلالها يوم 8 جمادى الثانية عام 748 هـ (1347 م)، شهدت مدينة تونس حركة علمية واسعة بفضل ذلك الحشد الكبير من العلماء الذين صحبهم معه إلى هناك من تلمسان وفاس، أمثال: ابن مرزوق الخطيب، والآبلي، وابني الإمام، وأبي عبدالله الشريف، والشيخ السطي، وابن الصباغ، وابن عبد النور، وابن عبد المهيمن الحضرمي، وابن رضوان، وابن شعيب، وغيرهم.

فاستفاد يحيى ابن خلدون وأخوته استفادة واسعة، وانكبوا على تحصيل العلوم والمعارف منهم بكثير من الجد، والنشاط، خاصة الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي، الذي خصه كل من يحيى، وعبد الرحمن، الخلدونيين بالفضل عليهما، لما له من علم واسع، وإطلاع مكثف في مختلف العلوم العربية

الإسلامية الدينية، واللغوية والنقلية، والعقلية.

وعندما رحل أبو الحسن المريني عن تونس في شهر شوال من عام 750 هـ (1350 م) اختفت أخبار يحيى ابن خلدون عنا. وبرزت أخبار أخيه عبد الرحمن كما مرّ حيث نجده يتقلد وظيفة العلامة تونس الحفصي، ويشارك في أحداثه وحروبه ضد صاحب قسنطينة بمنطقة تبسة، ثم يلتحق ببسكرة، وتلمسان، وأخيراً فاس ليعين كاتباً لأبي عنان.

وفي عام 757 هـ (1356 م) يظهر يحيى ابن خلدون في مدينة فاس، ويلازم كبار العلماء بها هو وأخوه عبد الرحمن كذلك. وعلى رأسهم العلامة أبو البركات البلقيني والعلامة أبو عبدالله الشريف التلمساني. وكانت فاس في هذه الفترة تعج بكبار العلماء الذين أحاطهم السلطان أبو عنان بنفسه، وكرمهم، وبجلهم فأعطوا لفاس جواً من العلم مزدهراً، ودفعوا بالحركة العلمية خطوات هامة إلى الأمام في مجالات مختلفة، دينية، وأدبية، وعلمية، وفنية.

وحظي يحيى ابن خلدون، وأخوه عبد الرحمن بملاقاة ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب الذي قدم إلى فاس لاجئاً هو وسلطان غرناطة، بعد المؤامرة التي حيكت ضدهما. وتوثقت صلاتهما به، وهو صاحب علم واسع، وقلم سيال، وخيال مبدع، وشعر رائع، وفن بديع.

وقد استغل يحيى ابن خلدون هذا الجو العلمي النشيط، وهذه الحركة العلمية الواسعة والدؤوبة، فانكب على الدراسة والتحصيل عدة سنوات أكسبته مهارة في الصناعة الأدبية وأهلته ليصبح كاتباً في ديوان الإنشاء بفاس عام 761 هـ (1360 م) تحت إشراف ابن رضوان كاتب السلطان، ورئيس ديوان الإنشاء، وكان ضمن عوامل ارتقائه إلى هذا المنصب تزكية ابن رضوان ورعايتها له، بسبب انتماء أسرتيهما معاً إلى الأندلس ولكرم الضيافة والرعاية التي حظي بها ابن رضوان نفسه بتونس لدى أسرة ابن خلدون خلال أحداث ابن تافراكين، وأبي الحسن المريني.

وخلال عمل يحيى بديوان الإنشاء اكتسب خبرة ومهارة بأساليب الإنشاء

والكتابة الفنية الديوانية، وتعرف على حياة البلاط السياسية، والأخلاقية، وتوثقت صلاته هو وأخوه عبد الرحمن، بأمير بجاية السابق أبي عبدالله محمد الحفصي الذي تنازل عن عرشه بعد حركة أبي عنان وغزوته لها ولتونس. وذلك بفضل الانتماء الواحد لبلاد تونس، والنشأة في ظلال العرش الحفصي هناك. وسيكون لهذه الصحبة والصداقة تأثير في مجرى حياة يحيى وأخيه عبد الرحمن، والأمير محمد.

وعندا قام السلطان المريني أبو سالم بغزو مدينة تلمسان في شعبان من عام 761 هـ (1360 م) صحب معه يحيى بن خلدون وأخاه عبد الرحمن، إلى هناك وأطلق سراح الأمير أبي عبدالله محمد الحفصي، وحثه على غزو بجاية واستعادتها من الأمير الحفصي أبي إسحاق كما أطلق سراح أمير قسنطينة السابق، أبي العباس وحثه على غزو قسنطينة واستعادتها كذلك من أبي إسحاق الحفصي السابق الذكر.

وذكر عبد الرحمن بن خلدون بأنه اتفق مع الأمير أبي عبدالله محمد أن يعينه حاجباً له عندما يستعيد بجاية، كما ذكر يحيى بن خلدون بأنه شارك في استعادة بجاية مع الأمير محمد، وتقلد وظيفة الحجابة في مكان أخيه «حفظاً للرسم»، وذلك بإشارة من السلطان أبي سالم المريني الذي ضمه إلى زمرة الأمير محمد الحفصي، عندما جهزه ليستعيد بجاية.

وبقدر ما استطاع الأمير أبو العباس أن يستعيد مدينة قسنطينة بسهولة في شهر رمضان من عام 761 هـ (1360 م) عجز الأمير محمد على استرجاع بجاية، واضطر أن ينسحب إلى مدينة المسيلة واعتصم بها، وطلب من أبي حموموسى الثاني عام 764 هـ (1363 م) أن يساعده في تحقيق هدفه، وكان رسوله إليه هو يحيى بن خلدون الذي وصل إلى تلمسان في شهر صفر من نفس العام، وقضى هناك عدة شهور ينتظر الجواب، واستغل الفرصة للاتصال بكبار العلماء، والاستفادة من علومهم ومعارفهم واستغل فرصة الاحتفال بعيد المولد النبوي لينظم وينشد قصائد شعرية في صفات الرسول وأخلاقه، وسيرته.

ولما لم يحصل على جواب، فقد عاد إلى مدينة المسيلة ليخبر الأمير الحفصي أبا عبدالله محمد، وعاد معه إلى تلمسان بعد حوالي ثلاثة أشهر، في نفس المهمة ووصلا إليها يوم 3 جمادى الثانية عام 764 هـ (1363 م)، ولكن الأمير أبا إسحاق الحفصي، عندما سمع بالخبر، أسرع إلى تلمسان وعرض على أبي حمو أن يعتقل الأمير محمد مقابل قيامه هو باعتقال ابن عمه أبي زيان المتمرد، والمطالب بعرش تلمسان. فاستجاب للعرض لأنه كان قلقاً جداً من أحداث ابن عمه هذا أبي زيان.

فخاب أمل يحيى ابن خلدون، والأمير محمد، وانسحبا بسرعة من تلمسان، والتحقا بأولاد علي بن أحمد، من الذواودة، المستقرين بنواحي الحضنة، ثم بأحلافهم سدويكش، وأقاما هنا مدة في قرية مُقْرَة، حتى سنحت الفرصة لهما، وتمكن الأمير محمد من استعادة بجاية في رمضان عام 765 هـ (1364 م) وعين صديقه ورفيقه يحيى بن خلدون في منصب ووظيفة الحجابة مدة من الزمن، وغزا مدينة دللس شرق مدينة الجزائر في شهر ذي الحجة عام 765 هـ (1364 م) وضمها إلى إمارته بجاية. وبعد مدة تخلى يحيى بن خلدون عن وظيفة الحجابة لصالح أخيه عبد الرحمن لأسباب لا نعرفها ولم يشر إليها لا هو ولا أخوه.

وكان من المفروض أن يسعد الأمير محمد، ويحيى، وعبد الرحمن الخلدونيان، بوضعهم الجديد في بجاية، ولكن عوامل النحس كانت لهم بالمرصاد تلاحقهم، وتطاردهم حيثما حلوا وارتحلوا، وكان السبب هذه المرة ببجاية هو سوء سياسة الأمير أبي عبدالله محمد تجاه سكان بجاية، وتجاه ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة، الذي شنّ عليه الحرب، وهزمه في معركته: فرجيوة، وسطيف، أواخر عام 766 هـ (1365 هـ) واقتحم عليه مدينة بجاية واستولى عليها وقتله بها في شهر شعبان 766 هـ (1366 م).

فخاب أمل يحيى بن خلدون وأخيه، وتخوفاً من الأمير الجديد أبي العباس الحفصي، فغادر عبد الرحمن بجاية بعد أقل من شهر، واتجه إلى شيخ

الذواودة يعقوب بن علي واحتمى به مدة من الزمن، وقام الأمير أبو العباس باعتقال يحيى بن خلدون وسجنه بمدينة عنابة، وحجر أملاكه وأملاك أخيه ببجاية بعد أن قيل له بأنهما يخبئان بدارهما أسلحة وذخائر، وغير مخلصين له.

وبعد فترة من السجن والاعتقال بعنابة تمكن يحيى بن خلدون من الفرار، ومغادرة المعتقل، والتحق بأخيه عبد الرحمن في مدينة بسكرة لدى أميرها وشيخها ابن مزني، وبقي معه إلى أن جاءتهما دعوة من طرف أبي حمو بتلمسان، ليقدما عليه، مع عرض منصب سياسي، اقتضته ظروف وأوضاع سلطان تلمسان.

فقد كان أبو حمو موسى الثاني يواجه مشاكل سياسية معقدة، وخطيرة، خلقها له ابن عمه أبو زيان المتمرد ابن السلطان أبي سعيد الثاني الزياني. ورأى أن يستعين بعرب رياح ضده، وليحيى ابن خلدون وأخيه عبد الرحمن تأثير عليهم، ومعرفة جيدة، فرأى أن يستعين بهما، وكان عرب زغبة خاصة بنو عامر، وسويد، والعطاف، والديالم قد ساندوا أبا حمو في البداية، ثم لما انهزم أمام بجاية انقلبوا عليه، وساندوا ابن عمه أبا زيان الذي تركزت أحداث ثورته في الجهات الشرقية لمدينة وإمارة تلمسان.

وفي خلال شهر محرم من عام 769 هـ (1367 م) قام أبو حمو بحركة متابعة، وملاحقة لابن عمه أبي زيان، ووصل إلى مدينة مليانة، وأقام بها حتى ربيع الثاني، وأرسل إلى مدينة بسكرة المدعو عمر بن محمد بن مجن، رسولاً من قبله إلى يحيى بن خلدون يطلب منه الحضور إلى تلمسان، ويعرض عليه وظيفة سياسية، وطلب منه في نفس الوقت أن يقوم بمهمة لدى عرب رياح الذواودة، وشيخهم يعقوب بن علي بن أحمد، ليتحالفوا معه، وينصروه ضد ابن عمه المتمرد، أبي زيان.

وقد قبل يحيى بن خلدون العرض، والمهمة السياسية التي كلف بها، واتصل بعرب رياح وشيخهم وعرض عليهم رغبة أبي حمو، فرحبوا بها، وأعطوه وعداً بالوقوف إلى جانبه، فشد الرحال إلى تلمسان ليحمل إلى أميرها أبي حمو هذه الأنباء السارة، ووصل إليها في أول شهر رجب من عام 769 هـ

(1368 م)، وبرفقته وصحبته أربعة من أبناء شيخ الذواودة، وحوالي 400 فارساً. ودخلوا في شبه مظاهرة، وموكب حاشد.

فرح أبو حمو بمقدمه، وعينه كاتباً له في ديوانه، وقربه منه، واتخذه مستشاراً، وجليساً، فطاب له المقام، واستقدم أسرته من بسكرة على أمل الاستقرار بها بصفة نهائية.

ويقصّ علينا عبد الرحمن بن خلدون شقيق يحيى هذه الأخبار بكيفية أخرى، ويذكر أنه تولى وظيفة الحجابة والعلامة لأبي حمو بطلب منه، وأورد في تاريخه رسالة أبي حمو إليه في نفس الغرض بتاريخ 17 رجب 769 هـ (1368 م)، واستطرد بعد ذلك قائلاً: «وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ببونة (عنابة). وقدم علي ببسكرة. فعينته إلى السلطان أبي حمو كالنائب عنّي في الوظيفة متفادياً عن تجشم أهوالها بما كنت نزعت عن غواية الرتب، وطال علي إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة عن المطالعة والتدريس، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك ودفعه إليه».

وفي تلمسان مارس يحيى ابن خلدون وظيفته السياسية الجديدة، وانكب على الدراسة والتحصيل، في نفس الوقت، على شيوخها وعلمائها الأجلاء، وعلى رأسهم أبو علي الزواوي الذي نوه به كثيراً في بغية الرواد. وقال عنه بأنه متضلع في علوم كثيرة خاصة علم الكلام، والأصول، والمنطق، والنحو. وبذلك يكون يحيى بن خلدون قد استفاد سياسياً بوظيفة الحجابة لدى السلطان، وثقافياً وعلمياً بدراسته وتعلمه، وتفقهه على علماء المدينة وشيوخها الأجلاء.

وكان من المفروض، والطبيعي أن يتواصل هذا الجو السياسي والثقافي، ولكن عدم الاستقرار بتلمسان والمغرب الأوسط بصورة عامة، عاق يحيى ابن خلدون عن مواصلة عمله السياسي والثقافي، وعاق السلطان أبا حمو موسى الثاني عن بسط نفوذه وسلطانه على البلاد، والقضاء على فتن ابن عمه ومنافسه، أبي زيان، وإخضاع عرب زغبة البدويين إليه.

فقد عادت الخصومات والخلافات بين عرب بين عـام، وسويد،

الزغبيين، بسبب الصراع الحاد بين الأميرين، واضطر أبو حمو أن يخوض عدة حروب ومعارك ضد ابن عمه، وأنصاره.

وفي صفر عام 771 هـ (1369 م) غزا قلعة بني سلامة موطن عرب سويد، وخرب مبانيها، وعمرانها، بعد أن رفض زعيمها أبو بكر بن عريف الانصياع له. واضطر عرب سويد أن يغادروا بلادهم وموطنهم، ويلتحقوا بأبناء عمومتهم بالمغرب الأقصى الذين كان يتزعمهم ونزمار بن عريف، ويخدم السلاطين المرينيين.

وقد تعاونوا معاً على إقناع السلطان المريني عبد العزيز، بغزو مدينة تلمسان وضمها إليه. فاستعد لذلك أواخر نفس العام. وعندما علم أبو حمو بهذه الأخبار غادر تلمسان إلى البطحاء في شرقها من أجل تجنيد الناس لمواجهة هذا الغزو المريني المرتقب وهناك وافاه عبد الرحمن بن خلدون وزعماء الذواودة فعاد بهم إلى تلمسان في أوائل ذي القعدة عام 771 هـ (1370 م)، وعاد يحيى بن خلدون الذي خرج معه في البداية. وسر بلقاء أخيه عبد الرحمن، الذي كان يتوقع أن يقيم معه بتلمسان، ولكنه طلب الإذن في الانصراف، والاتجاه إلى بلاد الأندلس، فأذن له أبو حمو واتجه إلى ميناء هنين ليأخذ من هناك سفينة أو مركباً يقله إلى عدوة الأندلس، ولكن السلطان المريني عبد العزيز أمر بإيقافه وإعادته إلى تلمسان كما مر.

وعندما علم أبو حمو باقتراب السلطان عبد العزيز من تلمسان غادرها، بصحبة أهله، وأولاده، وأنصاره، واتجه إلى منداس بالسرسو في الهضاب العليا وجبال الونشريس، فانفصل هناك عنه بنو راشد، وبنو توجين، والتحقوا بأراضيهم في حوض الشلف، وهاجم عبد العزيز المريني مدينة تلمسان واستولى عليها أواخر شهر محرم عام 772 هـ (1371 م)، وواصل أبو حمو سيره إلى منطقة الزاغر ونزل لدى أولاد يحيى بن علي بن سباع الذواودة، جنوب غرب مدينة المسيلة، واستقر هناك أياماً حتى علم بملاحقة المرينيين له، واقترابهم منه فعزم على الفرار، والالتحاق بالجنوب. وهنا، وفي قمة هذه المحنة، والمصيبة، والكارثة قرر يحيى بن خلدون التخلي عن ولي نعمته أبي حمو،

والانفصال عنه، والعودة إلى تلمسان، للاتصال بصاحب العرش المريني الجديد، والعمل معه إن أمكن. ولسنا ندري الأسباب والدوافع الحقيقية لهذا التصرف من طرف يحيى بن خلدون، أهي وحشة، وخلافات مع أبي حمو أم هو طموح إلى المناصب العليا لدى من بيدهم الحل والعقد بتلمسان، أم هي إشارة من أخيه عبد الرحمن الذي أعيد إلى تلمسان وعاد له اعتباره فأراد أن ينقذ أخاه من سوء المصير الذي كان يتوقعه له مع هذا السلطان الزياني الذي تعصف به الرياح في كل اتجاه، وتداهمه الكوارث والنكبات أنّى حلّ وارتحل؟

وقد ذكر يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد، ما يفيد أن هناك شيئاً، ولكنه امتنع عن الإفصاح عنه فقال: «ومن هنا فارقته أيده الله لخيالات سوداوية اعتورتني، ونزاعات شيطانية تجاذبتني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي. وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي». ثم استدرك قائلاً: «ولولا أن أفصح مستوراً، وأخلد في بطون الأوراق وصماً مشروحاً لأبنت ما جرى وقلت كيف كان، لكن فضله ومجده محا السيئات وجلا بمنصة العفو المحاسن، والاعتراف إنصاف، والندم توبة، ولا ذنب، كما ورد مع إقرار».

وكما قلنا فإن من أهم الاحتمالات تأثير أخيه عبد الرحمن عليه الذي كان يدعو لطاعة السلطان المريني بتلمسان. ونبذ طاعة أبي حمّو الزياني بمنطقة المسيلة والحضنة.

وعندما عاد يحيى إلى تلمسان التقى مرة أخرى بلسان الدّين بن الخطيب ذي الشهرة والمكانة العلمية والأدبية، والسياسية، الذي فر من الأندلس، وتخلى عن مركزه السياسي بعد أن كثر حساده والواشون ضده إلى سلطان بني الأحمر، وبقي يحيى بن خلدون بتلمسان حتى توفي السلطان المريني عبد العزيز، في يوم 22 ربيع الثاني 774 هـ (1372 م) وبويع السلطان الجديد بفاس، فرحل إليها صحبة الوزير ابن غازي، ولسان الدين بن الخطيب، والتحق بهم هناك عبد الرحمن بن خلدون قادماً من بسكرة.

وهناك تفرغ لسان الدين بن الخطيب لتأليف كتابه: «أعمال الأعلام فيمن

بويع قبل الاحتلام» لتبرير صحة مبايعة السلطان المريني الطفل الصغير، الأمير السعيد، فتأثر الأخوان: يحيى، وعبد الرحمن الخلدونيان بذلك العمل على ما يبدو، ولربما سيكون إحدى الدوافع لقيام يحيى بتأليف كتابه: بغية الرواد، وقيام أخيه عبد الرحمن بتأليف كتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر.

وكان من المفروض أن يطيب المقام ليحيى وأخيه في فاس، ولكن الأحداث والمشاغب السياسية سرعان ما عصفت بهما، وبغيرهما من الساسة، حتى السلطان ووزراؤه فقد حدثت اضطرابات سياسية، وفتن داخلية وخارجية بالمغرب الأقصى، وتدخل سلطان غرناطة الأندلسي فيها بسبب مشاكل لسان الدين بن الخطيب، واتصل سرّاً بالقائد محمد بن الكاس ابن عم الوزير بن غازي، واتفق معه على تقديم مساعدة عسكرية له ليجهز على الوزير ابن غازي، وسلطانه الطفل السعيد، ومبايعة أبي العباس أحمد بـن أبي سالم المريني.

ونجحت الخطة والمداخلة، وهزم ابن غازي، وحوصر داخل أسوار فاس. وتخوف لسان الدين بن الخطيب، على مصيره، وتشفع بأبي حمّو موسى الثاني سلطان تلمسان بواسطة يحيى بن خلدون، وكتب إليه رسالة. ونظم قصيدة شعرية في مدحه داخل سجنه، ولكن هذا التشفع لم ينجح، لأن الأحداث تطورت بسرعة، فاستسلم الوزير ابن غازي للمتمردين، وخلع السلطان السعيد، في يوم 6 محرم 776 هـ (1374 م)، واعتقل ابن الخطيب، وقتل بعد أن اتهم بالكفر والزندقة ليلة أول صفر 776 هـ (1374 م).

فشعر يحيى ابن خلدون بعدم الاطمئنان وتخوف من أن يلحقه نفس المصير، خاصة بعد أن عزل من مكان يحميه ويدافع عنه، وهو الوزير ابن غازي، ولذلك غادر فاس بسرعة، وعاد إلى تلمسان ليتصل بأبي حمو الذي انفصل عنه قبل ذلك، منذ أربع سنوات، ووصل إليها في أول ربيع الأول 776 هـ (1374 م) واتصل بالسلطان، واعتذر له عما بدر منه في السابق، وطلـب الصفح والعفـو، فحصل على ما يريد.

وكان رجوعه ذا فائدة لأبي حمو نفسه كذلك لأنه كان يعاني مشاكل

سياسية وعسكرية معقدة. بسبب عداء أشياخ بني عامر له، وهم خصوم تقليديون لعرب سويد. واضطر أن يتحالف معهم حتى يواجه بني عامر في مركز قوة، ولعب زعيمهم وونزمار بن عريف وأبو تاشفين بـن أبي حمو، دوراً هاماً في هذا التقارب، بعد أن كانوا في السابق خصوماً وأعداء له كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

وقد يكون ليحيى بن خلدون دور كذلك في هذا التقارب، بين أبي حمو، وعرب سويد، ولذلك عينه كاتباً له من جديد في ديوان الإنشاء. وسيكون هذا المنصب وهذه الوظيفة سبباً في القضاء على حياته في نهاية المطاف على أيد ابنه المشاغب والطموح، أبي تاشفين.

فلقد كان هناك صراع خفي بين أبي حمو، وابنه أبي تاشفين ولي عهده، الذي برزت شخصيته في هذه الفترة، وأخذ يلعب دوراً في الحياة السياسية للإمارة، وفي اتجاه القصر داخلياً، أقلق أباه، وكاد أن يسلم له كل السلطات في فترة من الفترات بعد أن توثقت صلاته وتمتنت بعرب سويد.

وفي هذا الجو السياسي المضطرب، والمتقلب، تمكن يحيى بن خلدون من إنجاز الجزء الأول من كتابه: بغية الرواد، الذي وصل فيه إلى أواخر عهد أبي حمو موسى الثاني وذكر في مقدمته أن أبا حمو هو الذي أشار عليه بتأليفه، وتردد في البداية ثم امتثل، وذكرنا في السابق بأنه ربما تأثر بعمل لسان الدين بن الخطيب.

وفي عام 777 هـ (1375 م) نشب صراع حاد بين بني عامر، وعرب سويد أثر في أوضاع عرش بني زيان. وانحاز أبو حمو إلى سويد طبعاً. لأن بني عامر خصوم له، وتسبب ذلك في مشاكل وصعوبات للعرش الزياني. تضاعفت وتكاثرت بمرور الزمن. ولم تأت سنة 779 هـ (1377 م) حتى أصبح بلاط بني زيان بتلمسان مسرحاً للمناورات والمؤامرات بين أصحاب السلطة والنفوذ، خاصة بين أبي حمو، وابنه أبي تاشفين.

وحدث ما أقحم يحيى بن خلدون فيها وأدى إلى مقتله.

فقد عين أبو حمو موسى، ابنه أبا زيان حاكماً على وهران بعد أن عزل عن إقليم المدية بالتيطرى، لاتهامه بإجراء اتصالات مشبوهة مع عرب البدو في

تلك المنطقة. ولكن أبا تاشفين لم يرض بهذا الإجراء، وكان يود أن يتولى هو حكم وهران وولايتها نظراً لأهميتها الاقتصادية، والاستراتيجية، ولقربها من العاصمة تلمسان مركز السلطة والنفوذ، وسانده في هذه الرغبة، أصدقاؤه من عرب سويد. وخلق لأبيه أبي حمو مشكلة، وأقلقه بتصرفاته الحمقاء، وجعله يتردّد في اتخاد قرار نهائي في المشكلة. لكونه لم يرد أن يغضب أياً من ابنيه: أبي زيان، وأبي تاشفين، وهداه تفكيره إلى المماطلة ما أمكن هو وكاتبه يحيى.

وكان يرى أن تماطله في اتخاذ القرار سيسمح له بإيجاد مخرج، وهو ما عبر عنه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: «وإنما أسعفه ظاهراً، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بمماطلته في كتابتها حتى يرى المخلص من ذلك».

وقد أذعن يحيى بن خلدون لرغبة أبي حمو، وتأخر في كتابة عقد الولاية. فسعى حساده والحاقدون عليه، لدى أبي تاشفين، وصوروا له وزعموا أن يحيى بن خلدون تماطل في كتابة عهد التولية له على وهران، خدمة لأبي زيان، وكان الذي قام بهذه السعاية والوشاية الكاذبة هو موسى بن يخلف، كما ذكر عبد الرحمن بن خلدون.

فنالت هذه السعاية وفعلت فعلها في نفسية أبي تاشفين، وقرر أن ينتقم منه دون أن يحاول التثبت والتأكد، فاتفق مع بعض صعاليك المدينة لتنفيذ خطته، وفي إحدى ليالي رمضان من عام 780 هـ (1379 م) اعترضوا طريقه وهو عائد من صلاة التراويح بقصر السلطان، إلى منزله، فطعنوه بخناجرهم، وأسقطوه من على دابته، وأجهزوا عليه وقتلوه، ففقدت تلمسان والفكر، والثقافة، علماً من أعلامها التاريخيين.

وعندما انتشر الخبر في الصباح عزم السلطان أبو حمو على إجراء تحقيق، ثم عدل بعد أن علم بمشاركة ابنه أبي تاشفين في المؤامرة، ولم يكتف بهذا بل أنه وافق على تعيين ابنه المتآمر والياً على وهران كما كان يرغب، على حساب حياة صديقه، ورفيقه، وكاتبه، ومؤرخ سيرته وحياة أجداده وتاريخ مدينته، وعاصمة إمارته تلمسان، يحيى بن خلدون.

الشيخ أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم المغيلي

ينتسب محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى قبيلة مغيلة بأحواز تلمسان، وولد وعاش في فترة كانت فيها تلمسان تتخبط في مشاكل وأحداث، وتقلبات، واضطرابات سياسية خطيرة داخلياً وخارجياً.

ففي الداخل هناك صراع حاد بين الأمراء والسلاطين الزيانيين على العرش، والسلطة، والنفوذ، وبين الأعراش، والقبائل المجاورة للمدينة حول المشاكل السياسية والاقتصادية، وحول التنفـذ السياسي، لدى العرش الزياني.

وفي الخارج كثرت غارات القراصنة الأوروبيين المسيحيين خاصة الإسبان والبرتغاليين، على مواني الإمارة الساحلية، وكل سواحل بلدان المغرب الإسلامي الأخرى شرقاً وغرباً على الجبهتين الأطلسية والمتوسطية.

ولا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن عبد الكريم المغيلي لأن الذين ترجموا له لم يحددوا ذلك، وما اطلعنا عليه من كتاباته هو لم تشر إلى ذلك، ولكن يبدو أنه ولد في مطلع القرنين، التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي وذلك استناداً إلى تاريخ وفاته، وحفظ القرآن الكريم في صغره كعادة كل أبناء المسلمين الميسورة، ثم اعتكف على دراسة العلوم العربية الإسلامية، اللغوية، والدينية، العقلية، والنقلية، على الشيوخ والعلماء الأجلاء المشهورين وعلى رأسهم، الشيخ يحيى بن يدير، والشيخ عبد الرحمن الثعالبي، الذي أخذ عنه بصورة خاصة علم التصوف(1).

(1) ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (الجزائر 1908) ص 253 ـ 256
عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. جـ 3. ط 4 (بيروت ـ 1982) ص 71 ـ 75.

وعندما توسعت مداركه ومعارفه، وتزود بما يكفيه تصدى هو الآخر للتدريس كشيخ وأستاذ، فتتلمذ عليه عدد لا بأس به من العلماء والشيوخ أمثال الفقيه أيد أحمد، والشيخ العاقب الأنصمي، ومحمد بن عبد الجبار الفيجيجي، وغيرهم.

وخلال اشتغاله بالتدريس في تلمسان، لاحظ التعفن السياسي الذي يسود عرش بني زيان، والتفسخ والانحلال اللذين يعمان مجتمع المدينة الزيانية، وتكالب القوى الأوروبية ضد البلاد وموانيها ومدنها الساحلية، وضد كل بلدان المغرب الأخرى شرقاً وغرباً. ولاحظ المغيلي كذلك خروج الأمراء عن الجادة الإسلامية، وانغماسهم في الملذات، واستسلامهم لأهواء الأجانب من اليهود، والإسبان، والبرتغاليين، فانف من العيش هناك، وتاقت نفسه للهجرة إلى حيث يكون في مقدوره أن يقوم بواجب الأمر بالعروف والنهي عن المنكر. فغادر تلمسان إلى السودان الغربي في أواخر السبعينات من القرن الخامس عشر الميلادي وقصد واحات توات ووصل إليها في حدود عام 1479 واستقر بعض الوقت لدى أولاد يعقوب في واحة تمنطيط. ثم انتقل إلى واحة بوعلي الهني، وأسس هناك زاويته الدينية التي ما تزال حتى اليوم تحمل اسمه.

أوضاع واحات توات:

وكانت واحات توات في هذه الفترة عبارة عن ممالك وإمارات صحراوية صغيرة، يسيطر على أقدارها السياسية كبار التجار، والأثرياء وذووا الجاه والنفوذ الديني والاقتصادي، ويهتم الناس فيها بصورة خاصة بقوافل التجارة الصحراوية التي تغدو وتروح بين مواني الشمال الساحلية، ومدينة تمبوكتو في أعماق الصحراء الجنوبية، ومن ضمنها القوافل التي تنطلق من وهران، وتلمسان، وفاس، ومراكش، وتمر على واحات توات في ذهابها وإيابها.

فيشترون منها سلعها، ويزودونها بسلع الصحراء المتمثلة في تبر الذهب وسبائكه، وريش النعام، وبيضه، والعبيد، وملح الطعام، والسمن، ومادة النيلة للصباغة، والجلود، والجوز، وبعض الأنسجة الملونة، وتجارة القوافل

الصحراوية في السودان العربي، مربحة كثيراً ولذلك استرعت حتى بعض المغامرين الأوروبيين الذين حاولوا أن يصلوا إليها، ليطلعوا على حقيقة الأمور، وينالوا من ثرواته، وبضائعه خاصة تبر الذهب، والعبيد. ومن هؤلاء الرحالة الجنوي مالفانت الذي غامر ووصل إلى قلب السودان الغربي عام 1447 م.

وكان محمد بن عبد الكريم المغيلي، على علم واطلاع واسع بحقيقة هذه التجارة الصحراوية وما تدره من أرباح، لأن تلمسان في عهده كانت لها صلات تجارية هامة ووثيقة بواحات توات ومعظم مناطق السودان الغربي.

كما أن التلمسانيين كانوا يتخذون لأنفسهم مندوبين وعمالاً تجاريين بأسواق توات والصحراء، يحددون لهم الأسعار الرائجة، ويرسمون لهم السلع المطلوبة، التي ينبغي أن يعدوها ويرسلوها إلى الصحراء لكثرة الطلب عليها، ويتكلفون مقابل ذلك بشراء سلع الصحراء المطلوبة لهم في الشمال.

وقد أشرنا إلى هذا عند الحديث عن علماء أسرة المقري، وتناولناه كذلك في موضوع، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الفرنسيون في القرن التاسع عشر الذي ألقيناه في مؤتمر دولي عام 1980 بمدينة طرابلس الليبية. ونشرناه في مجلة الثقافة[1].

وحتى الأمراء والسلاطين الصحراويون مثل أمراء التكرور كان لهم نشاط تجاري، ومندوبون تجاريون بتلمسان يشترون لهم ما يريدون ويبعثونه إليهم مع القوافل الصحراوية.

وقد أُثر عن السلطان أبي حمو موسى الثاني الزياني، حسب رواية المقري في نفح الطيب قوله: «لولا رغبتي في اتقاء ما يلحق بي من شناعة لما أنزلت ببلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمور الدنيا له تبع»[2].

---

(1) يحيى بوعزيز: طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى. مجلة الثقافة. عدد 59. (سبتمبر، أكتوبر ـ 1980). ص 13 ـ 30.

(2) أحمد المقري: نفح الطيب. جـ 1 (بيروت ـ 1968) ص 556 وما بعدها.

وكان طريق تلمسان إلى توات ومناطق نهر النيجر الأعلى إحدى طرق القوافل التجارية الصحراوية الهامة على أيام المغيلي، وهو الذي سلكه عندما اتجه إلى توات والسودان الغربي، من أجل القيام بالإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي.

وعندما وصل إلى هناك وجد وضعاً دينياً، واجتماعياً واقتصادياً سيئاً وغير متوازن، لا يخدم مصالح السكان الأهالي، وإنما يخدم فئة خاصة من اليهود، وبعض المتعاونين معهم من التجار الشرهين، فشمر عن ساق الجد لتقويمه وإصلاحه ولو بالقوة، والعنف وهو ما حصل فعلاً.

مقاومة تنفذ اليهود في توات:

فقد وجد المغيلي في توات جالية يهودية طاغية، بمالها وثرائها الفاحش الذي اكتسبته بالربا، وتنميه بالتجارة غير المشروعة عن طريق استغلال الضعفاء، واحتكار الأموال وسلع التجارة وبضائعها. وقد هاجرت هذه الجالية اليهودية إلى توات من الأندلس، كما هاجرت جاليات أخرى يهودية إلى سجلماسة، وواد غير، وفعلت نفس الشيء، فطغت، وتجبرت على الأهالي واستغلت سذاجتهم، وطيبتهم، لتحقيق الأرباح الفاحشة.

وقد استغل يهود توات أموالهم وثراءهم الفاحش فتحكموا في القادة والساسة، وتسلطوا عليهم، وأخضعوهم لإراداتهم، ولخدمة مصالحهم الخاصة. وكان مالفانت الجنوي قد لاحظ قبل المغيلي بحوالي نصف قرن، هذه الوضعية السياسية والاقتصادية الخاصة ليهود توات وتمنطيط، وقال: «يتكاثر اليهود هنا (تمنطيط) وتسير حياتهم في سلم وظل الرؤساء الذين يدافع كل واحد منهم على أتباعه، ولهذا يتمتع اليهود بحياة سهلة وتسير التجارة بواسطتهم، ويضع الكثيرون منهم ثقتهم فيهم».

ولا شك أن بعض الأمراء، وزعماء الأسر الغنية في تمنطيط، كان لهم دخل في تنفذ اليهود الديني والسياسي، الذي استغلوه ليمارسوا أعمالاً أخرى خسيسة أبرزها محاولتهم النيل من عواطف المسلمين الديني وكرامتهم.

ومن أغرب الأمور التي كشف المغيلي الغطاء عنها في تمنطيط وجود يهودي متنكر في زي إمام مسلم أَمَّ المسلمين طيلة أربعين عاماً وعندما افتضح أمره بواسطة المغيلي جمع حوائجه وحاول أن يفر فلاحقه المغيلي وتولى قتله بنفسه، وقد أورد هذه القصة: سلكه عبد الرحمن في دراسته عن واحات توات(1).

وزيادة على هذا قام يهود تمنطيط ببناء وتشييد بِيعَةً كبيرة لهم تجاوزت كل الحدود في ضخامتها، كما بنوا بِيَعاً أخرى في واحات توات الأخرى التي يتواجدون فيها، وكأنها مملكة يهودية لهم، وليست أرضاً إسلامية. وقد اعتبر المغيلي ذلك مساساً بالشعور الإسلامي، وكرامة المسلمين الدينية، وتطاولاً على شعب توات المسلم، واعتداء على سيادته الوطنية وآلى على نفسه أن يقاوم هذا التطاول، والاستعلاء اليهودي ويعيد اليهود إلى مكانهم الطبيعي كجالية يهودية في بلاد إسلامية.

وفي نفس الوقت الذي كان فيه المغيلي يخوض هذه المعركة في تمنطيط وواحات توات الأخرى، كان الشيخ سليمان يخوض نفس المعركة ضد الجالية اليهودية في واد غير لنفس الأسباب كذلك.

نماذج من مكر اليهود في العالم الإسلامي:

والغريب والطريف في الأمر، أن اليهود في هذه الفترة كانوا متنفذين كذلك في المغرب الأقصى لدى سلاطين بني مرين، ويعبثون بمصالح المسلمين السياسية والاقتصادية، خاصة هارون اليهودي الوزير الأول للسلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني الذي كان يتحكم في رقاب المسلمين بفاس، ويفعل فيهم الأفاعيل، وشاويل اليهودي الذي كان حاكماً على فاس. وكان ذلك سبباً في قيام مزوار الشرفاء محمد بن علي بن عمران الإدريسي، بثورته وقيامه بقتل السلطان عبد الحق، ووزيره هارون اليهودي، وشاويل، وباقي يهود فاس،

---

(1) SABDERRAH. H MANE SELKA: Notice sur le touat. Bul. So.G. D'ALGER (Alger- 1922). PP. 522-5.

والقضاء على أسرة، بني عبد الحق المرينية ومبايعة الشريف علي الرضا الإدريسي من أسرة بني وطاس عام 869 هـ (1465 م)[1]. وليست هذه أول مرة يتصرف فيها اليهود بمثل هذه الأعمال الدنيئة وهذا المكر والخبث، والخداع، فيجلبون على أنفسهم رد فعل المسلمين وحكامهم، الذين يعملون على إعادتهم إلى رشدهم وصوابهم.

ففي نهاية القرن السادس الهجري (595 هـ) والثاني عشر الميلادي عاقبهم يعقوب المنصور وفرض عليهم لباساً خاصاً يتمثل في قميص طوله وعرضه ذراع، وفي قلانس وبرانس زرقاء، حتى يكونوا معروفين لدى الجميع ولا يقدرون على ممارسة خبثهم، ومكرهم، وخداعهم[2].

وفي عام 648 هـ (1250 م) فرض السلطان محمد المستنصر الحفصي لباساً خاصاً على اليهود بتونس كذلك، لنفس الأسباب والدوافع، بعد أن كثر مكرهم وخداعهم للناس اقتصادياً، واجتماعياً ودينياً. وبالغوا في ممارسة تجارة الربا، والتدخل في شؤون الناس. ولكن اليهود جبلوا على المكر والخبث والخداع عبر التاريخ، وسوف لن يتخلوا عن ذلك، وما هذه الأحداث، بتونس، وفاس، ووادي درعة، وسجلماسة، وتمنطيط، إلا نماذج لنفاقهم الذي لا ينتهي[3]. وليست جرائمهم حالياً بفلسطين، ولبنان، وكل بلدان المشرق العربي، إلا صورة لما قاموا به عبر التاريخ من جرائم وخبائث.

موقف العلماء من دعوة المغيلي ضد يهود تمنطيط:

وكان من المفروض أن تجد دعوة المغيلي في تمنطيط صدى واستحساناً ودعماً وتأييداً، من ذوي الحل والعقد، خاصة الفقهاء، ولكن قاضي توات أبا عبيدالله العصنوني، عارضها ووقف ضدها، واستنكر على المغيلي اتجاهه، فالتجأ إلى علماء فاس، وتلمسان، وتونس، وكاتبهم، واستفتاهم، وطرح

---

(1) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ـ 1966) ص 156.

(2) نفس المصدر. ص 16.

(3) نفس المصدر. ص 33.

عليهم الفكرة، وطلب رأيهم، فأيده البعض، وعارضه آخرون.

وممن عارضه بتلمسان مفتيها ابن زكري، والقاضي أبو زكرياء يحيى بن أبي البركات، وعبد الرحمن بن سبع، وبفاس مفتيها أبو مهدي الماواسي.

جواب الشيخ السنوسي للمغيلي:

ومما جاء في جواب الشيخ السنوسي التلمساني إلى المغيلي نقلاً عن البستان قوله: «إلى الأخ الحبيب القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكورة العلمية، والغيرة الإسلامية، وعمارة القلب بشرف الإيمان، السيد أبي عبدالله محمد بن عبد الكريم المغيلي حفظ الله تعالى حياته وبارك في دينه ودنياه، وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقد بلغنا أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغييركم أحداث اليهود أذلهم الله تعالى وأخمد كفرهم، كنيسة في بلاد المسلمين وأنكم حرضتم أهل تمنطيطة على هدمها فتوقفوا من جهة من عارضكم في ذلك من أهل الأهواء فبعثتم لذلك أسئلة تستنهضون بها همم العلماء لينظروا في ذلك. فاعلم أني لم أر من وقف لإجابة هذا المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفاء غليل أهل الإيمان في المسألة، ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه ونصوع إيقانه، لما يشير إليه الوهم الشيطاني من مداهنة بعض من تتقي شوكته ويخشى وقوع ضرر منه سوى الشيخ الإمام القدوة الحافظ المحقق علم الأعلام أبو عبدالله التنسي أمتع الله به المسلمين، وجزاه خيراً: فقد مد باعه في إبانة الحق، ونشر أعلامه وأطال النفس، وحقق نقلاً وفهماً وبالغ في ذلك حتى أبدى من نور إيمانه الماحي ظلمات الكفر أعظم قبس، انتهى ملخصاً»[1].

---

(1) ابن مريم: البستان. ص 233 ـ 256. ويمكن العودة إلى كتاب مصباح الأرواح في أصول الفلاح للشيخ عبد الكريم المغيلي الذي حققه وقدم له المرحوم رابع بونار ونشره في عقد السبعينات حيث أورد فيه الكثير من ردود العلماء للشيخ المغيلي. كما أورد فيه رسالة المغيلي التي كتبها حول موقفه من اليهود ورأيه فيهم بوضوح.

المغيلي يهدم بيعة تمنطيط:

أخذ المغيلي برأي المؤيدين له، وجمع أصحابه وأنصاره، وطلب منهم أن يحملوا المعاول والفؤوس، ويذهبوا معه لهدم بيعة اليهود فاستجابوا لرغبته، وخربوا بيعة تمنطيط وهدموها عن آخرها كما هدموا البيع الموجودة في الواحات الأخرى، وذلك في حدود عام 1442 ووعد كل من يقتل يهودياً معارضاً بإعطائه سبعة مثاقيل ذهبية. فغضب اليهود، وحقدوا عليه، وصاروا لا يسلمون عليه وعلى أصحابه عندما يمرون عليه، وأخذوا يشيعون بعض الأقاويل ضده، فاغتاظ أصحابه من ذلك، وقاموا برد الفعل، فهاجم المدعو مبروك بن أحمد جمعاً من اليهود في واحة تاخفيف وقتل واحداً منهم.

المغيلي يرحل إلى فاس ليدافع عن قضيته:

ونظراً لتضارب الأقوال وتعارضها في فاس حول موقف المغيلي وعمله وصنيعه هذا، فقد شد الرحال إليها صحبة بعض تلاميذه ليشرح القضية لعلمائها ويوضح أسبابها وأهدافها.

وعندما وصل إليها خص باستقبال حافل في البداية من طرف السلطان والعلماء حتى المعارضين له، ثم لما جمع السلطان العلماء، والفقهاء وتم نقاش القضية في جلسة طويلة، وحادة وساخنة على ما يبدو تمكن الحاقدون على المغيلي من تغيير مجرى القضية. وتغلبوا على عقلية السلطان، وأخرجوا القضية من إطارها الديني والاجتماعي إلى إطار سياسي، وصوروا له المغيلي على أنه صاحب طموح أو طموحات سياسية وأن عمله بتوات يخفي من ورائه أهدافاً سياسية.

غير أن المغيلي دافع بشدة على موقفه، ورفض فكرة الطموح السياسي الذي حاولوا أن يلصقوه به وبقضيته، وأكد أنه تصرف في إطار الشريعة الإسلامية للحفاظ على الطابع الإسلامي والشخصية الإسلامية لشعب توات المسلم، وغادر فاس غاضباً وعاد إلى توات وقلبه يطفح بالمرارة والألم من جراء المواقف السيئة والمؤلمة التي اتخذها أنصاف الفقهاء وأرباع المتفقهين بحاضرة

فاس. وقيل بأنه حلف ألا يجتمع مرة أخرى مع أي سلطان، ولكنه سيلتقي ويجتمع بالسلطان الأسقيا محمد الكبير في ڤاو، ببلاد التكرور وبالأمير أبي عبدالله محمد بن يعقوب في كاتسنا، ويخدمهما ويقدم لهما نصائح، ومواعظ وإرشادات في أسلوب الحكم وسياسة الشعوب. ومبادىء الشريعة الإسلامية.

المغيلي يتنبأ بما يحدث اليوم في فلسطين والمشرق العربي:

لقد أعطى المغيلي بموقفه هذا في توات، وفاس، دليلاً على بعد نظره وقوة حدسه السياسي، فأوضح ما جبل عليه اليهود من مكر وخبث منذ فجر التاريخ حتى اليوم، خاصة مع الشعوب والمجتمعات الإسلامية التي آوتهم، واحتضنتهم، وصانت لهم معتقداتهم الدينية، وعاداتهم وتقاليدهم القديمة، وأفسحت لهم المجال ليصلوا إلى المراتب العليا في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة، ولكنهم اعتادوا على العقوق والجحود والنكران.

لقد ارتكب اليهود مواقف مخزية تجاه الإسلام والمسلمين لن ينساها لهم التاريخ أبداً، فتعاونوا مع المنافقين ضد الرسول عليه الصلاة والسلام في خيبر، وغطفان، وبني قريظة، والمدينة المنورة. وارتكبوا نفس الخيانات مع المسلمين في كل البلاد الإسلامية خاصة ببلدان المغرب والأندلس، وأدرك المغيلي هذا في توات والسودان الغربي، خلال القرنين التاسع الهجري، والخامس عشر الميلادي، كما أدركه آخرون غيره قبله وبعده، وصحت مواقف المغيلي ونبوآته، فعانت الجزائر، وتونس، والمغرب الأقصى، من ويلات مشاكلهم أواخر القرن 18 ومطلع 19 م، وكانوا السبب في احتلالها جميعاً من طرف الاستعماري الأوروبي الفرنسي، وذلك من خلال مشاكل عائلة يوسف باكري، وبوشناق، وأبو قاية، الاقتصادية والسياسية بالجزائر، ومشاكل ضيعة خير الدين التونسي بتونس، ومشاكل الطبيب الفرنسي بالمغرب الأقصى عام 1907، كما كانوا السبب في مشاكل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وابنه، وفي احتلال مصر والشام من طرف الاستعمار الفرنسي، والبريطاني، وفي ضياع فلسطين العربية. ويعرف العالم أجمع ما ارتكبه ويرتكبه اليهود اليوم بفلسطين ولبنان من المجازر الرهيبة ضد إخواننا الفلسطينيين، وذلك بعد حوالي

ستة قرون من أحداث المغيلي وصيحته بتوات، وفاس، وأحداث الشيخ سليمان بوادغير.

المغيلي ينتقل إلى بلاد الهوسة والتكرور في غرب إفريقيا:

وبعد أحداث توات، وتمنطيط، عزم المغيلي وأنصاره على مهاجمة بني وطاس بالمغرب الأقصى الذين كانوا يمالئون اليهود ويستخدمونهم في مناصب عالية بجهات كثيرة من بلاد المغرب الأقصى، ولكن قوات الطرفين لم تكن متكافئة، لأن قوات السلطان أحمد بن يحيى بن عمران كانت أكثر عدداً، وعدة، وتنظيماً، فتفرق أنصاره، وعادوا إلى بلدانهم وديارهم.

أما هو فقد اتجه إلى بلاد الأهير شمال نيجيريا، ومن هناك أخذ طريقه إلى الهوسة، واستقر بمدينة تيڤدا (تيغزة) التي كانت تزدهر بها الحركة الثقافية والتجارية، واشتغل بالتدريس، والوعظ والإرشاد في مساجدها، وسبقته إليها سمعته كعالم ومصلح وكمقاوم للبدع والخرافات ولخبث اليهود ومكرهم.

ومن تيڤدا، انتقل المغيلي إلى كانو، ثم إلى كاتسنا. واستقر هناك بعض الوقت وتزوج وأنجب، واتصل بأميرها أبي عبدالله محمد بن يعقوب الذي طلب منه أنه يكتب له: «جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام». فأجابه لرغبته وكتب له تلك الرسالة وشرح له فيها كيف يمكن أن يحكم بلاده، وشعبه، ورعيته، وفق الشريعة الإسلامية، وأن يقاوم العادات الوثنية.

وقد اتضح من خلال ماكتبه المغيلي في هذه الرسالة أنه على اطلاع، واسع بأوضاع السودان الغربي، السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية، وبسيرة وسلوك أمرائه وسلاطينه وعادات سكانه، كما اتضح أنه كان شديد الحرص على أن يسود الشرع الإسلامي في هذه البلدان، وشعوبها، وحكامها، وأمرائها قولاً، وعملاً.

وبعد إقامة طويلة في بلاد الهوسة انتقل المغيلي إلى بلاد التكرور في فولتا العليا شمال السينيغال، غرب بلاد غانة القديمة، والتحق بمدينة كاغو (ڤاو)

عاصمة مملكة الصنغاي، والتقى بأميرها الأسقيا محمد الكبير الذي حكم من عام 1493 م إلى عام 1528 م وحج عامي 1499 ـ 1500 م، وعندما عاد من حجته وجد قواته العسكرية قد ضمت إلى مملكته بلاد الكبِّي شمال نيجريا الحالية بين مملكة برنو، ومملكة الصنغاي، فجند عدداً من العلماء ليعلموا في تلك الناحية وينشروا الإسلام، ويعاونوا العادات الوثنية. ويبدو أن المغيلي عمل هو الآخر في بلاد الكبي هذه التي زارها، ونشر فيها الإسلام والنظام.

المغيلي يتعرف إلى الرحالة المصري السيوطي:

وقد تعرف المغيلي على الرحالة المصري جلال الدين السيوطي لدى الاسقيا محمد الأول الكبير، الذي كان يعمل عنده كمستشار، وواعظ ومرشد وتحاور معه في عدة قضايا علمية، وفكرية، واختلف معه حول المنطق اليوناني الذي يؤمن به هو، وينكره السيوطي، وجرت بينهما محاورات، ومراسلات طريفة حتى بالشعر.

فقد أنشد المغيلي، رغم أنه ليس بشاعر، أبياتاً يحاجج بها السيوطي حول المنطق اليوناني وقال شعراً:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله   وكل حديث حكمه حكم أصله
أيمكن أن المرء في العلم حجة   وينهي عن الفرقان في بعض قوله
هـل المنطـق المعنـي إلا عبـارة   عن الحق أو تحقيقه حين جهله
معانيه في كل الكلام فهل ترى   دليـلاً صحيحـاً لا يـرد لشكلـه
أرينـي هــداك الله منــه قضيــة   على غير هذا تنفها عن محله
ودع عنك ما أبدى كفور وذمه   رجـال وإن أثبـت صحـة نقلـه
خذ الحق حتى من كفور ولا تقم   دليلاً على شخص بمذهب مثله
عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن بـه لا بهـم إذ هـم هـداة لأجلـه
لئـن صـح مـا ذكرتم فكم هـم   وكم عالم بالشرع باح بفضله

فأجابه السيوطي بأبيات أخرى على غرارها قال فيها:

حمدت إله العرش شكراً لفضله   وأهـدي صـلاة للنبـي وأهلـه

عجبت لنظم ما سمعت بمثله | أتـانـي عـن حبـر أقـر بنبلـه
تعجب مني حين ألفت مبدعاً | كتـابـاً جمـوعـاً فيـه جـم بنقلـه
أقـرر النهـي عـن علـم منطـق | وما قاله من قال من ذم شكله
وسماه بالفرقان يا ليت لم يقل | فذا وصف قرآن كريم لفضله
وقـد قـال محتجـاً بغيـر رؤيـة | مقـالاً عجيبـاً نـائيـاً عـن محلـه
ودع عنك ما أبدى كفور ويعد ذا | خذ الحق حتى من كفور بختله
وقد جاءت الآثار في ذم من حوى | علـوم يهـود أو نصـارى لأجلـه
يحـوز بـه علمـاً لـديـه وأنـه | يعـذب تعـذيبـاً يليـق بفعلـه
وقد منح المختار فاروق صحبه | وقد خط لوحاً بعد توراة أهله
وكم جاء من نهي أتباع لكافر | وإن كان ذاك الأمر حقاً بأصله
أقمت دليلاً بالحديث ولم أقم | دليلاً على شخص بمذهب مثله
سلام على هذا الإمام فكم له | لـدي ثنـاء واعتـراف بفضلـه(1)

المغيلي يقدم أجوبة عن أسئلة الأسقيا محمد الأول:

وخلال إقامة المغيلي لدى الأسقيا محمد الأول سأله أن يكتب له رسالة ينصحه فيها حول سبعة مسائل ذكرها في شكل أسئلة، وطلب منه أن يعرفه بحكم الشرع الإسلامي فيها فرحب المغيلي بذلك وتسلم منه الأسئلة، وقدم له أجوبة إضافية ومفصلة، ودقيقة، عن كل مسألة، وإثبت فيها عمق اطلاعه بأصول الشرع الإسلامي، وفروعه وسعة معرفته بأوضاع البلاد وعادات سكانها وتقاليدها، فحول موضوع الخلافة أوضح أن الذي يتولاها يجب عليه أن يكون واعياً بمسؤولياته وواجباته تجاه رعاياه، وعموم المسلمين بصفة عامة. وحول قضية العلماء المزيفين الذين يدعون أكثر مما يعملون ويعرفون، ويسعون ليتبوأوا مكان الأكفاء من الرجال بواسطة الخداع والتضليل، وذكر أنه يجب الضرب على أيديهم بحزم وشدة، ودون رحمة وشفقة، وهي في نظره إحدى واجبات الأمير المسلم المستقيم الصالح كما أن من واجباته كذلك الضرب على أيدي جميع المخالفين في مملكته الإسلامية.

---

(1) البستان: ص 256 ـ 257.

وبالمقابل فإن من واجبات المسلين أن يخلعوا ويعزلوا الأمير الجائر غير العادل، الذي يتخلى عن مسؤولياته تجاه مجتمعه الإسلامي ورعاياه المسلمين. وزيادة على هذا فقد أوضح المغيلي في أجوبته للأسقيا جوانب كثيرة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الصنغاي في تلك الفقرة، وفي كل المسائل التي تطرق إليها، وبذلك تعتبر وثيقة تاريخية عامة لا غنى للباحثين عنها بالنسبة لتاريخ السودان الغربي[1].

عودة المغيلي إلى توات ووفاته:

بقي المغيلي في بلاد الصنغاي مدة من الزمن يواصل عمله الإصلاحي الديني والثقافي، إلى أن بلغه نبأ قيام اليهود بقتل ابنه الشيخ عبد الجبار في توات فغضب وتألم، وطلب من الأسقيا أن يعتقل كل التواتيين في بلاده ففعل ولم يخالف رأيه، ولكن الشيخ أبا المحاسن محمد، أنكر على المغيلي ذلك وعاتبه، وقال له ما ذنب هؤلاء هنا بالصنغاي، وبما فعله أولئك بتوات فأصغى لرأيه، واستصوبه، وتدخل لدى الأسقيا ورجاه أن يطلق سراحهم فامتثل لرغبته كذلك، وهذا يدل على مكانة المغيلي لديه بحيث يفعل ما يقترحه عليه.

وبعد ذلك عاد المغيلي إلى توات ليرى بنفسه ويعاين ماذا جرى، وعاد معه جمع من أصحابه وتلاميذه ووصلوا إليها في عام 1503، واستقر في زاويته الأصلية بواحة بوعلي حتى توفي في العام الموالي 1504 م (911 هـ) ودفن في زاويته، وقيل أن أحد اليهود الحاقدين عليه ذهب إلى قبره وتبول عليه فأصيب العمى.

آثار المغيلي الفكرية:

خلف المغيلي وراءه تلاميذ كثيرين يعدون بالآلاف في غرب إفريقيا، ما يزالون حتى اليوم يدينون له بالولاء الفكري والأدبي، ويعترفون بفضله على مجتمعاتهم السودانية الإسلامية، وكتب كثيرون عنه وعن سيرته الشخصية

---

(1) حقق الأستاذ عبد القادر زبادية هذه الأسئلة والأجوبة ونشرها تحت عنوان: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي (الجزائر ـ 1974) 70 ص.

والاجتماعية، والثقافية، مثل أحمد بابا التنبكتي، وابن مريم المليتي، والزركلي، وحسن غوارزو، وبروكلمان، وزبادية، والمقري، واليفريتي، وغيرهم، وعدوه من كبار المصلحين ببلاد السودان الغربي خلال القرنين التاسع الهجري، والخامس عشر الميلادي. ومع ذلك فإن جوانب كثيرة من حياة المغيلي، ونشاطه العلمي، والفكري، والأدبي ما تزال مجهولة وتحتاج إلى بحث وتدقيق، وتمحيص، وفرز. إن جهود المغيلي في قوات والسودان الغربي رائدة حتى في المجال السياسي، وجدير بأن يخلد عمله بإبراز آثاره الفكرية والأدبية، وإقامة معهد علمي إسلامي باسمه يواصل رسالته الحضارية.

وقد خلف المغيلي من ورائه كذلك إنتاجاً فكرياً غزيراً في ميدان التأليف، وما يزال الكثير منه مخطوطاً، ومحفوظاً لدى تلاميذه والمتشيعين له من الأسر الإسلامية في بلاد السودان الغربي، ومن ضمن ذلك حسبما ورد في البستان لابن مريم:

1) البدر المنير في علوم التفسير.
2) تفسير سورة الفاتحة في ورقة واحدة.
3) مصباح الأرواح في أصول الفلاح، يقع في كراسين اثنين وأشاد به الشيخ السنوسي، وابن غازي. وحققه ونشره الأستاذ رابح بونار.
4) مغني الخليل وهو شرح على مختصر خليل وصل فيه إلى موضوع القسمة بين الزوجين.
5) إكليل معنى النبيل، وهو شرح على مغنى الخليل.
6) إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل.
7) شرح بيوع الآجال.
8) مختصر تلخيص المفتاح، وشرح علمه.
9)مفتاح النظر في علم الحديث.
10) شرح على جمل الخونجي في علم المنطق ومقدمة عليها.
11) تأليف في المنبهات.
12) منح الوهاب منظومة في علم المنطق وضع لها ثلاثة شروح.

13) تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين.
14) شرح خطبة المختصر.
15) مقدمة في العربية وفهرسة لمروياته.
16) كتاب الفتح المبين.
17) أجوبة على أسئلة الأسقيا محمد الأول الكبير.
18) جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام.
19) عدة قصائد منها الميمية على وزن البردة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام.

علماء أسـرة المقـري

أصل الأسرة وهجرتها إلى تلمسان:

تنتمي إسرة المقري إلى قرية: مقرة، قرب مدينة المسيلة، وقلعة بني حماد، بجبال الحضنة، والزاب، جنوب الإقليم القسنطيني. هاجرت هذه الأسرة في وقت مبكر إلى تلمسان، بعد أن هاجر إليها أبو مدين شعيب بن الحسين أواخر القرنين: 6 هـ و12 م.

وكان أول من هاجر من هذه الأسرة، عبد الرحمن ابن أبي بكر بن علمي المقري صاحب أبي مدين شعيب الذي «دعا له ولذويه بما ظهر فيهم قبوله وتبين» كما ذكر ذلك صاحب نفح الطيب[1].

وكان دور هذه الأسرة المقرية بتلمسان، كدور عائلة ابن مرزوق العجيسية فاشتغل أفرادها بالتجارة، والعلم، والتعليم، وبرز منها تجار، وعلماء، وفقهاء وأدباء مبرزون كانت لهم مكانتهم في العواصم العلمية الإسلامية بالمشرق والمغرب الإسلاميين، وبالأندلس، كتلمسان، وفاس، وغرناطة، والقاهرة، ودمشق، وبيت المقدس، ومكة، والمدينة، وغيرها.

اشتغالها بالتجارة:

وفي بداية أمر هذه الأسرة بتلمسان اشتغل أفرادها بالتجارة التي كانت

---

(1) أحمد المقري: نفح الطيب ج 1 ص 556 جـ 5 (1971) ص 203 ـ 204، 284 ـ 340. وجـ 7 ص 133 ـ 134. ويمكن العودة كذلك إلى الإحاطة لابن الخطيب. جـ 2. ص 136. ونيل الابتهاج لأحمد بابـا. ص 149. وسلوة الأنفاس. جـ 3 ص 271. والتعريف بابن خلدون. ص 59. والمرقية العليا. ص 196.

مزدهرة كثيراً مع الأقاليم الصحراوية الجنوبية. في إطار تجارة القوافل الصحراوية، ومهدوا طرق القوافل التي يسلكها التجار إلى الأسواق التجارية بالصحراء. وحفروا الآبار لتوفير المياه، وتأمين حياة التجار، واتخذوا لأنفسهم طبلاً لإعلان الرحيل، وراية للقافلة عند المسير.

وألف أبناء يحيى بن عبد الرحمن المقري، الخمسة شركة تجارية لهم، واتفقوا على اقتسام كل ما ملكوه، ويملكونه، بالتساوي فيما بينهم، ووزعوا الأعمال على الشكل التالي:

استقر أبو بكر، ومحمد، بتلمسان، واستقر أخوهما عبد الرحمن بسجلماسة واستقر الشقيقان الأصغران، وهما: عبد الواحد، وعلي، بقرية أيولاتن في الصحراء.

واتخذوا لأنفسهم في كل تلك البلدان، الديار، والمزارع، وتزوجوا، واستولدوا الإماء.

وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد، والعاج، والجوز، والتبر. والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان، ويكاتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الضَخامة أحوالهم.

وسارت أمور تجارتهم على ما يرام إلى أن قام التكرور بغزو وفتح كورة أيولاتن، وأعمالها. فتعرضت تجارتهم للبوار، والخسران. واتصل أحد الأخوين بملك التكرور ولاطفه، وتقرب منه، فمكنه من ممارسة التجارة في جميع جهات مملكته، فتذللت لتجارتهم الوسائل والسبل مرة أخرى، ونمت أرباحهم وتضاعفت حتى فاقت الحد، وكادت تفوت الحصر والعد.

وبقيت الأمور هكذا طيلة حياتهم، وعندما ماتوا، توقف أبناؤهم وأحفادهم عن العمل التجاري، وأخذوا فقط، ينفقون مما خلفه لهم آباؤهم دون العمل على استثمارها وتنميتها.

وزيادة على هذا تسلط عليهم جور السلاطين، وكثرت الفتن والاضطرابات، فأخذت أموالهم تقل وتنقص حتى كادت تضمحل تماماً. ولم يدرك منها محمد المقري في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) «إلاّ أثر نعمة قليلاً اتخذ فضوله عيشاً وأصوله حرمة، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة، تعين على الطلب». فتفرغ لطلب العلم على علماء تلمسان المقيمين بها والوافدين عليها.

وسنترجم لثلاثة من علماء هذه الأسرة وهم:

- أبو عبدالله محمد المقري.
- وأبو سعيد بن محمد المقري.
- وأبو العباس أحمد المقري.

الشيخ أبو عبدالله محمد المقري:

ولد أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد ابن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن علي المقري، بتلمسان خلال إمارة أبي حمو موسى الأول بن عثمان بن ياغمراسن بن زيان في أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) واعتكف في صغره على حفظ القرآن الكريم، ثم تصدى لتعلم العلوم والمعارف العربية الإسلامية، على شيوخ تلمسان وعلمائها الأجلاء أمثال: ابني الإمام، وعمران المشدالي، وإبراهيم السلاوي، والقاضي محمد بن عبد النور، والمجاصي، والقاضي حسن السبتي وابن هدية القرشي، ومحمد التميمي، ومحمد الباروني، وموسى المصمودي، وابن النجار والمكناسي، والزبيدي التونسي، وعبد المهيمن الحضرمي، والسطي، والرندي والجزولي، وابن مرزوق العجيسي، والصنهاجي، والآبلي، وغيرهم.

رحلته إلى بجاية وتونس:

وعندما استوعب ما عند هؤلاء الشيوخ من العلوم والمعارف بتلمسان، تأقت نفسه للاستزادة منها عند غيرهم. فشد الرحال إلى بجاية، وتتلمذ على الفقيهين: محمد بن يحيى الباهلي، ومحمد بن يعقوب الزروالي. وعلي

حسين بن الحسين، وأحمد بن عمران، وأبي عزيز، وأبي موسى ابن فرجان. ونهل ما عندهم من معارف وعلوم كذلك.

ثم رحل إلى تونس عبر مدينة قسنطينة، وتتلمذ هناك على قاضي الجماعة، وفقيهها ابن عبد السلام، وقاضي الأنكحة أبي محمد الأجمي، والفقيه ابن هارون، والخطيب ابن عبد الجبار، والعلامة ابن الجياب، والفقيه ابن سلمة، وأبي الحسن المنتصر، والزبيدي. وأخذ عنهم علوماً كثيرة، وروى، وتفقه، وتأدب. واكتسب معارف جديدة، ومكثفة.

عودته إلى تلمسان ورحلته إلى فاس:

ولا ندري بالضبط كم استغرقت رحلة محمد المقري إلى بجاية وتونس، ومتى بدأت، ومتى انتهت. ولكنه عاد إلى تلمسان ومنها شد الرحال إلى المغرب الأقصى. بقصد الالتقاء برجال العلم، والاستفادة من علومهم ومعارفهم، وربط الصلة معهم. فمر على مدينة تازة، واجتمع بعلمائها، ومنها اتجه إلى فاس ومتن صلاته بشيوخها وعلمائها. وأخذ عنهم ما كان يصبو إليه، ومنهم: اليزناسي، والفقيه عبد المؤمن الجاناتي، وأبو زرهون القيرواني، والجزولي، والمكناسي، واستفاد من علومهم وتجاربهم في التدريس.

ومن فاس اتجه إلى أغمات، ثم إلى سبتة، للاتصال والتعرف بالعلماء المشهورين الذين يمكن أن يستفيد منهم وهو ما عناه بقوله: «فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد من لا بد من لقائه من علمائه وصلحائه».

سفره إلى الحجاز:

وبعد هذه الجولة العلمية في مدن المغرب الأقصى، عاد مرة أخرى إلى تلمسان، وعزم على الرحلة إلى الحجاز كعادة غيره من العلماء والصلحاء، لأداء فريضة الحج، والاتصال بالعلماء والصلحاء للاستزادة من علومهم ومعارفهم. وذهب فعلاً إلى المشرق عام 744 هـ (1343 ـ 1344 م) ولم يحدثنا عن الطريق الذي سلكه، والوسيلة التي استعملها في سفره. قد يكون أخذ الباخرة بحراً، وقد يكون سافر مع بعض القوافل البرية.

وعندما وصل إلى القاهرة، اتصل بعلمائها المشهورين، واعتكف على الدراسة عنهم، ومنهم: أبو حيان الغرناطي، وشمس الدين الأصبهاني، وشمي الدين بن عدلان، وشمس الدين بن اللبان، والفقيه أبو محمد المنوني، وتاج الدين التبريزي، وغيرهم. ولا شك أنه استفاد من علومهم ومعارفهم الإسلامية خاصة: الفقه، والحديث والأصول، والتفسير.

ومن مصر شد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وذلك في نفس السنة 744 هـ. وأدى مناسك الحج، والتقى بالعالم التوزري التونسي المشهور الإمام أبي عبدالله خليل بمكة وتعرف عليه، ولعله أخذ عنه بعض الدروس، ثم رحل إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، والتقى هناك بالعالم الأثيوبي المشهور أبي محمد عبد الوهاب الجبرتي، ووثق صلاته به، ولربما استفاد من بعض علومه ومعارفه خاصة التاريخ.

ومن المدينة المنورة أخذ طريقه إلى بلاد الشام، وزار مدينة دمشق، واجتمع بالعالم ابن قيم الجوزية صاحب العالم الفقيه ابن تيمية. وتعرف على صدر الدين الغماري المالكي، وأبي القاسم ابن محمد اليماني الشافعي وغيرهم واستفاد منهم.

ومن دمشق قصد بيت المقدس بفلسطين، وزار مقام إبراهيم الخليل في الخليل وباقي مزارات الأنبياء والرسل. والمسجد الأقصى، والتقى هناك بالعالم أبي عبدالله بن مثبت، والقاضي شمس الدين بن سالم، والفقيه ابن عثمان.

عودته إلى تلمسان:

وبعد هذه الرحلة الطويلة والعريضة إلى عواصم المشرق الإسلامي، للحج، والدراسة، والتعرف، عاد محمد المقري إلى بلده، ومسقط رأسه تلمسان، واستقر بها، وتفرغ للتدريس، والتعليم وظهر تفوقه في علوم اللغة والآداب العربية، والفقه، والحديث والتفسير، وفي التاريخ، والسير، والمنطق، والأصول، والجدل وقول الشعر، بل وحتى في التصوف.

وأقبل عليه طلبة العلم للاستفادة من غزارة علومه، المتعددة، والمتنوعة

كما ذكرنا، وازدحموا حول حلقاته في مساجد تلمسان، ومدارسها.

وخلال انشغاله بالتدريس، اهتم بالتدوين والتأليف، وشرح بعض الكتب والقصائد الشعرية. ووضع بعض الموجزات والمختصرات، لبعض الكتب الطويلة، ومن ضمن التلاميذ الذين لازموه واستفادوا من علومه ومعارفه: لسان الدين بن الخطيب كاتب ووزير غرناطة المشهور، والوزير ابن زمرك، وأبو عبدالله القيجاطي، والفقيه أبو عبدالله محمد الصنهاجي الزموري نقشابو، وعبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى، وأبو إسحاق الشاطبي والعلامة محمد بن عبدالله بن جزي، والحافظ بن علاق، والشيخ العارف محمد بن عباد الرندي شارح حكم ابن عطاء الله المشهور(1).

سفره في مهمة إلى الأندلس:

وخلال إقامة محمد المقري بتلمسان قام برحلة إلى الأندلس عبر سجلماسة ووادي درعة، وزار كلاً من: الجبل، واصطبونه، ومربلة، وبلح، والحامة، وغرناطة. ثم عاد إلى تلمسان، وانقطع للتعليم والتدريس مدة طويلة، إلى أن قام السلطان المريني أبو عنان بغزو تلمسان، فاصطفاه ضمن من اصطفاهم من العلماء، وقربهم منه، وصحبه معه إلى فاس بعد عودته إليه، وأسند إليه وظيفة قاضي الجماعة: «فاستقل بها أعظم استقلال وأنفذ الحق وألان الكلمة، وآثر التسديد وحمل الكلّ، وخفض الجناح، فحسنت عنه القالة، وأحبته الخاصة والعامة»(2).

بقي في هذا المنصب، وهذه الوظيفة ما شاء الله ثم أقيل عنها لأسباب لم يذكرها حفيده أحمد المقري. وكلفه أبو عنان بمهمة سياسية لدى سلطان غرناطة بالأندلس، فذهب إليه في أوائل شهر جمادي الثانية لعام 757 هـ (1356 م) عبر مضيق جبل طارق. وسلم الرسالة التي حملها، إلى سلطان غرناطة، وأدى المهمة التي أنيطت به.

(1) نفح الطيب جـ 5. ص 340 ـ 341.
(2) نفس المصدر، ص 102 ـ 109.

وخلال عودته انفصل عن رفاقه الذين سافروا معه من أعضاء الوفد، واتجه إلى مالقة وأعلن عن رغبته في الانقطاع للعبادة والتهدج، والتخلي عن كل المهن والوظائف الدينية، والسياسية. ومن مالقة عاد إلى غرناطة واعتكف في مدرسة خاصة للتبتل والعبادة والتزهد، وانقطع عن الناس تماماً، ولا يخرج إلا للصلاة أو قضاء الحاجة، ولا شك أن هناك من كان يساعده في مأكله ومشربه، ويعطف عليه من الناحية العلمية وقد يكون موقفه هذا رد فعل عن عزله من وظيفته كقاضي للجماعة بفاس.

ولما بلغ الخبر إلى أبي عنان بفاس غضب عليه، واستنكر تصرفه، واتهمه بالتواطىء على القيام بأعمال غير شريفة، وأرسل في طلبه إلى صاحب غرناطة فتشفع له واعتذر عن تصرفه، وأكد رغبته في الزهد والتبتل، والانقطاع للعبادة. وحصل له على أمان من سلطان فاس، وأرسل معه عند سفره وعودته إلى هناك العالمين الجليلين: قاضي الجماعة أبا القاسم الحسني، والشيخ الخطيب أبا البركات ابن الحاج، رافقاه إلى فاس ومعهما رسالة إلى أبي عنان كتبها وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب السلماني تحمل تاريخ 21 جمادى الثانية 757 هـ (1356 م)، شرح فيها حال محمد المقري المتشفع فيه، وظروف انقطاعه للعبادة بغرناطة، فتقبل أبو عنان ذلك، وعفا عنه ولم يلحق به أي أذى.

وفاته:

بعد عودته إلى فاس، اعتكف في منزله، وعاد إلى التعليم والتدريس، ولم يطل عمره كثيراً. فبعد عامين من هذه العودة، وهذه الأحداث، توفي بفاس يوم الأربعاء 29 جمادي الأولى عام 759 هـ (1358 م) وحملت جثته إلى تلمسان ودفن بها في البستان الملاصق لقبلي داره الكائنة بباب الصرف الذي أصبح فيما بعد ملكاً لورثة الشيخ أبي يحيى الشريف، حسبما ذكر ذلك ابن مريم في كتابه البستان.

مؤلفات محمد المقري:

كان محمد المقري عالماً كبيراً، أثر في الجيل الذي عاصره والأجيال اللاحقة به. وألف عنه ابن مرزوق الحفيد العجيسي كتاباً سماه: «النور البدري

في التعريف بالفقيه المقري» أشاد فيه بعلمه، وثقافته، وتدينه، وتفقهه الواسع للشريعة الإسلامية، وأصولها. وقد خلف محمد المقري عدداً لا بأس به من الكتب، والمؤلفات والملخصات في أغراض شتى أهمها:

1) القواعد وبه 1100 مسألة فقهية.
2) الظرف والتحف.
3) اختصار المحصل. ولم يكمله.
4) شرح جمل الخونجي في المنطق. لم يكمله.
5) عمل من طبّ لمن حبّ، في الطرف والحكايات، والحكم، والفقه والأصول، والاصطلاحات اللفظية، واللغوية.
6) المحاضرات. في الحكايات، والإشارات، والطرف.
7) الحقائق والرقاق في التصوف، شرحه الشيخ زروق.
8) شرح لغة قصائد المغربي الخطيب.
9) مقالة في الطلعة الملكية.
10) شرح التسهيل في الفقه.
11) النظائر.
12) كتاب المحرك لدعاوى الشر من أبي عنان.
13) إقامة المريد.
14) رحلة المتبتل.
15) حاشية على مختصر ابن الحاجب الفقهي[1].

الشيخ سعيد بن أحمد المقري

ولد أبو سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري بمدينة تلمسان عام 928 هـ (1522 م)، وهو حفيد حفيدة محمد بن مرزوق أبي لحيتين، حفظ القرآن الكريم على الشيخ حاجي الوهراني، وأخذ عنه لباس الخرقة في علم التصوف.

(1) نفس المصدر جـ 5. ص 284 ـ 340.

ودرس الفقه، والأصول، والمنطق، على الشيخ محمد بن عبد الرحمن الوعزاني، والعربية على الشيخ عمر الراشدي، وشقرون بن هبة الوجديجي، والشيخ محمد أبي السادات المديوني. وأخذ علم التصوف على الشيخ علي بن يحيى السلكسيني والشيخ حاجي الوهراني كما سبق. وكان يميل كثيراً إلى علم التوحيد، والتصوف كما كان صاحب باع طويل في علوم الحديث، والتوحيد، والفقه، واللغة، والشعر والأمثال، وأخبار الناس، ومذاهبهم، وأيام العرب، وسيرهم، وحروبهم، وسير الصالحين والأولياء، ومذاهب الصوفية. وقد اعتبره البعض إماماً في العلوم العقلية كالحساب، والفرائض، والمنطق، والهندسة، والطب، والتشريح، والتنجيم والفلاحة وأمور البناء، وفي العلوم القديمة والحديثة.

مارس التدريس لكثير من العلوم العقلية والنقلية بمدينة تلمسان، ودرس عليه جيل من طلبة العلم وتخرجوا عليه ومنهم: محمد العشوي الندرومي، ومحمد الشمور وأحمد بن أبي عبدالله اليزناسي، وأحمد ابن أبي مدين. وأحمد بن رقية المديوني وأحمد بن محمد المقري، ابن أخيه صاحب كتاب نفح الطيب، ومحمد بن قاسم الحويل والحاج بن قاسم العبادي وآخرون غيرهم.

تولى منصب القضاء بتلمسان حوالي 46 عاماً، وهي مدة طويلة جداً تكشف على باعه الكبير في علوم الفقه والشريعة الإسلامية، كما تولى منصب الإفتاء بها.

كان ما يزال حياً عام 1011 هـ (1602 ـ 1603 م) ولا ندري بالضبط متى مات، ولكنه سوف يكون في حدود عام 1020 هـ أو قبلها بقليل.

الشيخ أبو العباس أحمد المقري

ميلاده ونشأته:

ولد أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري الملقب بشهاب الدين عام 986 هـ (1577 ـ 1578 م) بتلمسان وذلك اعتماداً على رواية عبد الوهاب بن منصور محقق

كتاب روض الآس. وحفظ القرآن الكريم في صغره، واعتكف على دراسة العلوم العربية الدينية، واللغوية، والأدبية. فدرس على عمه أبي سعيد المقري السابق الذكر، صحيح البخاري، وكتب الحديث الستة المشهورة. وغيرها، كما درس على علماء آخرين ذوي شهرة ومكانة(1).

رحلته إلى فاس ومراكش:

وبعد أن بلغ سن الرشد تاقت نفسه لزيارة العواصم العلمية بالمغرب الأقصى فرحل إلى فاس عام 1009 هـ (1600 ـ 1601 م)، كما فعل جده محمد المقري الذي قضى بها سنوات طويلة عالماً، ومدرساً، وقاضياً للجماعة، وهناك اعتكف على الدراسة والتحصيل، ومتن صلاته بالشيوخ والعلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس والتعليم.

ويبدو أنه كان له نشاط واسع سمح له بأن يشتهر فتعرف عليه الفقيه إبراهيم بن محمد الآسي أحد قواد السلطان أحمد المنصور الذهبي، وأعجب به وبذكائه ونباهته، وصحبه معه إلى مدينة مراكش بعد حوالي عام وزيادة من إقامته بفاس، وقدمه للسلطان وزكاه وأشاد به.

وهناك بمراكش تعرف أحمد المقري على العالم التنبكتي المشهور أحمد بابا صاحب كتاب نيل الابتهاج الذي كان في إقامة جبرية هناك بعد غزو السلطان أحمد المنصور لبلاده. كما تعرف على عدد آخر من علماء مراكش وأدبائها، واستفاد من علومهم ومعارفهم، وتجاربهم وكانت سفرته هذه إلى فارس ومراكش سبباً في تأليفه لكتابه: «روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس». وذلك بعد أن سافر إلى فاس وأتمه بتلمسان عندما

---

(1) من الذين ترجموا لأحمد المقري: محمد الأفراني في صفوة من انتشر. ص 72. والأجيمي في خلاصة الأثر. 1. ص 320. والقادري في نشر المثاني. 1. ص 157. والخفاجي في ريحانة الألباب. 2. ص 174. ومحمد بن منصور في روض الآس المعطار. ومحمد حجي في الزاوية الدلائية. ص108 ـ 113. والجنحاني في ترجمة المقري. واليواقيت الثمينة. 1. ص 29. ونفح الطيب للمترجم نفسه، جـ 1. و5. وأزهار الرياض، وفتح المتعال.

عاد إليها عام 1011 هـ (1602 م). وكان في نيته أن يقدمه إلى السلطان أحمد المنصور. ولكن هذا السلطان سرعان ما توفي عام 1012 هـ (1603 م) قبل أن يعود هو إلى فاس.

وفي عام 1013 هـ (1604 ـ 1605 م) عاد أحمد المقري مرة أخرى إلى فاس وأقام بها حوالي خمسة عشر عاماً كاملة بصفة متوالية. وتولى بها الإمامة، والفتوى، والخطابة، وغيرها من الوظائف الدينية، في جامع القرويين. وارتفع شأنه حتى أصبح شخصية مرموقة يجله الجميع ويحترمه. ولا شك أنه استفاد من مركز وسمعة جدّه محمد المقري الذي ما يزال يذكر آنذاك على كل الألسنة.

عاش أحمد المقري أحداث فاس، والمغرب الأقصى في هذه الفترة. فمات أحمد المنصور، وتنازع من بعده أبناؤه على العرش والسلطان، وكثرت غارات الإسبان والبرتغاليين على مدن وسواحل المغرب، بعد أن تم طرد كل مسلمي الأندلس حتى المتنصرين منهم عام 1610 م (1019 هـ)، واستولوا على مدينة العرائش التي سلمها لهم الشيخ المأمون أحد أبناء أحمد المنصور، وحاول أن يرغم العلماء على إصدار فتوى تبيح له تسليم تلك المدينة إلى الإسبان مقابل مساعدتهم له على الاستيلاء على عرش فاس. فهاجر أغلبهم المغرب حتى لا يتورطوا في مثل تلك الجريمة السياسية والعسكرية، والخلقية، في آن واحد.

أحمد المقري يتولى وظيفة الإفتاء بفاس:

صبر المقري وتحمل هذه الأحداث على مضض، وعين مفتياً بفاس عام 1022 هـ (1613 م)، بعد أن توفي شيخه محمد الهواري الذي كان يلي ذلك المنصب، واستمر في وظيفته هذه حتى عام 1027 هـ (1618 م) ثم قرر مغادرة فاس لظروف أشار إليها مجرد إشارة، ولم يشرحها ويفصلها.

غير أن محمد حجي، والجنحاني، ذكرا أن أحمد المقري اتهم بميوله وولائه لبعض القبائل الشرقية بشرق المغرب التي كانت تعادي السلطان محمد الشيخ السعدي.

ومهما يكن من أمر فإنه غادر فاس وقال: «ثم ارتحلت بنية الحجاز، وجعلت إلى الحقيقة المجاز»، واستأذن من الأمير عبدالله بن الشيخ السعدي، فأذن له ولا يستبعد أن يكون الحسد والغيرة من طرف بعض الحساد المنافسين له من طبقته، ضمن الأسباب والدوافع لمغادرته لفاس، والمغرب الأقصى بصفة كلية.

رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج:

ففي أواخر شهر رمضان من عام 1027 هـ (1618 م). غادر أحمد المقري مدينة فاس، في طريقه إلى المشرق، وقال: «لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب، أو ردّ، ولا محيد عما شاءه سواه كره ذلك المرء أو ردّ، برحلي من بلادي ونقلتي عن محل طارقي وتلادي، بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً، وطما به بحر الأهوامل فاستعلمت شعراء العبث في كامل رونقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووقصاً». وهذا يؤكد كيد الكائدين والحساد له.

وأخذ طريقه إلى ميناء تيطوان على ساحل البحر المتوسط الغربي. ووصف خطواته إلى هناك بقوله: «ثم جد بنا السير في البر أياماً، ونأينا عن الأوطان التي أطنبنا في الحديث حباً لها وهياماً، وكنا عن تفاعيل وصلها نياماً، إلى أن ركبنا البحر وحللنا منه بين السحر والنحر، وشاهدنا من أهواله وتنافي أحواله ما لا يعبر عنه ولا يبلغ كنهه».

وصل أحمد المقري إلى تطوان في شهر ذي القعدة من نفس العام، وركب السفينة مع من كان معه من الرفقاء، ونقلتهم إلى تونس عبر بجاية، ومن هناك إلى سوسة وصفاقس وجربة، وطرابلس، في طريقهم إلى الإسكندرية، وتعرض خلال رحلته إلى مخاطر الطبيعة، ومخاطر القراصنة الأوروبيين، وتحدث عنها. في كتابه نفح الطيب.

فقال عن مخاطر البحر وأمواجه وعواصفه: «فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر وطارت إلينا من سراعه عقبان كواسر قد أزعجتها أكف الريح من وكرها،

كما نبهت اللجج من سكرها، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها. فسمعنا للجبال صفيراً، وللرياح دوياً عظيماً، وزفيراً، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيراً وخفيراً، (وإذ مسكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه)، وأيسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه. فلا حيا الله ذلك الهول المزعج، ولا بياه، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب، فكأنه من كأس الجنون يشرب، أو شرب، فيبتعد ويقترب، وفرقه تلتطم وتصطفق، وتختلف ولا تكاد تتفق، فتخال الجو يأخذ بنواصيها، وتجذبها أيد له من قواصيها حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها، وعنان السحب يخطف في استقلالها، وقد أشرفت النفوس على التلف من خولها واعتلالها. وتراءت في صورها المنون، والشراع في قراع مع جيوش الأمواج التي أمدت منها الأفواج بالأفواج، ونحن قعود، كدود على عود، ما بين فرادى وأزواج. وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا، وخرست من الغرق ألسنتنا، وتوهمنا أنه ليس في الوجود أغوار ولا نجود إلاّ السماء والماء، وذلك السفين ومن في قبر جوفه مدفون».

وقال عن مخاطر القراصنة المسيحيين خاصة فرسان مالطة: «مع ترقب هجوم العدو في الرواح والغدو، لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب دمر الله سبحانه من فيها، وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب، لا سيما مالطة الملعونة التي يتحقق من خلص من معرتها، أنه أمدّ بتأييد إلّهي، ومعونة، فقد اعترضت في لهوات البحر الشامي شجا، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا، فزادنا ذلك الحذر الذي لم يبق ولم يذر على ما وصفناه من هذا البحر قلقاً. . . فكيف وانضم إليه خوف العدو الغادر الخائن، والكافر الخائن، إلى أن قضى الله سبحانه وتعالى بالنجاة».

وعندما تراءى له ساحل مدينة الإسكندرية آخر عام 1027 هـ (1618 م) فرح فرحاً شديداً، وبدت عليه تباشير السرور، والارتياح، ووصف ذلك بقوله: «فرأينا البر وكأنا لم نره، وشفيت به أعيننا من المرة وحصل بعد الشدة الفرح، وشممنا من السلامة أطيب الأرج. فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب. . . ثم وصلنا بعد خوض غمار بحار يدهش فيها الفكر وبحار، وجوب

فياف ومجاهل يظل فيها القطا عن المناهل، إلى مصر المحروسة، فشفينا لرؤيتها من الأوجاع، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التي تعجز عن وصفها القوافي والأشجاع[1].

ومن الإسكندرية انتقل إلى القاهرة، واستقر بها حوالي عام يدرس، ويشاهد، ويتصل، ويتعرف على محاسنها، وجمال مساجدها، وإحيائها، وحيوية شعبها، ونشاط الحركة العلمية والفكرية بها خاص في الجامع الأزهر الذي كان بمثابة جامعة إسلامية، كبرى آنذاك، بكثرة شيوخه، وطلابه، وتعدد أروقته، التي كانت تأوي المئات، بل الآلاف من الطلبة، والعلماء، والشيوخ، من مختلف البلدان الإسلامية.

وبعد ذلك شمر المقري عن ساعد العزم إلى المهم الأعظم والمقصد الأكبر، وهو السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فسافر عن طريق البحر إلى جدة، ومنها إلى مكة. فأدى سنة العمرة، في أوائل ذي القعدة عام 1082 هـ (1619 م)، وانتظر حتى واصل موسم الحج في ذي الحجة، فأحرم وأدى مناسك الحج كلها، وسافر بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وزار قبر الرسول، وتبرك به، وجاوره عدة أيام، ثم عاد إلى مصر في شهر محرم 1029 هـ (1619 م) وبقي بالقاهرة حتى شهر ربيع الأول من نفس العام (1620 م)، ثم سافر إلى فلسطين وزار بيت المقدس والمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وتجول في معالم فلسطين الحضارية الدينية والمعمارية. وزار قبر الخليل إبراهيم عليه السلام. وقضى أياماً ممتعة ومفيدة له معنوياً، وعلمياً.

العودة إلى القاهرة والتزوج من عائلة الوفائية:

بعد هذه الجولة في معالم القدس وفلسطين، عاد أحمد المقري إلى القاهرة وتزوج من عائلة ثرية ودينية في نفس الوقت، وهي العائلة الوفائية التي كانت تتولى وظيفة نقيب الأشراف، ولها طريقة دينية صوفية: وتتبوأ مكانة اجتماعية بفضل غناها، وبرها. وهذا يوحي بأن المقري احتل بسرعة مكانة

---

(1) نفس المصدر جـ 1 ص 5 ـ 8 و13 و33 ـ 35.

مرموقة في القاهرة، رغم كونه غريباً عنها، ومهاجراً. ولا شك أن مركزه العلمي البارز، ونشاطه الفكري والأدبي في ميدان التدريس هما اللذان أهلاه إلى تلك المكانة، وذلك المركز البارز، إلى جانب عوامل أخرى.

اتخذ المقري القاهرة مستقراً له ومقاماً بعد زواجه، وحج واعتمر خمس مرات، وزار المدينة المنورة سبع مرات، لغاية عام 1039 هـ (1629 ـ 1630 م) وجاور مكة المكرمة. ودرس بالحرم المكي مدة من الزمن، وزار المدينة لمنورة، وألقى بها دروساً كذلك، وقال: «ثم رجعت إلى القاهرة، وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة فدخلت لهذا التاريخ الذي هو عام تسع وثلاثين وألف، مكة خمس مرات، وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة. ووفدت على طيبة المعظمة ميمماً مناهجها السديدة، سبع مرات. . وألقيت بحضرته صلى الله عليه وسلم بعض ما من الله به علي في ذلك الجوار، وأمليت الحديث النبوي، بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع».

ثم عاد المقري إلى مصر بعد الحجة الخامسة في شهر صفر من عام 1037 هـ (1627 م): وتفرغ للتدريس بالأزهر الشريف، وللتدوين والتأليف غير أنه كان لا يطيق صبراً على السفر، والرحلات، أو أن التدريس بالأزهر لم يقنعه، وكان لربما يطمح لما هو أكبر منه. فشد الرحال إلى بيت المقدس بفلسطين مرة أخرى، في شهر رجب 1037 هـ (1628 م)، ووصل إليها في منتصف نفس الشهر، وأقام بها خمسة وعشرين يوماً ألقى خلالها عدة دروس بالمسجد الأقصى، وزار مقام الخليل إبراهيم عليه السلام وباقي مقابر الرسل والأنبياء الآخرين.

السفر إلى دمشق والتدريس بها:

وفي شهر شعبان من نفس السنة سافر إلى مدينة دمشق الفيحاء «ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام، والأدواح المتنوعة، والأرواح المتضوعة حيث المشاهد المكرمة، والمعاهد المحترمة، والغوطة الغناء، والحديثة

والمكارم التي يبارى فيها المرء شانئه وصديقه، والأطلال الوريفة، والأفنان الوريقة، والزهر الذي تخاله مبتسماً، والندى ريقه، والقضبان الملد التي تشوق رائيها لجنة الخلد».

وصل المقري إلى دمشق أواخر نفس الشهر، شعبان، فأنزله بعض المغاربة الذين استقبلوه في مكان لم يعجبه، ولم يسترح إليه، ولم يكن يليق به حسب رأي مؤلف: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر». فأرسل إليه المولى أحمد أفندي بن شاهين مفاتيح المدرسة الجقمقية، وذهب إليها فأعجبته واستقر بها، وربط صلاته بمفتي دمشق الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عماد الدين الذي تعرف عليه بالحجاز خلال موسم الحج في إحدى حجاته والذي حثه وحبب إليه زيارة دمشق، فأكرمه، وبجله، وعرف له حق قدره، وعرفه إلى علماء دمشق وأدبائها، وفضلائها. فقدروه وبجلوه، وأكرموه.

وأقام أحمد المقري بدمشق حوالي أربعين يوماً تعرف خلالها على المدينة وأحوازها فاستهوته مناظرها الطبيعية الجميلة، والخلابة، وذكرته بوطنه الجزائر، ومسقط رأسه تلمسان، ومهجره الأول المغرب الأقصى، كما ذكرته ببلاد الأندلس الضائعة، والمنكوبة، وأثارت في نفسه ذكريات عزيزة، وأشجاناً آسية، فأطنب في وصف ما رأى من حدائق غناء وأنهار دفاقة، ومناظر طبيعية خلابة، وأشاد بما طوقه به الناس من جميل وأفضال، واعتكف على تدريس صحيح البخاري بالجامع الأموي تحت قبة النسر، بعد صلاة الصبح من كل يوم.

ولما تكاثر الناس حوله في حلقة درسه، وازدحموا وضاق بهم المكان، انتقل إلى صحن المسجد تحت قبة الباعونية، وكان أغلب أعيان دمشق يهرعون لدرسه لكونه كان على ما يبدو ثرياً بالمعلومات، فصيحاً، بليغاً، عميقاً.

وكان يوم ختمه لصحيح البخاري مشهوداً، وذلك صباح يوم الأربعاء 17 رمضان من عام 1037 هـ (1628 م) حيث احتشد الناس حوله بالمئات، وانهمرت أعينهم بالدموع من شدة التأثر، واضطر أن ينتقل إلى وسط الصحن

الجامع بجوار الباب الذي يوضع عليه العلم النبوي في أيام الجمع لشهور: رجب، وشعبان، ورمضان، وأتي له بكرسي الوعظ وصعد عليه ليراه الجميع، واستعرض سيرة وحياة الإمام البخاري صاحب الكتاب الذي كان يدرسه لهم، واستغرق درسه مدة طويلة من طلوع الشمس إلى اقتراب موعد صلاة الظهر. وعندما انتهى ونزل من كرسيه، ازدحم حوله الناس ليسلموا عليه، ويقبلوا يديه، ويشكروه. ولم يتفق لغيره من العلماء الذين وردوا على دمشق، ما اتفق له هو، من الحظوة، وإقبال الناس عليه(1).

أهل دمشق يطلبون منه تأليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب:

وخلال إقامة أحمد المقري بدمشق، قام بزيارات عديدة لمعالمها الحضارية: الدينية، والتاريخية، والمعمارية، كالجامع الأموي، وقبر صلاح الدين الأيوبي، والغوطة والقصور، والمنازل الجميلة، والمدارس، والمكتبات. وكثر حديثه مع مزوريه، والمرافقين له، على بلاد الأندلس، ورياضها، وبساتينها، وحيضانها، وقضاياها وقصة ضياعها، وعلى وزير غرناطة المشهور، لسان الدين بن الخطيب، الكاتب البارع والشاعر المفلق، والسياسي الذكي، والأديب المتفوق، وتكرر منه ذلك مرات عديدة فأثار بذلك أشجانهم وفضولهم، وخلق في نفوسهم شوقاً لمعرفة الكثير عن هذا البلد، ووزيرها، وتاريخها، وقصة المسلمين بها.

فطلب منه المولى أحمد أفندي بن شاهين، أن يتصدى للتعريف بلسان الدين بن الخطيب، في كتاب خاص يؤلفه عنه. حتى يستطيع المشارقة أن يعرفوا شخصيته ومنزلته، فاعتذر له في البداية وقال له: «بأن هذا العرض غير سهل، ولست علم الله، له بأهل من جهات عديدة: أولها: قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة إذ لا يوفى بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف الشديدة. وثانيها: عدم تيسر الكتاب المستعان بها على هذا المرام، لأني خلفتها بالمغرب. وأكثرها في المشرق كعنقاء مغرب، وثالثها: شغل الخاطر بأشجان

---

(1) خلاصة الأثر. جـ 1. ص 305.

الغربة الجالبة للفكر غالب الكربة. وتقسم البال بين شغل عائق، وبلبال»[1].

غير أن أحمد بن شاهين طلب منه وألح مرة أخرى على إنجاز ذلك. فقبل ووعده: «بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزية». وأزمع السفر، ورحل عائداً إلى مصر يوم 5 شوال 1037 هـ (1628 م) وكان يوم مغادرته لدمشق مؤثراً جداً، حسبما وصفه في كتابه نفح الطيب، فبكى لفراقه أصحابه الذين أسفوا هم الآخرون لمغادرته دمشق، وفراقه لهم وحزنوا كذلك، وعندما وصل إلى غزة نزل ضيفاً على الشيخ الغصين وتوسط له أحد تلاميذه الذي هو ابن الشيخ الغصين، ويدعى عبد القادر، ليطلب من أمير غزة بأن يسمح له أن يبني بيتاً له في بعض رحاب المسجد، حتى يكون قريباً من عمله، ويؤدي وظيفته كقارىء ومقرىء.

فقبل المقري رجاءه، ورغبته، وصحبه معه إلى قصر الأمير، وشرح له الأمر فقال الأمير لصاحب الرغبة: مثلك لا يليق به البناء داخل المسجد، ولكن هذا موضع نحبسه لك، وهو موضع المدرسة. وتم له ما أراد، وكان المقري سبباً في بناء وتشييد تلك المدرسة، وذلك المنزل.

ومن النوادر التي حكاها أحمد المقري في كتابه نفح الطيب، أن الشيخ الغصين اشتهى طعام الكسكسي الذي يشتهر به المغاربة، فطلب من أحمد المقري أن يصنعه له فصنعه، وتناولوه جميعاً قبل أن يغادر غزة إلى القاهرة.

شروعه في تأليف كتاب نفح الطيب:

وعندما وصل أحمد المقري إلى القاهرة، اختلف مع زوجته التي أنجبت له بنتاً ولكنها توفيت عام 1038 هـ (1628 ـ 1629 م) وطلقها، فزاد ذلك في همومه ومتاعبه، ومع ذلك شرع في كتابة تأليفه عن لسان الدين بن الخطيب، وخطا خطوات هامة فيه، وقال: «إنني شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب، وكتبت منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب، وسلكت في ترتيبه أحسن أسلوب، وعرضت في سوقه كل نفيس غريب من المغرب إلى

(1) نفح الطيب، جـ 1. ص 69 ـ 72.

المشرق مجلوب، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى وتعرف الأفكار أنه غير مجتبى».

غير أنه بعد مدة من الزمن، توقف عن الكتابة لظروف ألمت به، فكاتب صديقه أحمد بن شاهين وأعلمه بذلك. فلم يرتح للخبر، وكاتبه مجدداً طلبه ورغبته وإلحاحه في إتمام ما بدأ فيه، وامتثل المقري لرغبته، وعاد للكتابة من جديد، واعتكف عدة شهور، وقال في هذا الصدد: «ولما حصل لي كمال الاغتباط، بما دل على صحة حال الارتباط، نشرت بساط الانبساط، وحدثت لي قوة النشاط، وانقشعت عني سحائب الكسل، وانجابت، وناديت فكرتي فلبت مع ضعفها وأجابت فاقترحت من القريحة زنداً كان شحاحاً، وجمعت من مقيداتي حساناً صحاحاً».

فألف كتاباً عن ابن الخطيب سماه في البداية: «غرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب»، تناول فيه حياته وصفاته، وثقافته وأساتذته، وأسرته، ومآثره وجانباً من نظمه ونثره، ومراسلاته ونكبته، وقتله وحرقه، ومما قاله في هذا الصدد: «وكنت كتبت شطره، وملأت مما تيسر هامشه وسطره، ورقمت من أنباء لسان الدين بن الخطيب، حللاً لا تخلق جدتها الأعصر، وسلكت من التعريف به رحمه الله مهامه لكل فيها واسعات الخطأ وتقصر».

ثم توقف عن الكتابة مدة حتى اختمر في ذهنه ما كتبه، وعاد بعد ذلك إليه ورأى أن يضيف إليه مقدمة عن تاريخ الأندلس، وأحداثه السياسية، وجغرافيته، وسكانه، والفتح الإسلامي له، وتاريخ المسلمين به، وعلماء المسلمين الأصليين، والوافدين عليه، والمهاجرون منه إلى البلدان الإسلامية الأخرى خاصة بلاد المشرق.

وقد استغرقت كتابة هذه المقدمة، وقتاً أطول من موضوع الكتاب نفسه دام عاماً وبضعة أشهر، وجاءت طويلة في حجمها كذلك حتى أصبحت تمثل نصف الكتاب. وأعطى له عنواناً ملائماً للمقدمة والموضوع ذاته، وهو: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»

وانتهى منه في آخر شهر ذي الحجة من عام 1039 هـ (1630 م)، وعزم أن يحمله بنفسه إلى دمشق ليطلع عليه أصدقاؤه الذين اقترحوا عليه تأليفه وكانت تراوده فكرة الهجرة إلى مدشق بصفة نهائية بعد أن: «وجد بمصر الحسد والنفاق، وتجارة الأدب ليس لها بسوقها نفاق»[1].

وفاته:

وبينما هو يستعد للسفر مرض وتوفي في جمادى الثانية عام 1051 هـ (يناير 1632 م) فدفن في قرافة المجاورين قرب الجامع الأزهر إلى جاذب صفوة ممتازة من علماء الإسلام الذين جاؤوا إلى القاهرة مثله زائرين، ودارسين، ورحالة، ومدرسين، ومجاورين، آخى بينهم العلم، ووحدت بينهم اللغة، والدين، والحضارة، والثقافة الإسلامية، ووافاهم الأجل بها مثله فدفنوا بها.

مؤلفات أحمد المقري:

عاش أحمد المقري بمصر أربعة عشر عاماً قضاها كلها في الأسفار، والرحلات إلى الحجاز، والشام، وفلسطين، والإسكندرية، وخلال ذلك اعتكف على الكتابة والتأليف في أغراض شتى، وخلف لنا من ورائه عدة مؤلفات أهمها:

1) روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحاضرتين مراكش وفاس. ألفه بين 1011 و1012 هـ (1602 ـ 1603 م) وطبع بالرباط عام 1964 بتحقيق عبد الوهاب بن منصور.
2) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ألفه بفاس بين عامس 1013 ـ 1004 هـ (1604 ـ 1605 م) وتم طبعه.
3) إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة، وهو عبارة عن نظم في العقيدة نظمه بالحجاز، ودرسه بالحرمين، وأتمه بالقاهرة، وطبع عام 1304 هـ (1886 م) على هامش شرح العقيدة السنوسية للشيخ عليش.
4) إتحاف المغرم المغري في شرح السنوسية الصغرى.

---

(1) ريحانة الألباب. جـ 2. ص 175.

خريطة تلمسان القديمة نقلاً عن جورج ووليام مارسي

5) إعمال الذهن والفكر، في المسائل المتنوعة الأجناس، وهو عبارة عن أجوبة عن مسائل علمية وجهها إليه استاذه محمد بن أبي بكر الدلائي، وتوجد ضمن كتاب البدور الضاوية بخزانة الرباط.

6) حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي، ذكرها المحبي، واليواقيت.

7) عرف النشق من أخبار دمشق. ذكره المحبي كذلك.

8) شرح مقدمة ابن خلدون، ذكره حاجي خليفة.

9) قطف المهتصر في شرح المختصر، على مختصر خليل. ذكره المحبي.

10) فتح المتعال في مدح النعال، طبع بالهند.

11) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب طبع مرة أولى في مصر، وحققه وأعاد نشره الدكتور إحسان عباس خلال عقد السبعينات.

12) مجموعة أراجيز شعرية في أغراض متنوعة، وعددها 17 أرجوزة. أشار إليها د. إحسان عباس في تحقيقه على نفح الطيب.

تراجم بعض علماء وهران

بعض الشخصيات العلمية التي أنجبتها وهران أو عاشت بها:

شهدت وهران خلال تاريخها الطويل، ازدهاراً فكرياً، وثقافياً، وأكسب مسيرتها الطويلة عبر التاريخ، خاصة في العهود الإسلامية المختلفة، وشب بها وعاش عدد كبير من رجال الفكر والأدب، ذاع صيتهم في أصقاع المغرب، والمشرق الإسلاميين، وشارك الكثير منهم في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية هنا في جزيرة المغرب، وفي الأندلس، والمشرق. ومن ضمن هذه الشخصيات على سبيل المثال لا الحصر:

ـ الشيخ سيدي هيدور الذي أصبح اسمه علماً على الجبل الشامخ الذي يشرف على المدينة من الغرب. لكونه اتخذ فيه خلوة للتعبّد. وهو من رجال أواخر القرن الثالث الهجري، ومطلع العاشر الميلادي، وعندما توفي دفن في مسقط رأسه بتسالة.

ـ الشيخ أبو عبدالله محمد الغريب الذي دفن بجوار القصبة خارج السور، في سفح الجبل، وما تزال هذه المقبرة إلى اليوم تحمل اسمه: «مقبرة سيدي الغريب» وما يزال قبره بها كذلك.

ـ الشيخ المحدث أبو إسحاق إبراهيم الوهراني، شيخ عبد البر النمري الأندلسي، وهو من أهل القرن الرابع الهجري، والعاشر الميلادي.

ـ الشيخ دادة أيوب المغراوي، الذي ينتسب إليه «حمام دادة أيوب» على

طريق المرسي الكبير، شمال غرب وهران قرب ساحل البحر، وهو من أهل القرن الرابع الهجري كذلك الموافق للعاشر الميلادي.

ـ الشيخ أبو بكر يحيى الوهراني الذي اشتهر بتضلعه في شرح الحديث النبوي، حتى لقب بالمحدث، وتوفي عام 430 هـ (1039 م).

ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن خالد الهمداني الوهراني المعروف بابن الخراز. تتلمذ على الشيخ أبي بكر محمد بن صالح الأبهري، وعلى الشيخ علي أبي حيان الأندلسي. وهاجر إلى بجانة (بيشينا)، ثم إلى قرطبة، واشتغل بالتجارة وتوفي هناك عام 411 هـ (جوان، جويلية 1020 م). وقد عرف به ابن بشكوال.

ـ الشيخ أبو تمام الوهراني الذي سكن بجاية، ودرس بها، وترجم له ابن أبي زرع، والغبريني[1]. وقد اشتهر بسعة إطلاعه في العلوم الشرعية والفقهية وهو من علماء القرن السابع الهجري. وتحدث عنه كل من شربونو، وديدي.

ـ الطبيب أبو محمد عبدالله ابن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني، ولد ونشأ بوهران أواخر القرن الرابع الهجري وانتقل إلى إشبيلية عام 429 هـ (1037 ـ 1038 م) ومارس الأعمال التجارية إلى جانب التعليم، واشتهر بخبرته في الطب، والمداواة، وفي علوم الحساب، والرياضيات، وترجم له ابن بشكوال، وتحدث عنه ابن الخرّاز تلميذ يحيى الوهراني الآنف الذكر.

ـ القاضي أبو عبدالله محمد الوهراني الذي تولى منصب قاضي الجماعة للموحدين في مراكش، عام 1188 (584 هـ)، ثم بإشبيلية عام 1195 م (592 هـ)، وذلك لتضلعه في الفقه والحديث. وكذلك بوهران، وتلمسان، وقد توفي بمراكش عام 1205 م (602 هـ).

ـ وهناك أيضاً أبو محمد عبدالله بن الجبل الذي كان أحد أعضاء مجلس أعيان مدينة وهران.

---

(1) أبو العباس أحمد بن عبدالله الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر ـ 1328 هـ ـ 1910 م) ص 116.

ـ أبو عبدالله بن مروان، وكلاهما في عصر الموحدين.

العالم الأديب ابن محرز الوهراني

أبو عبدالله بن محمد بن محرز بن محمد الوهراني، عالم جزائري عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). ولا ندري بالضبط السنة التي ولد فيها. ولم تحدثنا المصادر التي ترجمت له عن ذلك، ولكن يبدو أنه ولد في مطلع القرنين لأننا نعرف السنة التي توفي فيها وهي 575 هـ (1179 م)، إذ من الممكن جداً أن يكون قد عاش ثلاثة أرباع القرن أو دون ذلك بقليل[1].

وزعم أنه ينتسب لوهران إلا أننا لا ندري هل هو منها بالذات، أو من بعض القرى الصغيرة المجاورة لها. حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه، أو بعضاً منه، لا ندري، ودرس وتعلم العلوم والمعارف العربية الإسلامية الدينية واللغوية حتى تضلع فيها وتبرز كما يدل على ذلك إنتاجه الأدبي المتنوع، والغزير، والبليغ.

ولا ندري هل تنقل في مدن وعواصم بلدان المغرب الإسلامي والأندلس للدراسة والتعلم كما فعل غيره من العلماء، أم اكتفى فقط بالدراسة في مدينة وهران وحدها.

فلم يشر إلى ذلك فيما خلفه لنا من آثار، ولم تتحدث المصادر التي ترجمت له على ذلك. ولكن عمق ثقافته اللغوية والأدبية يدل على أنه صاحب إطلاع واسع، بأحوال المغرب وتطوراته السياسية، والثقافية، والدينية، والاجتماعية،

---

(1) ممن ترجم لابن محرز الوهراني: ابن خلكان في وفيات الأعيان بالجزء الرابع. وابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار. والصفدي في الوافي بالوفيات. وابن قاضي شهبة في الأعلام. والسيوطي في الكنز المدفون. ومحمد كردعلي في مجلة المقتبس (1906 ـ 1908 م). وخير الدين الزركلي في الكنز المدفون. ومحمد كردعلي في مجلة المقتبس (1906 ـ 1908 م). وخير الدين الزركلي في الأعلام. وفريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين. وعبد اللطيف حمزة في دراسة عن الأدب المصري.

وذلك يوحي إما بسفراته وتنقلاته إلى مدن وعواصم المغرب المختلفة، وإما بقراءته وإطلاعه على كل ما كتب عن بلاد المغرب والمشرق في مختلف الجوانب.

ففي مقامته البغدادية، تحدث عن الفاطميين، والمرابطين، والموحدين، والأيوبيين، والعباسيين، ومدن الأندلس، والعراق، والشام، والمغرب الأوسط، والأقصى، ومصر، كما تحدث عن عبد المؤمن بن علي، وصلاح الدين الأيوبي، والأمير أسد الدين شيركوه، وعدد لا بأس به من العلماء، والفقهاء، والشعراء، والوزراء، والكتاب، والسياسيين والفلاسفة، والعظماء.

ويبدو أنه كان طموحاً إلى المعالي، ولم يجد سبيلاً إليه في وهران وبلدان المغرب الإسلامي الأخرى خلال عهد الموحدين رغم أنه صاحب قلم سيال. وقدرة فائقة في الإنشاء والكتابة الديوانية. كما يتضح من مقامته البغدادية. كما يبدو أنه لم يتصد للتدريس في وهران أو بعض عواصم المغرب حتى يكون له تلاميذ. ويشغل وقته ويعمره، فيعوظه ذلك عن التفكير في الهجرة ومغادرة الوطن. ولم تحدثنا المصادر عن نشاط علمي قام به، ولم يشر هو إلى تلاميذ له تخرجوا على يديه. وهذا يشعر بأن الطموح طغى عليه، وشغله على غيره.

ولذلك هاجر وهران والجزائر، إلى بلاد المشرق العربي الإسلامي. فاستقر بمصر في المرحلة الأولى، ولا ندري متى رحل، ولكن ذلك تم في عهد صلاح الدين الأيوبي، وعبد المؤمن بن علي أو قبل ذلك في عهد نور الدين زنكي. واستقر في مدينة القاهرة المعزية، وطمح أن يلتحق بديوان الإنشاء ككاتب نظراً لمقدرته اللغوية، والبلاغية، والإنشائية.

ولكن هذا الديوان كان يشتغل به فطاحل الكتاب والبلغاء، الذين لا يقوى على مناهاتهم من أمثال: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني الكاتب. فأدرك أنه ليس من طبقتهم. أو أن السياسة تحول دون مضاهاته لهم، فقرر أن يسلك سبيل الهزل والسخرية، ويتخذ أسلوب الكتابة الهزلية التي لا ينافسه فيها أحد، ولا يقدر على مجاراته. واهتدى إلى كتابة: المنامات، والمقامات، والرسائل،

والتعريضات، والرقاع، ليصل بواسطتها إلى ما يصبو إليه، وهو إلفات نظر الناس إليه على الأقل حسبما يبدو، أو الحصول على منصب لطموحه بهذا الأسلوب.

وإلى هذا أشار ابن خلكان في كتابه: وفيات الأعيان عندما ترجم له وقال: «أبو عبدالله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين، وقيل جمال الدين، أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، وفنه الذي به صناعة الإنشاء. فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني الكاتب في تلك الحلبة، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا تتفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد، وسلك طريق الهزل، وعمل المنامات، والرسائل المشهورة به، والمنسوبة إليه، وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس. وفيها دلالة على خفة روحه، ورقة حاشيته، وكمال ظرفه، ولو لم يكن فيه إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ولولا طوله لذكرته»[1].

أما ابن فضل الله العمري فقد أشار إلى تأثير القاضي الفاضل فيه، وفي مستقبله الفكري، والسياسي، والأدبي، بالمشرق، ووقوفه حاجزاً ضد طموحه. فقال: «الوهراني أديب اخترع طريقاً طلعت شمسه من المغرب، ولم يغلق (فيه) للرحمة باب، وقدم والدولة الصلاحية قد استعلت، ويد تصرفها من البلاد قد استولت، والمجلس الناصري معمور بأجلاء، مأهول بالقاضي الفاضل وأقرانه من الفضلاء، وريح الأدب قد هبت، ووقود الخواطر قد لبت، والحظ الفاضل قد أخذ معه حظ كل، فأخذ ما للكل، ولم يترك لهم إلاّ الفاضل. وكان يغار على كل بيت فكر، وكان الوهراني لوذعياً تحميه لألاؤه، وألمعيا تريه البصيرة آراؤه. فخاف نفاص ذلك الصل وعبثات ذلك السيف الذي لا يكل. فمال إلى السخف إذ كان لا يحسد على مكبيه، ولا ينافس في ترديه وتجليه. وجعل هذا سبباً لإظهار ما عنده من الإحسان، وتكلم ولم يخف عثرة القلم ولا زلة

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان. تحقيق الدكتور إحسان عباس (بيروت 1971) جـ 4. ص 385 ـ 386.

اللسان، فرفرف عليه جانب من الحنو الفاضلي، ورق عليه كما يرق غسق البابلي».

وقد عبر الصلاح الصفدي بوضوح أكثر على محاولات أبي محرز للتعريض بالقاضي الفاضل عن طريق التلميح فقال: «وكان قد سلطه الله على الشيخ تاج الدين الكندي، وعلى المهذب بن النقاش، وعلى القاضي الفاضل، أما القاضي الفاضل فإنه ما كان يجسر على التصريح بذكره بل يعرض به كقوله في رسالة كتبها إلى مجد الدين بن المطلب وقد ذكر حمام الفيوم: فلم أشعر إلاّ والحائط الشرقي قد انشق، وخرج منه شخص عجيب الصورة، ليس له رأس ولا رقبة، البتة. وإنما وجهه في صدره، ولحيته في بطنه مثل بعض الناس». وهذه إشارة إلى القاضي الفاضل الذي كان ضئيل الجسم، ذميم الخلقة، ذا حدبة ظاهرة، ولكنه فرض نفسه بأدبه، وقلمه السيال، وفصاحته وبلاغته، حتى قال عنه صلاح الدين الأيوبي لرجال جيشه: «إنني ما فتحت البلاد بسيوفكم وإنما بقلم القاضي الفاضل».

وهذه السخرية بالرجال الكبار، كالوزراء والكتاب، وهذا الأسلوب الهزلي بهم ويقيهم، جلب له المزيد من المتاعب، ولو أنه نفّس على نفسه بذلك. وقيل إنه كان أحد الأسباب في تعيينه خطيباً في مسجد داريا بأحواز دمشق الشام، لإبعاده عن مصر وتجنب غائلة لسانه، الساخر، مع ضمان مورد لعيشه حتى لا يعود. فانتقل إلى هناك في تاريخ لا نعرفه، وقد يكون مطلع السبعينات من القرن السادس. وقضى هناك بقية حياته حتى توفي.

ولم يحدثنا عن سفراته وزياراته، إلى بلدان أخرى ما عدا صقلية والعراق الذي أكد زيارته لهما في مقامتيه البغدادية، والصقلية. ونرجح أنه زار فلسطين في طريقه إلى الشام، وزار الحجاز لأداء فريضة الحج، وتنقل في عدة مدن من بلاد الشام قبل أن يستقرّ في قرية داريا بصفة نهائية. وحدد ابن خلكان تاريخ وفاته فقال: «ثم إن الوهراني المذكور تنقل في البلاد وأقام بدمشق زمناً، وتولى الخطابة بداريا، وهي قرية على باب دمشق في الغوطة، وتوفي بها سنة خمس

وسبعين وخمسمائة بداريا رحمه الله تعالى. ودفن على باب تربة الشيخ أبي سليمان الداراني. نقلت من خط القاضي الفاضل، وردت الأخبار من دمشق في سابع عشر رجب بوفاة الوهراني»[1]. وقد ترجم الغبريني لابن محرز البلنسي المتوفى عام 655 هـ (1257 م) ولا ندري هل هو من عائلة الوهراني هذا أم لا[2].

آثار ابن محرز الوهراني الأدبية

لقد كان ابن محرز الوهراني خلال استقراره بمصر والشام يكثر من الكتابة الأدبية في أغراض شتى، بأسلوبه الهزلي الساخر، المصحوب بكثير من التعمية، والإيحاء، والنقد اللاذع وخلف لنا مجموعة لا بأس بها من اثار الأدبية المكتوبة في شكل رسائل، ومقامات، ومنامات ورقاع، جمعت كلها أو جلها في حياته، أو بعد مماته لا ندري. وتحمل عناوين مختلفة أحياناً: «رسائل الوهراني»، وأحياناً: «منامات الوهراني» وأحياناً: «مقامات الوهراني»، وأحياناً: «منشآت الوهراني»، وأحياناً: «دليل الترسل»، وأحياناً: «جليس كل ظريف وهراني».

وتوجد منها ثلاث نسخ مخطوطة معروفة هي: نسخة دار الكتب المصرية. ونسخة آيا صوفية بتركيا، ونسخة مكتبة جامعة برينستون بأمريكا، وهي التي اعتمدها كلها: إبراهيم شعلان، ومحمد نغش، في تحقيقهما لمنامات الوهراني ومقاماته، ورسائله التي نشراها تحت هذا العنوان عام 1968. ولكن للأسف لم يشيرا ولو بكلمة واحدة لسيرة هذا الأديب اللامع، وحياته الشخصية. وهذا لا يقلل من الجهد الذي بذلاه في الكشف عن آثار الوهراني وإبرازها ونشرها. إثراء لأدب المقامة، والإنشاء الساخر، والأسلوب الهزلي بما فيه من العمق البلاغي، والألفاظ النابية، والسخيفة والأفكار المبتذلة والصفة أحياناً.

---

(1) يوافق 17 رجب 575 هـ تاريخ ديسمبر عام 1179 م.

(2) أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق رابع بونار. ط 2، (الجزائر 1981) ص 241 ـ 244.

النسخة الأولى: توجد في دار الكتب المصرية تحت رقم 24. وعنوانها «رسائل الوهراني»، وتحتوي على عدة رسائل في الأدب والمخاطبات، والترسل، من بينها رسالته التي قدم فيها القاضي أبا الثناء محمود بن يحيى بن أفلح، عند تقليده منصب القضاء. ورسالته التي تحمل اسم: منام الوهراني. وهذه النسخة ناقصة لا تحتوي إلاّ على 94 لوحة أو صفحة. وتبدأ برسالة ابن أفلح، ونسخت عام730 هـ (1329 ـ 1330 م). أي بعد قرن وخمسة وخمسين عاماً من وفاته.

النسخة الثانية: توجد بخزانة جامع أيا صوفيا في مدينة اسطمبول بتركيا تحت رقم 4299. وصورت منها نسخة وضعت بمكتبة معهد المخطوطات العربية في القاهرة. وهذه النسخة أتم من الأولى، تشتمل على كثير من رسائل الوهراني ومناماته، ورقاعه، وتعريضاته، ونسخت كذلك في القرن الثامن الهجري (14 م). وتقع في 204 صفحة، ولوحة، وتحمل عنوان: «مقامات الوهراني».

النسخة الثالثة: توجد في مكتبة جامعة برينستون بالولايات المتحدة الأمريكية، تحت رقم 97، وتحمل اسم: «جليس كل ظريف للوهراني». وتقع في 52 لوحة.

وقد اطلع محمد كرد على نسخة أخرى بعنوان: «منشآت الوهراني»، ذكر أنها تقع في تسعة كراريس عثر عليها في بعض خزائن الكتب، ولكنه لم يصرح بمكانها، وصارت في حكم المعدوم، إلاّ إذا تم العثور عليها مرة أخرى.

وتوجد بمكتبة أحمد تيمور، في دار الكتب المصرية مخطوطة تحت رقم 492 تحمل عنوان: مجموعة رسائل، ومقامات، بينها عدة رسائل للوهراني مطبوعة من صفحة 61 إلى صفحة 71. ومن صفحة 234 إلى 237.

وفي كتاب الكنز المدفون والفلك المشحون الذي ينسب خطأ لجلال الدين السيوطي، وهو في الحقيقة لشريف الدين يونس المالكي. في هذا الكتاب عدة رسائل للوهراني وقد طبع هذا الكتاب عام 1871 م وأعيد طبعه بعد ذلك

مرتين على الأقل. وقد ذكر صلاح الدين الصفدي أثراً آخر للوهراني بعنوان: «دليل الترسل».

وهذه الآثار كلها لا تخرج على شكل مقامات، ورسائل، ومنامات، وتعريضات، ورقاع، ومحاورات، سلك فيها ابن محرز الوهراني، مسلك أبي العلاء المعري في: «رسالة الغفران». وابن شهبة في: «التوابع والزوابع» وبديع الزمان في «مقامته الإبليسية». والأسعد بن مماتي في: «الفاشوش في حكم قراقوش». وسار على منوالهم فيما بعد: دانتي أليجري الإيطالي في روايته: «الكوميديا الإلهية».

إن ابن محرز الوهراني بأسلوب مناماته، وتعريضاته، ورقاعه يعد كاتباً مسرحياً كبيراً، وروائياً ساخراً من الدرجة الأولى في زمانه، على غرار برنارد شو، وموليير، ورابلي، حديثاً وقل من نجا من سخريته اللاذعة في زمانه. ولهذا قال عنه الصفدي: «وعلى الجملة فما كان يسلم من شرّ لسانه أحد ممن عاصره. ومن طالع ترسله وقف على العجائب والغرائب، وما كان يخلو سامحه الله من تجر».

واستاء العمري من أسلوبه الساخر هذا وقال: «وتخرص المنام الذي أتى فيه بالأكاذيب، وحسن باطله بحسن الترتيب، وذكر فيه الملائكة الكرام، وانتهك عرض السلف الحرام، وغير ذلك من كباره التي لا تطاق، ومنكراته التي لا يصبر عليها».

أما محمد كردعلي فقد قال: «وكلام الوهراني على خلطه وخبطه، يضحك العبوس، وقلما تنقبض منه النفوس. إلا لدن سماع الألفاظ السخيفة التي تنبو عنها الأذواق السليمة في هذا العصر».

نماذج من منامات ومقامات ابن محرز الوهراني

إن الذين يتصفح منامات الوهراني، ومقاماته، ورسائله التي حققها ونشرها الأستاذان: إبراهيم شعلان، ومحمد نغش[1] يجد بها حوالي 42 مقامة،

(1) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله (القاهرة ـ دار الكتب العربي للطباعة والنشر ـ 1387 هـ ـ 1968) 308 ص.

ومنامة، ورقعة ورسالة، ووصية، ووصفاً، وتقديماً منها:

1) مقامته البغدادية، التي وصف فيها رحلته إلى بغداد، والمدينة، ومدح الخليفة.
2) ومنامه الكبير الذي سار فيه على غرار أبي العلاء المعري. فتصور نفسه ميتاً، وبعث إلى يوم المحشر، والتقى هناك بالعلماء والفقهاء، والشعراء، والملوك، والأمراء، والخلفاء، والوزراء، والمتصوفين، وتحاور مع البعض منهم، ووصف أحوال وأوضاع آخرين بأسلوبه الناقد والساخر، والغامض، والغريب، مع خفة الروح، وطرافتها على عكس أسلوب المعري الذي يمتاز بالجدية والصراحة، والميل إلى أفكار المتصوفين.
3) ومقامته في شمس الخلافة على لسان علي بن حماد الصقلي.
4) ورقعته على لسان مساجد دمشق وجامعها الكبير.
5) ورقعته على لسان بغلته ريحانة إلى الأمير عزالدين موسك.
6) ورسالته إلى قاضي الفاسقين، وهو بمصر، عن نائبه بدمشق يخبره فيها بما صارت إليه الأحوال بعد توجهه إلى مصر. ونرجح أنها في ذم القاضي الفاضل.
7) وعهد تقليد عن قاضي الفاسقين لأبي الثناء محمود بن يحيى بن أفلح اللخمي المعروف بأتكوا.
8) وخامته على صقلية.
9) وكلامه عن أبواب البر العشرة التي تسخط الله وترضى الشيطان.

وفيما يلي نورد بعضاً من هذه النماذج لإبراز أسلوب الوهراني وسخريته وهزله، وظرافته، وطرافته، وبلاغته، ونذالته كذلك في بعض الأحيان، وسخفه وإسفافه.

النموذج الأول: قطعة من مقامته البغدادية

«قال الوهراني: لما تعذرت مآربي، واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي[1]، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، ولا وزير إلاّ قرعت بابه، وطلبت ثوابه، ولا بقاضي إلا أخذت سيبه،

(1) نفس المصدر ص 1 ـ 9.

وأفرغت جيبه. فتقلبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار، حتى قربت من العراق، وسئمت من الفراق. فقصدت مدينة السلام لأقضي حجة الإسلام. فدخلتها بعد مقاساة الضر، ومكابدة العيش المر. فلما قربها قراري وانجلى فيها سراري، طفتها طواف المفتقد، وتأملتها تأمل المنتقد، فرأيت بحراً لا يعبره زاخره، ولا يبصر آخره، وجنة أبدع جنّانها، وفاز باللذة سكانها، لا يميل عنها المتقون، ولا يرتقي إلى صفتها المرتبون، «كمثل الجنة التي وعد المتقون». فأرحت نفسي من سلوك الغو والفج، وجلست أنتظر أيام الحج، وتاقت نفسي إلى محادثة العقلاء، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء، فدلّني بعض السادة الموالي، إلى الشيخ أبي المعالي، فقال: هو بستان الأدب، وديوان العرب، يرجع إلى رأي مصيب، ويضرب في كل علم بنصيب. فقصدت قصده، حتى جلست عنده، فحين نظر إلي، ورأى أثر السفر عليّ، بدأني بالسلام، وبسطني بالكلام، وقال: من أي البلاد خرجت، وعن أيها درجت؟ فقلت: من المغرب الأقصى، والأمد الذي لا يحصى، ومن البلد الذي لا تصل إليه الشمس حتى تكل أفلاكها وتضج أملاكها، ولا القمر حتى يتمزق سرجه، ويتناعى برجه، ولا الريح حتى يحجم أقدامها، وتحفى أقدامها».

ومضى الوهراني في استعراض أفكاره على هذا النمط وقال قبل نهاية المقامة وهو يجيب عن رأيه في الوزير عضد الدين «فقلت له: إذن والله أشكره شكر الأرض للسماء والروض الزاهر للماء، ولا سيما أن أخذ لي من الخليفة خلعة سنية منيفة، أستضيء باقتباسها وأتبرك بلباسها، وأنشرها على منارة الإسكندرية، وأطرحها على ساحل المرية، وأكتب لها الأقران في وهران، وأطلق بشكره اللسان في تلمسان، وأدعو له في مدينة فاس على عدد الأنفس، وأثنى عليه في أغمات إلى وقت الممات. فقال: أبشر ببلوغ الأمل، ونجاح العمل».

والنموذج الثاني: قطعة من منامه الكبير عن يوم الحساب

«... فبينا نحن في المعاورة وإذا نحن بمالك خازن النار قد[1] هجم علينا، وقبض على أيدينا، ورمى السلسلة في أرقابنا، وسحبنا إلى النار، فارتعنا إلى ذلك ارتياعاً عظيماً. وقلت لك: هذا الذي خوفتك منه قد وقعنا فيه. فقلت له: يا سيدي يا مال اسمع عني كلمتين لوجه الله تعالى، فيقول لك: كيف أسمع منك وقد حذفت ربع اسمي في النداء فتقول: والله ما حذفته للترخيم في النداء الجائز عند جميع النحاة، وإني لفي شغل عن ذلك وما حذفته إلا من شدة الهلع وانقطاع مادة الكلام فيقول: هات كلمتيك، قل ما تشاء أن تقول. فتقول: يا سيدي هذا رجل مغربي من أهل القرآن، وأنا رجل محدث عن رسول الله ﷺ، فبأي جرم تأخذ قبل وقوف الرب سبحانه على حسابنا فلعله يتجاوز عنا. فيقول لك: يا خبيث أنت كنت من المتفننين في اللياطة، ومن المتظرمين، فقلت له: أنا كيف ذلك يا سيدي؟ فقال لي: هذا كان يفسق بأولاد المسلمين، وقال لك: كنت... أولاد المسلمين وتثبت أسماءهم في جريدة عندك على حروف المعجم، حتى لم يبق عليك منها إلا القليل. وأتى عليك أجلك وأنت مجتهد في تعليق بقية الحروف يا ديوث، أليس أنت الذي أدخلت فلاناً الأمر إلى الخراب المظلمة. ونيمته تحت ضوء الروزنة فلما لم يطبق الضوء حجره قلت له بتحنين وتلطيف: يا سيدي قرّبها إليّ بفضلك يا خنزير وأي فضل يكون لأمر منكوح يا مرجوس. أليس أنت الذي أخذت يحيى المطرز وما قام عليك وراح عنك وأنت مغبون فلما اجتمعت به بعد ذلك بمدة طالبته بالتمام؟ ولو عددت عليك المخازي التي رأيتها أمس في صحيفتك لضاع علي الزمان.

وأما هذا المغربي فرجل قواد لا شك فيه، فاستشطت أنا عند ذلك غضباً وأظهرت القلق العظيم وقلت له: ألمثلي يقال له هذا الحديث؟ والله لتندمن على هذا الكلام فقال لي مالك: لعلك تريد أن تهجوني بشعر مثل ما رأيت في صحائفك اليوم أو تعمل فيّ مقامة تذمني فيها مثل ما تفعل مع بني آدم، والله

(1) نفس المصدر. ص 29 ـ 32.

لألطمنك بالفلع حتى يبول القندلاني على ساقيه، واشتهيت أن أعلم ما سبب غيضك عليّ هل تقدر تحلف أنك ما كنت تقود على رفيقك هذا في دار الفوارة بحبرون في سنة ثلاثة وخمسين وخمسمائة من الهجرة (2 فيفري 1158-22 جانفي 1159). فلما سمعنا خرسنا وأبلسنا وعلمنا أن الناقد بصير لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فرجعنا حينئذ إلى الملاطفة والسؤال وقلنا له: سألناك بالله لا تعجل علينا فنحن صائرون إليك بعد قليل، وما لنا عليك من محيص، فتركنا بعد الجهد الجهيد، فدخلنا في غمار الناس، فقلت لك: يا أخي قد طير هذا الجبار عقولنا، ومرت لنا معه ساعة تشيب الولدان فأطلع بنا إلى جبل الأعراف لنشرف منه على أهل الموقف ونتفرج على بساتين الفردوس. فتستريح صدورنا، وترجع إلينا أرواحنا في ذلك المكان، فقلت لي: احذر أن تفعل ذلك الله الله في نفسك، فقلت لك: ولم؟ فقلت: لأن يأسنا من الجن أكثر من رجائنا فيها، ومتى رأينا أشجارها وأنهارها وفاتنا دخولها تضاعفت علينا الحسرات والأحزان وعظمت المصيبة بالحرمان، وعدم ذلك في التخيل خير من وجوده في العيان، فإنه يقال في المثل: «عين لا ترى قلب لا يحزن».

النموذج الثالث: رقعته على لسان مساجد دمشق إلى الجامع الأموي تشكوه فيها حالها

«قال بعض العارفين بطريق الانتحال على لسان الحال[1] لما تحكمت يد الضياع، وارتج باب العدل، وغلق ونبذ كتاب الله وحلق، فزعت المساجد إلى جامع جلق، وهو يومئذ أميرها، وعليه مدار أمورها، فلما اجتمعوا على بابه، ودخلوا تحت قبته ومحرابه كتب له جامع النيرب قصة إليه، وسألوا عرضها عليه، وكانت الرقعة مصطورة على هذه الصورة: المماليك مساجد الكورة يقبلون الأرض بين يدي الملك المعظم البديع الرفيع المكرم، كهف الدين جمال الإسلام والمسلمين، بيت الأنبياء والصالحين، مدفن الأنبياء والمرسلين، ملجأ الفقراء والمساكين، مأوى الغرباء والمقلين، بيت الأتقياء والصالحين، معبد

(1) نفس المصدر. ص 61 - 71.

الملبين، صاحب الدواوين، بنية أمير المؤمنين، أيّد الله أنصاره وأعلا مناره، وعمر بالتوحيد أقطاره، وينهون إلى مجلسه السامي ما يقاسونه من جور العمال وتضييع الأعمال، ونهب الوقوف، وخراب الحيطان والسقوف، قد ألفهم الظلم والظلام، وأنكرهم المؤذن والإمام، فلا تسمع لهم حسيساً، ولا ترى فيهم أنيساً، إلاّ أذان البوم وتسبيح الغيوم، وقد ركعت حيطانها وسجدت سقوفها وأركانها، وانصرفت من الصلاة أربابها، وسكانها تنوح عليهم الأجراس والنواقيس، وترثى لهم البيع والنواويس.

يرثي لها الشامت مما به: يا ويح من يرثي له الشامت

وقد فزعنا أيها الملك إلى بابك، وأوينا إلى جنابك، فافعل معنا ما هو أولى بك، ورأيك العالي في ذلك والسلام.

فلما وقف الملك على هذه الشكاية، وعلم بمقتضى هذه الحكاية، استوى جالساً في مقعده، وضرب بيده، وقال: كيف وإني أم للإنسان ما تمنى؟ ثم رفع صوته وغنى:

وما شرب العشاق إلا بقيتي ولا وردوا في الحب إلا على وردي

ثم أشرف الملك من إيوانه بين جنده وأعوانه، فاستقبلوه بالسلام، والتحية والإكرام، وأقبل هو يقلب طرفه في الجموع، ثم رد عليهم السلام، وأذن لهم في الكلام، فابتدأ جامع المزة المقال، وتقدم بين يدي الملك وقال: الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب وصير أموالنا كالسراب، وجعلنا مأوى البوم، والغراب، أحمده حمد من كان فقيراً ثم استغنى، وأدرك بمال الوقوف ما تمنى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عالم عامل محتمل لثقل الأمانة حامل، وأشهد أن محمداً عبده المكين، ورسوله الصادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأكرمين، أما بعد أيها الملك السعيد، ثبت الله قواعد أركانك، وشيد ما هي من بنيانك، فإن الخراب قد استولى على المساجد حتى خلت من الراكع والساجد، فأصبحت مساجد الغوطة غيطان، لا سقوف لها ولا حيطان، وجوامع حوران مخازن وأفران، ومشاهد البقاع صعصعاً كالقاع فكم

بنية لعب الجور، بأثوابها، فنسج العنكبوت على بابها، وكم بيوت لله غلقت دون أصحابها فعشعش الحمام في محرابها، . . . «فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها». وقد دخل أيها الملك على الوقوف بحجة العمارة والسقوف، فاختلفت فينا الأهواء، واتفقت علينا الأنواء، فلا يزال المسجد ينهار، وتأخذه السيول، والتيار، والأنهار، حتى يمتحي رسمه ولا يبقى منه إلاّ اسمه، وأنت أيها الملك عمادنا، وإليك بعد الله معادنا، فاكشف عن حالنا، وانظر في صلاح أحوالنا، يصلح الله أحوالك، ويسدد أقوالك وأفعالك، والسلام. ثم جلس فقال الملك: قد سمعنا كلام المساجد، فما بال الشاهد فبرز مسجد برزة متوكئاً على مشهد الأرزة، وهو يصلصل ويصول، ويلطم وجهه ويقول:

كلما حاولت أشكو قصتي ... لا ألاقي غير ذي قلب جريح
يشتكي مثل شكواي محنتي ... يا لقومي ما عليها مستريح

أما بعد أيها الملك السعيد أدام الله جمالك، وبلغك في عدوك آمالك، فإن مقام إبراهيم أصبح في كل واد يهيم، ومغارة الدم لا تستفيق من الذم، ومشهد الكهف لا يفتر من اللهف، ومشهد هابيل قد رمى بطير أبابيل، ومشهد شيث قد استأصله الخبيث، ومشهد نوح يبكي عليه وننوح، وقبر حلة ما لنا فيه حلة، وقبر إلياس، قد وقع منه اليأس، فلحقت المشاهد بأربابها، وأمست رميماً كأصحابها، قد محتها الغوادي، وحدا بها الحادي:

جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد

فتنحنح الملك عجباً، وحرك رأسه طرباً، وقال:

رب طارق غير وعد ... وفي كل واد بنو سعد

ثم استفتح المقال بأن قال: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، فصب العدل سواه وأمده بعونه وقواه. «فمن أظل ممن اتبع هواه»، فأهواه بسلبه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، أحمده على ما رزقني من الاحتمال، وأشكره عل ذهاب العرض والجاه والمال، وأشهد أن لا إله إلا الله

رب العالمين وحده لا شريك له، شهادة من أعطى الأمانة حقها، وكان أهلاً ومستحقها، وأشهد أن محمد عبده المختار، ورسوله الصادق البار، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار. أما بعد يا معشر المتكلمين، وطائفة المساجد المتظلمين، إنه والله لا ينتهي إليكم من الجور إلا ما يفضل عني، ولا يصل إليكم إلا ما يستعار مني، فلولا أن أركاني سليمة، وبنيتي قديمة، لأصبح جامع بني أمية يغني عليه، يا دار مية، وقد والله شرقت بغصّتكم وحرت في قصتكم، أن رفعت أمركم إلى الملك العادل، ردكم إلى الشيخ الغافل، فلا يرعى لكم حرمة، ولا يكشف لكم غمة، ولا يرقب فيكم إلاّ ولا ذمة. شكوى الجريح إلى الغربان والرخم. والرأي عندي أن تكتبوا إلى الشيخ قصة، ولا تتركوا في صدوركم غصة، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العتاب، فإن التأم رأيه برأيكم، وإلا فالسلطان من ورائكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فنادوا بالغلام فأتى بالدواة والأقلام، فقال: استعذ بالله من الشيطان الرجيم واكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من ملك الجوامع بجيرون إلى سعد بن أبي عصرون:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

أما بعد يا غدار لقد هيجب الألم، وأبهمت الظلم، ومن استرعى الذئب فقد ظلم. طالما تغافلنا عن خيانتك. وتغاضينا عن جنايتك حتى اكتنزت الأموال واختزلتها، وجمعت الذخائر واعتزلتها، من أجل هذا كانت سياحتك، ولأجله طالت نياحتك، وبسببه كنت تسيح وتصيح، حتى غبطك المسيح لقد عجبت أيها الشيخ من محالك في ابتداء حالك، ومن فساد أمرك، عقد آخر عمرك، ومن فساد دينك وضعف يقينك، صليت بالمسوح والقيد، حتى ظفرت بأنواع الصيد، وتقلدت بالقرون والعظام حتى تقلدت الأمور العظام، كنت في هذا العمل إلا كما قيل في المثل:

صلّى وصام لأمر كان يأمله حتى حواه فما صلى ولا صاما

وعرفني أيها الشيخ المفتون، والبائع المغبون، لم بعت الآخرة بالدّانية، والباقية بالفانية؟ إن فعلت هذا إلاّ لعلة أو لتحقيق ملة، أما أن تكون قد استطبت السكباح واستلنت الديباج، وأما أن نصدق أهل الأحقاد في أنك نصيري في الاعتقاد، لا تقول بالنجعة، ولا تصدق بالرجعة، وكلاهما أنت فيه ملموم ومعاقب، ومذموم، وحسبك وقد بلغني عنك ما أنت عليه من قلة الوفاء لهؤلاء الضعفاء، فاسحم عني أداؤهم، ولا تمكن منهم أعداءهم والسلام.

فلما وصل الكتاب إليه وقرأ ما قد انطوى عليه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس، ثم أدبر واستكبر ثم لعن المساجد وبانيها. وشتم المشاهد وقانيها، ثم قلب الرقعة وكتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلت رقعتك أصلحك الله كأنها ضربة موتور، أو نفثة مصدور، وتخلط فيها الهزل بالجد، وتبدى غيظ الأسير على القدر، وأيم الله لقد فرقت سرياً، وقذفت برياً، وجئت شيئاً فرياً، فاشدد من عقلك، وتأيد من مقالك، فما كل شكل يذم شكله، ولا كل طائر يحل أكله، وما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء فحمة، ولو كان لك عقل يهديك أو رأي يهديك أو رأي يهديك لواريت أوارك، ولسترت عوارك، أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي بأنك قطب ما يتم فيك من المعاصي، حتى لقبوك بسوق الفسوق، وميدان المروق ورحاب القحاب، حتى قال فيك القائل:

تجنّب دمشق فلا تأتها ... وإن راقت الجامع الجامع
فسوق الفسوق به قائم ... وفجر الفجور به طالع

فلا جرم أن الله قطعك بالطريق، وعاقبك بالحريق، وجعل الميض على أبوابك، الزط في قبلة محرابك، وعذبك بالنيران وقرنك بأشر الجيران، وجعل خطيبك أتوها دائضاً وإمامك أعمى ناقصاً. فلو أنك البيت المعمُور، لهجرت أو حرم مكة لما حججت. فقف عند مقدارك وانظر في إيرادك، وإصدارك والسلام.

فلما وقف الجامع على رقعته، ورأى ما فيها من رقاعته قام وقعد، وأبرق

وأرعد، وقال: اكتب يا غلام باسم الملك العلام، من العاتب الواجد، إلى الملك الزاهد، قال الحافظ للوتد لم تشفني؟ قال: سل من يدقني لم يتركني ورائي الحجر الذي من ورائي. أما بعد أيها الملك العادل أدام الله أيامك ونشر في الخافقين أعلامك. فقد طاولت بعدلك القمرين، وسرت سيرة العمرين وأنت تعلم أن الله قد طهر بقعتي وكرمها، وشرف بنيتي وحرمها، طالما زوحمت بالمناكب، لما كنت هيكلاً للكواكب، وكم أمست مشكاة للأنوار، وبيت لاستقص النار، ثم انتقلت إلى اليهود بعد انقراض ملة هود، فتأنست بالزبور، وبالأنبياء في القبور، ثم جاءت دولة الصلبان، فقربت بالقربان ومعاشرة الرهبان، ثم جاء الإسلام فتشرفت بدين محمد عليه أفضل السلام، فأنا المشرف في كل قرآن والمعظم في كل أوان، فكسف يسعك أيدك الله أيها الملك التغافل عن حالي والتحين لنهب أموالي، ويدك مبسوطة في العباد، ومطلقة في جميع البلاد، ما يكون جوابك يوم النشور، إذا بعثر ما في القبور، وقد أوقفتك موقف الذليل بين يدي الملك الجليل؟ وأقول: أي رب سل هذا لم أهملني وسلمني لمن أكلني؟ فلا ترد يومئذ جواباً ولا تجد خطاباً، ولا أقبل منك.جميلاً ولا كفيلاً ولا أقبل عنك شفيعاً ولا وكيلاً، فتقول: «يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً». فقدم أيها الملك السعيد لنفسك ما تجده غداً في رمسك وخذ هذا المذكور في الحساب قبل يوم الحساب، فتبرأ من التباعة وتدخل في أهل الشفاعة والسلام على من حمى مساجد الإسلام ورحمة الله وبركاته.

فلما وقف الملك العادل على كتابه، وتجرع كأس عتابه التفت إلى المساجد فرثى لهم وسدد أحوالهم، ولما علم فحوى شكيتهم، وعرف كنه قضيتهم أزال عنهم ظلمهم وأسرها يوسف في نفسه، ولم يبدها لهم. ثم نظر إلى ابن أبي عصرون فأنزله واعتزله وحجبه على بابه واختزله وألقاه. في سجن الصدود، وخلده فيه إلى يوم الخلود، وقرأ عليه: «إلا بعداً لمدين كما بعدت ثمود»، والسلام.

النموذج الرابع: مقامته في شمس الخلافة

. . «حدثني عيسى بن حماد الصقلي[1] قال: لما اختل في صقلية الإسلام وضعف بها دين محمد عليه السلام، هاجرت إلى الشام بأهلي وجعلت جلّق محط رحلي فدخلتها بعد معاناة الضر، ومكابدة العيش المر. فلما تجلى فيها سراري وقر في بعض محلاتها قراري، رأيت معي في الحارة رجلاً ثقيل الإشارة. نيطي الشكل والعبارة يأخذه التيه ويدعه، ويرفعه الإعجاب ويضعه، فقلت في نفسي: ليت شعري من ذا؟ ومن أي كنيف خرج هذا، وبعد علي غوره، وأشكل علي أمره، فاعترضته في الطريق وسلمت عليه سلام صديق وأنشدته:

أجـارتنـا إنـا غـريبـان هـاهنـا وكـل غـريـب للغـريـب نسيـب

وبسطته بالحديث حتى جاء بالقديم وبالحديث، وقال: مولدي منوشهر، ومنشأي ما وراء النهر، لكن بالشام والعراق مداري فأيقنت بالشكل المغرب، أنه من بلاد المغرب وبأن لي من خلال ألحاظه وفلتات ألفاظه أن الرجل يقطينة وأنه مغربي الطينة.

قال عيسى بن حماد فقلت في نفسي: أكون فضولي الأرض بالطول والعرض، ويدخل علتي هذا المحال المحض، واستدللت عليه برجل كان يأنس إليه فقال الرجل: أنا جهينة أخباره وأحذق الناس بأدباره أعرفه صغيراً وكبيراً، وإن شئت فاسأل به خبيراً، فقلت: عرفني مريضه، وأي بحر لفظه، فقال: أما الطينة فمن قسنطينة، وأما القبيلة فمن زويلة، وأما النحلة فمن حمير الفحلة، فقلت له كيف ذاك جعلني الله فداك؟ فقال: اعلم أنه دخل هذه المحجة محرماً بحجة، يعوزه من القوت ثمن رطل من الياقوت، يتمنى رفسة من رجل رزاز، أو صفعة من كف خباز، وحاول كل معيشة فلم يقدر على حشيشة فساقه القلفندر، والقضاء المقدر إلى عجوز مغربية، محكّمة في خمسين صبية، تعلم

(1) نفس المصدر، ص 97 ـ 102.

البنات الغزل، وتجنبهم المجون والهزل، قد اشتهرت بالرفق والأناة، والحذق في تعليم البنات، قد أخصب مكانها وامتلأ بالكسر أركانها. فجاء هذا الشيخ أبو الخرا يطلب عندها بيتاً للكراء، وهو كما رأيت قد جمع بين الحفا وغلظ القفا، فأبصرته العجوز على تلك الحالة، فتوسمت عظم الآلة، فسرى خيالها، وسال عليه ريالها، ولم يفارق بابها حتى كتبت عليه كتابها، ولما اختلاها واعتلاها، وكنف من ليلته خلاها، أيقنت أنه يبرد عليلها، ويداوي عليلها، فقامت على الفور، وهو من ورائها كالثور، حتى دخلت السوق بالهيمان المسوق، ففتحت له العباب، وفصلت عليه الثياب ولم يفارق الدكان حتى قالت له: كن فقيهاً فكان.

قال عيسى بن حماد، فقلت للراوي: مثلك من أفاد، وشفى بحديثه الفؤاد، فكيف تمشي حاله. وتغطى على الفقهاء محاله، فقال: اعلم أنه لما اجتمعت العجوز على تعليمه ورده إلى المدرسة وتسليمه، تخوف من ذلك الأمر، وبات ليلته على الجمر. فلما أصبح قال لها: يا هذه اعلمي أني كنت في بلدي إسكافاً. وأصبحت اليوم في مرحاضك كنافاً، فكيف لي بالمدارس وأنا كالطفل الدارس؟ ومن أين لي بالخير وأنا مثل حمار العزيز؟ والله ما أفرق بين الحروف وبين قرون الخروف، فقالت: أنا أعلمك العلم كلّه إلاّ أقله، وأعلمك فصلاً في التدريس تغلب به محمد بن إدريس، فقال لها: يا هذه والله ما أرجو من المدرسة نفعاً وإني أخاف أن يقتلوني صفعاً، فدعيني من اقتحامك وإقحامك، ووفريني على لطم أرحامك، فقالت: أريد أن أخرجك من المدابر وأضعك على رؤوس المنابر، فأحضر ذهنك وأفتح لهذا الدرس أذنك، اعلم أن الألف قائم كالغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصّنارة أو كرجل المنارة، والهاء كالثقالة، وفيها شيء كالعرقالة، والطاء كالخف أو كطارة الدف، وكل مدور رميم، وكل معوج جيم، والصاد تشبه نعالك، والذل تشبه قذالك وأن القاف والكاف، تشبهان اللكاف، فاحفظ هذا الكلام، وقد أصبحت مفتي العراق والشام واحذر مخالفتي، واعتزالي، واعلم أن بهذا الفصل تقدم الغزالي، فأقبل التيس يكرر لفظه، حتى أجاد حفظه، وعندما خرج في القمة والعمة، وعزم على

مدرسة جمال الأمة. فخرجت تبحره من العين، وتقرأ عليه المعوذتين، وقالت له: إذا جلست فتربع، ولا تتقنبع، وانشر أكمامك، وأطهر للناس أعلامك، فإن الغريب ابن ثويبة، والمقيم ابن جديه، فقال لها: أوصيني رحمك الله، فقالت له إذا حضرت فانفخ حضنك وبطنك، وانفش بين الفقهاء دفتك وباكر المدرسة في الصباح، وسابقهم إلى الرواح، وإن غلبوك في العلم، فلا يغلبوك في الصباح.

فقال لها: أخاف والك أن أقتل باللواك، ولكن أوصيني، فقالت: خذ اللفظ بأناملك من شفتيك، وزاحم الفقهاء، بمنكبيك، وابصق في وجه الشيخ ولا جناح عليك. فقال فهاتي إذن شيئاً من قماشك ألقى به صفح الشماشك، فقالت: أجسر على القوم فما هو إلا بياض اليوم، واعلم أن الفقه ليس هو شيء غير النفاق والزعاق، وتلويث وجه الخصم بالبصاق. أما سمعت ما قاله الشيخ أبو جابر المغربي لما رأى حالهم وخبر محالهم:

يـا طـالـب العلـم مـن كتـاب ... ومـــن معيــد ومـــن مفهــم
بـــدون هـــذا تـــرى فقيهـــاً ... فـــوســـع الثـــوب ثـــم عمـــم
وألبـس مـن الثـوب طيلسـانـاً ... وأعقـده فـي المنكبيـن وانظـم
واقعـد مـع القـوم فـي جـلال ... لا بـــالبخـــاري ولا بمسلـــم
إلاّ صيـــاحـــاً ونفـــض كـــمّ ... وعقــد لا لا وجمــع لــم لــم
فمـــا أرى عنـدهـــم علـــومـــاً ... أكثـــــر مـــن لا ولا أســـلـــم

فقال لها: إن صدقت فأنا أكون أمام الوقت. وقام في ذلك الأوان حتى دخل على الفقهاء في الإيوان فهابته قلوب الجماعة، وخافوا أن يكون من أهل البراعة، فأنصفوه في السلام، وبسطوه بالكلام، وآنسوه بالمحاضرة حتى جاء وقت المناظرة، فحينئذ برز بالوجه الوقح والأفك الصراح، وأرهج المدرس بالصياح، وأخذ يقول نوعاً من الهذيان، وضربٌ من الباذنجان، فوقع الناس في البلاء، وعلموا أنه دلو من الدلاء، وتحققوا أن الرجل كالسطل، لا يصلح إلا للاصطبل، فخرجت هيبته من صدورهم، ونبذوه وراء ظهورهم. قال الراوي: ولما ارتفعت عنه وحشته، وزالت عن فؤاده دهشته ضاق بالعلم باعه، ونفرت منه طباعه، وعاد إلى ما يعرفه من الأخلاق الذميمة، والسعي بالنميمة حتى طال

على القوم أمره، وانتهى فيهم عذره، وعلم الشيخ من شيمه الردية وأخلاقه الدنية أنه لا يصلح إلا للعوانية، فأشار به في بعض الأعمال، فأخرج عاملاً من العمال، فكثرت عند ذلك بضاعته وازدادت دياصته ورقاعته، واستخدم الجندار والسلاح دار، واستعمل التركاش، والحوائج كاش، وصار بالأعوان والحاشي والغلمان، والفاشية، وصار الشيخ زوج العلافة يلقب بشمس الخلافة.

قال عيسى بن حماد: ولما ارتفعت الهمة وامتنعت الذمة، تغير على زوجته بعد أن كان يفديها بمهجته، وصار يجري بينهما في المجالس ما يحفظ عنهما في المدارس، ولقد رأيتهما يوماً يشالقها وتشالقه، ويخالفها وتخالفه، ويقول لها ألست تعلمين يا جيافة أنني لقيت من أجلك برزوج العلاقة فلعن الله الأشفار والأظفار، وما تحويه الأخصار من حانوت العطار.

النموذج الخامس رقعته على لسان بغلته ريحانة

«المملوكة ريحانة[1] بغلة الوهرانية تقبّل الأرض بين يدي المولى عز الدين حسام أمير المؤمنين، نجاه الله من حر السعير. وعظم بذكره قوافل العير، ورزقه من القرط والتبن والشعير ما وسق مائة ألف بعير، واستجاب فيه صالح أدعية الجم الغفير من الخيل والبغال والحمير. وتنهى إليه ما تقاسيه من مواصلة الصيام، وسوء القيام، والتعب بالليل والدواب نيام. قد أشرقت مملوكته على التلف وصاحبها لا يحتمل الكلف، ولا يوقن بالخلف. ولا يحل به البلاء العظيم، إلا في حاجتي إلى القضيم، لأنه في بيته مثل المسك والعنبر، وإلا طرفيل الأكبر، أقل من الأمانة في الأنباط، والعقل في رأس قاضي سنباط.

فشعيره أبعد من الشعري العبور، لا وصل إليه ولا عثور، وقرطه أعزّ من قرط مارية، لا تخرجه صدقة، ولا هبة ولا عارية، والتبن أحب إليه من الابن، والجلبان عنده أعزّ من دهن ألبان، والحب أقل من الياقوت في بيت النبطي والعقل في رأس البلطي، والقضيم بمنزلة الدر النظيم، والفضة أجل من سبائك

(1) نفس المصدر، ص 90 ـ 94.

الفضة، وأما الفول فمن دونه باب مقفول. فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلا بعيون الآداب، والفقه اللباب، والسؤال والجواب، وما عند الله من حسن الثواب، ومعلوم يا سيدي أن البهائم لا توصف بالحلوم ولا تعيش بسماع العلوم ولا تطرب إلى شعر أبي تمام، ولا تعرف الحارث بن همام، ولا سيما البغال التي تشتغل في جميع الأشغال، شبكة من الفصيل أحب إليها من كتاب التحصيل، وقفة من الدريس أشهى إليها من قفة محمد بن إدريس، ولو أكل البغل كتاب المقامات مات، وإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ضاع، ولو قيل له أنت هالك إن لم تأكل موطأ مالك ما قبل ذلك، وكذلك الجمل لا يتغذى بشرح أبيات الجمل، وحزمة من الكلأ، أحب إليه من شعر أبي العلاء وليس عنده طيب شعر أبي الطيب، وأما الخيل فما تطرب إلا لسماع الكيل، وإذا أكلت كتاب الذيل ماتت في النهار قبل الليل، والويل لها ثم الويل، ولا تستغني الأكاديش عن أكل الحشيش بكل ما في الحماسة من شعر أبي الحريش، وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمار حل به الدمار، وأصبح منفوخاً كالطبل على باب الإصطبل، وبعد هذا كله فقد راح صاحبها إلى العلاف، وعرض عليه مسائل الخلاف، وطلب من بيته خمس قفاف، فقام إليه بالخفاف، فخاطبه بالتعقير، وفسر له آي العير وطلب منه ويبة شعير، فحمل على عياله ألف بعير، وأكثر له من الشخير والنخير، فانصرف الشيخ منكسر القلب مغتاظاً من الثلب، وهو أنحس من الكلب، فالتفت إلى المسكينة وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة وقال لها: إن شئت أن تكدى فكدّى لا ذقت شعيراً ما دمت عندي، فبقيت المملوكة حائرة لا قائمة ولا سائرة. فقال لها العلاف: لا تجزعي من حبله، ولا تلتفتي إلى سبابه، ولا تنظري إلى نفقته، ولا يكون عندك أخس من عنفقته. هذا الأمير عز الدين سيف المجاهدين يده أندى من الغمام، وعزيمته أمضى من الحسان، ووجهه أبهى من البدر ليلة التمام، يرثى للمحروب، ويفرج عن المكروب وهو نبي بني أيوب، لا يرد قائلاً ولا يخيب سائلاً، فلما سمعت المملوكة هذا الكلام، جذبت الزمام، ورفست الغلام، وقطعت اللجام، وشقت الزحام حتى طرحت خدها على الأقدام، ورأيك العالي والسلام».

النموذج السادس رسالته إلى قاضي الفاسقين يخبره فيها بما صارت إليه الأحوال بعد توجهه إلى مصر

«المملوك النائب عن مجلس الفسق الوضيع بالشام ـ أوله: كل من في الوجوه نحس إلا واحد[1].

أطال الله قرون مولاي القاضي الأجم الفاضل، الإمام العالم، قاضي الفاسقين إمام اللاطة، مفتي الفسقة، تاج الزناة، عز العلوق، مجال المشارب، قطب الدساكر، مقدم الخرابات، رئيس المواخير، فخر البدود، ذو القرنين الحاضر أقود، العالم مصطفى غلام أمير المؤمنين، مسخرة نفاط غلام أمير المؤمنين، وأدام الله سروره وأفراحه، وبلغه أمله واقتراحه، وأدام اعتباقه واصطباحه، ولا زالت يمينه مطية، لفصوص القداح، وفلكاً لشموس الأقداح، ومنزله مأهولاً بالولدان، معموراً بالقحاب، والمردان، ونغانغه بمجون العلوق مخمرة، وأحداقه بأكفهم مخضرة، وخيول اللهو إلى فنائه مسرعة، وسحائب الصفع عن ربوع أكتافه مقلعة، ولا جعل لسلطان الدرة على قفاه سبيلاً، ولا لطوارق القلع إلى رأسه دليلاً.

كتب هذه الأحرف إليه يسر الله معاصيه، وبارك له في مخاصيه، أشكو إليه ما عندي من الشوق إلى طلعته وصلعته، والحنين إلى قاعته ورقاعته، والارتياح إلى قامته وشامته، فشوقي إليه شوق الفاسق اللايط إلى المباعر، والمنقطع إلى لحوق الأباعر، وحنين إليه حنين الجعل إلى الأرواث، واللايط إلى شم الأخباث وارتياحي إليه كارتياح الأرملة إلى البعال، ورأسه إلى مباشرة النعال، فأقسم له بالغصن إذا استوى، والحقف وما احتوى، والصدغ إذا التوى فلو خط بعض شوقي إليه على وجوه الحسان لكسفها وعلى ربى الأكفال لنفسها، أو حل بالعاشق لسلاه، وبالأمر الفارح لجلاه فنسأل الذي قضى بالبين أن يؤلفنا بالنيربين، والذي ابتلانا، بالصدود أن يجمعنا في بعض البدود، بمنه

---

(1) نفس المصدر، ص 144 ـ 149.

وكرمه، وأما غير ذلك كثر الله أرباحك، وأدام على المعرفة نباحك فلا تسأل عما يقاسيه الخادم من جور العلوق، واهتضام المشوق، وبعدما بين القهوة والحلوق، وما قد ابتلينا به من القضاة المخالفين، والأئمة المسخفين، في إقامة الحدود، وتعطيل البدود، وتحريم الزمر، وتبطيل أبواب الخمر، وضربهم للسكران ولو أنه الحكيم بن المطران وأخذهم أشد العهود على النصارى، واليهود، فصارت القهوة أقل من أخلاط الجسد، وأعز من جبهة الأسد، لا تبصر في الليالي إلا كطيف الخيال ولا في النهار، إلا عند إراقتها في الأنهار، ونحن معهم في شدة، إلى أن تنقضي هذه المدة، وعند التناهي يكون الفرج. وكلما تزايد إنكارهم، وتفرغت للتعذير أفكارهم، ذكرنا عزه الله تعصبك ووفاك، وردعك لنا بقفاك، وأما العلوق لعنهم الله ورد كيدهم في نحورهم، ومكن رماحنا من ظهورهم، فإنهم لما علموا بسفرك، وأمنوا من بوادر ظفرك، اشتدوا بنفوسهم، وركبوا في الجور على رؤوسهم، يعذبون العشاق ويقتلون المشتاق، ويضعونهم بالتشريح، ويصقلون أقفيتهم بالتمريخ، ويجوزون... كالأذقال، ويتعامون للعاشق عن الأدخال، مع الغير بالفلوس، ويبخلون على العاشق بالفلوس، فأقسمت يا سيدي بمداسك ورأسك، وحق النعل إذا طن، والوقتر إذا رن، والركب إذا عش، والعلق إذا شرش لو كنت فيهم كالأمير. لأشهرتهم على الحمير، وحرمت عليهم نتف الذقون، ودلك الساقات والبطون، حتى يريحن الشعر من الصداع، ويبقى أحدهم على أكلة والوداع، وأعجب من ذلك يا سيدي أن أحدهم إذا عبث الشعر بساقه، تجبر على عشاقه، وإذا تسولت إليته، عظمت بليته، وكلما طال شعره ارتفع بين العلوق سهره، وليس ذلك إلاّ لطول غيبتك عنا، وبعد أوبتك منا. فنسأل الباري جلت قدرته أن يردك إلى الأهل والقرابات، ويشرف بك البدود، والخرابات، وأشد من ذلك يا سيدي ما حدثني به من ينتمي إلى هوى أبي بكر اختمي، إن قيمته وقرعته محلوقة، كخده لما كانت له دبوقة. وهذه من النعم التي يجب أن تكفر، ومن الذنوب التي لا يجوز أن تغفر، فلو نتف أحدنا أصلحك الله سبابه. ومزق سرباله، لما وصل إلى بغيته، ولو عمل الخرافي جوف لحيته، فإن كان لك حاجة لولايتك، فاطلع

علينا برايتك، من قبل أن يسلوا العاشقون ويتوب إلى الله الفاسقون، فيتغير الهندام وتكدس أسواق المعاصي بالشام والسلام.

ومتى عزمت على الإياب فحصل النفقة والثياب، لكيلا تموت بالجوع، وتندم على الرجوع ولا تطمع في التكسب بالشعر، فقد راج ذلك السعر. ولو قلت اليوم الحماسة، ما حصل لك بها كناسة، ولو أنك امرؤ القيس، كنت عندهم مثل التيس، ولو أنك ابن منير، حملوا على عيالك الحمير، وما ذاك إلاّ لأن الجود قد استقل، والكرم قد انتقل، وقد وصل إلى قليوب، ملازماً لبني أيوب، ونحن كما قال الوهراني في قصيدة له:

أنست بنو شاذي بمصر وأهلها ... فبكت دمشق عليهم والشام

رحل الندى والجود يوم رحيلهم ... وتخلف الحرمان والإعدام

كانوا لنا كالوالدين تعطفاً ... فاليوم نحن لبعدهم أيتام

فانظر لنفسك، واتعظ بأبناء جنسك، ورأيك في ذلك أعلى والسلام».

النموذج السابع، مقامته الصقلية

قال الوهراني: دخلت مدينة صقلية في الأيام المتوالية(1). فرأيتها محافل الأوصاف، على طريق الإنصاف، فعشقها شيطاني، فأقمتها مقام أوطاني، فحضرت يوماً في بعض بساتنها، مع طائفة من أهل دينها، وفيهم أبو الوليد القرطي، سلطان الكلام بأمره فيوالفه، وينهاه فلا يخالفه، وجرى بينهم حديث أهل البلد ومن فيها من الأعيان والكلد، فقالوا: يا أبا الوليد أنت حجر محكمنا وبوتقة سبكنا، وها نحن سائلون ليذهب عنا دياجي الغيهب، ففضل من يستحق وعيب، ليميز الله الخبيث من الطيب فقال: أنا أوضح أشكالكم، فاسألوا عما بدا لكم، فقلنا له ما تقول في القاضي ابن رجاء؟ قال: مصباح دجى وشيخ علم وحجى، وهو بيت القضاء، وكلمة حكم وعدل، ورضا، نزه نفسه عن الرشا والولائم، فلا تأخذه في الله لومة لائم، غير أنه عظيم الشقشقة، كثير البقبقة، بسيفه على الخصمين، ولو أنهما ملكين، ويضيع مواقيت الصلاة، ويمنع

(1) نفس المصدر، ص 219 ـ 221.

يواقيت الصّلات، لا يرثي للغريب ولا يتوجع ولا يؤسى ولا يسأل، ولا يتفجع فنكب عن ذراه فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وإن يقـوم سـودوه لحـاجـة إلـى سيـد لـو يظفـرون بسيـد

قلت: فما تقول في الشيخ أبيه، قال: كان رحمه الله عليه يتناعس على الخصمين، فلا يوقظه إلا سلسلة الكفين، ولو قبضت على أنفه بالكلبتين، في حلقه سواء لا سبيل فيه لهوى، قلت: فما تقول في ولده، قال: ابن لبون لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب، وأنشد:

إن الفروع من الأصول ولن ترى فـرعـاً يطيـب وأصلـه الـزقـوم

قال: فما تقول في الفقيه ابن بقية؟ قال: لن يبـق من العلم بعد موته بقية. وكأنه بدر ثم كسف، وطوف علم نسف، وبحر علم غاض، وإناء أدب فاض، فسر الأعداء بفقده، وانتشر البغاء من بعده:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكـن بنيـان قـوم تهـدمـا

قلنا: فما تقول في الكاتب يوسف؟ فقال: الرجلة، والشهامة، والتقدمة والزعامة، غير أن في أسفله داء اسأل الله منه السلامة، قلنا: فما تقول في ولده أبي علي؟ قال: هشاش بشاش وإن مازحته فحشاش، وإن نازعته فأخلاق جدّه أبي دكاش، حلو اللسان، بعيد الإحسان:

يـريـك البشـاشـة عنـد اللقـاء ويبـريـك فـي السـرّ بـري القلـم

قلنا: فما تقول في أخيه؟ أبي الفتوح، قال: القرض من القرض، وذرية بعضها من بعض، حذوك النعل بالنعل: كما قسم الترب المفايل باليد. وذو الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً.

النموذج الثامن: البر الذي يسخط الله ويرضي الشيطان

قال الوهراني[1] عشرة أشياء من أبواب البر تسخط الله وترضي الشيطان، وهي: انقطاع ابن الصابوني إلى الله عز وجل في القرافة، وتعصب الخبوشاني

(1) نفس المصدر. ص 232 ـ 233.

لقمر الشافعي وتنفل القاضي قبل صلاة الجمعة وبعدها. وظهور سجارة في هذه الأيام على وجه السديد الطبيب للتراويح في شهر رمضان. وبكاء الفقيه البهاء على المنبر يوم الجمعة. وقراءة الوهراني السبع في صبيحة كل يوم. وسماع ابن عثمان لحديث الرسول ﷺ في جمعة واحدة. وإقراره لذلك على رؤوس الأشهاد. وحضور ابن مماتي لمجالس الوعظ في القرافة. وبكاؤه عند قراءة القرآن. وإنكار أبي عبدالله البغدادي على الموازين خاصة، ولا يلتفت إلى غيره من الذنوب، وبنيان ابن أبي الحجاج لقبر آسية، وترتيب القراء في كل جمعة فيه، ذكروا أن هذه الأعمال الصالحة لا يعبأ الله بها، وهي أحبّ إلى إبليس من كبار الذنوب».

الشيخ بختي: من علماء القرن التاسع الهجري (15 م) عاصر الشيخ الهواري وتتلمذ عليه. وكان زميلاً للشيخ الحسن أبركان بن مخلوف التلمساني الذي درس هو الآخر على الشيخ الهواري وتتلمذ عليه. وكان الشيخ بختي عالماً فاضلاً، ودرس عليه عدد لا بأس به من الطلبة والعلماء. وعندما توفي دفن في غمرة، وزرنا قبره للتعرف عليه.

الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي جمعة النجار الوهراني: من أهل القرنين التاسع والعاشر الهجريين (15 و16 م). تتلمذ على الشيخ غانم بن يوسف الغمري دفين جبل ماخوخ بأولاد علي. وعاش بوهران مدة من الزمن. وألف كتاباً تربوياً سماه: جواهر الاختصار والبيان فيما يعرض من المتعلمين وآباء الصبيان[1]. استعرض فيه خبرته في هذا الميدان، وهذا يدل على أنه قضى سنوات طويلة في تعليم القرآن الكريم.

الشيخ محمد بن أبي جمعة الوهراني: شقيق أبي العباس أحمد بن أبي جمعة السابق الذكر. كان عالماً فاضلاً متضلعاً في علوم اللغة والآداب العربية، ووضع شرحاً على لامية كعب بن زهير سماه: تسهيل الصعب على لامية كعب.

وإلى جانب تضلعه في علوم اللغة والآداب العربية، تضلع كذلك في علوم

(1) حقق هذا الكتاب ونشر الدكتور عبد الهادي التازي بالمملكة العربية السعودية.

الحساب، والرياضيات والفلك. ومن شيوخه بفاس ابن غازي، وينتسب هو وأخوه إلى عائلة الشيخ محمد بن عمر الهواري. وتوفي عام 910 هـ (1504 م)، وهو الذي أصدر فتوى للأندلسيين بجواز إخفاء إسلامهم والتظاهر بالمسيحية حتى يمكنهم تربية أولادهم تربية إسلامية. ومما جاء فيها قوله: «فأعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم، أو رياء لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، . . وإن أكرهتم في وقت صلاة على السجود للأصنام أو حضور صلاة فأحرموا بالنية، وأنووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا إلى ما يشيرون إليه من صنم، مقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة، تسقط في حقكم، كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب الخمر فاشربوه، لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه، ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمة. وكذلك إن أكرهتم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب. وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذلك إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقي إن تبتم لله تعالى. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له «ممد» ناوين أنه الشيطان، أو ممد اليهود. فكثير بهم اسمه. . . »[1].

الشيخ عبدالله بن الطيب بن حوه التيجاني: شيخ الطريقة الدرقاوية خلال القرن الثالث عشر الهجري (19 م). كان قاضياً عند الأتراك وقتله الباي حسن بوهران في سنواته الأخيرة.

---

(1) تاريخ هذه الفتوى أول رجب 910 هـ (28 نوفمبر 1504 م) وهي نفس السنة التي توفي فيها، وقد نشر الأستاذ عبدالله عنان هذه الفتوى في كتابه: نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المتنصرين.

القاضي محمد الصادق الحميسي: سليل أبي زكرياء، المغيلي صاحب كتاب: الدرر المكنونة في نوازل مازونة. كان قاضياً بمزونة، ثم انتقل إلى وهران وتولى بها منصب القضاء في عهد الأتراك.

القاضي أحمد بن الطاهر الرزيوي: أصله من مدينة ارزيو شرق وهران. تولى منصب القضاء للأتراك بوهران. ودرس عليه الأمير عبد القادر في صدر شبابه عندما فرض الباي حسن الإقامة الجبرية على والده محيي الدين بوهران وصحبه معه إليها وأقام معه بها أكثر من عامين. وعندما تزعم الأمير عبد القادر ثورته ضد الفرنسيين قدمه للمحاكمة وأعدمه في مدينة معسكر بعد أن ثبت تعامله مع الفرنسيين أعداء البلاد.

الشيخ الشريف وابنه الشيخ أحمد ابن الخوجة: أصلهما من مدينة مستغانم واستوطنا مدينة وهران، وألف أحمد بن الخوجة كتاب: در الأعيان في أخبار وهران. وتتلمذ عليه الأمير عبد القادر أثناء إقامته بوهران مع أبيه كذلك.

الشيخ محمد بن عمر الهواري

(751 ـ 843 هـ = 1350 ـ 1439 م)

ولد محمد بن عمر الهواري بهوارة في أحواز كليميتو على بعد عشرين كلم شرق مدينة مستغانم عام 751 هـ (1350 م) وتربى بين أهله وعشيرته، الأقربين من المغراويين، وأوكله أبوه الشيخ عمر إلى الشيخ علي بن عيسى ليعلمه ويحفظه القرآن الكريم. فلاحظ عليه نوعاً من الغفلة والتواكل والبلة وعدم الاهتمام بهندامه، وأخذ ينهره ويضربه فعاتبه والده وقال له لا تضربه حتى ولو كان كسولاً، ومغفلاً، لأن ذلك من علامات ولايته ونجابته.

وعندما بلغ سن العاشرة ذهب إلى كلميتو، وتعرف هناك على ولي صالح يتعبد في غار، ولازمه حتى نال سره وأخذ عليه طريقته الصوفية وبقي عنده مدة من الزمن ثم غادره، وتنقل في مناطق البلاد المختلفة ومنها الواحات الصحراوية، وركب البحر وزار بعض جزر البحر المتوسط، وخالط الوحوش والضباع.

وبعد ذلك اتجه إلى مدينة بجاية واعتكف على الدراسة وتتلمذ على الشيخ أحمد بن إدريس، والشيخ عبد الرحمن الوغليسي، شيخي وأستاذي عبد الرحمان بن خلدون، وأخيه يحيى، المعاصرين له. وأعجبته بجاية وطاب له المقام بها، كما طابت للشيخ أبي مدين شعيب قبله، فأثنيا عليها وعلى كانها المضيافين، وعلمائها وأمرائها، وذلك لتقديرهم للعلماء وطلبة العلم، وإيوائهم للغرباء وتقديم العون والمساعدة لهم.

يضاف إلى هذا استقطاب هذه المدينة للعلماء الفضلاء أصحاب الباع

الطويل والواسع في مختلف فروع العلم والمعرفة، وقد سجل هذا الثناء في نظمه الملحون المسمى بالتسهيل. وفي هذه المدينة بجاية ألف كتابه المسمى: بالسهو والتنبيه في أحكام الطهارة والصلاة، ونظم قصيدته التي سماها: التسهيل ولا ندري كم سنة قضاها في بجاية، وما هي السنة التي غادرها فيها.

ومن بجاية عاد الشيخ الهواري إلى مسقط رأسه، ثم قصد مدينة فاس للدراسة والتعلم كذلك. وجلس إلى حلقة الشيخ العبدوسي والشيخ القباب، وذكر ابن صعد بأنه أتـم في فاس حفظ كتاب المدونة للإمام مالك عام 776 هـ (1374 مً)ا وهو في سن الخامسة والعشرين كما ذكر أنه في هذا السنة أتم نظم كتابه: «السهو في الطهارة والصلاة»، علماً بأن ذلك تم في بجاية وليس بفاس. ولعل المقصود بذلك هو إتمام هذا الكتاب، وتنقيحه في فاس وإدخال بعض التعديلات عليه. وهناك بفاس تصدى الشيخ الهواري للتعليم والتدريس بعد أن أصبح عالماً، والتف حوله طلاب العلم وأثنوا عليه.

ومن فاس شد الرحال إلى المشرق عبر تونس وليبيا، وعندما وصل إلى مصر أقام مدة في الجامع الأزهر، وتتلمذ على الشيخ الحافظ العراقي وآخرين، ثم التحق بالحجاز وأدى فريضة الحج بمكة. وزار المدينة المنورة، وتبرك بزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا شك أنه أخذ العلم على عدد من علماء مكة والمدينة المجاورين وما أكثرهم، وما أوسع علمهم.

ومن المدينة المنورة انتقل إلى فلسطين عبر غزة، والتحق بمدينة بيت المقدس، وزار المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وقبر الخليل إبراهيم عليه السلام، وباقي المزارات الأخرى، وحضر عدداً من الدروس في المسجد الأقصى. واتصل بالعلماء الموجودين هناك وتعرف عليهم، وانتفع بعلمهم وآدابهم، ولربما ألقى دروساً هناك، كما فعل في المدن والعواصم الأخرى التي أقام بها أو زارها في المغرب والمشرق.

ومن بيت المقدس اتجه إلى بلاد الشام وقصد مدينة دمشق الفيحاء وأقام بها مدة من الزمن يَدْرُس على علمائها، ويُدَرِّسُ لطلبـة العلم المتعطشين بها

خاصة ما يتصل بتاريخ المغرب وحضارته، ولو كمجرد حكايات وأقاصيص عنه. وخلال إقامته بدمشق اعتاد الخروج إلى الغوطة للانفراد بنفسه، واستعراض ما حصل عليه من علوم ومعارف، والتفكير فيما يعتزم عمله مستقبلاً.

وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى بلدان المشرق العربي الإسلامية التي لا نعرف متى بدأت ومتى انتهت، قفل الشيخ محمد بن عمر الهواري راجعاً إلى بلاده عبر مدن وعواصم كل من مصر، وليبيا، وتونس، والجزائر. واستقر به المقام في مدينة وهران، التي كانت آنذاك تعج بالنشاط الاقتصادي والعمراني، والثقافي، والاجتماعي، واستقطبت جموعاً غفيرة من المهاجرين الأندلسيين الذين حملوا إليها حيويتهم السياسية، ومهاراتهم الفنية: المعمارية، والصناعية، والثقافية، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ويبدو أن الشيخ الهواري استهوته كذلك وفضل الإقامة والاستقرار بها لتلك الأسباب وتصدى للتعليم والتدريس، والتف حوله عدد لا بأس به من طلبة العلم أغلبهم قدم إليه من الآفاق البعيدة. كما تصدى لتلقين الأذكار والأوراد لعدد آخر من المريدين. من الناحية الدينية، وصادف نجاحاً وإقبالاً كبيرين. ولما كان كتابه: «السهو والتنبيه» ألفه باللغة الدارجة، فقد حاول تلميذه أبو زيد عبد الرحمن مقلاش أن يصلح ما به من أخطاء نحوية ولغوية. فاعترض عليه وقال له: دع سهوك عندك. واترك سهوي لي، ونهره عن فعله ذاك.

وقد عاش الشيخ الهواري أحداث زحف سلطان تونس الحفصي أبي فارس عزوز على مدينة تلمسان فتوسط أميرها الزياني أحمد العاقل بالشيخ الحسن أبركان التلمساني ليطلب من الشيخ الهواري أن يتدخل لدى سلطان تونس من أجل إبرام الصلح، وحقن الدماء وتجنيب تلمسان مخاطر الغزو، وهذا يدل على المكانة التي كانت للشيخ الهواري آنذاك.

ولما كان الحسن أبركان تلميذاً للهواري فقد أسرع بإبلاغه رغبة أحمد العاقل، فرفض في البداية بدعوى أنه لا شأن له بالملوك والأمراء، ثم بعد

الإلحاح والمراجعة قبل وقال له قل لصاحبك سلطان تلمسان أن يطمئن فسوف لن يرى ولن يتقابل مع سلطان تونس، وصادف أن توفي أبو فارس عزوز فجأة في سفح جبل الصدر من جبال الونشريس صباح يوم عيد الفطر من عام 837 هـ (11 ماي 1434 م) بينما كان الناس ينتظرون خروجه لأداء صلاة العيد، وهو في طريقه إلى تلمسان فأخفى ابنه وفاته، وتوقف عن مواصلة الزحف إلى تلمسان وحمل جثته وعاد بها إلى تونس وكفى الله تلمسان وأميرها شره، وشاع يومئذ بأن الشيخ الهواري هو الذي دعا عليه.

وهناك إشاعة أخرى نقلها كثيرون من تلاميذه ومنهم إبراهيم التازي، والحافظ أبو راس، وشاعت بعد ذلك وانتشرت في كتابات الأوروبيين. ومفادها أن الشيخ الهواري هو الذي دعا على وهران حتى احتلها الإسبان. ذلك أن بعض الناس من سكانها قبضوا على ابن له هائج لمرض ألمّ به على ما يبدو حتى لقبوه بالهائج. وقتلوه وزعموا أنهم حكموا فيه الشرع الإسلامي. فسكت هو وتحمل المصيبة على مضض، ولكن زوجته غضبت وألحت عليه في الاقتصاص، وضربت له عدة أمثلة من الواقع حتى أثرت فيه فاتصل بقاتلي ابنه وحاججهم، وزعموا له بأن ابنه هائج استوجب القتل وطبقوا في قتله أحكام الله فعارضهم وأكد براءة ابنه مما نسب له، واشتد غضبه فدعا على وهران بقوله: «رُوحي يا وهران الفاسقة يا كثيرة الجور والبغي والطارقة، يا ذات الأهل الباغية السارقة، إني بعتك بيعة لنصارى مالقة وجالقة إلى يوم البعث والتالقة، مهما ترجعي فأنت طالقة». ولما سأله أحد تلاميذه قائلاً: والفرج يا سيدي استدرك وقال: «والفرج لاحقه»، وهذا التلميذ هو الشيخ إبراهيم التازي.

وفعلاً احتل الإسبان وهران بعد 72 عاماً من تاريخ هذا الدعاء الذي لا ندري مدى صحته ونسبته إلى الشيخ الهواري، الذي لا يرضى ولو مع غضبه بأن تسقط مدينته أو أية مدينة إسلامية أخرى في أيدي عدو نصراني كافر خاصة في مثل تلك الظروف التي تكالب فيها النصارى الإسبان وغيرهم على احتلال واستعمار البلدان المغربية الإسلامية في إطار الحروب الصليبية البغيضة، وإلا فلا معنى لولايته وتزهده، وعلمه، وتدينه.

بقي الشيخ الهواري يواصل نشاطه الديني والثقافي والاجتماعي بوهران حتى توفي عام 1439 م (843 هـ) ودفن بأسفل حي القصبة العتيق، وبني على قبره ضريح ومسجد ما يزالان قائمين حتى اليوم. الضريح مزار، والمسجد عامر تؤدى فيه الصلوات الخمس. والجمعة، وبه تشتهر وهران حتى اليوم وتنسب إليه. ولكن الضريح يوجد داخله تابوت من الحطب، ولا وجود هناك لأي علامة قبر تحته بل هناك أرضية عادية، ودفن معه عام 1944! مفتي وهران الشيخ بولحبال القسنطيني.

حول مدفن الشيخ الهواري

وهناك عدة روايات متضاربة حول مدفن الشيخ الهواري، فزعم جان كازناف في مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران عام 1926 م بأن حوش الشيخ الهواري المحاط بسور ما يزال موجوداً وقائماً في قرية بني تالة قرب مدينة وهران، ولكنه لم يحدد مكانه ومكان القرية بالضبط.

وأورد المقدم ديدي في الجزء الرابع من كتابه: وهران، عام 1931 صوراً لأفراد أسرة زعم أنها من أحفاد الشيخ الهواري عددهم أربعة أفراد أخذت لهم يوم 9 أوت 1931 وهم: الهواري، وحامد، ومحمد، وبدرة، يحملون جميعاً لقب ابن ستى البشير بن الهواري. وروى عنهم بأن جدهم الشيخ الهواري مدفون في ضريح صديقه الشيخ سيدي المسعود بقرية حاسي الغلة غرب مدينة وهران على الطريق المؤدي إلى عين تموشنت وتلمسان. وأما الضريح والمسجد الحاليان اللذان يحملان اسمه بمدينة وهران فقد أسسهما حفيداه: الحاج حاجي، وحمو بويعزار عام 1793، أي بعد عام من تحرير المدينة من الاحتلال الإسباني الأخير.

ومن أجل الزيادة في التحري، والتحقيق قمنا بزيارة إلى ضريح سيدي المسعود قرب قرية تارقة شمال قرية المالح على بعد حوالي 65 كلم من وهران، صباح الخميس 5 ذو الحجة 1407 هـ (30 جويلية 1987 م). ولم نجد في الضريح سوى قبر واحد. وبجواره مسجد صغير بدأ يتداعى سقفه،

ولكن هناك على بعد بضعة أمتار منه آثار لقبر داخل حويطة، محاطة بثلاثة جدران، ولم يحدثنا أحد لمن لهو.

ثم قمنا بزيارة لضريح آخر غرب قرية تارقة بحوالي 4 كلم يحمل اسم: سيدي الهواري صباح الخميس 25 ذو الحجة 1407 هـ (20 أوت 1987) ووجدناه داخل ضريح تهدم سقفه بفعل السلطات الاستعمارية خلال ثورة التحرير المباركة الأخيرة (1954 ـ 1962) على ما قال لنا أحد الرجال هناك. وأكد لنا رجل آخر في تارقة بأن هذا الوالي الصالح ليس هو الشيخ الهواري الوهراني، وإنما هو رجل آخر كان صديقاً وتلميذاً للشيخ بختي بن عياد دفين قرية سيدي بختي ببلاد غمرة شمال قرية حمو بوتليليس، كما أكد لنا بأن بني تالة يوجدون بين قرية زفيزف، وحمام بوحجر قرب سيدي بلعباس، وأن سيدي شافع يوجد قرب قرية عين البيضاء بجوار حاسي الغلة على طريق حمام بوحجر. وأكد الآغا المزاري في كتابه: طلوع سعد السعود بأن الهواري مدفون بوهران، وكل الروايات الأخرى باطلة.

إن الحقيقة ضائعة بين هذه الأقوال والروايات، فالإسبان الذين احتلوا وهران ما يقرب من ثلاثة قرون حولوها إلى محتشد للجنود الإسبان وغير المرغوب في إقامتهم بإسبانيا، ولم يبقوا فيها أي أثر للمعالم العربية الإسلامية فكيف سلم قبر الشيخ الهواري، ومسجده من التخريب؟ اللهم إلا إذا بلغتهم دعوته عليها باحتلالهم لها، وعندما تحقق لهم ذلك كرموه بالإبقاء على قبره وضريحه ومسجده. ولو أن هذه الرواية مشكوك في صحتها. لأنه مهما بلغ غضب الشيخ الهواري على سكانها فلا يقعل أن يرضى أن يحتلها النصارى المسيحيون الكفار، وهو رجل مربي وعالم وولي صالح متصوف، وإلا فلا معنى لعلمه، وتدينه، وتصوفه، وتزعمه لعلماء عصره.

والروايات العديدة المتواترة عن دفنه بوهران يصعب تكذيبها خاصة وأنه عاش بها، وشهرت به، ونقل ذلك تلاميذه وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم التازي

وآخرون. ومع ذلك فالرأي الذي أورده ديدبي جدير بالدراسة والبحث والتدقيق والله أعلم في الأخير بحقيقة الأمر.

وقد أورد ديدبي ملحقاً خاصاً في كتابه المشار إليه آنفاً، يحتوي على أكثر من ثلاثين رسالة بين طويلة وقصيرة، تتضمن الأوقاف التي حبست على ضريح الشيخ الهواري ومسجده والكيفية التي ينبغي اتباعها لصرف مواردها المالية بعض هذه الرسائل لباشوات الجزائر، والبعض لبايات بايليك الغرب الوهراني، والبعض لأشخاص آخرين أثرياء، أو لهم قرباة بعائلة الشيخ الهواري، وتواريخ هذه الرسائل متنوعة بعضها في القرن 18 م والبعض في القرن 19 م.

ومما ينبغي تسجيله هنا هو أن الشيخ الهواري رغم مركزه العلمي والديني فإن ثقافته العربية ضعيفة فهو ينظم الشعر بالدارجة ويكتب كذلك بالدارجة وهو ما أدى بتلميذه عبد الرحمن مقلاش إلى إصلاح أخطائه في كتابه: السهو والتنبيه، ولكنه رفض ذلك وأصر على إبقائه لغته الدارجة على ما كانت عليه، ونهر تلميذه كما سبق أن ذكرنا، ورد عليه إصلاحاته[1].

---

(1) من جملة من ترجم للشيخ الهواري: محمد بن يوسف الزياني في دليل الحيوان. والآغا المزاري. في طلوع سعد السعود. وأبو راس الناصر في رحلته، وابن مريم في البستان، والحفناوي في تعريف الخلف، ودلبيش في المجلة الإفريقية (1884). وبارجيس في كمبليمانت: Complement، وديستيف في المجلة الآسيوية. وديدي في كتابه: وهران. وجان كازناف في مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران (1926 م)، وابن صعد التلمساني في كتابه النجم الثاقب. وكتابه روضة النسرين وهو تحت الطبع في دار الغرب الإسلامي. وابن سحنون في الثغر الجماني، وآخرون.

الشيخ إبراهيم التازي

(توفي يوم 9 شعبان 866 هـ - 9 ماي 1962 م)

من مواليد مدينة تازة بالمغرب الأقصى، ومن قبيلة بني لنت البربرية، ولم تتحدث المصادر التي ترجمت له على تاريخ ميلاده.. والغالب أنه كان في أواخر القرن الثامن الهجري. أوكله أبوه إلى الشيخ أبي زكرياء يحيى الوازعي الذي اعتنى به كثيراً، وحفظه القرآن الكريم ورعاه تمام الرعاية. ومن تازة انتقل إلى مدينة تلمسان وتتلمذ على الشيخ محمد بن مرزوق الحفيد الذي أجازه. ثم انتقل إلى وهران وتعرف على الشيخ محمد بن عمر الهواري، ووثق صلاته به، ومنها رحل إلى تونس وتتلمذ على الشيخ أبي القاسم عبد العزيز العبدوسي. ثم شد الرحال من هناك إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عبر ليبيا ومصر، وفي مدينة مكة المكرمة أخذ على الشيخ القاضي تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي، علم الحديث، والرقائق، وأجازه عام 830 هـ (1427 م)، وعندما انتقل إلى المدينة المنورة أخذ على جماعة من العلماء بينهم الإمام أبو الفتح ابن أبي بكر القرشي في نفس العام والذي تلاه.

أتقن الشيخ إبراهيم التازي علوم القرآن، والحديث، واللغة وقواعدها، والأصول، والمنطق، كما أتقن تجويد القرآن الكريم بصوت جميل حتى أصبح يضرب به المثل وينصب إليه الجميع عندما يتلوه ويجوده. واشتهر بنظم الشعر في الزهد والتصوف، وكان له كناش كبير من الأشعار متداول في الحجاز، ولبس الخرقة الصوفية على الشيخين: شرف الدين المراغي، وصالح بن محمد الزواوي، ثم على الشيخ محمد بن عمر الهواري عندما عاد إلى وهران.

ومن المشرق عاد الشيخ التازي إلى مدينة تلمسان بعد أن أدى فريضة الحج، واستقر بها بعض الوقت، وأخذ على جماعة من علمائها أمثال الحافظ التنسي، والإمام السنوسي وعلي التالوتي. ثم تصدى للتدريس، وتتلمذ عليه الشيخ أحمد زروق الذي أجازه عام 832 هـ (1429 م).

ومن تلمسان انتقل إلى وهران، واستقر بها إلى جانب شيخه محمد بن عمر الهواري، ولازمه طيلة حياته، واتخذ لنفسه زاوية خاصة بأمر منه ونشط في التعليم والوعظ والإرشاد وتلقين الأذكار، وتحدث عنه الرحالة القلصادي في فهرسته وذكر أنه اجتمع به في وهران، وعندما توفي شيخه الهواري عام 843 هـ (1439 م) خلفه في مشيخته ونشاطه العلمي والتربوي.

ومن الأعمال الكبرى التي أنجزها إدخال الماء إلى مدينة وهران من منابعه البعيدة عنها، بعد أن اتفق مع أثريائها على تقديم الأموال اللازمة لذلك. وجرى احتفال كبير بذلك الحدث الذي خفف على الناس عناء الإتيان به من منابعه البعيدة خاصة النساء اللاتي كن يقضين ساعات طويلة من اليوم لإحضاره على ظهورهن في القرب.

توفي الشيخ إبراهيم التازي يوم 9 شعبان عام 866 هـ (9 ماي 1462 م) ودفن قرب ضريح شيخه الهواري لمدة خمسين عاماً، وعندما احتل الإسبان مدينة وهران، واتخذوا قبره شبه مخمرة، استنكر ذلك تلاميذته، ونقلوه سراً إلى قلعة هوارة التي تعرف اليوم بقلعة بني راشد، ودفنوه هناك وبنوا عليه قبة وضريحاً ما يزالان حتى اليوم مزارين خاصة بالنسبة للعنصر النسوي، وذكر الآغا المزاري في كتابه طلوع سعد السعود، بأن محل قبره بوهران كان ما يزال محاطاً بحويطة يتبرك بها الناس وذلك أواخر القرن التاسع عشر. ولكن هذه الحويطة غير موجودة اليوم.

إن الشيخ إبراهيم التازي ذو ثقافة متينة، وله شعر غزيرٌ في أغراض شتى خاصة الزهد، والتصوف، وذم الدنيا، نورد فيما يلي نماذج عديدة ومتنوعة منها:

قال في ذم الدنيا وزخرفها:

أمـا آن ارعـواؤكَ عَـنْ شنـارِ ... كفي بالشَّيبِ زجراً عن عُوارِ
أبعـدَ الأربعيـنَ تـرومُ هـزلاً ... وهَـلْ بعْـدَ العَشيَّـةِ مـن عَـرَارِ
فخلِّ حُظوظَ نفسِكَ والهُ عنها ... وعَـنْ ذِكـرِ المنَـازلِ والـدِّيـارِ
وعَـدِّ عـن الـرَّبابِ وعَـنْ سُعادٍ ... وزينـبَ والمعـارفِ والعُقـارِ
فمـا الـدُّنيـا وزخـرُفُها بشـيءٍ ... ومـا أيَّـامُهـا إلاَّ عـواري
وليـسَ بعـاقـلٍ مَـنْ يَصطفِيهـا ... أتشـري الفـوزَ وَيْحـكَ بـالتَّبـارِ
فتُبْ واخلَعْ عِذارَك في هوى مَنْ ... لـهُ دارُ النَّعيـمِ ودارُ نـارِ
جمـالُ اللهِ أكمـلُ كـلِّ حُسْـنٍ ... فللَّـهِ الكمـالُ ولا مُمـارِي
وحـبُّ اللهِ أشـرفُ كـلِّ انـسٍ ... فـلا تنـسَ التَّخلُّـقَ بـالـوقَـارِ
وذكـرُ اللهِ مَـرْهَـمُ كـلِّ جُـرحٍ ... وأنفـعُ مِـنْ زُلالٍ لـلأُوارِ
ولا مـوجـودَ إلاَّ اللهُ حقَّـاً ... فـدَعْ عَنْـكَ التَّعلُّـقَ بـالشَّنَـارِ

وله من قصيدة أخرى في ذم الدنيا كذلك:

يا صاحِ من رزقَ التُّقى وقلَى الدُّنا ... نالَ الكرامةَ والسَّعادةَ والغِنى
فاصرِفْ هوى دُنياكَ واصرِمْ حبلَها دارَ البـلايـا والـرَّزايـا والعَنَـا
ووِدادُهـا رأسُ الخطـايـا كلِّهـا ... ملعونةٌ طُوبى لِمَنْ عنها انثنَى
لا تَغتـرِرْ بغُـرُورِهـا فمتـاعُهـا ... عَـرَضٌ مُعَـدٌّ للـزَّوالِ وللفَنَـا
لَعِـبٌ، ولَهْـوٌ، زينَـةٌ، وتفـاخُـرٌ ... لا تخدعَنْكَ جنانها مُرٌّ الجَنَا
خـدَّاعـةٌ، غـدَّارةٌ، نكَّـارةٌ ... مـا بلَّغَـتْ لخليلِهـا قـطُّ المُنَـى
اليومَ عندَكَ جاهُهَا وحُطامُهَا ... وغـداً تـراهُ بكـفِّ غيـركَ مُقتَنى
فاقبَلْ نصيحةَ مُخلصٍ واعمَلْ بها ... تُدنيكَ من رِضوانِ ربِّكَ ذي الغنى
يـدخِلْـكَ جنَّـاتِ النَّعيـمِ بفضلِـهِ ... دارَ المُقَـامَـةِ والمسـرَّةِ والهَنَـا

وله أيضاً من أخرى في ترتيب الوظيفة سماها الحسام:

حُسامي ومنهاجي القويمُ وشِرْعتي ... ومنجاي في الدَّارينِ مِنْ كلِّ فتنةِ
محبَّـةُ ربِّ العـالميـنَ وذكـرُهُ ... على كلِّ أحياني بقلبي ولهجتي
وأجـلُ أعمـالِ الفتـى ذكـرُ ربِّـهِ ... فكُنْ ذاكراً يذكُرْكَ باري البريَّةِ
وما مِنْ حُسامٍ للمريدينَ غيرُهُ ... وكَمْ حسموا ظهراً لزارٍ وباهتِ
وكم بدَّدوا شملاً لدى جُراةٍ وكَمْ ... أبـادوا عـدوّاً مسَّهُـمْ بمضـرَّةِ
وكَمْ دافعَ اللهُ الكريمُ بذكرِهم ... عَنْ الخلقِ من مكروهةٍ ومُبيرةِ
وأفضلُ ذِكْرٍ دعوةُ الحيِّ فلتكُنْ ... بها لَهِجَاً في كلِّ وقتٍ وحالةِ
فكثـرةُ ذِكْـرِ الشَّـيءِ آيـةُ حبِّـهِ ... وحسبُ الفتى تشريفُهُ بالمحبَّةِ

وله أيضاً من أخرى رحمه الله في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام:

وخيرةُ الخَلْقِ مَنْ مِنْ أجلهِ خُلقوا ... محمدٌ خيرُ محمودٍ ومَنْ حَمِدَا
مَنْ خصَّه بلواءِ الحمدِ حامِدُه ... وبالمقامِ القياميِّ الذي حُمدا
ويومَ حَشْرِ الورى للفضلِ يُرشِدُهُ ... إلى محامدَ لم يُرشد لها أحدا
وكثـرةُ الحمـدِ مِـنْ أوصـافِ أمَّتِـهِ ... في اليُسرِ والعُسرِ في الكُتْبِ العُلا وجِدَا
صلَّى الحميدُ على المحمودِ أحمدَ ما ... بالحمدِ أفصحَ حمَّادٌ وما سَجَدا
للهِ عبـدٌ شكـورٌ حـامـدٌ وعلـى ... قُرباه والصَّحبِ أعلا الأمَّةِ الحَمْدَا

وله أيضاً من أخرى في الحب والهوى:

أبَتْ مُهجتي إلاَّ الولوعَ بمَنْ تَهوى ... فدَعْ عنكَ لومي والنفوس وما تقوى
هوان الهوى عزٌّ، وعذبٌ أُجاجُهُ ... وعلقَمُه أحلا من المَنِّ والسَّلوى
وتعـذيبُهُ للصَّـبِّ عينُ نعيـمِهِ ... وسعيُ اللواحي في السَّليِّ مِنَ العدوى
ومَنْ لم يَجُدْ بالنَّفسِ في حُبِّ حِبِّهِ ... فلـوعَتُـهُ إفْـكٌ وصَبْـوتُـهُ دَعْـوى
وليـسَ بحـرٍّ مَـنْ تعبَّـدَهُ الهـوى ... للهو الدُّنا، فاخترْ لنفسِكَ ما تهْوى

فما الحُبُّ إلاّ حُبُّ ذي الطَّوْلِ والغِنى   وأملاكه والأنبيا وأولي التَّقوى
وخِيـرَةِ رُسْـلِ اللهِ أفضـل خَلْقِـه   مُحمدِ الهادي إلى جَنَّةِ المَأْوَى

وله أيضاً من أخرى:

روحي وراحةُ رُوحي ثم رَيحاني   وجنَّتي مِنْ سرور الإنسِ والجانِ
ومَأْمَني وأماني مِنْ سعيرِ لَظَىً   ذكرُ المهَيْمِنِ في سرٍّ وإعلانِ
ومَدْحُ أحمدَ أحمى العالمينَ حِمَىً   وذُو المقامِ الذي ما قامَهُ ثاني

إلى أن قال:

هذا السِّراجُ هو المُنجي لِمُعتصمٍ   هذا المَعاذُ ومَلْجَا الخائِفِ الجاني
يا رحمةَ اللهِ إنِّي خائِفٌ وجِلٌ   يـا نعمـةَ اللهِ إنّـي مُفلِـسٌ عـانـي

وله قصيدة في نصح المسلمين حذر فيها من أشياء ورغب في أشياء سماها بالنصح التام للخاص والعام أولها:

إن شئت عيشاً هنيئاً واتباع هدى   فاسمع مقالي وكن بالله معتضدا

وتسمى بالدالية وقد علق عليها شرحاً صاحب البستان.

وله قصيدة أخرى أخرجها في الشوق إلى بيت الله الحرام أولها:

ما حال من فارق ذاك الجمال   وذاق طعم الهجر بعد الوصال

وله قصيدة أيضاً تقرأ مع وظيفته التي جمعها في الأذكار تقرأ في كل وقت من ليل أو نهار أولها:

مرادي من المولى وغاية أمالي   دوام الرضى والعفو عن سوء أعمالي

وتسمى باللامية، كما تسمى بالمرادية وشرحها محمد الصباغ القلعي في القرن العاشر الهجري (16 م) وسمى شرحه عليها: «شفاء الغليل والفؤادي في شرح النظم الشهر بالمرادي». كما شرحها أيضاً ابن مريم صاحب كتاب البستان بعد ذلك ومنها جزء من أولها:

قصيدة المرادية للشيخ إبراهيم التازي

مـرادي فـي المـولـى وغـايـة آمالي ... دوام الرضى والعفو عن سوى أحوالي
وتنـويـر قلبـي بـانسـلال سخيـة ... به أخلدتني عن ذوي الخلق العالي
وإسقاط تدبيري وحولي وقوتي ... وصدقي في الأحوال والفعل والقال
وفي حبه وحب صفوته الرضى ... مـلائكـة وأنبيـاء وأرسـال
وحـب النبـي الهـاشمـي محمـد ... وأصحابه الغر الأفاضـل والآل
وحب رجال خالفوا النفس والهوى ... وخافوا مقام الواحد الصمد العالي
رجـال كـرام في النفوس تنـافسـوا ... شروا عارض اللذات بالغابر الغالي
فليس لهم في غير حب إلههم ... غرام ولا في كسب جاه ولا مال
رجال كرام قوتهم ذكر ربهم ... قياماً قعوداً في صدور وإقبال
وشيمتهم ترك المطامع في الورى ... فليس لمخلوق عليهم من أفضال
على الصبر والإيثار راضوا نفوسهم ... فكلهـم نـدب وحـالـم أثقـال
صدورهم من كل ضغن سليمة ... كرام السجايا أهل سمح وإجمال
هم القوم لا يشقى جليسهم بهم ... يحـق لمـن ولّاهـم جـرّ أذيـال
فمذهبهم قتل النفوس ومحوها ... فمن مات قبل الموت ليس بمقتل
وكـل جبـار قـلّ أن يبلـغ المنى ... وما عملوا في فوزهم مثل بطال
وكل بشهبل فهو وعنهم بمعزل ... فما يعبأ الرب الكريم ببخال
وغنـم مـريـد بـانقيـاد لكـامـل ... له خبرة بالوقت والعلم والحال
هو السر والإكسير والكيميا لمن ... أراد وصـولاً أو بقـا قيـد آمـال
وقد عدم الناس الشيوخ بقطرنا ... وآخرهم شيخي ومعظم إجلالي
وقد قال لي لم يبق شيخ بغربنا ... وذا منـذ أعـوام خلـون وأحـوال
يشيـر إلـى أهـل الكمـال كمثلـه ... عليه من الله الرضى ما تلا تال
ونص على حب التشبه شهمهم ... أبو مدين الغوث المعاصر والتالي
وقـد قـال حـب الأوليـاء ولايـة ... ولـي الإلـه الشـاذلـي ابـن بطـال
سليل شفيع الخلق يوم انبعاثهم ... ومنقذهم من موبقات وأهوال

وقصيدة أخرى في مدح النبي ﷺ أولها:

لـه الحمـد جـداً يـوافـي النعـم ... بإحسان ذي الطول أهل الكرم

وقصيدة أخرى في الحجيج بلغنا الله ذلك المقام الشريف أولها:

يـسيـر إليـك علـى القـدم ... ألفـت هـواك علـى قـدم

وهي على حروف الهجاء من الألف إلى الياء وقصيدة أخرى أولها:

لغـي لاغ ولا يصغـي لعـاقـل ... رويـدكـم فمـا سمعـي بقـابـل

وله قصيدة مشهورة بالزيارة أولها:

زيارة أرباب التقى مرهم يبري ... ومفتاح أبواب الهداية والخير

وزاد كاتب هذه النسخة تمام القصيدة وهي[1]:

وتحدث في القلب الخلي إرادة ... وتشرح صدراً ضاق من سعة الوزر

وتنصر مظلوماً وترفع خاملاً ... وتكسب معدوماً وتجبر ذا كسر

وتبسط مقبوضاً وتضحك باكياً ... وترفع بالبر الجزيل وبالأجر

عليك بها فالقوم باحوا بسرها ... وأوصوا بها يا صاح في السر والجهر

فكم خلصت من لجة الإثم فانيا ... فألقته في بحر الإنابة والسر

وكـم مـن بعيـد قـربتـه بجـذبـة ... تفـاجـأه الفتـح المبيـن مـن البـر

وكم من مريد طفرته بمرشد ... حكيم خبير بالبلاء وما يبرى

فـألقـت عليـه حلـة يمنيـة ... مطرزة باليمن والفتح والنصر

فزر وتأدب بعد تصحيح توبة ... تأدب مملوك مع الملك الحر

ولا فرق في أحكامها بين سالك ... مرب ومجذوب وحي وذي قبر

وذي الزهد والعباد فالكل منهم ... عليه ولكن ليست الشمس كالبدر

وزورة رسـل الله خيـر زيـارة ... لهم درجات في المكانة والقدر

وأحمد خير العالمين وخير من ... يأمه عارفون في العسر واليسر

وأمتـه أصحـابـه الغـر خيـرهـم ... وأفضل أصحاب النبي أبو بكر

ويتلوه فاروق أبو حفص الرضى ... على رأي أهل السنة الشهب الزهر

---

(1) لا توجد هذه الزيادة إلا في نسخة السيد واليام مارصي والتعليق لصاحب البستان.

وبالوقف قالوا في الهزير أخي العلا علي وعثمان الشهير أبي عمرو

وقالوا كترتيب الخلافة فضلهم وقد تم نظمي في المزور وفي الزور

علـى أنبيـاء الله منـي ورسلـه أحيهـم أزكـى بـلام عـد الـدر

وقرباه والصحب الكريم وتابع لهم في التقى والبر والبصر والشكر

وذكر لي بعضهم أن له مولديات وإنشادات لا تحصى ولم أقف عليها انتهى من المواهب القدسية في المناقب السنوسية للملالي انتهى[1].

(1) من ضمن من ترجم للشيخ التازي: ابن مريم في البستان، أحمد بن سحنون الراشدي في الثغر الجماني، وابن صعد في روضة النسرين، والنجم الثاقب. والحفناوي في تعريف الخلف، وديدبي في وهران. والمزاري في طلوع سعد السعود، وآخرون.

تراجم بعض علماء معسكر ومنطقتها

أعلام الفكر والثقافة في سهل غريس
ومدينة معسكر

تعتبر مدينة معسكر إحدى قلاع العلم والثقافة، والجهاد في الجزائر، وشيدت في المنطقة التي تدعى بالوطن الراشدي على الحافة الشمالية الغربية لسهل غريس الكبير الذي يحد شرقاً بجبل المناور، وغرباً بجبل كرسوط وشمالاً بقلعة بني راشد، التي كانت تعرف سابقاً بقلعة هوارة، وجنوباً بواد البنيان.

وقد اختلف الرواة في تأريخ تأسيسها: فصاحب روضات الأزهار قال: إنها أسست في القرن الثاني الهجري (8 م) على أيدي راشد بن المرشد القرشي الذي جاء مع إدريس الأكبر، وأخيه سليمان، عندما فروا من المشرق ورحل معهما إلى المغرب الأقصى. وشارح منظومة: بغية الطالب في ذكر الكواكب قال: إنها أسست خلال القرن السابع الهجري (13 م)، على عهد بني زيان أمراء تلمسان. وذلك عندما اتخذ ياغمراسن قبائل الحشم جنوداً له في جيشه وسماهم: الحشم واتخذهم قوة عسكرية فاصلة بينه وبين بني توجين أمراء تيهرت، واختط لهم مدينة لتكون قاعدة عسكرية لهم، وسموها معسكر، وهي أقرب الروايتين إلى الحقيقة.

وبمرور الزمن نمت هذه المدينة وكبرت حتى أصبحت عاصمة لبايليك

الغرب الوهراني في مطلع القرنين 12 هـ و18 م. واتخذها البايات مقراً لحكمهم وأنشأوا بها القلع، والحصون، وشيدوا المدارس العلمية، والمساجد الجامعة، والحمامات، والفنادق، والتكايا، وزاد في أهميتها سهل غريس الخصب، والواسع، الذي يشتمل على أكثر من مائة قرية، وما لا يحصى من الحقول والمزارع والآبار، والأشجار المثمرة، والخضروات، والحبوب، ومن الأبقار الحلوبة، والخيول، والأغنام. ويسكنه ويعمره منذ القديم بنو زروال، وبنو توجين، والمغراويون، وهوارة، وغيرها من القبائل البربرية، والعربية، ذات الحسب والنسب، والشرف، المحبة للعلم، والثقافة، والمتفانية في النضال والجهاد.

وبسبب استقرار البايات الأتراك بهذه المدينة، واتخاذها مقراً لحكم بايليك الغرب الوهراني ابتداء من عهد الباي مصطفى بن يوسف بو شلاغم عام 1701 م. استقطبت هذه المدينة والوطن الراشدي على العموم، عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء. وقادة الجهاد، وكبار المقاومين ضدّ الاحتلال الإسباني لوهران، وبرز بها كتاب، وشعراء، وأئمة في التشريع، ومحدثون، وأدباء، سخروا كل إمكاناتهم الفكرية للحث على الجهاد، من أجل تخليص مدينة وهران، والمرسى الكبير، من الاحتلال الإسباني، وردع المغيرين المعتدين، ولم يتوقفوا حتى تحقق لهم حلمهم الأكبر بعدما يقرب من ثلاثة قرون، وهي فترة طويلة جداً، وصعبة وقاسية حصلت خلالها أحداث جسام، وعانى السكان ما لا يحصى من المشاكل والصعوبات والعراقيل، وألف المثقفون ما عرف بجيش الطلبة الذي كان له الدور الحاسم في تحرير المدينة عام 1792 م.

الزوايا والمعاهد بمنطقة معسكر

أنجبت مدينة معسكر، وسهل غريس، والوطن الراشدي علماء أجلاء وفقهاء ومحدثين، ومقرئين، ومؤرخين، وكتاب السير، والشعراء والرحالة وبرزت عائلات بحالها توارثت العلم، والوظائف العلمية كالقضاء، والإفتاء، والإمامة، والخطابة، والتدريس، ومن ضمنها: عائلة الخروبي، وعائلة

المشارف، وعائلة بن بروكش، وعائلة أبي رأس الناصر، وعائلة ابن التهامي، وعائلة الشيخ مصطفى وابنه محيي الدين المختاري، وعائلة الشرفاء البشيريين بالوادي المبطوح قرب سيق.

واهتمت هذه العائلات بتأسيس الزوايا، ومعاهد العلم والمدارس، للتعليم، والتدريس، والإقراء، والإفتاء، وذكر الشيخ الطيب بن المختار الغريسي في كتابه: «القول الأعم، في بيان أنساب قبائل الحشم». بأن الأشراف والأعيان، بغريس، كان لهم اعتناء كبير بالدين، وتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم الأخرى اللغوية والفقهية، والأدبية، والعقلية الصوفية، وكذلك الرياضيات والفلك، ولهذا كان كل واحد منهم يؤسس لنفسه زاوية لطلبة العلم، ويوظف بها أجلة العلماء، والمدرسين، ليقصدها الطلبة من كل الآفاق.

وعلى هذا كان في الوطن الراشدي من العلماء، والصلحاء، ما لا يعلمه إلا الله حتى قيل إن كل دومة في غريس بولي صالح، وكثرت الرحلة إليه (غريس) وإلى معسكر، لطلب العلم والمعرفة خلال القرون الهجرية الثلاثة: 11 و12 و13 (17 و18 و19 م) وبرزت عدة زوايا، ومدارس، ومعاهد علمية، ودينية منها:

1) زاوية الشيخ محمد السليماني.
2) زاوية الشيخ عبدالله بن عبد الرزاق الإدريسي.
3) زاوية الشيخ محمد المشرفي الإدريسي شيخ الرماسي.
4) زاوية الشيخ عبد القادر بن المختار الإدريسي.
5) زاوية الشيخ الخضير الصنهاجي الإدريسي.
6) زاوية الشيخ محمد بن الأعرج السليماني.
7) زاوية الشيخ محي الدين بن مصطفى الإدريسي.
8) زاوية الشيخ عبد الرحمن المحمودي الإدريسي المدعو دحّو.
9) زاوية الشيخ سحنون بن أحمد الحسني مدرس المدونة.
10) زاوية حفيده الشيخ الهاشمي بن بوشنتوف.

بعض النماذج من علماء معسكر، والبرج، والقلعة

كان لعلماء ومثقفي معسكر، وسهل غريس، والبرج، وقلعة بني راشد دور رائد في النهضة الفكرية والثقافية، وحركة التأليف، والتدريس، والقضاء، والإفتاء، والـوعظ والإرشاد الديني، والثقافي، والاجتماعي، وفي حركة الجهاد ضد النصارى الإسبان في وهران والمرسى الكبير، وضد الفرنسيين بعد ذلك.

ومما يلفت النظر، ويثلج الصدر، ويدعو إلى الفخر والاعتزاز، إن موضوع الجهاد ضد النصارى الإسبان كان يمثل القضية رقم واحد من اهتمامات هؤلاء العلماء والمثقفين، فشاركوا بأنفسهم في حركة الجهاد أفراداً وجماعات وخاضوا المعارك وألفوا الكتب، ونظموا الأشعار، لإلهاب حماس الناس، وحفزهم للمقاومة فكانوا من أكبر المحرضين لهم وللبايات والقواد، والأغوات، والخلفاء، وكونوا رباطاً لهم قرب وهران دعي برباط الطلبة يقيمون به ويشنون الحروب على المحتلين الإسبان. ومن هؤلاء:

أولاً: الشيخ أبو مهدي عيسى بن موسى التوجيني، من بني توجين إحدى بطون زناتة الكبيرة، القاطنين بجبال الونشريس، وهم شعبة من راشد سكان جبال الأطلس التيطراوي. وكانت لهم إمارة بتيهرت على عهد بني زيان. ومن أمرائهم محمد بن عطية التوجيني الذي ساعد السلطان المريني أبا سالم على غزو تلمسان واحتلالها. وقد تفقه أبو مهدي عيسى على العالم الكبير، وشيخ الجماعة بفاس أحمد بن غازي، وعلى تلميذه عبدالله بن عبد الرزاق الغريسي، وعدد آخر من علماء الراشدية، ونظم رجزاً في علماء عصر سماه: «بغية الطالب في ذكر الكواكب». وقد توفي أبو مهدي عيسى بغريس عام 962 هـ (1554 ـ 1555 م) وقام بعده العلامة محمد بن الأعرج الأغريسي صاحب كتاب: «اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب» قام بشرح منظومة بغية الطالب، وسمي شرحه عليها «تسهيل المطالب لبغية الطالب» ونشره الشيخ المفتي بلهاشمي بن بكار ضمن كتابه: النسب والحسب. وتوفي الشيخ ابن

الأعرج بفاس عام 1340 هـ (1921 ـ 1922 م) وكلا الرجلين لهما دور مؤثر في الحياة الفكرية والثقافية بهذه المنطقة.

ثانياً: علماء أسرة المشارف التي تنتسب إلى مشرف (بكسر الراء وفتحها) ابن عبد الرحمن بن مسعود الذي قدم من بوصمغون، وتولى القضاء بغريس لبعض أمراء بني زيان، ويتصل نسبهم بالشرفاء العرصيين في فيقيف بقصر وادي ربغ وجدهم الأعلى هو مشرف ابن غريب الذي ينتهي نسبه إلى إدريس الأكبر كما في شرح عقد الجمان النفيس. ولعبت هذه الأسرة دوراً هاماً في حياة المنطقة ثقافة وجهاداً. وقال صاحب القول الأعم عنها: «ولم تتعد الرئاسة فيما علمناه دار الشيخ المشرفي وأولاده. فإنهم الذين كانوا معتبرين عند الملوك الأتراك وكانت لهم ولاية في خطة الشريعة (خطة القضاء) أيام الأتراك، وأيام ابن عمنا الأمير».

ومن أشهر علماء هذه الأسرة:

أ ـ الشيخ عبد القادر بن عبدالله المشرفي الذي كان يدعى: شيخ الجماعة وإمام الراشدية، ولد ونشأ في قرية الكرط قرب معسكر، وتثقف في المنطقة على علماء عصره ثم عين مدرساً بمعهد الشيخ محي الدين في زاوية القيطنة بوادي الحمام مدة من الزمن. وبعد ذلك أسس لنفسه زاوية ومعهداً علمياً في مسقط رأسه الكرط. وشارك في مقاومة النصارى الإسبان بوهران. وألف رسالة شهر فيها وندد بالقبائل التي تعاونت معهم سماها: «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر» وعدد من تلك القبائل الثمانية وهي: كريشتل وشافع، وحميان، وغمرة، وڤيزة، وأولاد عبدالله، وأولاد علي، والونازرة، وأنهى هذه الرسالة عام 1178 هـ (1764 ـ 1765 م) واشترك بنفسه في الهجوم على وهران وتحريرها التحرير الأول عام 1119 هـ (1708 م) بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم.

وتوفي بمسقط رأسه الكرط يوم الخميس 10 رمضان 1122 هـ (2 أكتوبر 1178 م) ولخص مارسيل بودان هذه الرسالة ونشرها في المجلة الإفريقية عام

1924 م وعرف بهذا التلخيص الضابط بيليكا: Pelecat في مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران في نفس العام. وحققها ونشرها الأستاذ محمد بن عبد الكريم في دار الحياة بلبنان ـ بيروت عام 1972 م.

ب ـ ابنه القاضي الطاهر المشرفي الذي تولى القضاء للأتراك وله عدة مؤلفات ولا نعرف عنه حالياً غير هذا. وكان ابنه أحمد بن الطاهر المشرفي عضواً في مجلس الشورى العالي الأميري للأمير عبد القادر.

جـ ـ حفيده محمد بن عبدالله مصطفى سقاط المشرفي الذي كان إماماً في الفقه والحديث، وتولى وظيفة القضاء للأتراك، ووقع على وثيقة مبايعة الأمير عبد القادر أميراً للجهاد، وولاه الأمير خطة القضاء، وعينه عضواً كذلك في مجلس الشورى العالي الأميري، وأرسله في مهمة ديبلوماسية إلى سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن بن هشام، وحمله سؤالاً إلى مفتي فاس الشيخ التسولي حول موقف الشرع الإسلامي من المتعاونين مع الكفار الأعداء. فسافر يوم 19 ذو الحجة ١٢٥٢ هـ (27 مارس 1837 م) وعاد بالجواب في ربيع الأول 1253 هـ (جوان جويلية 1837 م) واجتمع بالأمير في حصن تازة بين بوغار وثنية الحد جنوب شرف مليانة، حسب رواية الأمير محمد في كتابه تحفة الجزائر جـ 2 ص 206 ـ 208. وأبلغه رغبة السلطان المغربي في إلغاء معاهدة تافنة والعودة إلى الجهاد والمقاومة. أما الشيخ المهدي البوعبدللي فقد ذكر في تعليق له بدليل الحيران بأن عبدالله سقاط مات مسموماً بمكناس ودفن بها، ولعله اختلط عليه الأمر بالبوحميدي الولهاصي الذي قتل مسموماً من طرف السلطان المغربي الذي ذهب إليه مرسولاً من طرف الأمير.

د ـ الحاج عبد القادر بن مصطفى المشرفي ابن عم الأخيرين وقد توفي بمصر عام 1269 هـ (1852 ـ 1853 م) حسب رواية إسماعيل بن عودة المزاري في كتابه طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود. ولا نعرف عنه حالياً غير هذا.

هـ ـ أبو حامد العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي ولد بغريس وتثقف

على علماء عصره حتى أصبح كاتباً، وشاعراً، ثم هاجر إلى فاس بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ووثق صلاته بسلاطين المغرب الأقصى خاصة الحسن الأول الذي كان يصحبه معه في جولاته التفقدية والتأديبية ولذلك خصه بديوان شعر في مدحه. وقد ألّف عدة كتب ودواوين شعرية، ونقد بأسلوب جارح علماء فاس مما يدل على اعتداده بنفسه. وزار الجزائر مرتين: الأولى عام 1848 ـ 1849 م والثانية عام 1877 خلال ذهابه إلى الحج. فكتب عن الجزائر وعلمائها، والمحتلين الفرنسيين، وأحصى له الأستاذ سعدالله ما يقرب من 28 مخطوطة بين طويلة وقصيرة في الشعر والنثر منها: كتاب: ذخيرة الأواخر والأوائل فيما ينتظم من أخبار الدول، ويبدو أنه كان معارضاً ومعادياً للأمير عبد القادر ولذلك ألّف عنه كتاباً أسماه: طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار. توفي الشيخ العربي المشرفي عام 1311 هـ (1893 م) وقيل عام 1313 هـ (1895 م).

ثالثاً: الشيخ محمد المصطفى بن عبدالله بن زرفة الدحاوي من شرفاء غريس، وكان كاتباً للباي محمد بن عثمان، ومساعداً لرئيس رباط إيفري للطلبة قرب وهران وشارك بنفسه في الهجوم الشامل، وتحرير مدينة وهران التحرير الثاني والنهائي عام 1792 م، فكلفه الباي بجمع الحوادث عن هذا الفتح وتسجيلها أول بأول فجمعها في كتاب سماه: «الرحلة القمرية في السيرة المحمدية» وأنهاه عام الفتح نفسه 1206 هـ (1792 م) وكان من ضمن تلاميذ الشيخ العلامة الحافظ أبي راس الناصر المعسكري، وقد لخص هوداس هذه الرحلة القمرية وقدمها في بحث لمؤتمر المستشرقين بالجزائر عام 1905 ونشر هذا البحث في وقائع المستشرقين. ولابن زرفة كتاب آخر سماه: «الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء، والخلفاء» لخصه إرسنت ميرسي، ونشره في مجلة رُكوُيْ القسنطينية عام 1889 م، وموضوعه صحة منح الأمراء والخلفاء أراضي للناس من أجل تعميرها، بعد تحرير وهران، عين ابن زرفة قاضياً بها حتى توفي بوباء الطاعون عام 1215 هـ (1800 ـ 1801 م).

رابعاً: الشيخ أبو راس الناصر المعسكري

وإنتاجه الفكري والأدبي(1)

الشيخ محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعروف بأبي راس الناصر، ولد عام 1150 هـ (1737 م) بقلعة بني راشد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري، وتنقل في صغره بين مسقط رأسه، ومتيجة، وتنس، والمغرب الأقصى. وحفظ القرآن الكريم واستوعب العلوم العربية الإسلامية على علماء وفقهاء عصره، وعلى رأسهم الشيخ عبد القادر المشرفي. ثم تصدى للتدريس والإفتاء في مدينة معسكر زهاء ست وثلاثين عاماً. وتولى مناصب القضاء، والإفتاء، وحج مرتين واشتهر بالحافظ لغزارة علمه، وكتب وألّف في مختلف الأغراض والفنون شعراً ونثراً، وخلف وراءه مائة وستة وثلاثين مخطوطة بين قصيرة وطويلة، بعضها موجود، والبعض مفقود ولم يطبع إلا واحدة أو اثنتان منها، وتوفي يوم 15 شعبان 1238 هـ (17 أبريل 1823 م).

وترجم له عديدون مثل:

ـ د. أبو القاسم سعدالله: «مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي أبو راس الناصري». مجلة تاريخ وحضارة المغرب. عدد 12 (الجزائر ـ 1974). ص 22 وما بعدها. وكذلك في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وكتابه تاريخ الجزائر الثقافي جـ 2.

ـ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جـ 4، (الجزائر ـ 1982).

ـ محمد سي يوسف: دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار

---

(1) نشرنا هذه الترجمة لأبي راس الناصر مع إنتاجه الفكري في المجلة التاريخية المغربية عدد 54 ـ 55 (تونس ـ جويلية 1989) ص 245 ـ 253.

لأبي راس الناصر، مجلة الدراسات التاريخية عدد 2، (الجزائر 1986). ص 134 ـ 155 وآخرون.

وقد وقعت بين أيدينا المخطوطة التي سجل فيها قائمة إنتاجه الفكري وتحمل عنوان: «شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف»، وأتمها قبل وفاته بثلاثة أسابيع فقط، ومن خلال استعراضها يتضح أن أبا راس الناصر كتب وألف في ثمانية عشر علماً وفناً ومادة بعضها بغزارة والبعض بقلة وذلك على الشكل التالي:

في علم التاريخ 34 مخطوطة.
في فن الشعر وشروحه 33 مخطوطة.
في علوم القرآن 12 مخطوطة.
في الفقه 11 مخطوطة.
في التوحيد والتصوف 10 مخطوطة.
في الحديث 8 مخطوطات.
في المذاهب 7 مخطوطات.
في النحو 5 مخطوطات.
في اللغة 3 مخطوطات.
في علم الفلك 3 مخطوطات.
في الأدب 2 مخطوطات.
في الأصول 2 مخطوطات.
في الجغرافية 01 مخطوطة.
في المنطق 01 مخطوطة.
في البيان 01 مخطوطة.
في المعاني 01 مخطوطة.
في البديع 01 مخطوطة.
في العروض 01 مخطوطة.

ولأهمية هذه المخطوطة التي تحوي هذه القائمة نقدمها للقارىء الكريم ليكتشف ويطلع بنفسه على عمق ثقافة هذا الرجل، والتصاقها بمشاكل البلد والعالم الإسلامي والعربي بصفة عامة بحيث لم يترك شاردة ولا واردة لم يكتب فيها، ولم يسجل رأيه، وكان من كبار الداعين والمتحمسين لطرد الإسبان من وهران والمرسى الكبير، ووضع أكثر من خمسة كتب في الموضوع ضمن القائمة. ويبقى بعد ذلك التعرف على مدى أهمية محتوى هذا الإنتاج الغزير ولا يمكن إلا بعد الإطلاع على المخطوطات وفحصها ودراستها.

قائمة بأسماء مؤلفات الشيخ محمد أبي راس

الناصر المعسكري كما سجلها بنفسه

«بسم الله الرحمن الرحيم»[1] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم. وأفاض عليه سره إلى أن أنطقه بأنواع الحكم. وألهمه لجمع التأليف في أنواع كل علم. وأن ذلك لمن التحدث بالنعم. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد العرب والعجم المبعوث لسائر الأمم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وعترته وشيعته وأمته أفضل الأمم.

أما بعد فيقول المقل القاصر محمد أبو راس الناصر. أن التشبث بمن سلف سنة لا بدعة. وأن الملاذ بهم أصل الشيء، وفرعه. وكان من سلف كالسيوطي وغيره عدد ما أنعم الله به عليه من التآليف، والتعاليق والتصانيف فاقتديت بهم في وضع ذلك، وسلكت ما لهم من تلك المسالك، فوضعت هذا المختصر الجليل، والتأليف الفاضل الجميل في ذكر أسماء ما ألفنا، من الكتب وصنفنا وسميته: «شمس معارف التكاليف، في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف». وها أنا أسرد أسماءها بحسب ما رزقت من نصيب، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب:

القرآن:

1 أولهم مجمع البحرين ومطلع البدرين بالتفريد في تفسير القرآن المجيد في أربعة أسفار، في كل سفر خمسة عشر حزباً باشتهار.

2 ثم الإبريز والإكسير في التفسير. في ثلاثة أسفار.

(1) تسلمنا هذه القائمة من طرف الأستاذ طالب عبد الرحمن في وهران بعد ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين أواخر أوت 1987 م، مع عدد من الوثائق حول الشيخ التيجاني بعين ماضي. فله منا كل الشكر والتقدير.

3 ثم الجمع بين الإطناب والإيجاز في شرح الخراز.
4 ثم إغاثة اللهفان في شرح مورد الظمآن، والتكلم مع صاحب عمدة البيان.
5 ثم السيوف القوامع في شرح الدرر اللوامع.
6 ثم إزالة الألغاز على كلام الطراز على الخراز.
7 ثم توضيح المعاني في شرح حرز الأماني، في ثلاثة أسفار.
8 ثم إعانة القدير في شرح النشر والتيسير. في ثلاثة أسفار.
9 ثم تكميل التبيان في ضبط الجواهر الحسان، في سفرين.
10 ثم تذييل الإتقان في أحكام القرآن.
11 ثم فتح المنان في ترتيب نزول القرآن.
12 ثم سرّ الرحمن في جمع القرآن. وسبب جمعه على هذا المنوال.

الحديث:

13 الآيات البينات في شرح دلائل الخيرات.
14 مفاتح الجنة وأسناها في الأحاديث التي اختلف في معناها.
15 ثم السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى.
16 ثم النور الساري في شرح صحيح البخاري، في ستة أسفار.
17 ثم السيل الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري، في أربعة أسفار.
18 ثم مختصر المعلم في شرح مسلم. في ثلاثة أسفار.
19 ثم مناعم الشفا. في ثلاثة أسفار.
20 ثم نزهة الفضائل في شرح الشمائل.

الفقه:

21 درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخراشي. في أربعة أسفار.
22 ثم الأحكام الجوازل في نبذ من النوازل.
23 ثم العقود الجوهرية في النوازل المعسكرية.
24 ثم النظم العجيب في الفروع التي قل فيها النص مع كثرة الوقوع.
25 ثم الأقوال الحليمة في نظم شروط الوليمة.
26 ثم الكوكب الدري في الرد بالجدري.

27 ثم سند ما رواه الواعون في أخبار الطاعون.
28 ثم النبذة المنيفة في ترتيب فقه الإمام أبي حنيفة.
29 ثم ذيل المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك.
30 ثم عقد الجوهر النفيس في ترتيب فقه الإمام محمد بن إدريس.
31 ثم القول الأكمل في ترتيب فقه الإمام أحمد بن حنبل.

النحو:

32 الدرة اليتيمة التي لا يبلغ لها قيمة إلا وفيه على الماكودي على الألفية. حاشية كبرى.
33 ثم النكت الأوفية في شرح المكودي على الألفية، حاشية صغرى.
34 ثم بغية المرتاد في كلا شيء وجئت بلا زاد.
35 ثم عمدة الزاد في إعراب كلا شيء وجئت بلا زاد.
36 ثم نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة.

المذاهب:

37 رحمة الأمة في اختلاف الأئمة.
38 ثم تنشيف الأسماع في مسائل الإجماع.
39 ثم جزيل المواهب في اختلاف الأربعة مذاهب.
40 ثم قاضي الأوهاد في مقدمة الاجتهاد.
41 ثم الأنوار المسطعة في جمع المذاهب الأربعة.
42 ثم اللؤلؤ المنتشر في المذاهب الثماني عشر[1].

---

(1) وهم:
1 مذهب ابن عباس.
2 ومذهب ابن عمر.
3 ومذهب عائشة.
4 ومذهب عطاء.
5 ومذهب مجاهد.
6 ومذهب الشعبي.
7 ومذهب عمر بن عبد العزيز.

43 ثم فتح الوهاب في الفرق بين مقدمة العلم ومقدمة الكتاب.

التوحيد والتصوف:

44 الزهر الأكم في شرح الحكم.

45 ثم فتح الإله في التوصل إلى حكم ابن عطاء الله.

46 ثم الكتاب الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى.

47 ثم كفاية المعتقد ونكاية المنتقد. على شرح الكبرى.

48 ثم إيضاح الغميس لشرح العقد النفيس في ذكر الأعيان من أهل غريس.

49 ثم أساس البنيان لشرح الجمان للشيخ عبد الرحمان.

50 ثم كشف النقاب ورفع الحجاب على ترتيب حروف الهجاء للسان الدولة.

51 ثم التشوف إلى مذهب التصوف.

52 ثم القول الأنفع في مناقب الأئمة الأربع.

53 ثم الفتح القدوسي في شرح كبرى السنوسي.

اللغة:

54 ضياء القابوس على كتاب القاموس.

55 ثم الضابط المختصر من الأزهري على قواعد القاموس والجوهري.

56 ثم رفع الأثمان في لغة الولائم الثمان.

---

8 ومذهب الشورى.
9 ومذهب ابن عيينة.
10 ومذهب الليث.
11 ومذهب ابن راهوية.
12 ومذهب داود الظاهري.
13 ومذهب الأوزاعي.
14 ومذهب ابن جرير.
15 ومذهب أبي حنيفة.
16 ومذهب مالك.
17 ومذهب أحمد بن حنبل.
18 ومذهب الشافعي. (تعليق من المؤلف نفسه في الحاشية).

البيان:

57 كتاب نيل الأماني على مختصر سعد الدين التفتزاني.

المعاني:

58 كتاب الجوهر اليماني في توضيح ما صعب من علم المعاني.

البديع:

59 عقد الدرر السطيع في تبيين أنواع العلم البديع.

المنطق:

60 القول المسلّم في شرح السلم.

الأصول:

61 السيف المحلي على شرح المحلي.

62 ثم القول الجامع في شرح جمع الجوامع.

العروض:

63 مشكوة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. على الخزرجية.

التاريخ:

64 زهرة الشماريخ في علم التاريخ.

65 ثم المنا والسول من أول الخليقة إلى بعثة الرسول.

66 ثم نصرة الرحمان في أخبار الجان. كتحف أدر ومرجان.

67 ثم تحفة الأخوان في بيان أرهاط وقبائل الجان.

58 ثم درء السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.

69 ثم درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة.

70 ثم المعالم الدالة على الفرق الضالة.

71 ثم الوسائل إلى معرفة القبائل.

72 ثم الحلل السندسية فيما جرى بوهران والعدوة الأندلسية. إن شئت قلت نفيس الجمان فيما جرى بالأندلس ووهران.

73 ثم القصص المغرب والخبر المعرب عن الحال المغرب بما وقع في الأندلس وثغور المغرب.
74 ثم غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس للمسلمين مع الكفار.
75 ثم عجائب الأخبار في لطائف الأسفار عما جرى بوهران والأندلس للمسلمين مع الكفار.
76 ثم عجائب الأسفار ولطائف الأخبار فيما جرى بالأندلس ووهران بين المسلمين والكفار.
77 ثم روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان في أخبار الأندلس ووهران.
78 ثم نباهة القمر من أنباء العمر بأنباء ملوك ورؤساء ومن أحسن منهم ومن أساء.
79 ثم ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.
80 ثم الزهرة الوردية في الملوك السعدية.
81 ثم مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب[1].
82 ثم الخبر المعلوم من كل من اخترع نوعاً من أنواع العلوم.
83 ثم المسلك المروم في أخبار الترك والروم.
84 ثم تحفة النفسا في ملوك إفرانسا.
85 ثم أقوال التأسيس عما وقع أو سيقع من الفرانسيس.
86 ثم نور الاقتباس في ذكر ملوك كل جنس من الأجناس.
87 ثم فتح الرحمن في شرف بني زيان وذكر فروعهم إلى هذا الزمان.
88 ثم العز المتين في ذكر ملوك بني مرين.
89 ثم فتح الجواد في الفرق بين آل زيان وآل عبد الواد وذكر ملوكهم الأطواد.
90 ثم لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان.
91 ثم الزهرة السماوية في أخبار الملوك العلاوية.

---

(1) وهذا الكتاب هو الذي ضيعوه (كذا) أولاد سيدي دحّ (كذا) على ما قيل هـ. ط.

92 ثم النور الأثقب في طبقات العرب.
93 ثم القصص العماتة في ذكر البربر وزناتة.
94 ثم القول الأسرب في أخبار أصول وفروع العرب.
95 ثم الكلام الفشاش في أخبار سائر المدن والقرى والأعراش.
96 ثم إزالة الصمم في الفرق بين العرب والعجم.
97 ثم النقل الواضح المشهور من بدىء الخليقة إلى النفخ في الصور.

النجم (علم النجوم):

98 إزالة الحلك في إبطال صوم من يأخذ برأي أهل الفلك.
99 ثم القول السعيد في شرح مقنع ابن سعيد.
100 ثم قبس الأنوار في شرح روضة الأزهار.

الجغرافية:

101 الجوهر والعرض في وصف السماء والأرض.

الأدب:

102 النزهة الأميرية في شرح المقامات الحريرية. شرح صغير.
103 ثم الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية. شرح كبير.

القصائد:

104 البشائر والأسعاد في شرح بانت سعاد. لأمية كعب بن زهير الصحابي.
105 ثم نيل الأرب في شرح لامية العرب للشنفري الفاتك.
106 ثم إزالة الوجم عن قصيدة لامية العجم.
107 ثم الوصيد في شرح لامية سلوانية الصيد.
108 ثم الدرة الأنيقة في شرح العقيقة. شرح أول.
109 ثم طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي. شرح ثاني.
110 ثم فتح الإله في شرح عقيقة ابن عبدالله. شرح ثالث.
111 ثم السعي الرابح السعيد في شرح عقيقة الشيخ سعيد. شرح رابع.
112 ثم الحلة السعيدة في شرح القصيدة السعيدية. شرح خامس.

113 ثم الجمان في شرح قصيدة أبي عثمان. شرح سادس.
114 ثم نزهة الحبيب على نظم الأديب الحسيب الجامع بين المدح والتشبيب والتنسيب. شرح سابع.
115 ثم الأنوار الجليلية في شرح القصيدة الخليلية.
116 ثم الكلام المحكي في شرح لامية امرؤ القيس قفا نبك.
117 ثم قنص الصيد في شرح مقصورة ابن دريد.
118 ثم الرياض المرضية في شرح الغوثية.
119 ثم العناصر الأمليسية في شرح البدور الغريسية.
120 ثم القول الماطي في شرح لامية الذمياطي (كذا).
121 ثم النور الحراق في شرح رجز الأوفاق.
122 ثم جمع الموارد في شرح ما مدحت به من القصائد.
123 ثم الجواهر الأصفية في معرفة العوالم العلوية والسفلية. على لامية رافع راس الأندلس.
124 ثم درء كل عسير إلى معرفة السيميا والكيميا والإكسير، على لامية ابن راشد.
125 ثم منحة الوهاب في ذهابي وما وقع لي بمكة مع الوهابي.
126 ثم القول المكفى في شرف ومناقب شيخنا المشرفي.
127 ثم منح الباري فيما وقع لي في أسفاري.
128 ثم تعجيل الأوبة وملء الغيبة في رحلتي لمكة وطيبة. وهذا الاسم قد سبقت به.
129 ثم حلتي ونحلتي في تعدد رحلتي.
130 ثم الفوائد المخبتة في الأجوبة المسكتة.
131 ثم لبّ فياضي في عدة أشياخي.
132 ثم فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربّي ونعمته.
133 ثم نزول الرحمة الكاملة في التحديث بالنعمة الشاملة، وقد سبقت بهذا الاسم.

134 ثم انصباب رحمة الله في انعقاد ديوان أهل الله.

135 ثم نبذة الزهر وأكمامه في بدء أمري واختتامه.

136 ثم شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف.

وهو آخر تآليفنا. ولو أطال الله عمرنا لزدنا.

وكان تمامه يوم الاثنين ثاني عشرين رجب الفرد الأصم الحرام من عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف من هجرة من له كل نعت جميل ووصف[1] بمنه آمين. ولا أرضى بواحدة حتى أقول ألف ألف.

انتهى بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تلك هي قائمة مخطوطات الشيخ أبي راس الناصر المعسكري كما سجلها بنفسه، ولا ندري هل النسخة التي وصلت إلينا أصلية أم منقولة، ولو أننا نميل إلى الرأي الثاني لأن أرقام المخطوطات فيها عربية وليست هندية، والشائع في القرن الثامن عشر لدى المثقفين هو استعمال الأرقام الهندية. وهناك كلام حول مخطوطة رقم 85: أقوال التأسيس عمّا وقع أو سيقع من الفرانسيس بأنها ليست من تأليف الشيخ أبي راس، الذي توفي قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر بثماني سنوات. وهو رأي الشيخ المهدي البوعبدللي. وسنعود للموضوع في مناسبة أخرى إن شاء الله.

وهران حي الصادقية — د. يحيى بو عزيز

25 ذو القعدة 1408 هـ — جامعة وهران

السبت 9 جويلية 1988 م — (الجزائر)

خامساً: الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي، جد الأمير عبد القادر الذي درس وتفقه في غريس، وأخذ الطريقة القادرية على الشيخ عبد القادر بن عبدالله المشرفي، ثم حج وزار بغداد، وجدد أخذ الطريقة، ولبس الخرقة هناك على مقدم الشيخ عبد القادر، الجيلاني، وتبرع من ماله الخاص لتوسيع ضريح الشيخ الذي أصبح يعرف بزيادة الشيخ مصطفى المغربي، وعندما عاد أسس قرية القيطنة،

---

(1) الموافق 4 أبريل 1823.

وزاويته ومعهده بوادي الحمام عام 1206 هـ (1791 ـ 1792 م) وتصدى للتعليم والتدريس، وإعطاء وِرْدِ الطريقة، ووظف في زاويته علماء أجلاء أمثال شيخه عبد القادر المشرفي، وكان من بين تلاميذه ومريدي طريقته باي وهران المصلح والمجاهد محمد بن عثمان الكبير الذي لم يكن يرد له طلباً. وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة، وتبحر في العلوم العربية والفقهية، وفي علم التصوف والحكمة حتى قال فيه صاحب القول الأعم: «فهو فيها البحر الذي لا يعرف له ساحل، ولا يبلغ إلى أدناه متطاول». ونظم حتى الأشعار والمدائح مثل مدحه للشيخ الهاشمي بن علي بن شنتوف. وخلال عودته من حجته الرابعة أدركته الوفاة في برقة الليبية عام 1212 هـ (1797 ـ 1798 م) فدفن بعين غزالة قرب درنة وما يزال قبره معروفاً حتى اليوم، وخلفه من بعده ابنه محي الدين.

سادسا: الشيخ محي الدين بن مصطفى والد الأمير عبد القادر، ولد بوادي الحمام عام 1190 هـ (1776 ـ 1777 م) ودرس على أبيه، وورث عنه مشيخة الزاوية، وكثر عليه طلاب العلم والمعرفة ومريدوا الطريقة، والتصوف، واشتهر بالصلاح. وسداد الرأي، وغزارة العلم والمعرفة، وبمقاومته لسياسة الظلم والقسوة ولذلك وشى به بعض خصومه إلى الباي حسن بن موسى بوهران، وأشاروا عليه بنقله إلى هناك ليكون تحت رقابته الفعلية، فرحله مع ابنه عبد القادر عام 1236 هـ (1821 م) وبقي هناك حتى عام 1241 هـ (1825 م)، وسلاه تلميذه الشيخ السنوسي بن عبد القادر الحسني الراشدي بقصيدة شعرية قال فيها:

عول على الصبر لا تفزعك أشجان	ولا ترعك بما فاجتك وهران
أما هي الدار لا تؤمن غوائلها	بلى هي الدار أغيار وأحزان
شبت على الغدر لم تعطف على أحد	إلا ومن غدرها صد وهجران
ما أنت أول من أدهت وآخرهم	ولا بأوسط من خانته هجران
أنظر إلى يوسف الصديق كم لبثت	في السجن ذاته ما وافته خلان
وانظر إلى ابن رسول الله ثم إلى	هلم جرّاً وما لاقاه عثمان
تلك العوائد أجراها على قدر	مدبر الأمر مهما شاء ديان

لم يثقفوك أمحي الدين عن زلل رأوا ولكـــن أغوى القوم شيطان
فعن قريب أكيد الصبر يخذل من من أجله قد عدا عليك سلطان
ويكظم الغيظ من خصم ومن حكم ويكشف الغيب عن أفعال من خانوا
بل لا عليك وإن ساءت ظنونهم سيهزم الجمع أو ينفض ديوان
أن العـواقـب فـي القـرآن ثـابتـة للمتقيـن وصـدق القـول قـرآن
وأنت ما زلت تهدينا إلى سنن تهدي إلى الحق لم يثنيك طغيان
تقرى الضيوف وتسعى في حوائجهم وتحمـل الكـل لا غـش ولا ران
من يستجر بك يا من إن عداه عدت تحمي الذمار ويرجى منك إحسان
جفيت ليلك لم تألف مضاجعه ويومك الدهر جوعان وعطشان
تبيت جنح الدجا تتلو المفصل عن قلب وتصبح مثل البدر تزدان
تـدرس العلـم أحيـانـاً وآونـة تلقـن الـذكـر فـالظمـآن ريـان
والله أســـأل أن أراك منطلقـــاً تسعى ومـا لـك حـراس وأعـوان
ومنـه أرغـب أن ألقـاك معتـد لا كالحال قبل وقد أمتك ركبان
ثـم الصــلاة علـى النبـي وآلــه والصحـب طـرًا مـا نمـا إيمـان

وعندما تأكد الباي حسن من بطلان الوشاية، رفع الرقابة عليه فشد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، صحبة ابنه عبد القادر براً إلى تونس وبحراً إلى مصر والحجاز. واستغرقت رحلته عامين اثنين حج فيها مرتين وزار معظم عواصم المشرق الإسلامي: مكة والمدينة، وبغداد، ودمشق، وبيت المقدس، وجدّد في بغداد أخذ الطريقة القادرية ولبس الخرقة، مع مقدم الضريح، ثم قفل راجعاً إلى البلاد براً عبر مصر، وبرقة أين زار قبر جده الشيخ مصطفى في عين غزالة، ثم واصل رحلة العودة عبر طرابلس وتونس، والكاف، والجزائر ووصل إلى القيطنة أوائل عام 1243 هـ (1828 م). وعندما احتل الفرنسيون الجزائر ووهران، يوم 4 جانفي 1831 م، تزعم حركة المقاومة، ورشح ابنه عبد القادر أميراً للجهاد، وبويع أواخر عام 1832، وتوفي هو عام 1249 هـ (1833 م) فخلفه ابنه محمد السعيد في رئاسة الزاوية بالقيطنة، وابنه عبد القادر في حركة الجهاد والمقاومة.

سابعاً: الشيخ أحمد بن التهامي الذي تزوج عمة الأمير عبد القادر، وكان عالماً وفقيهاً، وذا جاه عريض، ولقبه صاحب القول الأعم بشيخ الجماعة. وعينه الأمير عبد القادر رئيساً لمجلس الشورى العالي الأميري، مما يدل على سعة علمه وثقافته، وعلى فهمه للقضايا السياسية لأن المنصب الذي أسند إليه بمثابة رئيس الوزراء. وحسب رواية ابنه مصطفى فإنه توفي بمصر خلال ذهابه إلى الحج أثناء ثورة الأمير عبد القادر.

ثامناً: الشيخ مصطفى بن أحمد التهامي الذي كان مثل أبيه عالماً وأديباً، وعارفاً بعلم السير والأنساب، عينه الأمير كاتباً له، ورئيساً لديوان الإنشاء ثم خليفة له على مدينة وولاية معسكر. وتولى قيادة الجيش الأمير في عدة جهات من الوطن بالمدية، والجلفة، وبوسعادة، والمسيلة، ومجانة، وسطيف، وعين تاغروط، وبسكرة وخاض معارك كثيرة في التل والصحراء، والهضاب العليا، وعاش كل أحداث الأمير عبد القادر إلى أن استسلم ونفي معه إلى فرنسا، وكلفه الأمير في قصر امبواز بتأليف كتاب عن نشأته، وجهاده، استجابة لمن طلب منه ذلك فألفه، وهاجر معه بعد ذلك إلى تركيا، وبلاد الشلام، ونظم هناك غوثية في التوسل بدأها بقوله:

لما جرى القدر بالخلاف ... ووقع الخلف بالائتلاف
ووجب الوحش بقعر اليم ... والحق النقص ببدر التم

إلى أن قال:

قلت منادياً نداء القرب ... مقترباً إن جاز وعد الرب

وتقع في 522 بيتاً قدمناها للطبع مع كتابه: سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، ولا ندري متى وأين توفي كما لم نعرف متى ولد.

تاسعاً: علماء أسرة ابن الخروبي بقلعة بني راشد الذين توارثوا وظيفة القضاء على عهد الأتراك، والأمير عبد القادر. فالشيخ محمد الخروبي تولى القضاء للباي عثمان بن محمد الكبير (1800 ـ 1801 م) ووظيفة الأنيس له كذلك. ووقف إلى جانبه الشيخ الطيب بن الفريح حينما وشى به بعض

خصومه. وتولى الشيخ محمد الجيلالي الخروبي القضاء للأمير عبد القادر، وهاجر معه إلى الشام وتوفي هناك.

عاشراً: الشيخ محمد بن علي أڤوجيل، الكاتب والشاعر، ينحدر من أسرة علمية بنواحي البرج شرق معسكر، توارث القضاء على عهد الأتراك، والفرنسيين وألف ابن أڤوجيل هذا كتاباً أسماه: عقد الجمان اللامع من قعر البحر الجامع». ونظم شعراً حث فيه الباشا حسين خوجة الشريف (1705 ـ 1707 م) على محاربة الإسبان بوهران، والاعتناء بالعلماء ومشاورتهم في الأمور والقضايا فقال في الجهاد:

ولتلتفت نحو الجهاد بقوة والكفر أقطع أصله بذكور
جهز جيوشك كالأسود وسرحن تلك الجواري في عباب بحور
اضرم علي الكفار نار الحرب لا تقلع ولا تمهلهم بفتور
وبقربنا وهران ضرس مؤلم سهل اقتلاع في اعتناء يسير
كم قد أذت من مسلمين وكم سبت منهم بقهر أسيرة وأسير

وقال عن العلماء:

شاور ذوي علم ودين ناصح ودع الغواة وكل ذي تنوير
فالعلم ميراث النبوة ناله قوم لهم حظ من التنوير
إني نصحتك والنصيحة ديننا فاقبل ولم ينصحك دون خبير

حادي عشر: الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون اراشدي، الذي كان ملازماً للباي مصطفى بن يوسف بوشلاغم، وحضر معه الهجوم الكاسح على وهران وتحريرها التحرير الأول عام 1119 هـ (1708 م) واشترك معه في كل خطوات الفتح وسجل الأحداث نظماً، ثم شرح ذلك النظم نثراً في كتابه: «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني». حكى فيه بالتفصيل قصة الفتح، وسجل حياة الباي وتاريخ أسلافه، وعمران مدينة معسكر، ومآثرها، ودور العلماء في الجهاد ورباطهم بإيفري بوهران، وأورد في هذا الكتاب معلومات كثيرة، سياسية، واقتصادية واجتماعية، وأدبية، وعسكرية، وتاريخية، وثقافية،

وحقق الشيخ المهدي البوعبدللي هذا الكتاب ونشرته وزارة الشؤون الدينية عام 1973 م.

ثاني عشر: الشيخ ابن المختار، الغريسي. ودرس على عميه: الشيخ محي الدين، والشيخ على ابن أبي طالب، بزاوية القيطنة، ثم انتقل إلى تلمسان ليتوسع أكثر وبعد ذلك عاد إلى القيطنة للدتريس، والتعليم، والإقراء، ولا نعلم عنه أكثر من هذا.

ثالث عشر: ابنه الشيخ الطيب بن المختار الغريسي، ابن عم الأمير عبد القادر، وكان عالماً فاضلاً، وألف كتاب: «القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم». وقال شعراً في مدح الأمير عبد القادر بدأه بقوله:

أكـل خليـل لا يـدوم لـه عهـد أم انفردت في حل ما عقدت هند
أراها استحالت حالها وتنكرت معـارفهـا والطـرف عنـي مـرتـد

فأجابه الأمير شعراً كذلك وقال:

أمـا والـذي تعنـو لهيبتـه الـورى وجـلّ اعتـزاز أن يكـون لـه نـدّ
لأنتم وإن شط المزار بشخصكم أود من القربى وأدنى إذا عدّو
فكم من بعيد الدار نال مراده وكم من قريب الدار ما ناله ودّ
ألا فلتطـب نفسـاً بطيـب ودادنـا فـإن ربـاط الـودّ تـالله مشتـدّ

وقد توفي الشيخ الطيب حوالي عام 1320 هـ (1903 م).

رابع عشر: الشيخ أحمد العشماوي ثم المكي الذي ألّف كتاب: «السلسلة الوافية والياقوتة الصافية». فـي الأنساب المطهرة من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عهده. وتفضل الشيخ بلهاشمي بن بكار، فنشره مع كتاب القول الأعم ضمن كتابه: النسب والحسب، عام 1961 م. ولا ندري حالياً عن الشيخ العشماوي أكثر من هذا.

خامس عشر: الشيخ محمد بن يوسف الزياني الذي ينحدر من أسرة علمية ومخزنية بمدينة برج عياش التي عرفت فيما بعد ببرج المخفي وأخيراً البرج شرق مدينة معسكر، وكان عمه أحمد بن يوسف الزياني مستشاراً، ونصوحاً للباي

إبراهيم الملياني بتلمسان، ومعسكر عام 1170 هـ (1756 ـ 1757 م). وقد تولى محمد بن يوسف خطة القضاء للفرنسيين في مدينة البرج عام 1861 ثم نقل إلى وادي تليلات قرب وهران عام 1883 م، وأخيراً إلى مدينة سيف، وكان ما يزال حياً عام 1230 هـ (1902 ـ 1903 م) حسبما ذكر ذلك الشيخ المهدي البوعبدللي استناداً إلى مراسلة بينه وبين مفتي وهران علي بن عبد الرحمن بنفس التاريخ، وقد ألّف الزياني كتاباً عن تاريخ وهران سماه: «دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران» تحدث فيه عن تاريخ المدينة عبر مراحلها، والدول التي حكمتها، وعلمائها، وأوليائها وتوقف عند الاحتلال الفرنسي، وحققه المرحوم الشيخ المهدي البوعبدللي ونشرته المكتبة الوطنية بالجزائر عام 1978 م.

سادس عشر: الشيخ بن عبدالله بن عبد القادر بن أحمد بن علي صاحب الشهرة الواسعة بسهل غريس، تنقل بين بلاده وسيراط قرب وهران، وعمي موسى، ووادي الشلف، وحصل على تفوق علمي كبير، وأخذ علم التصوف على الشيخ عدة بن غلام الله في تيارت، ثم أسس لنفسه زاوية بمعسكر للتعليم، والتدريس والذكر، نالت سمعة في المنطقة، ونظم قصائد في التصوف، وتوفي ليلة الاثنين 10 ربيع الأول 1313 هـ (أوت 1895 م) وخلفه ابنه عبد القادر حتى توفي عام 1923 فخلفه ابن أخيه عدة، ثم أخوه الحاج المختار، ثم الشيخ بو شنتوف.

سابع عشر: الشيخ الحاج عبد القادر بن مصطفى بن فريحة الذي أسس معهد للتعليم في منزله، وتصدى للتعليم بنفسه، وسخر ماله للإنفاق على الطلبة الوافدين مدة ثلاثين عاماً، ثم نقل معهده إلى مدينة تغنيف شرق مدينة معسكر وتصى للتعليم والتدريس فيه وفي الجامع الأعظم بالمدينة عشرين سنة أخرى حتى توفي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري (1931 ـ 1932 م) ودفن بالجامع الأعظم نفسه حيث معهده، وقيل إنه تخرج على أيديه أربعمائة فقيه في الشريعة وأصول الدين. وخلفه ابنه الحاج محي الدين، وكان من ضمن تلاميذه الشيخ بخالد بن كابو صاحب المعهد العلمي بمدينة سيدي بلعباس.

ثامن عشر: وأخيراً نختم هذه القائمة بالشيخ بلهاشمي بن بكار مفتي مدينة معسكر، الذي تعلم وتفقه في نفس المدينة، وأخذ الطريقة الشاذلية الوزانية على الشيخ عبد السلام الوزاني بطنجة وعلى أخيه الشيخ الطيب بن العربي، والحاج التهامي، وتصدى للتعليم والتدريس في مسجد سيدي علي الشريف بمعسكر عشر سنين، وفي زاوية سيدي بن عبدالله عامين، وفي الجامع الأعظم عشر سنين، وهو الذي أدخل عليه إصلاحات وتوسيعات كثيرة. فزاد في مساحة قاعة الصلاة ما يقرب من الثلث، وتوى منصب شيخ الجماعة الدينية الإسلامية بمعسكر ودائرتها خمسة عشر عاماً والإشراف على شؤون المساجد بها عشرين عاماً هذا إلى جانب منصب المفتي.

وألف مجموعة من الكتب منها:

أ) رفع الإشكال والمرا في حكم غرس العنب وبيعه لمن يعصر خمراً.

ب) بلوغ الأمل في أدلة ما جرى به العمل.

ج) عبرة الناضر في تاريخ الجزائر.

د) كتاب حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة. في فضائل أهل البيت وأولياء الله وأذكار الكتاب والسنة.

هـ) كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب.

وقد جمع في هذا الأخير: كتاب حاشية رياض النزعة له، وكتاب السلسلة الوافية للعشماوي، وكتاب القول الأعم للطيب بن المختار، وكتاب شرح منظومة بغية الطالب لابن الأعرج ونشرها جميعاً عام 1381 هـ (1961 م).

وتوفي الشيخ ابن بكار أواخر عقد الستينات وكان قد زارنا إلى منزلنا بوهران في حدود عام 1964 مبعوثاً من طرف الأخ مسعودي محمد مدير مؤسسة المطبوعات الوطنية الذي أحال علينا كتابه التاريخي للتقييم ولم نشعره بذلك. وكان مسناً كثيراً رحمه الله تعلى وغفر لنا وله، وأكرم مثواه.

إن هذه القائمة الصغيرة من العلماء والفقهاء والأدباء والرحالة، والكتاب، والمؤرخين، تؤكد أن مدينة معسكر، وسهل غريس، وقلعة بني راشد، وبرج

عياش، شاركتا مشاركة فعالة في المسيرة الثقافية الواسعة، والمستمرة، لهذه البلاد المجاهدة، وأرسى علماؤها ومثقفوها تقاليد أصيلة للثقافة العربية الإسلامية المتفتحة وقدمت جهوداً وعطاءات فكرية عاملة ومتنوعة وثرية ورفيعة المستوى، كانت في مستوى طموحات الأجيال وتاريخ البلاد العريق، وواقع البلاد العربية الإسلامية، وتمثل اليوم رصيداً هائلاً للانطلاقة الفكرية والثقافية من جديد التي يخوضها شعبنا الجزائري المؤمن والمسلم والمجاهد الطموح.

بعض المراجع ذات الصلة بالموضوع

1) ابهلول (أبو علي بن الحسن بن علي المجاجي): العقد النفيس في بيان علماء وشرفاء غريس (مخطوط في بداية القرن 11 هـ وأواخر القرن 16 م).

2) الأفراني أو اليفريني (محمد الصغير):

أ - صفوة من انتشر في أخبار القرن الحادي عشر م. خ. ع. الرباط د 671.

ب - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ترجمه هوداس إلى الفرنسية عام 1888 م (منشورات أرنست لورروكس).

3) الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق محدم المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى. 3 أجزاء (تونس 1971، 1972، 1973 م).

4) ابن أبي أصبيعة (أحمد الخزرجي): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (بيروت، دار الحياة 1965 م).

5) بدوي (عبد الرحمن): مؤلفات ابن خلدون، (القاهرة 1962 م).

6) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف): كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها. 2 أجـ (مدريد 1882 ـ 1883 م) (القاهرة ـ 1962 م).

7) بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة فارس (نبيه أمية)، والبعلبكي (منير) ط 2 (بيروت 1974 م).

8) بوعزيز (يحيى):

أ ـ ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها. مجلة الأصالة، أعداد: 75، 76، 77، 78، (الجزائر نوفمبر، ديسمبر 1979، جانفي، فيفري 1980) ص 113 ـ 144.

ب ـ جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، الأصالة، عدد 19 (الجزائر 7 مارس، أبريل 1974 م) ص 287 ـ 301.
ج ـ أعلام الفكر والثقافة بمدينة تلمسان، (مخطوط).
د ـ مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (الجزائر د.م.ج 1991 م).
هـ ـ مركز بجاية الحضاري، ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا. مجلة الحضارة الإسلامية العدد الأول. (وهران 1414 هـ/ 1993 م) ص 1 ـ 19.
9) التميمي (محمد بن أحمد): كتاب طبقات علماء إفريقيا (الجزائر 1332 هـ/ 1914 م).
10) التنبكتي، (أحمد بابا): نيل الابتهاج، بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة/ 1351/ 1932 م).
11) التنسي (محمد بن عبد الجليل): نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان (مخطوط).
12) التيجاني (أبو زيد عبد الرحمن): عقد الجمان، النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس (مخطوط) وهو رجز شرحه تلميذه محمد الجوزي بعنوان: فتح الرحمن في شرح عقد الجمان.
13) الجيلالي (عبد الرحمن): تاريخ الجزائر العام (الجزائر 1988) ط 2 4 أجـ.
14) ابن حجر العسقلاني، (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ط 1 (حيدر أباد 1448 هـ) ط 2 تحقيق محمد عبد الحق القاهرة ـ 1966 م).
15) حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (اصطنبول 1951 ـ 1943 م) 2 أجـ. (طهران 1967 م/ 1387 هـ).
16) ابن حواء (الشيخ محمد): سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان (مخطوط).
17) الحميري (أبو عبدالله محمد): الروض المعطار، (القاهرة ـ 1938 م).
18) ابن خلكان (شمس الدين): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة ـ 1938م) 6 أجـ، ط2 تحقيق إحسان عباس (بيروت 1971).
19) الخشني (أبو عبدالله محمد): قضاة قرطبة وعلماء إفريقيا (القاهرة 1372 ـ الجزائر 1914 م).

20) ابن خلدون (عبد الرحمان):
أ ـ كتاب العبر، جـ 7 (بيروت 1971 م).
ب ـ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً تحقيق وتعليق ابن تاويت (محمد الطنجي) (القاهرة 1951 م).
21) ابن خلدون (يحيى): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر ألفريد بل. 2 أجـ، (الجزائر، ج 1، 19041 جـ 2 ١٩١٣ م) ط 2 ج 1 تعريب وتحقيق عبد الحميد حاجيات (الجزائر 1980 م).
22) ابن أبي دينار (محمد القيراوني): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس تحقيق محمد شماخ (تونس 1967 م).
23) الزركشي (محمد بن إبراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط 2 تحقيق محمد ماخور (تونس 1966 م).
24) الزركلي (خير الدين): الأعلام (القاهرة 1954 ـ 1955 م) 10 أجزاء.
25) ابن الزيات (يوسف التادلي): التشوف إلى معرفة رجال التصوف نشر أدولف فور (الرباط 1958 م).
26) الزياني (محمد بن يوسف): دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. تقديم وتعليق المهدي البوعبدللي (الجزائر 1978 م).
27) السخاوي ؛محمد): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة 1354 ـ 1355 هـ) 12 أجـ. ط 2 (بيروت بدون تاريخ) 12 جـ.
28) سعد الله (د. أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، 2 أجـ (الجزائر 1982 م).
29) ابن صعد (التلمساني) روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين (مخطوط) عندنا حققناه وقدمناه للطبع، بدار الغرب الإسلامي.
30) أبو العرب (محمد القيرواني): طبقات علماء إفريقيا وتونس، تحقيق علي الشابي، وزميله (تونس 1968 م).
31) عثمان (محمد عبدالله): ابن خلدون حياته وتراثه الفكري (القاهرة ـ 1938 م).
32) الغبريني (أبو العباس أحمد): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر 1971 م).
33) ابن عسكر (محمد): دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (الرباط، 1397 هـ ـ 1977 م).

34) ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (القاهرة ـ 1954 م) 2 أجـ. ط 2 (1966 م).
35) فيشل (والتر): لقاء ابن خلدون لتيمورلنك، ترجمة توفيق (محمد) (بيروت بدون تاريخ).
36) القادر (محمد بن الطيب):
أ ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. (فاس 1310 هـ 1892 م).
ب ـ مستودع المواعظ والعبر في أخبار أعيان أهل المائة الحادية والثانية عشر (مخطوط).
37) ابن القاضي (أحمد الفاسي): جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس (فاس 1309 هـ).
38) ابن قنفذ (أحمد الخطيب القسنطيني):
أ ـ الوفيات: تحقيق هنري بيريز ـ الجزائر بدون تاريخ) ط 2، تحقيق عادل نويهض (بيروت 1971 م).
ب ـ أنس الفقير وعز الحقير. تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور. (الرباط ـ 1965 م).
39) محمد (الأمير): تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (الإسكندرية 1903 م) 2 أجـ.
40) المحبي (محمد) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر القاهرة ـ (1284 هـ/ 1867 م).
41) ابن مريم (محمد المليتي): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحقيق ابن أبي شنب (الجزائر 1908 م).
42) ابن مرزوق (محمد الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق فيغيرا (د. ماريا خيسوس) (الجزائر 1981 م).
43) المزاري (بن عودة إسماعيل): طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنهاالأسود. تحقيق بوعزيز (د. يحيى) 2 أجـ. (بيروت 1990 م).
44) ابن محرز الوهراني (محمد): منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. تحقيق إبراهيم شعلان، ومحمد نغش (القاهرة 1968 م).
45) المقري (أحمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان

الدين بن الخطيب تحقيق وتعليق إحسان عباس (بيروت 1968 م) 8 أجـ.

46) المغيلي (محمد بن عبد الكريم): أسئلة الأسقياء وأجوبة المغيلي، تحقيق وتقديم د. عبد القادر زيادية (الجزائر 1974 م).

47) الهواري (محمد بن عمر): السهو والتنبيه للفقراء أهل الفضل النبيه، (مخطوط).

48) الورتلاني (الحسين): نزهة لأنظار في فضل التاريخ والأخبار، المعروفة بالرحلة الورتلانية، تحيق محمد بن أبي شنب (الجزائر 1920 م).

المجلات:

مجلة الأصالة: (1971 ـ 1981 م).

مجلة الثقافة (1971 ـ 1989 م).

المجلة التاريخية المغربية (1974 ـ 1991 م).

مجلة المقتبس (1906 ـ 1908 م).

دوائر المعارف:

دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة الفرنسية 3 مجلدات.

دائرة معارف القرن العشرين، 10 أجزاء.

دور المحفوظات:

الأرشيف الوطني التونسي، الوزارة الأولى (ملفات المشبوه فيهم).

الفهـارس العامـة

أ ـ فهرس الأعلام

ب ـ فهرس الأماكن

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرس محتوى الكتاب



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون البناية : 340131 تلفون مباشر : 350331 ص . ب . 5787-113 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم 1995/10/1000/281

التنضيد : كومبيوتايب في التنضيد الإلكتروني

الطباعة : دار صادر ، ص . ب . 10 - بيروت

Bouazīz Yaḥia

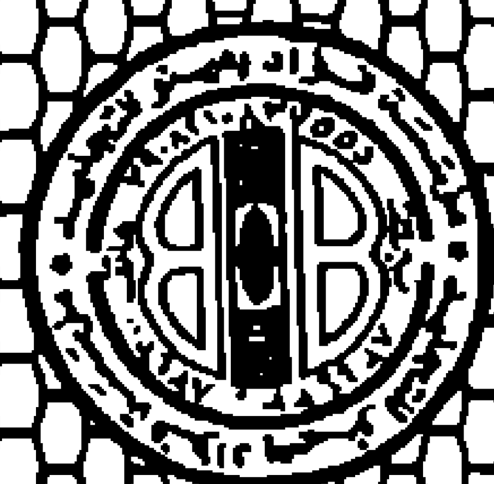
ʾAʿLĀM AL-FIKR

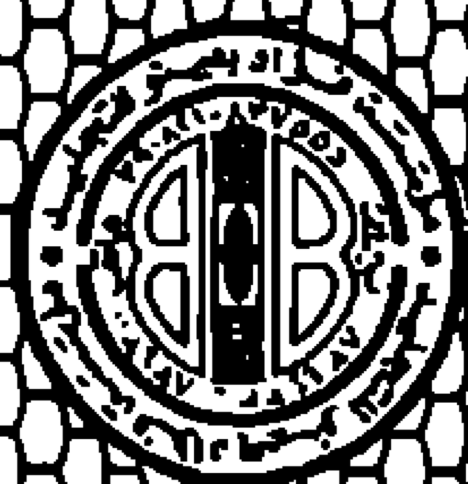
(Personnalités de la pensée et de la culture algériennes)

Volume II



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
1995



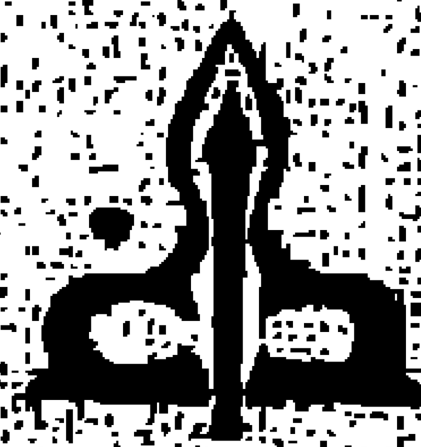


Bouaziz Yaḥia

ʾAʿLĀM AL-FIKR

(Personnalités de la pensée et de la culture algériennes)

Volume II



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI